

الشيخ فاضل

بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى



تأليف

العلامة القاضى أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبي

(٤٧٦ - ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م)

دار ابن حزم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن خزيمة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - صرّيت: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

الشِّفَا

بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو عيَّاض بن موسى بن عيَّاض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته.

ولد في مدينة سبتة بالأندلس سنة ٤٧٦هـ. وتربى في أحضان أسرة عربية أصيلة، فنشأ على الصلاح والتقوى، معرضاً عن اللهو، شغوفاً بالعلم، محباً للجهاد، حافظاً لكتاب الله تعالى أكثر من تلاوته.

وكان أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي القضاء بسبتة، ثم قضاء غرناطة فكان قاضياً عادلاً، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان إماماً بارعاً، متفتناً في علم الحديث، والفقه، واللغة والنحو، وعاصر دولتي المرابطين والموحدين.

من تصانيفه:

- «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» - وهو كتابنا هذا ..
- «الغنية» وهو في ذكر مشيخته.
- «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك.
- «شرح صحيح مسلم».
- «مشارك الأنوار»، وهو في الحديث.
- «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» وهو في مصطلح الحديث.

- وكتاب في «التاريخ».

- «المقيدة».

- «مطامح الأفهام في شرح الأحكام». وغيرهم كثير.
توفي رحمه الله بمراكش سنة ٥٤٤هـ مسموماً؛ قيل: ستمه يهودي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه أتوكل

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل: عِيَاضُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضٍ
الِيخْضَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَفَرِّدِ بِاسْمِهِ الْأَسْمَى، الْمُخْتَصِرِ
بِالْمُلْكِ الْأَعَزِّ الْأَحْمَى، الَّذِي لَيْسَ ذُوْنُهُ مُتَّهَى، وَلَا وِرَاءَهُ مَزْمَى، الظَّاهِرِ لَا تَحِيلًا
وَوَهْمًا، وَالْبَاطِنِ تَقْدُسًا لَا عُدْمًا، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَسْبَغَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ
نِعَمًا عُمًّا، وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، أَنْفَسَهُمْ غُزِيًّا وَعُجْمًا، وَأَرْكَاهُمْ مَخْتِدًا
وَمُتَمِّيًا، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَجِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعَزْمًا،
وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَافَةً وَرُحْمًا، وَزَكَّاهُ رُوحًا وَجِسْمًا، وَحَاشَاةً عَيْنًا وَوَضْمًا؛ وَأَنَاهُ
حِكْمَةً وَحُكْمًا، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَقَلُوبًا غُلْفًا، وَأَذَانًا صُمًّا؛ فَأَمَّنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ،
وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْمًا، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آيَاتِهِ مَنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْيُنٌ﴾ [الإسراء: ٧٢]
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً تَنْمُو وَتَنْمَى، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ: أَشْرَقَ اللَّهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ، وَلَطَفَ لِي وَلَكَ بِمَا لَطَفَ بِهِ
لَأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ شَرَّفَهُمُ اللَّهُ بِثُرُلِ قُدْسِهِ، وَأَوْحَشَهُمُ مِنَ الْخَلِيقَةِ بِأَنْبِيِهِ،
وَخَصَّهُمُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَشَاهِدَةِ عَجَائِبِ مَلَكُوتِهِ، وَأَثَارِ قُدْرَتِهِ بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ حَبِيرَةً،
وَوَلَّاهُ عَقُولَهُمْ فِي عَظَمَتِهِ حَبِيرَةً؛ فَجَعَلُوا هَمَّهُمْ بِهِ وَاحِدًا، وَلَمْ يَرَوْا فِي الدَّارَيْنِ
غَيْرَهُ مُشَاهِدًا؛ فَهُمْ بِمَشَاهِدَةِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ يَتَنَعَّمُونَ، وَبَيْنَ أَثَارِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ
عَظَمَتِهِ يَتَرَدَّدُونَ، وَبِالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ يَتَعَزَّزُونَ، لَهْجَيْنِ بِصَادِقِ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ
اللَّهُ ثُمَّ دَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإنك كررت عليّ السؤال في مجموع يتضمّن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حُكْم مَنْ لم يُوفَّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلاماً ظُفر؛ وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينّه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم - رحمك الله - أنك حملتني من ذلك أمراً إمرأ، وأرهقتني فيما ندبنتني إليه عُسراً، وأرقبتني بما كلفتني مُرتقى صَغْباً، ملا قلبي رُعباً؛ فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول، وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من عِلْم الحقائق، مما يَجِبُ للنبي ﷺ ويضاف إليه، أو يمتنع، أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرّسالة والنبوة، والمحبة والخلة، وخصائص هذه الدرجة العلية، وما هنا مهامه فيح تحار فيها القطا، وتَقْصُر بها الخطا؛ ومَجَاهِلُ تَضِلُّ فيها الأحلام - إن لم تهتد بعلم عِلْم، ونظرٍ سديد - ومَدَاحِضُ تَزَلُّ بها الأقدام، إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأيد.

لكني لما رَجَوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نَوَالٍ وثواب، بتعريف قدره الجسيم، وخُلُقِه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يُدَانُ الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق ﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آثَرُوا إِيَّانَا﴾ [المدثر: ٣١] المدثر ولما أخذ الله تعالى على الذين أوثوا الكتاب لِيُشِيتَهُ للناس ولا يكتُمونه.

١ - ولما حدثنا به أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه - رحمه الله - بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عُمَرَ الثُمَرِيُّ، حدثنا أبو محمد بن عبدالمؤمن، حدثنا أبو بكر: محمد بن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حمّاد، أخبرنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [أبو داود (٣٦٥٨)، الترمذي (٢٦٤٩)، ابن ماجه (٢٦١)].

فَبَادَرْتُ إِلَى نُكَيْتِ مُسْفِرَةٍ عَنْ وَجْهِ الْغَرَضِ، مُؤْذِيّاً مِنْ ذَلِكَ الْحَقِّ الْمُفْتَرَضِ، اخْتَلَسْتُهَا عَلَى اسْتِعْجَالٍ، لما المرء بصَدِّهِ مِنْ شُغْلِ الْبَدَنِ وَالْبَالِ، بما طَوَّقَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَقَالِيدِ الْمِخْنَةِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا، فَكَادَتْ تَشْغُلُ عَنْ كُلِّ فَرْضٍ وَتَقْلُ، وترد بعد جِصْنِ التَّقْوِيمِ إِلَى أَسْفَلِ سَفْلٍ؛ ولو أراد الله بالإنسان خيراً لجعل شُغْلَهُ وَهْمَهُ كُلَّهُ، فيما يُخَمِّدُ غداً أو يُذَمُّ مَحَلُّهُ؛ فليس ثمَّ سِوَى خُضْرَةِ النَّعِيمِ، أو

عذاب الجحيم، ولكان عليه بِخَوِصَّتِيهِ، واستنقاذ مُهْجَتِهِ، وعَمِلِ صالحٍ يستزيده،
وعِلْمُ نافعٍ يفيده، أو يستفيدُهُ.

جَبَر اللهُ صَدْعَ قُلُوبِنَا، وَغَفَرَ عَظِيمَ ذُنُوبِنَا، وجعل جميع استعدادنا لِمَعَادِنَا،
وتوفَّرَ دَوَاعِينَا فيما يُنْجِينَا، وَيُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ تَعَالَى زُلْفَى، وَيُحْظِنَا بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ.
ولما نَوَيْتُ تَقَرُّبِيهِ، وَدَرَجَتُ تَبَوُّيَهُ، وَمَهَّدْتُ تَأْصِيلَهُ، وَخَلَّصْتُ تَفْصِيلَهُ،
وَاتَّخِذْتُ حَضْرَهُ وَتَحْصِيلَهُ، تَرَجَّمْتُ بِهِ (الشُّفَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى) وَحَصَرْتُ
الكلام فيه في أقسام أربعة:

القسم الأول: في تعظيم العليِّ الأعلى لِقَدْرِ هذا النبي ﷺ قولاً وفِعْلاً،
وَتَوَجُّهَ الكلام فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تَعَالَى عليه، وإظهاره عَظِيمَ قَدْرِهِ لديه؛ وفيه عَشْرَةُ
فصول.

الباب الثاني: في تكميله تَعَالَى لَهُ المحاسِنَ، خَلْقاً وَخُلُقاً، وَقِرَانِهِ جميعَ
الفضائل الدينية والدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقاً؛ وفيه سبعةٌ وعشرون فصلاً.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعَظِيمِ قَدْرِهِ عند ربه
وَمُنْزَلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدارين مِنْ كَرَامَتِهِ؛ وفيه اثنا عشر فصلاً.

الباب الرابع: فيما أظهره الله تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ،
وَشَرَفَهُ بِهِ مِنَ الْخِصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ؛ وفيه ثلاثون فصلاً.

القسم الثاني: فيما يجب عَلَى الْأَنَامِ مِنْ حَقُوقِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَتَرْتَّبُ الْقَوْلُ
فِيهِ فِي أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ:

الباب الأول: فِي فَرَضِ الْإِيمَانِ بِهِ وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ؛ وفيه خمسة
فصول.

الباب الثاني: فِي لَزُومِ مَحَبَّتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ؛ وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: فِي تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَلَزُومِ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ؛ وفيه سبعة فصول.

الباب الرابع: فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ، وَفَرَضِ ذَلِكَ، وَفَضِيلَتِهِ؛ وفيه
عشرة فصول.

القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه، وما يجوزُ عليه شرعاً، وما يمتنع
وَيَصِحُّ مِنَ الْأُمُورِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ.

وهذا القسم - أكرمك الله - هو سِرُّ الْكِتَابِ، وَلِبَابُ ثَمَرَةِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ، وَمَا
قَبْلَهُ لَهُ كَالْقَوَاعِدِ، وَالتَّمْهِيدَاتِ وَالِدَّلَائِلِ عَلَى مَا تُورِدُهُ فِيهِ مِنَ الثُّبُوتِ الْبَيِّنَاتِ، وَهُوَ

الحاكم على ما بعده، والمُنَجِّزُ مِنْ غَرَضِ هَذَا التَّأْلِيفِ وَغَدَهُ، وَعِنْدَ التَّقْصِي
لموعِدته، والتَّقْصِي عَنْ عَهْدته، يَشْرُقُ صَدْرُ الْعَدُوِّ اللَّعِينِ، وَيَشْرُقُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ
بِالْيَقِينِ، وَتَمَلُّأُ أَنْوَارُهُ جَوَانِحَ صَدْرِهِ، وَيَقْدُرُ الْعَاقِلُ النَّبِيُّ حَقَّ قَدْرِهِ. وَيَتَحَرَّرُ
الْكَلَامُ فِيهِ فِي بَابَيْنِ:

الباب الأول: فيما يختص بالأُمُور الدِّينِيَّة، وَيَتَشَبَّثُ بِهِ الْقَوْلُ فِي الْعَصْمَةِ
وَفِيهِ سِتَّةُ عَشَرَ فُضْلاً.

الباب الثاني: فِي أَحْوَالِهِ الدِّنْيَوِيَّة، وَمَا يَجُوزُ طُرُؤُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ
الْبَشَرِيَّة؛ وَفِيهِ تِسْعَةُ فُصُولٍ.

القسم الرابع: فِي تَصَرُّفِ وَجْهِهِ الْأَحْكَامِ عَلَى مَنْ تَنَقَّصَهُ أَوْ سَبَّهُ عَلَيْهِ
السَّلَامَ، وَيَنْقَسِمُ الْكَلَامُ فِيهِ فِي بَابَيْنِ:

الباب الأول: فِي بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ سَبٌّ وَتَقْصُصٌ؛ مِنْ تَعْرِيزِ، أَوْ نَصٍّ؛
وَفِيهِ عَشْرَةُ فُصُولٍ.

الباب الثاني: فِي حُكْمِ شَانِهِ وَمُؤْذِيهِ وَمُنْتَقِصِهِ، وَعَقُوبَتِهِ، وَذِكْرِ اسْتِنَابَتِهِ،
وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَوَرَاثَتِهِ؛ وَفِيهِ عَشْرَةُ فُصُولٍ.

وختمناه بباب ثالث جعلناه تكملة لهذه المسألة ووضلة للباينين اللذين قبله
في حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبِهِ؛ وَآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ.

وَأَخْتَصَرَ الْكَلَامَ فِيهِ فِي خَمْسَةِ فُصُولٍ، وَبِتَمَامِهَا يَنْتَجِزُ الْكِتَابُ، وَتَتِمُّ الْأَقْسَامُ
وَالْأَبْوَابُ، وَيَلُوحُ فِي غُرَّةِ الْإِيمَانِ لُحْمَةٌ مَنِيرَةٌ، وَفِي تَاجِ التَّرَاجِمِ ذُرَّةٌ خَطِيرَةٌ،
تُزِيحُ كُلَّ لَبْسٍ، وَتُوضِحُ كُلَّ تَخْمِينٍ وَخُذْسٍ، وَيُشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُضَدِّعُ
بِالْحَقِّ، وَيَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ؛ وَبِاللَّهِ تَعَالَى - لَا إِلَهَ سِوَاهُ - أَسْتَغْنِي.




القسم الأول

فِي تَعْظِيمِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى لِقَدْرِ هَذَا النَّبِيِّ
الْمُصْطَفَى قَوْلًا وَفِعْلًا

قال الفقيه القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله:

لا خفاء على مَنْ مارس شَيْئاً من الْعِلْمِ، أو خُصَّ بأذْنِي لِمِحَّةٍ مِنْ فُهِمٍ، بتعظيم الله تعالى قَدْرَ نَبِيِّنا عليه الصلاة والسلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضب لزمان، وتنويه مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ بما تَكَلُّ عَنْهُ الْأَلْسِنَةُ والأقلام.

فمنها: ما صُرِّحَ به تعالى في كتابه، ونَبَّهَ به على جَلِيلِ نصابه، وأُنشِئَ به عليه من أخلاقه وآدابه، وحصَّ العبادَ على التزامه، وتَقَلَّدَ إيجابه؛ فكان - جَلُّ جلاله - هو الذي تَفَضَّلَ وأوَّلَى، ثم طَهَّرَ وَزَكَّى، ثم مَدَحَ بذلك وأثنى، ثم أَثَابَ عليه الجزاء الأَوْفَى، فله الفضلُ بَدْءاً وَعَوْداً، وله الحمد أَوَّلَى وأخْرى.

ومنها: ما أُنْزِلَ لِلْعِيَانِ مِنْ خَلْقِهِ على أتمِّ وجوه الكمال والجلال، وتَخَصُّصِهِ بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة؛ وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البيِّنة التي شَاهَدَهَا مَنْ عاصَرَهُ، ورآها من أذْرَكَه، وَعَلِمَهَا عِلْمٌ يَقِينٌ من جاء بعده، حتى انتهى عِلْمُ حَقِيقَةِ ذَلِكَ إلينا، وفاضَتْ أنواره علينا،  كثيراً.

٢ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله - قراءةً مِنِّي عليه؛ قال: حدثنا أبو الحسين: المبارك بن عبد الجبار، وأبو الفضل: أحمد بن خَيْرُون؛ قالوا: حدثنا أبو يَحْيَى البغدادي؛ قال: حدثنا أبو علي السُّنْجِي؛ قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب؛ قال: حدثنا أبو عيسى بن سَوْرَةَ

الحافظ؛ قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن
قَتَادَةَ، عن أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، مُلْجِماً مُسْرِجاً،
فَاسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: أَيُّحَمْدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِيكَ أَحَدٌ أَكْرَمُ
عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ. قَالَ: فَارْقُضْ عَرَقًا. [الترمذي (٣١٣١)، أحمد (١٦٤/٣)].



الباب الأول

فِي ثَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ
وَإِظْهَارِهِ عَظِيمِ قَدْرِهِ لَدَيْهِ

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحةً بجميل ذكر المصطفى،
وعُدَّ محاسنه، وتعظيم أمره، وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبأن
فخواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول.

الفصل الأول

فيما جاء من ذلك مَجِيءَ المَدْحِ والثناء وتعداد المحاسن؛ كقوله تعالى:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال السمرقندي: وقرأ بعضهم: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ - بفتح الفاء. وقراءة
الجمهور بالضم.

قال القاضي الإمام أبو الفضل - رحمه الله -: أعلّم الله تعالى المؤمنين، أو
العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، على اختلاف المفسرين: من المواجه
بهذا الخطاب أنه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه،
ويعلمون صدقه وأمانته؛ فلا يتهمون بالكذب، وتترك النصيحة لهم، لكونه منهم،
وأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة.

٣ - وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْوَدَّ﴾ [الشورى: ٢٣] [البخاري (٤٨١٨)، الترمذي (٣٢٥١)] وكونه من أشرفهم، وأزفعهم،

وأفضلهم، على قراءة الفتح؛ وهذه نهاية المدح؛ ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة؛ من جزئه على هدايتهم، ورشدهم، وإسلامهم، وشدة ما يُعَتُّهم، ويضُرُّ بهم في دنياهم وأخراهم، وعزَّته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيه. قال بعضهم: أعطاه اسمَين من أسمائه: رؤوف، رحيم.

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُكُوعَكُمْ وَعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

٤ - وزوي عن علي بن أبي طالب، عنه - صلوات الله عليه - في قوله تعالى: ﴿يَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: «تسباً وصهراً وحسباً؛ ليس في آبائي من لذن آدم سيفاح، كلنا نكاح».

قال ابن الكلبي: كتبت للنبي ﷺ خمس مئة أم، فما جذت فيهن سيفاحاً ولا شيئاً مما كان عليه الجاهلية.

٥ - وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّكُ فِي السَّجْدِ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبي إلى نبي، حتى أخرجك نبياً.

وقال جعفر بن محمد: عَلِمَ اللَّهُ عَجَزَ خَلْقِهِ عن طاعته، فعرفهم ذلك؛ لكي يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لا يتألون الصفو من خدمته؛ فأقام بينهم وبينه مخلوقاً من جنسهم في الصورة، وألبسه من نَعْيَةِ الرَّأْفَةِ والرحمة، وأخرجَهُ إِلَى الْخَلْقِ سَفِيرًا صادقاً، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال أبو بكر بن طاهر: رَزِنَ اللَّهُ تعالى محمداً ﷺ بزينه الرحمة؛ فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق؛ فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب؛ ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فكانت حياته رحمة، ومماته رحمة.

٦ - كما قال عليه السلام: «حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ».

٧ - وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً بَأَمَةٍ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجَعَلَهَا قَرْطاً وَسَلَفًا» [مسلم (٢٢٨٨)]. وقال السَّمَرَقَنْدِيُّ رحمه الله: «رَحْمَةُ الْعَالَمِينَ»: يعني للإنس والجن.

وقيل: لجميع الخلق؛ للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رحمة للمؤمنين وللكافرين؛ إذ عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة.

٨ - وحكي أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: «نعم؛ كنت أخشى العاقبة فأمثت لإناء الله عز وجل علي بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٦٧﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾» [التكوير: ٢٠، ٢١].

وروي عن جعفر بن محمد الصادق في قوله تعالى: ﴿مَسَلْنَاهُ لَكَ مِنْ أَحْسَنِ الَّتِي﴾ [الواقعة: ٩١] أي بك؛ إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْفَ تَكُونُ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال كعب، وابن جبير: المراد بالنور الثاني - هنا - محمد عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ أي: نور محمد ﷺ.

وقال سهل بن عبد الله: المعنى: الله هادي أهل السموات والأرض؛ ثم قال: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفحتها كذا؛ وأراد بالمصباح: قلبه، وبالزجاجة صدره؛ أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: من نور إبراهيم. وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي: تكاد نبوة محمد ﷺ تبين للناس قبل كلامه كهذا الزيت.

وقد قيل في هذه الآية غير هذا. والله أعلم. وقد سماه تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نوراً، وسراجاً منيراً؛ فقال

تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النُّورُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنيه وسراجاً منيراً (٤٦) ﴿[الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) وَوَضَعْنَا عَنَّا وَزَرَكَ (٢) أَلَيْسَ أَتَقْصُ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ [الشرح].

شَرَحَ: وَسَّعَ. والمراد بالصُّدْر هنا: القلب. قال ابن عباس: شرحه بالإسلام.

وقال سَهْلٌ: بنور الرسالة.

وقال الحسن: مَلَأَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

وقيل: معناه ألم نُطهر قلبك حتى لا يؤذيك الرسواس؟

﴿وَوَضَعْنَا عَنَّا وَزَرَكَ (٢) أَلَيْسَ أَتَقْصُ ظَهْرَكَ (٣)﴾ قيل: ما سلف من ذَنْبِكَ، يعني: قبل النبوة.

وقيل: أراد يُقَلَّ أيام الجاهلية.

وقيل: أراد ما أثقل ظَهْرَهُ من الرسالة حتى بلغها. حكاه الماوردي والسلمي.

وقيل: عَصَمْنَاكَ، ولولا ذلك لَأَثَقَلَتِ الذُّنُوبُ ظَهْرَكَ؛ حكاه السمرقندي.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ قال يحيى بن آدم: بالنبوة وقيل: إذا ذُكِرَتْ ذُكِرْتَ معي، قَوْلٌ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقيل: في الأذان.

قال الفقيه القاضي أبو الفضل رحمه الله: هذا تقريرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ لِنَبِيِّهِ عليه السلام على عَظِيمِ نِعْمَةٍ لَدَيْهِ، وَشَرِيفِ مَثَرَتِهِ عِنْدَهُ، وَكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ؛ بَأَن شَرَحَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ وَالْهَدَايَةِ، وَوَسَّعَهُ لِرُغْوِي الْعِلْمِ، وَحَمَلِ الْحِكْمَةِ، وَرَفَعَ عَنْهُ ثِقَلَ أُمُورِ الْجَاهِلِيَةِ عَلَيْهِ، وَبَغْضَهُ لِسَيَرِهَا، وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِظُهُورِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَخَطَأَ عَنْهُ عَهْدَةُ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ لِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَتَنْوِيهِهِ بِعَظِيمِ مَكَانِهِ، وَجَلِيلِ رُتْبَتِهِ، وَرَفَعَهُ ذِكْرَهُ، وَقَرَّانَهُ مَعَ اسْمِهِ اسْمَهُ.

قال قتادة: رفع الله ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مَشْهُدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

٩ - وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ

السلام، فقال: إِنْ رَبِّي وَرَبُّكَ يَقُولُ: تَذَرِي كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَكَلَمَ. قَالَ: إِذَا ذُكِرْتَ ذُكِرْتُ مَعِي».

قال ابن عطاء: جعلتُ تمام الإيمان بِذِكْرِي معك.

وقال أيضاً: جعلتُكَ ذكراً من ذكري، فَمَنْ ذَكَرَكَ ذَكَرَنِي.

وقال جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ: لَا يَذْكُرُكَ أَحَدٌ بِالرَّسَالَةِ إِلَّا ذَكَرَنِي بِالرَّبوبِيَّةِ.

وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة.

وَمِنْ ذَكَرَهُ مَعَهُ تَعَالَى أَنْ قَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ وَاسْمَهُ بِاسْمِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿أَلْبِعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. و ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٧]؛

فجمع بينهما بواو العطف المُشْرَكَةِ.

ولا يجوز جَمْعُ هذا الكلام في غير حقه عليه السلام.

١٠ - حدثنا الشيخ أبو علي: الحسين بن محمد الجبائي الحافظ فيما

أجازنيه، وقرأته على الثقة عنه؛ قال: حدثنا أبو عُمَرَ الثَّمَرِيُّ؛ قال: حدثنا أبو

محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود السَّجَزِيُّ، حدثنا

أبو الوليد الطَّيَالِسِيُّ، حدثنا شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن

حَدِيقَةَ، عن النبي ﷺ: قَالَ: «لَا يَقُولُنَّ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فَلَانٍ، وَلَكِنْ مَا

شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فَلَانٌ» [أبو داود (٤٩٨٠)، أحمد (٣٨٤/٥)].

قال الخطابي. أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على

مشيئة مَنْ سِوَاهُ، واختارها بـ «ثم» التي هي للنسق والتراخي، بخلاف «الواو» التي

هي للاشتراك.

١١ - ومثله الحديث الآخر: إِنْ خَطِيباً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ

يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «بَشِّرْ خَطِيبُ

الْقَوْمِ أَنْتَ! قُمْ» أَوْ قَالَ: «اذْهَبْ» [أبو داود (٤٩٨١)، النسائي (٩٠/٦)]. قَالَ أَبُو

سليمان: كَرَّةٌ مِنْهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَسْمَيْنِ بِخَرْفِ الْكِنَايَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْوِيَةِ.

وذهب غَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَهُ لَهُ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِهِمَا».

١٢ - وقول أبي سليمان أَصَحُّ؛ لِمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ:

«وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى» [مسلم (٨٧٠)]، وَلَمْ يَذْكُرِ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِهِمَا».

وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؛ هَلْ «يُصَلُّونَ» رَاجِعَةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْمَلَائِكَةِ

أَمْ لَا؟

فأجازهُ بعضُهُم، وَمَنَعَهُ آخَرُونَ، لِعِلَّةِ التَّشْرِيكِ، وَخَصُّوا الضَّمِيرَ بِالْمَلَائِكَةِ؛ وَقَدَّرُوا الْآيَةَ: إِنَّ اللَّهَ يُصَلِّي، وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ.

١٣ - وقد روي عن عُمر رضي الله عنه أنه قال: مَنْ فَضَّلْتَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ طَاعَتَكَ طَاعَتَهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَنْ يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].
وقد قال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

١٤ - وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَرِيدُ أَنْ نَتَّخِذَهُ خَنَانًا كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى عِيسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] فَفَرَّقَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ رَغْمًا لَهُمْ.

١٤م - وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تَعَالَى فِي أَمِّ الْكِتَابِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ② [الفاتحة: ٦، ٧] فقال أبو العالية، والحسن البصري: ﴿الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَخِيَارُ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَصْحَابِهِ؛ حَكَاهُ عَنْهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْمَاوِزِدِيُّ، وَحَكَى مَكِّي عَنْهُمَا نَحْوَهُ؛ وَقَالَ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَاهُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَحَكَى أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ مِثْلَهُ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنُ؛ فَقَالَ: صَدَقَ وَاللَّهِ! وَنُصِّحَ.

وَحَكَى الْمَاوِزِدِيُّ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ.

وَحَكَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، عَنْ بَعْضِهِمْ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أَنَّهُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقِيلَ: الْإِسْلَامُ.

وَقِيلَ: شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ.

وَقَالَ سَهْلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] قَالَ: نِعْمَتُهُ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ③ لَمَّا نَا بِشَأْنِهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ④ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ⑤ [الزمر: ٣٣، ٣٤].

أَكْثَرُ الْمَفْسِرِينَ عَلَى أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ .

وقال بعضهم: وهو الذي صدق به .

وقرىء: صدق، بالتخفيف .

وقال غيرهم: الذي صدق به المؤمنون .

وقيل: أبو بكر. وقيل: علي. وقيل غير هذا من الأقوال .

١٥ - وعن مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَنْصُرُ اللَّهُ قَوْمَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْقُلُوبَ﴾

[الرعد: ٢٨] قال: بمحمد ﷺ وأصحابه .

الفصل الثاني

فِي وَضْعِهِ لَهُ تَعَالَى بِالشَّهَادَةِ

وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الثَّنَاءِ وَالْكَرَامَةِ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ١٥ وداعياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤١﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] .

جمع الله تعالى في هذه الآية ضروباً من رُتَبِ الأثرية، وَجُمَلَةِ أوصافِ المُنْذِرَةِ؛ فجمعله شَهِيداً عَلَى أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ بِإِبْلَاغِهِمُ الرِّسَالَةَ؛ وَهِيَ مِنْ خِصَائِصِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُبَشِّراً لِأَهْلِ طَاعَتِهِ؛ وَنَذِيرَ لَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، وَدَاعِياً إِلَى تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ؛ وَسِرَاجاً مُنِيرًا يُهْتَدَى بِهِ لِلْحَقِّ .

١٦ - حَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَتَّابٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ الْمَرْزُوقِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا الْبَخَارِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَيْنَانَ، حَدَّثَنَا قُلَيْبُ بْنُ حَالَلٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍوَ بْنَ الْعَاصِ، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهُ! إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي الثُّرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ١٥ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِزْزاً لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيْتُكَ الْمَتَوَكَّلُ، لَيْسَ بَقَطْ، وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا ضَخَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسِّنَةِ السِّنَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَنْقُضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنَّ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا غُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا. [البخاري (٢١٢٥)].

١٧ - وَذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ [البخاري (٢١٢٥)] .

١٨ - وَكَفِبِ الْأَحْبَارِ [أحمد (١٧٤/٢)].

١٩ - وفي بعض طُرُقِهِ عن ابن إسحاق: ولا صَخِبَ في الأسواق، ولا مُتَرَتِّينَ بالفُحْشِ، ولا قَوَالَ لِلْحَنَاءِ؛ أَسَدُّهُ لكل جميل، وَأَهَبَ له كُلَّ خلقِ كريم، وأَجْعَلَ السَكِينَةَ لِبَاسِهِ، والْبِرَّ شِعَارَهُ، والثَّقْوَى ضَمِيرَهُ، والحِكْمَةَ مَغْفُولَهُ، والصدقَ والوفاءَ طَبِيعَتَهُ، والعِفْوَ والمعروفَ خُلُقَهُ، والعَدْلَ سِيرَتَهُ، والحقَّ شَرِيعَتَهُ، والهدى إِمَامَتَهُ، والإسلامَ مِلَّتَهُ، وأَحَمَدَ اسْمَهُ، أَهْدَى به بعد الضلالة، وأَعْلَمَ به بعد الجهالة، وأَرْفَعَ به بعد الخَمَالَةِ، وَأَسْمَى به بعد الثُّكْرَةِ، وَأَكْثَرَ به بعد القِلَّةِ، وَأَغْنَى به بعد العَيْلَةِ، وأَجْمَعَ به بعد الفُرْقَةِ، وَأَوَّلَفَ به بَيْنَ قُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَهْوَأَ مَشْتَتَةً، وَأَمَمَ مُتَفَرِّقَةً، وأَجْعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

٢٠ - وفي حديث آخر: أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن صِفَتِهِ فِي الثَّوْرَةِ: «عَبْدِي أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ، مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجِرُهُ بِالْمَدِينَةِ - أَوْ قَالَ: طَبِيبَةُ - أُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الثَّوَرَةِ وَالْإِنْبِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ قُلْ يَتَّيْبَهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الَّذِي يُوَفِّي بِاللَّهِ وَكَفَلَنَاهُ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال السَّمَرْقَنْدِيُّ: ذَكَرَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ، رُؤُوفًا لِبَنِي الْجَانِبِ، وَلَوْ كَانَ فَظًّا خَشِينًا فِي الْقَوْلِ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَهْلًا طَلْقًا بَرًّا لَطِيفًا. هَكَذَا قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال أبو الحسنِ القَاسِي: أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَفَضْلَ أُمَّتِهِ بِهِذِهِ

الآية، وفي قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقوله تعالى: وَسَطًا: أي عدلاً خياراً.
ومعنى هذه الآية: وكما هدّيناكم فكذلك خضضناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمةً خياراً عدولاً؛ لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أمتهم، ويشهد لكم الرسول بالصدق.

٢١ - وقيل: إن الله جلّ جلاله إذا سأل الأنبياء: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم. فتقول أمتهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فتشهد أمة محمد ﷺ للأنبياء؛ ويؤكد لهم النبي ﷺ [البخاري (٣٣٣٩)].

وقيل: معنى الآية: إنكم حجة على كل من خالفكم، والرسول حجة عليكم. حكاها السمرقندي.

وقال الله تعالى: ﴿وَشِيعَرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].
قال قتادة، والحسن، وزيد بن أسلم: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: هو محمد ﷺ، يشفع لهم.

وعن الحسن أيضاً قال: هي مصيبتهم بنبيهم.
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: هي شفاعته نبيهم محمد ﷺ، هو شفيع صديق عند ربهم.

وقال سهل بن عبد الله التستري: هي سابقة رحمة أودعها الله في محمد ﷺ.

وقال محمد بن علي الترمذي: هو إمام الصادقين والصدّيقين، الشفيع المطاع، والسائل المجاب، محمد ﷺ، حكاها عنه السلمي.

الفصل الثالث

فِيمَا وَرَدَ فِي خَطَابِهِ إِيَّاهُ مَوْرِدَ الْمَلَاطِفَةِ وَالْمَبْرَةِ

من ذلك قوله تعالى: ﴿عَمَّا آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٣].
قال أبو محمد: مكّي: قيل: هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله. وقال غون بن عبد الله: أخبره بالغفو قبل أن يخبره بالذنب.

وحكى السَّمَرَقَنْدِي عن بعضهم أَنَّ معناه: عافاك الله، يا سليم القلب! لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ؟

قال: ولو بدأ النبي ﷺ بقوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ؟﴾ لَخِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْشَقَّ قَلْبُهُ مِنْ هَيْبَةِ هَذَا الْكَلَامِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ أَخْبَرَهُ بِالْعَفْوِ حَتَّى سَكَنَ قَلْبُهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الصَّادِقُ فِي عُذْرِهِ مِنَ الْكَاذِبِ؟ وَفِي هَذَا مِنْ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ.

وَمِنْ إِكْرَامِهِ إِيَّاهُ وَبَرِّهِ بِهِ مَا يَنْقَطِعُ - دُونَ مَعْرِفَةِ غَايَتِهِ - نَيْطُ الْقَلْبِ. قَالَ يَنْفَطَرُونَهُ: ذَهَبَ نَاسٌ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُعَاتَبٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَحَاشَا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ مُخَيَّرًا فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذُنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا لِنِفَاقِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا خَرَجَ عَلَيْهِ فِي الْإِذْنِ لَهُمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمَجَاهِدَ نَفْسَهُ، الرَّائِضَ بِزِمَامِ الشَّرِيعَةِ خُلُقَهُ، أَنْ يَتَأَدَّبَ بِأَدَبِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَمُعَاطَاةِ وَمُخَاوَرَاتِهِ، فَهُوَ غُنْصُ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَرَوْضَةُ الْأَدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ، وَلِيَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَلَاطِفَةَ الْعَجِيبَةَ فِي السُّؤَالِ مِنْ رَبِّ الْأَرْيَابِ، الْمُثْنِيعِ عَلَى الْكُلِّ، الْمُسْتَغْنِي عَنِ الْجَمِيعِ، وَيَسْتَشِيرُ مَا فِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ، وَكَيْفَ ابْتَدَأَ بِالْإِكْرَامِ قَبْلَ الْعَنْبِ، وَأَنَسَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، إِنْ كَانَ ثُمَّ ذَنْبٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٧٤].

قَالَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ: عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بَعْدَ الزَّلَّاتِ، وَعَاتَبَ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ وَقُوعِهِ، لِيَكُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ انْتِهَاءً وَمَحَافَظَةً لَشَرَائِطِ الْمَحَبَّةِ، وَهَذِهِ غَايَةُ الْعِنَايَةِ.

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ بَدَأَ بِثَبَاتِهِ وَسَلَامَتِهِ قَبْلَ ذِكْرِ مَا عَتَبَهُ عَلَيْهِ وَخِيفَ أَنْ يَزْكَنَ إِلَيْهِ، وَفِي أَثْنَاءِ عَتَبِهِ بَرَاءَتَهُ، وَفِي طَيِّ تَخْوِيفِهِ تَأْمِينَهُ وَكِرَامَتَهُ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمٍ إِلَى نُورٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَرِهُوا مُرَارَةً ۝﴾ [الأنعام: ٣٣].

٢٢ - قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا لَا نَكْذِبُكَ وَلَكِنْ نَكْذِبُ مَا جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا لِلَّهِ يَسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٣٣] [الترمذي (٣٠٦٤)].

٢٣ - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَذَبَهُ قَوْمُهُ حَزَنَ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فقال: ما يُخزِنُكَ؟ قال: «كَذَّبَنِي قَوْمِي» فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله تعالى الآية.

ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ، من تسليته تعالى له عليه السلام، والطف به في القول، بأن قرّر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذّبين له، مغترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يُسمّونه - قبل النبوة - الأمين، فدفع بهذا التقرير ازتماض نفسه بسمّة الكذب، ثم جعل الدّم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فحاشاه من الوضيم، وطوّفهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذ الجحد إنما يكون ممن علّم الشيء ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا يُحَاوِلْهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ أَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

ثم عزّاه وأنسه بما ذكره عن قَبْلِهِ، ووعد النضر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَايِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

فمن قرأ ﴿لَا يُكَلِّبُونَكَ﴾ بالتخفيف، فمعناه: لا يجدونك كاذباً. وقال الفراء، والبستاني: لا يقولون إنك كاذب. وقيل: لا يختجون على كذبك، ولا يثبتونه.

ومن قرأ بالتشديد فمعناه: لا يتسبونك إلى الكذب. وقيل: لا يعتقدون كذبك. ومما ذكر من خصائصه، وبرّ الله تعالى به، أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى: يا آدم! يا نوح! يا إبراهيم! يا موسى! يا داود! يا عيسى! يا زكريا! يا يحيى! ولم يخاطب هو إلا: يا أيها الرسول! يا أيها النبي! يا أيها المرسل! يا أيها المدثر!

الفصل الرابع

فبي قصته تعالى بعظيم قدره

قال الله تعالى: ﴿لَمَن رَّكَ إِثْمُهُ لِي سَكْرَتِهِمْ يَمَهِونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله - جلّ جلاله - بمدة حياة محمد ﷺ، وأضله ضم العين، من العُمُر، ولكنها فُتحت لكثرة الاستعمال. ومعناه: وبقيتك يا محمد! وقيل: وعيشك! وقيل: وحياتك!

وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس رضي الله

عنهما: ما خلق الله تعالى، وما ذَرَأَ، وما بَرَأَ نفساً - أكرمَ عليه من محمد ﷺ،
وما سمعتُ الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيرِه.
وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله تعالى بحياة أحدٍ غيرِ محمدٍ ﷺ، لأنه أكرمُ
البرية عنده.

وقال تعالى: ﴿يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾... ﴿الآيات [يس: ١، ٢].
اختلف المُفسِّرون في معنى ﴿يَسَ﴾ على أقوال:
٢٤ - فحكى أبو محمد، مَكِّي: أنه زوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عند
رَبِّي عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ» ذكر أن منها: ﴿طه﴾ و ﴿يَسَ﴾، اسمان له.
وحكى أبو عبدالرحمن السُّلَمِيُّ، عن جَعْفَرِ الصادق - رحمه الله تعالى - أنه
أراد: يا سيِّداً مخاطبةً لنبيه ﷺ.

وعن ابن عباس ﴿يَسَ﴾ يا إنسان! أرادَ محمدًا ﷺ.
وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسماء الله تعالى.
وقال الزجاج: قيل: معناه يا محمد! وقيل: يا رَجُل! وقيل: يا إنسان!
وعن ابنِ الحَنَفِيَّة: ﴿يَسَ﴾: يا محمد!
وعن كَعْب: ﴿يَسَ﴾ قَسَمٌ أقسم الله تعالى به قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ بِالْفَنِي عام: يا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ
۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: ٢، ٣].

فإن قُدِّرَ أنه من أسمائه ﷺ، وَضَحَّ فيه أنه قَسَمٌ، كان فيه من التعظيم ما
تَقَدَّمَ، وَيُؤَكِّدُ فيه القَسَمَ عطفُ القَسَمِ الآخرِ عليه، وإن كان بمعنى النداء فقد جاء
قَسَمٌ آخر بعده لتحقيقِ رسالته، والشهادة بهدايته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ بوحيه إلى عِبَادِهِ، وعلى صراطٍ مستقيم من إيمانه، أي طريق لا
اغْوِجَاجَ فيه، ولا عُذُولَ عن الحق.

قال النَّقَاشُ: لم يُقَسِّمِ الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلا له،
وفيه مِن - تعظيمه وتَمَجِّيده - على تأويل مَن قال: أنه يا سيِّداً ما فيه.

٢٥ - وقد قال عليه السلام: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولا فخر» [سلم (٢٢٧٨)].

وقال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد: ١، ٢].

قيل: لا أَقْسِمُ به إذا لم تُكُنْ فيه بعد خُرُوجِكَ منه، حكاة مَكِّي.

وقيل: (لا) زائدة؛ أي أقسم به وأنت به يا محمد! حلالٌ. أو حِلٌّ لك ما

فَعَلَّتْ فيه على التفسيرين.

والمراد بالبلد عند هؤلاء: مكة.

وقال الواسطي: أي تخلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً، وبركتك ميتاً، يعني: المدينة.

والأول أصح؛ لأن السورة مكية، وما بعده يوضحه قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ رِجُلٌ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [البعد: ٢].

ونحوه قول ابن عطاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [النين: ٣] قال: آمنها الله تعالى بمقامه فيها وكونه بها، فإن كونه أماناً حيث كان.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البعد: ٣] ومن قال: أراد آدم فهو عام؛ ومن قال: هو إبراهيم وما ولد فهي - إن شاء الله - إشارة إلى محمد ﷺ، فتضمن السورة القسم به - عليه السلام - في موضعين.

قال تعالى: ﴿الْعَمَّ﴾ [البعد: ٣] ذَلِكَ أَلِكْتُبُ لَا رَبِّبَ فِيهِ [البقرة: ١، ٢]. قال ابن عباس: هذه الحروف أقسام، أقسم الله تعالى بها. وعنه وعن غيره فيها غير ذلك.

وقال سهل بن عبد الله التستري: الألف: هو الله تعالى. واللام: جبريل. والميم: محمد عليهما السلام.

وحكى هذا القول السمرقندي، ولم ينسبه إلى سهل، وجعل معناه: الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه، وعلى الوجه الأول يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه، ثم فيه من فضيلته قرآن اسمه باسمه نحو ما تقدم.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ﴾ [ق: ١]: أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله.

وقيل: هو اسم للقرآن. وقيل: هو اسم لله تعالى. وقيل: جبل محيط بالأرض. وقيل غير هذا.

وقال جعفر بن محمد في تفسير: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]: إنه محمد ﷺ، وقال: ﴿وَالنَّجْمِ﴾: قلب محمد ﷺ، ﴿هَوَىٰ﴾: انشرح من الأنوار. وقال: انقطع عن غير الله.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١، ٢] الفجر: محمد ﷺ لأن منه تفجر الإيمان.

الفصل الخامس

في قسمه - تعالى جدّه - له، ليحقق مكانته عنده

قال جلّ اسمه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأَوَّلَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَشَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١ - ١١] اختلف في سبب نزول هذه السورة.

٢٦ - فقيل: كان تزكّ النبي ﷺ قيام الليل لغدير نزل به، فتكلّمت امرأة في ذلك بكلام [البخاري (١١٢٥)، مسلم (١٧٩٧/١١٥)].

٢٧ - وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي، فنزلت هذه السورة [الترمذي (٢٣٤٥)، البخاري (٢٨٠٢)].

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له، وتثويبه به، وتعظيمه إياه ستّة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾. أي وربّ الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾؛ أي: ما تركك وما أبغضك. وقيل: ما أهملك بعد أن اضطفاك.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأَوَّلَىٰ ۝٤﴾؛ قال ابن إسحاق: أي مالك في مرجعك عند الله أعظم ممّا أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أي ما ادخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك ممّا أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشئات الإنعام في الدارين، والزيادة.

قال ابن إسحاق: يُرْضِيهِ بِالْفُلُجِ في الدنيا، والثواب في الآخرة.

وقيل: يُعْطِيهِ الْحَوْضَ والشفاعة.

٢٨ - وروي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال: ليس آية في القرآن أزجى منها، ولا يُرْضَىٰ رسول الله ﷺ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ النَّارَ.

الخامس: ما عذّه تعالى عليه من نعمه، وقرّره من آلائه قبله في بقية السورة؛ من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به على اختلاف التفسير، ولا مال له؛ فأغناه الله بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، وبتيما فحبّ عليه عمه، وآواه إليه.

وقيل: آواه إلى الله. وقيل: تيمناً: لا مثال لك فأواك إليه.

وقيل: المعنى: ألم يجدك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلاً، وآوى بك تيمناً، ذكره بهذه الجن، وأنه - على المعلوم من التفسير - لم يهمله في حال صغره، وعيّلته، ونشأه، وقبل معرفته به، ولا ودّعه، ولا قلأه، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه!

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه، وشكره ما شرفه به، بنشوره، وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْتَعِمُ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ فإن من شكر النعمة الحديث بها؛ وهذا خاص له، عام لأمة.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ مَا سَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ٣ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَ سَدِيدَ الْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ١٠ مَا كَتَبَ الْفُؤَادَ مَا رَأَىٰ ١١ أَفَتَسْتَوُونَ عَلَىٰ مَا بَرَأَ ١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْأَوْفَىٰ ١٥ إِذْ يَخْشَى الْيُسْرَىٰ ١٦ مَا يُغْنِي ١٧ مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَمَا كُنَىٰ ١٨ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ١٩﴾ [النجم: ١ - ١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقوالٍ معروفة، منها النجم على ظاهره، ومنها القرآن.

وعن جعفر بن محمد؛ أنه محمد عليه السلام؛ وقال: هو قلب محمد.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ﴾ ١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣﴾ [الطارق: ١ - ٣] إن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ؛ حكاية السلمي.

تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العبد ما يقف دونه الغد، وأقسم جل اسمه على هداية المصطفى، وتنزيهه عن الهوى، وصدقه فيما تلا، وأنه وحي يوحى أوصله إليه - عن الله - جبريل عليه السلام وهو الشديد القوى.

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء، وانتهاه إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وتصديق بصره فيما رأى، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى. وقد تَبَّ على مثل هذا تعالى في أول سورة الإسراء.

ولما كان ما كاشفهُ - عليه السلام - من ذلك الجَبَرُوتِ، وشاهدَهُ من عجائب المَلَكُوتِ لا تُحِيطُ به العبارات، ولا تستَقِلُّ بحَمْلِ سَمَاعِ أدنَاهُ العقولُ، رَمَزَ عنه تعالى بالإِيْماءِ والكناية الدالَّةُ على التعظيم؛ فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٠).

وهذا النوعُ من الكلام يُسمِّيهِ أهلُ النقد والبلاغة بالوَحْيِ والإشارة، وهو عندهم أبلغُ أبوابِ الإيجازِ.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (١١) انحسرت الأفهامُ عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلامُ في تعيين تلك الآياتِ الكبرى.

قال القاضي الإمام أبو الفضل رحمه الله: اشتملت هذه الآياتُ على إعلامِ الله تعالى بِتَرْكِيبِ جُمْلَتِهِ عليه السلام، وَعِصْمَتِهَا مِنَ الْآفَاتِ فِي هَذَا الْمَسْرُوعِ، فَزَكَّى فَوَادِهِ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ:

فَزَكَّى قَلْبَهُ بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١١). وَلِسَانَهُ بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١٢). وَبَصَرَهُ بقوله: ﴿مَا رَأَىٰ عَنِ الْعَصْرِ وَمَا ظَنَّ﴾ (١٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّ﴾ (١٤) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١٥) وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٦) وَالصَّبْحِ إِذَا نَفَسَ (١٧) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٨) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١٩) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (٢٠) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢١) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِثِ الْهَيْنِ (٢٢) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٣) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (٢٤) [التكوير: ١٥ - ٢٥].

﴿فَلَا أَقِيمُ﴾: أي أقسم. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي كريم عند مرسله. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: على تبليغ ما حمله من الوحي، ﴿مَكِينٍ﴾: أي متمكن المنزلة من ربه، رَفِيعَ الْمَحَلِّ عنده، ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾: أي في السماء. ﴿أَمِينٍ﴾: على الوحي.

قال علي بن عيسى وغيره: الرسولُ الكريمُ - هنا - محمدٌ ﷺ. فجميعُ الأوصافِ بَعْدَ عَلَى هذا له.

وقال غيره: هو جبريل عليه السلام، فترجع الأوصافُ إليه. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾: يعني محمداً. قيل: رأى ربه. وقيل: رأى جبريلَ في صورته.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، أي: يمتَّهِمُ. ومن قرأه بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء به، والتذكير بحكمه ويعلمه، وهذه لمحمد عليه السلام باتفاق.

وقال تعالى: ﴿تَتَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ﴾ (٢٥) مَا أَنْتَ بِغِنَمَةِ رَبِّكَ يَمْجُثُونَ (٢٦) وَإِنَّ لَكَ

لَاجِرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ فَسَتَبْصِرُ وَيَصِيرُونَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٩﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيْدَهُنَّ ﴿١٠﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّيْنٍ ﴿١١﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُنْتُ بِعَدِّ ذَلِكَ زَيْبٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا إِنَّا قَالِ اسْتَطِيرَ الْأُولَى ﴿١٥﴾ سَيَسُئُ عَلَى الْفُرْطُورِ ﴿١٦﴾ [القلم: ١ - ١٦].

أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسبه على تنزيه المصطفى بما غمضته الكفرة به، وتكذيبهم له، وأنسه، وبسط أمله بقوله - محسناً خطابه -: ﴿مَا أَنْتَ بِغَمَّةٍ رُبَّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢].

وهذه نهاية المبرة في المخاطبة، وأعلى درجات الآداب في المحاورة؛ ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم، وثواب غير منقطع، لا يأخذه عدو، ولا يمتنن به عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: ٣].

ثم أننى عليه بما منحه من هباته، وهذا إليه، وأكد ذلك تميماً للتمجيد، بحزفي التاكيد؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾ [القلم: ٤]. قيل: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطبع الكريم. وقيل: ليس لك همة إلا الله.

قال الواسطي: أثنى عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمه، وفضله بذلك على غيره؛ لأنه جباله على ذلك الخلق فسبحان اللطيف الكريم، المحسن الجواد الحميد، الذي يسر للخير وهدي إليه، ثم أننى على فاعله؛ وجازاه عليه؛ سبحانه، ما أغمر نواله وأوسع إفضاله؛ ثم سلاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقابهم، وتوعدهم بقوله ﴿فَسَتَبْصِرُ وَيَصِيرُونَ ﴿٥﴾﴾ يَا أَيُّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ [القلم: ٥ - ٧].

ثم عطف بعد مدحه على ذم عدوه، وذكر سوء خلقه، وعد معايبه، متولياً ذلك بفضله، ومقتصراً لنبيه؛ فذكر بضع عشرة خصلة من خصال الذم فيه بقوله: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيْدَهُنَّ ﴿١٠﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّيْنٍ ﴿١١﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُنْتُ بِعَدِّ ذَلِكَ زَيْبٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا إِنَّا قَالِ اسْتَطِيرَ الْأُولَى ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ٨ - ١٥].

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق لتمام شقائه، وخاتمة بواره بقوله: ﴿سَيَسُئُ عَلَى الْفُرْطُورِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٦]. فكانت نضرة الله له أتم من نصرته لنفسه، وردّه تعالى على عدوه أبلغ من ردّه، وأثبت في ديوان مجده.

الفصل السادس

في ما وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي جِهَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْرِدَ الشَّقَقَةِ وَالْإِكْرَامِ

قال تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِشِقَاقٍ ﴿٢﴾ [طه: ١، ٢].

قيل: ﴿طه﴾: اسم من أسمائه عليه السلام، وقيل: هو اسم الله، وقيل: معناه يا رجل! وقيل: يا إنسانا! وقيل: هي حروف مُقْطَعَةٌ لِمَعَانٍ.

وقال الواسطي: أراد: يا طاهرا! يا هادي! وقيل: هو أمر من الوطء. والهاء كناية عن الأرض. أي: اعتمد على الأرض بقدميك، ولا تُثَبِّتْ نَفْسَكَ بِالاعْتِمَادِ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِشِقَاقٍ﴾.

نزلت الآية فيما كان النبي ﷺ يتكلمه من السَّهَرِ والتعب وقيام الليل.

٢٩ - أخبرنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عبد الرحمن، وعُيُزُّ واحد، عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة، ومن أضله نقلت؛ قال: حدثنا أبو ذَرِّ الحافظ، قال: حدثنا أبو محمد الحُمَوي، حدثنا إبراهيم بن خُزَيم الشَّاشي قال: حدثنا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الرُّبِيعِ بن أنس؛ قال: كان النبي ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ عَلَى رِجْلٍ وَاحِدَةٍ وَرَفَعَ الْأُخْرَى؛ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿طه﴾ يعني: طَا الْأَرْضَ، يا محمدا! ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِشِقَاقٍ﴾ إِلَّا لِلذِّكْرِ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ﴿١﴾ [طه: ٢ - ٤].

ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة.

وإن جعلنا ﴿طه﴾ من أسمائه عليه السلام كما قيل، أو جُعِلَتْ قَسَمًا لِحَقِّ الْفَضْلِ بما قبله.

ومثل هذا من نَمَطِ الشَّقَقَةِ وَالْمَبَرَّةِ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَ بَتْ نَفْسُكَ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ مَا بَدَّلْتَ مِنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الكهف: ٦] أي: قاتل نفسك لذلك غَضَبًا، أو غِيظًا، أو جَزَعًا.

ومثله قوله تعالى أيضاً: ﴿لَمَّا كَ بَتْ نَفْسُكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الشعراء: ٣].

ثم قال: ﴿إِنْ لَمْ تُؤْمَرْ بِمَا تَأْمُرُ وَأَنْتَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ومِنْ هَذَا الْبَابِ قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَنْتَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ [٩٤] إِنَّكَ كَذِبٌ مَكْرُورٌ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرَ سَفَوَاتٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ [الجحر: ٩٤ - ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَكَافَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قال مكي: سلاه الله تعالى بما ذكر، وهون عليه ما يلقي من المشركين، وأعلمه أن من تهادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَائِرُ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

عزاه الله تعالى بما أخبره به عن الأمم السالفة ومقاليها لأنبيائهم قبله، ومختتهم بهم؛ وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيب نفسه، وأبان عذره بقوله تعالى ﴿قَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤] أي: أغرض عنهم؛ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِرٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]؛ أي: في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِمُحَرِّرِكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك. سلاه الله تعالى بهذا في أي كثيرة من هذا المعنى.

الفصل السابع

في ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال أبو الحسن القاسبي: استخص الله تعالى محمدا ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبائه به، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمن به.

وقيل: أن يؤمنه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يؤمنوه لمن بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾: الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين
لمحمد ﷺ.

٣٠ - قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ، لئلا بُعث - وهو حي - ليؤمنن به ولينصرته، ويأخذ العهد بذلك على قومه.

ونحوه عن السدي وقادة، في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد.
قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا وَإِسْمَاعِيلَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنِ اقْبِضَا إِلَيْنَا الذِّبْنَ فَاقْبَضَا إِلَيْنَا وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ حِكْمًا لِكَيْ يَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَخَفُونَ﴾ [الأحزاب: ١٠٣].

٣١ - وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَلَيْتَنَّ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣٢ - قال قتادة: إن النبي ﷺ قال: «كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث»، فلذلك وقع ذكره مقدماً هنا قبل نوح وغيره.
قال السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا - عليه السلام - لتخصيصه في الذكر قبلهم، وهو آخرهم.

المعنى: أخذ الله تعالى عليه الميثاق، إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذر.
وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ حِكْمًا لِكَيْ يَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَخَفُونَ﴾ [الأحزاب: ١٠٣].

أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا ﴿البقرة: ٢٥٣﴾.

قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] محمداً ﷺ؛ لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود، وأُجِلَّتْ له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أُعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعطي محمداً ﷺ مثلها.

قال بعضهم: ومن فضله أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه، فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾. وحكى السمرقندي عن الكلبي - في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ لِنُزِيلِهِ﴾ [الصفات: ٨٣] - أن الهاء عائدة على محمد؛ أي إن من شيعه محمد لإبراهيم؛ أي على دينه ومنهجه. وأجازة الفراء، وحكاها عنه مكي. وقيل: المراد منه نوح عليه السلام.

الفضل الثامن

فِي إِغْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى خَلْقَهُ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ

وَوَلَايَتِهِ لَهُ وَرَفْعِهِ الْعَذَابِ بِسَبَبِهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِمُعَذِّبَتِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي: ما كنت بمكة. فلما خرج النبي ﷺ من مكة، وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِمُعَذِّبَتِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وهذا مثل قوله: ﴿لَوْ تَزَكَّيْنَا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَرُسُلُهُمْ مَوْتَتْ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥] فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهذا من أئني ما يظهر مكانته ﷺ.

وَدَرَأَ به العذاب عن أهل مكة بسبب كونه، ثم كَوَّنَ أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خَلَّتْ مكة منهم عَذَّبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. وفي الآية أيضاً تأويل آخر.

٢٣ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمه الله - بقراءتي عليه، قال:

حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، وأبو الحُسَيْن الصُّبَيْرِيُّ، قالَا: حدثنا أَبُو يَغْلَى ابن رُؤُج الحُرَّة، حدثنا أَبُو عَلِي السَّنْجِي، حدثنا مُحَمَّد بن محبوب المَرْوَزِي، حدثنا أَبُو عيسى الحافظ، حدثنا سفيان بن وَكِيع، حدثنا ابن ثَمِير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مُهاجر، عن عباد بن يوسف، عن أَبِي بُزْدَةَ بن أَبِي موسى، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمْتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار» [الترمذي (٣٠٨٢)].

ونحو منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمُتَكَلِّمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
٣٤ - وقال عليه السلام: «أنا أمان لأصحابي» [مسلم (٢٥٣١)]. قيل: من البِدْع.

وقيل: من الاختلاف والفتن.
 قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سُنَّتُهُ باقية فهو باقي، فإذا أُمِيتَتْ سُنَّتُهُ فانتظروا البلاء والفتن.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أبان الله تعالى فَضْلَ نَبِيِّهِ ﷺ بصلاته عليه، ثم بصلاة ملائكته، وَأَمَرَ عباده بالصلاة والتسليم عليه.

٣٥ - وقد حكى أبو بكر بن فُورَك أن بعض العلماء تأوَّل قوله عليه السلام: «وَجَعَلْتُ قُرْءَةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [النسائي (٦١/٧)، أحمد (١٢٨/٣)] على هذا؛ أي في صلاة الله تعالى عليّ وملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة والصلاة من الملائكة ومثاله دعاء، ومن الله عز وجل رحمة.

وقيل: يُصَلُّونَ: يباركون.
 وقد فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ - حين علَّم الصلاة عليه - بين لفظ الصلاة والبركة. وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وذكر بعض المتكلمين في تفسير حروف ﴿كَهَيِّصَ﴾ [مريم: ١] أن الكاف من (كاف)، أي كفاية الله تعالى لنبيه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. والهاء: هدايته له، قال: ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] والياء: تأييده له، قال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ﴾ [الأنفال: ٦٢]. والعين: عِصْمَتُهُ له قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. والصاد: صلاته عليه؛ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] ﴿مَوْلَاهُ﴾ أي: وليه. ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الأنبياء. وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر، وعمر. وقيل: علي. وقيل: المؤمنون على ظاهره.

الفصل التاسع

فِي مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ الْفَتْحِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ سِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ③ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدَهُم مِّنْ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِيَجْزِيَ الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّوَمِّتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَتُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ عَلَى السَّوَةِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَفِّرُوهُ وَتَشِيحُوهُ بِكُرَّةٍ وَأَمْصِلًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١-١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه، ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتداً - جل جلاله - بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره، وغلبته على عدوه وعُلُو كلمته وشرعته، وأنه مغفور له، غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بما كان وما يكون.

قال بعضهم: أراد عُفْرَان ما وقع وما لم يَقَعْ، أي: إنك مغفور لك.

وقال مكي: جعل الله المنة سبباً للمغفرة، وكلٌّ مِنْ عنده، لا إله غيره، مِثَّةٌ بعد مِثَّةٍ، وفضلاً بعد فَضْلٍ.

ثم قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢] قيل: بخضوع مَنْ تكبر عليك.

وقيل: بفتح مكة والطائف.

وقيل: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصرة النصر العزيز، ومثته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم بعد،

وَفَزَّرَهُمُ الْعَظِيمَ، وَالْعَفْوَ عَنْهُمْ، وَالسِّرَ لِلنَّبِيِّهِمْ، وَهَلَكَ عَدُوُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَعْنُهُمْ وَبَغْدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَسَوْءَ مُنْقَلِبِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ [الفتح: ٨، ٩] قَعْدٌ مُحَاسِنُهُ وَخَصَائِصُهُ مِنْ شَهَادَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ، بِتَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ لَهُمْ.

وَقِيلَ: شَاهِدُوا لَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَمُبَشِّرًا لِأُمَّتِهِ بِالثَّوَابِ. وَقِيلَ: بِالمَغْفِرَةِ. وَمُنْذِرًا عَدُوَّهُ بِالْعَذَابِ.

وَقِيلَ: مُحَذِّرًا مِنَ الضَّلَالَاتِ لِيُؤْمِنَ بِاللَّهِ، ثُمَّ بِهِ ﷺ مَنِ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى. وَيُعَزِّرُوهُ؛ أَيِ يُجِلُّونَهُ. وَقِيلَ: يَنْصُرُونَهُ. وَقِيلَ: يِيَالِغُونَ فِي تَعْظِيمِهِ. وَيُوقِّرُوهُ؛ أَيِ يَعْظُمُوهُ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بِزَايَيْنٍ: مِنَ الْعِزِّ، وَالْأَكْثَرُ وَالْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ فَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: جُمِعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نِعَمٌ مُخْتَلِفَةٌ؛ مِنَ الْفَتْحِ الْمُتَيْنِ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الْإِجَابَةِ، وَالْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْمَحَبَّةِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْإِخْتِصَاصِ، وَالْهَدَايَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الْوِلَايَةِ، فَالْمَغْفِرَةُ: تَبَرُّهُ مِنَ الْعُيُوبِ، وَتَمَامُ النِّعْمَةِ: إِبْلَاقُ الدَّرَجَةِ الْكَامِلَةِ، وَالْهَدَايَةُ: وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْمَشَاهِدَةِ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ أَنْ جَعَلَهُ حَيِّبَهُ، وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، وَنَسَخَ بِهِ شَرَائِعَ غَيْرِهِ، وَعَرَّجَ بِهِ إِلَى الْمَحَلِّ الْأَعْلَى، وَحَفِظَهُ فِي الْمَعْرَاجِ حَتَّى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، وَبَعَثَهُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، وَأَحْلَلَ لَهُ وَلَأَمَتَهُ الْغَنَائِمَ، وَجَعَلَهُ شَفِيعًا مُشْفَعًا، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَرِضَاهُ بِرِضَاهُ، وَجَعَلَهُ أَحَدَ رُكْنَيْ التَّوْحِيدِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَعْنِي: بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ؛ أَيِ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاكَ.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يَرِيدُ: عِنْدَ الْبَيْعَةِ. قِيلَ: قُوَّةُ اللَّهِ، وَقِيلَ: ثَوَابُهُ. وَقِيلَ: مِثْلُهُ. وَقِيلَ: عَقْدُهُ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ، وَتَجْنِيسٌ فِي الْكَلَامِ، وَتَأْكِيدٌ لِعَقْدِ بَيْعَتِهِمْ إِيَّاهُ. وَعِظَمُ شَأْنِ الْمُبَايَعِ ﷺ.

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ

إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ اللَّهُ رَمِيٌّ ﴿[الأنفال: ١٧]﴾؛ وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فِي بَابِ الْمَجَازِ، وَهَذَا فِي بَابِ الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ الْقَاتِلَ وَالرَّامِيَ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ، وَهُوَ خَالِقُ فِعْلِهِ وَرَمِيهِ، وَقُدِّرَتْ عَلَيْهِ وَمُسَبَّبُهُ، وَلَئِنْ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ تَوْصِيلُ تِلْكَ الرَّمِيَةِ حَيْثُ وَصَلَتْ، حَتَّى لَمْ يَتَّقْ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَمَلَأْ عَيْنِيهِ، وَكَذَلِكَ قُتِلَ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ حَقِيقَةٌ. وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْآخَرَى: إِنَّهَا عَلَى الْمَجَازِ الْعَرَبِيِّ، وَمُقَابِلَةِ اللَّفْظِ وَمُنَاسَبَتِهِ؛ أَيْ: مَا قَتَلْتُمُوهُمْ، وَمَا رَمَيْتَهُمْ أَنْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَجُوهَهُمْ بِالْحَضْبَاءِ وَالتَّرَابِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى قُلُوبَهُمْ بِالْجَزَعِ، أَيْ إِنَّ مَنَفْعَةَ الرَّمِيِّ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ الْقَاتِلُ وَالرَّامِيَ بِالْمَعْنَى وَأَنْتَ بِالْأَسْمِ.

الفصل العاشر

فِي مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ
وَمَكَاتِبِهِ عِنْدَهُ وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ
سِوَى مَا انْتَضَمَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلَ

مِنْ ذَلِكَ مَا نَصَّهُ تَعَالَى مِنْ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ فِي سُورَةِ: ﴿سَبْحَانَ﴾ وَ ﴿النَّجْمِ﴾
وَمَا انطَوَتْ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ مِنْ عَظِيمِ مَنَزَلَتِهِ وَقُزْبِهِ وَمَشَاهِدَتِهِ مَا شَاهَدَ مِنَ الْعَجَائِبِ.
وَمِنْ ذَلِكَ عِصْمَتُهُ مِنَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾
[المائدة: ٦٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].
وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزِلْ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
الشُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النوبة: ٤٠]. وَمَا
دَفَعَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ أَذَاهُمْ بَعْدَ تَحْزِينِهِمْ لَهُ لَكَ وَخُلُوصِهِمْ نَجِيًّا فِي
أَمْرِهِ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، وَذَهُولِهِمْ عَنْ طَلَبِهِ فِي الْغَارِ،
وَمَا ظَهَرَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَنَزُولِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِ.

٣٦ - وَقِصَّةُ سُرَاقَةِ بْنِ مَالِكٍ [البخاري (٣٩٠٦، ٣٩٠٨، ٣٩١١)، مسلم
(٩١/٢٠٠٩)]، حَسَبَ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسُّبُرِ.

٣٧ - فِي قِصَّةِ الْغَارِ [البخاري (٣٩٢٢)، مسلم (٢٣٨١)].

٢٨ - وحديث الهجرة [البخاري: (٣٩٠٥، ٣٩١١) مسلم (٢٠٠٩)].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ [الكوثر: ١-٣].

أعلمه الله عز وجل بما أعطاه. و ﴿الْكُوثَرُ﴾: حَوْضُهُ. وقيل: نهر في الجنة. وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة. وقيل: النبوة. وقيل: المعرفة.

ثم أجاب عنه عدوه، وردّ عليه قوله، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٤﴾؛ أي عدوك ومُبْغِضُكَ. و ﴿الْأَبْتَرُ﴾: الحقير الدليل، أو المفرد الوحيد، أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٥﴾ [الجحر: ٨٧].
قيل: السبع المثاني: السور الطوال الأولى. ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾: أم القرآن. وقيل: السبع المثاني: أم القرآن. والقرآن العظيم: سائر. وقيل: السبع المثاني: ما في القرآن، من أمر، ونهي، ويُسْرَى، وإنذار، وضرب مثل، وإعداد نعم، وآتيناك نبأ القرآن العظيم.

وقيل: سميت أم القرآن مثاني لأنها تُتلى في كل ركعة. وقيل: بل الله تعالى استثناهما لمحمد ﷺ، وادّخرها له دون سائر الأنبياء.

وسُمي القرآن مثاني: لأن القصص تُتلى فيه.

وقيل: السبع المثاني: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَيِّنَاتٍ وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِرُ بِاللَّهِ وَكَأَمْرِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] قال الفقيه القاضي - رحمه الله -: فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فخصهم بقومهم، وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة.

٣٩ - كما قال عليه السلام: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» [مسلم (٥٢١)،

البخاري (٣٣٥)].

وقال تعالى: «الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَلُهُمْ» [الأحزاب: ٦].

قال أهل التفسير: «أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أي: ما أنفذه فيهم من أمر

فهو ماضٍ عليهم كما يَمْضِي حكم السيد على عبده.

وقيل: اتباع أمره أَوْلَىٰ من اتباع رأي النفس.

«وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَلُهُمْ» أي: هنَّ في الحرمة كالأمهات؛ حرَّم نكاحهنَّ عليهم

بَعْدَهُ؛ تَكْرِمَةً لَهُ وَخُصُوصِيَّةً، ولأنهنَّ له أزواجٌ في الآخرة.

٤٠ - وقد قرئ: وهو أب لهم. ولا يُقرأ به الآن لمخالفته المصحف.

وقال الله تعالى: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ

تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» [النساء: ١١٣].

قيل: فَضْلُهُ الْعَظِيمُ بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزل. وأشار الواسطي

إلى أنها إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى، صلى الله عليه.



الباب الثاني

فِي تَكْمِيلِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ الْمَحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا،
وَقِرَانِهِ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقًا

اعلم أيها المحب! لهذا النبي الكريم ﷺ، الباحث عن تفاصيل جُمَلِ قَدَرِهِ العظيم
أَنَّ خِصَالَ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ فِي الْبَشَرِ نَوْعَانِ: ضَرْوَرِي دُنْيَوِي اقْتَضَتْهُ الْجِبِلَّةُ وَضَرْوَرَةُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَمُكْتَسَبٌ دِينِي؛ وَهُوَ مَا يُخَمِّدُ فَاعِلُهُ، وَيَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زُلْفَى.
ثُمَّ هِيَ عَلَى فَنَيْنِ أَيْضًا: مِنْهَا يَتَخَلَّصُ لِأَحَدِ الْوَصْفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا يَتِمَّازُجُ
وَيَتَدَاخَلُ.

فَأَمَّا الضَّرُورَتِي الْمَخْصُصُ: فَمَا لَيْسَ لِلْمَرْءِ فِيهِ اخْتِيَارٌ وَلَا اكْتِسَابٌ، مِثْلُ مَا
كَانَ فِي جِبِلَّتِهِ: مِنْ كِمَالِ خِلْقَتِهِ، وَجَمَالِ صَوْرَتِهِ، وَقُوَّةِ عَقْلِهِ، وَصِحَّةِ فِهْمِهِ،
وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِهِ وَأَعْضَائِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ، وَشَرَفِ نَسَبِهِ، وَعِزَّةِ
قَوْمِهِ، وَكَرَمِ أَرْضِهِ؛ وَيَلْحَقُ بِهِ مَا تَدْعُوهُ ضَرْوَرَةُ حَيَاتِهِ إِلَيْهِ، مِنْ غَذَائِهِ وَنَوْمِهِ،
وَمَلْبَسِهِ وَمَسْكَنِهِ، وَمَنْكَجِهِ، وَمَالِهِ وَجَاهِهِ.

وَقَدْ تَلَحَّقَ هَذِهِ الْخِصَالُ الْآخِرَةُ بِالْآخِرَةِ إِذَا قَصِدَ بِهَا التَّقْوَى وَمَعُونَةُ الْبَدَنِ
عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا، وَكَانَتْ عَلَى حُدُودِ الضَّرُورَةِ، وَقَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا الْمُكْتَسَبَةُ الْآخِرُورِيَّةُ: فَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ الْعِلِّيَّةِ، وَالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ: مِنْ
الذِّينِ، وَالْعِلْمِ، وَالْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ، وَالْعَدْلِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّوَاضُّعِ،
وَالْعَفْوِ، وَالْعِفَّةِ، وَالْجُودِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْحَيَاءِ، وَالْمَرْوَةِ، وَالصَّنَةِ، وَالتَّوَدُّدِ،
وَالْوَقَارِ، وَالرَّحْمَةِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ، وَالْمَعَاشِرَةِ، وَأَخَوَاتِهَا، وَهِيَ الَّتِي جَمَاعُهَا
حُسْنُ الْخُلُقِ.

وقد يكونُ من هذه الأخلاقِ ما هو في الغريزة، وأصلُ الجِبِلَّةِ لبعض الناس. وبعضُهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لا بدُّ أن يكونَ فيه من أصولها في أصل الجِبِلَّةِ شعبة كما سَنَبَّيْهُ إن شاء الله تعالى.

وتكون هذه الأخلاقُ دُنْيَوِيَّةً إذا لم يُرَدِّ بها وجهُ الله تعالى، والدارُ الآخرة؛ ولكنها كُلُّها محاسنٌ وفضائلٌ باتِّفاق أصحابِ العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حُسْنِها وتفضيلها.

فصل

فِي اجْتِمَاعِ خِصَالِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ فِي نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

إذا كانت خِصَالُ الكمال والجلال ما ذكرناه، ووجدنا الواحدَ مَنَّا يَشْرَفُ بواحدة منها أو اثنتين - إن اتفقت له في كُلِّ عصر - إما من نَسَب، أو جمال، أو قوة، أو عِلْم، أو جِلْم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظُمَ قَدْرُهُ، وَيُضْرَبَ باسمه الأمثال، وَيَتَقَرَّرَ له بالوصفِ بذلك في القلوبِ أَثَرَةٌ وعظمة، وهو منذ عصورِ خَوَالٍ، زَمَمَ بَوَالٍ، فما ظَنُّكَ بعظيم قَدْرِ من اجتمعت فيه كُلُّ هذه الخِصَالِ إلى ما لا يأخذه عَدُوٌّ، ولا يعْبُرُ عنه مَقَالٌ، ولا يُنَالُ بِكُنْسَبٍ ولا حيلةٍ إلا بتخصيصِ الكبير المتعال، مِنْ فضيلةِ النبوة والرسالة، والخُلَّةِ والمحبة، والاصطفاء والإسراء والرؤية، والقُرْب، والدينُو، والوحي، والشفاعة، والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبُرَاق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والنَّذارة، والمكانة عند ذي العرش، والطاعة ثُمَّ، والأمانة والهداية، ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضا والسُّؤل، والكُوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدَّم وتأخَّر، وشرح الصُّدْر، ووضع الوزر، وزُفْعُ الذِكر، وعِزَّةُ النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الحكمة، والكتاب، والسُّبُع المثنائي، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلى الله، وضلالة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أَرَاهُ الله، ووضع الإِضْرِب والأغلال عنهم، والقَسَم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات، والعُجْم، وإحياء الموتى، وإسماع الصُّم، ونَبْعُ الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورَدُّ الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على

الغيب، وظلَّ الغمام، وتسيح الحَصَا، وإبراء الآلام، والعِصمة من الناس، إلى ما لا يَخُويه مُخْتَلٍ، ولا يحيط بعلمه إلا ما يَحُكُّه ذلك ومُفَضِّلُهُ به، لا إله غيره، إلى ما أَعَدَّ له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القُدُس، ومراتب السعادة، والحُسنى، والزيادة التي تَقِفُ دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم.

فصل

في صفاته الخَلْقِيَّةِ

إِنْ قُلْتُ - أكرمكَ الله -: لا خفاء على القَطْع بالْجُمْلَةِ أَنَّهُ ﷺ أعلى الناس قَدْرًا، وأَعْظَمُهُمْ مَحَلًّا، وأكرمهم وأكملهم محاسنَ وفضلًا، وقد ذهبَتْ في تفاصيلِ خِصَالِ الكمال مذهبًا جميلًا، شَوَّقَنِي إلى أَنْ أَقِفَ عليها من أوصافه ﷺ تفصيلًا.

فاعلم - نَوَّرَ الله قلبي وقلبك، وضاعفَ في هذا النبي الكريم حُبِّي وحَبِّكَ - أَنَّكَ إِذَا نظَرْتَ إلى خِصَالِ الكمال، التي هي غَيْرُ مُكْتَسَبَةٍ، وفي جِبِلَّةِ الْخَلْقَةِ وجَدْتَهُ حائِزًا لِجَمِيعِهَا، مُحِيطًا بِشَتَاتِ محاسنها دونَ خلافٍ بين ثِقَلَةِ الْأَخْبَارِ لذلك؛ بل قد بلغ بعضها مَبْلَغَ القَطْع.

أما الصورةُ وجمالُها، وتناسُبُ أعضائها في حُسْنِهَا، فقد جاءت الآثَارُ الصَّحِيحَةُ والمَشْهُورَةُ الكَثِيرَةُ بذلك.

- ٤١ - من حديثِ علي [الترمذي (٣٦٣٧، ٣٦٣٨)، أحمد (٨٩/١، ١٠١)].
- ٤٢ - وأنس بن مالك [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].
- ٤٣ - وأبي هُرَيْرَةَ [الترمذي (٣٦٤٨)، أحمد (٣٥٠/٢)].
- ٤٤ - والبراء بن عازب [البخاري (٣٥٤٩، ٣٥٥١)، مسلم (٢٣٣٧)].
- ٤٥ - وعائشة أم المؤمنين [أبو داود (٤١٨٧)، الترمذي (١٧٥٥)، ابن ماجه (٣٦٣٥)].

- ٤٦ - وابن أبي هَالَةَ [الترمذي (٣٢٩، ٣٤٤)].
- ٤٧ - وأبي جُحَيْفَةَ [البخاري (٣٥٤٤)، مسلم (٢٣٤٣)].
- ٤٨ - وجابر بن سَمُرَةَ [مسلم (٢٣٣٩)، الترمذي (٣٦٤٧)].
- ٤٩ - وأمّ مَعْبُدٍ.
- ٥٠ - وابن عباس [الترمذي (١٤)].
- ٥١ - ومُعَرِّضِ بن مُعَيَّقِبٍ.

٥٢ - وأبي الطفيل [مسلم (٢٣٤٠)].

٥٣ - والعلاء بن خالد.

٥٤ - وخزيم بن فاتك.

٥٥ - وحكيم بن حزام وغيرهم، من أنه ﷺ كان أزهر اللون، أذعج، أنجل، أشكل أهدب الأشفار، أبلج، أزج، أفتى، أفلج، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية، تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخمة العظام، غلب العضدين والذراعين، والأسافل، رخب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد، ذقيق المنسرية، ربة القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماثيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رجل الشعر، إذا افتّر ضاحكاً افتّر عن مثل سنا البرقي، وعن مثل حب القمام، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من ثنياه، أحسن الناس عناقاً، ليس يملطهم ولا مكلثم مئاسك البدن، ضرب اللحم.

٥٦ - قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ [البخاري (٥٩٠١)، مسلم (٢٣٣٧)].

٥٧ - وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كان الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلأل في الجدر [الترمذي (٣٦٤٨) أحمد (٣٥٠/٢)].

٥٨ - وقال جابر بن سمرة - وقال له رجل -: كان وجهه ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر. وكان مستديراً [مسلم (١٠٩/٢٣٤٤)].

٥٩ - وقالت أم مغيّب - في بعض ما وصفته به -: أجمل الناس من بعيد، وأخلاء وأحسنه من قريب صلى الله عليه وسلم تسليماً كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

٦٠ - وفي حديث ابن أبي هالة: يتلأل وجهه تلالو القمر ليلة البدر.

٦١ - وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ. والأحاديث في بسط صفته مشهورة كثيرة، فلا نقول بسرها.

وقد اختصرنا في وصفه نكت ما جاء فيها، وجملته مما فيه الكفاية في القصد إلى المطلوب، وختمنا هذه الفصول بحديث جامع لذلك تفيد عليه هنالك إن شاء الله تعالى.

فصل

فِي نَظَافَتِهِ ﷺ وَطِيبِ رِيحِهِ وَعَرَقِهِ وَدَمِهِ

وأما نظافة جسمه، وطيب رِيحه وَعَرَقِهِ، ونزاهته عن الأقدار وَعَوَزَاتِ الجسد فكان قد خَصَّهُ اللَّهُ في ذلك بخصائص لم توجَد في غيره، ثم تَمَمَّها بنظافة الشَّرْع، وَخِصَالِ الْفِطْرَةِ الْعَشْرِ [مسلم (٢٦١)].

٦٢ - وقال: «بَنِي الدِّينَ عَلَى النِّظَافَةِ».

٦٣ - حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: مَا شَمَمْتُ عَثْرًا قَطُّ، وَلَا مِسْكَأً، وَلَا شَيْئًا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (٢٣٣٠)، البخاري (١٩٧٣)].

٦٤ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَنَّهُ ﷺ مَسَحَ خَدَّهُ؛ قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا وَرِيحًا، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُودَةِ عَطَّارٍ [مسلم (٢٣٢٩)].

قال غيره: مَسَّهَا بِطِيبٍ أَوْ لَمْ يَمَسَّهَا، يُصَافِحُ الْمُصَافِحَ فَيُظِلُّ يَوْمَهُ يَجِدُ رِيحَهَا؛ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ فَيُغْرِفُ مِنْ بَيْنِ الصَّيَّانِ بِرِيحِهَا.

٦٥ - وَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دَارِ أَنَسٍ عَلَى نِطْعٍ فَعَرِقَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ بِقَارُورَةٍ تَجْمَعُ فِيهَا عَرَقُهُ، فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: نَجَعَلُهُ فِي طِينًا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ [مسلم (٢٣٣١)، البخاري (٦٢٨١)].

٦٦ - وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، عَنْ جَابِرٍ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ فِي طَرِيقٍ فَيَتَّبِعُهُ أَحَدٌ إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ سَلَكَ مِنْ طِيبِهِ.

وَذَكَرَ إِسْحَاقُ بْنُ رَافِوَيْهِ أَنَّ تِلْكَ كَانَتْ رَاحَتَهُ بِلَا طِيبٍ، ﷺ.

٦٧ - وَرَوَى الْمُزْنِيُّ، عَنْ جَابِرٍ: أَرْدَفَنِي النَّبِيُّ ﷺ خَلْفَهُ، فَالْتَقَمْتُ خَاتَمَ النَّبُوَّةِ بِفَمِي، فَكَانَ يَشُجُّ عَلَيَّ مِسْكَأً.

٦٨ م - وَقَدْ حَكَى بَعْضُ الْمُتَعَتِّينَ بِأَخْبَارِهِ وَشَمَائِلِهِ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَغَوَّطَ انْشَقَّتِ الْأَرْضُ فَابْتَلَعَتْ غَائِطَهُ وَبَوَّلَهُ، وَفَاحَتْ لَذَلِكَ رَاحَةُ طِيبَةٍ ﷺ.

٦٨ - وَأَسْنَدَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ - كَاتِبُ الْوَأَقِدِيِّ - فِي هَذَا خَبْرًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ تَأْتِي الْخَلَاءَ فَلَا يُرَى مِنْكَ شَيْءٌ مِنْ

الْأَذَى! فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ! أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْأَرْضَ تَبْلُغُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ؟».

وهذا الْخَبْرُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا، فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِطَهَارَةِ الْحَدِيثَيْنِ مِنْهُ ﷺ. وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ حَكَاهُ الْإِمَامُ أَبُو نَصْرٍ بْنُ الصَّبَّاحِ فِي «شَامِلِهِ».

وَقَدْ حَكَى الْقَوْلَيْنِ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ سَابِقٍ الْمَالِكِيُّ فِي كِتَابِهِ: «الْبَدِيعُ فِي فُرُوعِ الْمَالِكِيَّةِ»، وَتَخْرِيجَ مَا لَمْ يَقَعْ لَهُمْ مِنْهَا عَلَى مَذْهَبِهِمْ مِنْ تَفَارِيعِ الشَّافِعِيَّةِ.

وَشَاهِدُ هَذَا أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ يُكْرَهُ، وَلَا غَيْرُ طَيِّبٍ.

٦٩ - وَمِنْهُ حَدِيثُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: غَسَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْمَيِّتِ فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا؛ فَقُلْتُ: طُبْتُ حَيًّا وَمَيِّتًا [ابن ماجه (١٤٦٧)] قَالَ: وَسَطَعَتْ مِنْهُ رِيحٌ طَيِّبَةٌ لَمْ تَجِدْ مِثْلَهَا قَطًّا.

٧٠ - وَمِثْلُهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَبِلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ [البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣)].

٧١ - وَمِنْهُ شَرْبُ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ دَمَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمُصَّهُ إِيَّاهُ، وَتَسْوِغُهُ ﷺ ذَلِكَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: «لَنْ تُصَيِّبَهُ النَّارُ».

٧٢ - وَمِثْلُهُ شَرْبُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ دَمَ حِجَامَتِهِ؛ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ! وَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْكَ!» وَلَمْ يَنْكَرْهُ عَلَيْهِ.

٧٣ - وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ مِنْ هَذَا عَنْهُ فِي امْرَأَةٍ شَرِبَتْ بَوْلَهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَنْ تَشْتَكِيَ وَجَعَ بَطْنِكَ أَبَدًا» [أبو داود (٢٤)، النسائي (٣١/١)]. وَلَمْ يَأْمُرْ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِغَسْلِ قَمِيٍّ، وَلَا نَهَاهُ عَنْ عَوْدَةٍ.

وَحَدِيثُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي شَرِبَتْ بَوْلَهُ صَحِيحٌ الزَّمِ الدَارِقُطْنِيُّ مُسْلِمًا وَابْنُ الْبَخَارِيِّ إِخْرَاجُهُ فِي الصَّحِيحِ، وَاسْمُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بَرْكَةٌ. وَاخْتَلَفَ فِي نَسَبِهَا.

وَقِيلَ: هِيَ أُمُّ أَيْمَنَ: وَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ؛ قَالَتْ: وَكَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدَحٌ مِنْ عَيْدَانٍ يُوضَعُ تَحْتَ سَرِيرِهِ يُتَوَلَّى فِيهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَبَالَ فِيهِ لَيْلَةً، ثُمَّ افْتَقَدَهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا. فَسَأَلَ بَرْكَةَ عَنْهُ؛ فَقَالَتْ: قَمْتُ وَأَنَا عَطْشَانَةٌ فَشَرِبْتُهُ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ.

رَوَى حَدِيثُهَا ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ.

٧٤ - وَكَانَ ﷺ قَدْ وُلِدَ مَخْتُونًا مَقْطُوعَ الشَّرَةِ.

٧٥ - ودوي عن أمِّه آمنَة، أنها قالت: قد ولدته نظيفاً ما به قَدَر.

٧٦ - وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ فَرْجَ رسولِ اللَّهِ ﷺ قطُّ [الترمذي (٣٥٢)، ابن ماجه (١٩٢٢)، أحمد (٦٣/٦)].

٧٧ - وعن علي رضي الله عنه: أوصاني النبي ﷺ لا يغسله غيري؛ فإنه لا يرى أحدٌ عَوْرَتِي إلا طُمِسَتْ عيناه.

٧٨ - وفي حديث عِكْرَمَة، عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه ﷺ نام حتى شَمِعَ له غَطِيطٌ، فقام فصلَّى ولم يتوضأ [أحمد (٢٤٤/١)، البخاري (١١٧)، مسلم (١٨٤/٧٦٣)]، قال عِكْرَمَة: لأنه كان - ﷺ - محفوظاً.

فصل

فِي وَفُورِ عَقْلِهِ، وَذَكَاءِ لُبِّهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِهِ،

وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ ﷺ

وأما وَفُورُ عَقْلِهِ، وَذَكَاءُ لُبِّهِ، وَقُوَّةُ حَوَاسِهِ، وَفَصَاحَةُ لِسَانِهِ، وَاعْتِدَالُ حَرَكَاتِهِ، وَحُسْنُ شَمَائِلِهِ فلا مِزِيَّةَ أنه كان أعقلَ الناسِ وأذكاهم.

وَمَنْ تَأَمَّلَ تدبيره أَمَرَ بِوَاطِنِ الْخَلْقِ وظواهرهم، وسياسةَ العامة والخاصة، مع عَجِيبِ شَمَائِلِهِ، وبدیعِ سِيرِهِ، فَضْلاً عما أَفَاضَهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَقَرَّرَهُ مِنَ الشَّرْعِ دُونَ تَعَلُّمِ سَبْقٍ، وَلَا مُمَارَسَةِ تَقَدُّمٍ، وَلَا مُطَالَعَةِ لِكُتُبٍ مِنْهُ، لَمْ يَمْتَرِ فِي رُجْحَانِ عَقْلِهِ، وَثَقُوبِ فَهْمِهِ لِأَوَّلِ بَدِيهِهِ؛ وَهَذَا مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْرِيرِهِ لِتَحْقِيقِهِ.

وقد قال وَهْبُ بْنُ مُثَنَّى: قرأتُ في أحدٍ وسبعين كتاباً، فوجدتُ في جميعها أن النبي ﷺ أرجحَ الناسِ عقلاً، وأفضلهم رأياً.

وفي رواية أخرى: فوجدتُ في جميعها أن الله تعالى لم يُعْطِ جميعَ الناسِ من بَدءِ الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَائِهَا مِنَ الْعَقْلِ فِي جَنْبِ عَقْلِهِ ﷺ إِلَّا كَحَبَّةِ رَمَلٍ بَيْنَ رَمَالِ الدُّنْيَا.

٧٩ - وقال مجاهد: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا قام في الصلاة يَرَى مَنْ خَلَفَهُ كما يَرَى مَنْ يَبِينُ يَدِيهِ. وبه قُسِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَلِّبْكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

٨١ - وفي الْمُوْطَأَ عنه عليه السلام: «إني لأراكم من ورائِ ظَهْرِي» [البخاري (٤١٨)، مسلم (٤٢٤)].

٨٢ - ونحوه عن أنس بن مالك في الصحيحين [البخاري (٧٤٢)، مسلم (٤٢٥)].

٨٣ - وعن عائشة مثله؛ قالت: زيادة زاده الله إياها في حُجَّته.

٨٤ - وفي بعض الروايات: «إني لأنظرُ مَنْ ورائي كما أنظرُ إلى مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ».

٨٥ - وفي أخرى: «إني لأُبْصِرُ مَنْ قَفَايَ كما أبصرُ مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ» [مسلم (٤٢٣)].

٨٦ - وحكى بَقِيُّ بْنُ مَخْلَدٍ، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يرى في الظُّلْمَةِ كما يَرَى في الضَّوءِ.

٨٧ - والأخبارُ كثيرةٌ صحيحةٌ في رؤيته ﷺ للملائكة والشیاطين [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١، ٥٤٢)].

٨٨ - وَرَفَعَ النجاشيُّ له حتى صَلَّى عليه [البخاري (١٣١٧)، مسلم (٩٥٢، ٩٥٣)].

٨٩ - وبيتُ المقدسِ حين وصفه لقریش.

٩٠ - والكعبة حين بنى مسجده.

٩١ - وقد حُكي عنه ﷺ أنه كان يرى في الثُّرَيَّا أحدَ عشرَ نَجْمًا.

وهذه كلها محمولةٌ على رؤية العين، وهو قولُ أحمد بن حنبل وغيره.

وزهد بعضهم إلى رَدِّها إلى العِلْمِ، والظواهرُ تُخالفُه، ولا إحالةٌ في ذلك، وهي من خواصِّ الأنبياء وَخِصَالِهِمْ.

٩٢ - كما أخبرنا أبو محمد: عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد الغَزَل من كتابه؛ حدثنا أبو

الحسن المقرئ الفرغاني حدثنا أُمُّ القاسم بنتُ أَبِي بكرٍ، عن أبيها، حدثنا

الشریف أبو الحسن: علي بن محمد الحسنی، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد،

حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، حدثنا محمد بن محمد مرزوق، حدثنا همام

قال: حدثنا الحسن، عن قَتَادَةَ، عن يحيى بن وَثَّابٍ، عن أَبِي هريرة، عن

النبي ﷺ؛ قال: «لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يُبْصِرُ النَّمْلَةَ عَلَى

الصُّفَا، فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ، مَسِيرَةَ عَشْرَةِ فَرَاسَخٍ». ولا يبعدُ على هذا أن يختصَّ

نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظُوفَةِ بما رأى من آياتِ رَبِّهِ

الكبرى.

٩٣ - وقد جاءت الأخبارُ بأنه صرَّحَ رُكَّانَةُ [أبو داود (٤٠٧٨)، الترمذي (١٧٨٤)]،

أشدَّ أهلِ وقته، وكان دعاه إلى الإسلام.

٩٤ م - وصارعَ أبا رُكَّانَةَ في الجاهلية، وكان شديدًا، وعاوده ثلاثَ مرات،

كُلَّ ذَلِكَ يصرِّعُه رسولُ الله ﷺ.

٩٤ - وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه، كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مُكترَب.

٩٥ - وفي صفته: أن ضججه كان تبسماً، إذا التفت التفت معاً، وإذا مشى مشى تقيلاً، كأنما يتخط من صَبَب.

فصل

في فصاحة لسانه، وبلاغة قوله ﷺ

وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبع، وبزاعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببديع الحكيم، وعُلم السنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن، عن شَرَح كلامه، وتفسير قوله.

ومن تأمل حديثه وسيره عليم ذلك وتحققه؛ وليس كلامه مع قريش والأنصار، وأهل الحجاز، ونجد، ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العَلَيْمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقبال خَضَرَمَوْت، وملوك اليمن.

٩٦ - وانظر كتابه إلى همدان: «إن لكم فراعها، ووطاطها، وعزازها، تأكلون علاتها وتزعمون عفاءها، لنا من دفتهم وصرامهم ما سلموا بالمشاق والأمانة، ولهم من الصدقة: الثلب، والناث، والفصيل، والفارض والداجن، والكبش الحوري، وعليهم فيها الصالح، والقارح».

٩٧ - وقوله ﷺ: «لنهد: اللهم! بارك لهم في مخضها ومخضها، ومذقها، وابعث راعيها في الدثر، وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن أتى الزكاة كان مُحسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مُخلصاً، لكم يا بني نهدا ودائع الشوك، ووضائع الملك، لا تُلطط في الزكاة، ولا تُلجد في الحياة، ولا تتناقل عن الصلوات».

وكتب لهم: «في الوظيفة الفريضة، ولكم العارض، والفريش، وذو العنان الركب، والفلق الضبيس، لا يُمنع سرحكم، ولا يُغضد طلحكم، ولا يُخبس

ذُرُّكُمْ، مَا لَمْ تُضْجِرُوا الرِّمَاقَ، وَتَاكَلُوا الرِّمَاقَ، مَنْ أَقَرَّ فَلَهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ، وَمَنْ أَيْنَى فَعَلَيْهِ الرِّبْوَةُ».

٩٨ - ومن كتابه لوائل بن حُجْر:

«إِلَى الْأَقْبَالِ الْقَبَاحَةُ، وَالْأَزْوَاعُ الْمَشَابِيبُ».

وفيه: «فِي الشَّبَعَةِ شَاةٌ، لَا مَقْوَرَةَ الْأَلْبَاطِ، وَلَا ضَنَّاكَ، وَأَنْطَوِا الشَّبَعَةَ، وَفِي السُّبُوبِ الْخُمْسُ. وَمَنْ رَزَى مِنْ بَكْرٍ فَاضْقَعُوهُ مِثَّةً، وَاسْتَوْفِضُوهُ عَامًا، وَمَنْ زَنَى مِنْ ثَيْبٍ فَضَرْجُوهُ بِالْأَصَابِيمِ، وَلَا تَوَصِّمَ فِي الدِّينِ، وَلَا عَمَّةً فِي فَرَائِضِ اللَّهِ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». وَوَاتِلَ بْنِ حُجْرٍ يَنْزِلُ عَلَى الْأَقْبَالِ.

٩٩ - أَيْنَ هَذَا مِنْ كِتَابِهِ لِأَنْسَ، فِي الصَّدَقَةِ الْمَشْهُورِ؟ [البخاري (١٤٥٤)] لَمَّا كَانَ كَلَامُ هَؤُلَاءِ عَلَى هَذَا الْحَدِّ، وَبَلَغَتْهُمْ عَلَى هَذَا الشَّمْطِ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِمْ هَذِهِ الْأَلْفَافَ اسْتَعْمَلَهَا مَعَهُمْ، لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلِيَحْدِثَ النَّاسُ بِمَا يَعْلَمُونَ.

١٠٠ - وَكَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ: «فَإِنَّ الْبَيْدَ الْعَلِيَا هِيَ الْمُطْبِئَةُ، وَالْبَيْدُ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاطَةُ». قَالَ: فَكَلَّمْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلُغْتَنَا.

١٠١ - وَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ الْعَامِرِيِّ حِينَ سَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «سَلْ عَنْكَ».

أَي: سَلْ عَمَّا شِئْتَ، وَهِيَ لَفْظُ بَنِي عَامِرٍ. وَأَمَّا كَلَامُهُ الْمَعْتَادُ، وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ، وَجَوَابُ كُلِّبِهِ، وَجَكَمَةُ الْمَأْثُورَةِ فَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِيهَا الدَّوَاوِينَ وَجُمِعَتْ فِي أَلْفَافِهَا وَمَعَانِيهَا الْكُتُبُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُوَارِثُ فَصَاحَةً، وَلَا يُتَارِثُ بِلَاغَةً.

١٠٢ - كَقَوْلِهِ: «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا دِمَائِهِمْ، وَنَسَعْنِي بِدِمَائِهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَهُمْ يَذُّونَ عَلَى مَنْ يَوَاهِمُ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٥٣٠، ٤٥٣١)، النَّسَائِيُّ (١٩/٨، ٢٠)].

١٠٣ - وَقَوْلُهُ: «النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ».

١٠٤ - وَ «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» [البخاري (٦١٦٨، ٦١٧٠)، مُسْلِمٌ (٢٦٤٠، ٢٦٤١)].

١٠٥ - وَ «لَا خَيْرَ فِي ضُجْبَةٍ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ».

١٠٦ - وَ «النَّاسُ مَغَايِدٌ» [البخاري (٣٤٩٦)، مُسْلِمٌ (١٦٠/٢٦٣٨)].

١٠٧ - وَ «مَا هَلْكَ أَمْرُؤُ عَرَفَ قُدْرَهُ».

١٠٨ - وَ «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، وَهُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ».

١٠٩ - وَ «رَجِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَنُفِمْ، أَوْ سَكَتَ، فَسَلِمَ».

١١٠ - وقوله: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (٢٩٤١)، مسلم (١٧٧٣)].

١١١ - و «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَحَابِسُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُؤَطَّوُونَ أَكْثَفًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ» [الترمذي (٢٠١٨)].

١١٢ - وقوله: «لَعَلَّه كَلَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَغْنِيهِ، وَبِخُلٍّ بِمَا لَا يَغْنِيهِ» [الترمذي (٢٣١٦)].

١١٣ - وقوله: «ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» [أبو داود (٤٨٧٣) البخاري (٧١٧٩)، مسلم (٢٥٢٦)].

١١٤ - وَنَهَيْهِ عَنْ «قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَمَنْعِ وَهَاتِ، وَعَقُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ» [البخاري (٥٩٧٥)، مسلم (١٢/٥٩٣)].

١١٥ - وقوله: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [الترمذي (١٩٨٧)].

١١٦ - وقوله: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا».

١١٧ - وقوله: «أَخِيْبُ حَبِيْبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُوْنَ بَغِيْضَكَ يَوْمًا مَا» [الترمذي (١٩٩٧)].

١١٨ - وقوله: «الظُّلُمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٢٤٤٧)، مسلم (٢٥٧٩)].

١١٩ - وقوله في بعض دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِيْ بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتُلْئِمُ بِهَا شَعْنِي، وَتُضِلِّجُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتَرْزُقِي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمْنِي بِهَا زُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أَلْفَتِي، وَتَغْصِمْنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَوْرَ فِي الْقَضَاءِ، وَتُزَلُّ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْشُ السُّعْدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ» [الترمذي (٣٤١٩)].

إِلَى مَا رَوَّاهُ الْكَافَّةُ عَنْ الْكَافَةِ مِنْ مَقَامَاتِهِ، وَمُحَاضِرَاتِهِ، وَخُطْبِهِ، وَأَذْعِيَتِهِ، وَمَخَاطَبَاتِهِ، وَعَهْوِدِهِ، مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرْقَبَةٌ لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهَا سَبَقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ.

وَقَدْ جَمَعْتُ مِنْ كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا، وَلَا قَدَّرَ أَحَدٌ أَنْ يُفْرَغَ فِي قَالِبِهِ عَلَيْهَا.

١٢٠ - كَقَوْلِهِ: «حَمِيِي الْوُطَيْسُ» [مسلم (١٧٧٥)].

١٢١ - وَ «مَاتَ حَتْفٌ أَنْفِهِ».

١٢٢ - وَ «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُخْرِ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (٦١٣٣)، مسلم (٢٩٩٨)].

١٢٣ - و «السعيد مَنْ وُعِظَ بغيره» [مسلم (٢٦٤٥)، ابن ماجه (٤٦)]. في أخواتها ما يَدْرِكُ الناظرَ العَجَبَ في مُضْمِنِهَا، ويذهبُ به الفِكْرُ في أَذَانِي حِكْمِهَا.

١٢٤ - وقد قال له أصحابه: ما رأينا الذي هو أَفْصَحُ منك! فقال: «وما يَمْنَعُنِي؟ وإنما أنزل القرآن بلساني، لسانِ عربيٍّ مُبِينٍ».

١٢٥ - وقال مرة أخرى: «أنا أَفْصَحُ العربِ بَيْنَ أَنِي من قريش، ونشأتُ في بني سَعْدٍ».

فَجُمِعَ له بذلك ﷺ قُوَّةُ عَارِضَةِ البادية وَجَزَالَتُهَا، وَنَصَاعَةُ الْفَاطِظِ الْحَاضِرَةِ، وَرَوْنَقُ كَلَامِهَا، إِلَى التَّايِيدِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَدَّدَهُ الْوَحْيُ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِعِلْمِهِ بِشَرِي.

١٢٦ - وَقَالَتْ أُمُّ مَعْبِدٍ فِي وَصْفِهَا لَهُ: خُلُوَ الْمَنْطِقُ، فَضْلٌ، لَا تَنْزَرُ وَلَا مَذَرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَزَزَاتٌ تُظْمَنُ.

وكان جَهِيرَ الصَّوْتِ، حَسَنَ الثَّغْمَةِ ﷺ.

فصل

فِي شَرَفِ نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَمِ بَلَدِهِ وَمَنْشَأِهِ

وأما شَرَفُ نَسَبِهِ ﷺ وَكَرَمُ بَلَدِهِ وَمَنْشَأُهُ فَمِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَيْهِ، وَلَا بَيَانٍ مُشْكِلٍ، وَلَا خَفِيٍّ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ نُخْبَةٌ بَنِي هَاشِمٍ، وَسُلَالَةُ قُرَيْشٍ وَصَمِيمُهَا، وَأَشْرَفُ الْعَرَبِ، وَأَعَزُّهُمْ نَفَرًا مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَمِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، مِنْ أَكْرَمِ بِلَادِ اللَّهِ، عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى عِبَادِهِ.

١٢٧ - حَدَّثَنَا قَاضِي الْقَضَاةِ: حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّدْفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ: سَلِيمَانُ بْنُ خَلْفٍ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ: عَبْدُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ السَّرْخَسِيُّ، وَأَبُو إِسْحَاقَ وَأَبُو الْهَيْثَمِ قَالُوا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسَفَ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرْنَا فَقُرْنَا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ» [البخاري (٣٥٥٧)].

١٢٨ - وَعَنْ الْعَبَّاسِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ، مِنْ خَيْرِ قُرُونِهِمْ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا، وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا» [الترمذي (٣٦٠٧)].

١٢٩ - وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦)، الترمذي (٣٦٠٥)].

قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

١٣٠ - وفي حديث عن ابن عمر، رواه الطبري أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ خَلْقَهُ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي الْعَرَبِ، ثُمَّ اخْتَارَ الْعَرَبَ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ قَرِشًا، ثُمَّ اخْتَارَ قَرِشًا، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اخْتَارَ بَنِي هَاشِمٍ فَاخْتَارَنِي مِنْهُمْ فَلَمْ أَزَلْ خِيَارًا مِنْ خِيَارِ، أَلَا مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِخَيِّ أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَبِئْضِي أَبْغَضَهُمْ».

١٣١ - وعن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَتْ رُوحُهُ نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِالْفِي عَامٍ، يُسَبِّحُ ذَلِكَ النُّورُ، وَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَلْقَى ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَهْبَطَنِي اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوحٍ، وَقَذَفَ بِي فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ اللَّهُ تَعَالَى يَنْقُلُنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ، حَتَّى أَخْرَجَنِي بَيْنَ أَبَوَيْ لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ».

١٣١م - ويشهد لصحة هذا الخبر شغلُّ العباس في مدح النبي ﷺ

المشهور.

فصل

فِيمَا كَانَ التَّمَدُّحُ وَالْكَمَالُ بِقَلَّتِهِ

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه فعلى ثلاثة ضروب: ضَرْبُ الْفَضْلِ فِي قَلَّتِهِ، وَضَرْبُ الْفَضْلِ فِي كَثْرَتِهِ، وَضَرْبُ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ فِيهِ. فَأَمَّا مَا التَّمَدُّحُ وَالْكَمَالُ بِقَلَّتِهِ اتِّفَاقًا، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، عَادَةً وَشَرِيعَةً، كَالْغَذَاءِ وَالنَّوْمِ، وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ وَالْحِكَمَاءُ تَتِمَادَحُ بِقَلَّتِهِمَا، وَتَذُمُّ بِكَثْرَتِهِمَا؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ دَلِيلٌ عَلَى النَّهْمِ وَالْجُرْصِ، وَالشَّرِّهِ، وَغَلْبَةِ الشَّهْوَةِ، مُسَبِّبٌ لِمَضَارِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، جَالِبٌ لِأَذْوَاءِ الْجَسَدِ، وَخَوَارِجِ النَّفْسِ، وَامْتِلَاءِ الدِّمَاغِ. وَقِلَّتُهُ دَلِيلٌ عَلَى الْقَنَاعَةِ، وَمِلْكَ النَّفْسِ؛ وَقَمْعِ الشَّهْوَةِ، مُسَبِّبٌ لِلصُّحَّةِ، وَصِفَاءِ الْخَاطِرِ، وَحِدَّةِ الذَّهْنِ، كَمَا أَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ دَلِيلٌ عَلَى الْفُسُوءَةِ وَالضَّعْفِ؛

وعدم الذكاء، والبُطْنَة، مسبَّب للكسل، وعادة العجز، وتضييع العُمْر في غير نفع، وقساوة القلب، وغفلته، وموته.

والشاهدُ على هذا ما يُعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، ويثقل متواتراً من كلام الأمم المتقدمة، والحكماء السالِّفين، وأشعار العرب وأخبارها، وصحيح الحديث، وآثار مَنْ سَلَف وخَلَف، مما لا يُحتاج إلى الاستشهاد عليه وإنما تركنا ذكره هنا اختصاراً واقتصاراً على اشتهار العلَم به.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفَتْنين بالآقل.

هذا ما لا يُدْفَع من سيرته، وهو الذي أمر به، وخَضَّ عليه، لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.

١٣٢ - حدثنا أبو علي الصَّدْفِي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل الأصْبَهَانِي، حدثنا أبو نُعَيْم الحافظ، حدثنا سُلَيْمَان بن أَحْمَد، حدثنا بَكْر بن سَهْل، حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بن صَالِح، حدثني معاوية بن صالح أَنَّ يَحْيَى بن جَابِر حَدَّثَهُ عَنِ الْمُقْدَامِ بن مَغْبِيْنٍ كَرِبَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، خَسِبَ ابْنُ آدَمَ أَكْلَاتِ يَقْمَنُ ضَلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مُحَالَةَ، فَتَلَّكَ لَطْعَامَهُ، وَتَلَّكَ لَشْرَابِهِ، وَتَلَّكَ لِنَفْسِهِ» [الترمذي (٢٣٨٠)، ابن ماجه (٢٣٤٩)].

ولأنَّ كثرة النوم من كثرة الشرب والأكل.

قال سفِيَان الثَّوْرِي: بِقَلَّةِ الطَّعَامِ يُمَلِّكُ سَهْرَ اللَّيْلِ.

وقال بعضُ السَّلَف: لَا تَأْكُلُوا كَثِيراً، فَتَشْرَبُوا كَثِيراً، فَتَرْقُدُوا كَثِيراً، فَتَخْسَرُوا كَثِيراً.

١٣٣ - وقد رَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا كَانَ عَلَى ضَفْفٍ [الترمذي (١٣٨)]؛ أَي كَثْرَةِ الْأَيْدِي.

١٣٤ - وعن عائشة رضي الله عنها: لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شَبْعاً قَطُّ، وَأَنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ لَا يَسْأَلُهُمْ طَعَاماً وَلَا يَنْشَاهَا، إِنْ أَطْعَمُوهُ أَكَلَ، وَمَا أَطْعَمُوهُ قَبْلَ، وَمَا سَقَوْهُ شَرِبَ.

١٣٥ - وَلَا يُغْتَرَضُ عَلَى هَذَا بِحَدِيثِ بَرِيرَةَ، وَقَوْلِهِ: «أَلَمْ أَرِ الْبُرْمَةَ فِيهَا لَحْمٌ؟» [البخاري (٥٠٩٧)، مسلم (١٤/١٥٠٤)] إِذْ لَعَلَّ سَبَبَ سُؤَالِهِ ظَنَّهُ ﷺ اعْتِقَادَهُمْ أَنَّهُ لَا يَجِلُّ لَهُ؛ فَأَرَادَ بَيَانُ مُنْتَهَى، إِذْ رَأَاهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوهُ إِلَيْهِ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ عَلَيْهِ بِهِ، فَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ ظَنَّهُ، وَيَسِّنْ لَهُمْ مَا جَهِلُوهُ مِنْ أَمْرِهِ بِقَوْلِهِ: «هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ».

وفي حِكْمَةِ لُقْمَانَ: يَا بُنَيَّ! إِذَا امْتَلَأَتِ الْمَعِدَةُ نَامَتِ الْفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الْحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الْأَعْضَاءُ عَنِ الْعِبَادَةِ.

وَقَالَ سُخْنُونُ: لَا يَصْلُحُ الْعِلْمُ لِمَنْ يَأْكُلُ حَتَّى يَشْبَعَ.

١٣٦ - وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَكِنًا» [البخاري (٥٣٩٨)، الترمذي (١٨٣٠)].

وَالِاتِّكَاءُ: هُوَ التَّمَكُّنُ لِلْأَكْلِ، وَالتَّقَعُّدُ فِي الْجُلُوسِ لَهُ كَالْمُتَرَبِّعِ، وَشِبْهَهُ مِنْ تَمَكُّنِ الْجُلُوسَاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُ فِيهَا الْجَالِسُ عَلَى مَا تَحْتَهُ، وَالْجَالِسُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ يَسْتَدْعِي الْأَكْلَ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُ.

١٣٧ - وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ جُلُوسُهُ لِلْأَكْلِ جُلُوسُ الْمُسْتَوْفِرِ مُقْبِعِيًا [مسلم (٢٠٤٤)].

١٣٨ - وَيَقُولُ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ».

وَلَيْسَ مَعْنَى الْحَدِيثِ فِي الْإِتِّكَاءِ الْمِيلُ عَلَى شَيْءٍ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ.

وَكَذَلِكَ نَوْمُهُ ﷺ كَانَ قَلِيلًا، شَهِدَتْ بِذَلِكَ الْأَنَارُ الصَّحِيحَةُ.

١٣٩ - وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانُ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي» [البخاري (١١٤٧)، مسلم (٧٣٨)].

١٤٠ - وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَى جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ [الترمذي (٣٣٩٩)، النسائي (٧٨٥)] اسْتَظْهَارًا عَلَى قَلَّةِ النَّوْمِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ أَهْنًا، لِهَذَوِ الْقَلْبِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ الْبَاطِنَةِ حِينَئِذٍ، لِمِيلِهَا إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ؛ فَيَسْتَدْعِي ذَلِكَ الْاسْتِقَالَ فِيهِ وَالطُّوْلَ.

وَإِذَا نَامَ النَّائِمُ عَلَى الْأَيْمَنِ تَعَلَّقَ الْقَلْبُ وَقَلَبَ، فَاسْرَعَ الْإِفَاقَةُ وَلَمْ يَغْمَرْهُ الْاسْتِغْرَاقُ.

فصل

فِيَمَا التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ

وَالضَّرْبُ الثَّانِي: هُوَ مَا يَتَّفِقُ التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ، وَالْفَخْرُ بِوَفُورِهِ، كَالنِّكَاحِ وَالْجَاهِ. فَأَمَّا النِّكَاحُ: فَمَتَّفَقٌ فِيهِ شَرْعًا وَعَادَةً؛ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْكَمَالِ، وَصَحَّةِ الذُّكُورَةِ، وَلَمْ يَزَلْ الْفَاحِشُ بِكَثْرَتِهِ عَادَةً مَعْرُوفَةً، وَالتَّمَادُّحُ بِهِ سِيرَةٌ مَاضِيَةٌ.

١٤١ - وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَسُنَّةٌ مَأْثُورَةٌ؛ وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً [البخاري (٥٠٦٩)]. مُشِيرًا إِلَيْهِ ﷺ.

١٤٢ - وقد قال عليه السلام: «تَنَاجَوْا تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأَمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٤٣ - وَنَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ [البخاري (٥٠٧٣)، مسلم (١٤٠٢)] مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قَنَعِ الشَّهْوَةِ، وَغَضِّ الْبَصَرِ لِلَّذِينَ نَبَّهَ عَلَيْهِمَا ﷺ بِقَوْلِهِ:

١٤٤ - «مَنْ كَانَ ذَا طَوِيلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَخْصَرَ لِلْفَرْجِ» [البخاري (٥٠٦٦)، مسلم (١٤٠٠)] حَتَّى لَمْ يَرَهُ الْعُلَمَاءُ مِمَّا يَقْدَحُ فِي الزَّهْدِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَدْ حُبِّبَ إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَكَيْفَ يُزْهَدُ فِيهِمْ؟ وَنَحْوَهُ لَابْنُ عُيَيْنَةَ.

وَقَدْ كَانَ زُهَادُ الصَّحَابَةِ كَثِيرِي الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِي، كَثِيرِي النِّكَاحِ.

وَحُكِيَ فِي ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ، وَالْحَسَنِ، وَابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِهِمْ غَيْرُ شَيْءٍ.

وَقَدْ كَرِهَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَبًا.

فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ يَكُونُ النِّكَاحُ وَكَثْرَتُهُ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَهَذَا يَخْبِي بَنَ زَكْرِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَتَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ حَاضِرًا؛ فَكَيْفَ يُخْبِي اللَّهُ بِالْعَجْزِ عَمَّا تَعُدُّهُ فَضِيلَةً؟

وَهَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَبَتَّلَ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا قُرِئَتْهُ لَنَكَحَ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ ثَنَاءَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِأَنَّهُ حَاضِرٌ لَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

إِنَّهُ كَانَ هَيُوبًا، أَوْ لَا ذَكَرَ لَهُ؛ بَلْ قَدْ أَنْكَرَ هَذَا حِذَاقُ الْمَفْسَرِينَ وَنَقَّادُ الْعُلَمَاءِ، وَقَالُوا: هَذِهِ تَقْيِصَةٌ وَغَيْبٌ، وَلَا تَلِيْقُ بِالْأَنْبِيَاءِ.

وَأِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ: أَيِ لَا يَأْتِيهَا، كَأَنَّهُ حُصِرَ عَنْهَا.

وَقِيلَ: مَانَعًا نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

وَقِيلَ: لَيْسَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فِي النِّسَاءِ.

فَقَدْ بَانَ لَكَ مِنْ هَذَا أَنَّ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى النِّكَاحِ نَقْصٌ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ فِي كَوْنِهَا مَوْجُودَةً، ثُمَّ قَمْعُهَا؛ إِنَّمَا بِمُجَاهَدَةٍ، كَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْ بِكَفَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى، كِيَحْيَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَضِيلَةٌ زَائِدَةٌ لِكُونِهَا شَاغِلَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، حَاطَّةً إِلَى الدُّنْيَا.

ثُمَّ هِيَ فِي حَقِّ مَنْ أَقْدِرَ عَلَيْهَا وَمَلَكَهَا وَقَامَ بِالْوَاجِبِ فِيهَا، وَلَمْ تَشْغَلْهُ عَنْ رَبِّهِ دَرَجَةً غَلِيًّا، وَهِيَ دَرَجَةٌ نَبِيْنَا مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي لَمْ تَشْغَلْهُ كَثْرَتُهَا عَنْ عِبَادَةِ

ربه؛ بل زاده ذلك عبادة، لِتَحْصِينِهِنَّ، وقيامه بحقوقهنَّ، واكتسابه لهنَّ، وهدايته إياهنَّ؛ بل صرَّح أنها ليست من حظوظ دُنْيَاهُ، وإنْ كَانَتْ من حظوظ دُنْيَا غيره.

١٤٥ - فقال: «حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». فدلَّ على أَنَّ حُبَّهُ لِمَا ذَكَرَ مِنَ النِّسَاءِ وَالطُّبِّبِ اللَّذِينَ هُمَا مِنْ أَمْرِ دُنْيَا غَيْرِهِ، واستعماله لذلك ليس لدُنْيَاهُ، بل لِأَخْرَجَتْهُ؛ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي التَّزْوِيجِ، وَلِلْقَاءِ الْمَلَائِكَةِ فِي الطُّبِّبِ؛ وَلأنَّهُ أَيْضاً مِمَّا يَحْضُرُ عَلَى الْجَمَاعِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَيَحْرُكُ أَسْبَابَهُ. وكان حُبُّهُ لِهَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ لِأَجْلِ غَيْرِهِ، وَقَمَعَ شَهْوَتَهُ؛ وَكَانَ حُبُّهُ الْحَقِيقِيُّ الْمَخْتَصُّ بِذَاتِهِ فِي مَشَاهِدَةِ جَبَرُوتِ مَوْلَاهُ وَمَنَاجَاتِهِ؛ وَلِذَلِكَ مَيَّزَ بَيْنَ الْحُبِّينِ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ.

١٤٦ - فقال: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»؛ فَقَدْ سَاوَى يَحْيَى وَعِيسَى فِي كِفَايَةِ فَتْنَتِهِنَّ، وَزَادَ فَضِيلَةَ بِالْقِيَامِ بِهِنَّ. وكان ﷺ مِمَّنْ أُقْدِرَ عَلَى الْقُوَّةِ فِي هَذَا، وَأُعْطِيَ الْكَثِيرَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا أُبَيِّحُ لَهُ مِنْ عَدَدِ الْحَزَائِرِ مَا لَمْ يَبِيَّحْ لِغَيْرِهِ.

١٤٧ - وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَنَسٍ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهِنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ. قَالَ أَنَسٌ: وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا [البخاري (٢٦٨، ٢٨٤)، مسلم (٣٠٩)، النسائي (٥٣/٦، ٥٤)].

١٤٨ - وَرَوَى نَحْوَهُ عَنْ أَبِي رَافِعٍ [أَبُو دَاوُدَ (٢١٩)، ابْنُ مَاجَةَ (٥٩٠)]. وَعَنْ طَاوُوسٍ: أُعْطِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُوَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا فِي الْجَمَاعِ. وَمِثْلُهُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ.

١٤٩ - وَقَالَتْ سَلْمَى مَوْلَاتُهُ: طَافَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً عَلَى نِسَائِهِ التَّسْعِ، وَتَطَهَّرَ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْآخَرَى؛ وَقَالَ: «هَذَا أَطِيبُ وَأَظْهَرُ».

١٥٠ - وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: لِأَطْرَفَيْنِ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ أَوْ تِسْعِ وَتِسْعِينَ [البخاري (٢٨١٩)، مسلم (١٦٥٤)]. وَأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ.

١٥١ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِي ظَهْرِ سُلَيْمَانَ مَاءٌ مِثَّةَ رَجُلٍ أَوْ تِسْعِ وَتِسْعِينَ، وَكَانَتْ لَهُ ثَلَاثُ مِئَةِ امْرَأَةٍ، وَثَلَاثُ مِئَةِ سُرَّةٍ.

١٥١م - وَحَكَى النِّقَاشُ وَغَيْرُهُ: سَبَعَ مِئَةَ امْرَأَةٍ، وَثَلَاثَ مِئَةِ سُرَّةٍ.

١٥١م - وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى زُفْدِهِ، وَأَكْلِهِ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ - تِسْعَ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَتَمَّتْ بِزَوْجِ أَوْرِيَا مِئَةٌ.

وقد نبّه على ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَفْسًا﴾ [ص: ٢٣].

١٥٢ - وفي حديث أنس عنه، عليه السلام: «فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ: بِالسَّخَاءِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَكَثْرَةِ الْجَمَاعِ، وَقُوَّةِ الْبَطْنِ».

وأما الجاه فمحمود عند العقلاء عادةً، وبقدّر جأه عظمه في القلوب. وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِئَها فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] لكن آفاته كثيرة؛ فهو مضرب ببعض الناس لعقبي الآخرة، فلذلك ذمه من ذمه، ومدح ضده.

وورد في الشّرع مدحُ الخمول، وذمُّ العلوّ في الأرض. وكان ﷺ قد رزق من الجشمة، والمكانة في القلوب، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقتصدون أذاه في نفسه خفية حتى إذا واجههم أعظموا أمره، وقصّروا حاجته. وأخباره في ذلك معروفة سيأتي بعضها.

وقد كان يتهت ويترق من رؤيته من لم يره. ١٥٣ - كما روي عن قبلة أنها لما رآته أزعجت من الفرق؛ فقال: يا مسكيناً عليك السكينة [البخاري (١١٨٣)، أبو داود (٤٨٤٧)، الترمذي (١١٩)].

١٥٤ - وفي حديث أبي مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأزعه؛ فقال له ﷺ: «هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ...» الحديث [ابن ماجه (٣٣١٢)].

فأما عظيم قدره بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وإنافه رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا، فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيّد ولد آدم. وعلى معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم بأسره.

فصل

فِيمَا تَخْتَلِفُ الْحَالَاتُ

فِي التَّمَدُّحِ بِهِ وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ

وأما الضرب الثالث: فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجله، ككثرة المال. فصاحبه على الجملة معظّم عند العامة، لا اعتقادها توصله به إلى حاجاته، وتمكن أغراضه بسببه، وإلا فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصورة، وصاحبه متيقفاً له في مهماته ومهمات من

اعتراه، وأَمَلَهُ؛ وتصريفه في مواضعه، مُشْتَرِياً به المَعَالِي والثَّاءُ الحسن، والمنزلة من القلوب، كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا.

وإذا صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلةً عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه مُنْسِكاً له غير موجّه وجوهه، حريصاً على جَمْعِهِ، عاد كُثْرُهُ كَالْعَدَمِ، وكان مُنْقَصَةً في صاحبه، ولم يَقِفْ به على جَدَدِ السلامة؛ بل أوقعه في هَوَا رذيلةِ البُخْلِ، ومَذْمَةِ التَّدَالَةِ؛ فإذا التَمَدَّحُ بالمال وفضيلته عند مُقْضِيهِ ليست لنفسه، وإنما هو للتوصّل به إلى غيره، وتصريفه في مُتَصَرِّفَاتِهِ، فجامعُهُ إذا لم يَضَعْ مواضعه، ولا وَجْهَهُ وجوهه غَيْرُ مَلِيٍّ بالحقيقة، ولا غَنِي بالمعنى، ولا مُتَمَدِّح عند أَحَدٍ من العقلاء؛ بل هو فقير أبداً، غَيْرُ واصل إلى غَرَضٍ من أغراضه؛ إِذْ مَا يَبْدُو من المال الموصّل لها لم يُسَلِّطْ عليه، فأشبهه خازن مال غيره، ولا مال له؛ فكأنه ليس في يده منه شيء.

والمُنْفِقُ مَلِيٌّ وغَنِيٌ بتحصيله فوائد المال، وإن لم يَبْقَ في يده من المال شيء.

فانظُرْ سيرة نبينا ﷺ وخُلُقَهُ في المالِ تجذّه قد أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأحلّت له الغنائم، ولم تحلّ لِنَبِيِّ قَبْلِهِ، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دَانِي ذلك من الشام والعراق، وجُلِبَتْ إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يُجَبِّي للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً؛ بل صرفه مصارفه، وأغنى به غَيْرَهُ، وقوَّى به المسلمين.

١٥٥ - وقال: «ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار، إلا ديناراً أُرْصِدُهُ لِلدِّينِي» [البخاري (٦٤٤٤)، مسلم (٣٢/٩٤)، (٩٩١)].

١٥٦ - وأتته دنانير مرةً فقَسَمَهَا، وبقيت منها سِتَّةٌ؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذهُ نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن اسْتَرحْتُ».

١٥٧ - ومات ودرعهُ مرهونةً في ثَقَفَةِ عِيَالِهِ [البخاري (٤٤٦٧)، مسلم (١٦٠٣)]. واقتصر من ثَقَفَتِهِ ومَلْبَسِهِ ومسكنه على ما تدعوهُ ضرورته إليه.

ورَهْدَ فيما سِوَاهُ، فكان يلبس ما وجده؛ فيَلْبَسُ في الغالب الشَّمْلَةَ، والكساءَ الحَشيْن، والبُرْدَ الغليظ، ويُقَسِّمُ على مَنْ حضره أَقْبِيَّةَ الديباج المَحْوَصَةِ بالذهب، ويرفَعُ لِمَنْ لم يحضره؛ إِذِ المَبَاهَاةُ في الملابس والتزيّن بها ليست من

خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء.

والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثليه، غير مُنقبط لمروءة جنسه، مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرقتين.

وقد ذمَّ الشرع ذلك؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال.

وكذلك التباهي بجودة المسكن، وسعة المنزل، وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته.

ومن ملك الأرض، وجبى إليه ما فيها، فترك ذلك زهداً وتنزهاً، فهو حائز لفضيلة المالية، ومالك للفخر بهذه الخصلة - إن كانت فضيلة - زائد عليها في الفخر، ومُعرق في المدح بإضرابه عنها، وزهده في فانيها، وبذليها في مظانها.

فصل

في حسن خلقه ﷺ

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصيف بالخلق الواحد منها، فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بغضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق؛ وهو الاعتدال في قوئ النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد ﷺ على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

١٥٨ - قالت عائشة - رضي الله عنها -: كان خلقه - ﷺ - القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه.

١٥٩ - وقال ﷺ: «بِعِثْتُ لَأَتَمَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ» [أحمد (٣٨١/٢)].

١٦٠ - قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً [البخاري (٦٢٠٣)، مسلم (٢١٥٠)].

١٦١ - وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثله.

وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم

تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بحدود إلهي، وخصوصية ربانية.
وهكذا لسائر الأنبياء والمرسلين، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى منبتهم
حقق ذلك، كما عُرِف من حال عيسى، وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم،
عليهم السلام.

بل غُرِزَتْ فيهم هذه الأخلاق في الجبلة، وأودِعُوا العِلْمَ والحِكْمَةَ في
الفطرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْتَهُ إِلَيْكُمْ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

قال المفسرون: أُعْطِيَ يحيى العِلْمَ بكتاب الله تعالى في حال صباه.
١٦٢ - وقال مَعْمَرٌ: كان يحيى ابنَ ستين أو ثلاث، فقال له الصُّبيان: لِمَ
لا تلعب؟ فقال: أَلَلَّعِبِ خُلِقْتُ؟

وقيل في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صدق يحيى
بعيسى؛ وهو ابنُ ثلاث سنين، فشهد له أنه كَلِمَةُ اللَّهِ وروحه.
وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد ما
في بطني يسجد لما في بطنك؛ نَجِيَّةً له.

وقد نصَّ اللَّهُ تعالى على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿أَلَّا
تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤] على قراءة من قرأ: ﴿وَمِنْ نَحْوِهَا﴾ [مريم: ٢٤] وعلى قول من
قال: إن المنادي عيسى عليه السلام.

ونصَّ على كلامه في مهده، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾
[مريم: ٣٠].

وقال: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنُ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

١٦٣ - وقد ذُكِرَ من حِكْمِ سليمان وهو صبي يلعب في قصة المزجومة.

١٦٤ - وفي قصة الصبي [البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠)] ما اقتدى به داود أبوه.

وحكى الطبري أنَّ عُمَرُه كان حينَ أوتي المُلْكُ اثني عشر عاماً.

وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه يُلْحِيته وهو طفل.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾

[الأنبياء: ٥١]؛ أي هَدَيْنَاهُ صغيراً؛ قاله مُجَاهِدٌ وغيره.

وقال ابنُ عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه.

وقال بعضهم: لَمَّا وُلِدَ إبراهيم - عليه السلام - بعثَ اللَّهُ تعالى إليه ملكاً

يأمره عن الله أَنْ يَغْرِقَهُ بِقَلْبِهِ، ويذكره بلسانه؛ فقال: قد فعلتُ، ولم يَقُلْ: أفعَلْ؛
فذلك رُشْدُهُ.

وقيل: إن إلقاء إبراهيم - عليه السلام - في النار وميخته كانت وهو ابنُ ستِّ عشرة سنة، وإن ابتلاء إسحاق بالذبح كان وهو ابنُ سبع سنين؛ وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابنُ خمسة عشر شهراً.

وقيل: أوجي إلى يوسف وهو صبي عندما همَّ إخوته بإلقائه في الجُب، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

إلى غير ذلك مما ذكر من أخبارهم.

١٦٤م - وقد حكى أهل السير أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمداً ﷺ ولد حين وُلد باسطاً يديه إلى الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء.

١٦٥ - وقال في حديثه ﷺ: «لَمَّا نَشَأْتُ بَغِضْتُ إِلَيَّ الْاَوْنَانُ. وَبَغِضَ إِلَيَّ الشُّغْرُ».

١٦٦ - و «لَمْ أَهَمْ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، فَعَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ لَمْ أَغْذُ».

ثم يَتِمَّ كُنْ الْأَمْرُ لَهُمْ، وَتَتَرَادَفُ نَفَحَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتُشْرِقُ أَنْوَارُ الْمَعَارِفِ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى يَصِلُوا الْغَايَةَ، وَيَبْلُغُوا - بِاصْطِفَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالنَّبُوَّةِ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْخِصَالِ الشَّرِيفَةِ - النِّهَايَةَ دُونَ مُمَارَسَةِ وَلَا رِيَاضَةٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الفصص: ١٤].

وقد نجد غيرهم يُطَبِّعُ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ دُونَ جَمِيعِهَا، وَيُولَدُ عَلَيْهَا، فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ اِكْتِسَابُ تَمَامِهَا عِنَايَةً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا نَشَاهِدُ مِنْ خَلْقِهِ بَعْضُ الصِّبْيَانِ عَلَى حُسْنِ السُّنَنِ، أَوِ الشَّهَامَةِ، أَوِ صِدْقِ اللِّسَانِ، أَوِ السَّمَاخَةِ؛ وَكَمَا نَجِدُ بَعْضَهُمْ عَلَى ضِدِّهَا؛ فَبِالْاِكْتِسَابِ يَكْمُلُ نَاقِضُهَا، وَبِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ يُسْتَجْلَبُ مَعْدُومُهَا، وَيَعْتَدَلُ مُتَحَرِّفُهَا، وَبِاخْتِلَافِ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِيهَا.

١٦٦م - و «كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» [البخاري (٤٩٤٥)، مسلم (٧/٢٦٤٦)]. ولهذا ما قد اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جِبِلَّةٌ أَوْ مُكْتَسَبَةٌ؟

فحكى الطبري عن بعض السلف أن الخلق الحسن جِبِلَّةٌ وغيرة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود، والحسن، وبه قال هو. والصواب ما أصلناه.

١٦٧ - وقد رَوَى سَعْدٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ الْخِلَالِ يُطَبِّعُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ».

١٦٨ - وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ: وَالْجُبْنَ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللَّهُ حَيْثُ يَشَاءُ.

وهذه الأخلاقُ المحمودة والخِصَالُ الجميلة كثيرةٌ، ولكننا نذكر أصولها، ونُشير إلى جميعها، ونَحَقِّقُ وَضْعَهُ ﷺ بها إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فصل

فِي نَبَاهَةِ عَقْلِهِ ﷺ

أَمَّا أَصْلُ فُرُوعِهَا، وَعَنْصَرُ يَنْبِيعِهَا، وَنُقْطَةُ دَائِرَتِهَا فَالْعَقْلُ الَّذِي مِنْهُ يَنْبَعُ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ، وَيَتَفَرَّعُ عَنْ هَذَا ثُقُوبُ الرَّأْيِ، وَجُودَةُ الْفِطْنَةِ، وَالْإِصَابَةُ، وَصِدْقُ الظَّنِّ، وَالنَّظَرُ لِلْعَوَاقِبِ وَمَصَالِحِ النَّفْسِ، وَمَجَاهِدَةُ الشَّهْوَةِ، وَحَسَنُ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ، وَاقْتِنَاءُ الْفَضَائِلِ، وَتَجَنُّبُ الرِّذَائِلِ.

وقد أشرنا إلى مكانه مِنْهُ ﷺ، وبلوغه مِنْهُ، وَمِنْ الْعِلْمِ الْغَايَةِ الَّتِي لَمْ يَبْلُغْهَا بَشَرٌ سِوَاهُ.

وَإِذْ جَلَالَةُ مَحَلِّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمِمَّا تَفَرَّعَ مِنْهُ مَتَحَقِّقٌ عِنْدَ مَنْ تَتَبَعَ مَجَارِيَ أَحْوَالِهِ، وَأَطْرَادَ سِيرِهِ، وَطَالَعَ جَوَامِعَ كَلَامِهِ، وَحَسَّنَ شَمَائِلَهُ، وَبَدَأَتْ سِيرَهُ، وَجَحَّمَ حَدِيثَهُ، وَعَلَّمَهُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ، وَجَحَّمَ الْحُكَمَاءَ، وَسَيَّرَ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ، وَأَيَّامَهَا، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، وَسِيَاسَاتِ الْأَنَامِ، وَتَقَرَّرَ الشَّرَائِعُ وَتَأَصَّلَ الْأَدَابُ النَّفْسِيَّةُ، وَالشِّيمُ الْحَمِيدَةُ، إِلَى فَنُونِ الْعُلُومِ الَّتِي اتَّخَذَ أَهْلُهَا كَلَامَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيهَا قُدُورَةً، وَإِشَارَاتِهِ حُجَّةً؛ كَالْعِبَارَةِ، وَالطَّبِّ، وَالْحِسَابِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالتَّنَسُّبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَنُبَيِّنُهُ فِي مَعْجَزَاتِهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - دُونَ تَعْلِيمِهِ، وَلَا مُدَارَسَةِ، وَلَا مَطَالَعَةِ كُتُبٍ مَنْ تَقَدَّمَ، وَلَا الْجُلُوسِ إِلَى عِلْمَائِهِمْ؛ بَلْ نَبِيٌّ أُمِّيٌّ لَمْ يُعْرِفْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صُدْرَهُ، وَأَبَانَ أَمْرَهُ، وَعَلَّمَهُ، وَأَقْرَأَهُ، يُعَلِّمُ ذَلِكَ بِالْمَطَالَعَةِ وَالبَحْثِ: مِنْ حَالِهِ ضَرُورَةً، وَبِالْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ عَلَى نُبُوَّتِهِ نَظَرًا؛ فَلَا تُطَوَّلُ بِسَرْدِ الْأَقَاصِيصِ، وَآحَادِ الْقَضَايَا؛ إِذْ مَجْمُوعُهَا مَا لَا يَأْخُذُهُ حَضَرٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ حِفْظٌ جَامِعٌ، وَبِحَسَبِ عَقْلِهِ كَانَتْ مَعَارِفُهُ ﷺ إِلَى سَائِرِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَطَّلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ، وَعَجَائِبُ قُدْرَتِهِ، وَعَظِيمُ مَلَكُوتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

حارَت العقولُ في تقدير فضله عليه، وَخَرِسَتِ الألسُن دُونَ وَضْفِ يحيط بذلك أو يتهي إليه.

فصل

في حِلْمِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَعَفْوِهِ وَصَبْرِهِ

وأما الحِلْمُ والاحتِمَالُ، والعَفْوُ مع القدرة، والصَبْرُ على ما يُكْرَهُ؛ وَبَيَّنَ هذه الألقابَ فرقاً، فَإِنَّ الحِلْمَ: حالةٌ تَوَقَّرَ وَثَبَاتٌ عند الأسبابِ المحرِّكات. والاحتِمَالُ: حِسُّ النفسِ عند الآلامِ والمؤذيات. ومثلُها الصبر، ومعانيها متقاربة. وأما العَفْوُ: فهو تَرْكُ المؤاخِذة.

وهذا كله مما أذب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال: ﴿خُذِ الْقِتْمَ وَأَمْرٌ بِالْمَرْءِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

١٦٩ - رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل - عليه السلام - عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالم.

ثم ذهب فاتاه، فقال: «يا محمداً إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

وقال له: ﴿وَأَسِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَمِّ الْأُمُورِ﴾ [القمان: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَكِنْ صَبِرْ وَصْفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ولا خفاء بما يُؤَثِّرُ من حِلْمِهِ واحتماله، وَأَنَّ كُلَّ حَلِيمٍ قد عُرِفَتْ منه زَلَّةٌ، وَحُفِظَتْ عنه هَفْوَةٌ، وهو ﷺ لا يزيدُ مع كثرة الأذى إلا صَبْرًا، وعلى إسراف الجاهلِ إلا جَلَمًا.

١٧٠ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن علي التُّغْلَبِي وغيره، قالوا:

حدثنا محمد بن عتاب، حدثنا أبو بكر بن وافر القاضي وغيره، حدثنا أبو عيسى،

حدثنا عُبيد الله قال: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن

عُرْوَةَ، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما خَبَّرَ رسولُ الله ﷺ في أمرين قط

إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فَإِنْ كَانَ إِثْماً كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وما انتقم

رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ تعالى، فينتقمَ لِلَّهِ بها [البخاري

(٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧)].

١٧١ - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وَشَجَّ وَجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ شَقًّا شَدِيدًا، وَقَالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنِّي لَمْ أَتُحِثْ لَعَنًا، وَلَكِنِّي بَعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً. اللَّهُمَّ! اغْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [البخاري (٢٩٠٣)، مسلم (١٧٩٠)].

١٧٢ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: يَا بَنِي آدَمَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ دَعَا نُوْحٌ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا» [نوح: ٢٦]. وَلَوْ دَعَوْتَ عَلَيْنَا مِثْلَهَا لَهْلَكْنَا مِنْ عِنْدَ آخِرِنَا، فَلَقَدْ وَطِئَ ظَهْرُكَ، وَأَذْمِي وَجْهَكَ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُكَ، فَابَيْتَ أَنْ تَقُولَ إِلَّا خَيْرًا، فَقُلْتَ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والجلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم، ورحمهم، ودعا وشفع لهم، فقال: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ» أو «اغْدِ» ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لِقَوْمِي» ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: «فإنهم لا يعلمون».

١٧٣ - وَلَمَّا قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: اغْدِلْ، فَإِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، لَمْ يَزِدْهُ فِي جَوَابِهِ أَنْ يَبَيِّنَ لَهُ مَا جَهِلَهُ.

ووعظ نفسه، وذكرها بما قال له، فقال: «وَيْحَكَ! فَمَنْ يَغْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ» [البخاري (٣١٣٨)، مسلم (١٠٦٣)] ونهى من أراد من أصحابه قتله.

١٧٤ - وَلَمَّا تَصَدَّى لَهُ عُورَثُ بْنُ الْحَارِثِ لِيَفْتِكَ بِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَبَذِّدٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَخَذَهُ قَائِلًا، وَالنَّاسُ قَائِلُونَ، فِي غَزَاةٍ، فَلَمْ يَنْتَبِهْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَالسَّيْفُ صُلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقَالَ: «اللَّهُ» فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فَتَرَكَهُ وَعَفَا عَنْهُ. فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ [البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣)].

١٧٥ - وَمِنْ عَظِيمِ خَيْرِهِ فِي الْعَفْوِ عَفْوُهُ عَنِ الْيَهُودِيَةِ الَّتِي سَمَّتهُ فِي الشَّاةِ بَعْدَ اعْتِرَافِهَا [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)]، عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الرِّوَايَةِ.

١٧٦ - وَأَنَّهُ لَمْ يُوَاجِذْ لَبِيدَ بْنَ الْأَعْصَمِ إِذْ سَحَرَهُ، وَقَدْ أَعْلَمَ بِهِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِشَرْحِ أَمْرِهِ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فَضْلًا عَنْ مَعَايِبِهِ [البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (٢١٨٩)].

١٧٧ - وكذلك لم يواخذ عبد الله بن أبي، وأشباهه من المنافقين، بعظيم ما نُقل عنهم في جهته قولاً وفعلًا؛ بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه» [البخاري (٤٩٠٥)، مسلم (٦٣/٢٥٨٤)].

١٧٨ - وعن أنس رضي الله عنه: كنتُ مع النبي ﷺ، وعليه بُردٌ غليظ الحاشية، فجبذ الأعرابي بردائه جبذةً شديدة حتى أثرت حاشية الرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد! احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك.

فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده».

ثم قال: «ويفاد منك، يا أعرابي! ما فعلت بي».

قال: لا.

قال: «لم؟» قال: لأنك لا تكافئ بالسينة السيئة [البخاري (٣١٤٩)، مسلم

(١٠٥٧)].

فضحك النبي ﷺ؛ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر.

١٧٩ - قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حُرمةً من محارم الله. وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما ضرب خادماً قط ولا امرأة [البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٣٢٢٧، ٣٢٢٨) الترمذي (٣٤٢)].

١٨٠ - وجيء إليه برجل، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ: «لن تُزاع، لن تُزاع، ولو أردت ذلك لم تُسلط علي» [أحمد (٤٧١/٣)].

١٨١ - وجاءه زيد بن سَعْنَةَ قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه، فجبذ ثوبه عن منكبيه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم، يا بني عبدالمطلب! مُطل، فانتهره عمر، وشدد له في القول، والنبي ﷺ يتبسّم.

فقال رسول الله ﷺ: «أنا، وهو، كُنا إلى غير هذا منك أخوج، يا عمرا تأمرني بخسن القضاء، وتأمره بخسن التقاضي».

ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث» وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لِمَا رَوَّعَه؛ فكان سبب إسلامه.

وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرَفْتُها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبقُ جِلْمُه جهْلُه، ولا يزيده شدة الجهل إلا جِلْماً. فاخبره بهذا، فوجده كما وُصف.

والحديث عن جلّله عليه السلام وصبره وعَفْوِهِ عند المقدرة أَكْثَرُ من أن نَأْتِي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنّفات الثابتة، إلى ما بلغ متواتراً مَبْلَغُ اليقين: مِنْ صبره على مُقَاسَاةِ قريش، وأدّى الجاهلية، ومُصَابِرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أَظْفَرَهُ اللّهُ عليهم، وحكّمه فيهم، وهم لا يشكّون في استئصال شأفتهم، وإبادة خُضْرَانِهِمْ؛ فما زاد على أن عفا وصفح.

١٨٢ - وقال: «ما تقولون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْرِىَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] «اذهبوا فأنتم الطلقاء» [الناسي (١٠/١٣٤)].

١٨٣ - وقال أنس: هبط ثمانون رجلاً من التَّعْنِيمِ صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ؛ فأنزل اللّهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٨)].

١٨٤ - وقال لأبي سفيان - وقد سبقَ إليه بعد أن جَلَبَ إليه الأحزاب، وقتل عنه وأصحابه ومثّل بهم، فعفا عنه، ولاطفه في القول -: «وَيْحَكَ! يا أبا سفيان! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» فقال: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي، ما أَخْلَمَكَ وأوصلك وأكرمك!.

وكان رسول الله ﷺ أبعدَ الناسِ غَضَباً، وأسرعهم رِضاً، ﷺ.

فصل

فِي جُودِهِ وَكَرَمِهِ وَسَخَائِهِ وَسَمَاحَتِهِ ﷺ

وأما الجود والكرم، والسخاء والسّماحة، ومعانيها متقاربة؛ وقد فُرقَ بعضهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكرم: الإنفاقَ بطيبِ النفس فيما يعظمُ خَطَرُهُ ونَفْعُهُ، وسمّوه أيضاً حُرِّيَّةً، وهو ضدُّ التَّدَالَةِ.

والسماحة: التَّجَافِي عما يستحقُّه المرءُ عند غيره بطيبِ نفس، وهو ضدُّ الشُّكَاةِ.

والسخاء: سهولةُ الإنفاق، وتَجَنُّبُ اكتسابِ ما لا يُحْمَدُ، وهو الجود، وهو ضدُّ التَّقْتِيرِ.

وكان ﷺ لا يُوزَى في هذه الأخلاقِ الكريمة، ولا يُبَارَى، بهذا وصفه كلُّ مَنْ عَرَفَهُ.

١٨٥ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الصَّدْفِي رحمه الله، حدثنا القاضي أبو الوليد الباجي، حدثنا أبو ذر الهَرَوِي، حدثنا أبو الهيثم الكُشْمِينِي، وأبو محمد السَّرْحِي، وأبو إسحاق البلخي؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله القُرَيرِي؛ حدثنا البخاري، قال حدثنا محمد بن كَثِير، حدثنا سفيان، عن ابن المُكْدِر، سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: ما سُئِلَ النبي ﷺ عن شيء فقال: لا. [البخاري (٦٠٣٤)، مسلم (٢٣١١)].

١٨٦، ١٨٧ - وعن أنس وسَهْل بن سعد مثله [مسلم (٢٣١٢)].

١٨٨ - وقال ابنُ عباس: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لَقِيَه جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الرِّيح المُرسَلة [البخاري (٦)، مسلم (٢٣٠٨)].

١٨٩ - وعن أنس أَنَّ رجلاً سألَه فأعطاه غَنَمًا بين جَبَلَيْن، فرجع إلى بلده، وقال: أسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عطاءً مَنْ لا يَخْشَى فاقةً [مسلم (٢٣١٢)]. وأعطى غَيْرَ واحد مئةً من الإبل.

١٩٠ - وأعطى صفوانَ مئةً، ثم مئةً، ثم مئةً [مسلم (٢٣١٣)]. وهذه كانت حاله ﷺ قبل أن يَبْعَث.

١٩١ - وقد قال له وَرَقَةُ بن نوفل: إنك تحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١٩٢ - وردَّ على هَوَازَن سَبَايَاها، وكانوا ستَّة آلاف [البخاري (٢٣٠٧، ٢٣٠٨)].

١٩٣ - وأعطى العباسَ من الذهب ما لم يُطْلَق حَمْلُهُ [البخاري (٤٢١)].

١٩٤ - وحُمِلَ إليه تسعون ألفَ درهم، فوَضَعَتْ على حصير، ثم قام إليها يَتَسَمُّها، فما رَدَّ سائلاً حتى فرغَ منها.

١٩٥ - وجاءه رجلٌ، فسأله، فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قَضَيْنَاهُ...».

فقال له عُمر: ما كَلَّفَكَ اللَّهُ ما لا تَقْدِر عليه.

فكرة النبي ﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أتَفِيقُ ولا تَخَفُ من ذي العرشِ إِفْلاًلاً؟

فتبسَّم ﷺ وعُرفَ البَشَرُ في وجهه، وقال: «بهذا أُمِرْتُ» [الترمذي (٣٤٨)]. ذكره الترمذي.

١٩٦ - وَذَكَرَ عن مُعَوِّذ بن عَفْرَاء قال: أَتَيْتُ النبي ﷺ بِقِنَاعٍ من رُطْبٍ

- يريد: طَبَقاً - وأَجِرْ رُغْبٍ - يريد: قِثَاءً - فأعطاني مِلءَ كَفِّهِ حُلِيّاً وَذَهَباً [أحمد (٣٥٩/٦)، الترمذي (٢٠٣، ٢٠٤، ٣٤٩)].

١٩٧ - وقال أنس: كان النبي ﷺ لا يَدْخِرُ شيئاً لَعَلِّهِ [الترمذي (٢٣٦٢)].
والخَبَرُ بجوده وكرمه - ﷺ - كثير.

١٩٨ - وعن أبي هريرة: أتى رجلُ النبي ﷺ يسأله، فاستَسَلَفَ له رسولُ الله ﷺ نِصْفَ وَسْقٍ، فجاء الرجلُ يتقاضاه، فأعطاه وَسْقاً وقال: «نِصْفُهُ قِضَاءٌ، ونِصْفُهُ نَائِلٌ».

فصل

فِي شَجَاعَتِهِ وَنَجْدَتِهِ ﷺ

وأما الشجاعةُ والنجدةُ، فالشجاعةُ: فضيلةُ قوةِ الغضبِ وانقيادِها للعقلِ، والنَّجْدَةُ: ثقةُ النفسِ عند استرسالها إلى الموتِ حيث يُحْمَدُ فعلُها دونَ خوفٍ.
فكان النبي ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجْهَلُ؛ قد حضر المواقِفَ الصعبةَ، وفرَّ الكَمَاءَ والأبطالَ عنه غَيْرَ مَرَّةٍ، وهو ثابتٌ لا يَنْزَحُ، ومُقْبِلٌ لا يُدْبِرُ ولا يتزحزح. وما شجاعٌ إلا وقد أُخْصِيَتْ له قُرَّةٌ، وحَفِظَتْ عنه جَوْلَةٌ، سِوَاهُ.

١٩٩ - حدثنا أبو علي الجبَّاني في ما كتب لي؛ قال: حدثنا القاضي سراج، حدثنا أبو محمد الأصيلي، قال: حدثنا أبو زَيْدٍ الفقيه، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا ابن بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شُعْبَةُ، عن أبي إسحاق: سَمِعَ الْبَرَاءَ - وسأله رجلٌ: أفرزْتُم يومَ حُنَيْنٍ عن رسولِ الله ﷺ؟ - قال: لكن رسولَ الله ﷺ لم يَفِرَّ.

ثم قال: لقد رَأَيْتُهُ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَأَبُو سَفِيَّانٍ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبٌ» وزاد غيره: «أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» [البخاري (٤٣١٧)، مسلم (٨٠/١٧٧٦)].

قيل: فما رُئِيَ يومئذٍ أَحَدٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ.

وقال غَيْرُهُ [البخاري (٤٣١٧)]: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَغْلَتِهِ.

٢٠٠ - وذكر مُسْلِمٌ، عن العباس، قال: فلما اتَّقَى المسلمون والكفارَ وَلَّى المسلمون مُذْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرْكَضُ بَغْلَتَهُ نَحْوَ الْكَفَّارِ، وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِهَا أَكْفُهَا إِرَادَةً أَلَّا تُسْرِعَ، وَأَبُو سَفِيَّانٍ آخِذٌ بِرُكَابِهِ، ثُمَّ نَادَى: يَا لِّلْمُسْلِمِينَ... الحديث [مسلم (١٧٧٥)].

٢٠١ - وقيل: وكان رسول الله ﷺ إذا غضب - ولا يَغْضَبُ إلا الله - لم يَفُتْ لَغْضَبِهِ شَيْءٌ.

٢٠٢ - وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجع، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أزضى ولا أفضل مِنْ رسول الله ﷺ.

٢٠٣ - وقال علي رضي الله عنه: إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ - ويروى: اشتدَّ البأس - واحمرَّتِ الْحَدَقُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فما يكون أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ وَلَقَدْ رَأَيْتِي يَوْمَ بَذَرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا [أحمد (٨٦/١)، مسلم (١٧٧٦)].

٢٠٤ - وقيل: كان الشجاعُ هُوَ الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ ﷺ إِذَا ذَا الْعَدُوِّ، لِقُرْبِهِ مِنْهُ.

٢٠٥ - وعن أنس: كان النبي ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ؛ لَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قَبْلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا، قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَاسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عَزْرِي، وَالسِّيفُ فِي عُنُقِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَنْ تَرَاؤُا» [البخاري (٢٩٠٨)، مسلم (٢٣٠٧)].

٢٠٦ - وقال عمران بن حصين: مَا لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَتِيبَةً إِلَّا كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَضْرِبُ.

٢٠٧ - ولما رآه أَبِي بِن خَلْفَ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟ لَا نَجُوتُ إِنْ نَجَا!

وقد كان يقول للنبي ﷺ - حين اقتدى يَوْمَ بَذَرٍ -: عِنْدِي فَرَسٌ أَعْلَفُهَا كُلَّ يَوْمٍ قَرَفًا مِنْ ذُرَّةٍ أَقْتَلُكَ عَلَيْهَا.

فقال له النبي ﷺ: «أَنَا أَقْتَلُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

فلما رآه يوم أُحُدٍ شَدَّ أَبِي عَلَى فَرَسِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي ﷺ: «هَكَذَا» أَي: خَلُّوا طَرِيقَهُ، وَتَنَاوَلِ الْحَرْبَةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصُّمَّةِ، فانتفض بها انتفاضةً، تطايروا عنه تطايرَ الشُّغَرَاءِ عَنْ ظَهْرِ الْبَعِيرِ إِذَا انْتَفَضَ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فطعنه في عنقه طعنةً تَدَاذًا مِنْهَا عَنْ قَرَسِهِ مِرَارًا.

وقيل: بل كَسَرَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَرَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ يَقُولُ: قَتَلْتَنِي مُحَمَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا بَأْسَ بِكَ. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «أَنَا أَقْتَلُكَ؟» وَاللَّهِ! لَوْ بَصَّقْتُ عَلَيْكَ لَقَتَلْتَنِي. فمات بِسَرَفٍ فِي قَفُولِهِمْ إِلَى مَكَّةَ.

فصل

فِي حَيَاتِهِ وَإِغْضَائِهِ ﷺ

وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رِقَّةٌ تَغْتَرِي وَجْهَ الإنسان عند فِعْلٍ ما يُتَوَقَّعُ كراهته، أو ما يكونُ تَرْكُهُ خيراً من فِعْلِهِ.

والإغضاء: التغافلُ عما يَكْرَهُ الإنسانُ بطبيعته.

وكان النبي ﷺ أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العُزَازِ إغضاءً؛ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجْ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجْ مِنْ آلِ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٢٠٨ - وحدثنا أبو محمد بن عتاب - رحمه الله - بقراءة علي؛ حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسبي، حدثنا أبو زيد المَرْزُوزِيُّ، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبْدَان، أخبرنا عَبْدُ اللَّهِ، أخبرنا شُعْبَةُ، عن قَتَادَةَ، سمعتُ عَبْدَ اللَّهِ: مولى أَنَسٍ، يحدثُ عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العُذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا. وكان إذا كَرِهَ شيئاً عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ [البخاري (٦١٠٢)].

وكان ﷺ لطيفَ البَشْرةِ، رقيقَ الظاهر، لا يشافيهُ أحداً بما يكرهه حياءً وكرَمَ نَفْسٍ.

٢٠٩ - وعن عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يَقُلْ: ما بالُ فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «ما بالُ أقوام يصنعون، أو يقولون كذا؟» [أبو داود (٤٧٨٨)] يَنْتَهِي عنه، ولا يُسْمِي فاعِلَه.

٢١٠ - وَرَوَى أَنَسٌ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ ضُفْرَةٍ، فلم يَقُلْ لَهُ شيئاً - وكان لا يُواجِهُ أحداً بما يكره - فلما خرج قال: «لو قلتم له: يغسلُ هذا؟» وَيُرَوَّى: «يَتْرَعُهَا» [أبو داود (٤١٨٢)، (٤٧٨٩)، الترمذي (٣٣٩)].

٢١١ - قالت عائشة في الصحيح: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا مُتَفَحِّشاً ولا سَخَاباً بِالْأَسْوَاقِ، ولا يَجْزِي بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ، ولكن يعفو ويصفح [الترمذي (٢٠١٦)، أحمد (١٧٤/٦)].

٢١٢، ٢١٣ - وقد حُكِيَ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ التَّوْرَةِ، مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ.

٢١٤ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ حَيَاتِهِ لَا يَثْبُتُ بَصَرُهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ.

٢١٤م - وأنه كان يَكْنِي عما اضطره الكلام إليه مما يُكْرَه.
٢١٥ - وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ قرَجَ رسولِ الله ﷺ قط.

فصل في حُسْنِ عِشْرَتِهِ وَأَدَبِهِ وَبَسْطِ خُلُقِهِ مَعَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ

وأما حُسْنُ عِشْرَتِهِ، وأَدَبِهِ، وَبَسْطُ خُلُقِهِ - ﷺ - مع أَصْنَافِ الْخَلْقِ فَبَحِثُ انتشرت به الأخبارُ الصحيحةُ.

٢١٦ - قال علي رضي الله عنه في وَضْفِهِ ﷺ: كان أَوْسَعَ النَّاسِ صُدْرًا، وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً.

٢١٧ - حدثنا أبو الحسن: علي بن مُشَرَّفِ الْأَنْمَاطِي فيما أَجَازَنِيهِ، وقرأته على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الجَبَّال، حدثنا أبو محمد بن النجاس، حدثنا ابنُ الأعرابي، حدثنا أبو دَاوُد، حدثنا هشام: أبو مَرْوَانَ، ومحمد بن المثنى قالَا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الْأَوْزَاعِي، سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أَشْعَدَ بن زُرَّارَةَ، عن قَيْسِ بن سعد، قال: زَارَنَا رسولُ الله ﷺ - وذكر قصةً في آخرها: فلما أراد الانصرافَ قَرَّبَ له سعدُ حمارًا، وَوَطَأَ عليه بِقَطِيفَةٍ، فركب رسولُ الله ﷺ، ثم قال سَعْدُ: يا قيس! اصْحَبْ رسولَ الله ﷺ.

قال قيس: فقال رسولُ الله ﷺ: «ارْكَبْ» فَأَبَيْتُ. فقال: «إِنَّمَا أَنْ تَرْكَبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَنْصَرِفَ»، فانصرفتُ [أبو داود (٥١٨٥)، أحمد (٤٢١/٣)، النسائي (٣٢٤، ٣٢٥)، ابن ماجه (٤٦٦)].

وفي رواية أخرى: «ارْكَبْ أَمَامِي، فَصَاحِبُ الدَّابَّةِ أَوْلَى بِمُقَدِّمِهَا».

٢١٨ - وكان رسولُ الله ﷺ يُولِّفُهُمْ، وَلَا يُتَفَرِّقُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ، وَيُحَذِّرُ النَّاسَ، وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَشْرَهُ، وَلَا خُلُقَهُ؛ يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ، وَيُعْطِي كُلَّ جَلِيسَانِهِ نَصِييَهُ، لَا يَخْسَبُ جَلِيسَهُ أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ. مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ لِحَاجَةٍ صَابِرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمَنْصَرَفُ عَنْهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَزِدْهُ إِلَّا بِهَا، أَوْ يَمْسُورُ مِنَ الْقَوْلِ؛ قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً. بهذا وصفه ابن أبي هالة، قال: وكان دائمُ الْبِشْرِ، سَهْلُ الْخُلُقِ، لَيِّنُ الْجَانِبِ، لَيْسَ بَقَطٌّ وَلَا

غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٌ، وَلَا فَحَاشٌ وَلَا عَيَّابٌ، وَلَا مَدَاحٌ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي وَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ.

وقال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَمَعَوْ مِنْ اللَّهِ إِنْ لَكُمْ لَهْمٌ وَلَوْ كُنْتُمْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تُفْقِشُوا مِنْ حَوْلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي فِي أَحْسَنِ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

٢١٩ - وكان يُجِيبُ مَنْ دَعَاهُ.

٢٢٠ - ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعاً وَيُكَافِيهِ عَلَيْهَا [البخاري (٢٥٨٥، ٢٥٦٨)].

٢٢١ - قال أنس: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أَفْ قَطُّ، وَمَا قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ؟ [البخاري (٢٧٦٨)، مسلم (٢٣٠٩)].

٢٢٢ - وعن عائشة رضي الله عنها: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا أَهْلَ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: «لَيْتَكَ».

٢٢٣ - وقال جرير بن عبد الله: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ مِنْهُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَأَيْتِي إِلَّا تَبَسَّمَ [البخاري (٣٠٣٥)، مسلم (٢٤٧٥)].

وكان يُعَازِجُ أَصْحَابَهُ، وَيُخَالِطُهُمْ وَيُحَادِثُهُمْ، وَيُدَاعِبُ صِبْيَانَهُمْ، وَيُجَلِّسُهُمْ فِي حِجْرِهِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ، وَالْأَمَةِ وَالْمَسْكِينِ، وَيَعُوذُ الْمَرْضَى فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ الْمُعْتَذِرِ.

٢٢٤ - قال أنس: مَا التَّقَمَّ أَحَدٌ أَذُنَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْحِي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنْحِي رَأْسَهُ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ بِيَدِهِ فَيُرْسِلُ يَدَهُ حَتَّى يُزِيلَهَا الْآخَرُ؛ وَلَمْ يَرِ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ [أبو داود (٤٧٩٤)، الترمذي (٢٤٩٠)، ابن ماجه (٣٧١٦)].

وكان يبدأ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَبْدَأُ أَصْحَابَهُ بِالْمُصَافَحَةِ، وَلَمْ يَرِ قَطُّ مَاذَا رَجَلِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ حَتَّى يُضَيِّقَ بِهِمَا عَلَى أَحَدٍ. يَكْرَمُ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَرَبِمَا بَسَطَ لَهُ ثَوْبَهُ، وَوُثِّرُهُ بِالْوَسَادَةِ الَّتِي تَحْتَهُ، وَيَغْرِزُ عَلَيْهِ فِي الْجُلُوسِ عَلَيْهَا إِنْ أَبَى، وَيُكْنِي أَصْحَابَهُ، وَيَدْعُوهُمْ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَ فَيَقْطَعَهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ. وَيُرْوَى: بِانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ.

٢٢٥ - وروي أنه كان لَا يَجْلِسُ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ يُصَلِّي إِلَّا خَفَفَ صَلَاتَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَإِذَا فَرَغَ عَادَ إِلَى صَلَاتِهِ.

وكان أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَسُّمًا، وَأَطْيَبِهِمْ نَفْسًا، ما لم ينزل عليه قرآنٌ، أو يعْطُ، أو يخطب.

٢٢٦ - قال عَبْدُ اللَّهِ بن الحارث: ما رأيتُ أحداً أَكْثَرَ تَبَسُّمًا من رسول الله ﷺ [الترمذي (٣٦٤١)، أحمد (١٩٠/٤)].

٢٢٧ - وعن أنس: كان خَدَمُ المَدِينَةِ يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا صَلَّى العَدَاةَ بَأَنِّيهِمْ فِيهَا المَاءَ، فَمَا يُزَيِّئُ بَأَنِيَّةٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا، وربما كان ذلك في العَدَاة الباردة [مسلم (٢٣٢٤)] يريدون به التبرُّك.

فصل

فِي شَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﷺ وَرَأْفَتِهِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال بعضهم: من فضله عليه السلام أَنَّ الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن قُوزَك.

٢٢٨ - حدثنا الفقيه أبو محمد: عبد الله بن محمد الخُسَني بقراءتي عليه، حدثنا إمام الحَرَمَيْنِ: أبو علي الطَّبَري، حدثنا عَبْدُ الْغَاثِ الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجُلُودي، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وَهَب، أخبرنا يونس، عن ابن شهاب، قال: غَزَا رسول الله ﷺ غَزْوَةً، وذكر حَتِينًا، قال: فأعطى رسول الله ﷺ صَفْوَانَ بن أُمِيَّة مِئْتَةً من النَّعَم؛ ثم مِئْتَةً، ثم مِئْتَةً.

قال ابنُ شهاب: حدثنا سعيد بن المُسَيَّب أَنَّ صَفْوَانَ قال: والله! لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فما زال يُعْطِينِي حتى إنه لأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ [مسلم (٥٩/٢٣١٣)].

٢٢٩ - وَرَوَى أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَعْطَاهُ؛ ثُمَّ قال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟». قال الأعرابي: لا، ولا أَجَمَلْتُ.

فغَضِبَ المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم: أَنْ كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله،

وأرسل إليه، وزاده شيئاً، ثم قال: «أحسنْتُ إليك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال له النبي ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أخبِيتَ فقل بين أيديهم ما قُلْتَ بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك».

قال: نعم. فلما كان الغد - أو العشي - جاء، فقال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ، فزِدْنَاهُ فزعم أنه رَضِيَ، أكَذَلِكَ؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا، مَثَلُ رَجُلٍ، لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِدُوهَا إِلَّا تَفُوراً، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَزِفُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلِمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَاخَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَتَقَتَلُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

٢٣٠ - وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرُ» [أبو داود (٤٨٦٠)، الترمذي (٣٨٩٦، ٣٩٩٧)].

٢٣١ - وَمَنْ شَفَقْتَهُ عَلَى أُمَّتِهِ ﷺ تَخَفِيفُهُ وَتَسْهِيلُهُ عَلَيْهِمْ، وَكَرَاهَتُهُ أَشْيَاءَ مَخَافَةٍ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسُّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ» [أحمد (٢/٢٥٠)].

٢٣٢ - وَخَبِرَ صَلَاةَ اللَّيْلِ [البخاري (١١٢٩)، مسلم (٧٦١)].

٢٣٣ - وَنَهَيْهِمْ عَنِ الرِّضَالِ.

٢٣٤ - وَكَرَاهَتَهُ دُخُولَ الْكُعْبَةِ لِثَلَاثِ يَمِّنَاتٍ أُمَّتِهِ [أبو داود (٢٠٢٩)، الترمذي

(٨٧٣)، ابن ماجه (٣٠٦٤)].

٢٣٥ - وَرَغْبَتَهُ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ سَبَّهُ وَلَعْنَهُ لَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ.

٢٣٦ - وَأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِهِ [البخاري (٧٠٧)، (٧٠٩)،

مسلم (٤٧٠)].

٢٣٧ - وَمَنْ شَفَقْتَهُ ﷺ أَنْ دَعَا رَبَّهُ وَعَاهَدَهُ، فَقَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَّيْتُهُ - أَوْ

لَعْنْتُهُ - فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً، وَصَلَاةً وَطَهُوراً، وَفُزْنَةً تَقْرُنُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ» [البخاري (٦٣٦١)، مسلم (٢٦٠١)].

٢٣٨ - ولما كذَّبَهُ قَوْمُهُ أَنَاهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاهُ مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ: مُزِنِي بِمَا شِئْتَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِيَيْنِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَالِهِمْ، مَنْ يَغْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥)].

٢٣٩ - وَرَوَى ابْنُ الْمُثَنِّكِرِ أَنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَنْ تُطِيعَكَ. فَقَالَ: «أَوْخَرُ عَنْ أُمَّتِي لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ».

٢٤٠ - قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا خَيْرُ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا.

٢٤١ - وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا [البخاري (٦٨)، مسلم (٢٨٢١)].

٢٤٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا رَكِبَتْ بَعِيرًا وَفِيهِ ضَعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ تَرُدُّدُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ» [مسلم (٧٩/٢٥٩٤)].

فصل

فِي خُلُقِهِ ﷺ فِي الْوَفَاءِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ

٢٤٣ - وَأَمَّا خُلُقُهُ ﷺ فِي الْوَفَاءِ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ - فَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَامِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَالُ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَيَّانٍ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ بُدَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمَّاسِ، قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَّبِعُ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ، وَيَبْعَثَ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ، فَتَسَيْتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثَ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ: «يَا فَتَى! لَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ، أَنَا هَا هُنَا مِنْذُ ثَلَاثَ أَنْتَظِرُكَ» [أبو داود (٤٩٩٦)].

٢٤٤ - وَعَنْ أَنَسٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِهَدِيَّةٍ قَالَ: «اذْهَبُوا بِهَا إِلَى بَيْتِ فُلَانَةٍ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةً لَخَدِيجَةَ، إِنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ خَدِيجَةَ».

٢٤٥ - وعن عائشة قالت: ما غَزَتْ على امرأة ما غَزَتْ على خديجة، لَمَّا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيَهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا [البخاري (٦٠٠٤)، مسلم (٧٥/٢٤٣٥)].

٢٤٦ - واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها [البخاري (٣٨٢١)، مسلم (٢٤٣٧)].

٢٤٧ - ودخلت عليه امرأة، فهش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان». ووصفه بعضهم، فقال: كَانَ يَصِلُ ذَوِي رَحْمَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْثِرَهُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ.

٢٤٨ - وقال ﷺ: «إِنْ أَلَكَ أَبِي فَلَانَ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ غَيْرَ أَنَّ لَهُمْ رَجْعًا سَأَلْتُهَا بِئَلَاءِهَا» [البخاري (٥٩٩٠)، مسلم (٢١٥)].

٢٤٩ - وقد صلى - عليه السلام - بأمامة ابنة ابنته زينب - رضي الله عنها - يَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا [البخاري (٥١٦)، مسلم (٥٤٣)].

٢٥٠ - وعن أبي قتادة قال: وَقَدْ وَفَدَ لِلنَّجَاشِيِّ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْدُمُهُمْ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: نَكْفِيكَ. فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرَمِينَ، وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَكْفِيَهُمْ».

٢٥١ - ولما جيء بأخته من الرضاعة: الشَّيْمَاءِ، فِي سَبَايَا هَوَازِنَ، وَتَعَرَّفَتْ لَهُ، بَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، وَقَالَ لَهَا: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَقْمَتِي عِنْدِي مُكْرَمَةً مُحَبَّةً، أَوْ مَتَّعْتِكِ وَرَجَعْتِ إِلَى قَوْمِكَ؟» فَاخْتَارَتْ قَوْمَهَا فَمَتَّعَهَا.

٢٥٢ - وقال أبو الطفَّيْلِ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ - وَأَنَا غُلَامٌ - إِذْ أَقْبَلَتْ أَمْرَأَةً حَتَّى دَنَتْ مِنْهُ، فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ [أبو داود (٥١٤٤)].

٢٥٣ - وعن عُمر بن السائب، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَالِسًا يَوْمًا، فَأَقْبَلَ أَبُوهُ مِنَ الرُّضَاعَةِ، فَوَضَعَ لَهُ بَغْضَ ثَوْبِهِ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ فَوَضَعَ لَهَا شِقَّ ثَوْبِهِ مِنْ جَانِبِهِ الْآخَرَ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَخُوهُ مِنَ الرُّضَاعَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ [أبو داود (٥١٤٥)].

٢٥٤ - وكان يبعث إلى ثُوَيْبَةَ - مَوْلَاةِ أَبِي لَهَبٍ - مُرْضِعَتَهُ بِصِلَةٍ وَكُسُوَةٍ، فَلَمَّا مَاتَتْ سَأَلَ: «مَنْ بَقِيَ مِنْ قَرَابَتِهَا؟» فَقِيلَ: لَا أَحَدٌ.

٢٥٥ - وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له ﷺ: أَبَشِرْ، فَوَاللَّهِ

لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّجِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

فصل

فِي تَوَاضُعِهِ ﷺ

وأما تواضعه ﷺ، على علُو مَنْصِبِهِ ورفعة رُتْبَتِهِ فكان أَشَدَّ الناسِ تواضعاً، وأقلَّهم كِبَراً.

٢٥٦ - وَحَسْبُكَ أَنَّهُ خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكاً أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا [أحمد (٢٣١/٢)]، فَقَالَ لَهُ إِسْرَافِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ بِمَا تَوَاضَعْتَ لَهُ أَنْتَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ.

٢٥٧ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ الْعَوَّادِ الْفَقِيه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ بِقَرْطَبَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَمِيرٍ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ أَبِي الْعَنْبَسِ، عَنْ أَبِي الْعَدْبَسِ، عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَوَكِّئًا عَلَى عَصَا؛ فَقَمْنَا لَهُ. فَقَالَ: «لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعْظَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا» [مسلم (٤١٣)، أبو داود (٥٢٣٠)، ابن ماجه (٢٨٣٦)].

٢٥٨ - وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ». وَكَانَ يَرْكَبُ الْجِمَارَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَعُوذُ الْمَسَاكِينَ، وَيُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ، وَيَجْلِسُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مُخْتَطِطاً بِهِمْ. حَيْثُمَا انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ جَلَسَ.

٢٥٩ - وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ عَنْهُ: «لَا تُظَرُونِي كَمَا أَظَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [البخاري (٣٤٤٥)].

٢٦٠ - وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ جَاءَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: «اجْلِسِي، يَا أُمُّ فُلَانٍ! فِي أَيِّ طَرَفِ الْمَدِينَةِ ثَبَتَ أَجْلِسُ إِلَيْكَ حَتَّى أَقْضِيَ حَاجَتَكَ».

قال: فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها [مسلم (٢٣٢٦)].

٢٦١ - قال أنس: كان رسول الله يركب الحمار، ويُجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قُرَيْظَةَ على جِمارٍ مخطومٍ بحبلٍ من ليف، عليه إكافٌ [الترمذي (١٠١٧)، ابن ماجه (٤١٧٨)].

٢٦٢ - قال: وكان يُدعى إلى خُبْزِ الشعير، والإِهَالَةِ السَّنَخَةِ فيُجيب [البخاري (٢٠٦٩)].

٢٦٣ - قال: وحجَّ ﷺ على رَخل رَثْ، وعليه قُطَيْفَةٌ ما تُساوي أربعة دراهم؛ فقال: «اللهم! اجعله حجًّا لا رِئاءَ فيه ولا سُمعةً» [ابن ماجه (٢٨٩٠)].

٢٦٤ - هذا، وقد فُتِحَتْ عليه الأرضُ، وأهدى في حَجِّه ذلك مئةَ بَدَنَةٍ [مسلم (١٢١٨)].

٢٦٥ - ولما فُتِحَتْ عليه مَكَّةُ، ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأَ على رَخله رأسه حتى كاد يَمَسُّ قَادِمَتَهُ تواضِعاً لله تعالى.

٢٦٦ - ومن تواضعه ﷺ قَوْلُهُ: «لا تُفَضِّلُونِي على يُوُسَ بنِ مَتَّى».

٢٦٧ - و «لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ» [البخاري (٣٤١٤)، مسلم (١٥٩/٢٣٧٣)].

٢٦٨ - و «لا تُخَيِّرُونِي على موسى» [البخاري (٢٤١١)، مسلم (١٦٠/٢٣٧٣)].

٢٦٩ - و «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْ لَبِثْتُ مَا لَبِثَ يَوْسُفُ فِي السَّجَنِ لِأَجْبِثَ الدَّاعِي» [البخاري (٣٣٧٢)، مسلم (١٥١)].

٢٧٠ - وقال - للذي قال له: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ -: «ذلِكَ إِبْرَاهِيمَ» [مسلم (٢٣٦٩)].

وسَيأتي الكلامُ على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله.

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣ - وعن عائشة، والحسن، وأبي سعيد، وغيرهم في صفة النبي ﷺ، وبعضهم يزيدُ على بعض: كان في بيته في مِهْنَةٍ أَهْلِهِ: يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَحْدُمُ نَفْسَهُ، وَيَعْلَفُ نَاضِجَهُ، وَيَقْمُ الْبَيْتَ، وَيَحْمِلُ الْبَعِيرَ، وَيَأْكُلُ مَعَ الْخَادِمِ، وَيَغْجِرُ مَعَهَا، وَيَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ [البخاري (٦٧٦)].

٢٧٤ - وعن أنس: إن كانت الأُمَّةُ من إماءِ أهلِ المدينة لتأخذُ بيدَ النَّبِيِّ ﷺ فتنتقلق به حيث شاءت حتى يَقْضِيَ حَاجَتَهَا [البخاري (٦٠٧٢)، أحمد (١٩٨/٣)].

٢٧٥ - ودخل عليه رجلٌ فأصابته من هَيْبَتِهِ رَغْدَةٌ، فقال له: «هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قَرِيشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».

٢٧٦ - وعن أبي هريرة: دخلت السوق مع النبي ﷺ، فاشترى سراويل وقال للوزان: «زِنْ وَأَرْجِحْ» وذكر القصة، قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يُقْبِلُهَا، فجذب يده، وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها؛ ولست بملك، إنما أنا رجل منكم». ثم أخذ السراويل، فذهبت لأخيمه، فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

فصل

فِي عَذْلِهِ ﷺ وَأَمَانَتِهِ وَعَقْبَتِهِ وَصِدْقِ لَهْجَتِهِ

وأما عذله ﷺ وأمانته وعقته، وصدق لهجته - فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك مُحَاذُوهُ وَعِدَاةُ.

وكان يُسمَّى قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: كان يُسمَّى الأمين بما جمَعَ الله فيه من الأخلاق الصالحة. وقال تعالى: ﴿تَطْلُعُ ثَمَّ آمِينَ﴾ [التكوير: ٢١] أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ.

٢٧٧ - ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكّموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي ﷺ داخل، وذلك قبل نبوته؛ فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين قد رَضِينَا بِهِ [أحمد (٤٢٥/٣)].

٢٧٨ - وعن الربيع بن خثيم: كان يُتَحَاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام.

٢٧٩ - وقال ﷺ: «والله! إني لأمين في السماء أمين في الأرض».

٢٨٠ - حدثنا أبو علي الصّدْفِي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، حدثنا أبو يَعْلَى بن زَوْج الحرّة، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نُكَذِّبُكَ، ولكن نُكَذِّبُ بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبْتَئُونَ اللَّهَ يَجْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وروى غيره: لا نُكَذِّبُكَ وما أنت فينا بمكذب.

٢٨١ - وقيل: إن الأحنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بذره، فقال له: يا أبا

الحَكَم! ليس هنا غيري وَغَيْرَكَ يَسْمَعُ كلامنا، تخبرني عن محمد؛ صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله! إِنَّ محمداً لصادق، وما كَذَبَ محمدٌ قط.

٢٨٢ - وسأل هِرَقْلُ عنه أبا سفيان، فقال: هل كنتم تَتَّهِمُونَهُ بالكذب قبل أَنْ يَقُولَ ما قال؟ قال: لا [البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣)].

٢٨٣ - وقال النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لَقُرَيْشٍ: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أَرْضَاكُمْ فيكم، وأُضِدَّكُمْ حديثاً، وَأَعْظَمَكُمْ أمانةً حتى إذا رأيتم في ضِدْعَيْهِ الشَّيْبَ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساجر. لا، والله! ما هو بساجر.

٢٨٤ - وفي الحديث عنه: ما لَمَسَتْ يَدُهُ يَدَ امرأةٍ قط لا يملك رِقْها [البخاري (٧٢١٤)، مسلم (١٨٦٦)].

٢٨٥ - وفي حديث عليٍّ، في وصفه ﷺ: أصدق الناس لَهْجَةً.

٢٨٦ - وقال في الصحيح: «وَنَحَكَ! فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ خَبِثُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ!».

٢٨٧ - قالت عائشة: ما خَيْرَ رسولٍ الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فَإِنْ كَانَ اثِماً كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

قال أبو العباس المبرد: قَسَمَ كِشْرِيُّ أَيْامَهُ؛ فقال: يصلحُ يَوْمُ الرِّيحِ لِلتُّومِ، وَيَوْمُ الْغَيْمِ لِلصِّيدِ، وَيَوْمُ الْمَطَرِ لِلشَّرْبِ وَاللَّهْوِ، وَيَوْمُ الشَّمْسِ لِلْحَوَاجِ.

قال ابنُ خَالَوْنِيَه: ما كان أعرفهم بسياسة دُنْيَاهُمْ! «يَطْلُبُونَ ظَهْرًا مِنَ الْمَيِّتَةِ الدُّنْيَا وَمِنْ الْآخِرَةِ مَرَّ غَفْلُونَ» [الروم: ٧].

٢٨٨ - ولكن نبينا ﷺ جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «أَبْلِغُوا حَاجَةً مِنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ حَاجَةً مِنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا آمَنَهُ اللهُ يَوْمَ الْفِرْعَ الْأَكْبَرِ».

٢٨٩ - وعن الحسن: كان رسولُ الله ﷺ لا يأخذ أحداً بِقَرْفٍ أحد، ولا يُصَدِّقُ أحداً على أحد.

٢٩٠ - وذكر أبو جعفر الطبري عن عليٍّ، عنه ﷺ: «ما هَمَمْتُ بشيءٍ مما كان أهلُ الجاهلية يعملون به غيرَ مَرَّتَيْنِ، كلُّ ذلك يحولُ الله بيني وبين ما أريدُ من ذلك، ثم ما هَمَمْتُ بسوءٍ حتى أكرمني الله برسالته؛ قلت لبله لغلّام كان يزعمُ معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأنسمر بها كما ينسمر الشباب.

فخرجتُ كذلك حتى جئتُ أولَ دارٍ من مكة سمعتُ عَزَافاً بالدُّفُوفِ والمَزَامِيرِ

لَمْزِسَ بَعْضَهُمْ. فَجَلَسْتُ أَنْظُرَ، فَضَرَبَ عَلَيَّ أُذُنِي فَنِمْتُ، فَمَا أَبْقَظَنِي إِلَّا مَسَّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَفْضِرْ شَيْئاً. ثُمَّ عَرَّانِي مَرَّةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ لَمْ أَفْمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَوْءٍ.

فصل

فِي وَقَارِهِ ﷺ وَصَفَتِهِ وَتَوَدُّتِهِ وَمُزْوَعَتِهِ وَحُسْنِ هَذِيهِ

٢٩١ - وَأَمَّا وَقَارُهُ ﷺ وَصَفَتُهُ وَتَوَدُّتُهُ وَمُرْوَعَتُهُ وَحُسْنُ هَذِيهِ فَحَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْجَبَّانِيُّ الْحَافِظُ إِجَازَةً، وَعَارَضْتُ بِكِتَابِهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الدَّلَائِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا اللَّؤْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلَامٍ، حَدَّثَنَا حُجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ وَهَبٍ، سَمِعْتُ خَارِجَةَ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْفَرَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِهِ، لَا يَكَادُ يُخْرِجُ شَيْئاً مِنْ أَطْرَافِهِ.

٢٩٢ - وَزَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ اخْتَبَى بِيَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ جُلُوسِهِ ﷺ مُخْتَبِياً [أَبُو دَاوُدَ (٤٨٤٦)].

٢٩٣ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّهُ تَرَجَّعَ [أَبُو دَاوُدَ (٤٨٥٠)].

٢٩٤ - وَرُبَّمَا جَلَسَ الْقُرْفُضَاءُ، وَهُوَ فِي حَدِيثٍ قِيلَ.

٢٩٥ - وَكَانَ كَثِيرَ السَّكُوتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يُغْرِضُ عَمَّنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ جَمِيلٍ، وَكَانَ ضَحْكُهُ تَبَسُّمًا، وَكَلَامُهُ فَضْلًا، لَا فُضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ، وَكَانَ ضَحْكُ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ التَّبَسُّمُ؛ تَوْفِيرًا لَهُ، وَاقْتِدَاءً بِهِ. مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ جَلَمٍ وَحَيَاءٍ، وَخَيْرٍ وَأَمَانَةٍ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الْحُرُمُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جِلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

٢٩٦ - وَفِي صَفَتِهِ: يَخْطُو تَكْفُؤًا، وَيَنْمِشِي هَوْنًا، كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ.

٢٩٧ - وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: إِذَا مَشَى مَشَى مَجْتَمِعًا، يُغْرِفُ فِي مِشْيَتِهِ أَنَّهُ غَيْرُ غَرَضٍ وَلَا وَكَلٍ. أَيُّ: غَيْرِ ضَجَرٍ وَلَا كَسَلَانٍ.

٢٩٨ - وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ أَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ [الْبَخَارِيُّ

[(٦٠٩٨)].

٢٩٩ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيلٌ أو ترسيلٌ [أبو داود (٤٨٣٨)].

٣٠٠ - قال ابن أبي هالة: كان سكوته على أربع: على الجلم، والخذر، والتقدير، والتفكير.

٣٠١ - قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ أحصاه [البخاري (٣٥٦٧)، مسلم (٧١/٢٤٩٣)].

وكان ﷺ يُحِبُّ الطَّيِّبَ والرائحةَ الحسنة، ويستعملهما كثيراً، ويحضُّ عليهما.

٣٠٢ - ويقول: «حُبِّ إِلَهِي مِنْ دُنْيَاكُمْ: النساءُ والطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

٣٠٣ - ومن مروياته - ﷺ -: تَهَيَّءْ عَنِ التَّفْنُخِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ [أبو داود (٣٧٢٨)، الترمذي (١٨٨٨)، ابن ماجه (٣٤٢٨)].

٣٠٤ - وَالْأَمْرُ بِالْأَكْلِ مِمَّا يَلِي [البخاري (٥٣٧٦)، مسلم (٢٠٢٢)].

٣٠٥ - وَالْأَمْرُ بِالسَّوَاكِ.

٣٠٦ - وَإِنْقَاءُ الْبَرَاجِمِ وَالرَّوَاكِجِ، وَاسْتِعْمَالُ خِصَالِ الْفِطْرَةِ [مسلم (٢٦١)].

فصل

فِي زُهْدِهِ ﷺ فِي الدُّنْيَا

٣٠٧ - وَأَمَّا زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَخْبَارِ أَثْنَاءَ هَذِهِ السَّيْرَةِ مَا يَكْفِي. وَحَسْبُكَ مِنْ تَقْلِيلِهِ مِنْهَا، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ زَهْرَتِهَا؛ وَقَدْ سَيِّقْتُ إِلَيْهِ بِحَدِّافِيرِهَا، وَتَرَادَفْتُ عَلَيْهِ فَتَوَحُّهَا إِلَى أَنْ تُوفِّيَ ﷺ وَدِزْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ [البخاري (٢٩١٦)، مسلم (١٦٠٣)].

٣٠٨ - وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا» [البخاري (٦٤٦٠)، مسلم (١٠٥٥)].

٣٠٩ - حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَالْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ: مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ؛ قَالَتْ: مَا شَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَتَابَعًا مِنْ خَيْرِ بَرٍّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ [مسلم (٢١/٢٩٧٠)].

٣١٠ - وفي رواية أخرى: من خُبِرَ شعير يومين مُتواليين، ولو شاء لأعطاه الله ما لا يَخْطُرُ بِبَالٍ [مسلم (٢٢/٢٩٧٠)].

٣١١ - وفي رواية أخرى: ما شَبِعَ آلَ رسولِ الله ﷺ من خُبِرَ بُرٌّ حتى لَقِيَ الله تعالى [البخاري (٦٤٥٤)، مسلم (٢٠/٢٩٧٠)].

٣١٢ - وقالت عائشة: ما ترك رسولُ الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاةً، ولا بعيراً [مسلم (١٦٣٥)].

٣١٣ - وفي حديث غُضْرُو بن الحارث: ما ترك إلا سِلاحه، وَبَغْلته، وأرضاً جعلها صدقةً [البخاري (٣٠٩٨)].

٣١٤ - قالت عائشة: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كَبِدٍ إلا شَطَرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي [البخاري (٣٠٩٧)، مسلم (٢٩٧٣)].

٣١٥ - وقال لي: «إني عَرِضَ علي أن تُجْعَلَ لي بَطحاءُ مكة ذهباً. فقلت: لا، يا رب! أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فَأَنْضِرْ إليكَ وأدعوك، وأما اليوم الذي أَشْبِعَ فيه فَأُخَمِّدْكَ وأُثْنِي عليك» [الترمذي (٢٣٤٧)، أحمد (٢٥٤/٥)].

٣١٦ - وفي حديث آخر: إن جبريل - عليه السلام - نزل عليه، فقال له: إن الله تعالى يُفَرِّقُكَ السَّلامَ، ويقول لك: أَتُجِبُ أنْ أُجْعَلَ هذه الجبال ذهباً، وتكونُ معك حينما كُنْتُ؟ فأطرق ساعةً، ثم قال: «يا جبريل! إن الدنيا دارٌ من لا دارَ له، ومالٌ من لا مالَ له، قد يَجْمَعُها مَنْ لا عَقْلَ له» فقال له جبريل: ثَبَّتْكَ الله يا محمداً بالقول الثابت.

٣١٧ - وعن عائشة قالت: إن كُتِّ آلِ محمدٍ لَنَمُكْتُ شهراً ما نَسْتَوْفِدُ ناراً؛ إن هو إلا التَّمَرُ والماء [البخاري (٦٤٥٨)، مسلم (٢٩٧٢)].

٣١٨ - وعن عبدالرحمن بن عوف: هلك رسولُ الله ﷺ، ولم يشَبِعْ هو وأهل بيته من خُبِرِ الشَّعِيرِ.

٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ - وعن عائشة، وأبي أُمَامَةَ، وابن عباس نحوه [الترمذي (٢٣٥٩)، أحمد (٢٥٣/٥)].

٣٢٢ - قال ابنُ عباس: كان ﷺ يَبِيتُ هو وأهلُه اللَّيالي المتتابعةَ طَواوياً لا يجدون عِشاءً.

٣٢٣ - وعن أنس: ما أَكَلَ رسولُ الله ﷺ على جِوَانٍ ولا في سَكْرَجَةٍ، ولا خُبِرَ له مُرَقَّقٌ، ولا رَأَى شاةً سَمِيطاً قَطُّ.

٣٢٤ - وعن عائشة بنت أبي بكر: إنما كان فرّاش رسول الله ﷺ - الذي ينأى عليه آدمًا حشوه ليف [البخاري (٦٤٥٦)، مسلم (٢٠٨٢)].

٣٢٥ - وعن حفصة قالت: كان فرّاش رسول الله ﷺ في بيتي مسحاً ثنتين ثنتين، فينام عليه، فتثنيته ليلة بأربع، فلما أصبح قال: «ما فرشتُمولي الليلة؟» فذكرنا ذلك له، فقال: «ردّوه بحاله، فإن وطأته متعتني الليلة صلاتي».

٣٢٦ - وكان ﷺ ينام أحياناً على سرير مزموّل يشريط حتى يؤثّر في جنبه [البخاري (٥١٩١)].

٣٢٧ - وعن عائشة قالت: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، ولم يبت شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظّل جائعاً يَلْتَوِي طول ليلته من الجوع فلا يَمْنَعُه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء؛ لو تبلغت من الدنيا بما يَقُولُك؟ فيقول: «يا عائشة! ما لي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزّل ثوابهم، فأجذني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يُقَصِّر بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحب إلي من اللّٰهُ وبإخواني وإحلائي».

قالت: فما أقام بغد إلا شهراً حتى توفّي ﷺ.

فصل

فِي خَوْفِهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ لَهُ، وَشِدَّةِ عِبَادَتِهِ

٣٢٨ - وأما خَوْفُهُ رَبَّهُ، وطاعته له؛ وشِدَّةُ عِبَادَتِهِ، فعلى قدرِ عِلْمِهِ بِرَبِّهِ، ولذلك قال فيما حدثناه أبو محمد بن عتاب قراءةً مني عليه. قال: حدثنا أبو القاسم الطّرابُلُسيّ، حدثنا أبو الحسن القاسبيّ، حدثنا أبو زيد المَرْزُوقِيّ، حدثنا أبو عَبْدِ اللَّهِ الْفَرَبَرِيُّ، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بُكَيْرٍ، عن الليث، عن عُقَيْلٍ، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيّب، أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [البخاري (٦٤٨٥)].

٣٢٩ - زاد في روايتنا، عن - أبي عيسى الترمذي - رفعه إلى أبي ذر: «إني

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَلَبُ السَّمَاءَ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْبُطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ، وَاللَّهُ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَجَّكُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرَشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّغَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوِدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُغْضَدُ» [الترمذي (٢٣١٢)، ابن ماجه (٤١٩٠)، أحمد (١٧٣/٥)].

رَوَى هَذَا الْكَلَامُ: «وَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُغْضَدُ» مِنْ قَوْلِ أَبِي ذَرٍّ نَفْسِهِ وَهُوَ أَصَحُّ.

٣٣٠ - فِي حَدِيثِ الْمَغِيرَةِ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ [مسلم (٢٨١٩)].

٣٣١ - فِي رَوَايَةٍ: كَانَ يُصَلِّي حَتَّى تَرْمَ قَدَمَاهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكْلِفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» [البخاري (٤٨٣٧)، (٦٣٧١)، مسلم (٢٨١٩)، (٢٨٢٠/٨٠)].

٣٣٢، ٣٣٣ - وَنَحْوَهُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [الترمذي (٢٦٠)، ابن ماجه (١٤٢٠)].

٣٣٤ - وَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذِيْمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطَبِّقُ مَا كَانَ يُطَبِّقُ؟ [البخاري (١٩٨٧)، مسلم (٧٨٣)].

٣٣٥ - وَقَالَتْ: كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ. وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ [مسلم (١٧٥/١١٥٦)].

٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨ - وَنَحْوُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَأَنْسِ [البخاري (١٩٧١)، مسلم (١٧٩/١١٥٧)، الترمذي (٧٣٦)، أَبُو دَاوُدَ (٢٣٣٦)، النَّسَائِيُّ (٢٠٠/٤)].

٣٣٩ - وَقَالَ: كُنْتُ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّياً إِلَّا رَأَيْتَهُ مُصَلِّياً، وَلَا نَائِماً إِلَّا رَأَيْتَهُ نَائِماً [البخاري (١٩٧٢)].

٣٤٠ - وَقَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ فَاسْتَاكَ ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَكُنْتُ مَعَهُ، فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ الْبَقْرَةَ، فَلَا يَمُرُّ بِأَيَّةٍ رَحِمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَالَ، وَلَا يَمُرُّ بِأَيَّةٍ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَمَكَثَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعِظَمَةِ» ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةَ سُورَةٍ، يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ [أَبُو دَاوُدَ (٨٧٣)، النَّسَائِيُّ (١٩١/٢)].

٣٤١ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ مِثْلَهُ، وَقَالَ: سَجَدَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ

السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنْهُ، وَقَالَ: حَتَّى قَرَأَ الْبَقْرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءَ، وَالْمَائِدَةَ [أَبُو دَاوُدَ (٨٧٤)].

٣٤٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً [التِّرْمِذِيُّ (٤٤٨)].

٣٤٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي، وَلَجَوْفُهُ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمِرْجَلِ [أَبُو دَاوُدَ (٩٠٤)، النَّسَائِيُّ (١٣/٣)].

٣٤٤ - وَقَالَ ابْنُ أَبِي هَالَةَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ.

٣٤٥ - وَقَالَ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِثْلَ مَرَّةٍ» [مُسْلِمَ (٢٧٠٢)].

٣٤٦ - وَرَوَى: «سَبْعِينَ مَرَّةً».

٣٤٧ - وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سُنَّتِهِ، فَقَالَ: «الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي، وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي، وَالْحُبُّ أَسَاسِي، وَالشُّوقُ مَرْكَبِي، وَذِكْرُ اللَّهِ أُنَيْسِي، وَالثِّقَةُ كَنْزِي، وَالْحُزْنُ رَفِيقِي، وَالْعِلْمُ سِلَاحِي، وَالصَّبْرُ رِدَائِي، وَالرِّضَا غَنِيمَتِي، وَالْفَقْرُ فَخْرِي، وَالزُّهْدُ جِرْفَتِي، وَالْبَقِيَّةُ قُوَّتِي، وَالصَّدَقُ شَفِيعِي، وَالطَّاعَةُ حَسْبِي، وَالْجِهَادُ خُلُقِي، وَقُرْةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

٣٤٨ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَثَمَرَةُ فَوَادِي فِي ذِكْرِهِ، وَغَمِّي لِأَجْلِ أَمْنِي، وَشَوْقِي إِلَى رَبِّي».

فصل

فِي صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ كَمَالِ الْخُلُقِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَشَرَفِ النَّسَبِ

قال المؤلف رحمه الله:

اعلم، وفقنا الله وإياك! أَنَّ صِفَاتِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مِنْ كَمَالِ الْخُلُقِ، وَحُسْنِ الصُّورَةِ، وَشَرَفِ النَّسَبِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَجَمِيعِ الْمَحَاسِنِ، هِيَ هَذِهِ الصِّفَةُ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْكَمَالِ، وَالْكَمَالِ وَالْتِمَامِ الْبَشَرِيِّ وَالْفَضْلِ الْجَمِيعِ لَهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ رُتِبَتْهُمْ أَشْرَفُ الرُّتَبِ، وَدَرَجَاتُهُمْ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَلَكِنْ فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

٣٤٩ - وقد قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ». قَالَ آخِرُ الْحَدِيثِ: «عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ﷺ، طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» [البخاري (٣٣٢٧)، مسلم (١٥/٢٨٣٤)].

٣٥٠ - وفي حديث أبي هريرة: «رَأَيْتُ مُوسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبُ رَجُلٍ، أَقْنَى، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ. وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ زَنْعَةٌ، كَثِيرُ خَبْلَانِ الْوَجْهِ، أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِينَمَاسٍ» [البخاري (٣٣٩٤)، مسلم (١٦٨)].

٣٥١ - وفي حديث آخر: «مُبْطَنٌ مِثْلُ السِّيفِ» [أحمد (٣٧٤/١)].

٣٥٢ - قال: «وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدَ إِبْرَاهِيمَ بِهِ».

٣٥٣ - وقال في حديث آخر في صِفَةِ مُوسَى: «كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ مِنْ أَدَمِ الرِّجَالِ» [البخاري (٥٩٠٢)، مسلم (١٦٩)].

٣٥٤ - وفي حديث أبي هريرة، عنه ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَغْدٍ لَوْطَ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٥٣٣/٢)].

٣٥٥ - وروى: «فِي ثَرْوَةٍ» [الترمذي (٣١١٦)، أحمد (٣٣٢/٢)] أي: كَثْرَةٍ وَمَنْعَةٍ.

٣٥٦، ٣٥٧ - وحكى الترمذي، عن قتادة. ورواه الدارقطني من حديث قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الصَّوْتِ، وَكَانَ نَبِيَّكُمْ ﷺ أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتًا.

٣٥٨ - وفي حديث هرقل: وَسَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرِّسْلُ تُبْعَثُ فِي أَنْسَابِ قَوْمِهَا.

وقال تعالى - في أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ سَابِرًا يَقُمُّ الْعَبْدُ إِنَّهٗ أَوَّلٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَبْيِخُنَّ خُذِ الْكِتَابَ يَقُودُوا وَمَا يَنْتَهِ لِحُكْمِ صَبِيحًا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢-١٥].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّرُكَ يَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَتِهِ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَمُودًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمَا لَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا لَ عِزْرَنَ عَلَى الْمَلَكِينَ ﴿٣٢﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقال - في نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا سَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ

الْمَرْيَمَ ﴿٥٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

وقال: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا كَالَّذِينَ آمَنُوا مَا دَاوُدُ مُؤْمِنٌ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

٣٥٩ - وقال النبي ﷺ: «كَانَ مُوسَى رَجُلًا حَيًّا، سَتِيرًا، مَا يَرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَا» الحديث. [البخاري (٣٤٠٤)، مسلم (١٥٦/٣٣٩)].

وقال تعالى - عنه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال في وَصْفِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧].

وقال: ﴿إِنِّي خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَعَارَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْفِكْرَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ

فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْثِرُوا بِهَا يُكْفِرُونَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَفْتَدِ﴾

[الأنعام: ٨٤ - ٩٠].

فوصفهم بأوصاف جمّة من الصّلاح والهدى والاجتهاد والحكم والنّبوة.

وقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَلَمٍ﴾ [الصفات: ١٠١] عليم، وحليم.

وقال: ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذْوَإُكَ

عِيَادُ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

وقال - في إسماعيل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ بِأَمْرِ

أَهْلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال - في موسى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُخْلِصًا﴾ [مريم: ٥١].

وفي سليمان: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال: ﴿وَلَا تَزِرْ وَزَيْرَهُمْ إِزَيرَهُمْ وَلَاحِقَ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى﴾ (١٧) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (١٨) ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَ لَبِئْسَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْبَارِ﴾ (١٩) ﴿[ص: ٤٥ - ٤٧].
وفي داود: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ثم قال: ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُوتَهُ وَمَا بَلَّغْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (٢٠) ﴿[ص: ٢٠].
وقال - عن يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].
وفي موسى: ﴿سَنَجِدُكَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ صَارِيًا﴾ [الكهف: ٦٩].
وقال تعالى - عن شُعَيْب عليه السلام: ﴿سَنَجِدُكَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الفصص: ٢٧].

وقال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال: ﴿وَلَوْطًا مَا بَلَّغْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].
وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خُنُوعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].
قال سفيان: هو الخزن الدائم.

في أي كثيرة، ذكر فيها من خصالهم ومخاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم.
٣٦٠ - وجاء من ذلك في الأحاديث كثير، كقوله: «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن نبي ابن نبي» [البخاري (٣٣٩٠)، الترمذي (٣١١٦)].

٣٦١ - وفي حديث أنس: «وكذلك الأنبياء تنام أغنيهم ولا تنام قلوبهم» [البخاري (٣٥٧٠)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)].

٣٦٢ - ورؤي أن سليمان كان - مع ما أعطي من الملك - لا يرفع بصره إلى السماء تخشعاً وتواضعاً لله تعالى.

٣٦٣ - وكان يطعم الناس لذات الأظعمة ويأكل خبز الشعير.
وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين! وأبن مخجّة الزاهدين.
وكانت العجوز تغترضه - وهو على الريح في جنوده - فيأمر الريح فتنفث فينظر في حاجتها ويمضي.

وقيل ليوسف: ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشتع فأنسى الجائع.

٣٦٤ - وروى أبو هريرة عنه ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر

بدوا به، فُتْسِرَج، فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرَج، ولا يأكل إلا من عمل يده [البخاري (٣٤١٧)].

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاسُ لَهُ الْعَدِيدُ﴾ (١٠) **أَنْ أَعْمَلَ سَعِيْدَتِي وَقَدَّرَ فِي السَّرِيَّةِ** [سبأ: ١٠، ١١].

وكان سأل ربه أن يرزقه عملاً بيده يُغنيه عن نيت المال.

٣٦٤ - وقال ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا» [البخاري (١١٣١)، مسلم (١٨٩/١١٥٩)].

٣٦٥ - وكان يلبس الصوف، ويفترش الشعر، ويأكل خُبْزَ الشعير بالملح والرماد، وَيَمْزُجُ شَرَابَهُ بِالدَّمُوعِ، وَلَمْ يُرْضَاحَكَأَ بَعْدَ الْخَطِيئَةِ.

٣٦٥ م - وَلَا شَاخِصًا بِيَصْرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَزَلْ بَاكِيًا حَيَاتَهُ كُلَّهَا.

٣٦٦ - وَقِيلَ: بَكَى حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دَمُوعِهِ، وَحَتَّى اتَّخَذَتِ الدَّمُوعُ فِي خَدِّهِ أَخْدُودًا.

وقيل: كَانَ يَخْرُجُ مُتَتَكِّرًا يَتَعَرَّفُ سِيرَتَهُ، فَيَسْتَمِعُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، فَيَزِدَادُ تَوَاضَعًا.

٣٦٧ - وَقِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ اتَّخَذْتَ جِمَارًا؟ قَالَ: أَنَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَشْغَلَنِي بِجِمَارٍ.

٣٦٨ - وَكَانَ يَلْبَسُ الشَّعْرَ، وَيَأْكُلُ الشَّجَرَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتٌ، أَيْنَمَا أَدْرَكَ النَّوْمُ نَامَ.

٣٦٩ - وَكَانَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مُسْكِينٌ.

٣٧٠ - وَقِيلَ: إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ تُرَى خُضْرَةُ الْبَقْلِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَزَالِ.

٣٧١ - وَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ وَالْقَمَلِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْهِمْ».

وقال عيسى عليه السلام - لِخُزَيْرٍ لَقِيَهُ: اذْهَبْ بِسَلَامٍ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَعُوذَ لِسَانِي الْمُنْطَقُ بِسَوْءٍ.

٣٧٢ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ طَعَامُ يَحْيَى الْعُشْبِ.

وكان يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى اتَّخَذَ الدَّمْعُ مَجْرَى فِي خَدِّهِ.

٣٧٣ - وَكَانَ يَأْكُلُ مَعَ الْوَحْشِ لَثْلًا يُخَالِطُ النَّاسَ.

وحكى الطبري، عن وهب، أن موسى كان يستظل بعريش، ويأكل في نقرة من حجر، ويكرع فيها إذا أراد أن يشرب كما تكرع الدابة، تواضعاً لله بما أكرمه الله به من كلامه.

وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق، وحسن الصور والشمال معروفة مشهورة؛ فلا نطول بها، ولا نلتفت إلى ما نجده في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا.

فصل

في حديث هند بن أبي هالة وعلي بن أبي طالب

في شمائله

قال المؤلف - رحمه الله -:

قد أتيناك - أكرمك الله - من ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة، وأزيناك صحتها له ﷺ، وجلينا من الآثار ما فيه مقنع، والامر أوسع؛ فمجال هذا الباب في حقه ﷺ ممتد، تنقطع دون نقاده الأدلاء، ويخر علم خصائصه زاجر لا تكدره الدلاء، ولكننا أتينا فيه بالمعروف، مما أكثره في الصحيح والمشهور من المصنفات؛ واقتصرنا في ذلك بقول من كل، وغنص من فيض، ورأينا أن نختم هذه الفصول بحديث الحسن، عن ابن أبي هالة، لجمعيه من شمائله وأوصافه كثيراً، وإدماجه جملة كافية من سيره وفضائله، ونصله بتبنيو لطيف على غريبه ومشكله.

٣٧٤ - حدثنا القاضي أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله -

بقراءتي عليه سنة ثمان وخمس مئة، قال: حدثنا الإمام أبو القاسم: عبدالله بن طاهر التميمي، قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر: محمد بن عبدالله بن الحسن النيسابوري، والشيخ الفقيه أبو عبدالله: محمد بن أحمد بن الحسن المحدثي، والقاضي أبو علي: الحسن بن علي بن جعفر الوخشي؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم: علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزازي، قال: أخبرنا أبو سعيد: الهيثم بن كليب الشاشي، قال: أخبرنا أبو عيسى: محمد بن سورة الحافظ؛ قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جميع بن عمير بن عبد الرحمن العجلي إملاء من كتابه؛ قال: حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة: زوج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبدالله، عن ابن أبي هالة، عن

الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال: سألت خالي هند بن أبي هالة.

١/٢٧٤ - قال القاضي أبو علي - رحمه الله -: وقرأت على الشيخ أبي الطاهر: أحمد بن الحسن بن أحمد بن خُذَّاداذ الكَرَجِيّ الباقِلاني؛ قال: وأجاز لنا الشيخ الأجلّ أبو الفضل: أحمد بن الحسين بن خَيْرُون؛ قالوا: أخبرنا أبو علي: الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذَّان بن حَرْب بن مِهْران الفارسي قراءة عليه، فأقرَّ به، قال: أخبرنا أبو محمد: الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: حدثني علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أخيه موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: محمد بن علي، عن علي بن الحسين، قال: قال الحسن بن علي - واللفظ لهذا السند - سألت خالي هند بن أبي هالة عن حليّة رسول الله ﷺ - وكان وصافاً - وأنا أزجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلّق به، قال: كان رسول الله ﷺ فَحْمًا مُفَحَّمًا، يتلأأ وجهه تَلَأُو القمر ليلة البدر، أطول من المَرَبُوع، وأقصر من المَشْدَب، عظيم الهامة، رَجَل الشَّعْرِ؛ إن انفردت عَقِيقَتُهُ فَرَق، وإلا فلا يجاوزُ شَعْرهُ شَحْمَةُ أُذُنَيْهِ، إذا هو وَفَرُهُ، أَزْهَرُ اللُّون، واسع الجبين، أَزَجُّ الحَوَاجِب، سوابغ، من غير قَرْن، بينهما عِزْقٌ يُدْرِهُ الغَضَبُ، أَقْنَى العِزْنَيْنِ، له نُورٌ يَغْلُوهُ، وَيَحْصِيهِ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمٌ، كَثَّ اللَّحْيَةُ، أَدْعَجَ، سَهْلُ الخَدَيْنِ، ضَلِيعُ الفم، أَشَنَّبَ، مُفْلَجُ الأَسْنَانِ، دَقِيقُ المَسْرُبَةِ، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدٌ دُمِيّ، في صفاء الفِضَّة، مُعْتَدِلُ الخَلْقِ، بادِنًا، مُتَمَاسِكًا، سَوَاءُ البَطْنِ والصَّدْرِ، مُشِيخُ الصَّدْرِ، بَعِيدٌ ما بين المَنَكِبَيْنِ، ضَخْمُ الكَرَادِيسِ، أَنُورُ المُتَجَرِّدِ، مَوْصُولٌ ما بين اللَّبَّةِ والسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَخْرِي كَالخَطِّ، عَارِيَّ الشَّدِيثَيْنِ ما سِوَى ذلك، أَشَعَرَ الذَّرَاعَيْنِ والمَنَكِبَيْنِ وأَعَالِي الصدر، طَوِيلُ الرُّنْدَيْنِ، رَخْبُ الرَّاحَةِ، شَتْنُ الكَفَيْنِ والقَدَمَيْنِ، سَائِلُ الأَطْرَافِ، سَبَطُ القَصَبِ، خُمْصَانُ الأَخْمَصَيْنِ، مَسِيحُ القَدَمَيْنِ، يَثْبُو عنهما الماء، إذا زال زال ثَقْلُهُما، ويخطو تَكْفُؤًا، ويمشي هَوْنًا، ذَرِيعُ المِشْيَةِ، إذا مشى كأنما يَتَحَطُّ من صَبَبٍ، وإذا التفت التفت جميعاً، خَافِضُ الطَّرْفِ، نَظَرُهُ إلى الأرض أطولُ مِنْ نَظَرِهِ إلى السماء، جُلُّ نَظَرِهِ المَلاحِظَةُ، يسوقُ أصحابه، ويبدأ مَنْ لَقِيَهُ بالسَّلام.

قلت: صف لي منطقة.

قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فضلاً، لا فضول فيه ولا تفصيل، دمثاً، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئاً، ولم يكن يذم ذواقاً، ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها، فضرب يانهاه اليمين راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غص طرفة، جل ضجكه التسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

قال الحسن: فكنتمنا الحسين بن علي زماناً، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ؟ فقال:

كان دخوله لنفسه، ماذوناً له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله تعالى، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إيتار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين؛ منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الخواج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة، من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم؛ ويقول: «البلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة». لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره.

وقال - في حديث سفيان بن وكيع -: يدخلون رؤاداً، ولا يتفرقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة، يعني: فقهاء.

قلت: فأخبرني عن مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟

قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يغنيهم، ويؤلفهم ولا يفرقهم؛ يكرم كريم كل قوم، ويؤليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفق أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويؤفقه، معتدل الأمر غير

مختلف، لا يَغْفُل مخافة أن يغفلوا أو يَمْلُوا، لكل حالٍ عنده عَتَاد، لا يَقْصُرُ عن الحق، ولا يجاوزُهُ إلى غيره، الذين يَلَوْنُهُ من الناس خِيَارُهُمْ، وأفضلُهُمْ عنده أعمُّهُم نصيحةً؛ وأعظمُهُمْ عنده منزلةً أحسنُهُم مواساةً وموازرةً.

فسأله عن مَجْلِسِهِ: عَمَّا كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟

فقال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ، وَلَا يُوطِنُ الْأَمَاكِنَ، وَيَنْتَهِي عَنْ إِنْطَائِبِهَا، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلُوسَانِهِ نَصِيحَةً حَتَّى لَا يَخْسَبَ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ، أَوْ قَاوَمَهُ لِحَاجَةٍ، صَابِرُهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ عَنْهُ. مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّه إِلَّا بِهَا، أَوْ بِمَنْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ. قَدْ وَسَّعَ النَّاسُ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ؛ فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عَنْده فِي الْحَقِّ سَوَاءً مُتَقَارِبِينَ مُتَفَاضِلِينَ فِيهِ بِالتَّقْوَى.

وفي الرواية الأخرى: صَارُوا عَنْده فِي الْحَقِّ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ جِلْمٍ وَحِيَاءٍ، وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ؛ لَا تُزْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْنَنُ فِيهِ الْحَرَمُ، وَلَا تُنْثَنَى قَلَنَاتُهُ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ، مِنْ غَيْرِ الرَّوَايَتَيْنِ.

يَتَعَاطَفُونَ فِيهِ بِالتَّقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ، يُؤَقِّرُونَ فِيهِ الْكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيَرْفِدُونَ ذَا الْحَاجَةِ، وَيَرْحَمُونَ الْغَرِيبَ.

فسأله عن سِيرَتِهِ ﷺ فِي جُلُوسَاتِهِ؟

فقال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ يَقْطُ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٌ، وَلَا فَحَّاشٌ، وَلَا عِيَابٌ وَلَا مَدَاحٌ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الرِّيَاءَ، وَالْإِكْثَارَ، وَمَا لَا يَغْنِيهِ؛ وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا، وَلَا يُعَيِّرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلُوسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطُّيُورُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلَا يَتَنَازَعُونَ عَنْده الْحَدِيثَ. مَنْ تَكَلَّمَ عَنْده أَنْصَثُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ حَدِيثٌ أَوَّلُهُمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَتَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي الْمَنْطِقِ، وَيَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُمْ صَاحِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَأَرْفُدُوهُ» وَلَا يَطْلُبُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَهُ فَيَقْطَعُهُ بِانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ.

هنا انتهى حديثُ سفيان بن وكيع.

وزاد الآخر: قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟

قال: كان سكوته على أربع: على الجِلْم، والحَذَر، والتقدير، والتفكر، فأما تقديره ففي تَسْوِية النظر والاستماع من الناس، وأما تفكره ففيما يَتَقَي وَيَقْنَى. وَجُمِعَ له الجِلْمُ في الصبر، فكان لا يُغَضِبُهُ شيء يستفزّه، وَجُمِعَ له في الحَذَرِ أربع: أَخَذَهُ بِالْحَسَنِ لِيُقْتَدَى بِهِ، وَتَرَكَهُ الْقَبِيحَ لِيُنْتَهَى عَنْهُ، واجتهادُ الرَّأْيِ بما أصلح أُمَّتَهُ، والقيامُ لهم بما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة. انتهى الوصف بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ تَعَالَى.

فصل

فِي تَفْسِيرِ غَرِيبِ هَذَا الْحَدِيثِ وَمُشْكِلِهِ

قوله: الْمُشْدَبُ: أي البائن الطول في نحافة.
٣٧٥ - وهو مثلُ قوله في الحديث الآخر: «ليس بالطويل المُمَغِط». والشعرُ الرَّجُلُ: الذي كأنه مُشِط فتَكَسَّرَ قليلاً؛ ليس بِسَبِطٍ ولا جَعْدٍ. والعَقِيقَةُ: شعر الرأس، أراد: إن انفَرَقَتْ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا فَرَقَهَا، وإلا تركها مَعْقُوصَةً. وَيُرْوَى: «عَقِيقَتُهُ».
 وَأَزْهَرَ اللَّوْنَ: نَبَّرَهُ. وقيل: أزهَر: حَسَنَ. ومنه زَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، أي زِينَتُهَا.

٣٧٦ - وهذا كما قال في الحديث الآخر: ليس بالأبيض الأَمْهَقُ، ولا بِالْأَدَمِ [البخاري (٣٥٤٧)، مسلم (٢٣٤٧)].

وَالْأَمْهَقُ: هو الناصع البياض. وَالْأَدَمُ: الأسمر اللون.
٣٧٧ - ومثله في الحديث الآخر: أبيض مُشْرَب. أي فيه خُمْرَةٌ. وَالْحَاجِبُ الْأَرْجُ: المقوَّس الطويل الوافر الشعر.
 وَالْأَقْنَى: السائل الأنف، المرفوع وَسَطُهُ.
 وَالْأَسْمُ: الطويل قَصْبَةُ الأنف.

وَالْقَرْنُ: اتِّصَالُ شَعْرِ الْحَاجِبِينَ. وَضَدَهُ الْبَلَجُ.
٣٧٨ - ووقع في حديث أُمِّ مَعْبِدٍ وَصْفُهُ بِالْقَرْنِ. وَالْأَدْجُجُ: الشديد سَوَادِ الْحَذَقَةِ.

٣٧٩ - وفي الحديث الآخر: «أَشْكَلُ الْعَيْنِ» [مسلم (٢٣٣٩)] «وَأَسَجَرُ الْعَيْنِ»، وهو الذي في بياضها خُمْرَةٌ. وَالضُّلَيْعُ: الزَّامِعُ.

وَالشَّئْبُ: رَوَتْهُ الْأَسْنَانُ، وَمَاؤُهَا.

وقيل: رِقَّتْهَا وَتَحْزِيزٌ فِيهَا كَمَا يُوجَدُ فِي أَسْنَانِ الشَّبَابِ.

وَالْفَلَجُ: فَرْقٌ بَيْنَ الثَّنَايَا.

وَدَقِيقُ الْمَسْرُوبَةِ: خِيطُ الشَّعْرِ الَّذِي بَيْنَ الصَّدْرِ وَالسُّرَّةِ.

بَادِنٌ: ذُو لَحْمٍ.

وَمُتَمَاسِكٌ: مُعْتَدِلُ الْخَلْقِ، يَمْسِكُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

٣٨٠ - مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ، وَلَا بِالْمُكَلَّمِ» أَيِ

لَيْسَ بِمُسْتَرْخِي اللَّحْمِ.

وَالْمُكَلَّمُ: الْقَصِيرُ الذَّقْنِ.

وَسَوَاءُ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ: أَيِ مُسْتَوِيهِمَا.

وَمُشِيحُ الصَّدْرِ: إِنَّ صَحْتَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَتَكُونُ مِنَ الْإِقْبَالِ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِي

«أَشَاحَ»؛ أَيِ أَنَّهُ كَانَ بِأَدْيِ الصَّدْرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي صَدْرِهِ قَعَسٌ، وَهُوَ تَطَاوُنٌ فِيهِ،

وَبِهِ يَتَضَحُّ قَوْلُهُ قَبْلَ: «سَوَاءُ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ» أَيِ لَيْسَ بِمُتَقَاعَسِ الصَّدْرِ، وَلَا

مُقَاضِ الْبَطْنِ.

وَلَعَلَّ اللَّفْظَةَ: مَسِيحٌ - بِالسَّيْنِ - وَفَتْحُ الْمِيمِ، بِمَعْنَى عَرِيضٍ، كَمَا وَقَعَ فِي

الرَّوَايَةِ الْآخَرَى. وَحِكَاةُ ابْنِ دُرَيْدٍ.

وَالكَرَادِيسُ: رُؤُوسُ الْعِظَامِ.

٣٨١ - وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتْدِ.

وَالْمُشَاشُ: رُؤُوسُ الْمَنَاقِبِ. وَالْكَتْدُ: مَجْتَمَعُ الْكَتْفَيْنِ.

وَشَنُّ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ: لَجِيْمُهُمَا.

وَالزُّنْدَانُ: عَظْمَا الذَّرَاعَيْنِ.

وَسَائِلُ الْأَطْرَافِ: أَيِ طَوِيلِ الْأَصَابِعِ.

وَذَكَرَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ أَنَّهُ رَوَى: سَائِلُ الْأَطْرَافِ؛ وَقَالَ: سَايِنٌ - بِالنُّونِ؛ قَالَ:

وَمَا بِمَعْنَى، تُبَدَّلُ اللَّامُ مِنَ النَّونِ، إِنَّ صَحْتَ الرَّوَايَةَ لَهَا.

وَأَمَّا الرَّوَايَةُ الْآخَرَى: «وَسَائِرُ الْأَطْرَافِ» فإِشَارَةٌ إِلَى فَخَامَةِ جَوَارِحِهِ، كَمَا

وَقَعَتْ مُفَصَّلَةً فِي الْحَدِيثِ.

وَرَخِبُ الرَّاحَةِ: أَيِ وَاسِعِهَا. وَقِيلَ: كَثَى بِهِ عَنْ سَعَةِ الْعَطَاءِ وَالْجُودِ.

وَحُخْنَصَانُ الْأَحْمَصَيْنِ: أَيِ مُتَجَاوِيِ أَحْمَصِ الْقَدَمِ؛ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي لَا

تَنَالُهُ الْأَرْضُ مِنْ وَسْطِ الْقَدَمِ.

مَسِيحُ الْقَدَمِينَ: أي أَمْلَسُهَا، ولهذا قال: يَتَّبِعُ عَنْهُمَا الْمَاءَ.

٢٨٢ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ خِلَافُ هَذَا؛ قَالَ فِيهِ: إِذَا وَطِئَ بِقَدَمِهِ وَطِئَ بِكُلِّهَا، لَيْسَ لَهُ أَخْمَصٌ.

وهذا يوافقُ معنى قوله: مَسِيحُ الْقَدَمِينَ، وبه قالوا: سُمِّيَ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أَي إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْمَصٌ.

وقيل: مَسِيحٌ: لَا لَحْمَ عَلَيْهِمَا.

وهذا أَيْضاً يَخَالِفُ قوله: شَتْنُ الْقَدَمِينَ.

والتَّقْلُعُ: هُوَ رَفْعُ الرَّجْلَيْنِ بِقُوَّةٍ.

والتَّكْفُؤُ: الْمِيلُ إِلَى سَنَنِ الْمَشْيِ، وَقَصْدُهُ.

وَالْهَوْنُ: الرَّفْقُ وَالْوَقَارُ.

وَالدَّرْبُ: الْوَسْعُ الْخَطَرُ؛ أَي: إِنَّ مَشْيَهُ كَانَ يَرْفَعُ فِيهِ رِجْلَيْهِ بِسُرْعَةٍ، وَيَمْدُ

خَطْوَهُ، خِلَافَ مِشْيَةِ الْمُخْتَالِ، وَيَقْصِدُ سَمْتَهُ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِرَفْقٍ وَتَثْبِتٍ دُونَ عَجَلَةٍ، كَمَا قَالَ: «كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ».

وقوله: يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ: أَي لَسَعَةٍ فِيهِ. وَالْعَرَبُ تَتِمَادَحُ بِهَذَا وَتَذُمُّ بِصِغَرِ الْفَمِ.

وَأَشَاحَ: مَالٌ وَانْقَبَضَ.

وَحَبُّ الْغَمَامِ: الْبَرْدُ.

وقوله: فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالْخَاصَّةِ عَلَى الْعَامَةِ؛ أَي جَعَلَ مِنْ جُزْءِ نَفْسِهِ مَا يُوَصَّلُ الْخَاصَّةَ إِلَيْهِ فَتَرُصَّلُ عَنْهُ لِلْعَامَةِ.

وقيل: يَجْعَلُ مِنْهُ لِلْخَاصَّةِ، ثُمَّ يُبَدِّلُهَا فِي جُزْءِ آخِرِ الْعَامَةِ.

وَيَدْخُلُونَ رُؤُوداً: أَي مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، وَطَالِبِينَ لِمَا عِنْدَهُ.

وَلَا يَتَفَرَّقُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ: قِيلَ: عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُونَهُ؛ وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَي فِي الْغَالِبِ وَالْأَكْثَرِ.

وَالْعَتَادُ: الْعُدَّةُ، وَالشَّيْءُ الْحَاضِرُ الْمُعَدُّ.

وَالْمُوَازَرَةُ: الْمَعَاوَنَةُ.

وقوله: لَا يُوطِنُ الْأَمَاكِنَ: أَي لَا يَتَّخِذُ لِمُصَلَّاهُ مَوْضِعاً مَعْلوماً.

٢٨٣ - وَقَدْ وَرَدَ نَهْيُهُ عَنْ هَذَا مَفْسُراً فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ [أَبُو دَاوُدَ (٨٦٧)، النَّسَائِيُّ (٢١٤/٢)، ابْنُ مَاجَهَ (١٤٢٩)، أَحْمَدُ (٤٤٧/٥)].

وَصَابِرُهُ: أَي حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ صَاحِبُهُ.

ولا تُؤْتَيْنِ فِيهِ الْحَرَمَ: أَي لَا يُذَكَّرْنَ فِيهِ بِسُوءٍ.
وَلَا تُنْتَلَى فَلَتَاتِهِ: أَي لَا يُتَحَدَّثُ بِهَا؛ أَي لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلَتَةً، وَإِنْ كَانَ مِنْ
أَحَدٍ سُبِّرَتْ.

وَيَرْفُلُونَ: يُعِينُونَ.

وَالسَّحَابُ: الْكَثِيرُ الصِّيَاحِ.

وَقَوْلُهُ: وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ. قِيلَ: مُقْتَصِدٌ فِي ثَنَائِهِ وَمَدْحِهِ.

وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُسْلِمٍ.

وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ عَلَى يَدِ سَبَقَتِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ.

وَيَسْتَفِزُّهُ: يَسْتَخَفُّهُ.

٣٨٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي وَصْفِهِ: «مَنْهُوسَ الْعَقِبِ» [مُسْلِمٌ (٢٣٣٩)؛ أَي

قَلِيلٌ لَحْمِهَا.

٣٨٤م - وَأَهْدَبَ الْأَشْفَارَ: أَي طَوَّلَ شَعْرَهَا. انْتَهَى وَاللَّهُ حَسْبُنَا.



الباب الثالث

فِيمَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَمَشْهُورِهَا
بِعَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَمَنْزِلَتِهِ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ
فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لا خلاف أنه أكرمُ البشر، وسيدُ وَلَدِ آدَمَ، وأفضلُ الخلقِ عند الله وأعلامهم
درجَةً، وأقربهم رُؤْفَى.
واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، وقد اقتصرنا منها على
صحيحها ومُتَشَبِّهها، وخَصَرْنَا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول

فِيمَا وَرَدَ بِذِكْرِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْإِضْطِفَاءِ، وَرِفْعَةِ الذِّكْرِ
والتَّفْضِيلِ وَسَيَادَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا
مِنْ مَرَايَا الرُّتَبِ وَبَرَكَاتِهِ اسْمِهِ الطَّيِّبِ

٢٨٥ - أخبرنا الشيخ أبو محمد: عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد العَدْلُ إِذْنًا بلفظه؛ قال:
حدثنا أبو الْحَسَنِ الْفَرُغَانِي، حدثنا أُمُّ الْقَاسِمِ بنت أبي بكر بن يعقوب، عن أبيها
قال: حدثنا حاتم، وهو: ابن عَقِيل، عن يحيى، هو: ابن إسماعيل، عن يحيى
الْحِمَّانِي، حدثنا قيس، عن الأعمش، عن عُبَايَةَ بن رِيعِي، عن ابن عباس؛ قال:
قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْخَلْقَ قِسْمَيْنِ، فجعلني من خيرهم قِسْماً؛
فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [الواقعة: ٤١].
فأنا من أصحاب اليمين؛ وأنا خيرُ أصحاب اليمين».

ثم جعل القسمين أثلاثاً؛ فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ
الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ۝ وَأَصْحَبُ الشِّمَةِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَةِ ۝ وَالسِّنْيُونِ السِّنْيُونِ ۝﴾
[الواقعة: ٨ - ١٠]. فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل؛
فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿يَتْلُوهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].
فأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر.

ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٣٨٦ - وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله! متى
وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [الترمذي (٣٦٠٩)].

٣٨٧ - وعن وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
مَنْ وَلَدَ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ. وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ
بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

٣٨٨ - ومن حديث أنس: «أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي، وَلَا فَخْرَ».

٣٨٩ - وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ،
وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣٦١٦)].

٣٩٠ - وعن عائشة، عنه عليه السلام: «أتاني جبريل، فقال: قَلْبُكَ مُشَارِقُ
الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا فَلَمْ أَرْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَلَمْ أَرْ بَنِي أَبِ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

٣٩١ - وعن أنس: أن النبي ﷺ أُتِيَ بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، فَاسْتَضَعَبَ
عليه، فقال له جبريل: بِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ،
فَارْقُضْ عِرْقًا.

٣٩٢ - وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَهْبَطَنِي فِي صُلْبِهِ إِلَى
الْأَرْضِ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوْحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقَذَفَ بِي فِي النَّارِ فِي صُلْبِ
إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَنْقُلْنِي فِي الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى
أَخْرَجَنِي بَيْنَ أَبَوَيْ لَمْ يَلْقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطْ».

٣٩٣ - وإلى هذا أشار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه بقوله:

مِنْ قَبْلِهَا طُبْتُ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتُ الْبِلَادَ لَا بَشَرَ أُنْ

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينِ، وَقَدْ أَلَّ
جَمَ تَسْرَأَ وَأَفْلَهُ الْغَرْقُ
ثَقُلَ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَجِمٍ
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقُ
حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيِّمُ مِنْ
خِثْلٍ غَلِيَاءَ تَحْتَهَا الشُّطُقُ
وَأَنْتَ لَمَّا وَلَدْتَ أَشْرَقْتَ الـ
أَرْضُ وَضَاءَتْ بِثُورِكَ الْأَقْصُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضَّيَاءِ وَفِي الثُّورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْرَقُ
فِي آيَاتٍ أُخَرِ.

٣٩٤ - وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَبُو ذَرٍّ [أحمد (١٤٨/٥)، أبو داود (٤٨٩)].

٣٩٥ - وابن عمر.

٣٩٦ - وابن عباس [أحمد (٣٠١/١)].

٣٩٧ - وأبو هريرة [مسلم (٥٢٣)].

٣٩٨ - وجابر بن عبد الله - أنه قال: «أُعْطِيتَ خَمْسًا - وفي بعضها: سِتًّا - لَمْ يُغَطَّهِنَّ نَبِيَّ قِبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِنَبِيِّ قِبْلِي، وَيُبْعَثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتَ الشَّفَاعَةَ» [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

٣٩٩ - وفي رواية بدل هذه الكلمة: «وَقِيلَ لِي: سَلْ تُغَطَّةً».

٤٠٠ - وفي رواية أخرى: «وَعُرِضَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخَفْ عَلَيَّ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَبَوِّعِ».

٤٠١ - وفي رواية: «يُبْعَثُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ».

وقيل: السود: العرب؛ لأنَّ الغالب على ألوانهم الأذمة؛ فهم من السود. والخمر: العجم. وقيل: البيض: السود من الأمم. وقيل: الخمر: الإنس. والسود: الجن.

٤٠٢ - وفي الحديث الآخر، عن أبي هريرة: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ جِيءَ بِمِفْتَاحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي» [البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٧/٥٢٣)].

٤٠٣ - وفي رواية عنه: «وُخِّتَ بِي النَّبِيُّونَ» [مسلم (٥/٥٢٣)].

٤٠٤ - وعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ ﷺ: «إِنِّي قَرِطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ. وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى خَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مِفْتَاحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» [البخاري (١٣٤٤)، مسلم (٢٢٩٦)].

٤٠٥ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَةُ، وَعِلْمَتْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ» [أحمد (١٧٢/٢)].

٤٠٦ - وعن ابن عمر: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ» [أحمد (٥٠/٢)].

٤٠٧ - ومن رواية ابن وَهْب - أَنَّهُ ﷺ - قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: سَلِّ، يَا مُحَمَّدًا فَقُلْتُ: مَا أَسْأَلُ؟ يَا رَبِّ! اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمْتُ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتُ نُوحًا، وَأَعْطَيْتُ سُلَيْمَانَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا أَعْطَيْتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؛ أَعْطَيْتُكَ الْكَوْثَرَ، وَجَعَلْتُ اسْمَكَ مَعَ اسْمِي، يُنَادَى بِهِ فِي جُوفِ السَّمَاءِ، وَجَعَلْتُ الْأَرْضَ طَهْرًا لَكَ وَلَأَمْتِكَ، وَغَفَرْتُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَأَنْتَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَغْفُورًا لَكَ، وَلَمْ أَضْعَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ قَبْلِكَ، وَجَعَلْتُ قُلُوبَ أَمَتِكَ مَصَاحِفَهَا، وَخَبَأْتُ لَكَ شَفَاعَتَكَ، وَلَمْ أَخْبَأَهَا لِنَبِيٍّ غَيْرِكَ».

٤٠٨ - وفي حديث آخر، رواه حذيفة: «بَشَّرَنِي - يَعْنِي: رَبَّهُ - أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَعِيَ مِنْ أُمَتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ؛ وَأَعْطَانِي الْأُتُجُوعَ أُمَتِي وَلَا تُغْلَبُ، وَأَعْطَانِي النَّصْرَ، وَالْعِزَّةَ، وَالرُّغْبَ يَسْمَى بَيْنَ يَدَيِ أُمَتِي شَهْرًا، وَطِيبَ لِي وَلَأُمَتِي الْمَغَانِمَ، وَأَحْلَلَ لَنَا كَثِيرًا مِمَّا شَدَّدَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [أحمد (٣٩٣/٥)].

٤٠٩ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَخِيًّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٤٩٨١)، مسلم (١٥٢)].

معنى هذا عند المحققين: بقاء معجزاته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليها قَرْنٌ بَعْدَ قَرْنٍ عَيْنَانَا لَا خَبْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وفيه كلام يطول، هذا نُخِبَتْهُ. وقد بسطنا القول فيه، وفيما ذُكِرَ فِيهِ سِوَى هَذَا آخِرَ بَابِ الْمَعْجَزَاتِ.

٤١٠ - وعن علي رضي الله عنه: كُلُّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نُجَبَاءَ مِنْ أُمَتِهِ، وَأُعْطِيَ نَبِيَّكُمْ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ نُجَبِيًّا، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَعُمَارُ [أحمد (٨٨/١)، ١٤٢، ١٤٩، الترمذي (٣٧٨٥)].

٤١١ - وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ

والمؤمنين؛ وإنها لم تجل لأحد بعدي، وإنما أجلت لي ساعة من نهار» [البخاري (١١٢)، مسلم (١٣٥٥)].

٤١٢ - وعن العزباض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبدالله وخاتم النبيين؛ وإن آدم لمنجل في طينته، وعدة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم» [أحمد (١٢٧/٤)].

٤١٣ - وعن ابن عباس: قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء، وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهَ مِنْ دُونِهِ فَلْيَعِزِّهِ جَهَنَّمُ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ» ﴿٦٧﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد ﷺ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ١، ٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ...» الآية [إبراهيم: ٤].

وقال لمحمد: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...» [سبا: ٢٨].

٤١٤ وحتى ٤١٧ - وعن خالد بن معدان: أن نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ - وقد روي نحوه عن أبي ذر وشداد بن أوس، وأنس بن مالك -.

فقال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم - يعني قوله: «رَبَّنَا وَأَنْتَ فِيهِمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ» [البقرة: ١٢٩] - وبشرى عيسى. ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي، خلف بيوتنا، نزعني بهما لنا، إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض».

٤١٨ - وفي حديث آخر: «ثلاثة رجال» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)] - «بطنت من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذاني فشقا بطني».

٤١٩ - قال في غير هذا الحديث: «من تخري إلى مرقا بطني» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (٢٦٥/١٦٣)] - ثم استخرجا منه قلبي، فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسل قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أفتياه».

٤٢٠ - قال في حديث آخر: «ثم تناول أحدهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من

نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي، فامتلاً إيماناً وحكمةً، ثم أعاده مكانه، وأمر الآخر يده على مفترق صدري فالتأم.

٤٢١ - وفي رواية: «إن جبريل قال: قَلْبٌ وَكِيعٌ - أي شديد - فيه عينان تبصران، وأذنان تسمعان» ثم قال أحدهما لصاحبه: «زَنَةُ بعشرة من أمته، فوزنتي فرجختهم، ثم قال: زَنَةُ بمئة من أمته، فوزنتي بهم فوزنتهم؛ ثم قال: زَنَةُ بألف من أمته، فوزنتي بهم فوزنتهم؛ ثم قال: دَخَهُ عنك، فلو وَرَنَتْه بأمتة لوزنها ﷺ».

٤٢٢ - قال في الحديث الآخر: «ثم ضَمُونِي إلى صدورهم، وقَبَلُوا رَأْسِي، وما بين عيني، ثم قالوا: يا حبيب! لم تُرَغ، إنك لو تَذَرِي ما يُرَاد بك من الخير لقرئت عيناك».

٤٢٣ - وفي بقية هذا الحديث من قولهم: «ما أكرمك على الله! إن الله معك وملائكته».

٤٢٤ - قال في حديث أبي ذر: «فما هو إلا أن ولّينا عني، فكانما أرى الأمر مُعَايَنَةً».

٤٢٥ - وحكى أبو محمد: مَكِّي، وأبو اللَّيْث السَّمَرْقَنْدِيُّ وغيرهما - أن آدم عند مَغْصَبِهِ قال: اللهم! بحق محمد اغفر لي خطيئتي.

ويُروى: تَقَبَّلْ توبتي. فقال له الله: مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا؟ قال: رأيتُ في كل موضع من الجنة مكتوباً: لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله - ويُروى: محمدٌ عَبْدِي ورسولي - فعلمتُ أنه أكرمُ خَلْقِكَ عليكَ، فتاب اللهُ عليه، وغفر له. وهذا عند قائله تأويلُ قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وفي رواية الأَجْرِي قال: فقال آدم: لَمَّا خَلَقْتَنِي، رفعتُ رأسي إلى عرشك فإذا مكتوب فيه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ فعلمتُ أنه ليس أحدٌ أعظمَ قَدْرًا عندك ممن جعلتُ اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: وعزّيتي وجلالي! إنه لآخرُ النبيين من ذُرِّيَّتِكَ وَلَوْلَا ما خَلَقْتَكَ.

٤٢٦ - قال: وكان آدم يُكْنَى بأبي محمد. وقيل: بأبي البشر.

وروي عن سُرَيْج بن يونس أنه قال: إنَّ لِلَّهِ ملائكةً سَيَّاحِينَ عِيَادَتُهَا كُلِّ دَارٍ فيها أحمد، أو محمد، إكراماً منهم لمحمد ﷺ.

٤٢٧ - وروى ابنُ قانع القاضي، عن أبي الحَمَرَاء قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«لَمَّا أُنْزِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ إِذَا عَلَى الْعَرْشِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَيْدُهُ بَعْلِي».

٤٢٨ - وفي التفسير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَثْرٌ لَّهُمَّا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: عَجِبْتُ لِمَنْ أُيْقِنَ بِالْقَدَرِ، كَيْفَ يَنْصَبُ؟ عَجَباً لِمَنْ أُيْقِنَ بِالنَّارِ كَيْفَ يَضْحَكُ؟ عَجَباً لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقْلِبُهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؟ أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي.

وعن ابن عباس: عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوبٌ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، لَا أَعْذِبُ مَنْ قَالَهَا.

وَذُكِرَ أَنَّهُ وَجَدَ عَلَى الْجِجَارَةِ الْقَدِيمَةِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ تَقِيٌّ مُصْلِحٌ، وَسَيِّدٌ أَمِينٌ.

وَذَكَرَ السُّمَنْطَارِيُّ أَنَّهُ شَاهَدَ فِي بَعْضِ بِلَادِ خُرَاسَانَ مَوْلُوداً وُلِدَ عَلَى أَحَدِ جَنَّتَيْهِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَعَلَى الْآخَرِ مَكْتُوبٌ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَذَكَرَ الْإِخْبَارِيُّونَ: أَنَّ بِلَادَ الْهِنْدِ وَزْدَا أَحْمَرَ مَكْتُوباً عَلَيْهِ بِالْأَبْيَضِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.

وَرَوَى عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا لِيَقُمَ مِنْ اسْمِهِ مُحَمَّدٌ، فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ لِكِرَامَةِ اسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ فِي سَمَاعِهِ، وَابْنُ وَهْبٍ فِي «جَامِعِهِ» عَنْ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَهْلَ مَكَّةَ يَقُولُونَ: مَا مِنْ بَيْتٍ فِيهِ اسْمُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا نُمَّا وَرَزَقُوا.

٤٢٩ - وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا ضَرَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدَانِ وَثَلَاثَةٌ».

٤٣٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاخْتَارَ مِنْهَا قَلْبَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ [أحمد (٣٧٩/١)].

٤٣١ - وَحَكَى النَّقَّاشُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] - قَامَ خَطِيئاً، فَقَالَ: «يَا مَغْفِرُ أَهْلِ الْإِيمَانِ! إِنَّ اللَّهَ

تَعَالَى فَضَّلَنِي عَلَيْكُمْ تَفْضِيلاً، وَفَضَّلَ نَسَائِي عَلَى نَسَائِكُمْ تَفْضِيلاً...»
الحديث.

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَرَامَةُ الْإِسْرَاءِ مِنَ الْمُنَاجَاةِ وَالرُّؤْيَا
وَأِمَامَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُرُوجِ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى

ومن خصائصه ﷺ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرُّفعة منها
تَبَّهَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، وَشَرَحَتْهُ صِبْخَاخُ الْأَخْبَارِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي
أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ
الْأَيْنَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا مَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَبْطِئُ عَنِ
الْمَوْتِ ③ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ
بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا
أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتَزِيدُكُمْ عَلَىٰ مَا بَرَأَ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ
⑬ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ⑭ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ
الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱﴾ [النجم: ١ - ١٨].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ، إذ هو نص القرآن،
وجاء بتفصيله، وشرح عجائبه، وخَوَاصُّ نبينا محمد ﷺ، فيه أحاديث كثيرة
متشعبة، رأينا أن نقدم أكملها، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها.

٤٣٢ - حدثنا القاضي الشهيد: أبو علي، والفقير أبو بخر بسماعي عليهما،
والقاضي أبو عبد الله التميمي، وغير واحد من شيوخنا؛ قالوا: حدثنا أبو العباس
العُدري، حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن
سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شَيْبَانُ بْنُ قُرُوحٍ، حدثنا حماد بن
سَلَمَةَ، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله
قال: «أُبَيِّتُ بِالْبَرَقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أبيضٌ طويل، فوق الجمار، ودون البغل، يضع
حافره عند منتهى طرفه - قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة
التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت،
فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل:
اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل.

قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففتَحَ لنا، فإذا أنا بآدم ﷺ، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستَفْتَحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل. قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. ففتَحَ لنا، فإذا أنا بِأَنِّي الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما؛ فرحَبَا بي، ودعَوَا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتَحَ لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بِإِدْرِيسَ، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الخامسة: فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحَبَ بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى البيت المعمور، وإذا هو يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، فإذا ورَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وإذا ثَمَرُهَا كَالْقِلَاقِلِ، قال: فلما غَشِيَهَا من أمر الله ما غَشِيَتْ تَغْيِيرَتْ، فما أَخَذَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَعِمَ مِنْ حُسْنِهَا؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، ففَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فنَزَلْتُ إلى موسى، فقال: ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أَمْتِكَ؟ قلت: خَمْسِينَ صَلَاةً. قال: ارجع إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أَمْتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فإني قد بَلَوثُ بني إِسْرَائِيلَ وَخَبِرْتُهُمْ.

قال: فرجعتُ إلى رَبِّي، فقلت: يا رَبِّ! خَفِّفْ عَنِّي أَمْتِي. فحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فرجعتُ إلى موسى، فقلت: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قال: إِنَّ أَمْتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فارجع إلى ربك فاسأله التَّخْفِيفَ. قال: فلم أزلْ أَرْجِعُ بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فتلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً؛ وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف».

قال رسول الله ﷺ: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استخيت منه».

قال المؤلف: جَوَّدَ ثابتٌ - رحمه الله - هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحدٌ عنه بأصوب من هذا.

٤٣٣ - وقد خلطَ فيه غيره عن أنس تخلیطاً كثيراً، لا سيما من رواية شريك بن أبي نَمرٍ [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/٢٦٢)]; فقد ذكر في أوله مجيء الملك له، -وشقَّ بَطْنِه، وغَسَلَه بماء زمزم؛ وهذا إنما كان وهو صبيّ، وقَبِل الوحي.

وقد قال شريك في حديثه: وذلك «قبل أن يُوحَى إليه» وذكر قصة الإسراء - ولا خلاف أنها كانت بعد الوحي.

وقد قال غَيْرُ واحدٍ: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قَبْلَ هذا.

٤٣٤ - وقد رَوَى ثابت عن أنس - من رواية حماد بن سلمة [مسلم (٢٦١/١٦٢)] - أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظِئْرِهِ، وشَقَّ قَلْبَه تلك القصة مفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس، فجَوَّدَ في القصتين، وفي أنَّ الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سِدْرَةِ المنتهى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، فأزاح كلَّ إشكال أوهمه غيره.

٤٣٥ - وقد رَوَى يونس، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: كان أبو ذرٍّ يحدث أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «فَرَجَ سَقْفُ بيتي، وأنا بمكة فنزل جبريلُ، ففَرَجَ صَدْرِي، ثم غَسَلَه مِن ماء زمزم، ثم جاء بِطَسْتٍ من ذهبٍ ممتلئٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغها في صَدْرِي، ثم أَطْبَقَه، ثم أخذ بيدي فعرَّج بنا إلى السماء...» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)] فذكر القصة.

٤٣٦ - وروى قَتَادَةُ الحديث، بمثله، عن أنس، عن مالك بن صَعْصَعَةَ [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)]، وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص، وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات.

وحديث ثابت، عن أنس، اتقن وأجود.

وقد وقعت في حديث الإسراء، زيادات تُذكر منها نُكتاً مفيدة في غرضنا:

٤٣٧ - منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قولُ كلِّ نبيٍّ له: «مرحباً بالنبي

الصالح، والأخ الصالح» إلا آدم وإبراهيم فإنهما قالا له: «والابن الصالح».

٤٣٨ - وفيه، من طريق ابن عباس: «ثم عَرَجَ بي حتى ظَهَرْتُ لمستوى أسمع فيه صريرَ الأقلام» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣)].

٤٣٩ - وعن أنس: «ثم انطلق بي حتى أتيتُ سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، ففَشِيهَا ألوانٌ لا أدري ما هي؟ قال: ثم أَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ» [البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣/٢٦٣)].

٤٤٠ - وفي حديث مالك بن صَفْصَعَةَ: «فلما جَاوَزْتُهُ - يعني: موسى - بكى، فتَوَدَّى: ما يُبْكِيكَ؟ قال: رب! هذا غلامٌ بعثته بَعْدِي يَدْخُلُ من أَمَةِ الْجَنَّةِ أَكْثَرَ ممَّا يَدْخُلُ من أمتي».

٤٤١ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فحانت الصلاة، فأَمْتَمْتُهم، فقال قائل: يا مُحَمَّدُ! هذا مالِكٌ خازِنُ النار، فسَلَّمْ فالتفتُ فبداني بالسلام» [مسلم (١٧٢)].

٤٤١م - وفي حديث أبي هريرة: ثم سار حتى أتى إلى بيت المقدس، فزل فربط فرسه إلى صخرة، فصلّى مع الملائكة، فلما قُضِيَت الصلاة قالوا: يا جبريل! مَنْ هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله، خاتَمُ النَّبِيِّينَ. قالوا: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَخَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الْأَخُ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ! ثم لَقُوا أرواحَ الأنبياءِ فَأَتَتْوا على رَبِّهم، وذكر كلامَ كُلِّ واحدٍ منهم، وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان.

ثم ذكر كلامَ النبي ﷺ، فقال: «وإنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَتَنَى على رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فقال: «كلِّمَ أَتَنَى على رَبِّهِ، وأنا أَتَنَى على رَبِّي: الحمد لله الذي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً للعالمين، وكافَّةً للناسِ بشيراً وَنَذِيراً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيهِ تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ. وجعل أمتي خَيْرَ أمةٍ، وجعل أمتي أمةً وَسْطَاءً، وجعل أمتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صُدْرِي، ووضَعَ عَنِي وَزِيرِي، ورفع لي ذِكْرِي، وجعلني فاتحاً وخاتماً».

فقال إبراهيم: بهذا فَضَّلَكُم مُحَمَّدٌ.

ثم ذكر أنه عَرَجَ به إلى السماء الدنيا، ومن سماءٍ إلى سماءٍ، نحو ما تقدم. ٤٤٢ - وفي حديث ابن مسعود: «وَأَتَنَيْتُ بي إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنْتَهِي ما يُعْرَجُ به من الأرض فيَقْبَضُ منها، وإليها يَنْتَهِي ما يَنْهَبُ من فوقها فيَقْبَضُ منها؛ قال: ﴿إِذْ يَنْشَأُ الَّتِيذَرَةُ مَا يَنْشَأُ﴾ ﴿١١﴾ [النجم: ١٦]. قال: «فَرَأَشُ من ذَهَبٍ» [مسلم (١٧٣)].

٤٤٣ - وفي رواية أبي هريرة، من طريق الربيع بن أنس. «فَقِيلَ لِي: هَذِهِ السُّدْرَةُ الْمُنتَهَى يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِكَ خَلَا عَلَى سَبِيلِكَ، وَهِيَ السُّدْرَةُ الْمُنتَهَى، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا، وَإِنَّ وَرَقَةً مِنْهَا مُظِلَّةٌ الْخَلْقَ، فَغَشَّيْتُهَا نُورًا، وَغَشَّيْتُهَا الْمَلَائِكَةَ. قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَفْشَى الْيَدْرَةُ مَا يَفْشَى﴾ [النجم: ١٦].

فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: سَلْ. فَقَالَ: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا. وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَأَلَّيْتَ لَهُ الْحَدِيدَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَأَعْذَنَّهُ وَأَمَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ.

فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ تَعَالَى: قَدْ اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا. فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: مُحَمَّدٌ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ، وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمَ الْأَوَّلُونَ، وَهُمْ الْآخِرُونَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا تَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا، وَآخِرَهُمْ بَعَثًا، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي، وَلَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا.

٤٤٤ - وفي الرواية الأخرى قَالَ: فَأَعْطَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ - لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ - الْمُقْجِمَاتُ [مسلم (١٧٣)].

٤٤٥ - وَقَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿أَفَتَزَيَّوْنَهُ عَلَىٰ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، [١٢]: رَأَى جِبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتٌّ مِثْلُ جَنَاحِ [البخاري (٣٢٣٢)، مسلم (١٧٤)].

٤٤٦ - وفي حديث شريك: أَنَّهُ رَأَى مُوسَى فِي السَّابِعَةِ، قَالَ: بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ.

قَالَ: ثُمَّ عَلَا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَالَ مُوسَى: لَمْ أَظُنْ أَنَّ يُزْفَعُ عَلَيَّ أَحَدٌ.

٤٤٧ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ صَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ [البخاري (٢٠٨٧)، مسلم (١٧٢)].

٤٤٨ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل جبريل عليه السلام، فَوَكَّزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَمَنَّتْ إِلَى شَجَرَةٍ فِيهَا مِثْلُ وَخَرَي الطائر، فقعَدَ فِي وَاحِدَةٍ وَقَعَدْتُ فِي الْأُخْرَى، فَتَمَّتْ حَتَّى سَدَّتِ الْخَافِقَيْنِ. وَلَوْ شِئْتُ لَمَسْنَتُ السَّمَاءَ، وَأَنَا أَقْلَبُ طَرْفِي، وَنَظَرْتُ جَبْرِيلَ كَأَنَّهُ جَلَسَ لَاطِيءٍ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللَّهِ عَلَيَّ، وَفُتِّحَ لِي بَابُ السَّمَاءِ، وَرَأَيْتُ النُّورَ الْأَعْظَمَ، وَإِذَا دُونِي الْحِجَابُ، وَفَرَجَهُ الدُّرُّ وَالْبَاقُوتُ، ثُمَّ أَوْحَى إِلَيَّ مَا شَاءَ أَنْ يُؤْجِيَ».

٤٤٩ - وذكر البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أراد الله تعالى أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الْأَذَانَ جَاءَ جَبْرِيلُ بِدَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا الْبِرَاقُ، فَذَهَبَ يَرْكَبُهَا، فَاسْتَصَعِبَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ: اسْكُنِي، فَوَاللَّهِ! مَا رَكِبْتُ عَبْدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَرَكَبَهَا حَتَّى أَتَى بِهَا إِلَى الْحِجَابِ الَّذِي يَلِي الرَّحْمَنَ تَعَالَى، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ مَلَكٌ مِنَ الْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا جَبْرِيلُ! مَنْ هَذَا؟».

قال: والذي بعثك بالحق! إني لأقرب الخلق مكاناً، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ. فَقَالَ الْمَلَكُ: اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ فَقِيلَ لَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَكْبَرُ. أَنَا أَكْبَرُ.

ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله. فقيل له مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا.

وذكر مثل هذا في بقية الأذان، إلا أنه لم يذكر جواباً عن قوله: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ.

وقال: ثم أخذ الملك بيد محمد، فقدمه، فأَمَّ أَهْلَ السَّمَاءِ، فِيهِمْ آدَمُ وَنُوحٌ.

قال أبو جعفر: محمد بن علي بن الحسين، راويه: أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ الشَّرَفَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

قال المؤلف رحمه الله: ما في هذا الحديث من ذِكْرِ الْحِجَابِ فَهُوَ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ لَا فِي حَقِّ الْخَالِقِ، فَهُمْ الْمَحْجُوبُونَ، وَالْبَارِي جَلَّ اسْمُهُ مَنْزَعٌ عَمَّا يَخْجُبُهُ، إِذِ الْحُجُبُ إِنَّمَا تُحِيطُ بِمَقْدَرٍ مُحْسُوسٍ، وَلَكِنْ حُجُبُهُ عَلَى أَبْصَارِ خَلْقِهِ وَبَصَائِرِهِمْ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ بِمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَمَتَى شَاءَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَلَّا يُبْهَتُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فقله في هذا الحديث: «الحجاب»، و «إذ خرج مَلَكٌ من الحجاب» يجب أن يقال: إنه حجاب حَجَبَ به مَنْ وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سُلْطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجبروته.

ويدل عليه من الحديث - قولُ جبريل - عن الملك الذي خرج من وراءه: «إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا رَأَيْتُهُ مِنْذُ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ».

فدل على أَنَّ هذا الحجاب لم يختص بالذات.

ويدل عليه قولُ كعب في تفسير: «سِدْرَةُ الْمُتَنَهَّى» قال: إليها ينتهي علمُ الملائكة، وعندها يجدون أَمَرَ اللَّهِ، لا يجاوزها علمهم.

وأما قوله: «الذي يلي الرحمن» فيُحْمَلُ على حَذْفِ المضاف، أي يلي عَرْشَ الرحمن، أو أَمْرًا ما، من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه، مما هو أعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها.

وقوله: ف قيل من وراء الحجاب «صدق عبيدي، أنا أكبر» فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلامَ الله، ولكن مِنْ وراء حجاب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؛ أي: وهو لا يراه، حَجَبَ بصره عن رؤيته.

فإن صَحَّ القولُ بأنَّ محمداً ﷺ رأى ربّه عزَّ وجلَّ فيُحْتَمَلُ أنه في غير هذا المَوْطِنِ. بعدَ هذا أو قبله، رُفِعَ الحجابُ عن بصره حتى رآه. والله أعلم.

فصل

فِي حَقِيقَةِ الْإِسْرَاءِ، هَلْ كَانَ بِالرُّوحِ أَمْ بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ

ثم اختلف السلف والعلماء: هل كان أسري بروحه أو جسده؟ على ثلاث مقالات: فذهب طائفة إلى أنه إسرائ بالروح، وأنه رُؤيا منام، مع اتفاقهم أنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ ووحي، وإلى هذا ذهب معاوية.

وحكي عن الحسن، والمشهور عنه خلافه، وإليه أشار محمد بن إسحاق، وحبَّتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

٤٥٠ - وما حَكَّوْا عن عائشة أنها قالت: ما فقدتُ جسدَ رسولِ الله ﷺ.

٤٥١ - وقوله: «بيننا أنا نائم».

٤٥٢ - وقول أنس: وهو نائم في المسجد الحرام. وذكر القصة، ثم قال

في آخرها: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام» [البخاري (٧٥١٧)، مسلم (٢٦٢/١٦٢)].

وذهب مُعْظَمُ السَّلَفِ والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبي هريرة، ومالك بن صُغَصَةَ، وأبي حَبَّةَ البَذْرِي، وابن مسعود، والضحاك، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وابن المسيب، وابن شهاب، وابن زید، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جُرَيج، وهو دليل قول عائشة، وهو قول الطبري، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وقالت طائفة: كان الإسرائ بالجسد يَقْظَةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، يَلَا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، فجعل ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ غاية الإسرائ الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي محمد ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسرائ إليه.

قال هؤلاء: ولو كان الإسرائ بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره؛ فيكون أبلغ في المدح.

ثم اختلفت هذه الفرقتان: هل صلى بيت المقدس، أم لا؟

٤٥٣ - ففي حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته فيه.

٤٥٤ - وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان، وقال: واللّه! ما زالا عن ظَهْرِ الْبُرَاقِ

حتى رجعا [الترمذي (٣١٤٧)، أحمد (٢٨٧/٥)].

قال المؤلف: والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسرائ بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية، وصحيح الأخبار، والاعتبار، ولا يُغْدَلُ عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسرائ بجسده وحال يقظته استحالة؛ إذ لو كان مناماً لقال: برّوح عبّده، ولم يَقُلْ: ﴿بِعَبْدِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استعبده الكفار، ولا كذبوه فيه، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم، وافتنّوا به؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنْكِرُ؛ بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس - أو في السماء على ما روى غيره - وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء؛ فيقال: من معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء

فيها، وخَبَرَهُمْ معه، وَتَرْحِيهِمْ بِهِ، وَشَأْنُهُ فِي قَرْضِ الصَّلَاةِ وَمَرَاجَعَتِهِ مَعَ مُوسَى فِي ذَلِكَ.

٤٥٥ - وفي بعض هذه الأخبار: «فأخذ - يعني جبريل - بيدي فَعَرَجَ بي إلى السماء...».

٤٥٥م - إلى قوله: «ثم عَرَجَ بي حتى ظهرت بمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ» وأنه وصل إلى سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ، وأنه دخل الجنة، ورأى فيها ما ذكره.

٤٥٦ - قال ابن عباس: هي رُؤْيَا عَيْنٍ رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ لَا رُؤْيَا مَنَامٍ [البخاري: ٣٨٨٨].

٤٥٧ - وعن الحسن فيه: «بينما أنا نائم في الحِجْر إِذْ جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَهَمَزَنِي بِعَقِبِهِ، فَقُمْتُ فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرْ شَيْئًا، فَعُدْتُ لِمَضْجَعِي» - فذكر ذلك ثلاثاً - فقال في الثالثة: «فأخذ بعَضْلِي فَجَرَّنِي إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَإِذَا بِدَابَّةٍ». وذكر خبر البراق.

٤٥٨ - وعن أُمِّ هَانِيءَ: مَا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ فِي بَيْتِي، تِلْكَ اللَّيْلَةُ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، وَنَامَ بَيْنَنَا، فَلَمَّا كَانَ قُبِيلَ الْفَجْرِ أَهْبَتْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ وَصَلَيْنَا قَالَ: «يَا أُمُّ هَانِيءُ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتَ بِهَذَا الْوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ الْغَدَاةَ مَعَكُمْ الْآنَ كَمَا تَرَوْنَ». وهذا يَبَيِّنُ فِي أَنَّهُ بِجَسَمِهِ.

٤٥٩ - وعن أَبِي بَكْرٍ - مِنْ رِوَايَةِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ: طَلِبْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْبَارِحَةَ فِي مَكَانِكَ فَلَمْ أَجِدْكَ. فَأَجَابَهُ: إِنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَمَلَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

٤٦٠ - وعن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَّيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فِي مَقْدَمِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ دَخَلْتُ الصَّخْرَةَ فَإِذَا بِمَلَكٍ قَائِمٍ مَعَ آتِيَةِ ثَلَاثَ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وهذه التصريحات ظاهرة غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ، فَتَحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا.

٤٦١ - وعن أَبِي ذَرٍّ، عَنْهُ ﷺ: «فَرَجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ، فَفَرَشَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ وَزَمَزَمَ...» إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي».

٤٦٢ - وعن أنس: «أُتِيَ فَانْطَلَقُوا بِي إِلَى زَمَزَمَ، فَشَرَحَ عَنْ صَدْرِي» [مسلم (٢٦٠/١٦٢)].

٤٦٣ - وعن أبي هريرة: «لَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي الْحَجَرِ، وَقَرِيشُ تَسَالَنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ أَتِبْنَهَا، فَكَرِهْتُ كَرْباً مَا كَرِهْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ» [مسلم (١٧٢)].

٤٦٤ - ونحوه عن جابر [البخاري (٣٨٨٦)، مسلم (١٧٠)].

٤٦٥ - وقد رَوَى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه ﷺ أنه قال: «ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ وَمَا تَحَوَّلْتُ عَنْ جَانِبِهَا».

فصل

فِي إِنْطَالِ خُجَجٍ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَوْمٌ

احتجُّوا بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا آلَ رَبِّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» [الإسراء: ٦٠]، فسماها رؤيا.

قلنا: قوله سبحانه وتعالى: «الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» [الإسراء: ١] يرده؛ لأنه لا يقال في النوم: أسرى.

وقوله: «فِتْنَةً لِلنَّاسِ». يؤيد أنها رؤيا عين، وإسراء شخص؛ إذ ليس في الحلم فتنة. ولا يكذب به أحد؛ لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباعدة.

على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية؛ فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قُضِيَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وما وقع في نفوس الناس من ذلك. وقيل غير هذا. وأما قولهم: إنه قد سماها في الحديث مناماً.

٤٦٦ - وقوله في حديث آخر: «بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ» [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٤)].

٤٦٧ - وقوله أيضاً: وهو نائم. وقوله: «ثُمَّ اسْتَبَقَظْتُ» فلا حجة فيه؛ إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم، أو أن أول حمله والإسراء به وهو نائم، وليس في الحديث أنه كان نائماً في القُضِيَةِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قوله: «ثُمَّ اسْتَبَقَظْتُ وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» فلعل قوله: «اسْتَبَقَظْتُ» بمعنى أَصْبَحْتُ، أو استيقظ من نَوْمٍ آخِرٍ بَعْدَ وَصُولِهِ بَيْتِهِ.

ويدل عليه أن مسراه لم يكن طويلاً ليله، وإنما كان في بعضه.

وقد يكون قوله: «استيقظت وأنا في المسجد الحرام» لِمَا كَانَ غَمَرَهُ مِنْ عَجَائِبِ مَا طَالَ مِنْ مُلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخَامَرَ بَاطِنَهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، فَلَمْ يَسْتَقِفْ وَيَرْجِعْ إِلَى حَالِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ: أَنَّ يَكُونُ نَوْمُهُ وَاسْتِيقَاضُهُ حَقِيقَةً عَلَى مَقْتَضَى لَفْظِهِ، وَلَكِنَّهُ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ وَقَلْبُهُ حَاضِرٌ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، تَنَامُ أَغْنِيَهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ.

وَقَدْ مَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْإِشَارَاتِ إِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا. قَالَ: تَغْمِضُ عَيْنِيهِ لئَلَّا يَشْغَلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا يَصِحُّ هَذَا أَنَّ يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاتِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَلَعَلَّهُ كَانَتْ لَهُ فِي هَذَا الْإِسْرَاءِ حَالَاتٌ.

وَوَجْهٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّ يَعْبُرَ بِالنَّوْمِ هَا هُنَا عَنْ هَيْئَةِ النَّائِمِ مِنَ الْاضْطِجَاعِ. ٤٦٨ - وَيُقَوِّيه قَوْلُهُ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ هَمَّامٍ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ وَرَبُّنَا قَالَ: «مُضْطَجِعٌ».

٤٦٩ - وَفِي رِوَايَةِ هُدْبَةَ، عَنْهُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحَطِيمِ» وَرَبُّنَا قَالَ: «فِي الْحَجَرِ مُضْطَجِعٌ» [البخاري (٣٨٨٧)].

٤٧٠ - وَقَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ». فَيَكُونُ سَمَّى هَيْئَتَهُ بِالنَّوْمِ لَمَّا كَانَتْ هَيْئَةُ النَّائِمِ غَالِبًا.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَاتُ: مِنَ النَّوْمِ، وَذِكْرُ شَقِّ الْبَطْنِ، وَذَنُوبُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَالْوَقَاعَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ رِوَايَةِ شَرِيكَ، عَنْ أَنَسٍ، فَهِيَ مُنْكَرَةٌ مِنْ رِوَايَتِهِ؛ إِذْ شَقُّ الْبَطْنِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِنَّمَا كَانَ فِي صَغَرِهِ ﷺ وَقَبْلَ النَّبَوَّةِ؛ وَلَأنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: «قَبْلَ أَنْ يُنَبِّئَ»، وَالْإِسْرَاءُ بِإِجْمَاعٍ كَانَ بَعْدَ الْمَنَبِّئِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ يُؤْهِنُ مَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ، مَعَ أَنَّ أَنَسًا قَدْ بَيَّنَّ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ أَنَّهُ إِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ مَرَّةً: عَنْ مَالِكِ بْنِ صُغْصَعَةَ، وَفِي كِتَابِ مُسْلِمٍ: لَعَلَّهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ صُغْصَعَةَ، عَلَى الشَّكِّ. وَقَالَ مَرَّةً: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يَحْدُثُ.

٤٧١ - وَأَمَّا قَوْلُ عَائِشَةَ: مَا فَقَدَ جَسَدَهُ؛ فَعَائِشَةُ لَمْ تَحْدُثْ بِهِ عَنْ مُشَاهَدَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ حَيْثُ ذُوَّجَهُ، وَلَا فِي سِنٍّ مِنْ يَضْبُطُ، وَلَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ وَلِدَتْ بَعْدُ، عَلَى الْخِلَافِ فِي الْإِسْرَاءِ مَتَى كَانَ؟ فَإِنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى قَوْلِ

الزُّهْرِي وَمَنْ وافقه بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشةُ في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

وقد قيل: كان الإسراءُ لخمسةٍ قبل الهجرة. وقيل: قبل الهجرة بعام. والأشبهُ إنه لخمسةٍ.

والحجةُ لذلك تطول، وليست مِنْ غَرْضِنَا، فإذا لم تشاهد ذلك عائشةُ، دُلْ على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يُرجَّحْ خَبَرُهَا على خبر غيرها؛ وَغَيْرُهَا يقول خلافه مما وقع نصاً في حديث أم هانئ وغيره.

وأيضاً فليس حديثُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالثابت، والأحاديثُ الأخرُ أثبت، وَلَسْنَا نَعْنِي حديثَ أم هانئ، وَمَا دُكِرَتْ فِيهِ خديجة.

وأيضاً فقد روي في حديث عائشة: «مَا فَقَدْتُ». ولم يدخل بها النبي ﷺ إلا بالمدينة.

وكلُّ هذا يوهِّنه؛ بل الذي يدلُّ عليه صحيحُ قولها. أنه بجسده، لإنكارها أن تكون رؤياه لربه رؤياً عَيْنِي. ولو كان عندها مئاماً لم تُنْكِرْه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] فقد جعل ما رآه للقلب، وهنا يدلُّ على أنه رؤياً نَوْمٍ وَوَحْيٍ، لا مشاهدة عَيْنٍ وَجَسٍّ. قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا كَلَّمَ﴾ [النجم: ١٧] فقد أضاف الأمرَ للبصر.

وقد قال أهلُ التفسير في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] أي لم يوهِّم القلبُ العَيْنَ غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها. وقيل: ما أنكر قلبه ما رآه عينه.

فصل

فِي رُؤْيِيهِ ﷺ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاخْتِلَافِ السَّلَفِ فِيهَا

وأما رُؤْيِيهِ ﷺ - لربه جلَّ وعزَّ - فاختلف السلفُ فيها؛ فأنكرته عائشة.

٤٧٢ - أخبرنا أبو الحسين: سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه؛ قال: حدثني أبي، وأبو عبدالله بن عتاب الفقيه؛ قالوا: حدثنا القاضي يونس بن مُغِيث، قال: حدثنا أبو الفضل الصقلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده؛ قالوا: حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بن علي قال: حدثنا محمود بن آدم، حدثنا وَكِيع، عن ابن أبي خالد، عن عامر، عن مسروق، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أُمَّ

المؤمنين! هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شَغْرِي مما قُلْتَ. ثلاث مَنْ حَدَّثَكَ بهنَّ فقد كذب: من حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وذكر الحديث [البخاري (٧٣٨٠)، مسلم (٢٨٩/١٧٧)].

فقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها.

٤٧٣، ٤٧٤ - وهو المشهور عن ابن مسعود، ومثله عن أبي هريرة، أنه قال: إنما رأى جبريل [البخاري (٤٨٥٧)، مسلم (١٧٤)]. واختلف عنه. وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين، والفقهاء والمتكلمين.

٤٧٥ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه رآه بعينه [أحمد (٣٧٠/١)].

٤٧٦ - وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه [مسلم (٢٨٤/١٧٦)].

٤٧٧ - وعن أبي العالية، عنه: رآه بفؤاده مرتين [مسلم (٢٨٥/١٧٦)].

٤٧٨ - وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

٤٧٩ - والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، روي ذلك عنه من طريقي، وقال: إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمداً بالرؤية.

وحجته قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١-١٣].

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى، ومحمد ﷺ فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

وحكى أبو الفتح الرازي، وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب.

٤٨٠ - وروى عبد الله بن الحارث، قال: اجتمع ابن عباس وكعب؛ فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إن محمداً قد رأى ربه مرتين؛ فكبر كعب حتى جاوزته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى؛ فكلمه موسى، ورآه محمد بقلبه [الترمذي (٣٢٧٨)].

٤٨١ - وروى شريك، عن أبي ذر رضي الله عنه في تفسير الآية؛ قال: رأى النبي ﷺ ربه.

٤٨٢ - وحكى السمرقندي، عن محمد بن كعب القرظي، وزبيد بن أنس، أن النبي ﷺ سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت بفؤادي، ولم أره بعيني».

٤٨٣ - وروى مالك بن يخامر، عن معاذ، عن النبي ﷺ؛ قال: «رأيت

رَبِّي... وذكر كَلِمَةً، فقال: يا محمد! فيم يَخْتَصِم المَلَأُ الأعلى؟ [أحمد
(٢٤٣/٥)، الترمذي (٣٢٣٥)] الحديث.

وحكى عبد الرزاق أَنَّ الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمدَ رَبِّه.
وحكاه أبو عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيُّ عن عِكْرَمَةَ.

وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

وحكى ابنُ إسحاق: أَنَّ مروانَ سأل أبا هُرَيْرَةَ. هل رأى محمد رَبُّه؟ فقال:
نعم.

وحكى النقاش، عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقولُ بحديث ابن عباس
بعينه رآه - حتى انقطع نَفْسُهُ، يعني: نَفَسَ أحمد.

وقال أبو عُمَرَ: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وَجِبْنَ عن القول برؤيته في
الدنيا بالأبصار.

وقال سَعِيد بن جُبَيْر: لا أقول: رآه، ولا لم يَرَهُ.

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس، وعِكْرَمَةَ، والحسن، وابن
مسعود؛ فَحَكِي عن ابن عباس وعِكْرَمَةَ: رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود:
رأى جبريل.

وَحَكَى عَبْدُ اللَّهِ بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، أنه قال: رآه.

وعن ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [الأنشراح: ١]
قال: شرح صُدْرَهُ للرؤية، وشرح صُدْرَ موسى للكلام.

وقال أبو الحسن، علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من
أصحابه: إنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رَأِيهِ، وقال: كُلُّ آيَةٍ أُوتِيَهَا نَبِيٌّ من
الأنبياء عليهم السلام فقد أُوتِي مِثْلَهَا نَبِيًّا، وَخُصَّ من بينهم بتفضيل الرؤية.

ووقف بعضُ مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليلٌ واضح؛ ولكنه جائز
أَن يكون.

قال المؤلف: والحقُّ الذي لا امْتِرَاءَ فيه، أَن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة
عقلاً، وليس في العقل ما يُجِيلُهَا.

والدليلُ على جَوَازِهَا في الدنيا سؤالُ موسى - عليه السلام - لها. ومحالٌ أَن
يجهلُ نَبِيٌّ ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه؛ بل لم يسأل إلا جائزاً غَيْرَ
مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يَعْلَمُهُ إلا مَنْ عَلَّمَهُ الله،
فقال له الله تعالى: ﴿لَن رَّبِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ أي: لن تُطِيقَ، ولا تحتُمَلْ

رُؤْيِي؛ ثم ضرب له مثلاً مِمَّا هو أقوى مِنْ بِنْيَةِ موسى وأُثْبِت، وهو الجبل.
وكلُّ هذا ليس فيه ما يُحِيل رُؤْيَتَهُ في الدنيا؛ بل فيه جَوَازُهَا على الجملة؛
وليس في الشرع دليلٌ قاطع على استحالتها ولا امتناعها؛ إذ كل موجود فرُؤْيَتُهُ
جائزَةٌ غَيْرٌ مستحيلة.

ولا حجة لمن استدَلَّ على مَنعها بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾
[الأنعام: ١٠٣]؛ لاختلاف التأويلات في الآية، وإذ ليس يقتضي قول مَنْ قال في
الدنيا الاستحالة.

وقد استدَلَّ بعضهم بهذه الآية نَفْسِهَا على جواز الرؤية وعدم استحالتها على
الجملة.

وقد قيل: لا تدرُكُهُ أبصارُ الكفار. وقيل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ لا تُحِيطُ
به، وهو قول ابن عباس. وقد قيل: لا تدرُكُهُ الأبصار، وإنما يدرُكُهُ المُبْصِرُونَ.
وكلُّ هذه التأويلات لا تقتضي مَنع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِيَهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقوله:
﴿يَبْتَغِ إِيَّاكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. لِمَا قَدَمْنَاهُ؛ ولأنها ليست على العموم؛ ولأنَّ مَنْ
قال: معناها: لن تَرَانِي في الدنيا، إنما هو تأويل.

وأيضاً ليس فيه نَصُّ الامتناع، وإنما جاءت في حق موسى؛ وحيث تنطَرَّقُ
التأويلات وتسلط الاحتمالات، فليس للقطع إليه سبيل.

وقوله: ﴿يَبْتَغِ إِيَّاكَ﴾. أي: مِنْ سؤالي ما لم تُقَدِّرْهُ لي.
وقد قال أبو بكر الهذلي في قوله: ﴿لَنْ تَرِيَهُ﴾: أي ليس لِيَشْرَ أَنْ يُطِيقَ أَنْ
يَنْظَرَ إِلَيَّ في الدنيا، وإنَّه مَنْ نظر إلي مات.

وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: إن رُؤْيَتَهُ تعالى في الدنيا
مُتَمَتِّعَةٌ، لضعف تركيب أهل الدنيا، وقواهم، وكونها متغيرة غرضاً للآفات
والفناء، فلم يكن لهم قوة على الرؤية؛ فإذا كان في الآخرة ورزقوا تركيباً
آخر، ورزقوا قُوًى ثابتةً باقيةً، وأتمَّ أنوار أبصارهم وقلوبهم قُووا بها على
الرؤية.

وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس رحمه الله؛ قال: لم يُرَ في الدنيا؛ لأنه
باقٍ، ولا يُرَى الباقي بالفاني؛ فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقيةً رُئي الباقي
بالباقِي.

وهذا كلامٌ حسنٌ مَليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضَعْفُ

القدرة؛ فإذا قَوَّى اللَّهُ تعالى مَنْ شاءَ مِنْ عِباده، وأَفَذَرَهُ على حَمْلِ أعباءِ الرؤية لم تَمْنَع في حقِّه.

وقد تقدَّم ما ذُكِرَ في قوة بَصَرِ موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية مُنِحَاها لإدراك ما أدركاه، ورؤْيَية ما رَأَياه. والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر - في أثناء أجوبته عن الآيتين - ما معناه: إن موسى - عليه السلام - رأى الله؛ فَلِذَلِكَ خَرَّ صَعِقًا، وإن الجبل رأى ربه فصار ذكًا بإدراك خَلْقِهِ الله له. واستنبط ذلك - والله أعلم - من قوله: ﴿وَلَكِنْ أَقْنُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ ائْتَفَقَ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَوْنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وتجَلَّيهِ للجبل هو ظهوره له حتى رآه، على هذا القول. وقال جعفر بن محمد: شَغَلَهُ بالجبل حتى تجلَّى، ولولا ذلك لَمَات صَعِقًا بلا إفاقة.

وقوله هذا يدلُّ على أَنَّ موسى رآه.

وقد وقع لبعض المفسرين في «الجبل» أنه رآه، وبرؤية الجبل له استدلُّ مَنْ قال برؤية محمد نبينا له؛ إذ جعله دليلًا على الجواز.

ولا مزية في الجواز؛ إذ ليس في الآيات نصٌّ بالمنع.

وأما وجوبه لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضًا ولا نصٌّ؛ إذ الْمُعَوَّلُ فيه على آيتي «النجم» والتنازعُ فيهما ماثور، والاحتمالُ لهما مُمكن، ولا أثر قاطع مُتواتر عن النبي ﷺ بذلك.

٤٨٤ - وحديث ابن عباس خَبَرٌ عن اعتقاده لم يُسَيِّدْهُ إلى النبي ﷺ؛ فيجب العملُ باعتقادِ مُضْمِنِهِ.

٤٨٥ - ومثله حديثُ أبي ذَرٍّ في تفسير الآية.

٤٨٦ - وحديث معاذ مُحْتَمِلٌ للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمُثْنِ.

٤٨٧ - وحديث أبي ذَرٍّ الآخر مختلف مُحْتَمِلٌ مُشْكِلٌ. فروي: «نور أُنِّي

أراه؟» [مسلم (٢٩١/١٧٨)].

وحكى بعضُ شيوخنا أنه رُوي: «نُورَانِيَّ أراه».

٤٨٨ - وفي حديثه الآخر: سألته، فقال: «رَأَيْتُ نوراً» [مسلم (٢٩٢/١٧٨)]،

وليس يمكن الاحتجاجُ بواحدٍ منها على صحة الرؤية؛ فإن كان الصحيح: «رَأَيْتُ

نوراً، فهو قد أخبر أنه لم يرَ الله؛ وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله.
والى هذا يرجع قوله: «تَوَرَّأْتِي أَرَاهُ؟» أي: كيف أراه مع حجابِ الثور
المُعْشَى للبصر؟

٤٨٩ - وهذا مثْلُ ما في الحديث الآخر: «حجابه الثور» [مسلم (١٧٩)].

٤٩٠ - وفي الحديث الآخر: «لم أَره بعيني، وإنما رأيته بقلبي مرتين»
وتلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، واللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الإدراك الذي في
البَصَرِ في القلب، أو كيف شاء، لا إِلَهَ غيره.

فإنَّ وَرَدَ حديثٌ نصٌّ بَيِّنٌ في الباب اعتقِد ووجب المَصِيرُ إليه؛ إذ لا
استِحَالَةَ فيه، ولا مانع قطعي يردُّه، والله الموفق تعالى.

فصل

فِي مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ مِنْ مُنَاجَاتِهِ ﷺ لِلَّهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ مَعَهُ

وأما ما وَرَدَ في هذه القصة مِنْ مُنَاجَاتِهِ ﷻ لله تعالى وكلامه معه بقوله: ﴿فَأَوْحَى
إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠] إلى ما تَضَمَّنَتْهُ الأحاديثُ، فأكثرُ المفسرين على
أَنَّ المَوْحِي ﷻ عز وجلَّ إلى جبريل، وجبريلُ إلى محمد ﷺ، إلا شذوذاً منهم؛
فذكر عن جعفر بن محمد الصادق، قال: أَوْحَى إِلَيْهِ بلا واسطة، ونحوه عن
الواسطي؛ وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين، أَنَّ محمداً ﷺ كَلَّمَ رَبَّهُ فِي
الْإِسْرَاءِ.

وحكي عن الأشعري، وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس؛ وأنكره آخرون.
٤٩١ - وذكر النقاش، عن ابن عباس، في قصة الإسراء، عنه ﷺ في
قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]. قال: «فَارَقَنِي جِبْرِيلُ، وانقطعت الأصوات عني،
فسمعتُ كلامَ ربي وهو يقول: لِيَهْدَأْ رَوْعَكَ يَا مُحَمَّدُ! اذْنُ، اذْنُ».

٤٩٢ - وفي حديث أنس في الإسراء نحو منه.
وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛
فقالوا: هي ثلاثة أقسام: من وراء حجابٍ كتكليم موسى؛ وبارسال الملائكة
كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ. الثالث: قوله: ﴿وَحْيًا﴾ ولم يَنَقُ من
تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة.

وقد قيل: الْوَحْيُ - هنا - هو ما يُلقِيهِ في قَلْبِ النَّبِيِّ دُونَ واسطة.

٤٩٣ - وقد ذكر أبو بكر الْبَزَّازُ، عن عليّ في حديث الإسراء، ما هو أَوْضَحُ في سَمَاعِ النَّبِيِّ ﷺ لكلام اللَّهِ من الآية: فذكر فيه: «فقال الْمَلَكُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فقبل لي مِنْ وراءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَكْبَرُ، أَنَا أَكْبَرُ». وقال في سائر كلمات الْأَذَانِ مِثْلُ ذلك.

ويجيءُ الْكَلَامُ في مُشْكَلِ هَؤُلَاءِ الْحَدِيثَيْنِ في الْفَضْلِ بعد هذا مع ما يُشَبِّهه، وفي أَوَّلِ فَصْلِ مِنَ الْبَابِ مِنْهُ.

وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ اخْتَصَّه مِنْ أَنْبِيَائِهِ، جَائِزٌ غَيْرُ مَمْنُوعٍ عَقْلًا، وَلَا وَرَدَ فِي الشَّرْعِ قَاطِعٌ يَمْنَعُهُ، فَإِنْ صَحَّ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ احْتِمِلَ عَلَيْهِ، وَكَلَامُهُ تَعَالَى لِمُوسَى كَائِنٌ حَقٌّ مَقْطُوعٌ بِهِ، نَصُّ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ، وَأَكَّدَهُ بِالْمَصْدَرِ ذَلَالَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ.

٤٩٤ - وَرَفَعَ مَكَانَهُ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بِسَبَبِ كَلَامِهِ. وَرَفَعَ مُحَمَّدًا فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ حَتَّى بَلَغَ مُسْتَوًى، وَسَمِعَ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ؛ فَكَيْفَ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ هَذَا أَوْ يَتَّعَدَّ سَمَاعُ الْكَلَامِ؟ فَسَبْحَانَ مَنْ خَصَّ مَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ!.

فصل

فِي مَا وَرَدَ مِنَ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَظَاهِرِ الْآيَةِ: مِنَ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَنَا قَدْكَ﴾ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿﴾ ⑨ [النجم: ٨، ٩]. فَأَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ أَنَّ الدُّنُوَّ وَالتَّدَلَّى مُنْقَسِمٌ مَا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَجَبْرِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَوْ مُخْتَصٌّ بِأَحَدِهِمَا مِنَ الْآخِرِ، أَوْ مِنْ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى.

قال الرازي: وقال ابن عباس: هو محمد، دنا فتدلى مِنْ رَبِّهِ.

وقيل: معنى دنا: قُرْبٌ. وتدلَّى: زاد في القرب. وقيل: هما بمعنى واحد. أي: قرب وحكى مكى والماوردي، عن ابن عباس: هو الرَّبُّ دنا من محمد ﷺ، فتدلَّى إليه؛ أي: أمره وحُكْمُهُ.

وحكى النقاش عن الحسن، قال: ﴿دَنَا﴾ من عبده محمد ﷺ، ﴿قَدْكَ﴾ فقرَّب منه، فأراه ما شاء أَنْ يُرِيَهُ مِنْ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ.

٤٩٥ - قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر: تدلَّى الرَّفْرُفُ لمحمد ﷺ ليلة المِعْرَاج، فجلس عليه، ثم رُفِعَ فدنا من ربِّه. قال: «فَارْقَنِي جبريلُ، وانقطعت عني الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربي عز وجل».

٤٩٦ - وعن أنس في الصحيح: «عَرَجَ بي جبريلُ إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ودنا الجِبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ، فتدلَّى حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة...» وذكر حديث الإسراء.

وعن محمد بن كُغَب: هو محمدٌ، دنا من ربِّه، فكان قَابَ قَوْسَيْنِ. قال: وقال جعفر بن محمد: أدناه ربُّه منه حتى كان منه كَقَابِ قَوْسَيْنِ. وقال جعفر بن محمد: والدنو من الله لا حدَّ له، ومن العباد بالحدود. وقال أيضاً: انقطعت الكَيْفِيَّةُ عن الدنو، ألا ترى كيف حَجَبَ جبريل عن دُنُوهِ، ودنا محمد ﷺ إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلَّى يسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشكُّ والارتباب.

قال المؤلف رحمه الله: اعلم أنَّ ما وقع من إضافة الدنو والقرب - هنا - من الله، أو إلى الله، فليس بدنو مكان، ولا قُرب مَدَى؛ بل كما ذكرناه عن جعفر الصادق: ليس بدنو حدٌّ، وإنما دُنُو النَّبِيِّ ﷺ من ربه وقُربه منه إبانةٌ عظيم منزليته، وتشريفٌ رُتَبَتِهِ، وإشراقٌ أنوار معرفته، ومشاهدةٌ أسرار غَيْبِهِ وقدرته، ومن اللّهِ تعالى له مَبَرَّةٌ وتأنيسٌ، وبَسْطٌ، وإكرامٌ.

٤٩٧ - وَيَتَأَوَّلُ فِيهِ مَا يَتَأَوَّلُ فِي قَوْلِهِ: «يَنْزِلُ رُبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا» [البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)] على أحد الوجوه: نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان. قال الواسطي: مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَنَا، جَعَلَ ثَمَّ مَسَافَةً، بَلَّ كَلِمَا دَنَا بِنَفْسِهِ مِنَ الْحَقِّ تَدَلَّى بَعْدًا، يَغْنِي: عَنْ ذَلِكَ حَقِيقَتُهُ؛ إِذْ لَا دُنُوَ لِلْحَقِّ وَلَا بَعْدٌ.

وقوله: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فَمَنْ جَعَلَ الضمير عائداً إلى الله تعالى، لا إلى جبريل على هذا كان عبارةً عن نهاية القُرب، ولُطْفِ المحلِّ، واتّضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التَّحَقُّقِ، وإنافَةِ المنزل والمرتبة من الله له.

٤٩٨ - وَيَتَأَوَّلُ فِيهِ مَا يَتَأَوَّلُ فِي قَوْلِهِ: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥)، (٢٦٨٧)] قُرْبٌ بِالْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ، وَإِتْيَانٌ بِالْإِحْسَانِ وَتَعْجِيلُ الْمَأْمُولِ.

فصل

فِي ذِكْرِ تَفْضِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخُصُوصِ الْكَرَامَةِ

٤٩٩ - قال القاضي أبو علي: حدثنا أبو الفضل، وأبو الحسين؛ قالوا: حدثنا أبو يعلَى، حدثنا السُّنْجِي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبدالسلام بن حرب، عن لَيْث، عن الربيع بن أنس، عن أنس رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيئُهُمْ إِذَا وَفِدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُيْسُوا؛ لَوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣٦١٠)].

٥٠٠ - وفي رواية ابن زُحْر، عن الربيع بن أنس، في لَفْظِ هَذَا الْحَدِيثِ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا قَائِدُهُمْ إِذَا وَفِدُوا، وَأَنَا خَطِيئُهُمْ إِذَا أَنْصَتُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُسِبُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُبْلِسُوا؛ لَوَاءُ الْكَرَمِ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ؛ وَيَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ كَانَهُمْ لَوْلَوْ مَكُونُونَ».

٥٠١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «وَأُكْنِسَ حُلَّةٌ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي» [الترمذي (٣٦١١)].

٥٠٢ - وعن أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِيَدِي لَوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا نَبِيٌّ يَوْمُنِي، آدَمُ فَتَمُنْ سِوَاهُ، إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي؛ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ» [الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، ابن ماجه (٤٣٠٨)].

٥٠٣ - وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرِ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ» [مسلم (٢٢٧٨)].

٥٠٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ، وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَحْرُكُ حُلَّةُ الْجَنَّةِ، فَيَنْفَتَحُ لِي فَيَدْخُلُهَا مَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا فَخْرَ؛ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلَا فَخْرَ».

٥٠٥ - وعن أنس: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَعاً» [مسلم (١٩٦)].

٥٠٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ

القيامة؛ وتذرون بَمَ ذلك؟ يجمعُ الله الأولين والآخرين» [البخاري (٤٤٧٦)، (٤٧١٢)، مسلم (١٩٣)، (١٩٤)] وذكر حديث الشفاعة.

٥٠٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أطمع أن أكون أعظم الأنبياء أجراً يوم القيامة».

٥٠٨ - وفي حديث آخر: «أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة؟» ثم قال: «إنهما في أمتي يوم القيامة؛ أما إبراهيم فيقول: أنت دعوتي وذرتي، فاجعلني من أمتك. وأما عيسى فالأنبياء إخوة بنو علات، أمهاتهم شتى؛ وإن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي، وأنا أولى الناس به» [البخاري (٣٤٤٣)، مسلم (٢٣٦٥)، أبو داود (٤٦٧٥)].

قوله: «أنا سيّد الناس يوم القيامة»: هو سيّدهم في الدنيا، ويوم القيامة. ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره؛ إذ لجأ إليه الناس في ذلك، فلم يجدوا سواه.

والسيّد: هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم؛ فكان حينئذ سيّداً منفرداً بين البشر، لم يُزاحمه أحد في ذلك، ولا ادّعاء؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَلْمَلْتُكُمْ يَوْمَ الْوَيْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والمُلك له تعالى في الدنيا والآخرة، لكن في الآخرة انقطعت دَعْوَى المدّعي لذلك في الدنيا.

وكذلك لجأ إلى محمد ﷺ جميع الناس في الشفاعة؛ فكان سيّدهم في الأخرى دون دَعْوَى.

٥٠٩ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتني باب الجنة يوم القيامة، فاستفتح، فيقول الخازن: مَنْ أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أُمِرت لا أفتح لأحد قبلك» [مسلم (١٩٧)].

٥١٠ - وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «خوْضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورد، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء؛ مَنْ شرب منه لم يظمأ أبداً» [البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٢٩٢)].

٥١١ - وعن أبي ذر نحوه؛ وقال: «طوله ما بين عُمان إلى أيلة، يشحب فيه ميزابان من الجنة» [مسلم (٢٣٠٠)].

٥١٢ - وعن ثوبان مثله؛ وقال: «أحدهما من ذهب، والآخر من ورق» [مسلم (٢٣٠١)].

٥١٣ - وفي رواية حارثة بن وَهْب: «كما بين المدينة وصنعاء» [البخاري (٦٥٩١)، مسلم (٥١٣)].

٥١٤ - وعن أَنَس: «أَيْلَة وصنعاء» [البخاري (٦٥٨٠)، مسلم (٢٣٠٣)].

٥١٥ - وعن ابن عُمر: «كما بين الكوفة والحجر الأسود» [البخاري (٦٥٧٧)، مسلم (٢٢٩٩)].

٥١٦ وحتى ٥٤٢ - وروى حديث الحَوْض أيضاً: أَنَس، وجابر، وسُمُرَة، وابنُ عُمَرَ، وعُقْبَةُ بن عامر، وحارثة بن وَهْب الخُزَاعِي، والمستورِد، وأبو بَرْزَةَ الأسلمي، وحُذَيْفَةُ بن اليمان، وأبو أمامة، وزيد بن أَرْقَم، وابنُ مسعود، وعبدالله بن زَيْد، وسَهْلُ بن سعد، وسُوَيْد بن جَبَلَة، وأبو بكر، وعُمَرُ بن الخطاب، وابنُ بُرَيْدَة، وأبو سَعِيد الخُدْرِي، وعبدالله الصَّنَائِجِي، وأبو هُرَيْرَة، والبراء، وجُنْدُب، وعائشة وأسماء ابنتا أبي بكر، وأبو بَكْرَة، وخَوْلَة بنت قَيْس، [مسلم (٢٣٠٥)، الترمذي (٢٤٤٣) البخاري (٦٥٩٠) وغيرهم].

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِالصَّحْبَةِ وَالْخَلَةِ

جاءت بذلك الأخبار الصحيحة، واختص - ﷺ - على ألسنة المسلمين بحبيب الله.

٥٤٣ - أخبرنا أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره، عن كريمة بنت محمد، حدثنا أبو الهيثم (ح) وحدثنا حسين بن محمد الحافظ سمعاً عليه، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا عَبْدُ بَنُ أَحْمَد، حدثنا أبو الهيثم، حدثنا أبو عَبْدِ اللَّهِ: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا قُلَيْج، حدثنا أبو النُّضْر، عن بُسْر بن سَعِيد، عن أبي سَعِيد، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذاً خَلِيلاً - غَيْرَ رَبِّي - لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ» [البخاري (٣٦٥٤)، مسلم (٢٣٨٢)].

٥٤٤ - وفي حديث آخر: «وإن صاحبكم خليلُ الله» [مسلم (٧/٢٣٨٣)، الترمذي (٣٦٥٩)].

٥٤٥ - ومن طريق عبد الله بن مسعود: «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» [مسلم (٣/٢٣٨٣)].

٥٤٦ - وعن ابن عباس، قال: جلس ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ

ينتظرونه؛ قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون؛ فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً! إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً.

وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمة الله تكليماً.

وقال آخر: فيعسى كلمة الله وزوّه.

وقال آخر: وأدم اصطفاؤه الله.

فخرج عليهم فسلم، وقال: «قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجَبَكُمْ؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ وَأَدَمُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرٍ؛ وَأَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرٍ؛ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ وَلَا فَخْرٍ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَحْرُكُ حَلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَيَدْخُلْنِيهَا وَمَعِيَ فَقَرَاءَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا فَخْرٍ؛ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلَا فَخْرٍ».

٥٤٧ - وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - من قول الله تعالى لنبيه ﷺ: «إِنِّي اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا، فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: أُنْسِبُ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ». قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اختلف في تفسير الخلّة، وأصل اشتقاقها؛ فقيل: الخليل: المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال.

وقيل: الخليل: المختص، واختار هذا القول غير واحد. وقال بعضهم: أصل الخلّة الاستصفاء؛ وسُمي إبراهيم خليل الله؛ لأنه يؤالي فيه ويُعادي فيه؛ وخلّة الله له: نصرته، وجعله إماماً لمن بعده. وقيل: الخليل: أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلّة وهي الحاجة؛ فسُمي بها إبراهيم، لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قبل غيره.

٥٤٨ - إذ جاءه جبريل عليه السلام وهو في المنجنيق، ليُزَمِّي به في النار، قال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا.

وقال أبو بكر بن قُوزك: الخلّة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار.

وقال بعضهم: أصل الخلّة: المحبة؛ ومعناها: الإسعاف والإلطف، والترفع، والتشفيع؛ وقد بين ذلك تعالى في كتابه بقوله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَمِرُّ لَمَن

يَنَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾
[المائدة: ١٨].

فأوجب للمحبيب ألا يؤاخذ بذنوبه.

قال: هذا، والخُلة أقوى من البُوة؛ لأن البُوة قد يكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَكُ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَلَا تَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَعْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ولا يصح أن تكون عداوة مع خُلة؛ فإذا تسمية إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالخُلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه، والانقطاع عن دونه، والإضراب عن الوسائط والأسباب؛ أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفي الطافه عندهما، وما خال بواطنهما من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستصفايه لهما، واستصفاء قلوبهما عن سواه، حتى لم يُخال لهما حبٌ لغيره؛ ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه.

٥٤٩ - وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «ولو كنت متخذاً خليلاً لانتخذت أباً بكر خليلاً؛ لكن أخوة الإسلام».

واختلف العلماء وأرباب القلوب: أيهما أرفع درجة: الخُلة، أو درجة المحبة؟ فجعلهما بعضهم سواء؛ فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخُلة، ومحمداً بالمحبة.

٥٥٠ - وبعضهم قال: درجة الخُلة أرفع؛ واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل» فلم يتخذ.

وقد أطلق المحبة ﷺ لفاطمة، وابنتها، وأسماء، وغيرهم. وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخُلة؛ لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم.

وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب؛ ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق؛ وهي درجة المخلوق؛ فأما الخالق - جل جلاله - فمتنزه عن الأغراض؛ فمحبه لعبد تمكينه من سعاده، وعظمته وتوفيقه ونهضة أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه؛ وقصاها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته.

٥٥١ - فيكون كما قال في الحديث: «إذا أحببتك كنت سَمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به» [البخاري (٦٥٠٢)].

ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله.

٥٥٢ - كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن؛ برضاه يرضى، ويسخطه يسخط؛ ومن هذا عبر بعضهم عن الخلّة بقوله:

قد تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا
فَإِذَا مَا نَطَقْتُ كُنْتُ حَدِيثِي وَإِذَا مَا سَكَتُ كُنْتُ الْغَلِيلَا

فإذا مزيت الخلّة وخصوصيّة المحبة حاصلة لبنينا ﷺ بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة، المتلقاة بالقبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن نتخذة حناناً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله، غيظاً لهم، ورغماً على مقالتهم، هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فزاده شرفاً بأمرهم بطاعته، وقرنها بطاعته، ثم توعدهم على التولي عنه بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاماً في الفرق بين المحبة والخلّة يطول، جملة إشارته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلّة؛ ونحن نذكر منه طرفاً يهدي إلى ما بعده.

فمن ذلك قولهم: الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحبيب يصل إليه، من قوله: ﴿مَكَانَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]. وقيل: الخليل: الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمِّمْ عَمَلَكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

وال خليل قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]. والحبيب قيل له: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحریم: ٨]؛ فابتدئ بالبشارة قبل السؤال.

وال خليل قال في المختة: حسبي الله.

والحبيب قيل له: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والخليل قال: ﴿وَجَعَلَ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

والحبيب قيل له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: ٤] أُعْطِيَ بلا سؤال.

والخليل قال: ﴿وَأَحْبَبَنِي وَبَيَّنَّ أَنْ تَتَّبَعَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والحبيب قيل له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

[الأحزاب: ٣٣].

وفيما ذكرناه تنبيه على مقصِد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات

والأحوال؛ و ﴿كُلُّ بَعْدٍ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ بِالشَّفَاعَةِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ

قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

٥٥٣ - أخبرنا الشيخ أبو علي العسائي الجبائي فيما كتب به إلي بخطه، حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا أبو زيد، وأبو أحمد؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف؛ قال: حدثنا محمد بن إسماعيل؛ قال: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي؛ قال: سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان! اشفع لنا؛ يا فلان! اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود [البخاري (٤٧١٨)].

٥٥٤ - وعن أبي هريرة: سئل عنها رسول الله ﷺ، يعني قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فقال: «هي الشفاعة» [الترمذي (٣١٣٧)]، أحمد (٤٤٤/٢).

٥٥٥ - وروى كعب بن مالك، عنه عليه السلام: «يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمِّي عَلَى تَلٍّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي حُلَّةَ خَضْرَاءٍ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ؛ فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ» [أحمد (٤٥٦/٣)].

٥٥٦ - وعن ابن عمر رضي الله عنه - وذكر حديث الشفاعة - قال: فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحُلَّةِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمِذُ بِنَعْتِهِ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدَهُ.

٥٥٧ - وعن ابن مسعود، عنه عليه السلام: إِنَّهُ قِيَامُهُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ غَيْرُهُ، يَخِطُّهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

وَنَحْوَهُ عَنِ كُفَيْبٍ، وَالْحَسَنِ.

٥٥٨ - وفي رواية: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لِأُمْتِي فِيهِ» [أحمد (٤٤١/٢)، ٥٢٨].

٥٥٩ - وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لِقَائِمُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ» قيل: وما هو؟ قال: «ذَلِكَ يَوْمٌ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ...» الحديث.

٥٦٠ - وعن أبي موسى - رضي الله عنه - عنه ﷺ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمْتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ؛ أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ» [ابن ماجه (٤٣١١)].

٥٦١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! ماذا وَرَدَ عَلَيْكَ فِي الشَّفَاعَةِ؟ فقال: «شَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، يَصْدُقُ لِسَانُهُ قَلْبُهُ» [أحمد (٣٠٧/٢)].

٥٦٢ - وعن أم حَبِيبَةَ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَرَيْتَ مَا تَلْقَى أُمْتِي مِنْ بَغْدِي، وَسَفَكِ بَعْضِهِمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَسَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا سَبَقَ لِلْأُمَمِ قَبْلَهُمْ؟ فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُؤْتِيَنِي شَفَاعَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيهِمْ، فَفَعَلَ» [أحمد (٤٢٧/٦)، ٤٢٨].

٥٦٣ - وقال حذيفة: يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، حَيْثُ يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ، وَيَتَقَدُّهُمْ الْبَصْرَ، حُفَاةَ غُرَاةٍ كَمَا خُلِقُوا، سَكُوتًا لَا تَكَلُّمَ نَفْسٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَيُنَادِي: مُحَمَّدًا! فيقول: لَيْتَكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمُهْتَدِي مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجِيَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبِّ الْبَيْتِ، قال: فذلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٦٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَتَبْقَى آخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَآخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ النَّارِ؛ فَتَقُولُ زُمْرَةُ النَّارِ لَزُمْرَةِ الْجَنَّةِ: مَا نَفَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ، فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَيَضْجُونَ، فَيَسْمَعُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَيَسْأَلُونَ آدَمَ وَغَيْرَهُ بَعْدَهُ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ؛ فَكُلُّ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَأْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَشْفَعُ لَهُمْ، فَذلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

٥٦٥ - ونحوه عن ابن مسعود أيضاً، ومجاهد.

٥٦٦ - وذكره علي بن الحسين عن النبي ﷺ.

٥٦٧ - وقال جابر بن عبد الله لِيَزِيدَ الْفَقِيرِ: سَمِعْتُ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ؟ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ.

قال: نعم. قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يُخْرِجُ اللَّهُ به مَنْ يُخْرِجُ - يعني من النار - وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنّيين [مسلم (٣٢٠/١٩١)].

٥٦٨ - وعن أنس نحوه [البخاري (٤٤)، مسلم (١٩٣)]، وقال: فهذا المقام المحمود الذي وُعدّه [أحمد (٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥)].

٥٦٩ - وعن سلمان: المقام المحمود هو الشفاعة في أمته يوم القيامة.

٥٧٠ - ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال قتادة: كان أهل العلم يزورن المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة. وعلى أن المقام المحمود مقامه - عليه الصلاة والسلام - للشفاعة مذهب السلف من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين. وبذلك جاءت الشفاعة مُفسّرة في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام. وجاءت مقالة في تفسيرها شاذة عن بعض السلف، يجب ألا تثبت، إذا لم يعضدها صحيح أثر، ولا سند نظر.

ولو صحّ لكان لها تأويل غير مستنكر؛ لكن ما فسرّه النبي ﷺ في صحيح الآثار يرده؛ فلا يجب أن يلتفت إليه، مع أنه لم يأت في كتاب ولا سنة، ولا اتفق على المقال أمّة؛ وفي إطلاق ظاهره مُنكر من القول وشنّة.

٥٧١ - وفي رواية أنس وأبي هريرة وغيرهما - دخل حديث بعضهم على بعض - قال ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهنّثون - أو قال: فيلهثون - فيقولون: لو استشفّعنا إلى ربنا» [البخاري (٤٤) مسلم (٣٢٢/١٩٣)].

٥٧٢ - ومن طريق آخر عنه: «ماج الناس بعضهم في بعض» [البخاري (٧٥١٠) مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٧٣ - وعن أبي هريرة: «وتذنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم ما لا يطبقون ولا يحتملون؛ فيقولون: ألا ننظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم فيقولون - زاد بعضهم -: أنت آدم أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء. اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا؛ ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نهاني عن الشجرة فعصيت؛ نفسي، نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً

شُكُوراً، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فيقول: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي، نَفْسِي» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٤ - قال - في رواية أنس: «ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم» [البخاري (٧٤٤٠)، مسلم (١٩٣)].

٥٧٥ - وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً - وذكر مثله - ويذكر ثلاث كلمات كَذَبَهُنَّ، نَفْسِي، نَفْسِي، لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى؛ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)].

٥٧٦ - وفي رواية: «فإنه عبد أتاه الله التوراة، وكلمه وقرّبه نحيلاً» [البخاري (٧٤٤٠)، أحمد (٢٤٤/٣)].

٥٧٧ - قال: «فيأتون موسى؛ فيقول: لست لها، ويذكر خطيئته التي أصاب، وقتله النفس، نفسي، نفسي، ولكن عليكم بعميس؛ فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى؛ فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر.

فأوتى، فأقول: أنا لها. فأنطلق، فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجداً» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٧٨ - وفي رواية: «فأتي تحت العرش، فأخّر ساجداً» [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٧٩ - وفي رواية: «فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يُلهمنيها الله» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٠ - وفي رواية: «يفتح الله علي من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي».

قال - في رواية أبي هريرة -: «فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل ثغطة،

وَأَشْفَعُ تَشْفَعُ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُمْتِي؛ يَا رَبِّ! أُمْتِي. فيقول: ادْخُلْ مِنْ أَمْتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (٣٢٧/١٩٤)].

٥٨١ - ولم يذكر في رواية أنس هذا الفضل، وقال مكانه: «ثم أُخِرُ ساجداً؛ فيقال لي: يا محمدا! ارفع رأسك، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَأَشْفَعُ تَشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُمْتِي، أُمْتِي. فيقال: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأُخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

ثم أرجع إلى ربي، فَأُخْمَدُ بِتِلْكَ الْمُحَامِدِ...» وذكر مثل الأول؛ وقال فيه: «مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ. قال: فَأَفْعَلُ، ثم أرجع...» وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ؛ فَأَفْعَلُ». وذكر في المرة الرابعة: «فيقال لي: ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَأَشْفَعُ تَشْفَعُ، وَسَلْ تُعْطَى».

فيقول: «يَا رَبِّ! ائْذَنْ لِي فَيَمْنُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قال: ليس ذلك إليك.

ولكن وعِزَّتِي! وكِبْرِيائِي! وَعَظَمَتِي! لِأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٣٢٦/١٩٣)].

٥٨٢ - وفي رواية قتادة عنه؛ قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة: «فأقول: يَا رَبِّ! مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» [البخاري (٤٤٧٦)، مسلم (٣٢٢/١٩٣)] أي وجب عليه الخلود.

٥٨٣ وحتى ٥٨٦ - وعن أبي بكر، وعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ [الترمذي (٣١٤٨)]، وَحُذَيْفَةُ مِثْلَهُ [مسلم (١٩٥)]؛ قال: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتَأْتِي الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَّتِي الصِّرَاطُ».

وذكر في رواية أَبِي مَالِكٍ عَنْ حُذَيْفَةَ: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَشْفَعُ؛ فَيَضْرِبُ الصِّرَاطُ، فَيَمْرُونَ: أَوَلَهُمْ كَالْبَزْقِ، ثُمَّ كَالزَّبِجِ، وَالطَّيْرِ، وَشَدَّ الرُّجَالِ، وَنَبِيَّكُمْ ﷺ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ. وَذَكَرَ آخِرَهُمْ جَوَازاً... الحديث.

٥٨٧ - وفي رواية أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجَبِّزُ» [البخاري (٨٠٦)، مسلم (١٨٢)].

٥٨٨ - وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «يُوضَعُ لِلنَّبِيِّاءِ مَنَابِرُ يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا،

وَيَبْقَى مِثْبَرِي لَا أَجْلَس عَلَيْهِ، قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّي مُنْتَصِبًا، فيقول الله تبارك وتعالى: مَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأَمْرِكَ؟ فأقول: يَا رَبِّ! عَجِّلْ حَسَابَهُمْ، فَيُدْعَى بِهِمْ، فَيَحَاسِبُونَ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي، وَلَا أزال أشفعُ حتى أُعْطِيَ صِكَاكًا بِرِجَالٍ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، حَتَّى إِنْ خَازَنَ النَّارَ لَيَقُولَ: يَا مُحَمَّدًا مَا تَرَكْتُ لِقَضْبِ رَيْكَ فِي أَمْتِكَ مِنْ بَقْمَةٍ.

٥٨٩ - وَمِنْ طَرِيقِ زِيَادِ الثَّمِيرِيِّ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْفَلِقُ الْأَرْضَ عَنْ جُمُجْمَتِهِ وَلَا فُخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فُخْرَ، وَمَعِيَ لَوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تُفْتَحُ لَهُ الْجَنَّةُ وَلَا فُخْرَ، فَآتِي فَأَخَذَ بِحُلْفَةِ الْجَنَّةِ، فيقالُ: مَنْ هَذَا؟ فَأقولُ: مُحَمَّدٌ؛ فَيُفْتَحُ لِي، فَيَسْتَقْبِلُنِي الْجَبَّارُ تَعَالَى، فَأَخِزُّ لَهُ سَاجِدًا...» [أحمد (١٤٤/٣)] وذكر نحو ما تقدّم.

٥٩٠ - وَمِنْ رِوَايَةِ أَتْنِسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَأَشْفَعَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَكْثَرِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَشَجَرٍ» [أحمد (٣٤٧/٥)].

فَقَدْ اجْتَمَعَ مِنْ اخْتِلَافِ أَفْظَاظِ هَذِهِ الْأَثَارِ أَنَّ شَفَاعَتَهُ - ﷺ - وَمَقَامَهُ الْمَحْمُودَ مِنْ أَوَّلِ الشَّفَاعَاتِ إِلَى آخِرِهَا، مِنْ حِينَ يَجْتَمِعُ النَّاسُ لِلْحَشْرِ، وَتَضِيقُ بِهِمُ الْحَنَاجِرُ، وَيَبْلُغُ مِنْهُمْ الْعَرَقُ وَالشَّمْسُ وَالْوُقُوفُ مَبْلَغَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْحِسَابِ، فَيُشَفَّعُ حَيْثُ يُرَادُّ لِإِرَاحَةِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْقِفِ، ثُمَّ يُوضَعُ الصُّرَاطُ، وَيَحَاسِبُ النَّاسُ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَخُذِيفَةَ - وَهَذَا الْحَدِيثُ أَثَقَرُ. فَيُشَفَّعُ فِي تَعْجِيلِ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمْتِهِ إِلَى الْجَنَّةِ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ - ثُمَّ يَشَفَّعُ فِيمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَدَخَلَ النَّارَ مِنْهُمْ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ثُمَّ فَيَمُنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَلَيْسَ هَذَا لِسِوَاهُ ﷺ.

٥٩١ - وَفِي الْحَدِيثِ الْمُنْتَشَرِ الصَّحِيحِ: «كُلَّ نَبِيٍّ دَعَا يَدْعُو بِهَا، وَاخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: مَعْنَاهُ دَعَا أَعْلِمَ أَنَّهَا تُسْتَجَابُ لَهُمْ، وَيُبَلِّغُ فِيهَا مَرْغُوبَهُمْ، وَإِلَّا فَكَمْ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، وَلِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْهَا مَا لَا يُعَدُّ؛ لَكِنْ حَالَهُمْ عِنْدَ الدَّعَاءِ بِهَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَضُمِنَتْ لَهُمْ إِجَابَةُ دَعْوَةٍ فَيَمُنْ شَاؤُوهُ، يَدْعُونَ بِهَا عَلَى يَقِينٍ مِنَ الْإِجَابَةِ.

٥٩٢ - وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ، وَأَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «كُلَّ نَبِيٍّ دَعَا دَعَا بِهَا فِي أُمْتِهِ، فَاسْتَجِيبَ لَهُ؛ وَأَنَا أَرِيدُ أَنْ

أَوْخَرُ، ذَهَوْتِي شَفَاعَةُ لَأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ [مسلم (٣٤٠/١٩٩)، البخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)].
٥٩٣ - وفي رواية أبي صالح: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي
 دعوته» [مسلم (٣٣٨/١٩٩)].

٥٩٤ - ونحوه في رواية أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة [مسلم (٣٣٩/١٩٩)].
٥٩٥ - وعن أنس [البخاري (٦٣٠٥)، مسلم (٢٠٠)] مثل رواية ابن زياد، عن
 أبي هريرة.

فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة؛ مضمونة الإجابة؛ وإلا فقد
 أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا أعطي بعضها، ومنع
 بعضها، واذخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة، وخاتمة المحن، وعظيم السؤال
 والرجة.

جزأه الله أحسن ما جرى نبياً عن أمته، وصلى الله عليه وسلم كثيراً.

فصل

فِي تَفْضِيلِهِ فِي الْجَنَّةِ بِالْوَسِيلَةِ وَالذَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ وَالْكَوْثَرِ وَالْفَضِيلَةِ

٥٩٦ - حدثنا القاضي أبو عَبْدِ اللَّهِ: محمد بن عيسى التميمي، والفقيه أبو
 الوليد: هشام بن أحمد، بقراءتي عليه؛ قالوا: حدثنا أبو علي الغساني، حدثنا
 الثمري، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، حدثنا
 محمد بن سلمة، حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، وخيوه، وسعيد بن أبي أيوب،
 عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص،
 أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا
 علي؛ فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً؛ ثُمَّ صَلُّوا اللَّهَ تَعَالَى لِي الْوَسِيلَةَ؛
 فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ؛ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ
 سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ» [مسلم (٣٨٤)، أبو داود (٥٢٣)].

٥٩٧ - وفي حديث آخر، عن أبي هريرة: «الْوَسِيلَةُ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ»
 [الترمذي (٣٦١٢)].

٥٩٨ - وعن أنس: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذْ عَرَضَ
 لِي نَهْرٌ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ.

قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ. قال: ثم ضرب

بيده إلى طينته، فاستخرج مِنْكَ» [البخاري (٦٥٨١)، مسلم (٤٠٠)، الترمذي (٣٣٦٠)].
٥٩٩، ٦٠٠ - وعن عائشة [البخاري (٤٩٦٥)] وعبدالله بن عمر مثله. قال:

«ومَجَرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ» [الترمذي (٣٣٦١)، ابن ماجه (٤٣٣٤)، أحمد (١١٢/٢)].

٦٠١ - وفي رواية، عنه: «فَإِذَا هُوَ يَجْرِي، وَلَمْ يَشُقَّ شَقًّا، عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمْتِي...» [أحمد (٢٤٧/٣)]، وذكر حديثَ الْحَوْضِ.

٦٠٢ - ونحوه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

٦٠٣ - وعن ابن عباس أيضاً، قال: الْكَوْثَرُ: الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٤ - وقال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَالنَّهْرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ [البخاري (٦٥٧٨)].

٦٠٥ - وعن حُذَيْفَةَ، فِيمَا ذَكَرَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ رَبِّهِ: «وَأَعْطَانِي الْكَوْثَرَ، وَهُوَ نَهْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، يَسِيلُ فِي حَوْضِي».

٦٠٦ - وعن ابن عباس: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُمْطِرُكَ رَبُّكَ فَارْتَضَى﴾ (الضحى: ٥)؛ قَالَ: أَلْفُ قَصْرِ مِنْ لُؤْلُؤٍ، تُرَابُهُنَّ الْمِسْكُ، وَفِيهِ مَا يُضِلُّهِنَّ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: وَفِيهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ.

فصل

فِي مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِتَنْهِيهِ عَنْ تَفْضِيلِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ

٦٠٧ - فَإِنْ قُلْتُ: إِذَا تَقَرَّرَ مِنْ دَلِيلِ الْقُرْآنِ، وَصَحِيحِ الْأَثَرِ، وَاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ - كَوْنُهُ أَكْرَمَ الْبَشَرِ، وَأَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ - فَمَا مَعْنَى الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِتَنْهِيهِ عَنِ التَّفْضِيلِ؟ كَقَوْلِهِ - فِيمَا حَدَّثَنَا الْأَسَدِيُّ - قَالَ: حَدَّثَنَا السَّمَرَقَنْدِيُّ، حَدَّثَنَا الْفَارَسِيُّ، حَدَّثَنَا الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ مُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَالِيَةِ يَقُولُ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ ﷺ - يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [مسلم (٢٣٧٧)، البخاري (٣٤١٣)].

٦٠٨ - وَفِي غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ - يَعْنِي اللَّهُ -: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ...» الْحَدِيثُ [مسلم (٢٣٧٦)، البخاري (٣٤١٦)].

٦٠٩ - وفي حديث أبي هريرة، في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر! فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «لا تفضلوا بين الأنبياء».

٦١٠ - وفي رواية: «لا تخيروني على موسى» فذكر الحديث.

٦١١ - وفيه: «ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى» [البخاري (٣٤١٥)، مسلم (١٥٩/٢٤٧٣)].

٦١٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» [البخاري (٤٦٠٤)، (٤٨٠٥)].

٦١٣ - وعن ابن مسعود: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى» [البخاري (٣٤١٢)].

٦١٤ - وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجل، فقال له: يا خير البرية! فقال: «ذاك إبراهيم» [مسلم (٢٣٦٩)].

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات: أحدها: أن نهيته عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم؛ فنهى عن التفضيل؛ إذ يحتاج إلى توقيف؛ وأن من فضل بلا علم فقد كذب.

٦١٥ - وكذلك قوله: «لا أقول إن أحداً أفضل منه» لا يقتضي تفضيله هو؛ وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قاله ﷺ على طريق التواضع، ونفي التكبر والعجب. وهذا لا ينسلم من الاعتراض.

الوجه الثالث: ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم، أو الغرض منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام؛ إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غشاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة؛ إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٦٠) [الصفافات: ١٤٠]، ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْنِيًّا فَطَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فربما يخيل لمن لا علم عنده خطيئته، بذلك.

الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة؛ فإن الأنبياء فيها على حد واحد؛ إذ هي شيء واحد لا يتفاضل؛ وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطف؛ وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل؛ وإنما التفاضل بأمور آخر زائدة عليها؛ ولذلك منهم رسل، ومنهم أولو عزم من

الرسول؛ ومنهم مَنْ رُفِعَ مكاناً عليّاً؛ ومنهم مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ صَبِيّاً؛ وأُوتِيَ بعضهم الزُّبُرَ، وبعضهم البَيِّنَاتِ، ومنهم مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ؛ ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: والتفضيل المرادُ لهم هنا في الدنيا؛ وذلك بثلاثة أحوال: أن تكونَ آيَّاته ومعجزاته أبهرَ، وأشهرَ؛ أو تكونَ أمُّه أَرْكَى وأكثرَ؛ أو يكونَ في ذاته أفضلُ وأطهرُ، وفضله في ذاته راجعٌ إلى ما خصه اللَّهُ به من كرامته، واختصاصه من كلامٍ، أو خُلُقٍ، أو رؤية، أو ما شاء اللَّهُ من ألطافه، وتُحَفِّفُ ولايته، واختصاصه.

٦١٦ - وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ لِلنَّبِوَةِ أَثْقَالَ؛ وَإِنَّ يُونُسَ تَفَسَّخَ مِنْهَا تَفَسُّخَ الرَّبْعِ» فحفظَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مَوْضِعَ الْفِتْنَةِ، مِنْ أَوْهَامِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بِسَبَبِهَا جَزَخَ فِي نُبُوَّتِهِ، أَوْ قَذَخَ فِي اضْطِفَائِهِ، وَحَطَّ مِنْ رُتْبَتِهِ، وَوَهَنَ فِي عَصَمَتِهِ، شَفَقَهُ مِنْهُ - ﷺ - عَلَى أُمَّتِهِ.

وقد يتوجَّه - على هذا الترتيب - وَجْهٌ خامسٌ؛ وهو أن يكونَ «أنا» راجعاً إلى القائلِ نَفْسِهِ؛ أي لا يَظُنُّ أَحَدٌ - وإن بلغَ من الذِّكَاةِ والعِصْمَةِ والطَّهَارَةِ، ما بلغَ - أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ، لِأَجْلِ مَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ دَرَجَةَ النَّبِوَةِ أَفْضَلُ وَأَعْلَى، وَإِنَّ تِلْكَ الْأَقْدَارَ لَمْ تَحْطَ، عَنْهَا حَبَّةٌ خَزْدَلٍ وَلَا أَذْنَى.

وسنزيد في القسم الثالث من هذا بياناً. إن شاء اللَّهُ تعالى.

فقد بانَ لَكَ الْعَرَضُ، وسقطَ بما حرَّزناه شُبُهَةُ الْمُعْتَرِضِ وبالله التوفيق، وهو المستعان، لا إله إلا هو.

فصل

فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا تَصَمَّنَتْهُ مِنْ تَفْضِيلِهِ

٦١٧ - حدثنا أبو عمران: موسى بن أبي تليد الفقيه؛ قال: حدثنا أبو غمر الحافظ، حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصْبَغَ، حدثنا محمد بن وَضَّاح، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عن أبيه، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وأنا العاقِبُ» [البخاري (٣٥٣٢)، مسلم (١٢٥٠/٢٣٥٤)].

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً، وأحمد.
فمن خصائصه تعالى له أن ضمنَ أسماءَهُ ثناءهُ؛ وطوى أثناءَ ذِكْرِهِ عظيمَ
شُكْرِهِ.

فأما اسمُهُ أحمد: فافْعَلْ، مبالغةٌ مِنْ صِفَةِ الحَمْدِ.
ومحمد: مَفْعَلٌ، مبالغةٌ مِنْ كَثْرَةِ الحَمْدِ؛ فهو - ﷺ - أَجْلُ مَنْ حَمَدَ
وأفضلُ مَنْ حُمِدَ، وأكثرُ الناسِ حَمْداً؛ فهو أَحْمَدُ المَحْمُودِينَ، وَأَحْمَدُ الحَامِدِينَ،
ومعه لَوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَتِمَّ لَهُ كَمالُ الحَمْدِ، وَيَشْهَرَ فِي تِلْكَ العَرَصَاتِ
بصِفَةِ الحَمْدِ، وَيَبْعَثُهُ رَبُّهُ هُنَاكَ مَقاماً مَحْمُوداً كما وَعَدَهُ؛ يَحْمَدُهُ فِيهِ الأولُونَ
والآخِرُونَ بِشِفاعَتِهِ لَهُمْ.

٦١٨ - وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ فِيهِ مِنَ المَحامِدِ - كما قال ﷺ - ما لَمْ يُغَطِّ غَيْرُهُ.
٦١٨ م - وَسَمِيَ أُمَّتُهُ فِي كُتُبِ أَنْبِيَائِهِ بِالحَمادِينَ؛ فَحَقِيقٌ أَنْ يَسْمَى مُحَمَّدٌ
وأحمد.

ثم في هذه الاسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته - فَمَنْ آخِرُ؛ وَهُوَ
أَنَّ اللَّهَ جَلَّ اسْمُهُ حَمَى أَنْ يَسْمَى بِهِمَا أَحَدٌ قَبْلَ زَمَانِهِ.
وأما أحمدُ الذي أَتَى فِي الكُتُبِ وَبَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فَمَنْعَ اللَّهَ تَعَالَى بِحُكْمَتِهِ
أَنْ يُسَمَّى بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَلَا يُدْعَى بِهِ مَدْعَوْ قَبْلَهُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ لَبْسٌ عَلَى ضَعِيفِ
الْقَلْبِ أَوْ شَكٌّ.

وكذلك محمد أيضاً لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَلَا غَيْرِهِمْ، إِلَى أَنْ شَاعَ
قُبَيْلَ وَجُودِهِ - ﷺ - وَمِيلَادِهِ أَنْ نَبِيّاً يُنْعَثُ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ؛ فَسَمِيَ قَوْمٌ قَلِيلٌ مِنَ
العَرَبِ أَبْنَاءَهُمْ بِذَلِكَ؛ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ هُوَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتِهِ؛ وَهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْيَحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ الْأَوْسِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ
الْأَنْصَارِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ بَرَاءِ الْبَكْرِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ مُجَاشِعٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ
حُمْرَانَ الْجُعْفِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ خَزَاعِي السُّلَمِيِّ، لَا سَابِغَ لَهُمْ.
وَيَقَالُ: أَوَّلُ مَنْ تَسَمَّى بِمُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ بْنُ سُفْيَانَ. وَالْيَمْنُ تَقُولُ: بِلِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْيَحْمُودِ، مِنَ الْأَرْدِ.

ثم حَمَى اللَّهُ كُلَّ مَنْ تَسَمَّى بِهِ أَنْ يَدْعِيَ النَبُوَّةَ أَوْ يَدْعِيَهَا أَحَدٌ لَهُ، أَوْ
يُظْهِرَ عَلَيْهِ سَبَبَ يَشْكُكَ أَحَدًا فِي أَمْرِهِ حَتَّى تَحْقُقَ السُّمَنَانُ لَهُ ﷺ، وَلَمْ يَنَازِعْ
فِيهِمَا.

وأما قَوْلُهُ ﷺ: «وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ» ففُسِّرَ فِي الْحَدِيثِ.

ويكون مَخُو الكُفْر إِمَّا مِنْ مَكَّةَ وبلادِ العرب؛ وما رُوي له من الأرض، ووَعِدَ أَنه يبلغه مُلْكُ أُمته؛ أو يكون المَخُو عامًّا، بمعنى الظُّهور والغَلْبَة؛ كما قال تعالى: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٣].

٦١٩ - وقد ورد تفسيره في الحديث: أَنه الذي مُجِيت به سِنِثَاتٌ مِنْ أَتْبَعِه. وقوله: «وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي» أي على زَمَانِي وَعَهْدِي؛ أي ليس بَعْدِي نَبِيٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَوَاعَدُ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب: ٤٠]. وَسُئِلَ عَاقِبًا؛ لَأَنَّهُ عَقَبَ - عليه السلام - غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

٦٢٠ - وفي الصحيح: «أَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ» [مسلم ١٢٥٠/٣٥٤].

وقيل: معنى «عَلَى قَدَمِي» أي: يُخَشِّرُ النَّاسَ بِمُشَاهَدَتِي؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: «عَلَى قَدَمِي» على سَابِقَتِي؛ قال الله تعالى: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ مِدِّي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

وقيل: «عَلَى قَدَمِي» أي قُدَّامِي، وَخَوَلِي؛ أي يجتمعون إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقيل: «عَلَى قَدَمِي» على سُتَيْي.

ومعنى قوله: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ» قيل: إنها موجودةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَعِنْدَ أَوَّلِي الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

٦٢١ - وقد رُوي عَنْهُ ﷺ: «لِي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ» وذكر منها: ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾؛ حَكَاهُ مَكِّيٌّ.

وقد قيل في بعض تفاسير ﴿طه﴾: إنه يا طاهر! يا هادي! وفي ﴿يس﴾: يا سيِّدًا حَكَاهُ السُّلَمِيُّ عَنِ الْوَاسِطِيِّ، وَجَعَفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ.

٦٢٢ - وذكر غَيْرُهُ: «لِي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ» فذكر الخَمْسَةَ الَّتِي فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ؛ قَالَ: «وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ، وَرَسُولُ الرَّاحَةِ، وَرَسُولُ الْمَلَاخِمِ».

٦٢٣ - «وَأَنَا الْمُقَفِّي، قَفَّيْتُ النَّبِيِّينَ».

٦٢٤ - «وَأَنَا قَيِّمٌ وَالْقَيِّمُ: الْجَامِعُ الْكَامِلُ؛ كَذَا وَجَدْتُهُ، وَلَمْ أَزِرْهُ. وَأَرَى أَنَّ صَوَابَهُ قُتِّمٌ - بِالشَّاءِ - كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَعْدَ عَنِ الْحَرَبِيِّ؛ وَهُوَ أَشْبَهُهُ بِالتَّفْسِيرِ.

وقد وقع أيضاً في كتب الأنبياء: قال داود عليه السلام: اللَّهُمَّ! ابْعَثْ لَنَا مُحَمَّدًا مَقِيِّمَ السُّنَّةِ بَعْدَ الْفِتْرِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْقَيِّمُ بِمَعْنَاهُ.

٦٢٤ - وَرَوَى النَّقَّاشُ عَنْهُ ﷺ: «لِي فِي الْقُرْآنِ سَبْعَةُ أَسْمَاءَ: مُحَمَّد،
وَاحِدٌ، وَبِسْ، وَطِه، وَالْمَدَنِيُّ، وَالْمَرْمَلُ، وَغَبْدُ اللَّهِ».

٦٢٥ - وَفِي حَدِيثٍ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهِيَ سِتٌّ:
مُحَمَّدٌ، وَاحِدٌ، وَخَاتَمٌ، وَعَاقِبٌ، وَحَاشِرٌ، وَمَاحٌ».

٦٢٦ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ
أَسْمَاءً، فَيَقُولُ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَاحِدٌ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ
الْمَلْخَمَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ» [مسلم (٢٣٥٥)].

وَيُرْوَى: «الْمَرْخَمَةُ» وَ «الرَّاحَةُ».

وَكُلُّ صَحِيحٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمَعْنَى «الْمُقَفِّي» مَعْنَى «الْعَاقِب».

وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالْمَرْخَمَةِ، وَالرَّاحَةِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وَكَمَا وَصَفَهُ بِأَنَّهُ يَزْكِيهِمْ وَيَعْلَمُهُمْ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ. وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
[التوبة: ١٢٨].

٦٢٧ - وَقَدْ قَالَ فِي صِفَةِ أُمَّتِهِ إِنَّهَا: «أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٢٧٨)].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧]؛ أَيِ يَرْحَمُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ فَبِعِثَةِ - ﷺ - رَبُّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَرَجِيمًا
بِهِمْ، وَمُتَرَحِّمًا وَمُسْتَغْفِرًا لَهُمْ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ مَرْحُومَةً، وَوَصَفَهَا بِالرَّحْمَةِ.

٦٢٨ - وَأَمَرَهَا ﷺ بِالْتِّرَاحِمِ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُجِبُّ مِنْ عِبَادِهِ
الرُّحَمَاءَ» [البخاري (٧٤٤٨)، مسلم (٩٢٣)].

٦٢٩ - وَقَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ
مَنْ فِي السَّمَاءِ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٣٤)، أحمد (١٦٠/٢)].

وَأَمَّا رَوَايَةُ «نَبِيِّ الْمَلْخَمَةِ» فَإِشَارَةٌ إِلَى مَا بُعِثَ بِهِ مِنَ الْقِتَالِ وَالسِّيفِ ﷺ؛
وَهِيَ صَحِيحَةٌ.

٦٣٠ - وَعَنْ خُذَيْفَةَ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى، وَفِيهِ: «وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ
التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلَّاحِمِ».

٦٣١ - وَرَوَى الْحَزْبِيُّ فِي حَدِيثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي مَلَكٌ،
فَقَالَ لِي: أَنْتَ قُتْمٌ» أَيِ مُجْتَمِعٌ. قَالَ: وَالْقُتْمُ: الْجَامِعُ لِلْخَيْرِ؛ وَهَذَا اسْمٌ هُوَ فِي
أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْلُومٌ.

وقد جاءت من ألقابه - ﷺ - وسماته في القرآن عدة كثيرة سيوى ما ذكرناه؛ كالشور، والسراج المنير، والمُنذِر، والتَّذِير، والمبشّر، والبشير، والشاهد، والشهيد، والحقّ المُبين، وخاتم النبيّين، والرؤوف الرحيم، والأمين، وقَدَم الصدق، ورحمة العالمين، ونعمة الله، والعروة الوثقى، والضراط المستقيم، والتّجَم الثاقب، والكريم، والنبيّ الأمي، وذاعِي الله، في أوصاف كثيرة، وسمات جليّة.

وجرى منها في كُتب الله المتقدّمة، وكُتب أنبيائه، وأحاديث رسوله، وإطلاقِ الأمة جملةً شافية؛ كتسميته بالمُضطّقى، والمُجتبى، وأبي القاسم، والحبّيب، ورسول ربّ العالمين، والشفيع المُشفّع، والمُتقي، والمُصلِح، والطاهر، والمُهيّمن، والصادق، والمصدّق، والهادي، وسيد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المُحجّلين، وحبّيب الله وخليل الرحمن، وصاحب الحوضِ المورود، والشفاعة، والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة، والفضيلة، والدّرجة الرفيعة، وصاحب التاج، والمِعراج، واللواء، والقضيب، وراكب البراق؛ والناقة، والتّجيب، وصاحب الحُجّة والسلطان، والخاتم، والعلامة، والبُرّهان، وصاحب الهراوة والتغلّين.

ومن أسمائه في الكُتب: المتوكّل، والمختار، ومقيم السنّة، والمُقدّس، وروح القدس وروح الحق؛ وهو معنى البارقليط في الإنجيل. وقال ثعلب: البارقليط: الذي يفرّق بين الحقّ والباطل.

ومن أسمائه في الكتب السالفة؛ ما ذمّه؛ ومعناه طيّب، طيّب، وخمطايا، والخاتم، والحاتم؛ حكاه كعب الأحبار.

قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم الله به الأنبياء. والحاتم: أحسن الأنبياء خلقاً وخلقاً.

ويسمى بالشريانية: مُشَفّع، والمُنجي؛ واسمه أيضاً في التوراة أُخيد. روي ذلك عن ابن سيرين.

ومعنى صاحب القضيب؛ أي السيف؛ وقع ذلك مفسّراً في الإنجيل؛ قال: معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمثه كذلك.

وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق الذي كان يُنسيكه ﷺ؛ وهو الآن عند الخلفاء.

٦٣٢ - وأما الهِزَاوة التي وُصِفَ بها فهي - في اللغة - العصا؛ وأراها - والله أعلم - العصا المذكورة في حديث الخَوْضِ: «أَفْوَدُ النَّاسَ عَنْهُ بِعَصَايَ، لِأَهْلِ الْيَمَنِ» [مسلم (٢٣٠١)].

وأما التَّاجُ فالمرادُ به العِمَامَةُ، ولم تكن حَبَشِيَّةً إِلَّا لِلْعَرَبِ، والعِمَانُمُ تَبَجَانُ الْعَرَبِ.

وأوصافُهُ، وألقابه، وَسَمَائُهُ في الكتب كثيرة؛ وفيما ذكرناه منها مَقْنَعٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وكانت كُنْيَتُهُ المشهورةُ أَبَا الْقَاسِمِ.

٦٣٣ - وَزَوْي عَنْ أَنَسٍ: أَنَّهُ لَمَّا وُلِدَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ جَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ».

فصل

فِي تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْخُسْنَى وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْغَلَا

قال المؤلف: ما أحرى هذا الفصل بفصول الباب الأول! لانخراطه في سِلْكٍ مضمونها، وامتزاجه بعَذْبٍ مَعِينِهَا؛ لكن لم يشرح اللُّهُ الصَّدْرَ للهداية إلى استنباطه، ولا أَنَارَ الْفِكْرَ لاستخراج جَوْهره والتقاطه إلا عند الخَوْضِ في الفصل الذي قبله؛ فراينا أن نُضَيِّقَهُ إِلَيْهِ، وَنَجْمَعُ بِهِ شَمْلَهُ.

فاعلم أن اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ كَثِيراً مِنْ أَنْبِيَائِهِ بِكَرَامَةٍ خَلَعَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْمَائِهِ؛ كَتَسْمِيَةِ إِسْحَاقَ، وَإِسْمَاعِيلَ بِـ «عَلِيمٍ» وَ «حَلِيمٍ»، وَإِبْرَاهِيمَ بِـ «حَلِيمٍ» وَنُوحَ بِـ «شُكُورٍ» وَعِيسَى وَيَحْيَى بِـ «بَرٍّ» وَمُوسَى بِـ «كَرِيمٍ» وَ «قَوِيٍّ» وَيُوسُفَ بِـ «حَفِيفٍ» عَلِيمٍ وَأَيُّوبَ بِـ «صَابِرٍ» وَإِسْمَاعِيلَ بِـ «صَادِقِ الْوَعْدِ» كما نطق بذلك الكتابُ الْعَزِيزُ فِي مَوَاضِعَ ذَكَرَهُمْ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى جَمِيعِهِمْ.

وَفَضَّلَ مُحَمَّدًا نَبِيَّنَا ﷺ: بِأَنْ خَلَّاهُ مِنْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَعَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ بَعْدَهُ كَثِيرَةً. اجتمع لنا منها جملةٌ بعد إعمال الْفِكْرِ، وإحضار الذِّكْرِ، إِذْ لَمْ نَجِدْ مَنْ جَمَعَ مِنْهَا فَوْقَ اسْمَيْنِ، وَلَا مَنْ تَفَرَّغَ فِيهَا لِتَأْلِيفِ قُضَلَيْنِ.

وَحَرَزْنَا مِنْهَا فِي هَذَا الْفَصْلِ ثَلَاثِينَ اسْمًا؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى - كَمَا أَلْهَمَ إِلَى مَا عَلَّمْ مِنْهَا وَحَقَّقَهُ - يُثِمُّ النِّعَمَ بِإِبَانَةٍ مَا لَمْ يُظْهِرْهُ لَنَا الْآنَ، وَيَفْتَحَ غَلْفَهُ.

فَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْحَمِيدُ» ومعناه المَحْمُودُ؛ لِأَنَّهُ حَمِدَ نَفْسَهُ، وَحَمِدَهُ

عباده، ويكون أيضاً بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات.

وسَمَّى الله تعالى النبي ﷺ محمداً، وأحمد؛ فـ «محمَّد» بمعنى محمود، وكذا وقع اسمه في زبور داود.

و «أحمد» بمعنى أَكْبَرُ من حَمْد؛ وأَجَلُ مَنْ حَمِد، وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ قَدْوَ الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

ومن أسمائه تعالى: «الرؤوف الرحيم» وهما بمعنى متقارب.

وقد سَمَّاهُ في كتابه بذلك؛ فقال: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: «الحقُّ المُبين» ومعنى الحقُّ: الموجود، والمتحقق أمره، وكذلك المُبين؛ أي البين أمره وإلهيته.

«بان» و «أبان» بمعنى واحد ويكون بمعنى المُبين لعباده أمر دينهم ومَعَادِهِم.

وسَمَّى النبي ﷺ - بذلك في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿حَقَّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولُهُ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨].

وقال تعالى ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥]؛ قيل: محمَّد. وقيل القرآن. ومعناه ههنا ضِدُّ الباطل، والمتحقق صِدْقُهُ وأمره، وهو بمعنى الأول.

و «المُبين»: البينُّ أمره ورسالته، أو المُبين عن الله ما بعثه به؛ كما قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أسمائه تعالى: «التَّور» ومعناه ذو التور، أي خالقه، أو مُنَوِّرُ السموات والأرض بالأنوار، ومُنَوِّرُ قلوب المؤمنين بالهداية.

وسَمَّاهُ نوراً؛ فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]؛ قيل: مُحَمَّدُ. وقيل: القرآن.

وقال فيه: ﴿وَمَرْجَا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، سُمِّيَ بذلك لَوْضُوحِ أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى: «الشَّهيد» ومعناه: العالم. وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وَسَمَاءَ شَهِيداً وَشَاهِداً؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً﴾ [الأحزاب: ٤٥].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وَهُوَ بِمَعْنَى
الْأَوَّلِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الكَرِيم» وَمَعْنَاهُ: الْكَثِيرُ الْخَيْرِ.
وَقِيلَ: الْمُفْضِلُ. وَقِيلَ: الْعَفْوُ. وَقِيلَ: الْعَلِيُّ.
٦٣٤ - وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْأَكْرَم».
وَسَمَاءَ تَعَالَى كَرِيماً بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]؛ قِيلَ:
مُحَمَّدٌ. وَقِيلَ: جِبْرِيلُ.

٦٣٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ».
وَمَعَانِي الْأَسْمَاءِ صَحِيحَةٌ فِي حَقِّهِ ﷺ.
وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْعَظِيمُ» وَمَعْنَاهُ: الْجَلِيلُ الشَّانِ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ.
وَقَالَ فِي النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَكُ لَعَلٌّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
وَوَقَعَ فِي أَوَّلِ سَفَرٍ مِنَ التَّوْرَةِ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ: وَاسْتَلِدَّ عَظِيماً، لِأُمَةٍ عَظِيمَةٍ؛
فَهُوَ عَظِيمٌ، وَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.
وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْجَبَّارُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُضْلِحُ، وَقِيلَ: الْقَاهِرُ. وَقِيلَ: الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ الشَّانِ. وَقِيلَ: الْمَتَكَبِّرُ.

وُسُمِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كِتَابِ دَاوُدَ بِجَبَّارٍ؛ فَقَالَ: تَقَلَّدَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ سَيْفَكَ؛
فَإِنْ نَافَوْسُكَ وَشَرَائِعُكَ مَقْرُونَةٌ بِهَيْبَةِ يَمِينِكَ.
وَمَعْنَاهُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ: إِمَّا لِإِصْلَاحِهِ الْأُمَّةَ بِالْهُدَايَةِ وَالتَّعْلِيمِ، أَوْ لِقَهْرِهِ
أَعْدَاءَهُ، أَوْ لَعُلُوِّ مَقَرَّتِهِ عَلَى الْبَشَرِ، وَعَظِيمِ خَطَرِهِ.
وَنَفَى تَعَالَى عَنْهُ - فِي الْقُرْآنِ - جَبَرِيَّةَ التَّكَبُّرِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْخَبِيرُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُطَّلِعُ بِكُنْهِ الشَّيْءِ، الْعَالِمُ بِحَقِيقَتِهِ.
وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْمُخْبِرُ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ فَتَنَلْ يَوْمَ خَيْرِكِ﴾ [الفرقان: ٥٩].
قَالَ الْقَاضِي بَكْرُ بْنُ الْعَلَاءِ: الْمَأْمُورُ بِالسُّؤَالِ غَيْرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَالْمَسْئُولُ الْخَبِيرُ هُوَ الْمُصْطَفَى ﷺ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلِ السَّائِلُ النَّبِيُّ ﷺ. وَالْمَسْئُولُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَالنَّبِيُّ خَبِيرٌ
بِالْوَجْهِينِ الْمَذْكُورَيْنِ؛ قِيلَ: لِأَنَّهُ عَالِمٌ عَلَى غَايَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ مِنْ

مَكُونِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ مَغْرَفَتِهِ، مُخْبِرِ لَأُمِّيَّتِهِ بِمَا أَدْنَى لَهُ فِي إِعْلَامِهِمْ بِهِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْفَاتِحُ» وَمَعْنَاهُ: الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، أَوْ فَاتِحُ أَبْوَابِ الرِّزْقِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْمُتَغَلِّقُ مِنْ أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ أَوْ يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ؛ وَيَكُونُ أَيْضاً بِمَعْنَى النَّاصِرِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]؛ أَي: إِنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصْرُ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُبْتَدِئُ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ.

٦٣٦ - وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ بِـ «الْفَاتِحِ» فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ الطَّوِيلِ مِنْ رَوَايَةِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَفِيهِ: مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَاكَ فَاتِحاً وَخَاتِماً».

وَفِيهِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ثَنَائِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَتَعْدِيدِ مَرَاتِبِهِ: «وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحاً وَخَاتِماً»؛ فَيَكُونُ الْفَاتِحُ - هُنَا - بِمَعْنَى الْحَاكِمِ، أَوْ الْفَاتِحِ لِأَبْوَابِ الرَّحْمَةِ عَلَى أُمَّتِهِ، أَوْ الْفَاتِحِ لِبَصَائِرِهِمْ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ أَوْ النَّاصِرِ لِلْحَقِّ، أَوْ الْمُبْتَدِئِ بِهَدَايَةِ الْأُمَّةِ، أَوْ الْمُبْدَأُ الْمُقَدَّمُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْخَاتِمُ لَهُمْ.

٦٣٧ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ، وَأَخْرَجَهُمْ فِي الْبَقْتِ».

٦٣٧ م - وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ: «الشُّكُورُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُثِيبُ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ. وَقِيلَ: الْمُثْنِي عَلَى الْمُطِيعِينَ؛ وَوَصَفَ بِذَلِكَ نَبِيَّهٖ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٦٣٨ - وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ نَفْسَهُ فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» أَيِ مُغْتَرِفًا بِنِعَمِ رَبِّي، عَارِفًا بِقَدْرِ ذَلِكَ، مُثْنِيًا عَلَيْهِ، مُجْهَدًا نَفْسِي فِي الزِّيَادَةِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: الْعَلِيمُ، وَالْعَلَامُ. وَعَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. وَوَصَفَهُ نَبِيَّهٖ ﷺ بِالْعَلَمِ؛ وَخَصَّهُ بِمَرِيَّةٍ مِنْهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وَقَالَ: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ» وَمَعْنَاهُمَا: السَّابِقُ لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ وُجُودِهَا، وَالْبَاقِي بَعْدَ فَنَائِهَا.

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ.

٦٣٩ - وقال ﷺ: «كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ؛ وَأَخْرَجْتُهُمْ فِي الْبَغْتِ». وَفُسِّرَ بِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٢٧]؛ فَقَدَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وقد أشار إلى نُحُورِهِ مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦٤٠ - وَمِنْهُ قَوْلُهُ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ» [البخاري (٨٧٦)، مسلم (٨٥٥)].

٦٤١ - وَقَوْلُهُ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ» [سلم (٢٢٧٨)] وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَجَزُ الرُّسُلِ ﷺ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْقَوِيُّ»، وَ «ذُو الْقُوَّةِ الْعَتِيقِ» وَمَعْنَاهُ: الْقَادِرُ.

وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]؛ قِيلَ: مُحَمَّدٌ. وَقِيلَ: جَبْرِيلُ.

٦٤١م - وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الصَّادِقُ» فِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ.

٦٤٢ - وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَيْضًا اسْمُهُ ﷺ بِ «الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ» [البخاري (٣٢٠٨)، مسلم (٢٦٤٣)].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْوَلِيُّ» وَ «الْمَوْلَى» وَمَعْنَاهُمَا: النَّاصِرُ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥].

٦٤٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَا وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ» [أحمد (٣٧١/٣)، البخاري (٢٢٩٨)، مسلم (١٦١٩)].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

٦٤٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْهِ مَوْلَاهُ».

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْعَفْوُ» وَمَعْنَاهُ: الصَّفُوحُ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا نَبِيَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي التَّوْرَةِ، وَأَمْرُهُ بِالْعَفْوِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وَقَالَ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

٦٤٥ - وَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ قَالَ: «أَنْ تَغْفُو عَنْ ظُلْمِكَ».

٦٤٦ - وَقَالَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، فِي صِفَتِهِ: «لَيْسَ بَفُظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَضْفَحُ».

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْهَادِي» وَهُوَ بِمَعْنَى تَوْفِيقِ اللَّهِ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُمْعِنُ الدَّلَالَةَ وَالِدُعَاءَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى نَارِ السَّلَاطَةِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

يَرْطِبُ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٥﴾ [يونس: ٢٥] وَأَصْلُ الْجَمِيعِ مِنَ الْمَيْلِ. وَقِيلَ: مِنَ التَّقْدِيمِ.

وقيل في تفسير ﴿طه ١٥﴾: إِنَّهُ: يَا طَاهِرًا يَا هَادِيًا يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ. وقال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فَاللَّهُ تَعَالَى مُخْتَصٌ بِالْمَعْنَى الْأُولَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وبمعنى الدَّلَالَةِ يَنْتَظِقُ عَلَى غَيْرِهِ تَعَالَى.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيِّمُن» قِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ؛ فَمَعْنَى الْمُؤْمِنِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى: الْمُصَدِّقُ وَغَدَهُ عِبَادَهُ، وَالْمُصَدِّقُ قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَالْمُصَدِّقُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُسُلِهِ. وَقِيلَ: الْمُؤَخِّدُ نَفْسَهُ. وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُ عِبَادَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمِهِ، وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهِ.

وقيل: الْمُهَيِّمُن بِمَعْنَى الْأَمِينِ، مُصَضَّرٌ مِنْهُ، فَقُلِبَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً.

وقد قيل: إِنَّ قَوْلَهُمْ فِي الدُّعَاءِ: آمِينَ، إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ.

وقيل: الْمُهَيِّمُن بِمَعْنَى الشَّاهِدِ وَالْحَافِظِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَمِينٌ، وَمُهَيِّمُنٌ، وَمُؤْمِنٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمِينًا؛ فَقَالَ: ﴿مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١].

٦٤٧ - وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُعْرِفُ بِالْأَمِينِ، وَشَهَرَ بِهِ قَبْلَ النَّبَوَةِ وَبَعْدَهَا.

٦٤٨ - وَسَمَّاهُ الْعَبَّاسُ، فِي شِعْرِهِ مُهَيِّمًا فِي قَوْلِهِ:

ثُمَّ احْتَسَوَى بِنَيْتِكَ الْمُهَيِّمِينَ مِنْ خَنْدِفٍ عَلَيَّاءَ تَحْتَهَا السُّطُوقُ

قِيلَ: الْمُرَادُ: يَا أَيُّهَا الْمُهَيِّمُنُ! قَالَ الْقُتَيْبِيُّ، وَالْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ.

وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]؛ أَي: يَصَدِّقُ.

٦٤٩ - وَقَالَ ﷺ: «أَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي»، فَهَذَا بِمَعْنَى الْمُؤْمِنِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى: «الْقُدُّوسُ» وَمَعْنَاهُ: الْمُنَزَّاهُ عَنِ النِّقَاصِ الْمَطْهُرُ مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ؛ وَسُمِّيَ «بَيْتَ الْمُقَدَّسِ» لِأَنَّهُ يُطَهَّرُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ وَمِنْهُ: الْوَادِي الْمُقَدَّسُ، وَرُوحُ الْقُدُّوسِ.

وَوَقَعَ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «الْمُقَدَّسُ» أَي: الْمَطْهُرُ مِنَ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

أو الذي يُنْظَرُ بِهِ من الذنوب، ويُنتَزَعُ بِاتِّبَاعِهَا عنها، كما قال ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦].
أو يكون مقدماً بمعنى مطهراً، من الأخلاق الذميمة. والأوصاف الدينية.
ومن أسمائه تعالى: «العزیز» ومعناه: المُمْتَنِع، الغالب، أو الذي لا نُظْمِرُ
له، أو المُعْجَزُ لغيره؛ وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨] أي:
الامتناعُ وجلالةُ القُدْر.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة، فقال: ﴿يُبَيِّنُ لَهُم رُبُّهُمْ
رَبَّيْكُمْ إِنَّهُ وَرِضْوَانٌ﴾ [التوبة: ٢١].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ لَكَ مَقْصِدًا يَكَلِّمُكَ مِنْ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] و ﴿يَكَلِّمُ
إِنَّهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسماه الله تعالى مُبَشِّراً، ونذيراً وشيئراً: أي مُبَشِّراً لأهل طاعته، ونذيراً
لأهل مَعْصِيَتِهِ.

ومن أسمائه تعالى فيما ذكره بعضُ المفسرين: ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾
وقد ذكر بعضهم أيضاً أنهما من أسماء محمد ﷺ وشرف وكرم.

فصل

فِي أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ ذَوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ، وَصِفَاتِهِ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: وما أنا أذكرُ نُكْتَةً أَذْبَلُ بِهَا هَذَا
الْفَضْلَ، وَأَخْتِمُ بِهَا هَذَا الْقِسْمَ، وَأَزِيحُ الْإِشْكَالَ بِهَا فِيمَا تَقَدَّمَ عَنْ كُلِّ ضَعِيفٍ
الْوَهْمِ، سَقِيمِ الْفَهْمِ، تَخْلُصُهُ مِنْ مَهَاوِي النِّشْبَةِ، وَتَرْحُزُهُ عَنْ شُبُهَةِ التَّمْوِيهِ؛ وَهُوَ
أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّ اسْمُهُ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَمَلَكُوتِهِ، وَخُسْنِ أَسْمَائِهِ،
وَعِلْيَةِ صِفَاتِهِ، لَا يُشَبِّهُ شَيْئاً مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا يُشَبِّهُ بِهِ؛ وَأَنْ مَا جَاءَ مِمَّا أُطْلِفَ
السُّرْعُ عَلَى الْخَالِي وَعَلَى الْمَخْلُوقِ؛ فَلَا تَشَابُهَ بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى الْحَقِيقِي؛ إِذْ
صِفَاتُ الْقَدِيمِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ؛ فَكَمَا أَنَّ ذَاتَهُ تَعَالَى لَا تُشَبِّهُ الذَوَاتَ،
كَذَلِكَ صِفَاتُهُ لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ إِذْ صِفَاتُهُمْ لَا تُنْفَكُ عَنِ الْأَغْرَاضِ
وَالْأَغْرَاضِ؛ وَهُوَ تَعَالَى - مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ؛ بَلْ لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَكَفَى فِي
هَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وللَّهِ دَرْ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ الْمُحَقِّقِينَ: التَّوْحِيدُ إِبْثَاتٌ ذَاتِ غَيْرِ مُشَبَّهَةٍ لِلذَّوَاتِ، وَلَا مُعْطَلَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ.

وزاد هذه النكتة الواسطي - رحمه الله - بيانا؛ وهي مقصودنا؛ فقال: ليس كذاته ذاتٌ، ولا كاسمِهِ اسْمٌ، ولا كفعله فِعْلٌ، ولا كصِفَتِهِ صِفَةٌ، إلا مِنْ جِهَةِ مُوَافَقَةِ اللَّفْظِ اللَّفْظُ؛ وَجَلَّتِ الذَّاتُ الْقَدِيمَةُ أَنْ يَكُونَ لَهَا صِفَةٌ حَدِيثَةٌ، كَمَا اسْتِحَالُ أَنْ يَكُونَ لِلذَّاتِ الْمُخْدَتَةِ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ.

وهذا كُلُّهُ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقد فَسَّرَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَوْلَهُ هَذَا، لِيَزِيدَهُ بَيَانًا؛ فَقَالَ: هَذِهِ الْحِكَايَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى جَوَامِعِ مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَكَيْفِ تَشْبِيهِ ذَاتِهِ ذَاتِ الْمُخْدَتَاتِ؛ وَهِيَ بَوُجُودُهَا مُسْتَغْنِيَةٌ؟ وَكَيْفِ يُشَبِّهُ فِعْلُهُ فِعْلَ الْخَلْقِ، وَهُوَ لَغَيْرِ جَلْبِ أَنْسٍ، أَوْ دَفْعِ نَقْصٍ، حَصَلَ، وَلَا لَخَوَاطِرَ وَأَغْرَاضٍ، وَجَدَ، وَلَا بِمُبَاشَرَةٍ وَمُعَالَجَةٍ، ظَهَرَ؟ وَفِعْلُ الْخَلْقِ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ. وقال آخَرُ، مِنْ مَشَايِخِنَا: مَا تَوَهَّمْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ، أَوْ أَذْرَكْتُمُوهُ بِعُقُولِكُمْ فَهُوَ مُخْدَتٌ مِثْلَكُمْ.

وقال الْإِمَامُ أَبُو الْمُعَالِي الْجُونِيُّ: مَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى مَوْجُودٍ انْتَهَى إِلَيْهِ فِكْرُهُ؛ فَهُوَ مُشَبَّهٌ، وَمَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى الثَّقِيِّ الْمَخْضُ فَهُوَ مُعْطَلٌ، وَإِنْ قَطَعَ بِمَوْجُودٍ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ ذَلِكَ حَقِيقَتَهُ فَهُوَ مُوَحِّدٌ.

وما أَحْسَنَ قَوْلَ ذِي الثَّنُونِ الْمِصْرِيِّ: حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَشْيَاءِ بِلَا عِلَاجٍ، وَصُنْعُهُ لَهَا بِلَا مِزَاجٍ، وَعِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، وَلَا عِلَّةٌ لَصُنْعِهِ، وَمَا تُصَوِّرُ فِي وَهْمِكَ فَاللَّهُ بِخِلَافِهِ.

وهذا كَلَامٌ عَجِيبٌ نَفِيسٌ مُحَقَّقٌ، وَالْفَضْلُ الْآخَرُ، تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وَالثَّانِي: تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَكِلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وَالثَّالِثُ: تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

[النحل: ٤٠].

تَبَيَّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِبْثَاتِ، وَالتَّنْزِيهِ، وَجَنَّبْنَا طَرَفِي الضَّلَالَةِ وَالْعَوَايِي مِنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ بِمَنْهُ وَرَحْمَتِهِ.



الباب الرابع

فِيمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ
وَشَرْفَهُ بِهِ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ

قال المؤلف رحمه الله: حَسْبُ المتأملِ أَنْ يُحَقِّقَ أَنَّ كِتَابَنَا هَذَا لَمْ نَجْمَعْهُ
لِمتَكِبِرِ نبوةِ نبينا ﷺ ولا لطاعينِ في معجزاته فنحتاج إلى نُصْبِ البراهين عليها،
ونُحْصين حوزتها، حتى لا يَتَوَضَّلَ المُطَاعِنُ إليها، ونذكر شروطَ المعجزِ والتحدي
وَحَدِّهِ، وفسادِ قولِ مَنْ أَبْطَلَ نَسْخَ الشرائعِ، وردَّه؛ بل أَلْفَنَاهُ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ، المُلَبِّينِ
لِدَعْوَتِهِ، المصدقين لنبوته؛ ليكونَ تأكيداً في محبتهم له، ومُثْمَنةً لأعمالهم؛
وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ونبتنا أن نثبت في هذا الباب أمهات معجزاته، ومشاهير آياته؛ لتدلَّ على
عِظَمِ قُدْرِهِ عند ربه. وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد؛ وأكثره مما بلغ
القطع، أو كاد؛ وأضفنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كتب الأئمة.

وإذا تأمل المتأمل المُنْصِفُ ما قدمناه مِنْ جميل أثره، وخميد سيره، وبراعة
عِلْمِهِ، ورِجَاحَةِ عَقْلِهِ وجِلْمِهِ، وجُمْلَةِ كَمَالِهِ، وجميع خِصَالِهِ، وشاهدِ حالِهِ،
وصوابِ مقالِهِ، لم يَمْتَرِ في صحة نبوته، وصدق دَعْوَتِهِ.
وقد كفى هذا غير واحدٍ في إسلامِهِ، والإيمان بِهِ.

٦٥٠ - فَرَوَيْنَا عن الترمذي، وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم، أَنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ
سَلَامٍ؛ قال: لما قَدِمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المدينةَ جِئْتُهُ لَأَنْظُرَ إِلَيْهِ؛ فلما اسْتَبَشْتُ وَجْهَهُ
عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ.

حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي رَجَمَهُ اللَّهُ؛ قال: حدثنا أبو الحسين

الصَّيْرَفِي، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ خَيْرُونَ، عَنْ أَبِي يَغْلَى الْبَغْدَادِي، عَنْ أَبِي عَلِي السَّنَجِي، عَنْ ابْنِ مَحْبُوب، عَنِ التَّرْمِذِيِّ؛ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عَزُوفِ بْنِ أَبِي جَمِيلَةَ الْأَعْرَابِيِّ، عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ... الحديث [الترمذي (٢٤٨٥)، ابن ماجه (١٣٣٤)، أحمد (٤٥١/٥)].

٦٥١ - وعن أبي رَمَثَةَ الثَّيْمِيِّ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَعِيَ ابْنُ لِي، فَأَرَيْتُهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قُلْتُ: هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ.

٦٥٢ - وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ ضَمَادًا لَمَّا وَقَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ؛ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ لَهُ: أَعِذْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَلَقَدْ بَلَغَنَ قَامُوسَ الْبَحْرِ، هَاتِ يَدَكَ أَبَايُكَ [مسلم (٨٦٨)].

٦٥٣ - وَقَالَ جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ: كَانَ رَجُلٌ مَنَا يُقَالُ لَهُ طَارِقٌ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ شَيْءٌ تَبِيعُونَهُ؟» قُلْنَا: هَذَا الْبَعِيرُ. قَالَ: «بِكُمْ؟» قُلْنَا: بَكْذَا وَكَذَا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ؛ فَأَخَذَ بِخَطَامِهِ، وَسَارَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَقُلْنَا: يَغَنَّا مِنْ رَجُلٍ لَا نَذَرِي مَنْ هُوَ؛ وَمَعَنَا ظَعِينَةٌ، فَقَالَتْ: أَنَا خَاصِمَةٌ لِثَمَنِ الْبَعِيرِ؛ رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ لَا يَخِيسُ بِكُمْ.

فَأَصْبَحْنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ بِتَمْرٍ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذَا الثَّمَرِ، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا. فَقَعَلْنَا.

٦٥٤ - وَفِي خَبَرِ الْجُلَنْدِيِّ، مَلِكِ عَمَانَ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ - قَالَ الْجُلَنْدِيُّ: وَاللَّهِ! لَقَدْ دَلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّي أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ آخِذٍ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَيْطَرُ، وَيُغْلِبُ فَلَا يَضْجَرُ، وَيَقِي بِالْعَهْدِ، وَيُتَجَرُّ الْمَوْعُودُ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

وَقَالَ نِفْطَوْنُهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَكَادُ رَيْثُهَا يُضَيُّهُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارًا» [النور: ٣٥] هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ يَقُولُ: يَكَادُ مَنْظَرُهُ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَلَّ قُرْآنًا كَمَا قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَّةٌ لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ

وَقَدْ آتَى أَنْ تَأْخُذَ فِي ذِكْرِ النُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَبَعْدَهُ فِي مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ.

فصل

فِي النُّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ وَالْوَحْيِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ اسْمُهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْمَعْرِفَةِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَالْعِلْمِ بِذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَمِيعِ تَكْلِيفَاتِهِ ابْتِدَاءً، دُونَ وَاسِطَةٍ، لَوْ شَاءَ؛ كَمَا حُكِيَ عَنْ سُنَّتِهِ فِي بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وَجَائِزٌ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْهِمْ جَمِيعُ ذَلِكَ بِوَاسِطَةِ تَبْلُغِهِمْ كَلَامَهُ، وَتَكُونُ تِلْكَ الْوَاسِطَةُ؛ إِمَّا مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ، كَالْمَلَائِكَةِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ؛ أَوْ مِنْ جَنْسِهِمْ، كَالْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْأُمَمِ، وَلَا مَانِعٌ لِهَذَا مِنْ دَلِيلِ الْعَقْلِ.

وَإِذَا جَازَ هَذَا وَلَمْ يَسْتَحِجْ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ بِمَا ذَلَّ عَلَى صِدْقِهِمْ مِنْ مُعْجَزَاتِهِمْ وَجِبَ تَصْدِيقُهُمْ فِي جَمِيعِ مَا آتَوْا بِهِ؛ لِأَنَّ الْمُعْجِزَ مَعَ التَّحْدِي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَانَمَ مَقَامَ قَوْلِ اللَّهِ: صَدَقَ عَبْدِي فَأَطِيعُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَشَاهَدُ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَقُولُهُ؛ وَهَذَا كَافٍ. وَالتَّطَوُّلُ فِيهِ خَارِجٌ عَنِ الْغَرَضِ فَمَنْ أَرَادَ تَتَبُّعَهُ وَجَدَهُ مُسْتَوْفَى فِي مَصْنُفَاتِ أَمْتِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

فَالنُّبُوءَةُ فِي لُغَةٍ مَنْ هَمَزَ - مَأْخُودَةٌ مِنَ النَّبَأِ، وَهُوَ الْخَبَرُ، وَقَدْ لَا تُهْمَزُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَسْهِيلاً.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَعَهُ عَلَى غَيْبِهِ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؛ فَيَكُونُ نَبِيٌّ مُنْبَأً، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛ أَوْ يَكُونُ مُخْبِراً عَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَمُنْبَأً بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ؛ وَيَكُونُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَهْجِزْهُ مِنَ النُّبُوءَةِ؛ وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ؛ وَمَعْنَاهُ أَنَّ لَهُ رُتْبَةً شَرِيفَةً، وَمَكَانَةً نَبِيَّهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ مُنِيفَةً؛ فَالْوَصْفَانِ فِي حَقِّهِ مُؤْتَلِفَانِ.

وَأَمَّا الرُّسُولُ فَهُوَ الْمُرْسَلُ، وَلَمْ يَأْتِ فَعُولٌ بِمَعْنَى مُفْعَلٍ فِي اللُّغَةِ إِلَّا نَادِراً. وَإِرْسَالُهُ: أَمْرُ اللَّهِ - تَعَالَى - لَهُ بِالْإِبْلَاحِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ؛ وَاسْتِثْقَاةً مِنَ التَّابِعِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَاءَ النَّاسُ أَرْسَالاً، إِذَا تَبَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ فَكَانَهُ أَلْزَمَ تَكْرِيرِ التَّبْلِغِ، أَوْ أَلْزَمَ الْأُمَّةَ اتِّبَاعَهُ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: هَلِ النَّبِيُّ وَالرُّسُولُ بِمَعْنَى، أَوْ بِمَعْنِيَيْنِ؟ فَقِيلَ: هُمَا سَوَاءٌ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْإِنْبَاءِ وَهُوَ الْإِعْلَامُ؛ وَاسْتَدْلُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ [الحج: ٥٢]؛ فقد أثبت لهما معاً الإرسال، قال: ولا يكون النبي إلا رسولاً؛ ولا الرسول إلا نبياً.

وقيل: هما مُفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ؛ إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الإطْلَاعُ عَلَى الْغَيْبِ، والإعلامُ بخواصِّ النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك، وَحَوْزِ دَرَجَتِهَا؛ وافتراقاً في زيادة الرسالة للرسول، وهو الأمرُ بالإندار والإعلام كما قلنا.

وَحَجَّتُهُمْ مِنْ آيَةِ نَفْسِهَا التَّفْرِيقُ بَيْنِ الْأَسْمِينَ، ولو كانا شيئاً واحداً لما حَسُنَ تَكَرُّرُهُمَا فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، قالوا: والمعنى: وما أرسلنا من رسول إلى أمة، أو نبي ليس بمُرْسَلٍ إلى أحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أَنَّ الرَّسُولَ مَنْ جَاءَ بِشَرْعٍ مُبْتَدَأٍ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُ رَسُولٍ، وَإِنْ أَمَرَ بِالْإِبْلَاجِ وَالْإِنْدَارِ.

والصحيح، والذي عليه الْجَمَاءُ الْغَفِيرُ، أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٍّ، وليس كُلُّ نَبِيٍّ رسولاً. وأوَّلُ الرِّسَالِ آدَمُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

٦٥٥ - وفي حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِثْلُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةِ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ، وَذَكَرَ أَنَّ الرِّسَالَ، مِنْهُمْ ثَلَاثَ مِثَّةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ؛ أَوَّلُهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَقَدْ بَانَ لَكَ مَعْنَى النَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ، وَلَيْسْتَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ ذَاتاً لِلنَّبِيِّ، وَلَا وَضْفَ ذَاتٍ، خِلَافاً لِلتَّكْرَامِيَّةِ، فِي تَطْوِيلِ لَهُمْ، وَتَهْوِيلِ، لَيْسَ عَلَيْهِ تَغْوِيلٌ.

وَأَمَّا الْوَحْيُ: فَأَصْلُهُ الْإِسْرَاعُ، فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ يَتَلَقَّى مَا يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّهِ بِعَجَلٍ سُمِّيَ وَحْيًا، وَسُمِّيَتْ أَنْوَاعُ الْإِلْهَامَاتِ وَحْيًا، تَشْبَهُاً بِالْوَحْيِ إِلَى النَّبِيِّ، وَسُمِّيَ الْخَطُّ وَحْيًا، لِسُرْعَةِ حَرَكَةِ يَدِ كَاتِبِهِ؛ وَوَحْيِي الْحَاجِبِ وَاللَّخْظِ: سُرْعَةُ إِشَارَتِهِمَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَخِّجُوا بُكْرَةً وَعَصِيًّا﴾ [مريم: ١١] أَي: أَوْمَأَ وَرَمَزَ. وَقِيلَ: كَتَبَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: الْوَحَا، الْوَحَا؛ أَيِ السَّرْعَةِ.

وقيل: أَصْلُ الْوَحْيِ السِّرُّ وَالْإِخْفَاءُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْإِلْهَامُ وَحْيًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أَيْ يُوَسَّوْسُونَ فِي صُدُورِهِمْ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾ [القصص: ٧] أَيِ أَلْقَيْنَا فِي قَلْبِهَا.

وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] أَيِ مَا يُلْقِيهِ فِي قَلْبِهِ دُونَ وَاسِطَةٍ.

فصل

فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجَزَةِ

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها؛ وهي على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر؛ فعجزوا عنه، فتعجزهم عنه فعل الله دل على صدق نبية، كصرفهم عن تمني الموت. وتعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم، ونحوه.

وضرب هو خارج عن قدرتهم؛ فلم يقدرُوا على الإتيان بمثل؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، وتنع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد، إلا الله؛ فكون ذلك على يد النبي ﷺ، من فعل الله تعالى، وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ ودلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معاً. وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهاناً؛ كما سئيت؛ وهي - في كثرتها - لا يحيط بها ضبط؛ فإن واحداً منها - وهو القرآن - لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين، ولا أكثر، لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجز عنها.

قال أهل العلم: وأقصر السور: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة؛ ثم فيها نفسها معجزات على ما سنفضله فيما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قسم منها علم قطعاً، وثقل إلينا متواتراً كالقرآن؛ فلا مزية، ولا خلاف؛ بمجيء النبي به، وظهوره من قبله؛ واستدلاله بحجته؛ وإن أنكر هذا معانيد جاحد، فهو كإنكاره وجود محمد ﷺ في الدنيا.

وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجّة به؛ فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة.

ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظراً، كما سنشرحه.


قال بعض أئمتنا: ويجري هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه - عليه السلام - آيات وخوارق عادات، إن لم يبلغ واحد منها معينا القطع، فيبلغه جميعها؛ فلا مزية في جريان معانيها على يديه؛ ولا يختلف مؤمن ولا كافر، أنه جرت على يديه عجائب؛ وإنما خلاف المعانيد في كونها من قبل الله.

وقد قَدَّمْنَا كَوْنَهَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ قَوْلِهِ: صَدَقَتْ.

فقد عَلِمَ وقوعُ مثلِ هذا أيضاً مِنْ نَبِيَّتِنَا ضرورةً لاتِّفَاقِ مَعَانِيهَا، كما يُعَلَمُ ضرورةً جُودَ حَاتِمٍ، وشجاعةً عَثْرَةً، وَجِلْمٌ أَخْتَفَ، لَاتِّفَاقِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى كَرَمِ هَذَا، وشجاعةً هَذَا، وَجِلْمٍ هَذَا، وَإِنْ كَانَ كُلُّ خَبَرٍ بِنَفْسِهِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ، وَلَا يَقْطَعُ بِصَحَّتِهِ.

والقسمُ الثاني: ما لم يَتَلَفُ مَبْلَغُ الْضُرُورَةِ وَالْقَطْعِ؛ وهو على نوعين: نوع مُشْتَهَرٌ مُتَشِيرٌ، رَوَاهُ الْعَدَدُ، وشاعَ الْخَبَرُ بِهِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَالرُّوَاةِ وَنَقَلَهُ السَّيْرُ وَالْأَخْبَارُ؛ كَتَبِيعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ، وتكثيرِ الطَّعَامِ.

ونوعٌ مِنْهُ اخْتَصَّ بِهِ الْوَاحِدُ أَوِ الْإِثْنَانِ؛ وَرَوَاهُ الْعَدَدُ الْيَسِيرُ، وَلَمْ يَشْتَهَرْ بِاشْتِهَارِ غَيْرِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا جُمِعَ إِلَى مِثْلِهِ اتَّفَقَا فِي الْمَعْنَى، واجتمعا عَلَى الْإِتْيَانِ بِالْمُعْجِزِ، كما قَدَّمْنَاهُ.

قال المؤلف رحمه الله: وَأَنَا أَقُولُ - صَدْعًا بِالْحَقِّ -: إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُ  مَعْلُومَةٌ بِالْقَطْعِ.

أَمَّا انْتِشَاقُ الْقَمَرِ فَالْقُرْآنُ نَصٌّ بِوُقُوعِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ وَجُودِهِ، وَلَا يُغْدَلُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، وَجَاءَ بِرَفْعِ احْتِمَالِهِ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ، وَلَا يُوهِنُ عَزَمَنَا خِلَافُ أَخْرَقٍ مُنْخَلٍ عَرَى الدِّينِ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى سَخَافَةِ مُبْتَدِعٍ، يُلْقِي الشُّكَّ عَلَى قُلُوبِ ضَعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؛ بَلْ تُزْغَمُ بِهَذَا أَتْفَهُ، وَتُنْذَرُ بِالْعَرَاءِ سُخْفُهُ.

وكذلك قِصَّةُ تَبِيعِ الْمَاءِ، وتكثيرِ الطَّعَامِ، رَوَاهَا الثَّقَاتُ وَالْعَدَدُ الْكَثِيرُ، عَنِ الْجَمَّاءِ الْغَفِيرِ، عَنِ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ.

ومنها ما رَوَاهُ الْكَافَّةُ عَنِ الْكَافَّةِ مُتَّصِلًا عَمَّنْ حَدَّثَ بِهَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ وَإِخْبَارِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَوْطِنِ اجْتِمَاعِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ، وَفِي غَزْوَةِ بُوَّاطٍ، وَغُمْرَةِ الْخُدَيْبِيَّةِ، وَغَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَمْثَالِهَا مِنْ مُحَافِلِ الْمُسْلِمِينَ وَمَجْمَعِ الْعَسَاكِرِ، وَلَمْ يُؤْثَرِ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مُخَالَفَةً لِلرَّوَايِ فِيهَا حِكَاةً، وَلَا إِنْكَارًا لِمَا ذُكِرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ كَمَا رَأَاهُ، فَسَكَوَتْ السَّاكِتِ مِنْهُمْ كَتُّطَقِ النَّاطِقِ؛ إِذْ هُمْ الْمَنْزَهُونَ عَنِ السَّكُوتِ عَلَى بَاطِلٍ، وَالْمَدَاهِنَةِ فِي كَذِبٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رَغْبَةٌ وَلَا رَهْبَةٌ تَمْنَعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ مُتَكَرِّرًا عَنْدهُمْ وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ لَا تَكْرُوهُ، كَمَا أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ أَشْيَاءِ رَوَاهَا مِنَ السُّنَنِ وَالسَّيْرِ وَحُرُوفِ الْقُرْآنِ. وَخَطَأً بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَوَقَّعَهُ فِي ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ؛ فَهَذَا النُّوعُ كُلُّهُ يَلْحَقُ بِالْقَطْعِيِّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ لَمَّا بَيَّنَّاهُ.

وأيضاً فإنّ أمثال الأخبار التي لا أصل لها، وبُنيَت على باطل، لا بُدَّ مع مرور الأزمان، وتداول الناس، وأهل البحث من انكشاف ضعفها، وخمول ذكرها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأزاجيف الطارئة. وأعلام نبينا هذه الواردة من طريق الآحاد لا تزداد مع مرور الزمان إلّا ظهوراً، ومع تداول الفرق، وكثرة طغى العدو، وجرسه على توهينها، وتضعيف أصلها، واجتهاد الملجِد على إطفاء نورها إلا قوة وقبلاً، وللطاعن عليها إلا حسرة وغليلاً. وكذلك إخباره عن الغيوب، وإنباؤه بما يكون وكان، معلوم من آياته على الجملة بالضرورة.

وهذا حق لا غطاء عليه؛ وقد قال به من أئمتنا: القاضي، والأستاذ أبو بكر وغيرهما، رحمهم الله؛ وما عندي أوجب قول القائل: إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد، إلّا قلّة مطالعته للأخبار وروايتها، وشغلّه بغير ذلك من المعارف؛ وإلا فمن اعتنى بطرق الثقل، وطالع الأحاديث، والسير، لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه.

ولا يتعد أن يحصل العلم بالتواتر عند واحد ولا يحصل عند آخر؛ فإن أكثر الناس يعلمون - بالخبر - كون بغداد موجودة؛ وأنها مدينة عظيمة، ودار الإمارة والخلافة، وآحاد من الناس لا يعلمون اسمها؛ فضلاً عن وصفها؛ وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر الثقل عنه، أن مذهبه إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام، وإجزاء النية في أول ليلة من رمضان عما سواه؛ وأن الشافعي يرى تجديد النية كل ليلة؛ والاقتصار في المسح على بغض الرأس، وأن مذهبهما القصاص في القتل بالمحدد وغيره، وإيجاب النية في الوضوء، واشترائ الولي في النكاح؛ وأن أبا حنيفة يخالفهما في هذه المسائل؛ وغيرهم ممن لم يشتغل بمذاهبهم ولا روى أقوالهم لا يعرف هذا من مذاهبهم، فضلاً عن سواه.

وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بياناً إن شاء الله تعالى.

فصل

في إعجاز القرآن

قال المؤلف: اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب الله العزيز منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حُسْنُ تَأْلِيْفِهِ، وَالتَّيْمَامُ كَلِمَهُ، وَفَصَاحَتُهُ، وَوَجُوهُ إِيجَاظِهِ، وَبِلَاغَتُهُ الْخَارِقَةُ عَادَةً الْعَرَبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَابَ هَذَا الشَّانِ، وَقُرْسَانَ الْكَلَامِ؛ قَدْ خُصُّوا مِنَ الْبِلَاغَةِ وَالْحِكْمِ بِمَا لَمْ يُخَصَّ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَمَمِ، وَأَوْتُوا مِنْ ذَرَابَةِ اللِّسَانِ مَا لَمْ يُؤْتَ إِنْسَانٌ، وَمِنْ فَضْلِ الْخَطَابِ مَا يُقَيَّدُ الْأَلْبَابُ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ طَبْعاً وَخَلْقَةً، وَفِيهِمْ غَرِيزَةٌ وَقُوَّةٌ، يَأْتُونَ مِنْهُ عَلَى الْبِدِيْهِه بِالْعَجَبِ، وَيُذَلُّونَ بِهِ إِلَى كُلِّ سَبَبٍ؛ فَيَخْطُبُونَ بِدِيْهًا فِي الْمَقَامَاتِ، وَشَدِيدِ الْخُطْبِ، وَيَرْتَجِزُونَ بِهِ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَيَمْدَحُونَ وَيَقْدَحُونَ، وَيَتَوَسَّلُونَ وَيَتَوَصَّلُونَ، وَيَرْفَعُونَ وَيَضَعُونَ، فَيَأْتُونَ مِنْ ذَلِكَ بِالسَّخْرِ الْحَلَالِ، وَيَطْوِقُونَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ أَجْمَلَ مِنْ سِنِّطِ اللَّأَلِ، فَيَخْذَعُونَ الْأَلْبَابَ، وَيَذَلُّونَ الصَّعَابَ وَيَذْهَبُونَ الْإَحْنَ، وَيُهَيِّجُونَ الدَّمَنَ، وَيَجْرَثُونَ الْجَبَانَ، وَيَسْطَوْنَ يَدَ الْجَعْدِ الْبَنَانِ، وَيُصَيِّرُونَ النَّاْقِصَ كَامِلًا، وَيَتْرَكُونَ التَّيْبَةَ خَامِلًا.

مِنْهُمْ الْبَدَوِيُّ ذُو اللَّفْظِ الْجَزْلِ، وَالْقَوْلِ الْفَضْلِ، وَالْكَلَامِ الْفَخْمِ، وَالطَّبْعِ الْجَوْهَرِيِّ، وَالْمَنْزَعِ الْقَوِيِّ.

وَمِنْهُمْ الْحَضَرِيُّ ذُو الْبِلَاغَةِ الْبَارِعَةِ، وَالْأَلْفَاظِ النَّاصِعَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْجَامِعَةِ، وَالطَّبْعِ السَّهْلِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الْقَوْلِ الْقَلِيلِ الْكُلْفَةِ، الْكَثِيرِ الرُّوْنِقِ، الرَّقِيقِ الْحَاشِيَةِ.

وَكِلَا الْبَابَيْنِ فَلَهُمَا فِي الْبِلَاغَةِ الْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْقُوَّةُ الدَّامِغَةُ، وَالْقِدْحُ الْفَالِجُ، وَالْمَهْيِيعُ النَّاهِجُ، لَا يَشْكُونَ أَنَّ الْكَلَامَ طَوَّعَ مُرَادِهِمْ، وَالْبِلَاغَةَ مِلْكَ قِيَادِهِمْ، قَدْ حَوَّا فَنَوْنَهَا، وَاسْتَنْبَطُوا غُبُونَهَا، وَدَخَلُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَعَلَوْا صَرَحًا لِبَلَوِّهَا أَسْبَابِهَا؛ فَقَالُوا فِي الْخَطِيرِ وَالْمَهْمِ، وَتَفَتُّنُوا فِي الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَتَقَاوَلُوا فِي الْقُلِّ وَالْكَثْرِ، وَتَسَاجَلُوا فِي النِّظْمِ وَالتَّنْثَرِ؛ فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا رَسُولُ كَرِيمٍ، بَكْتَابٍ عَزِيزٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؛ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ، وَفُضِّلَتْ كَلِمَاتُهُ، وَبَهَّرَتْ بِلَاغَتُهُ الْعُقُولَ، وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ، وَتَضَافَرُ إِيجَاظُهُ وَإِعْجَاظُهُ، وَتَظَاهَرَتْ حَقِيقَتُهُ وَمَجَاظُهُ، وَتَبَارَتْ فِي الْحُسْنِ مَطَالِغُهُ وَمَقَاطِعُهُ، وَحَوَتْ كُلَّ الْبَيَانِ جَوَامِعُهُ وَبِدَائِعُهُ، وَاعْتَدَلَ مَعَ إِيجَاظِهِ حُسْنُ نَظْمِهِ، وَانْطَبَقَ عَلَى كَثْرَةِ فَوَائِدِهِ مَخْتَارُ لَفْظِهِ، وَهُمْ أَفْسَحُ مَا كَانُوا فِي هَذَا الْبَابِ مَجَالًا، وَأَشْهَرُ فِي الْخُطَابَةِ رَجَالًا، وَأَكْثَرُ فِي السَّنْعِ وَالشَّعْرِ ارْتَجَالًا، وَأَوْسَعُ فِي الْغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقَالًا؛ بَلَّغْتُهُمُ الَّتِي بِهَا يَتَحَاوَرُونَ، وَمَنَازِعُهُمُ الَّتِي عَنْهَا يَتَنَاضَلُونَ، صَارِخًا بِهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمُقَرَّعًا لَهُمْ بِضِعَا عَشْرِينَ عَامًا

على رؤوس الملائم أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٩] ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].
و ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

و ﴿قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِنِينَ﴾ [هود: ١٣] وذلك أَنَّ الْمُفْتَرِيَّ أَسْهَلُ، وَوَضَعَ الْبَاطِلُ وَالْمُخْتَلَقُ عَلَى الْاِخْتِيَارِ أَقْرَبُ، وَاللَّفْظُ إِذَا تَبَعَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ كَانَ أَضْعَبُ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: فَلَان يَكْتُبُ كَمَا يَقَالُ لَهُ، وَفَلَان يَكْتُبُ كَمَا يُرِيدُ.

وللأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي فَضْلٌ، وَبَيْنَهُمَا شَأْوٌ بَعِيدٌ.
فَلَمْ يَنْزَلْ يُقَرِّعُهُمْ - ﷻ - أَشَدَّ التَّقْرِيعِ، وَيُؤَيِّدُهُمْ غَايَةَ التَّوْبِيخِ، وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ، وَيَخْطُ أَعْلَامَهُمْ، وَيَشْتَتُ نِظَامَهُمْ، وَيَذْمُ آلِهَتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ، وَيَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِصُونَ عَنْ مَعَارَضَتِهِ، مُخْجِمُونَ عَنْ مِمَّا نَلَتْهُ، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ بِالتَّكْذِيبِ، وَالاِغْتِرَاءِ بِالْاِفْتِرَاءِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ مُؤْتَرٌّ﴾ [المدثر: ٢٤] وَ ﴿يَحْزَنُ مُسْتَعِزٌّ﴾ [القمر: ٢] وَ ﴿إِنَّكَ أَفْرَئِدٌ﴾ [الفرقان: ٤] وَ ﴿أَسْطِطِرُّ الْآدَمِيُّونَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وَالْمَبَاهِطَةِ وَالرِّضَا بِالدِّينَةِ؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُونَا غُلْفًا﴾ [البقرة: ٨٨].
و ﴿فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي مَا دَانَيْنَا وَفَرُّ مِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [نصفت: ٥]. وَ ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنَ فِيهِ لَعَلُّكُمْ تَقْلُبُونَ﴾ [نصفت: ٢٦].
وَالْاِدْعَاءُ مَعَ الْعَجْزِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].
وَقَدْ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا. وَمَنْ نَعَاطَى ذَلِكَ مِنْ شُخْفَانِهِمْ - كُمُسْلِمَةٍ - كَشَفَ اللَّهُ عَوَارِءَهُ لَجَمِيعِهِمْ، وَسَلَبَهُمُ اللَّهَ مَا أَلْفَوْهُ، مِنْ فَصِيحِ كَلَامِهِمْ، وَالْأَفْلَمُ يَخْفَ عَلَى أَهْلِ الْمَيْزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ فَصَاحَتِهِمْ، وَلَا جِنْسِ بِلَاغَتِهِمْ؛ بَلْ وَلَوْ عَنْهُ مُذِيرِينَ، وَأَتَوْا مُذْعِنِينَ مِنْ بَيْنِ مُهْتَدٍ وَبَيْنِ مُفْتُونٍ.

٦٥٦ - وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ الْوَلِيدُ بَنَ الْمَغِيرَةَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] قَالَ: وَاللَّهِ! إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ

لطلاوة، وإن أسفله لمُعْدِق، وإن أعلاه لمُثْمِر، ما يقول هذا بشر.
 وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ
 الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته.
 وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَكَمُوا نَجْيًا﴾ [يوسف: ٨٠]
 فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يوماً نائماً في المسجد فإذا هو
 بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق؛ واستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يُحْسِنُ
 كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أنسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها،
 فإذا هي قد جُمِعَ فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة؛ وهي قوله
 تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْلُعْ اللَّهُ رَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية، فقال لها: فانتك الله! ما أفصحت!
 فقالت: أو يُعَدُّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُومَاتٍ أَنْ أَرْضِيْعِي
 فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٢٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين،
 وبشارتين. فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق
 والصحيح من القولين.

وكون القرآن من قبل النبي ﷺ، وأنه أتى به، معلوم ضرورة، وكونه - عليه
 السلام - متحدثاً به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان بمثله معلوم ضرورة،
 وكونه في فصاحته خارقاً للعادة، معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه
 البلاغة؛ وسبيل من ليس من أهلها علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن
 معارضته، واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].
 وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ قُرِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبا: ٥١].
 وقوله: ﴿أَدْفَعْ بِالْأَيْمَنِ أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
 [فصلت: ٢٤].

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِّي الْأَمْرُ
 وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] وقوله: ﴿وَكَلَّا أَخَذْنَا
 بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنِ اخَذْتُهُ الصَّيْحَكُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا
 بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأشباهاها من الآي، بل أكثر القرآن حَقَّقَتْ ما بَيَّنَّته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كَلِمِها، وأنْ تُخْت كل لفظة منها جَمَلًا كثيرة؛ وفصولاً جَمَّة، وعلومًا زواجر، مُلِثت الدواوين مِنْ بَعْض ما استُمِد منها، وكثُرَت المقالات في المُسْتَبَطَّات عنها.

ثم هو في سَزْد القِصص الطوال، وأخبار القرون السوالف، التي يضعف في عادة الفُصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البَيان، آيةً لمتأمله؛ مِنْ رَبط الكلام ببعْضه ببعض، والتثام سَزده، وتناصِف وجوهه؛ كقِصَّة يوسف على طولها. ثم إذا تَرَدَّدَت قِصَصُه اختلفت العبارات عنها على كَثرة تَرَدُّدِها حتى تكاد كل واحدة تُنسى في البَيان صاحبها، وتُناصِف في الحُسن وَجَّة مُقابلتها، ولا نفور للنفوس مِنْ تَرديدِها، ولا مُعاداة لِمُعَادِها.

فصل

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نُظْمِهِ العَجِيب، والأسلوبُ الغريبُ المخالفُ لآساليب كلام العرب ومَنَاجِج نُظْمِها ونَثَرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطعُ آيِه، وانتهت فواصلُ كلماته إليه؛ ولم يُوجد قَبْلَه ولا بَعْدَه نظيرُ له، ولا استطاعَ أَحَدٌ مُماثلته شَيْءٌ منه؛ بل حارث فيه عقولُهم، وتَذَهَّلَت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر، أو نُظْم، أو سَجْع، أو رَجَز، أو شِعْر.

٦٥٧ - ولما سمع كلامه ﷺ الوليدُ بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن - رَقَّ؛ فجاءه أبو جهل مُنْكَرًا عليه - قال: والله! ما منكم أَحَدٌ أعلم بالأشعار مني، والله! ما يُشْبِهُ الذي يقول شَيْئاً مِنْ هذا.

٦٥٨ - وفي خبره الآخر حين جمع قُرَيْشاً عند حضور المَوْسِم، وقال: إن وفود العرب تَرُدُّ فأجِيعُوا فيه رَأياً، لا يكذِبُ بَعْضُكم بعضاً؛ فقالوا: نقول: كاهن. قال: واللَّهِ ما هُوَ بكاهن. ما هُوَ بِزَمْرَمَةٍ ولا سَجِيعه.

قالوا: مجنون. قال: ما هُوَ بِمَجْنُون، ولا بِخَنَقَةٍ ولا وَسْوَسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هُوَ بِشاعر. قد عَرَفْنَا الشَّعْرَ كُلَّهُ، رَجَزَهُ، وهَزَجَهُ، وقُرَيْضَهُ، ومَبْسُوطَهُ، ومَقْبُوضَهُ، ما هُوَ بِشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هُوَ بِساحر، ولا نَفْثِه ولا عَفْدِه. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين مِنْ هذا شَيْئاً، إلا وأنا أعْرِفُ أنه

باطل، وإنَّ أقربَ القولِ أنه ساحر؛ فإنه سيخرُ يفرقُ به بين المرءِ وأبيه، والمرءِ وأخيه، والمرءِ وزوجِه، والمرءِ وعشيرته.

فتفرقوا وجلسوا على السبيل يحذرون الناس؛ فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَيَبْنَ شُهُوكًا ۖ وَمَهْدَتْ لَمْ تَمِيدًا ۖ ثُمَّ بَطَعَ أَنْ أَرِيدَ ۖ كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لِآيَاتِنَا عِينًا ۖ سَأُرْهِقُهُمْ صَعُودًا ۖ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرُوا ۖ فَفِيلٌ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرُوا ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ ۖ ثُمَّ أَكْبَرَ ۖ وَأَسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ﴾ [المدثر: ١١-٢٤].

٦٥٩ - وقال عتبة بن ربيعة حين سَمِعَ القرآن: يا قوم! قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته؛ واللّه! لقد سمعتُ قولاً، واللّه! ما سمعتُ مثله قط؛ وما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

٦٥٩ م - وقال النضر بن الحارث نحوه.

٦٦٠ - وفي حديث إسلام أبي ذر - وَوصف أخاه أنيساً -، فقال: واللّه! ما سمعتُ بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقضَ اثني عشر شاعراً في الجاهلية، أنا أحدُهم، وإنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعتُ قولَ الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقرء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر؛ وإنه لصادق، وإنهم لكاذبون [مسلم (٢٤٧٣)، البخاري (٣٨٦١)].

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة.

والإعجازُ بكل واحدٍ من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها؛ أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحدٍ منهما نوعٌ إعجازٍ على التحقيق، لم تُقَدِّرِ العربُ على الإتيان بواحدٍ منهما؛ إذ كل واحدٍ خارجٌ عن قُدْرَتِها، مبين لفصاحتها وكلامها؛ وإلى هذا ذهب غير واحدٍ من أئمة المَحْقَقِينَ.

وذهب بعضُ المحققين المقتدَى بهم إلى أنَّ الإعجازَ في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقولٍ تمجُّه الأسماع، وتنفِّرُ منه القلوب.

والصحيحُ ما قدمناه، والعلمُ بهذا كله ضرورةً وقطعاً.

ومن تفتن في علوم البلاغة، وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجِّه عجزهم عنه؛ فأكثرهم يقول: إنه ما

جُمِيعٌ فِي قُوَّةِ جَزَالَتِهِ، وَنَصَاعَةِ الْفَاضِلَةِ، وَحُسْنِ نَظْمِهِ، وَإِيجَازِهِ، وَيَدِيعِ تَأْلِيْفِهِ وَأَسْلُوْبِهِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخَوَارِقِ الْمُمْتَنِعَةِ عَنْ إِقْدَارِ الْخَلْقِ عَلَيْهَا؛ كَأَحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَقَلْبِ الْعَصَا، وَتَسْبِيحِ الْحَصَى.

وَذَهَبَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ مِثْلُهُ تَحْتَ مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَيُقَدِّرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا يَكُونُ؛ فَمَنْعَهُمُ اللَّهُ هَذَا، وَعَجَزَهُمُ عَنْهُ.

وَقَالَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَعَلَى الطَّرِيقَيْنِ فَعَجَزُ الْعَرَبِ عَنْهُ ثَابِتٌ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ الْبَشَرِ، وَتَحْدِيثُهُمْ بِأَنَّهُ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، قَاطِعٌ؛ وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّعْجِيزِ، وَآخَرَى بِالْتَفْرِيعِ، وَالْإِحْتِجَاجِ بِمَجِيءِ بَشَرٍ مِثْلَهُمْ بِشَيْءٍ لَيْسَ مِنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ لِإِزْمٍ؛ وَهُوَ أَبْهَرُ آيَةٍ، وَأَقْمَعُ دَلَالَةٍ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَمَا أَتَوْا فِي ذَلِكَ بِمَقَالٍ؛ بَلْ صَبَرُوا عَلَى الْجَلَاءِ، وَالْقَتْلِ، وَتَجَرَّعُوا كَاسَاتِ الصَّغَارِ وَالذَّلِّ؛ وَكَانُوا مِنْ شُمُوحِ الْآتِفِ، وَإِبَائَةِ الضَّمِيمِ، بَحِثَ لَا يُؤْثِرُونَ ذَلِكَ اخْتِيَارًا، وَلَا يَرْضُونَهُ إِلَّا اضْطِرَارًا، وَإِلَّا فَالْمَعَارَضَةُ - لَوْ كَانَتْ مِنْ قُدْرَتِهِمْ - وَالشُّغْلُ بِهَا أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرَعُ بِالنُّجْحِ، وَقَطْعُ الْغُذْرِ، وَإِفْحَامُ الْخُصْمِ لَدَيْهِمْ، وَهُمْ مَنْ هُمْ، قُدْرَةٌ عَلَى الْكَلَامِ، وَقُدْوَةٌ فِي الْمَعْرِفَةِ بِهِ لَجَمِيعِ الْأَنَامِ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ جَهَدَ جَهْدَهُ، وَاسْتَفْقَدَ مَا عِنْدَهُ فِي إِخْفَاءِ ظَهْوَرِهِ، وَإِطْفَاءِ نُورِهِ، فَمَا جَلَّوْا فِي ذَلِكَ خَبِيثَةً مِنْ بَنَاتِ شِفَاهِهِمْ، وَلَا أَتَوْا بِنُطْفَةٍ مِنْ مَعِينِ مِيَاهِهِمْ، مَعَ طُولِ الْأَمَدِ، وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَتَظَاهُرِ الْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ؛ بَلْ أَبْلَسُوا فَمَا تَبَسَّوْا، وَمُئِنَّمَا فَانْقَطَعُوا؛ فَهَذَا نَوْعَانِ مِنْ إِعْجَازِهِ.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع؛ فوجد؛ كما ورد، وعلى الوجه الذي أخبر به كقوله تعالى:

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَائِمِينَ﴾ [الفن: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَبِيلُونَ﴾ [الروم: ٣].

وقوله: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا كَرَهُ الْمُتْرُكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوَّفَهُمْ أَنَّا يَتَّبِدُونَنِي لَا يَشْرِكُونَ فِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣] فكان جميع هذا، كما قال؛ فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجا؛ فما مات عليه السلام وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام.

٦٦١ - واستخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن لهم فيها دينهم، وملّكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب؛ كما قال عليه السلام: «رُؤِيتَ لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسينلغ ملك أمني ما رُويَ لي منها» [مسلم (٢٨٨٩)].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ زَلَّاتْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجر: ٩]؛ فكان كذلك، لا يكاد يُعَدُّ مَنْ سَعَى فِي تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِ مُحْكَمِهِ مِنَ الْمُلْجِدَةِ وَالْمُعْطَلَةِ، لَا سِيَّمَا الْقِرَامِطَةُ؛ فَاجْمَعُوا كَيْدَهُمْ وَخَوَّلَهُمْ وَقَوَّتَهُمْ، الْيَوْمَ نَيْفًا عَلَى خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، فَمَا قَدَرُوا عَلَى إِطْفَاءِ شَيْءٍ مِنْ نُورِهِ، وَلَا تَغْيِيرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَا تَشْكِيكِ الْمُسْلِمِينَ فِي حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

ومنه قوله: ﴿سَيَبْرُهُمْ لَقَمَعٌ وَيُرْلَوْنَ الذُّبُرَ ﴿٥٥﴾﴾ [الفر: ٤٥].

وقوله: ﴿فَتَلَوْتُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيَعْرُكُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُودَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢٢].

وقوله: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَنْ يَفْتِنَاكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا تُغْنِيكُمْ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١] فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقاليهم وكذبيهم في خليفهم، وتقريعهم بذلك؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].
وقوله: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّوْنَ لِلْكَذِبِ سَكَّوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوا بِحَرْفٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَحَدُّهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيُوْهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعِنَا لَيْئاً بِالسَّيِّئَةِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] وقد قال مُنْبِئاً، ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر: ﴿وَلَوْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ بِإِعْدَى الطَّاغُوتَيْنِ أَتَاهَا لَكُمْ وَيُؤْذُونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَوْ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِزِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

ولما نزلت، بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم؛ وكان المستهزون نقرأ بمكة، ينفرون الناس عنه، ويؤذونه، فهلَكوا. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْبُدُكَ مِنْ آتَائِهِ﴾ [المائدة: ٦٧] فكان كذلك على كثرة مَنْ رام ضربه، وقصد قتله؛ والأخبار بذلك معروفة صحيحة.

فصل

الوجه الرابع: ما أنبا به مِنْ أخبارِ القرونِ السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يَعْلَمُ منه القصة الواحدة إلا القُدُّ مِنْ أخبارِ أهلِ الكتاب الذي قطع عُمره في تعلم ذلك؛ فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نفسه؛ فيُخْتَرَفُ العالمُ منهم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم يَنْلَهُ بتعليم. وقد علموا أنه ﷺ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمداينة ولا مُتَانَفَةٍ، ولم يَغِبْ عنهم، ولا جهل حاله أحدٌ منهم.

وقد كان أهلُ الكتاب كثيراً ما يسألونه - ﷺ - عَنْ هذا، فيُنْزِلُ عليه من القرآن ما يَنْتَلُو عليهم منه ذكراً؛ كقصص الأنبياء مع قَوْمِهِمْ، وَخَبَرِ مُوسَى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذو القرنين، ولُقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء والقصص وبذء الخَلْقِ، وما في التوراة، والإنجيل، والزبور، وصُحُفِ إبراهيم وموسى؛ مما صَدَّقَهُ فيه العلماءُ بها، ولم يَقْدِرُوا على تكذيب ما ذكر منها؛ بل أَدْعَوْا لذلك، فَمِنْ مُوَفَّقِي آمَنَ بما سَبَقَ لَهُ مِنْ خَيْرٍ، وَمِنْ شَقِيٍّ مُعَانِدٍ حاسِدٍ؛ ومع هذا فلم يُخْخَكْ عن واحدٍ من - النصارى واليهود - على شدة عداوتهم له، وجرصهم على تَكْذِيبِهِ، وطول احتجاجه عليهم بما في

كُتِبَهِمْ، وَتَقْرِيعِهِمْ بِمَا انطَوَتْ عَلَيْهِ مَصَاحِفُهُمْ، وَكَثْرَةُ سَوَالِهِمْ لَهُ ﷺ، وَتَغْنِيَتِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ أَخْبَارِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَسْرَارِ عُلُومِهِمْ، وَمُسْتَوْدَعَاتِ سِيرِهِمْ، وَإِعْلَامِهِ لَهُمْ بِمَكْتُومِ شَرَائِعِهِمْ، وَمُضْمَنَاتِ كُتِبِهِمْ؛ مِثْلُ سَوَالِهِمْ عَنِ الرُّوحِ، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعِيسَى، وَحُكْمِ الرَّجْمِ وَمَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَمِنْ طَيِّبَاتِ كَانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ فَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ بَيِّنِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ أُخْرِجَ سَطْفُهُ فَآزَرُوهُ فَأَسَافَتُوا فَاسْتَوَى عَلَى سَوَاءٍ يَعِيبُ الزُّرَّاعُ لِعِيبِ آبِهِمُ الْكَفَّارُ﴾ [الفتح: ٢٩].

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن؛ فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك، أنه أنكر ذلك أو كذبه؛ بل أكثرهم صرَّحَ بصحة نبوته، وصدق مقالته، واعترف بعناده وحسدِهِمْ إِيَّاهُ؛ كَأَهْلِ نَجْرَانَ، وَابْنِ صُورِيَا [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)]، وَابْنِي أَخْطَبَ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ بَاهَتْ فِي ذَلِكَ بَغْضَ الْمُبَاهَاةِ، وَادَّعَى أَنَّ فِيهَا عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لِمَا حَكَاهُ مُخَالَفَةً، دُعِيَ إِلَى إِقَامَةِ حُجَّتِهِ، وَكُشِفَ دَعْوَتُهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤) [آل عمران: ٩٣، ٩٤].

فَقَرَعَ وَوَيْخَ، وَدَعَا إِلَى إِحْضَارِ مُمَكِّنٍ غَيْرِ مُنْتَبِعٍ؛ فَمِنْ مُعْتَرِفٍ بِمَا جَحَدَهُ، وَمُتَوَاقِعٍ يُلْقِي عَلَى فُضِيحَتِهِ مِنْ كِتَابِهِ يَدَهُ [البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩)]. وَلَمْ يُؤْزَرْ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَظْهَرَ خِلَافَ قَوْلِهِ مِنْ كُتِبِهِ، وَلَا أَبْدَى صَحِيحًا وَلَا سَقِيمًا مِنْ صُحُفِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ أَتَّبِعْ رِضْوَانَهُ مُسْبِلَ السِّلَاسِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فصل

فِي آيَاتٍ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ

هَذِهِ الْوُجُوهُ الْأَرْبَعَةُ مِنْ إِعْجَازِهِ بَيْنَهُ لَا نِزَاعَ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ. وَمِنَ الْوُجُوهِ الْبَيِّنَةِ فِي إِعْجَازِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْوُجُوهِ آتَى وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ؛ كَقَوْلِهِ

لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]. قال أبو إسحاق الزَّجَّاجُ: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دَلَالَةٍ على صحة الرسالة؛ لأنه قال: ﴿فَتَمْنُوا الْوَتَ﴾؛ وأعلمهم أنهم لن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، فلم يَتَمَنَّه واحد منهم.

٦٦٢ - وعن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها رجلٌ منهم إلا غَصَّ بريقه» [أحمد (٢٤٨/١)] يعني: يَمُوتُ مكانه.

فصرفهم الله عن تمنّيه، وجزَّعهم؛ ليظهر صدقَ رسوله، وصحة ما أوجي إليه، إذ لم يتمنه أحدٌ منهم؛ وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا؛ ولكن الله يفعل ما يريد؛ فظهرت بذلك معجزته، وبانت حُجَّتُهُ.

وقال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجدُ منهم جماعة، ولا واحد، من يوم أمر الله بذلك نبيّه، يُقدِّم عليه، ولا يُجيب إليه.

وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم.

٦٦٣ - وكذلك آية المُبَاهَلَةِ مِنْ هذا المعنى، حيث وقد عليه أساقفةُ نَجْران، وأبوا الإسلام؛ فأنزل الله [تعالى] عليه آيةَ المُبَاهَلَةِ بقوله: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَلِيِّ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] [البخاري (٤٣٨٠)، مسلم (٢٤٢٠)].

فامتنعوا منها، ورفضوا بأداء الجزية؛ وذلك أن «العاقب» عظيمهم قال لهم: قد علمتُم أنه نبي، وأنه ما لاعتن قومًا نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم.

ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا... [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فأخبرهم أنهم لا يفعلون؛ كما كان.

وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب، ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

فصل

فِي الرُّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْئَةِ الَّتِي تَغْتَرِبُهُمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ

ومنها الرُّوْعَةُ التي تَلْحَقُ قُلُوبَ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْئَةُ التي تَغْتَرِبُهُمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِقُوَّةِ حَالِهِ، وَإِنَافَةِ خَطَرِهِ؛ وهي على المكذِبِينَ به أعظم، حتى

كَانُوا يَسْتَفْقِلُونَ سَمَاعَهُ، وَيَزِيدُهُمْ نَفُورًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى؛ وَيَوَدُّونَ انْقِطَاعَهُ لِكِرَاهَتِهِمْ لَهُ.

٦٦٤ - ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ صَغَبٌ مُسْتَضَعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ؛ وَهُوَ الْحَكَمُ» وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلَا تَزَالُ رَوْعَتُهُ بِهِ، وَهَيْئَتُهُ إِيَّاهُ، مَعَ تِلَاوَتِهِ، ثُلُوبُهُ انْجِدَابًا، وَتَكْسِبُهُ هَشَاشَةٌ، لِمِيلِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقِهِ بِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَقْسِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال: «لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَوْضًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَفَلَاكَ الْأَشْجَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الحشر: ٢١].

ويدل على أن هذا شيء خُصَّ به، أنه يَغْتَرِي مَنْ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، وَلَا يَعْلَمُ تَفَاسِيرَهُ، كَمَا رَوَيْ عَنْ نَضْرَانِي، أَنَّهُ مَرَّ بِقَارِيٍّ، فَوَقَفَ يَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ: مِنْ بَكَيْت؟ قَالَ: لِلشُّجَا وَالنَّظْمِ.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده؛ فمنهم من أسلم لها لأول وهلة، وآمن به، ومنهم من كفر.

٦٦٥ - فحكى في الصحيح، عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ حُلُوفًا مِنْ غَيْرِ نَحْوِ أَمْ هُمْ الْخَافِرُونَ﴾ (٢٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٢٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُضْطَرُونَ (٢٧) [الطور: ٢٥-٢٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ [البخاري (٤٨٥٤)]، مُسْلِم (٤٦٣).

٦٦٦ - وفي رواية: وذلك أول ما وَقَرَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِي [البخاري (٤٠٢٣)].

٦٦٧ - وعن عُثْبَةَ بْنِ رِبِيعَةَ أَنَّهُ كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِ قَوْمِهِ، فَتَلَا عَلَيْهِمْ ﴿حَرِّمْنَا نَزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) كَتَبْتُ فَصِلْتُ مَا بَيْنَهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٣) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْحَرٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي مَآذِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ (٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٥) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَبِئْسَ الْكُفْرُ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَعَمَلُونَ لَهُمْ أَفَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسَيْنِ مِنْ قَوْمِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ لِيَأْتِيَنَّ إِلَى السَّعَةِ وَهُمْ مَخَافُهَا فَقَالَ لَهَا

وَلَا تَرْضَيْنَ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالُوا أَتَيْنَا لَنَا عَالَمِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَنَاءٍ أَمْرًا وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْرِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [انفصلت: ١- ١٣] فَأَمْسَكَ عَثْبَهُ بِيَدِهِ عَلَىٰ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَنَاشَدَهُ الرَّجْمَ أَنْ يَكْفَ.

٦٦٨ - وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعَثْبُهُ مُضْغٌ مُلْقٍ بِيَدِهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِمَا، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَى السَّجْدَةِ؛ فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَامَ عَثْبُهُ لَا يَذِرِي بِمَا يُرَاجِعُهُ، وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قَوْمِهِ حَتَّىٰ أَتَوْهُ؛ فَاعْتَذَرَ لَهُمْ، وَقَالَ: وَاللَّهِ! لَقَدْ كَلَّمَنِي بِكَلَامٍ. وَاللَّهِ! مَا سَمِعْتُ أَذْنَائِي بِمِثْلِهِ قَطُّ، فَمَا دَرَيْتُ مَا أَقُولُ لَهُ.

وقد حُكِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ رَامٍ مُعَارَضَتَهُ أَنَّهُ اعْتَرَفَهُ رَوْعَةٌ وَهَيْبَةٌ كَفَّ بِهَا عَنْ ذَلِكَ.

فَحُكِيَ أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ طَلَبَ ذَلِكَ وَرَاقَهُ، وَشَرَعَ فِيهِ؛ فَمَرَّ بِصَبْيٍ يَقْرَأُ: ﴿رَبِّهِ يَتَأَرْضُ أَلَيْسَ لِمَا كُنَّا نَعْمَدُ﴾ [مود: ٤٤] فَرَجَعَ وَمَحَا مَا عَمِلَ؛ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَا يُعَارَضُ، وَمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ؛ وَكَانَ مِنْ أَفْصَحِ أَهْلِ وَفْتِهِ. وَكَانَ يَحْيَىٰ بْنُ حَكَمٍ الْغَزَالِيُّ بَلِيغُ الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَانِهِ؛ فَحُكِيَ أَنَّهُ رَامَ شَيْئًا مِنْ هَذَا، فَنَظَرَ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ لِيَتَّخِذَ عَلَى مِثَالِهَا، وَيَتَّبِعَ - بِزَعْمِهِ - عَلَى مِثْوَالِهَا - قَالَ: فَاعْتَرَفَنِي خَشْيَةٌ وَرِفْقَةٌ، حَمَلَتْهُ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ.

فصل

فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَ الدُّنْيَا مَعَ تَكْمُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ

وَمِنْ وَجْهِهِ إِعْجَازُهُ الْمَعْدُودَةُ كَوْنُهُ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُغْدَمُ مَا بَقِيَ الدُّنْيَا مَعَ تَكْمُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وَقَالَ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [انفصلت: ٤٢].

وَسَائِرُ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ انْقَضَتْ بِانْقِضَاءِ أَوْقَاتِهَا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا خَبَرُهَا؛ وَالْقُرْآنُ الْعَزِيزُ، الْبَاهِرَةُ آيَاتُهُ، الظَّاهِرَةُ مُعْجَزَاتُهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، مَدَّةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ وَخَمْسِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لِأَوَّلِ نَزُولِهِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا، حُجَّتُهُ قَاهِرَةٌ، وَمُعَارَضَتُهُ مُتَنَبِّغَةٌ، وَالْأَعْصَارُ كُلُّهَا طَافِحَةٌ بِأَهْلِ الْبَيَانِ، وَخَمَلَةٌ عِلْمِ اللِّسَانِ، وَائِمَّةُ الْبَلَاغَةِ،

وَفُزَّانِ الْكَلَامِ، وَجَهَابِذِ الْبِرَاعَةِ؛ وَالْمُلْجِدُ فِيهِمْ كَثِيرٌ، وَالْمُعَادِي لِلشَّرْعِ عَتِيدٌ؛ فَمَا مِنْهُمْ مَنْ أَتَى بِشَيْءٍ يُؤْثَرُ فِي مُعَارَضَتِهِ، وَلَا أَلْفَ كَلِمَتَيْنِ فِي مَنَاقِضَتِهِ، وَلَا قَدَّرَ فِيهِ عَلَى مَطْعَنِ صَحِيحٍ، وَلَا قَدَحَ الْمُتَكَلِّفِ مِنْ ذُفْنِهِ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَزْنِدٍ شَحِيحٍ؛ بَلِ الْمَأْثُورُ عَنْ كُلِّ مَنْ رَامَ ذَلِكَ إِقَاوَهُ فِي الْعَجْزِ بِيَدَيْهِ، وَالنَّكُوصُ عَلَى عَقِيَّتِهِ.

فصل

فِي وَجْهِهِ أُخْرَى فِي إِعْجَازِهِ مِنْهَا: لَا يَمْلَهُ قَارِنُهُ

وَقَدْ عَدَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَثَمَةِ وَمُقَلِّدِي الْأَمَةِ فِي إِعْجَازِهِ وَجْهًا كَثِيرًا.

مِنْهَا: أَنْ قَارِنَهُ لَا يَمْلَهُ، وَسَامِعَهُ لَا يَمُجُّهُ؛ بَلِ الْإِكْبَابُ عَلَى تَلَاوَتِهِ يَزِيدُهُ حِلَاوَةً، وَتَرْذِيدُهُ يُوْجِبُ لَهُ مَحَبَّةً؛ لَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا، وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَلَامِ - وَلَوْ بَلَغَ فِي الْحُسْنِ وَالْبَلَاغَةِ مَبْلَغَهُ - يُمَلُّ مَعَ التَّرْدِيدِ، وَيُعَادَى إِذَا أُعِيدَ؛ وَكُنَّا نُسْتَلِدُّ بِهِ فِي الْخُلُوعَاتِ، وَيُؤْنَسُ بِتَلَاوَتِهِ فِي الْأَزْمَاتِ؛ وَسِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ذَلِكَ؛ حَتَّى أَحْدَثَ أَصْحَابُهَا لَهَا لَحُونًا وَطُرُقًا يَسْتَجْلِبُونَ بِتِلْكَ اللَّحُونِ تَنْشِيطَهُمْ عَلَى قِرَائَتِهَا.

٦٦٩ - وَلِهَذَا وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ: «لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَيْزَهُ، وَلَا تَفْنِي عَجَائِبَهُ؛ هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ؛ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ» [الجن: ١، ٢] [الترمذي (٢٩٠٦)].

وَمِنْهَا: جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَمْ تَعْهَدْ الْعَرَبُ عَامَةً وَلَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ خَاصَّةً، بِمَعْرِفَتِهَا، وَلَا الْقِيَامَ بِهَا؛ وَلَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنَ عُلَمَاءِ الْأُمَمِ، وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِهِمْ؛ فَجُمِعَ فِيهِ مِنْ بَيَانِ عِلْمِ الشَّرَائِعِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى طُرُقِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّاتِ، وَالرَّدِّ عَلَى فِرْقِ الْأُمَمِ؛ بِبِرَاهِينٍ قَوِيَّةٍ، وَأَدْلَةٍ بَيِّنَةٍ، سَهْلَةٍ الْأَلْفَافِ، مُوجِزَةٍ الْمَقَاصِدِ، رَامَ الْمُتَحَذِّلِقُونَ بَعْدَ أَنْ يَنْصُبُوا أَدْلَةً مِثْلَهَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» [يس: ٨١].

و «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» [يس: ٧٩].

و «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» [الأنبياء: ٢٢].

إلى ما حواه من علوم السِّر، وأنباء الأمم، والمواعظ، والحكم، وأخبار
الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم.

قال الله - جلَّ اسْمُهُ -: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

و ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

و ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُبَيِّنُ لِكَلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٦٧٠ - وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ أَمِراً وَزَجْراً، وَسُنَّةً خَالِيَةً، وَمَثَلاً مَضْرُوباً، فِيهِ نُبُوكُمْ، وَخَبَرُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، لَا يَخْلُقُهُ طَوْلُ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ؛ هُوَ الْحَقُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ؛ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ أَقْسَطَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ؛ وَمَنْ حَكَمَ بغيره قَضَاهُ اللَّهُ؛ هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَخَبَلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَفْجُؤُكَ فَيَقُومُ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَنْتَبِ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ».

٦٧١ - ونحوه عن ابن مسعود؛ وقال فيه: «وَلَا يَخْتَلِفُ، وَلَا يَتَشَاوَرُ، فِيهِ نَبَأُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ».

٦٧٢ - وفي الحديث: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: إِنِّي مَزَّلْتُ عَلَيْكَ تَوْرَةً حَدِيثَةً، تَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنَ غُمِيًّا، وَأَذَانًا ضَمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، فِيهَا يَتَابِعُ الْعِلْمُ وَفَهْمُ الْحِكْمَةِ، وَرَبِيعُ الْقُلُوبِ».

وَعَنْ كَعْبٍ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ فَهْمُ الْعُقُولِ، وَنُورُ الْحِكْمَةِ.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَيِّنَاتٍ لِمَنْ أَسْرَعَ إِلَيْهِ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿هَذَا يَكُنُّ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فَجُمِعَ فِيهِ - مَعَ وَجَازَةِ الْفَاطِظَةِ، وَجَوَامِعِ كَلِمِهِ - أَضْعَافُ مَا فِي الْكِتَابِ قَبْلَهُ، الَّتِي الْفَاطِظُهَا عَلَى الضَّعْفِ مِنْهُ مَرَّاتٍ.

ومنها: جَمَعَهُ فِيهِ بَيْنَ الدَّلِيلِ وَمَذْلُولِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ احْتِجَّ بِنَظْمِ الْقُرْآنِ، وَحُسْنِ رُصْفِهِ وَإِيجَازِهِ وَبِلَاغَتِهِ؛ وَأَتْنَاءَ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ؛ فَالتَّالِي لَهُ يَفْهَمُ مَوْضِعَ الْحُجَّةِ وَالتَّكْلِيفِ مَعاً مِنْ كَلَامٍ وَاحِدٍ، وَسُورَةٍ مُنْفَرَدَةٍ.

ومنها: أَنْ جَعَلَهُ فِي حَيْزِ المنظوم الذي لم يُعْهَدْ، ولم يكن في حَيْزِ المنشور؛ لأنَّ المنظوم أسهل على النفوس، وأَوْعَى للقلوب، وأَسْمَح في الأذان، وأخلى على الأفهام، فالتَّاسُّ إِلَيْهِ أَمِيلٌ، والأهواءُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ.

ومنها: تيسيره تعالى حِفْظَهُ لِمُتَعَلِّمِيهِ، وتَقْرِيئِهِ عَلَى مَحْفُظِيهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وسائرُ الأُمَمِ لَا يَحْفَظُ كَتَبَهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ، فكيف الجَمَاءُ عَلَى مُرُورِ السنينِ عَلَيْهِمْ. وَالْقُرْآنُ مُيسَّرٌ حِفْظُهُ لِلْعِلْمَانِ فِي أَقْرَبِ مَدَّةٍ.

ومنها: مُشَاكَلَةُ بَعْضِ أَجْزَائِهِ بَعْضًا، وَحُسْنُ اتِّلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَالتَّيَّامُ أَقْسَامُهَا، وَحُسْنُ التَّخْلِصِ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى، وَالخُرُوجُ مِنْ بَابٍ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهِ، وَانْقِسَامُ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى أَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَخَبَرٍ وَاسْتِخْبَارٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَإِثْبَاتِ ثُبُوتٍ، وَتَوْحِيدِ وَتَقْرِيرٍ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَوَائِدِهِ، دُونَ خَلَلٍ يَتَخَلَّلُ فَضُولَهُ.

وَالكَلَامُ الْفَصِيحُ إِذَا اغْتَوْرَهُ مِثْلُ هَذَا ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَلَانَتْ جَزَالَتُهُ، وَقِلَّ رَوْقُهُ، وَتَقَلَّقَتْ أَلْفَاظُهُ.

فَتَأْمَلْ أَوَّلَ ﴿مَنْ﴾ وَمَا جُمِعَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارِ الْكُفَّارِ وَشِقَاقِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ بِإِهْلَاكِ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَعْجِيبِهِمْ مِمَّا أَتَى بِهِ وَالْخَبَرُ عَنْ اجْتِمَاعِ مَلَنَّهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَمَا ظَهَرَ مِنَ الْحَسَدِ فِي كَلَامِهِمْ، وَتَعْجِيزِهِمْ وَتَوْهِينِهِمْ، وَوَعِيدِهِمْ بِخِزْيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَكْذِيبِ الْأَمَمِ قَبْلَهُمْ، وَإِفْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ، وَوَعِيدِ هَؤُلَاءِ مِثْلَ مُصَابِهِمْ، وَتَضْيِيرِ النَّبِيِّ عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَسْلِيَةِ بِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ ثُمَّ أَخَذَ فِي ذِكْرِ دَاوُدَ وَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ؛ كُلُّ هَذَا فِي أَوْجَزِ كَلَامٍ وَأَحْسَنِ نِظَامٍ.

ومنه: الْجُمْلَةُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي انْطَوَتْ عَلَيْهَا الْكَلِمَاتُ الْقَلِيلَةُ؛ وَهَذَا كُلُّهُ وَكَثِيرٌ مِمَّا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ ذُكِرَ فِي إعْجَازِ الْقُرْآنِ، إِلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ، ذَكَرَهَا الْأَثَمَةُ لَمْ نَذْكُرْهَا؛ إِذَا أَكْثَرَهَا دَاخِلٌ فِي بَابِ بَلَاغَتِهِ؛ فَلَا يَجِبُ أَنْ يُعَدَّ فَنًّا مُنْفَرَدًا فِي إعْجَازِهِ، إِلَّا فِي بَابِ تَفْصِيلِ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ عَنْهُمْ، يُعَدُّ فِي خَوَاصِهِ وَفَضَائِلِهِ، لَا إعْجَازِهِ.

وَحَقِيقَةُ الْإِعْجَازِ الْوُجُوهُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي ذَكَّرْنَا؛ فَلْيُعْتَمَدْ عَلَيْهَا، وَمَا بَعْدَهَا مِنْ خَوَاصِّ الْقُرْآنِ وَعَجَائِبِهِ الَّتِي لَا تَنْقُضِي. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فصل

في انشقاق القمر وخبس الشمس

قال الله تعالى: ﴿ أَفَتَرَى السَّاعَةَ وَاتَّقَى الْقَمَرَ ۖ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ ۖ ﴿٢﴾ ﴾ [القمر: ١، ٢].

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته؛ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.

٦٧٣ - أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه، حدثنا القاضي سراج بن عبد الله، حدثنا الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا القرظي، حدثنا البخاري، حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن شعبة، وسفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» [البخاري (٤٨٦٤)، مسلم (٢٨٠٠)].

٦٧٤ - وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبي ﷺ.

٦٧٤ م - وفي بعض طرق الأعمش: ونحن بجنتي [البخاري (٣٨٦٩)، مسلم (٤٤/٢٨٠٠)].

٦٧٥ - ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - الأسود، وقال: حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر [أحمد (٤١٣/١)].

٦٧٦ - ورواه عنه مسروق، أنه كان بمكة، وزاد: فقال كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة [البخاري (٣٨٦٩)].

فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يتلغ من سحره أن ينحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا، فسألوهم فآخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وحكى السمرقندي عن الضحّاك، نحوه، وقال: فقال أبو جهل: هذا سحر، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا: أراؤا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه مُشَقًّا؛ فقالوا - يغني الكفار -: هذا سحر مستمر.

٦٧٧ - ورواه أيضاً - عن ابن مسعود - غلقمة؛ فهؤلاء أربعة عن عبد الله.

٦٧٨ - ٦٨٣ - وقد رواه غير ابن مسعود، كما رواه ابن مسعود؛ منهم: أنس [البخاري (٣٦٣٧)، مسلم (٢٨٠٢)]، وابن عباس [البخاري (٣٦٣٨)، مسلم (٢٨٠٣)]،

وابنُ عمر [مسلم (٢٨٠١)]، وَحُذَيْفَةُ، وعلي، وَجُبَيْر بن مُطْعِم [الترمذي (٣٢٨٩)]؛ فقال عليّ - من رواية أبي حذيفة الأزحبي: لَنَشَقَّ الْقَمَرَ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ .
وعن أنس: سأل أهل مكة النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فأراهم انشقاقَ القمرِ فرقتين حتى رأوا جِراءَ بينهما. رواه عن أنس قتادة.

وفي رواية مَعْمَر وغيره، عن قتادة، عنه: أراهم الْقَمَرَ مَرَّتَيْنِ انشقاقه، فنزلت: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ورواه عن جُبَيْر بن مُطْعِم ابنه مُحَمَّد، وابنُ ابنه جُبَيْر بن محمد.
ورواه عن ابن عباس عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.
ورواه عن ابن عمر مُجاهد، ورواه عن حُذَيْفَةَ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ ومسلم بن أبي عمران الأزدي.

وأكثرُ طُرُقِ هذه الأحاديث صحيحة؛ والآية مُصَرِّحَةٌ، ولا يلتفتُ إلى اعتراض مخذول، بأنه لو كان هذا لم يخَفَ على أهل الأرض؛ إذ هو شيء ظاهرٌ لجميعهم؛ إذ لم يُنْقَلْ لنا عن أهل الأرض أنهم رَضُّوه تلك الليلة فلم يَرَوْه انشق؛ ولو نُقِلَ إلينا عَمَّنْ لا يجوزُ تَمَالُؤُهُمْ - لكثرتهم - على الكذب، لَمَا كانت علينا به حجة؛ إذ ليس الْقَمَرُ في حدٍّ واحدٍ لجميع أهل الأرض؛ فقد يطلعُ على قوم قبل أن يطلعَ على آخرين، وقد يكون من قوم بضدِّ ما هو من مُقَابِلِهِمْ من أَقْطَارِ الأرض، أو يَحُولُ بين قوم وبينه سحابٌ أو جِبَالٌ؛ ولهذا نجدُ الكسوفات في بعض البلاد دونَ بَعْضٍ، وفي بعضها جُزئية، وفي بعضها كُلِّية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدَّعون لعلَّها؛ ذلك تقديرُ العزيز العليم.

وآية القمر كانت ليلاً، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب، وقطع التصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً، إلا مَنْ رَصَدَ ذلك، واغْتَبَلَ به. وكذلك ما يكونُ الكسوفُ القمري كثيراً في البلاد، وأكثرُهُمْ لا يعلمُ به حتى يُخْبِرَ، وكثيراً ما يحدثُ الثقاتُ بعجائب يشاهدونها من أنوارٍ ونجومٍ طَوَّالِعَ عَظَامٍ تظهرُ في الأحيان بالليل في السماء، ولا عِلْمٌ عند أحد منها.

٦٨٤ - وَخَرَجَ الطحاوي في مشكل الحديث، عن أسماء بنت عُمَيْسٍ، من طريقين، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ، وَرَأْسُهُ فِي جِجَرِ عَلِيٍّ، فلم يصلُ العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسول الله ﷺ: «أَصْلَيْتِ؟ يَا عَلِي!» قال: لا.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم! إنه كان في طاعتك، وطاعة رسولك، فازدّد عليه الشَّمْسُ».

قالت أسماء: فرأيتها غَرَبَتْ، ثم رأيتها طَلَعَتْ بعد ما غَرَبَتْ، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصُّهْبَاءِ فِي خَيْرٍ.
قال: وهذان الحديثان ثابتان وزَوَاتُهُمَا ثَقَات.

وحكى الطَّخَاوِيُّ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ صَالِحٍ كَانَ يَقُولُ: لَا يَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ سَبِيلُهُ الْعِلْمُ التَّخَلُّفُ عَنْ حَفْظِ حَدِيثِ أَسْمَاءَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ عِلَامَاتِ النَّبُوَّةِ.

٦٨٥ - وَرَوَى يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ فِي زِيَادَةِ الْمَغَازِي فِي رِوَايَتِهِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ: لَمَّا أُنْصِرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرَ قَوْمَهُ بِالرُّفْقَةِ وَالْعِلَامَةِ الَّتِي فِي الْعَبِيرِ قَالُوا: مَتَى تَجِيءُ؟ قَالَ: «يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ» فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَشْرَفْتُ قُرَيْشَ يَنْظُرُونَ وَقَدْ وَلَّى النَّهَارُ وَلَمْ تَجِءْ؛ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَزِيدَ لَهُ فِي النَّهَارِ سَاعَةٌ، وَحُسِبَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

فصل

فِي نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكَثِيرِهِ بِتَرَكِّبِهِ

قال المؤلف رحمه الله: أما الأحاديث في هذا فكبيرة جداً.

رَوَى حَدِيثُ نَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ مِنْهُمْ أَنَسُ، وَجَابِرٌ، وَابْنُ مَسْعُودٍ:

٦٨٦ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ الْفَقِيهَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا الْقَاضِي عِيسَى بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ بْنُ الْفَخَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَحَانَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ؛ فَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوُضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَوْضُوءَ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ.

قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم [البخاري (١٦٩)، مسلم (٥/٢٢٧٩)].

٦٨٧ - وَرَوَاهُ أَيْضاً - عَنْ أَنَسٍ - قَتَادَةُ، وَقَالَ: بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ يَغْمَرُ أَصَابِعَهُ أَوْ لَا يَكَادُ يَغْمَرُ. قَالَ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: كُنَّا زُهَاءً ثَلَاثَ مِثْقَلٍ [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٧/٢٢٧٩)].

٦٨٨ - وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: وَهَمُّ بِالزُّرْزَاءِ عِنْدَ السُّوقِ [البخاري (٣٥٧٢)، مسلم (٦/٢٢٧٩)].

ورواه أيضاً حُمَيْدٌ، وثابتٌ، والحسنُ، عن أنسٍ.

٦٨٩ - وفي رواية حُمَيْدٍ: قلتُ: كم كانوا؟ قال: ثمانين [البخاري (٣٥٧٥)].

٦٩٠ - ونحوه عن ثابت عنه [البخاري (٢٠٠)، مسلم (٤/٢٢٧٩)].

٦٩١ - وعنه أيضاً: وهم نحو من سبعين رجلاً [البخاري (٣٥٧٤)].

٦٩٢ - وأما ابنُ مسعود ففي الصحيح عنه - من رواية علقمة -: بينما نحن

مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا منْ معه فضلَ ماءٍ»، فأتي بماءٍ فصَبَّهُ في إناءٍ، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ [البخاري (٣٥٧٩)].

٦٩٣ - وفي الصحيح، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر رضي الله عنه:

عَطَشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، وَأَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ؛ وَقَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ؛ فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ.

وفيه: فَقُلْتُ: كم كنتم؟ قال: لو كنا مِثَّةَ أَلْفٍ لَكَفْنَا؛ كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِثَّةً

[البخاري (٤١٥٢)، مسلم (٧٢/١٨٥٦)].

٦٩٤ - ورؤي مثله عن أنس، عن جابر؛ وفيه أنه كان بالحُدَيْبِيَةِ.

٦٩٥ - وفي رواية عُبَادَةَ بن الوليد بن عُبَادَةَ بن الصامت عنه، في حديث

مسلم الطويل في ذِكْرِ غَزْوَةِ بُوَاطٍ قَالَ:

قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا جَابِرُ! نَادِ، الْوُضُوءَ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا أَقْطَرَةً فِي عَزْلَاءٍ شَجَبَ؛ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَمَرَهُ وَتَكَلَّمْتُ بِهِ؛ لَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ وَقَالَ: «نَادِ بِجَفْنَةِ الرُّكْبِ»، فَأَتَيْتُ بِهَا، فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَسَطَ يَدَهُ فِي الْجَفْنَةِ، وَفَزَقَ أَصَابِعَهُ، وَصَبَّ جَابِرٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَهُ ﷺ قَالَ: فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ فَارَتِ الْجَفْنَةُ وَاسْتَدَارَتْ حَتَّى امْتَلَأَتْ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالِاسْتِقَاءِ، فَاسْتَقَوْا حَتَّى رَوَوْا.

فَقُلْتُ: هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الْجَفْنَةِ وَهِيَ

مَلَأَى [مسلم (٣٠١٣)].

٦٩٦ - وعن الشَّعْبِيِّ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ بِإِدَاوَةِ مَاءٍ، وَقِيلَ: مَا

مَعْنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَاءٌ غَيْرُهَا، فَسَكَبَهَا فِي رَكْوَةٍ، وَوَضَعَ إصْبَعَهُ وَسَطَهَا، وَغَمَسَهَا فِي الْمَاءِ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَجِثُونَ وَيَتَوَضَّؤُونَ ثُمَّ يَقُومُونَ.

٦٩٧ - قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ.

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة، والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لئنا جئناك عليه النفوس من ذلك؛ ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل؛ فهؤلاء قد رَوَوْا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم يُنكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوا وشاهدوا، فصار كصديق جميعهم له.

فصل

فِي تَفْجِيرِ الْمَاءِ بِبَرَكَتِهِ ﷺ، وَانْبِعَاثِهِ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ

٦٩٨ - ومما يُشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته، وانبعائه بمسه ودعوته فيما رَوَى مالك في «الموطأ» عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي قِصَّةِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّهُمْ وَرَدُّوا الْعَيْنَ وَهِيَ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ مِثْلَ الشَّرَاكِ، فَعَرَفُوا مِنَ الْعَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ غَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَأَعَادَهُ فِيهَا. فَجَرَتْ بِمَاءٍ كَثِيرٍ، فَاسْتَقَى النَّاسُ.

٦٩٩ - قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ما له جس كجس

الصواعق.

ثم قال: «يُوشِكُ، يَا مُعَاذُ! إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِئَ جَنَانًا» [مسلم (١٠/٧٠٦)].

٧٠٠، ٧٠١ - وفي حديث البراء، وسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ - وحديثه أتم - في قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهُمْ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِئَةً، وَبَثَرُهَا لَا تَزِيدُ خَمْسِينَ شَاةً، فَزَخَّاهَا فَلَمْ تَتْرَكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَاهَا.

قال البراء: وَأَتَيْتُ بِدَلْوٍ مِنْهَا، فَبَصَقْتُ، فِدَعَا - وَقَالَ سَلَمَةُ: فَلَمَّا دَعَا، وَإِنَّمَا بَصَقْتُ فِيهَا - فَجَاسَتْ؛ فَأَرَوُوا أَنْفُسَهُمْ وَرَكَابَهُمْ [البخاري (٣٥٧٧) مسلم (١٧٢٩)].

وفي غير هذه الروایتين في هذه القصة من طريق ابن شهاب في الحُدَيْبِيَّةِ: فَأَخْرَجَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَوَضَعَ فِي قَعْرِ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، فَرَوَى النَّاسُ حَتَّى ضَرَبُوا بِعُطْنٍ.

٧٠٢ - وعن أبي قتادة، وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ الْعَطَشَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فِدَعَا بِالْمِیْضَاءِ، فَجَعَلَهَا فِي ضَبْنٍ، ثُمَّ التَّمَّمَ قَمَها، فَالَّهُ أَعْلَمُ - نَفَثَ فِيهَا أَمْ لَا فَشَرِبَ النَّاسُ حَتَّى رَوَوْا، وَمَلَأُوا كُلَّ إِنَاءٍ مَعَهُمْ؛ فَخَبِلَ إِلَيَّ

أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً [مسلم (٦٨١)].

٧٠٣ - وَرَوَى مِثْلَهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ.

وذكر الطبري حديث أبي قتادة على غير ما ذكره أهل الصحيح، وأن النبي ﷺ خرج بهم مُمِدًّا لأهل مُؤْتَةَ عندما بلغه قَتْلُ الأُمراءِ.

وذكر حديثاً طويلاً فيه مُعْجَزَاتُ وآيَاتُ للنبي ﷺ؛ وفيه إعلَامُهُم أنهم يفقدون الماءَ في غَدٍ.

وذكر حديثُ المِيضَاءِ؛ قال: والقَوْمُ رُهاءَ ثلاثِ مئةٍ.

٧٠٤ - وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قَتَادَةَ: «احْفَظْ هَلِي مِيضَاتَكَ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهَا نَبَأٌ» وذكر نحوه [مسلم (٦٨١)].

٧٠٥ - ومن ذلك حديثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ حين أَصَابَ النبي ﷺ وأصحابه عَطَشٌ في بعض أسفارهم؛ فَوَجَّهَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَعْلَمَهُمَا أَنَّهُمَا يَجْدَانِ امْرَأَةً بِمَكَانٍ كَذَا مَعَهَا بَعِيرٌ عَلَيْهِ مَرَاتَانِ... الحديث؛ فوجداهما وأتينا بها إلى النبي ﷺ؛ فجعل في إناءٍ مِنْ مَرَاتِنِهَا، وقال فيه ما شاء الله أن يقول؛ ثم أعاد الماءَ فِي الْمَرَاتَيْنِ، ثم فَتَحَتْ عَزَائِهِمَا؛ وأمر الناسَ فملؤوا أسقيتهم حتى لم يَدْعُوا شَيْئاً إِلَّا مَلُؤُوهُ.

قال عِمْرَانُ: وَتَحَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَمْ تَزِدَا إِلَّا امْتَلَاءً، ثم أمر فُجِيعَ لِلْمَرْأَةِ مِنَ الْأَزْوَاجِ حَتَّى مَلَأَ ثَوْبُهَا. وقال: «اذْهَبِي؛ فَإِنَّا لَمْ نَأْخُذْ مِنْ مَائِكَ شَيْئاً؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَقَانَا...» الحديث بطوله [البخاري (٣٤٤)، مسلم (٦٨٢)].

٧٠٦ - وعن سلمة بن الأكوع: قال نبي الله ﷺ: «هَلْ مِنْ وَضوءٍ؟» فجاء رجلٌ بِإِدَاوَةٍ فِيهَا نُطْقَةٌ فَأَفْرَعَهَا فِي قَدَحٍ، فنوضأنا كُلُّنا نُدْغِفُهُ دَغْفَقَةً، أربعَ عَشْرَةَ مِئَةً [مسلم (١٧٢٩)]. ... الحديث بطوله.

٧٠٧ - وفي حديث عُمر، في جَيْشِ الْعُسْرَةِ: وذكر ما أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَطَشِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْتَحِرُ بِعَمِيرِهِ، فيَغْصِرُ قَرْنَهُ فيَشْرِبُهُ؛ فَرَغِبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعَاءِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فلم يَرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ، فَانْسَكَبَتْ؛ فملؤوا ما معهم مِنْ آيَةٍ، ولم تَجَاوِزِ الْعِسْكَرَ.

٧٠٨ - وعن عمرو بن شُعَيْبٍ، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ رَدِيفُهُ بِذِي الْمَجَازِ: عَطِشْتُ وَلَيْسَ عِنْدِي مَاءٌ؛ فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ، وَضَرَبَ بِقَدَمِهِ الْأَرْضَ، فَخَرَجَ الْمَاءُ، فَقَالَ: «اشْرَبْ».

والحديث في هذا الباب كَثِيرٌ؛ ومنه الإجابةُ بدعاء الاستسقاء وما جَانَسَهُ.

فصل

وَمِنْ مُفْجَزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِتَرْكِيهِ وَدُعَائِهِ

٧٠٩ - أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا العُدري، حدثنا الرازي، حدثنا الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا الحسن بن أغين، حدثنا مَعْقِل، عن أبي الزبير، عن جابر، أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ، فأطعمه شَطْرَ وَسْطِ شَعِيرٍ؛ فما زال يأكل منه وامراته وَضِيفُهُ حتى كَالَهُ، فَأَتَى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: «لو لم تَكَلَّهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ وَلَقَامَ بِكُمْ» [مسلم (٢٢٨١)].

٧١٠ - ومن ذلك حديثُ أبي طَلْحَةَ المشهور، وإطعمته ﷺ ثمانين - أو سبعين - رجلاً من أَقْرَاصِ مَنْ شَعِيرٌ جَاءَ بِهَا أَنْسٌ تَحْتَ يَدِهِ - أي إبطه - فأمر بها فَفُتَّتْ، وقال فيها ما شاء الله أَنْ يَقُولَ [البخاري (٣٥٧٨)، مسلم (٢٠٤٠)].

٧١١ - وحديثُ جابر في إطعامه ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ صَاعِ شَعِيرٍ، وَعَنَاقٍ.

وقال جابر: فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَأَكْلُوا حَتَّى تَرْكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنْ بُزِمْتَنَا لَتَنَفُطُ كَمَا هِيَ، وَإِنْ عَجِيتَنَا لَتُخْبِرُ.

وكان رسول الله ﷺ بَصَقَ فِي الْعَجِينِ وَالْبُرْمَةِ، وَبَارَكَ.

رواهُ عن جابرٍ سَعِيدُ بْنُ مَيْتَاءَ، وَأَيْمَنُ [البخاري (٤١٠٢)، مسلم (٢٠٣٩)].

٧١٢ - وعن ثابتٍ، مثله، عن رجلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وامراته، ولم يَسْمُهَا؛ قال: وَجِيءَ بِمِثْلِ الْكَفِّ، فجعل رسول الله ﷺ يَنْسُطُهَا فِي الْإِنَاءِ، ويقولُ ما شاء الله، فأكل منه مَنْ فِي الْبَيْتِ وَالْحُجْرَةِ وَالْدَّارِ؛ وكان ذلك قد امْتَلَأَ مِنْ قَدِيمٍ مَعَهُ ﷺ لذلك؛ وبقي بعدما شَبِعُوا مِثْلَ مَا كَانَ فِي الْإِنَاءِ.

٧١٣ - وحديثُ أبي أيوب: أَنَّهُ صَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَأَبِي بَكْرٍ مِنَ الطَّعَامِ زُهَاءً مَا يَكْفِيهِمَا؛ فقال له النبي ﷺ: «ادْعُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَشْرَافِ الْأَنْصَارِ فِدَاعَهُمْ، فَأَكْلُوا حَتَّى تَرْكُوا؛ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ سِتِينَ» فَكَانَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ سَبْعِينَ» فَأَكْلُوا حَتَّى تَرْكُوا، وما خرج منهم أَحَدٌ حَتَّى أَسْلَمَ وَبَايَعَ.

قال أبو أيوب: فَأَكَلَ مِنْ طَعَامِي مِثْلُ ثَمَانُونَ رَجُلًا.

٧١٤ - وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِقِصْعَةٍ فِيهَا لَحْمٌ، فَتَعَاقَبُوهَا مِنْ غَدَاةٍ حَتَّى اللَّيْلِ؛ يَقُومُ قَوْمٌ وَيَقْعُدُ آخَرُونَ [الترمذي (٣٦٢٥)].

٧١٥ - ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن أبي بكر: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثِينَ وَمِئَةً؛ وَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ عَجِنَ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، وَصُنَعَتْ شَاةٌ، فَشَوِيَ سَوَادُ بَطْنِهَا ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّمُ اللَّهُ! مَا مِنْ الثَّلَاثِينَ وَمِئَةً إِلَّا وَقَدْ حَزَّ لَهُ حُزَّةٌ مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا قُضْعَتَيْنِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُمَا أَجْمَعُونَ، وَفَضَّلَ فِي الْقُضْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى الْبَيْعِ [البخاري (٢٦١٨)، مسلم (٢٠٥٦)].

٧١٦ وحتى ٧١٩ - ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن أبي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ [أحمد (٤١٧/٣، ٤١٨)، مسلم (١٧٢٩)]، عَنْ أَبِيهِ، وَمِثْلُهُ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ [البخاري (٢٤٨٤)، مسلم (١٧٢٩)]، وَأَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم (٢٧)]، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَكَرُوا مَخْمَصَةً أَصَابَتْ النَّاسَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ مَعَازِيهِ، فَدَعَا بِبَقِيَّةِ الْأَزْوَادِ، فَجَاءَ الرَّجُلُ بِالْحَنِيَّةِ مِنَ الطَّعَامِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ؛ وَأَعْلَاهُمْ الَّذِي أَتَى بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ؛ فَجَمَعَهُ عَلَى نِطْعٍ - قَالَ سَلَمَةُ: فَحَزَزْتُهُ كَرْنِصَةِ الْعَنْزِ - ثُمَّ دَعَا النَّاسَ بِأَوْعِيَتِهِمْ، فَمَا بَقِيَ فِي الْجَيْشِ وَعَاءٌ إِلَّا مَلُؤُوهُ وَبَقِيَ مِنْهُ.

٧٢٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَدْعُو لَهُ أَهْلَ الصُّفَّةِ، فَتَبِعْتُهُمْ حَتَّى جَمَعْتُهُمْ، فَوَضَعْتُ بَيْنَ أَيْدِينَا صَحْفَةً، فَأَكَلْنَا مَا شِئْنَا، وَفَرَعْنَا وَهِيَ مِثْلُهَا حِينَ وُضِعَتْ إِلَّا أَنَّ فِيهَا أَثَرَ الْأَصَابِعِ.

٧٢١ - وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ، مِنْهُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجَدْعَةَ، وَيَشْرَبُونَ الْفَرْقَ؛ فَصَنَعَ لَهُمْ مَذًا مِنْ طَعَامٍ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ كَمَا هُوَ؛ ثُمَّ دَعَا بَعْضُ، فَشَرِبُوا حَتَّى رَوُوا، وَبَقِيَ كَأَنَّهُ لَمْ يُشْرَبْ مِنْهُ [أحمد (١٥٩/١)].

٧٢٢ - وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ ابْتَنَى بَزْتَبَ، أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُو لَهُ قَوْمًا سَمَاءَهُمْ، وَكُلٌّ مِنْ لَقِيَتْ، حَتَّى امْتَلَأَ الْبَيْتَ وَالْحَجَرَةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ تَوْرًا، فِيهِ قُدْرٌ مُدٌّ مِنْ تَمَرٍ، جُعِلَ خَيْسًا، فَوَضَعَهُ قُدَّامَهُ، وَغَمَسَ ثَلَاثَ أَصَابِعِهِ، وَجَعَلَ الْقَوْمَ يَتَغَدَّوْنَ وَيَخْرُجُونَ، وَبَقِيَ التَّوْرُ نَحْوًا مِمَّا كَانَ، وَكَانَ الْقَوْمُ أَحَدًا - أَوْ قَالَ - اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ [مسلم (٩٥/١٤٢٨)، البخاري (٥١٧٠)].

٧٢٣ - وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَوْ مِثْلِهَا إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا زُهَاءً ثَلَاثَ مِئَةٍ وَأَنَّهُمْ أَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. وَقَالَ لِي: «ارْفَعْ»، فَلَا أَذْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرُ أَمْ حِينَ رَفَعْتُ [مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

٧٢٤ - وَفِي رَوَايَةِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فَاطِمَةَ طَبَخَتْ قِدْرًا لَعْدَانِهَا وَوَجَّهَتْ عَلِيًّا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَتَغَدَّى مَعَهَا، فَأَمَرَهَا

فَقَرَّطَ مِنْهَا لِجَمِيعِ نِسَائِهِ صَحْفَةً، صَحْفَةً ثُمَّ لَهَا، وَلِعَلِّي، ثُمَّ لَهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ
الْقِنْزَ، وَإِنَّا لَتَقْبِضُ، قَالَتْ: فَأَكَلْنَا مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ.

٧٢٥، ٧٢٦ - وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنْ يُزَوِّدَ أَرْبَعَ مِئَةِ رَاكِبٍ
مِنْ أَخْمَسَ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هِيَ إِلَّا أَضْوَعُ. قَالَ: «اذْهَبْ»، فَذَهَبَ
فَزَوَّدَهُمْ مِنْهُ، وَكَانَ قُدَّرَ الْفَصِيلُ الرَّابِضُ، مِنَ التَّمْرِ، وَبَقِيَ بِحَالِهِ.

مِنْ رِوَايَةِ دُكَيْنِ الْأَخْمَسِيِّ [أَحْمَدُ (١٧٤/٤)]، وَمِنْ رِوَايَةِ جَرِيرٍ.
٧٢٧ - وَمِثْلُهُ مِنْ رِوَايَةِ الثُّغَمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْخَبَرِ بِغَيْثِهِ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعَ مِئَةِ
رَاكِبٍ مِنْ مُزَيْنَةَ [أَحْمَدُ (٤٤٥/٥)].

٧٢٨ - وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ جَابِرٍ فِي ذَيْنِ أَبِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَقَدْ كَانَ بِذَلِكَ لَعُزْمَاءُ أَبِيهِ
أَصْلَ مَالِهِ، فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ثَمَرِهَا سَنِينَ كَفَافَ ذَيْنِهِمْ، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ
أَنْ أَمَرَهُ بِجَدِّهَا، وَجَعَلَهَا يَتَادَرُ فِي أَصُولِهَا، فَمَشَى فِيهَا وَدَعَا، فَأَوْفَى مِنْهُ جَابِرٌ عُزْمَاءَ
أَبِيهِ، وَفَضَّلَ مِثْلَ مَا كَانُوا يَجِدُونَ كُلَّ سَنَةٍ [الْبُخَارِيُّ (٢١٢٧)].

١/٧٢٨ - وَفِي رِوَايَةٍ: مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ [الْبُخَارِيُّ (٣٥٨٠)]؛ قَالَ: وَكَانَ الْعُرَمَاءُ
يَهُودٌ؛ فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ.

٧٢٩ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَصَابَ النَّاسَ مَخْمَصَةٌ. فَقَالَ لِي
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَهْلٌ مِنْ شَيْءٍ؟» قُلْتُ: نَعَمْ؛ شَيْءٌ مِنَ التَّمْرِ فِي الْجَزُودِ. قَالَ:
«فَأَتَيْتِي بِهِ» فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَأَخْرَجَ قُبْضَةً، فَبَسَطَهَا وَدَعَا بِالتَّبَرُّكِ؛ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ عَشْرَةَ»
فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ عَشْرَةَ كَذَلِكَ، حَتَّى أَطْعَمَ الْجَيْشَ كُلَّهُمْ وَشَبِعُوا. قَالَ:
«أَخُذْ مَا جِئْتَ بِهِ، وَأَدْخُلْ بِذَلِكَ، وَاقْبِضْ مِنْهُ وَلَا تَكْبَهُ»، فَقَبِضْتُ عَلَى أَكْثَرِ مَا
جِئْتُ بِهِ؛ فَأَكَلْتُ مِنْهُ، وَأَطْعَمْتُ حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، إِلَى أَنْ
قُتِلَ عُمَانُ، فَانْتَهَبَ مِنِّي، فَذَهَبَ.

٧٣٠ - وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَمَنْعِي فِي
سَبِيلِ اللَّهِ [التِّرْمِذِيُّ (٣٨٣٩)، أَحْمَدُ (٣٥٢/٢)].

٧٣١ - وَذُكِرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّ التَّمْرَ كَانَ يُضَعُّ
عَشْرَةَ تَمْرَةٍ [مُسْلِمٌ (٤٥/٢٧)].

٧٣٢ - وَمِنْهُ أَيْضاً حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حِينَ أَصَابَهُ الْجَوْعُ، فَاسْتَبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ،
فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ قَدْ أَهْدَيْتِي إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ أَهْلَ الصُّفَّةِ.

قَالَ: فَقُلْتُ: مَا هَذَا اللَّبَنُ فِيهِمْ؟ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْهُ شَرِبَةً أَنْقَوَى بِهَا.
فَدَعَوْتُهُمْ.

وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يزوي، ثم يأخذه الآخر حتى زوي جميعهم.

قال: فأخذ النبي ﷺ القَدَحَ، وقال: «بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب» فشربت، ثم قال: «اشرب» وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلماً؛ فأخذ القَدَحَ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة [البخاري (٦٤٥٢)].

٧٢٣ - وفي حديث خالد بن عبد العزى أنه أجزر النبي ﷺ شاةً وكان عيالاً خالد كثيراً، يذبح الشاة فلا تُبد عياله، عَظْماً عَظْماً؛ وإن النبي ﷺ أكل من هذه الشاة، وجعل فضلتها في ذلِّ خالد، ودعا له بالبركة، فنثر ذلك لعياله، فأكلوا وأفضلوا، ذكر خبره الدُّولابي.

٧٢٤ - وفي حديث الأجرى في إنكاح النبي ﷺ لعلِّي فاطمة، أن النبي ﷺ أمر بلالاً بقضعة من أربعة أمداد أو خمسة، ويذبح جزوراً لوليمتها قال: فأتيته بذلك، فطعن في رأسها، ثم أدخل الناس رُقعة رُقعة، يأكلون منها حتى قرعوا، وبقيت منها فضلة؛ فبرك فيها، وأمر بحملها إلى أزواجه؛ وقال: «كلن وأطعنن من عَشِيكن».

٧٢٥ - وفي حديث أنس: تزوج رسول الله ﷺ، فصنعت أُمِّي: أُم سُلَيْم حَيْساً، فجعلته في تَوْرٍ، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: «ضغ، واذغ لي فلاتاً وفلاتاً، ومن لقيت».

فدعوتهم، ولم أذغ أحداً لقيته إلا دعوته؛ وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاث مئة حتى ملؤوا الصُفَّةَ والحُجرة، فقال لهم النبي ﷺ: «تحلقوا عشرةَ عشرة»، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول؛ فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: «ارفع» فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت [البخاري (٥١٦٣)، مسلم (٩٤/١٤٢٨)].

وأكثرُ أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح. وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا يتعد بعدهم.

وأكثرها في قصص مشهورة، ومَجَامِع مشهودة؛ ولا يمكنُ التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها.

فصل

فِي كَلَامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالنَّبُوءَةِ وَإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ

٧٣٦ - أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَلْبُونٍ، الشَّيْخُ الصَّالِحُ، فِيمَا أَجَازَنِيهِ، عَنْ أَبِي عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْمُهَنْدَسِ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْبَغَوِيِّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِمْرَانَ الْأَخْنَسِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ - وَكَانَ صَدُوقاً - عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَدَنَا مِنْهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «يَا أَعْرَابِيُّ! أَيْنَ تَرِيدُ؟» قَالَ: إِلَى أَهْلِي. قَالَ: «هَلْ لَكَ إِلَى خَيْرٍ؟» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ: السَّمُرَةُ، وَهِيَ بِشَاطِئِ الْوَادِي، وَادِعَهَا فَإِنَّهَا تُجَبِّحُ».

فَأَقْبَلْتُ تَخَذُ الْأَرْضَ حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثًا، فَشَهِدَتْ أَنَّهُ كَمَا قَالَ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا.

٧٣٧ - وَعَنْ بُرَيْدَةَ: سَأَلَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَقَالَ لَهُ: «قُلْ لِنَاكَ الشَّجَرَةُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوكَ».

قَالَ: فَمَالَتِ الشَّجَرَةُ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا وَبَيْنَ يَدَيْهَا وَخَلْفَهَا، فَتَقَطَّعَتْ عُرُوقَهَا، ثُمَّ جَاءَتْ تَخَذُ الْأَرْضَ تَجْرُ عُرُوقَهَا مُغْبِرَةً، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: مُرَّهَا فَلْتَرْجِعْ إِلَى مَنَبَتِهَا، فَرَجَعْتُ، فَدَلَّتْ عُرُوقَهَا فِي ذَلِكَ فَاسْتَوَتْ.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: ائْذَنْ لِي أَسْجُدَ لَكَ.

قَالَ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِرُؤُوسِهَا».

قَالَ: فَأَذَّنَ لِي أَنْ أَقْبَلَ يَدَيْكَ وَرِجْلَيْكَ، فَأَذَّنَ لَهُ.

٧٣٨ - وَفِي الصَّحِيحِ - فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، الطَّوِيلِ: ذَهَبَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْضِي حَاجَتَهُ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا بِشَجَرَتَيْنِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بَعْضَ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: «إِنْقَادِي عَلَيَّ يَا ذَنْ اللَّهِ» فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ.

وَذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَ بِالْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَبِ بَيْنَهُمَا قَالَ:

«التَّيْمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ» فَالتَّامَتَا - وفي رواية أخرى: فقال: «يا جابرًا قُلْ لهذه الشجرة: يقول لك رسول الله ﷺ: الْحَقِّي بِصَاحِبَتِكَ حَتَّى أَجْلِسَ خَلْفَكُمَا» ففعلتُ، فزَحَفْتُ حَتَّى لَجِجْتُ بِصَاحِبَتِهَا فَجَلَسَ خَلْفَهُمَا - فخرجتُ أَحْضِرُ، وَجَلَسْتُ أَحْدُثُ نَفْسِي، فَالتَفْتُ فَإِذَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا وَالشَّجَرَتَانِ قَدْ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَفَةً، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هكَذَا يَمِينًا وَشِمَالًا [مسلم (٣٠١٢)].

٧٣٩ - وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ نَحْوَهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ: «هَلْ؟» يَعْنِي مَكَانًا لِحَاجَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنْ الْوَادِي مَا فِيهِ مَوْضِعٌ بِالنَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَرَى مِنْ نَخْلٍ أَوْ حِجَارَةٍ؟» قُلْتُ: أَرَى نَخْلَاتٍ مُتَقَارِبَاتٍ. قَالَ: «انْطَلِقْ وَقُلْ لَهُنَّ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْتِينَ لِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقُلْ لِلْحِجَارَةِ مِثْلَ ذَلِكَ».

فَقُلْتُ ذَلِكَ لَهُنَّ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ! لَقَدْ رَأَيْتُ النَخْلَاتِ يَتَقَارِبْنَ حَتَّى اجْتَمَعْنَ، وَالْحِجَارَةُ يَتَعَاقَدْنَ حَتَّى صِرْنَ زُكَامًا، فَجَلَسَ خَلْفَهُنَّ. فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ قَالَ لِي: «قُلْ لَهُنَّ يَفْتَرِقْنَ» فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَرَأَيْتُهُنَّ وَالْحِجَارَةُ يَفْتَرِقْنَ حَتَّى عُذْنَ إِلَى مَوَاضِعِهِنَّ.

٧٤٠ - وَقَالَ يَغْلَى بْنُ سَيَابَةَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ... وَذَكَرَ نَحْوًا مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ، وَذَكَرَ: فَأَمَرَ وَدَيْتَيْنِ فَأَنْضَمَّتَا [أحمد (١٧٢/٤)].

٧٤١ - وفي رواية: أَشَاءَتَيْنِ.

٧٤٢ - وعن غِيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ مِثْلَهُ، فِي شَجَرَتَيْنِ.

٧٤٣ - وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، مِثْلَهُ، فِي غَزَاةِ حُتَيْنِ.

٧٤٤ - وعن يَغْلَى بْنِ مُرَّةٍ - وَهُوَ ابْنُ سَيَابَةَ - أَيْضًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ رَأَاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّ طَلْحَةَ - أَوْ سُمُرَةَ - جَاءَتْ فَأُطَافَتْ بِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَثَبَتِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنهَا اسْتَأْذَنْتُ أَنْ تَسْلَمَ عَلَيَّ» [أحمد (١٧٣/٤)].

٧٤٥ - وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَذْنَتِ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنِّ، لَيْلَةً اسْتَمَعُوا لَهُ، شَجَرَةٌ [البخاري (٣٨٥٩)، مسلم (٤٥٠)].

٧٤٦ - وعن مجاهد، عن ابن مسعود في هذا الحديث: أَنَّ الْجَنِّ قَالُوا: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ قَالَ: «هَذِهِ الشَّجَرَةُ، تَعَالَنِي يَا شَجَرَةُ!»، فَجَاءَتْ تَجِرُّ غُرُوقَهَا لَهَا فَعَاقَقَ.

وَذَكَرَ مِثْلَ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَوْ نَحْوَهُ.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا ابنُ عُمَرَ، وَبُرَيْدَةُ، وجابرٌ، وابن مسعود،
وَيَغْلَى بن مَرَّة، وأَسَامَةُ بن زيد، وأنس بن مالك. وعليّ بن أبي طالب، وابنُ
عبّاس، وغيرهم قد اتفقوا على هذه القِصَّة نَفْسِها أو معناها.

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافُهم، فصارت في انتشارها من القوة حيث
هي.

وذكر ابن فُوزَك أنه ﷺ سَارَ في غَزْوَةِ الطائف ليلاً، وهو وَبِشٌّ، فاعترضته
مَيْدَرَةٌ، فانفجرت له بَصْفَيْنِ حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا،
وهي هناك معروفة مُعْظَمَةٌ.

٧٤٧ - ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه: أن جبريلَ عليه السلام قال
للنبي ﷺ - ورآه حَزِيناً -: «أُتِجِبُ أَنْ أريك آية؟» قال: «نعم» فنظر رسول الله ﷺ
إلى شجرةٍ مِنْ وراءِ الوادي، فقال: ادْعُ تلك الشجرة، فجاءت تمشي حتى قامت
بين يديه.

قال: مُرَّها فلترجع، فعادت إلى مكانها [أحمد (١١٣/٣)، ابن ماجه (٤٠٢٨)].
٧٤٨ - وعن عليّ نخو هذا، ولم يذكر فيها جبريل، قال: «اللهم! أرني آية
لا أبالي مَنْ كَذَبَنِي بَعْدَهَا» فدعا شجرة... وذكر مثله. وَحُزْنُهُ ﷺ لِنَكْذِبِ
قومه، وَطَلَبُهُ الْآيَةَ لَهُمْ، لا لَهُ.

٧٤٩ - وذكر ابنُ إسحاق أن النبي ﷺ أَرَى رُكَّانَةً مِثْلَ هذه الآية في شجرة
وعاما فأتت حتى وقفت بين يديه، ثم قال: «ارجعي» فَرَجَعَتْ.

٧٥٠ - وعن الحسن أنه - عليه السلام - شكَا إلى رَبِّهِ من قَوْمِهِ وأنهم
يخوفونه، وسأله آيةً يَعلِّمُ بها أَنَّ لا مَخَافَةَ عليه، فأوحى الله إليه: أن ائتِ وادي
كذا، فيه شجرة، فاذْغُ غُصْنًا منها يَأْتِك. ففعل، فجاء يَخْطُ الأرض خطأ حتى
انتصب بين يَدَيْهِ، فحبسه ما شاء الله، ثم قال له: «ارجع كما جئت» فرجع،
فقال: «يا رب! علمتُ أن لا مَخَافَةَ عليّ».

٧٥١ - ونحوُ منه عن عُمَرَ، وقال فيه: «أرني آية لا أبالي مَنْ كَلَبَنِي
بعدها...» وذكر نحوه.

٧٥٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال لأَعْرَابِيٍّ: «أرايت إن
دعوتُ هذا العَلَقَ مِنْ هذه النخلة أنشهدَ أني رسولُ الله؟» قال: نعم، فدعاه فجعل
يَتَقَرَّزُ، حتى أتاه. فقال: «ارجع» فعادَ إلى مكانه [الترمذي (٣٦٢٨)].

وخزجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ صحيح.

فصل

فِي قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذَعِ

٧٥٣ وحتى ٧٦٢ - وَيَعْضُدُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ حَدِيثُ حَنِينِ الْجَذَعِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشْهُورٌ مُنْتَشَرٌ، وَالْحَبَرُ بِهِ مُتَوَاتِرٌ، قَدْ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ [البخاري (٣٧٧)، مسلم (٥٤٤)]، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بَضْعَةُ عَشَرَ، مِنْهُمْ: أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَبُرَيْدَةُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ، كُلُّهُمْ يُحَدِّثُ بِمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ [ابن ماجه (١٤١٤)، أحمد (١٣٧/٥) البخاري (٩١٨)].

قال الترمذي: وحديث أنس صحيح.

٧٦٣ - قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار.

٧٦٤ - وفي رواية أنس: حتى ارتج المسجد بخواره.

٧٦٥ - وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به.

٧٦٦ - وفي رواية المطلب، وأبي: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت.

٧٦٧ - زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ» [أحمد (٣٠٠/٣)].

٧٦٨ - وَزَادَ غَيْرُهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْزِناً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدُفِنَ تَحْتَ الْمِنْبَرِ.

كذا في حديث المطلب، وسهل بن سعد، وإسحاق عن أنس.

٧٦٩ - وفي بعض الروايات عن سهل: فَدُفِنَتْ تَحْتَ مَنْبَرِهِ، أَوْ جُعِلَتْ فِي السَّقْفِ.

٧٧٠ - وفي حديث أبي: فكان إذا صلى النبي ﷺ صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض، وعاد رفاتاً.

وذكر الإسفراييني أن النبي ﷺ دعاه إلى نفسه، فجاء يخرق الأرض، فالتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه.

٧٧١ - وفي حديث بُرَيْدَةَ: فَقَالَ - يَغْنِي: النَّبِيُّ ﷺ -: «إِنْ شِئْتَ أَرُدُّكَ إِلَى

الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقتك، ونكمل خلقك، ويجدد لك خوص
وثمره، وإن شئت أغرسك في الجنة، فياكل أولياء الله من ثمرك». ثم أصغى له
النبي ﷺ يستمع ما يقول.

فقال: بل تغرسني في الجنة، فياكل مني أولياء الله، وأكون في مكان لا
أبلى فيه.

فسمعه من يليه.

فقال النبي ﷺ: «قد فعلت» ثم قال: «اختر دار البقاء على دار الفناء».

٧٧٢ - فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله! الخشب تجن
إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

رواه عن جابر: حفص بن غبيد الله - ويقال: غبيد الله بن حفص - وأيمن،
وأبو نضرة، وابن المسيب، وسعيد بن أبي كريب، وكريب، وأبو صالح.

ورواه عن أنس بن مالك: الحسن، وثابت، وإسحاق بن أبي طلحة.

ورواه عن ابن عمر: نافع، وأبو حية.

ورواه أبو نضرة، وأبو الوداك، عن أبي سعيد.

وعمار بن أبي عمار، عن ابن عباس.

وأبو حازم، وعباس بن سهل بن سعد، عن سهل بن سعد.

وكثير بن زيد عن المطلب.

وعبد الله بن بريدة عن أبيه.

والطفيل بن أبي، عن أبيه.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: فهذا حديث كما تراه خرجه أهل الصحة،

ورواه من الصحابة من ذكرنا، وغيرهم من التابعين ضعفهم، إلى من لم نذكره، ومن

دون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب. والله الميث على الصواب.

فصل

في منجزات أخرى للنبي ﷺ في سائر الجمادات كتسبيح الطعام وتسليم الحجر

ومثل هذا في سائر الجمادات:

٧٧٣ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عيسى التميمي، حدثنا القاضي

أبو عبد الله: محمد بن المرباط، حدثنا المهلب: أبو القاسم، حدثنا أبو الحسن

القائسي، حدثنا المَرْزُوبِيُّ، حدثنا الْقَزَيْرِيُّ، حدثنا الْبُخَارِيُّ، حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيُّ، حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عَنْ عَلْقَمَةَ، عن عبد الله بن مسعود قال: لقد كنا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ [البخاري (٣٥٧٩)].

٧٧٤ - وفي غير هذه الرواية، عن ابن مسعود: كُنَّا نَأْكُلُ مع رسول الله ﷺ الطَّعَامَ ونَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ [الترمذي (٣٦٣٣)].

٧٧٥ - وقال أنس: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ كَفًّا مِنْ حَصَى، فَسَبَّخَنَ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَوَّغْنَا التَّسْبِيحَ، ثُمَّ صَبَّهْنُ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَبَّخَنَ، ثُمَّ فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّخَنَ.

٧٧٦ - وَرَوَى مِثْلَهُ أَبُو ذَرٍّ، وَذَكَرَ أَنَّهُنَّ سَبَّخَنَ فِي كَفِّ عُمر وَعُثْمَانَ.

٧٧٧ - وقال علي: كُنَّا بِمَكَّةَ مع رسول الله ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرَةٌ وَلَا جَبَلٌ إِلَّا قَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! [الترمذي (٣٦٢٦)].

٧٧٨ - وعن جابر بن سَمُرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يَسْلُمُ عَلَيَّ» [مسلم (٢٢٧٧)]. قِيلَ: إِنَّهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ.

٧٧٩ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا اسْتَقْبَلَنِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرَّسَالَةِ جَعَلْتُ لَا أَمْرَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ!».

٧٨٠ - وعن جابر بن عبد الله: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَجَدَ لَهُ.

٧٨١ - وفي حديث العباس، إِذْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى بَنِيهِ، بِمَلَأَةِ، وَدَعَا لَهُمُ بِالسَّخْرِ مِنَ النَّارِ كَسَّخَرَهُ لِيَاهِمُ بِمَلَأَتِهِ، فَأَمَّنْتُ أَسْكُفَةَ الْبَابِ وَحَوَائِطَ الْبَيْتِ: آمِينَ، آمِينَ.

٧٨٢ - وعن جعفر بن محمد، عَنْ أَبِيهِ: مَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِطَبَقٍ فِيهِ رُمَانٌ وَعِنَبٌ، فَأَكَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَبَّخَ.

٧٨٣ - وعن أنس: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، أَخَذُوا فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ: «أَثْبِتْ أَخَذْ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ» [البخاري (٣٦٧٥)].

٧٨٤ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي حِرَاءٍ، وَزَادَ: مَعَهُ عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَقَالَ: «إِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ» [مسلم (٢٤١٧)].

٧٨٥ - والخبرُ في جزاء أيضاً عن عثمان، قال: ومعه عشرةٌ من أصحابه أنا فيهم.

وزاد: عبد الرحمن، وسعداً، قال: ونسيْتُ الاثنين [الترمذي (٣٦٩٩)، النسائي (٢٣٦/٦)].

٧٨٦ - وفي حديث سَعِيد بن زَيْد أيضاً مثله، وذكر عشرة، وزاد نفسه [ابو داود (٤٦٤٨، ٤٦٤٩، ٤٦٥٠)، الترمذي (٣٧٥٧)، ابن ماجه (١٣٤)].

٧٨٧ - وقد رُوِيَ أَنه حين طلبته قُرَيْش قال له يُبَيْرُ: اهْبِطْ يا رسول الله! فإني أخافُ أن يقتلوك على ظَهْرِي فبعذِبنِي الله.

فقال له جزاء: إني يا رسول الله!

٧٨٨ - وعن ابن عُمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ: قرأ على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: «يَمَجِّدُ الْجَبَّارُ نَفْسَهُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى»، فَرَجَفَ الْمَنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَجْرُنَّ عَنْهُ [أحمد (٧٢/٢)، البخاري (٧٤١٢)، مسلم (٢٥٠/٢٧٨٨)].

٧٨٩ - وعن ابن عباس: كان حول البيتِ ستون وثلاث مئة صنم مُثَبَّتةُ الأرجل بالرصاص في الحجارة، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يُشير بقضيب في يده إليها ولا يمسهَا، ويقول: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فما أشار إلى وجه صنمٍ إلا وقع لِقْفَاءً، ولا لِقْفَاءً إلا وقع لَوَجْهِهِ، حتى ما بقي منها صنمٌ.

٧٩٠ - ومثله في حديث ابن مسعود، وقال: فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا ويقول: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩] [البخاري (٤٢٨٧)، مسلم (١٧٨١)].

٧٩١ - ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره [الترمذي (٣٦٢٠)]، إذ خرج تاجراً مع عمه، وكان الراهب لا يخرج لأحدٍ، فخرج وجعل يتخلَّلُهم، حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيدُ العالمين، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحِمَةً للعالمين.

فقال له أشياخ من قُرَيْش: ما علمُكَ؟ فقال: إنه لم يبقَ شجرٌ ولا حَجَرٌ إلا خَرَّ ساجداً له، ولا يسجدُ إلا لِنبيي... وذكر القصة، ثم قال: وأقبل ﷺ وعليه عَمَامَةٌ تَظْلُهُ، فلما دنا من القوم، وجدهم سبقوه إلى فيءِ الشجرة، فلما جلس، مال الفئءُ إليه.

فصل

فِي الْآيَاتِ فِي ضُرُوبِ الْخَيَوَانَاتِ

٧٩٢ - حدثنا سراج بن عبد الملك: أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبي، حدثنا القاضي يونس، قال حدثنا أبو الفضل الصُّقْلِي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده، قالا: حدثنا أبو العلاء: أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو، حدثنا مُجاهد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا ذاجِرٌ، فإذا كان عندنا رسولُ الله ﷺ قرأ وثبت مكانه، فلم يجيء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب [أحمد (١١٢/٦)، ١٥٠، ٢٠٩].

٧٩٣ - ورؤي عن عُمَرَ أَنَّ رسول الله ﷺ كان في مخفيل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صادَ ضَبًّا، فقال: من هذا؟ قالوا: نبيُّ الله. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى! لا آمنتُ بك أو يؤمِّن بك هذا الضُّبُّ، وطرحه بين يدي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «يا ضَبُّ!»، فأجابه بلسانٍ مُبينٍ يَسْمَعُهُ القومُ جميعاً: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا زَيْنَ مَنْ وَافَى الْقِيَامَةَ.

قال: «مَنْ تَغْبِذُ؟» قال: الذي في السماء عَرَشُهُ، وفي الأرضِ سُلْطَانُهُ، وفي البحرِ سَيْلُهُ، وفي الجنةِ رَحْمَتُهُ، وفي النارِ عِقَابُهُ.

قال: «فمَنْ أَنَا؟» قال: رسولُ رَبِّ العالمين، وخاتِمُ النبيين، وقد أفلحَ مَنْ صَدَّقَكَ، وخابَ مَنْ كَذَّبَكَ، فأسلم الأعرابي.

٧٩٤ - ومن ذلك قصةُ كلامِ الذُّبِّ المشهورةُ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ: بينما راع يَزْعَى غَنَمًا له، عَرَضَ الذُّبُّ لَشَاةٍ منها، فأخذها الرَّاعي منه، فأقْعَى الذُّبُّ، وقال للرَّاعي: ألا تَتَّقِي الله! حُلْتُ بيني وبينَ رِزْقِي!

قال الرَّاعي: العَجَبُ من ذُبِّ يَتَكَلَّمُ بكلامِ الإنس! فقال الذُّبُّ: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ رسولُ الله ﷺ بين الحَرَّتَيْنِ يحدث الناسَ بأبناء ما قد سَبَقَ.

فأتى الرَّاعي النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «قُمْ فَحَدِّثْهُمْ»، ثم قال: «صَدَقَ» [أحمد (٨٣/٣)، ٨٤].

والحديث فيه قصةٌ، وفي بعضه طُول.

٧٩٥ - ورؤي حديثُ الذُّبِّ عن أبي هريرة. وفي بعض الطُّرُق عن أبي هريرة رضي الله عنه: فقال الذُّبُّ: أنت أعَجِبُ واقفاً على غَنَمِكَ، وتركتَ نبيًّا لم يَبْعَثْ الله قَطُّ نبيًّا أعظمَ منه عنده قَدْرًا، قد

فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَأَشْرَفَ أَهْلُهَا عَلَى أَصْحَابِهِ، يَنْظُرُونَ قِتَالَهُمْ، وَمَا بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ إِلَّا هَذَا الشَّعْبُ، فَتَصِيرُ فِي جُنُودِ اللَّهِ!

قال الراعي: مَنْ لِي بِغَنَمِي؟ قال الذئب: أنا أُرْعَاهَا حَتَّى تَرْجِعَ.

فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ غَنَمَهُ وَمَضَى.

وَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَإِسْلَامَهُ وَوُجُودَهُ النَّبِيِّ ﷺ يُقَاتِلُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عُدْ إِلَى
غَنَمِكَ تَجِدُهَا بِوَفْرٍهَا».

فَوَجَدَهَا كَذَلِكَ، وَذَبَحَ لِلذَّئْبِ شَاةً مِنْهَا [أحمد (٣٠٦/٢)].

٧٩٦ - وعن أَهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ: وَأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالْمَحْدُثُ بِهَا،
وَمَكَلَّمُ الذَّئْبِ.

٧٩٧ - وعن سلمة بن عمرو بن الأَكْوَعِ: أَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَيْضاً،
وَسَبَبَ إِسْلَامِهِ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

٧٩٨ - وقد رَوَى ابْنُ وَهْبٍ مِثْلَ هَذَا أَنَّهُ جَرَى لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَزْبٍ،
وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، مَعَ ذئبٍ وَجَدَاهُ أَخَذَ ظَنَبِيَّاً، فَدَخَلَ الظَّنْبِيُّ الْحَرَمَ، فَانصَرَفَ
الذئبُ، فَعَجِبَا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ الذئبُ: أَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
بِالْمَدِينَةِ، يَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَتَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ.

فقال أبو سُفْيَانَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى! لَنْ ذَكَرْتُ هَذَا بِمَكَّةَ لَتَرَكْتُهَا خُلُوفاً.

وقد رَوَى بِمِثْلِ هَذَا الْحَبْرُ، وَأَنَّهُ جَرَى لِأَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ.

٧٩٩ - وعن عباس بن مرداس: لَمَّا تَعَجَّبَ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ: صَنِيمِ،
وَأَنشأهُ الشَّعْرَ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فإِذَا طَائِرٌ سَقَطَ، فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ!
أَتَعْجَبُ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ، وَلَا تَعْجَبُ مِنْ نَفْسِكَ؟ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو إِلَى
الْإِسْلَامِ وَأَنْتَ جَالِسٌ؟ فَكَانَ سَبَبَ إِسْلَامِهِ.

٨٠٠ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رجل أتى النَّبِيَّ ﷺ
وَأَمَّنَ بِهِ وَهُوَ عَلَى بَعْضِ حَصُونِ خَيْبَرَ، وَكَانَ فِي غَنَمٍ يَرْعَاهَا لَهُمْ فَقَالَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ بِالْغَنَمِ؟ قَالَ: «أَخْصِبْ وَجُوهَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ أَمَانَتَكَ،
وَيُرُدُّهَا إِلَى أَهْلِهَا».

فَفَعَلَ، فَسَارَتْ كُلُّ شَاةٍ حَتَّى دَخَلَتْ إِلَى أَهْلِهَا.

٨٠١ - وعن أنس رضي الله عنه دخل النَّبِيُّ ﷺ حَائِطَ أَنْصَارِيٍّ، وَأَبُو بَكْرٍ،
وَعُمَرُ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَفِي الْحَائِطِ غَنَمٌ فَسَجَدَتْ لَهُ. فَقَالَ
أَبُو بَكْرٍ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ لَكَ مِنْهَا. . . الْحَدِيثُ [أحمد (١٥٨/٣) - (١٥٩)].

٨٠٢ - وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: دخل النبي ﷺ حائطاً، فجاء بعيرٌ فسجد له، وذكر مثله.

٨٠٣ وحتى ٨٠٦ - ومثله في الجَمَلِ، عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبد الله [أحمد (٣١٠/٣)]، ويَعْلَى بن مُرَّة [أحمد (١٧٠/٤) - ١٧٢]، وعبد الله بن جعفر [أحمد (٣١٠/٣)]، أبو داود (٢٥٤٩)، قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شُدَّ عليه الجَمَلُ، فلما دخل عليه النبي ﷺ دَعَاهُ، فوضع مِشْقَرَهُ، على الأرض، وبَرَكَ بين يديه، فخطمه، وقال: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا يَفْلَحُنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَاصِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ».

٨٠٧ - ومثله عن عَبْدِ اللَّهِ بن أَبِي أَوْفَى.

٨٠٧ م - وفي خبر آخر في حديثِ الجَمَلِ أَنَّ النبي ﷺ سَأَلَهُمْ عَنْ شَأْنِهِ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَبْحَهُ.

وفي رواية: أَنَّ النبي ﷺ قَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ شَكَا كَثْرَةَ الْعَمَلِ، وَقِلَّةَ الْعَلَفِ». وفي رواية: «أَنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنْكُمْ أَرَدْتُمْ ذَبْحَهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَعْمَلْتُمُوهُ فِي شَأْنِ الْعَمَلِ مِنْ صَفَرِهِ» فَقَالُوا: نَعَمْ.

٨٠٨ - وقد رَوَى فِي قِصَّةِ الْعُضْبَاءِ وَكَلَامِهَا النَّبِيَّ ﷺ، وَتَعْرِيفِهَا لَهُ بِنَفْسِهَا، وَمُبَادَرَةِ الْعُشْبِ إِلَيْهَا فِي الرُّغْيِ، وَتَجَنُّبِ الْوَحُوشِ عَنْهَا، وَنِدَائِهِمْ لَهَا: إِنَّكَ لِمُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُ لَمْ تَأْكُلْ وَلَمْ تَشْرَبْ بَعْدَ مَوْتِهِ حَتَّى مَاتَتْ. ذَكَرَهُ الْإِسْفَرَايِينِي.

٨٠٩ - وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ، أَنَّ حَمَامَ مَكَّةَ أَظَلَّتِ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِهَا، فَدَعَا لَهَا بِالْبِرْكَ.

٨١٠ - وَزَوَى عَنْ أَنَسٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، وَالْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَيْلَةَ الْغَارِ أَمَرَ اللَّهُ شَجَرَةً، فَنبَتَتْ ثُجَّةً النَّبِيَّ ﷺ فَسْتَرَتْهُ، وَأَمَرَ حَمَامَتَيْنِ فَوَقَفَتَا بِقَمِ الْغَارِ.

٨١٠ م - وفي حديثٍ آخَرَ: وَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ نَسَجَتْ عَلَى بَابِهِ [أحمد (٣٤٨/١)]، فَلَمَّا أَتَى الطَّالِبُونَ لَهُ، وَرَأَوْا ذَلِكَ، قَالُوا: لَوْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ لَمْ تَكُنِ الْحَمَامَتَانِ بِيَابِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ، فَانصَرَفُوا.

٨١١ - وعن عَبْدِ اللَّهِ بن قُرْطُ: قُرَّبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدَنَاتٌ خَمْسُ أَوْ سِتُّ أَوْ سَبْعٌ، لِيُنَحَّرَهَا يَوْمَ عِيدٍ، فَازْدَلْفَنَ إِلَيْهِ بِأَيْتِهِنَّ يَبْدُو [أبو داود (١٧٦٥)]، أحمد (٣٥٠/٤).

٨١٢ - وعن أُمِّ سَلَمَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَحْرَاءٍ، فَنَادَتْهُ ظَبْيَةٌ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا حَاجَتُكَ؟» قَالَتْ: صَادَنِي هَذَا الْأَعْرَابِيُّ، وَلِي خِشْفَانٍ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَأَطْلِقْنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَرْضِعَهُمَا وَأَرْجِعَ.

قال: «وَتَفْعَلِينَ؟» قالت: نعم. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله! ألك حاجة؟ قال: «تطلق هذه الظبية» فأطلقها فخرجت تَعْدُو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

٨١٣ - وفي هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة: مولى رسول الله ﷺ، إذ وجهه إلى مُعَاذٍ بِالْيَمَنِ، فَلَقِيَ الأسدَ فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهنهم وتنخى عن الطريق، وذكر في مُنْصَرَفِهِ مثْلَ ذلك.

٨١٤ - وفي رواية أخرى عنه: أن سفينة تكسرت به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، فقلت له: أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يَغْمِزُنِي بِمَنْكِبِهِ حتى أقامني على الطريق.

٨١٥ - وأخذ - عليه السلام - بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصبعيه، ثم خلاها فصار لها ميسماً، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد.

٨١٦ - وما روي عن إبراهيم بن حَمَادٍ بسنده من كلام الجمار الذي أصابه بخيبر، وقال له: اسمي يزيد بن شهاب.

فسماه النبي ﷺ يَغْفُوراً، وأنه كان يوجهه إلى دُور أصحابه، فيضرب عليهم الباب برأيه، ويستدعيهم، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر، جَزَعاً وحُزْناً، فمات.

٨١٧ - وحديث الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها، وأنها ملكه.

٨١٨ - وفي حديث العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء، وهم زهاء ثلاث مئة فحلبها رسول الله ﷺ، فَأَزَوَى الْجُنْدُ، ثم قال لرافع: «أَمْلِكْهَا وَمَا أَرَاكَ» فربطها فوجدها قد انطلقت.

رواه ابن قانع وغيره، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها».

٨١٩ - وقال لفرسه، عليه السلام - وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره -: «لا تبرخ، بارك الله فيك، حتى تفرغ من صلاتنا» وجعله قبلته، فما حرك عضواً منه حتى صلى ﷺ.

٨٢٠ - ويلتحق بهذا ما رواه الواقدي: أن النبي ﷺ لما وجه رسله إلى

الملوك، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجلٍ منهم يتكلم بلسانِ القوم الذين بعثه إليهم.

والحديث في هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور من ذلك وما وقع منه في كُتُب الأئمة.

فصل

فِي إِيْتَاءِ الْمَوْتَى وَكَلَامِهِمْ، وَكَلَامِ الضَّيَّانِ وَالْمَرَضِ وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالنَّبُوءَةِ ﷺ

٨٢١ - حدثنا أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، والقاضي أبو الوليد: محمد بن رُشد، والقاضي أبو عبد الله: محمد بن عيسى التميمي، وغير واحدٍ سماعاً وإدناً، قالوا: حدثنا أبو علي الحافظ قال: حدثنا أبو عُمر الحافظ، حدثنا أبو زيد: عبد الرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن الأعرابي، حدثنا أبو داود، حدثنا وهب بن بَقِيَّة، عن خالد - هو الطَّحَّان - عن محمد بن عَمْرٍو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرة: أَنَّ يَهُودِيَّةً أَهْدَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِخَيْرِ شَاةٍ مَضْلِيَّةٍ سَمَنَتْهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ». فَمَاتَ بِشَرِّ الْبَرَاءِ.

وقال لليهودية: «ما حملك على ما صَنَعْتَ؟» وقالت: إِنَّ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا فُقِّتِلَتْ [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٢٢ - وقد رَوَى هذا الحديث أَنَسُ، وفيه: قالت: أَرَدْتُ قَتْلَكَ. فقال: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَسْلُطَكَ عَلَى ذَلِكَ». فقالوا: نَقَلْتَهَا؟

قال: «لَا» [البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠)].

٨٢٣ - وكذلك رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - مِنْ حَدِيثِ غَيْرِ وَهْبٍ - قَالَ: فَمَا عَرَضَ لَهَا [البخاري (٤٢٤٩)، أبو داود (٤٥٠٩)].

٨٢٤ - وَرَوَاهُ أَيْضاً جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَفِيهِ: «أَخْبَرَتْنِي بِهِ هَذِهِ الذَّرَاعُ» قَالَ: وَلَمْ يَمَاقِبْهَا [أبو داود (٤٥١٠)].

٨٢٥ - وَفِي رِوَايَةِ الْحَسَنِ: «أَنْ فِجَذَهَا تَكَلَّمَنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ».

٨٢٦ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَتْ: «إِنِّي مَسْمُومَةٌ» [أبو داود

[(٤٥١٢)].

٨٢٧ - وكذلك ذكر الخَبَرُ ابنُ إسحاق، وقال فيه: فتجاوز عنها.

٨٢٨ - وفي الحديث الآخر، عن أنس أنه قال: فما زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

٨٢٩ - وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «مَا زِلْتُ أَكَلَّةُ خَيْرٍ تُعَادُنِي، فَلَا أَنْ أَوْلَانِ قَطَعْتَ أَبْهَرِي» [أبو داود (٤٥١٢)].

٨٣٠ - وحكى ابنُ إسحاق: إِنَّ كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَيُرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ شَهِيداً مَعَ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبَوَّةِ.

وقال ابنُ سَخْنُونٍ: أَجْمَعَ أَهْلُ الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ الْيَهُودِيَّةَ الَّتِي سَمَّيْتُهَا.

وقد ذكرنا اختلافَ الرُّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَنْسَ، وَجَابِرٍ.

٨٣١ - وفي رواية ابنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ دَفَعَهَا لِأَوْلِيَاءِ بَشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ فَقَتَلُوهَا.

وكذلك قد اختلفَ فِي قَتْلِهِ لِلَّذِي سَحَرَهُ، قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَعَقُوهُ عَنْهُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَتَلَهُ.

٨٣٢ - وَرَوَى الْحَدِيثَ الْبَزَّازُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، فَذَكَرَ مَثْلَهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: فَبَسَطَ يَدَهُ وَقَالَ: «كُلُّوْا، بِاسْمِ اللَّهِ» فَأَكَلْنَا، وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ، فَلَمْ تَضُرَّ مِنَّا أَحَدًا.

قال القاضي أَبُو الْفَضْلِ: وَقَدْ خَرَجَ حَدِيثُ الشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ أَهْلُ الصَّحِيحِ، وَخَرَجَ الْأَنْعَمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ.

واختلف أئمة أهل النظرِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ: هُوَ كَلَامٌ يَخْلُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّاةِ الْمَيِّتَةِ، أَوِ الْحَجَرِ أَوِ الشَّجَرِ، وَحُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ يَحْدِثُهَا اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا وَيُسْمِعُهَا مِنْهَا دُونَ تَغْيِيرِ أَشْكَالِهَا، وَتَقْلِيلِهَا عَنْ هَيْئَتِهَا. وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ، وَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ رَجَمَهُمَا اللَّهُ.

وآخَرُونَ ذَهَبُوا إِلَى إِيجَادِ الْحَيَاةِ بِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ الْكَلَامَ بَعْدَهُ. وَحُكِيَ هَذَا أَيْضًا عَنْ شَيْخِنَا أَبِي الْحَسَنِ، وَكُلٌّ مُحْتَمَلٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِذْ لَمْ نَجْعَلِ الْحَيَاةَ شَرْطًا لَوْجُودِ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ، إِذْ لَا يَسْتَحِيلُ وَجُودُهَا مَعَ عَدَمِ الْحَيَاةِ بِمَجَرَّدِهَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ عِبَارَةً عَنِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ فَلَا بَدَّ مِنْ شَرْطِ الْحَيَاةِ لَهَا، إِذْ لَا يَوْجَدُ كَلَامُ النَّفْسِ إِلَّا مِنْ حَيٍّ، خِلَافًا لِلْجُبَائِيٍّ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مُتَكَلِّمِي الْفِرَقِ فِي

إِحَالَتِهِ وَجُودَ الْكَلَامِ اللَّفْظِيِّ وَالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ مَرْكَبٌ عَلَى تَرْكِيبٍ مَنْ يَصِيحُ مِنْهُ النَّطْقُ بِالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ.

والتزم ذلك في الحصص، والجذع، والنراع، وقال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِيهَا حَيَاةً، وَخَرَقَ لَهَا فَمَاءً، وَلِسَانًا، وَأَلَّةً أَمَكْنَهَا بِهَا مِنَ الْكَلَامِ.

وهذا لو كان، لَكَانَ ثَقُلَهُ وَالتَّهْمُ بِهِ أَكْثَرُ مِنَ التَّهْمِ بِثَقُلِ تَسْيِيحِهِ أَوْ خَيْبَتِهِ، وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّيْرِ وَالرَّوَايَةِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَدَلَّ عَلَى سَقُوطِ دَعْوَاهُ، مَعَ أَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ فِي النَّظَرِ، وَالْمَوْفُوقِ اللَّهِ.

٨٣٣ - وَرَوَى وَكِيعٌ، رَفَعَهُ، عَنْ فَهْدِ بْنِ عَطِيَّةٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنَبِيَّ بَصِيٍّ قَدْ شَبَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ، فَقَالَ: «مَنْ أَنَا؟» فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ.

٨٣٤ - وَرَوَى عَنْ مُعَرَّضِ بْنِ مُعَيْقِبٍ: رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَجَبًا، جِيءَ بِصَبِيٍّ يَوْمَ وُلِدَ... فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وهو حديثٌ مُبَارَكُ الْيَمَامَةِ، وَيُعْرَفُ بِحَدِيثِ شَاصُونَةَ: اسْمُ رَاوِيهِ، وَفِيهِ: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقْتَ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ».

ثُمَّ إِنَّ الْغَلَامَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بَعْدَهَا حَتَّى شَبَّ، فَكَانَ يَسْمَى مُبَارَكُ الْيَمَامَةِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِمَكَّةَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ.

٨٣٥ - وَعَنِ الْحَسَنِ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّهُ طَرَحَ بُيَّةً لَهُ فِي وَادِي كَذَا، فَانْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى الْوَادِي، وَنَادَاهَا بِاسْمِهَا: «يَا فُلَانَةُ! أَجِيبِي بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى» فَخَرَجَتْ وَهِيَ تَقُولُ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ! فَقَالَ لَهَا: «إِنَّ أَبَوَيْكَ قَدْ أَسْلَمَا، فَإِنْ أَخْبَيْتِ أَنْ أَرَدَكَ عَلَيْهِمَا؟» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِمَا، وَجَذْتُ اللَّهَ خَيْرًا لِي مِنْهُمَا.

٨٣٦ - وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ شَابِتًا مِنَ الْأَنْصَارِ تُوَفِّي وَلَهُ أُمٌّ عَجُوزٌ عَمِيَاءُ، فَسَجَّيْنَاهُ، وَعَزَيْنَاهُ، فَقَالَتْ: مَاتَ ابْنِي؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَتْ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي هَاجَرْتُ إِلَيْكَ وَإِلَى نَبِيِّكَ رَجَاءً أَنْ تَعَيِّنَنِي عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيَّ هَذِهِ الْمَصِيبَةَ.

فَمَا بَرَحْنَا أَنْ كَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَطَعِمَ وَطَعِمْنَا.

٨٣٧ - وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ: كُنْتُ فِيمَنْ دَفَنَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَكَانَ قَتْلَ الْيَمَامَةِ، فَسَمِعْتَاهُ حِينَ أَدْخَلْنَاهُ الْقَبْرَ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، عُمَرُ الشَّهِيدُ، عِثْمَانُ الْبَرُّ الرَّجِيمُ، فَتَنْظَرْنَا فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ.

٨٣٨ - وَرَوَى عَنْ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ زَيْدَ بْنَ خَارِجَةَ خَرَّ مَيِّتًا فِي بَعْضِ

أَرْقَةَ الْمَدِينَةِ، فَرَفَعَ وَسَجَّى إِذْ سَمِعُوهُ بَيْنَ الْعَشَاءَيْنِ وَالنَّسَاءِ يَصْرُخُنَّ حَوْلَهُ يَقُولُ: أَنْصِتُوا، أَنْصِتُوا، فَخَسِرَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ، صَدَقَ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ عَادَ مِثْلَ مَا كَانَ.

فصل

فِي إِنْزَاءِ الْمَرْضَى وَذَوِي الْعَاهَاتِ

٨٣٩ - أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ مُشَرَّفٍ، فِيمَا أَجَازَنِيهِ، وَقَرَأْتَهُ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَالُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْوَرْدِ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ ابْنِ هِشَامٍ، عَنْ زِيَادِ الْبِكَائِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ شَهَابٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَجَمَاعَةٌ ذَكَرَهُمْ بِقَضِيَةِ أُحُدٍ بِطَوْلُهَا، قَالَ: وَقَالُوا: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيَبْتَاعُنِي السَّهْمَ لَا تَضِلَّ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَزِمْ بِهِ» [البخاري (٤٠٥٥)، مسلم (٢٤١٢)].

٨٤٠ - وَقَدْ رَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى انْدَقَتْ، وَأَصِيبُ يَوْمَئِذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ - يَعْنِي ابْنَ النُّعْمَانِ - حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَرَزَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْتِيهِ.

وَرَوَى قِصَّةَ قَتَادَةَ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَيَزِيدُ بْنُ عِيَاضٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ.

٨٤١ - وَرَوَاهَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ.

٨٤٢ - وَبَصُقَ عَلَى آثَرِ سَهْمٍ فِي وَجْهِ أَبِي قَتَادَةَ فِي يَوْمِ ذِي قَرْدٍ، قَالَ: فَمَا صَرَبَ عَلَيَّ وَلَا قَاحَ.

٨٤٣ - وَرَوَى التَّسَائِيُّ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُثَيْفٍ: أَنَّ أَعْمَى قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي.

قَالَ: «فَانْطَلِقْ، فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنِّي بَصَرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْنِي فِيَّ».

قَالَ: فَرَجَعَ وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصَرِهِ [الترمذي (٣٥٧٨)، ابن ماجه (١٣٨٥)، أحمد (١٣٨/٤)].

٨٤٤ - وَرَوَى أَنَّ ابْنَ مُلَاعِبِ الْأَيْسَةِ أَصَابَهُ اسْتِسْقَاءٌ، فَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ يَدَهُ حَثْوَةً مِنَ الْأَرْضِ، فَتَفَلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطَاهَا رَسُولَهُ، فَأَخَذَهَا مَتَعَجِبًا، يُرَى أَنَّ قَدَ هُزِيءَ بِهِ، فَأَتَاهَا بِهَا، وَهُوَ عَلَى شَفَا، فَشَرِبَهَا، فَشَفَا اللَّهُ.

٨٤٥ - وَذَكَرَ الْعُقَيْلِيُّ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ قُذَيْكٍ - وَيُقَالُ: قُوزِكٌ - أَنَّ أَبَاهُ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ، فَكَانَ لَا يُبْصِرُ بِهِمَا شَيْئًا، فَنفَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، فَأَبْصَرَ، فَرَأَيْتُهُ يُدْخِلُ الْخَيْطَ فِي الْإِزْرَةِ، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ.

٨٤٦ - وَرَبِي كُلْثُومُ بْنُ الْحُصَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي نَحْرِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ، فَبَرِيءٌ.

٨٤٧ - وَتَقَلَّ عَلَى شَجَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ فَلَمْ تُمِدَّ.

٨٤٨ - وَتَقَلَّ فِي عَيْنِي عَلِيٌّ يَوْمَ خَيْبَرٍ، وَكَانَ زَيْدًا، فَأَصْبَحَ بَارِتًا [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].

٨٤٩ - وَنفَثَ عَلَى ضَرْبَةٍ بِسَاقِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَاعِ يَوْمَ خَيْبَرٍ فَبَرِثَ [البخاري (٤٢٠٦)].

٨٥٠ - وَفِي رَجُلٍ زَيْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ أَصَابَهَا السَّيْفُ إِلَى الْكَعْبِ، حِينَ قُتِلَ ابْنُ الْأَشْرَفِ، فَبَرِثَ.

٨٥١ - وَعَلَى سَاقِ عَلِيٍّ بْنِ الْحَكَمِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ إِذْ انْكَسَرَتْ، فَبَرِيءٌ مَكَانَهُ، وَمَا نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ.

٨٥٢ - وَاشْتَكَى عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَجَعَلَ يَدْعُو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْفِهِ، أَوْ عَافِهِ» ثُمَّ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، فَمَا اشْتَكَى ذَلِكَ الْوَجَعَ بَعْدَ [الترمذي (٣٥٦٤)].

٨٥٣ - وَقَطَعَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، فَجَاءَ يَحْمِلُ يَدَهُ، فَبَصَقَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَلْصَقَهَا فَلَصِقَتْ. رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ.

٨٥٤ - وَمِنْ رَوَايَتِهِ أَيْضًا: أَنَّ خُبَيْبَ بْنَ يَسَافٍ أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبَةٍ عَلَى عَاتِقِهِ حَتَّى مَالَ شِقُّهُ، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنفَثَ عَلَيْهِ حَتَّى صَحَّ.

٨٥٥ - وَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمٍ، مَعَهَا صَبِيٌّ بِهِ بَلَاءٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَأَتَى بِمَاءٍ فَمَضَمَضَ فَاذًا، وَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَأَمَرَهَا بِسُقْيِهِ وَمَسَّهُ بِهِ، فَبَرِيءٌ الْغُلَامُ، وَعَقَلَ عَقْلًا يَفْضُلُ عَقُولَ النَّاسِ.

٨٥٦ - وعن ابن عباس: جاءت امرأة بابتن لها به جئون، فمسح صدره، ففج ثعة، فخرج من جوفه مثل الجزو الأسود، فشفي [أحمد (٢٥٤/١)].

٨٥٧ - وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل، فمسح عليه ودعا له، وتقل فيه قبرة لجينه [أحمد (٤١٨/٣)].

٨٥٨ - وكانت في كف شريحيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها، ولم يبق لها أثر.

٨٥٩ - وسألته جارية طعاماً، وهو يأكل، فناولها من بين يديه، وكانت قليلة الحياء، فقالت: إنما أريد من الذي في فيك، فناولها ما في فيه، ولم يكن يسأل شيئاً فيمنعه.

فلما استقر في جوفها ألقى عليها من الحياء ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياة منها.

فصل

في إجابة دعائه

وهذا باب واسع جداً وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة.

٨٦٠ - وقد جاء في حديث حذيفة: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أذكرت الدعوة ولده وولد ولده [أحمد (٣٨٥/٥) - (٣٨٦)].

٨٦١ - حدثنا أبو محمد العتابي بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسمي، حدثنا أبو زيد المزوزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، قال: قالت أُمي: يا رسول الله! خادِمُك أنس، ادعُ الله له. قال: اللهم! أكثِرْ ماله وولده، وباركْ له فيما آتَيْته [البخاري (٦٣٤٤)، مسلم (١٤٢/٢٤٨١)].

٨٦٢ - ومن رواية عكرمة: قال أنس: فوالله! إن مالي لكثير؛ وإن ولدي وولد ولدي ليُعاذون اليوم على نحو المئة [مسلم (١٤٣/٢٤٨١)].

٨٦٣ - وفي رواية: وما أعلم أحداً أصاب من رخاء العيش ما أصبتُ، ولقد دفنتُ يديّ هاتين مئة من ولدي، لا أقول سقْطاً ولا ولد ولدي.

٨٦٤ - ومنه دعاؤه لعبدالرحمن بن عَوْف بالبركة [البخاري (٥١٥٥)، مسلم (١٤٢٧)]، قال عبدالرحمن: فلو رفعتُ حجراً لرجوتُ أَنْ أُصِيبَ تحته ذهباً، وفتح الله عليه، ومات فخيرَ الذهب من تركته بالفؤوس حتى مَجَلَّت فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفاً، وكُنْ أربعاً، وقيل: مئة ألف.

وقيل: بل صولحت إحداهن، لأنه طلقها في مَرَضه على ثَيْف وثمانين ألفاً، وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوّافه العظيمة: أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وتصدق مرةً بغير فيها سبع مئة بغير، وردت عليه تخيل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها، وبأقنابها وأخلاصها.

٨٦٥ - ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد، فقال الخلافة.

٨٦٦ - ولسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أَنْ يَجِيبَ اللهُ دعوته، فما دعا على أحدٍ إلّا استجيب له [الترمذي (٣٧٥١)].

٨٦٧ - ودعا بعر الإسلام بغير رضي الله عنه، أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر [الترمذي (٣٦٨١)، أحمد (٩٥/٢)].

٨٦٨ - قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر [البخاري (٣٦٨٤)].

٨٦٩ - وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فسأله عُمرُ الدعاء، فدعا، فجاءت سحابة، فسقتهم حاجتهم، ثم أَقْلَعَتْ.

٨٧٠ - ودعا في الاستسقاء، فسُقُوا، ثم شَكُوا إليه المطر، فدعا، فصَحُوا [البخاري (١٠١٦)، مسلم (٨٩٧)].

٨٧١ - وقال لأبي قتادة: «أَفْلَحَ وَجْهكَ، اللهم! باركْ له في شعره ونسره»، فمات وهو ابن سبعين سنة، وكأنه ابن خمس عشرة سنة.

٨٧٢ - وقال للناطقة: «لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالَكُ» فما سقطت له سن. وفي رواية: فكان أحسن الناس ثغراً، إذا سقطت له سنُ بَنَتْ له أخرى، وعاش عشرين ومئة سنة، وقيل: أكثر من هذا.

٨٧٣ - ودعا لائِن عباس: «اللهم! فقهه في الدين، وعلمه التأويل» [أحمد (٢٦٦/١)، ٣١٤، ٣٢٨، البخاري (١٤٣)، مسلم (٢٤٧٧)] فسمي بَعْدَ الْحَبَرِ، وتزجمان القرآن.

٨٧٤ - ودعا لعبدالله بن جعفر بالبركة في صَفَقَةِ يَمِينه، فما اشترى شيئاً إلّا ربح فيه.

- ٨٧٥ - ودعا لِلْمِقْدَادِ بِالْبِرْكَه، فكانت عنده غَرَائِرُ من المالِ.
- ٨٧٦ - ودعا بمثله لِعَزْرَةَ بن أبي الجَعْدِ [البخاري (٣٦٤٢)]، فقال فلقد كنتُ أقومُ بالكُنَاسَةِ، فما أزعج حتى أريح أربعين ألفاً.
- وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب رِيحَ فيه [البخاري (٣٦٤٢)].
- ٨٧٧ - وَرَوِي مِثْلُ هَذَا لِعَزْرَةَ أَيْضاً.
- ٨٧٨ - وَنَدَّتْ لَهُ ﷺ نَاقَةٌ، فدعا فجاءهُ بها إعصارُ ريحٍ، حتى رَدَّها عليه.
- ٨٧٩ - ودعا لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأَسْلَمَتْ [مسلم (٢٤٩١)].
- ٨٨٠ - ودعا لعلني أن يُكْفِيَ الحَرَّ والقَرَّ، فكان يلبسُ في الشتاء ثيابَ الصيف، وفي الصيف ثيابَ الشتاء، ولا يصيبه حَرٌّ ولا بَرْدٌ [ابن ماجه (١١٧)].
- ٨٨١ - ودعا لفاطمة ابنته اللّهُ أَلَا يُجِيعُهَا، قالت: فما جُعْتُ بعد.
- ٨٨٢ - وسأله الطُّفَيْلُ بن عَمْرٍو آيَةَ لِقَومِهِ، فقال: «اللّهُمَّ! نَوِّزْ لَهُ» فَسَطَعَ نورٌ بين عَيْنَيْهِ، فقال: يا رب! أخاف أن يقولوا: مُثَلَّةٌ، فتحول إلى طَرَفِ سَوِطِهِ، فكان يُضِيءُ في الليلة المظلمة، فسُمِّيَ ذا النور.
- ٨٨٣ - ودعا على مُضَرٍّ فَأَقْبَحُوا، حتى استَغَطَفَتْه قريش، فدعا لهم فسُقُوا [البخاري (٤٨٢١)]، مسلم (٤٠/٢٧٩٨).
- ٨٨٤ - ودعا على كِسْرَى حين مرَّقَ كتابه أن يمزَّقَ اللّهُ مُلْكَهُ [البخاري (٦٤)]، فلم تَبْقَ له باقية، ولا بَقِيَتْ لِفَارَسَ رِياسَةً في أقطار الدنيا.
- ٨٨٥ - ودعا على صَبِيٍّ، قطع عليه الصلاة، أن يقطع الله أثره، فأُقْعِدَ [ابو داود (٧٠٧)].
- ٨٨٦ - وقال لرجل رآه يأكل بِشِمَالِهِ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» فقال: لا أستطيع.
- فقال: «لا اسْتَطَعْتُ» فلم يرفعها إلى فيه [مسلم (٢٠٢١)].
- ٨٨٧ - ودعا على عُتْبَةَ بن أبي لَهَبٍ: «اللّهُمَّ! سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْباً من كلابِكَ»، فأكله الأسد.
- ٨٨٨ - وقال لامرأة: «أَكَلِكِ الْأَسَدَ» فأكلها.
- ٨٨٩ - وحديثه المشهور، من رواية عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه في دعائه على قُريش حين وَضَعُوا السَّلَا على رَقَبَتِهِ وهو ساجدٌ مع القُرْثِ والدم، وسَمَاهُم، قال: فلقد رأيتُهم قُتِلُوا يوم بَدْرٍ [البخاري (٢٤٠)]، مسلم (١٧٩٤).
- ٨٩٠ - ودعا على الحَكَمِ بن أبي العاصِ، وكان يَخْتَلِجُ بوجهه، ويغِيرُ عند النبي ﷺ، أي: لا، فرآه، فقال: «كَذَلِكَ كُنْ» فلم يَزَلْ يَخْتَلِجُ إلى أن مات.

٨٩١ - ودعا على مُحَلَّم بن جَثَامَة فمات لَسَبَع، فلفظَتْهُ الأرض، ثم وُورِي، فلفظَتْهُ مَرَاتٍ، فَأَلْفَوْهُ بَيْنَ صُدَّيْنِ، وَرَضُّوْهُ عَلَيْهِ بِالْحَجَارَةِ. وَالصُّدَّ: جَانِبُ الْوَادِي.

٨٩٢ - وَجَّهَهُ رَجُلٌ بَيْعَ فَرَسٍ - وَهِيَ الَّتِي شَهِدَ فِيهَا خُزَيْمَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ - فَرَدَّ الْفَرَسَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَا تَبَارِكْ لَهُ فِيهَا» [أَبُو دَاوُدَ (٣٦٠٧)، النَّسَائِيُّ (٣٠١/٧ - ٣٠٢)] فَأَصْبَحَتْ شَاصِبَةً بِرَجْلِهَا، أَيْ: رَافِعَةً.

وَهَذَا الْبَابُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ.

فصل

فِي كَرَامَاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ وَانْقِلَابِ الْأَغْيَانِ لَهُ فَإِنَّمَا لَمَسَهُ أَوْ بَاشَرَهُ

٨٩٣ - أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ، إِجَازَةً. وَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ سَمَاعًا، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرُهُمَا، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ الْقَاضِي، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَأَبُو الْهَيْثَمِ، قَالُوا: حَدَّثَنَا الْقَرْنَرِيُّ، حَدَّثَنَا الْبُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْأَعْلَى بْنُ حَمَادٍ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرَّغُوا مَرَّةً، فَرَكَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَرَسًا لِأَبِي طَلْحَةَ كَانَ يَقْطُفُ - أَوْ بِهِ قِطَافٌ - وَقَالَ غَيْرُهُ: يُبْطَأُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ: «وَجَدْنَا قَرَسَكَ بَخْرًا» فَكَانَ بَعْدُ لَا يُجَازَى [الْبُخَارِيُّ (٢٨٦٧)، مُسْلِمٌ (٣٣٠٧)].

٨٩٤ - وَتَخَسَّ جَمَلُ جَابِرٍ، وَكَانَ قَدْ أَغْيَا، فَتَشَيَّطَ حَتَّى كَانَ مَا يَمْلِكُ زِمَامَهُ [الْبُخَارِيُّ (٢٧١٨)].

٨٩٥ - وَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ بِفَرَسٍ لِحُجَّعِ بْنِ الْأَشْجَعِيِّ، خَفَقَهَا بِمِخْفَقَةٍ مَعَهُ، وَبَرَكَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَمْلِكْ رَأْسَهَا تَشَاطُطًا، وَبَاعَ مِنْ بَطْنِهَا بَائِنًا عَشْرَ أَلْفًا.

٨٩٦ - وَرَكِبَ حِمَارًا قَطُوفًا لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَرَدَّهُ هِمْلًا جَا لَا يُسَايِرُ.

٨٩٧ - وَكَانَتْ شَعْرَاتٌ مِنْ شَعْرِهِ فِي قَلَنْشُورَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَلَمْ يَشْهَدْ بِهَا قِتَالًا إِلَّا زَرَقَ النَّصْرَ.

٨٩٨ - وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا

أخرجت جُبَّة طَيَّالِسِيَّة، وقالت: كان رسول الله ﷺ يَلْبَسُهَا، فنحن نَغْسِلُهَا للمرضى نَسْتَشْفِي بِهَا [مسلم (٢٠٦٩)].

وحدثنا القاضي أبو علي، عن شَيْخِهِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ الْمَأمُونِ، قال: كانت عندنا قَضْعَةٌ من قِصَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنَّا نَجْعَلُ فِيهَا الْمَاءَ لِلْمَرْضَى، فَيَسْتَشْفُونَ بِهَا.

٨٩٩ - وَأَخَذَ جَهَنجَاهُ الْغِفَّارِيُّ الْقَضِيبَ من يدِ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَكْسِرَهُ عَلَى رِكْبَتِهِ، فَصَاحَ النَّاسُ بِهِ، فَأَخَذَتْهُ فِيهَا الْآكِلَةُ، فَقَطَعَهَا، وَمَاتَ قَبْلَ الْحَوْلِ.

٩٠٠ - وَسَكَبَ من فَضْلِ وَضُوئِهِ فِي بئرِ قُبَاءَ فَمَا تَزَفَّتْ بَعْدَ.

٩٠١ - وَبَزَقَ فِي بئرِ كَانَتْ فِي دَارِ أَنَسٍ، فَلَمْ يَكُنْ بِالْمَدِينَةِ أَعْذَبَ مِنْهَا.

٩٠٢ - وَمَرَّ عَلَى مَاءٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: اسْمُهُ بَيْسَانَ، وَمَاؤُهُ يُلْحِقُ، فَقَالَ: «بَلْ هُوَ نَعْمَانُ وَمَاؤُهُ طَيِّبٌ» فَطَابَ.

٩٠٣ - وَأَتَيْتُ بِدَلْوٍ من مَاءِ زَمْزَمَ، فَمَجَّ فِيهِ، فَصَارَ أَطْيَبَ من الْمِسْكِ لِابْنِ مَاجَه (٦٥٩)، أَحْمَدُ (٣١٥/٤).

٩٠٤ - وَأَعْطَى الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ لِسَانَهُ فَمَضَاهُ، وَكَانَا يَبْكِيَانِ غَطْشًا، فَسَكَتَا.

٩٠٥ - وَكَانَ لَأُمِّ مَالِكٍ عُكَّةٌ تُهْدِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ سَمْنًا فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا تَقْصُرَهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ مَمْلُوءَةٌ سَمْنًا، فَيَأْتِيهَا بِثَوْبٍ يَسْأَلُونَهَا الْأَذَمَ، وَلَيْسَ عَنْدهُمْ شَيْءٌ فَتَقْعِدُ إِلَيْهَا. فَتَجِدُ فِيهَا سَمْنًا، فَكَانَتْ تُقِيمُ أَذَمَهَا حَتَّى عَصَرَتْهَا [مسلم (٢٢٨٠)].

٩٠٦ - وَكَانَ يَنْتَقِلُ فِي أَفْوَاهِ الصَّبِيَّانِ الْمَرَضِعِ فَيَجْزِيهِمْ رِيْقَهُ إِلَى اللَّيْلِ.

٩٠٧ - وَمِنْ ذَلِكَ: بَرَكَةُ يَدِهِ فِيمَا لَمَسَهُ وَغَرَسَهُ لِسَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ كَاتَبَهُ مَوَالِيَهُ عَلَى ثَلَاثِ مِئَةِ وَدِيَّةٍ يَغْرِسُهَا لَهُمْ، كُلُّهَا تَعْلَقُ وَتُطْعِمُ، وَعَلَى أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَرَسَهَا لَهُ بِيَدِهِ إِلَّا وَاحِدَةً غَرَسَهَا غَيْرُهُ، فَأَخَذَتْ كُلُّهَا إِلَّا تِلْكَ الْوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَرَدَّهَا، فَأَخَذَتْ.

وَفِي كِتَابِ الْبَزَارِ: فَأَطْعَمَ النَّخْلَ مِنْ عَامِهِ إِلَّا الْوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَغَرَسَهَا فَأَطْعَمَتْ مِنْ عَامِهَا.

وَأَعْطَاهُ مِثْلَ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ بَعْدَ أَنْ أَدَارَاهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَوزَنَ مِنْهَا لِمَوَالِيهِ أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً، وَبَقِيَ عَنْدهُ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ [أَحْمَدُ (٤٤١ - ٤٤٤)].

٩٠٨ - وَفِي حَدِيثِ حَنْشِ بْنِ عَقِيلٍ: سَقَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرْبَةً مِنْ سَوِيقٍ

شَرِبَ أَوْلَاهَا وَشَرِبَتْ آخِرُهَا، فَمَا بَرَحْتُ أَجِدُ شِبَعَهَا إِذَا جُعْتُ، وَرِيَّهَا إِذَا عَطِشْتُ، وَتَرَدَّهَا إِذَا ظَمِشْتُ.

٩٠٩ - وَأَعْطَى قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ - وَصَلَّى مَعَهُ الْعِشَاءَ فِي لَيْلَةِ مُظْلِمَةٍ مَطِيرَةٍ - عُرْجُونًا، وَقَالَ: «انْطَلِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ سَيُضِيءُ لَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ عَشْرًا وَمِنْ خَلْفِكَ عَشْرًا، فَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَتَرَى سَوَادًا فَاضِرًا حَتَّى يَخْرُجَ، فَإِنَّهُ الشَّيْطَانُ». فَاَنْطَلَقَ فَاضَاءً لَهُ الْعُرْجُونُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَوَجَدَ السَّوَادَ فَضَرِبَهُ حَتَّى خَرَجَ [أحمد (٦٥/٣)].

٩١٠ - وَمِنْهَا: دَفَعَهُ لِعُكَّاشَةِ جَذَلٍ حَطَبٍ، وَقَالَ: «اضْرِبْ بِهِ» حِينَ انْكَسَرَ سَيْفُهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَعَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا صَارِمًا، طَوِيلَ الْقَامَةِ، أَيْبَضَ، شَدِيدُ الْمَثَنِ، فَقَاتَلَ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَشْهَدُ بِهِ الْمَوَاقِفَ إِلَى أَنْ اسْتَشْهَدَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ. وَكَانَ هَذَا السَّيْفُ يُسَمَّى الْعَوْنُ.

٩١١ - وَدَفَعَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ - وَقَدْ ذَهَبَ سَيْفُهُ - عَسِيبَ نَخْلٍ، فَرَجَعَ فِي يَدِهِ سَيْفًا.

٩١٢ - وَمِنْهُ: بَرَكَّتْهُ فِي دُورِ الشَّيَاطِينِ الْحَوَائِلِ بِاللَّبَنِ الْكَثِيرِ، كَقِصَّةِ شَاةٍ أُمِّ مَغْبِيَةٍ.

٩١٣ - وَأَغْزَرَ مَعَاوِيَةَ بْنُ ثَوْرٍ.

٩١٤ - وَشَاةٍ أَنْسَ.

٩١٥ - وَغَنَمٍ حَلِيمَةٍ: مُرْضِعَتِهِ، وَشَارِفَهَا.

٩١٦ - وَشَاةٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ [أحمد (٣٧٩/١)]، وَكَانَتْ لَمْ يَتَزَّ عَلَيْهَا فُحْلٌ.

٩١٧ - وَشَاةٍ الْمُقَدَّادِ [مسلم (٢٠٥٥)].

٩١٨ - وَمِنْ ذَلِكَ تَرْوِيدُهُ أَصْحَابَهُ سِقَاءَ مَاءٍ بَعْدَ أَنْ أَوْكَاهُ، وَدَعَا فِيهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُمْ الصَّلَاةُ نَزَلُوا فَحَلَّوْهُ، فَلَمَّا بِهِ لَبَنٌ طَيِّبٌ وَزُبْدَةٌ فِي فَمِهِ - مِنْ رِوَايَةِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ.

٩١٩ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَبَرَكَ، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ، فَمَا شَابَ.

٩٢٠، ٩٢١ - وَرُويَ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَصِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، مِنْهُمْ: السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ [البخاري (٣٥٤٠)، مسلم (٢٣٤٥)]، وَمَذْلُوكٌ.

٩٢٢ - وَكَانَ يَوْجَدُ لِعُثْبَةَ بْنِ قَرْقَدٍ طَيِّبٌ يَغْلِبُ طَيِّبَ نِسَائِهِ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى بَطْنِهِ وَظَهَرِهِ.

٩٢٣ - نَوَسَلَتِ الدَّمَّ عَنْ وَجْهِ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَ جُرْحُ يَوْمِ حُتَيْنَ، وَدَعَا لَهُ، فَكَانَتْ لَهُ غُرَّةٌ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ.

٩٢٤ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ قَيْسِ بْنِ زَيْدِ الْجُدَامِيِّ، وَدَعَا لَهُ، فَهَلَكَ وَهُوَ ابْنُ مِثَةِ سَنَةٍ، وَرَأْسُهُ أَبْيَضٌ، وَمَوْضِعُ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا مَرَّتْ يَدُهُ عَلَيْهِ مِنْ شَعْرِهِ أَسْوَدٌ، فَكَانَ يُدْعَى الْأَعْرُ.

٩٢٥ - وَرَوَى مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ لِعَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ الْجُهَنِيِّ.

٩٢٦ - وَمَسَحَ وَجْهَ آخَرَ، فَمَا زَالَ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ.

٩٢٧ - وَمَسَحَ وَجْهَ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانَ، فَكَانَ لَوَجْهِهِ تَبْرِيقٌ حَتَّى كَانَ يُنْظَرُ فِي وَجْهِهِ كَمَا يُنْظَرُ فِي الْمَرْأَةِ [أحمد (٢٨/٥) - (٢٩)].

٩٢٨ - وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ حَنْظَلَةَ بْنِ جَذِيمٍ، وَبَرَكَ عَلَيْهِ، فَكَانَ حَنْظَلَةُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ قَدْ وَرِمَ وَجْهَهُ، وَالشَّاةُ قَدْ وَرِمَ ضَرْعُهَا، فَيُوضَعُ عَلَى مَوْضِعِ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ فَيَذْهَبُ لِلْوَرَمِ [أحمد (٦٨/٥)].

٩٢٩ - وَنَضَحَ فِي وَجْهِ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ نَضْحَةً مِنْ مَاءٍ، فَمَا يُعْرِفُ كَانَ فِي وَجْهِ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَمَالِ مَا بِهَا.

٩٣٠ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ بِهِ عَاهَةٌ، فَبَرِيءَ وَاسْتَوَى شَعْرُهُ. وَعَلَى غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّبْيَانِ وَالْمَرْضَى وَالْمَجَانِينِ، فَبَرَوْا.

٩٣١ - وَمِثْلُهُ رَوَى فِي خَبَرِ الْمُهَلَّبِ بْنِ قَبَالَةَ.

٩٣٢ - وَأَنَاهُ رَجُلٌ أَذْرَةٌ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْضَحَهَا بِمَاءٍ، مِنْ عَيْنٍ مَجٍ فِيهَا، فَفَعَلَ، فَبَرِيءَ.

٩٣٣ - وَعَنْ طَاوُوسٍ: لَمْ يُؤْتَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَحَدٍ بِهِ مَسٌّ، فَصَلَّتْ فِي صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ.

وَالْمَسُّ: الْجَنُونُ.

٩٣٤ - وَمَجٍ فِي ذَلْوٍ مِنْ بَثْرٍ، ثُمَّ صَبَّ فِيهَا، فَفَاحَ مِنْهَا رِيحُ الْمِسْكِ.

٩٣٥ - وَأَخَذَ قُبْضَةً مِنْ ثَرَابِ يَوْمِ حُتَيْنَ، وَرَمَى بِهَا فِي وَجْهِهِ الْكَفَّارَ، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فَانصَرَفُوا يَمْسَحُونَ الْقَذَى عَنْ أَغْيَنِهِمْ [مسلم (١٧٧٧)].

٩٣٦ - وَشَكَا إِلَيْهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّسِيَّانَ، فَأَمَرَهُ بِبَسْطِ ثَوْبِهِ، وَغَرَفَ يَدَهُ فِيهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِضَمِّهِ، فَفَعَلَ، فَمَا تَبَيَّنَ شَيْئاً بَعْدَ [البخاري (١١٩)]، مُسْلِمٌ. [[٢٤٩٢]].

وَمَا يُرَوَى عَنْهُ فِي هَذَا كَثِيرٌ.

٩٣٧ - وضرب صَدْرَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، ودَعَا لَهُ، وَكَانَ ذُكْرَ لَهُ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ، فَصَارَ مِنْ أَفْرَسِ الْعَرَبِ وَأَثْبَتَهُمْ [البخاري (٣٠٣٦)، مسلم (١٣٥/٢٤٧٥)].

٩٣٨ - وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَكَانَ دَمِيمًا، وَدَعَا لَهُ بِالْبِرْكَ، فَقَرَعَ الرِّجَالَ، طَوْلًا وَتَمَامًا.

فصل

فِي مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ وَمَا يَكُونُ. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ بَحْرٌ لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَلَا يُتَرَفُّ غَمْرُهُ.

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواياتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب.

٩٣٩ - حَدَّثَنَا الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ: مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْفَهْرِيُّ إِجَازَةً، وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ التُّشْتَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرِو الْهَاشِمِيُّ، حَدَّثَنَا اللَّؤْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عِثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا، فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ، حَفِظَهُ مِنْ حَفِظِهِ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَأَعْرِفُهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ [البخاري (٦٦٠٤)، مسلم (٢٣/٢٨٩١)، أَبُو دَاوُدَ (٤٢٤٠)].

٩٤٠ - ثُمَّ قَالَ حُذَيْفَةُ: مَا أَدْرِي، أَنْسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ؟ وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدٍ فَتَنَتْهُ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَ مِثَّةٍ فَضَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَاهُ لَنَا بِاسْمِهِ، وَاسْمُ أَبِيهِ، وَقَبِيلَتُهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٢٤٣)].

٩٤١ - وَقَالَ أَبُو دَرَّ: لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يَحْرُكُ طَائِرُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ، إِلَّا ذَكَّرْنَا مِنْهُ عِلْمًا.

٩٤٢ - وَقَدْ خَرَجَ أَهْلُ الصَّحِيحِ وَالْأَثْمَةُ مَا أَعْلَمَ بِهِ أَصْحَابُهُ ﷺ مِمَّا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى أَعْدَائِهِ [البخاري (٣٨٥٢)].

٩٤٣ - وَفَتِحَ مَكَّةُ [البخاري (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)].

٩٤٤ - وَبَيَّتَ الْمَقْدِسُ [البخاري (٣١٧٦)].

- ٩٤٥ - واليمن، والشام، والعراق [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].
- ٩٤٦ - وظهور الأمن، حتى تظعن المرأة من الجيزة إلى مكة، لا تخاف إلا الله [البخاري (٣٥٩٥)].
- ٩٤٧ - وأن المدينة ستغزى [البخاري (١٨٧٤)، مسلم (١٣٨٩)].
- ٩٤٨ - وتفتح خيبر على يدي علي في غد يومه [البخاري (٣٧٠١)، مسلم (٢٤٠٦)].
- ٩٤٩ - وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها [البخاري (١٤٦٥)، مسلم (١٠٥٢)].
- ٩٥٠ - وقسمتهم كنوز كسرى وقصر [البخاري (٣١٢١)، مسلم (٢٩١٩)].
- ٩٥١ - وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء.
- ٩٥٢ - وسلوك سبيل من قبلهم [البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩)].
- ٩٥٣ - وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة [أحمد (٣٣٢/٢)، أبو داود (٤٥٩٦)، الترمذي (٢٦٤٠)، ابن ماجه (٣٩٩١)].
- ٩٥٤ - وأنها ستكون لهم أنماط [البخاري (٣٦٣١)، مسلم (٢٠٨٣)].
- ٩٥٥ - ويغدو أحدهم في خلعة، ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صفحة وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة.
- ثم قال آخر الحديث: «وانتم اليوم خير منكم يومئذ» [الترمذي (٢٤٧٦)].
- ٩٥٦ - وأنهم إذا مشوا المطيطة وخدمتهم بنات فارس والروم ردة الله بأنهم بينهم، وسلط شرازم على خيأهم [الترمذي (٢٢٦١)].
- ٩٥٧ - وقتالهم الترك [البخاري (٢٩٢٨)، مسلم (٦٥/٢٩١٢)].
- ٩٥٨ - والخز [البخاري (٣٥٩٠)، والروم].
- ٩٥٩ - وذهب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهب قيصر حتى لا قيصر بعده [البخاري (٣١٢٠)، مسلم (٢٠١٨)].
- ٩٦٠ - وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر.
- ٩٦١ - وبذهب الأمثل فالأمثل من الناس [البخاري (٦٤٣٤)].
- ٩٦٢ - وتقارب الزمان، وقبض العلم، وظهور الفتن، والهزج [البخاري (١٠٣٦)، مسلم (١١/١٥٧)].
- ٩٦٣ - وقال: «ويل للعرب من شرٍ قد اقترب» [البخاري (٣٣٤٦)، مسلم (٢٨٨٠)].

٩٦٤ - وأنه رُويَتْ له الأرض فأرَبِي مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسِيلُغُ مُلْكُ أُمَّتِهِ مَا رُويَ لَهُ مِنْهَا [مسلم (٢٨٨٩)].

فكذلك كان، امتدَّت في المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ما بين أرضِ الهند أَقْصَى المَشْرِقِ إلى بَحْرِ طَنْجَة حيث لَا عِمَارَة وَرَاءَهُ، وَذَلِكَ مَا لَمْ تَمْلِكْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَمْ تَمْتَدَّ فِي الجَنُوبِ وَلَا فِي الشَّمَالِ مِثْلَ ذَلِكَ.

٩٦٥ - وقوله: «لَا يَزَالُ أَهْلُ المَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» [مسلم (١٩٢٥)] - ذهب ابن المَدِينِي إلى أَنَّهُم العَرَبُ، لِأَنَّهُم المَخْتَصَرُونَ بِالسُّفَى بِالمَغْرِبِ - وَهِيَ الدَّلْوُ - وَغَيْرُهُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُم أَهْلُ المَغْرِبِ، وَقَدْ وَرَدَ المَغْرِبُ كَذَا فِي الْحَدِيثِ بِمَعْنَاهُ.

٩٦٦ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي أُمَامَةَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، قَاهِرِينَ لِعُلُوِّهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بَيْتِ المَقْدِسِ».

٩٦٧ - وَأَخْبَرَ بِمُلْكِ بَنِي أُمِيَّةٍ.

٩٦٨ - وَوَلَايَةِ مُعَاوِيَةَ، وَوَصَّاهُ [أحمد (١٠١/٤)].

٩٦٩ - وَاتَّخَذَ بَنِي أُمِيَّةٍ مَالَ اللَّهِ ذُؤَلًا.

٩٧٠ - وَخُرُوجَ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بِالرَّايَاتِ السُّودِ [ابن ماجه (٤٠٨٤)].

٩٧١ - وَمُلْكُهُمْ أَضْعَافَ مَا مَلَكَوْا.

٩٧٢ - وَخُرُوجَ المَهْدِيِّ.

٩٧٣ - وَمَا يَنَالُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَتَقْتِيلَهُمْ وَتَشْرِيدَهُمْ.

٩٧٤ - وَقَتْلَ عَلِيٍّ، وَأَنَّ أَشْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ، أَيِ لَحِيَّتِهِ مِنْ

رَأْسِهِ.

٩٧٥ - وَأَنَّهُ قَسَمَ النَّارَ، يَدْخُلُ أَوْلِيَائُوهُ الْجَنَّةَ، وَأَعْدَاؤُهُ النَّارَ، فَكَانَ فِيمَنْ

عَادَاهُ الْخَوَارِجُ وَالنَّاصِبَةُ، وَطَائِفَةٌ يَمُنُّ نِسْبَ إِلَيْهِ مِنَ الرُّوَافِضِ كَقُرُوه.

٩٧٦ - وَقَالَ: «يُقْتَلُ عِثْمَانُ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي المِصْحَفِ» [الترمذي (٣٧٠٨)].

٩٧٧ - وَأَنَّ اللَّهَ عَسَى أَنْ يُلْبِسَهُ قَمِيصًا، وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ خَلْعَهُ [الترمذي

(٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)].

٩٧٨ - وَأَنَّهُ سَيَقْطُرُ دَمَهُ عَلَى قَوْلِهِ: «نَكَيْفِيكَهُمُ اللَّهُ» [البقرة: ١٣٧].

٩٧٩ - وَأَنَّ الفِتْنَ لَا تَظْهَرُ مَا دَامَ عُمَرُ حَيًّا [البخاري (٧٠٩٦)، مسلم (١٤٤)].

٩٨٠ - وَبِمَحَارَبَةِ الزُّبَيْرِ لِعَلِيٍّ وَهُوَ ظَالِمٌ لَهُ.

- ٩٨١ - وَتَبَاحِ كِلَابِ الْخَوَابِ عَلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ [أحمد (٥٢/٦)].
- ٩٨١م - وَأَنَّهُ يُقْتَلُ حَوْلَهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، وَتَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ، فَتَبَحَتْ عَلَى عَائِشَةَ عِنْدَ خُرُوجِهَا إِلَى الْبُصْرَةِ.
- ٩٨٢ - وَأَنَّ عَمَارًا تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ [مسلم (٢٩١٥)]، فَقَتَلَهُ أَصْحَابُ مُعَاوِيَةَ.
- ٩٨٣ - وَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: «وَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ! وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ».
- ٩٨٤ - وَقَالَ فِي قُرْزَمَانَ - وَقَدْ أَبْلَى مَعَ الْمُسْلِمِينَ -: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» [البخاري (٢٨٩٨)، مسلم (١١٢)] فَقَتَلَ نَفْسَهُ.
- ٩٨٥ - وَقَالَ فِي جَمَاعَةٍ فِيهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَسَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، وَخُذَيْفَةُ: «أَخْرَجْتُمْ مَوْتًا فِي النَّارِ» فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْأَلُ عَنْ بَعْضٍ فَكَانَ سَمُرَةُ أَخْرَجَهُمْ مَوْتًا، فَرِمَ وَخَرَفَ، فَاصْطَلَى بِالنَّارِ فَاحْتَرَقَ فِيهَا.
- ٩٨٦ - وَقَالَ فِي حَنْظَلَةَ الْعَسِيلِ: «سَلُّوا زَوْجَتَهُ عَنْهُ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُهُ» فَسَأَلُوهَا فَقَالَتْ: «إِنَّهُ خَرَجَ جُنْبًا، وَأَعْجَلَهُ الْحَالُ عَنِ الْغُسْلِ».
- قال أبو سعيد رضي الله عنه: وَجَدْنَا رَأْسَهُ يَقَطُرُ مَاءً.
- ٩٨٧ - وَقَالَ: «الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ» [أحمد (١٨٥/٤)].
- ٩٨٨ - «وَلَنْ يَزَالَ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا أَقَامُوا الدِّينَ» [البخاري (٣٥٠٠)].
- ٩٨٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَابٌ وَمُبِيرٌ» [مسلم (٢٥٤٥)] قَرَأُوهُمَا: الْحَجَّاجُ، وَالْمُخْتَارُ.
- ٩٩٠ - وَأَنَّ مُسَيْلِمَةَ يَعْقِرُهُ اللَّهُ [البخاري (٣٦٢٠)، مسلم (٢٢٧٣)].
- ٩٩١ - وَأَنَّ فَاطِمَةَ أَوَّلَ أَهْلِهَا لِحَقًّا بِهِ [البخاري (٣٦٢٦)، مسلم (٢٤٥٠)].
- ٩٩٢ - وَأَنْذَرَ بِالرَّدَّةِ [مسلم (١٩٢٠)].
- ٩٩٣ - وَيَأَنَّ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا [أبو داود (٤٦٤٦)، الترمذي (٢٢٢٦)]، فَكَانَتْ كَذَلِكَ بِمَدَّةِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ.
- ٩٩٤ - وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ بَدَأَ ثُبُوءَ وَرَحْمَةً، ثُمَّ يَكُونُ رَحْمَةً وَخِلَافَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا غَضُوضًا، ثُمَّ يَكُونُ عُتُوءًا وَجَبْرُوتًا وَفُسَادًا فِي الْأُمَّةِ».
- ٩٩٥ - وَأَخْبَرَ بِشَأْنِ أُوَيْسِ الْقُرْنِيِّ [مسلم (٢٥٤٢)].
- ٩٩٦ - وَيَأْمُرَاءُ يُوْخَرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا [مسلم (٥٣٤)].
- ٩٩٧ - وَسَيَكُونُ فِي أُمَّتِهِ ثَلَاثُونَ كَذَابًا، فِيهِمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ [أحمد (٣٩٦/٥)].
- ٩٩٨ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «ثَلَاثُونَ دَجَالًا كَذَابًا أَحَدُهُم الدَّجَالُ الْكَذَابُ، كُلُّهُمْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [أبو داود (٤٣٣٤)، البخاري (٧١٢١)، مسلم (٨٤/١٥٧)].

٩٩٩ - وقال: «يوشك أن يكثر فيكم العجم، يأكلون فينتكم، ويضربون رقابكم».

١٠٠٠ - ر «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان» [البخاري (٣٥١٧)، مسلم (٢٩١٠)].

١٠٠١ - وقال: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهِدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْزِلُونَ وَلَا يُؤْفُونَ وَيُظْهِرُ فِيهِمُ السَّمَنُ» [البخاري (٢٦٥١)، مسلم (٢٥٣٥)].

١٠٠٢ - وقال: «لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ» [البخاري (٧٠٦٨)].

١٠٠٣ - وقال: «هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيِ أَغْنِيلِمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ». قال أبو هريرة رَوَاهُ: لو شئتُ سَمِّيتُهُمْ لَكُمْ: بَنُو فُلَانٍ، وَبَنُو فُلَانٍ [البخاري (٣٦٠٥)، مسلم (٢٩١٧)].

١٠٠٤ - وَأَخْبَرَ بِظُهُورِ الْقَدْرِيةِ [أبو داود (٤٦١٣)، أحمد (٩٠/٢)].

١٠٠٥ - وَالرَّافِضَةَ.

١٠٠٦ - وَسَبَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوَّلُهَا [الترمذي (٢٢١٠)، (٢٢١١)].

١٠٠٧ - وَقَلَّةِ الْأَنْصَارِ حَتَّى يَكُونُوا كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ [البخاري (٣٨٠٠)، فلم يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَتَبَدَّدُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ جَمَاعَةٌ.

١٠٠٨ - وَأَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ بَعْدَهُ أَثَرَةَ [البخاري (٣١٤٧)، مسلم (١٠٥٩)].

١٠٠٩ - وَأَخْبَرَ بِشَأْنِ الْخَوَارِجِ وَصِفَتِهِمْ، وَالْمُخَدِّجِ الَّذِي فِيهِمْ، وَأَنَّ سِيَمَاهُمُ التَّحْلِيْقُ.

١٠١٠ - وَيُرَى رِعَاءُ الْغَنَمِ رُؤُوسَ النَّاسِ، وَالْعِرَاءُ الْخُفَاءُ يَتَبَارَزُونَ فِي الْبُتْيَانِ.

وَأَنَّ تِلْدَ الْأُمَّةِ رَبَّتُهَا [البخاري (٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١٠١١ - وَأَنَّ قُرَيْشًا وَالْأَحْزَابَ لَا يَغْزَوْنَهُ أَبَدًا، وَأَنَّهُ هُوَ يَغْزُوهُمْ [البخاري (٤١١٠)].

١٠١٢ - وَأَخْبَرَ بِالْمُوتَانِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ فَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ [البخاري (٣١٧٦)].

١٠١٣ - وَمَا وَعَدَ مِنْ سُكْنَى الْبَصْرَةِ [أبو داود (٤٣٠٧)].

١٠١٤ - وَأَنَّهُمْ يَغْزَوْنَ فِي الْبَحْرِ كَالْمَلُوكِ عَلَى الْأَمِيرَةِ [البخاري (٢٨٠٠)، مسلم (١٩١٢)].

١٠١٥ - وَأَنَّ الدِّينَ لَوْ كَانَ مَنُوطًا بِالثَّرِيَّا لَنَالَهُ رَجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِسَ [البخاري (٤٨٩٧)، مسلم (٢٥٤٦)].

١٠١٦ - وهاجّت ریح فی غَزَاتِهِ فقال: «هاجّت لموتٍ منافقٍ» [مسلم (٢٧٨٢)]، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك.

١٠١٧ - وقال لقوم من جلسائه: «ضَرْسُ أَحَدِكُمْ فِي النَّارِ أَعْظَمُ مِنْ أَحَدٍ». قال أبو هريرة: فذهب القوم - يعني: مائتوا - وقيثُ أنا ورجلٌ، فقتل مرتدّاً يوم اليمامة.

١٠١٨ - وأعلم بالذي غلَّ خَزْرَاءُ مِنْ خَزَرٍ يَهُودَ، فَوُجِدَتْ فِي رَحْلِهِ [أبو داود (٢٧١٠)، النسائي (٦٤/٤)، ابن ماجه (٢٨٤٨)].

١٠١٩ - وبالذي غلَّ الشُّنْفَةَ، وحيثُ هي [البخاري (٤٢٣٤)، مسلم (١١٥)].

١٠٢٠ - وناقته حين ضلّت، وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها.

١٠٢١ - ويشأن كتاب خاطبٍ إلى أهل مكة [البخاري (٣١٠٧)، مسلم (٢٤٩٤)].

١٠٢٢ - وبفضية غُمَيْرٍ مع صَفْوَانَ حين سارَهِ وشارطه على قتل النبي ﷺ.

فلما جاء غُمَيْرٌ للنبي ﷺ قاصداً لقتله، وأطلعه رسول الله ﷺ على الأمر والسر أسلم.

١٠٢٣ - وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل بعد أن كتّمه، فقال: ما علّمه غيري وغيرها، فأسلم [أحمد (٣٥٣/١)].

١٠٢٤ - وأعلم بأنه سيقتل أبيّ بن خَلَفٍ.

١٠٢٥ - وفي عتبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب من كلاب الله.

١٠٢٦ - وعن مَصَارِعِ أَهْلِ بَذَرٍ، فكان كما قال [مسلم (١٧٧٩)].

١٠٢٧ - وقال في الحسن: «إن ابني هذا سيّدٌ، وسيُضْلَعُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فَتْنَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [البخاري (٢٧٠٤)].

١٠٢٨ - ولسنغيد: «لعلك تُخَلِّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيَسْتَضُرُّ بِكَ آخَرُونَ» [البخاري (٤٤٠٩)، مسلم (١٦٢٨)].

١٠٢٩ - وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهرٍ أو أزيد [البخاري (١٧٤٦)].

١٠٣٠ - وبموت النجاشي يوم مات وهو بأرضه [البخاري (١٢٤٥)، مسلم (٩٥١)].

١٠٣١ - وأخبر فيروزُ إذ ورد عليه رُسُولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقّق فيروزُ القصة أسلم.

١٠٣٢ - وأخبر أبا ذرٍّ رضي الله عنه بتطريدِهِ كما كان، ووجده في المسجد

نائماً، فقال له: «كيف بك إذا أُخْرِجْتَ منه؟» قال: أسْكُن المسجد الحرام. قال: «فإذا أُخْرِجْتَ منه...» الحديث.

١٠٣٣ - وَيَعْيِشُهُ وَخَدَهُ، وَمَوْتُهُ وَخَدَهُ.

١٠٣٤ - وَأَخْبِرَ أَنَّ أَسْرَعَ أَزْوَاجِهِ بِهِ لِحَوْقاً أَطْوَلُهُنَّ يَدَا [البخاري (١٤٢٠)، مسلم (٢٤٥٢)]، فَكَانَتْ زَيْنَبُ لَطُولَ يَدَيْهَا بِالصَّدَقَةِ.

١٠٣٥ - وَأَخْبِرَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بِالطُّفِّ، وَأَخْرَجَ بِيَدِهِ تُرْبَةً، وَقَالَ: «فِيهَا مَضْجَعُهُ».

١٠٣٦ - وَقَالَ فِي زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ: «يَسْبِقُهُ عُضْوٌ مِنْهُ إِلَى الْجَنَّةِ» فَقَطَّعَتْ يَدَهُ فِي الْجِهَادِ.

١٠٣٧ - وَقَالَ فِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى جِرَاءٍ: «اثْبُتْ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ»، فَقَتِلَ عَلِيٌّ، وَعُمَرُ، وَعَثْمَانُ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَطَعِنَ سَعْدُ.

١٠٣٨ - وَقَالَ لِسُرَّاقَةٍ: «كَيْفَ بِكَ إِذَا أَلْبَسْتَ سُوَارِي كَسْرَى؟» فَلَمَّا أَتَى بِهِمَا عُمَرُ أَلْبَسَهُمَا إِيَّاهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا كَسْرَى وَأَلْبَسَهُمَا سُورَةً.

١٠٣٩ - وَقَالَ: «تُبْنَى مَدِينَةٌ بَيْنَ دِجْلَةَ وَدُجْنِيلَ وَقَطْرِئِلَ وَالصَّرَاةِ تُجَبَّى إِلَيْهَا خَزَائِنُ الْأَرْضِ، يُخَسَفُ بِهَا»، يَعْنِي بَغْدَادَ.

١٠٤٠ - وَقَالَ: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ: الْوَلِيدُ، هُوَ شَرُّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ» [أحمد (١٨/١)].

١٠٤١ - وَقَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتَلَ فِتْنَانِ دَعَاوَاهُمَا وَاحِدَةً» [البخاري (٣٦٠٨)، مسلم (١٧/١٥٧)].

١٠٤٢ - وَقَالَ لِعُمَرَ فِي سَهْمِيلِ بْنِ عَمْرِو: «عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَاماً يَسْرُكَ يَا عُمَرُ!» فَكَانَ كَذَلِكَ، قَامَ بِمَكَّةَ مَقَامَ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَلَّغَهُمْ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَطَبَ بِنَحْوِ خُطْبَيْهِ، وَثَبَّتَهُمْ وَقَوَّى بِصَائِرِهِمْ.

١٠٤٣ - وَقَالَ لَخَالِدٍ حِينَ وَجَّهَهُ لِأَكْبِيدِرَ: «إِنَّكَ تَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَرَ» فَوُجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ جُلَسَاءَهُ مِنْ أَسْرَارِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ وَكُفْرِهِمْ، وَقَوْلِهِمْ فِيهِ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَيَقُولُ لِمُصَاحِبِهِ: اسْكُتْ، فَوَاللَّهِ! لَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ لَأَخْبَرْتَهُ حِجَارَةَ الْبَطْحَاءِ.

١٠٤٤ - وَإِعْلَامُهُ بِصِفَةِ السِّحْرِ الَّذِي سَحَرَهُ بِهِ لِبَيْدِ بْنِ الْأَغْصَمِ، وَكَوْنُهُ فِي

مِسْطٍ وَمُشَاقَّةٍ، فِي جُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَّرَ، وَانْه أَلْقَى فِي بَنَرِ ذُرَّانٍ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَوُجِدَ عَلَى تِلْكَ الصَّفَةِ.

١٠٤٥ - وَإِعْلَامُهُ قُرَيْشًا بِأَكْلِ الْأَرْضِ مَا فِي صَحِيفَتِهِمُ الَّتِي تَظَاهَرُوا بِهَا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ، وَقَطَعُوا بِهَا رَجَمَهُمْ، وَأَنَّهُ أَبَقَتْ فِيهَا كُلُّ اسْمٍ لِّلْهِ، فَوَجَدُوهَا كَمَا قَالَ.

١٠٤٦ - وَوَضَفَهُ لِكُفَّارِ قُرَيْشِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ حِينَ كَذَّبُوهُ فِي خَيْرِ الْإِسْرَاءِ، وَنَعَتْهُ إِيَّاهُ نَعْتُ مَنْ عَرَفَهُ.

١٠٤٧ - وَإِعْلَامُهُمْ بِعَبِيرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَإِنْدَارُهُمْ بِوَقْتِ وَصُولِهَا، فَكَانَ كُلُّهُ كَمَا قَالَ ﷺ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَكُونُ وَلَمْ يَأْتِ بَعْدُ، مِنْهَا مَا ظَهَرَ مَقْدَمَاتُهَا.

١٠٤٨ - كَقَوْلِهِ: «عُمَرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرُبُ، وَخَرَابٌ يَثْرُبُ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٢٩٤)، أَحْمَدُ (٢٣٢/٥)].

وَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ آيَاتُ حُلُولِهَا، وَذِكْرُ النَّشْرِ وَالْحَشْرِ، وَأَخْبَارِ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَرَضَاتِ الْقِيَامَةِ.

وَيَحْسَبُ هَذَا الْفَصْلُ أَنَّ يَكُونُ دِيْوَانًا مُفْرَدًا يَشْتَمِلُ عَلَى أَجْزَاءِ وَخَدَّةٍ، وَفِيمَا أَشْرَنَّا إِلَيْهِ مِنْ ثُبُتِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا كِفَايَةً، وَأَكْثَرُهَا فِي الصَّحِيحِ، وَعِنْدَ الْأُئِمَّةِ.

فصل

فِي عِصْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ وَكِفَايَتِهِ مِنْ آذَاهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا﴾ [الزمر: ٣٦].

قِيلَ: بِكَافٍ مُحَمَّدًا ﷺ أَعْدَاءَهُ الْمُشْرِكِينَ. وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا.

وَقَالَ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وَقَالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ

وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيكِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١٠٤٩ - أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي الصّدفي بقراءتي عليه، والفقهاء الحافظ أبو بكر: محمد بن عبد الله المَعافري، قالوا: حدثنا أبو الحسين الصّيرفي، قال: حدثنا أبو يعلّى البَغدادي، حدثنا أبو علي السّنجي، حدثنا أبو العباس المَروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا عبد بن حُميد، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيد، عن سَعِيد الجُريري، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُخَرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبّة، فقال لهم: «يا أيّها النّاس! انصَرِفُوا، فقد عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» [الترمذي (٣٠٤٦)].

١٠٥٠ - وَرَوَى أَن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا نَزَلَ مَثَرًا لَمْ يَخْتَارْ لَهُ أَصْحَابَهُ شَجَرَةً يَقِيلُ تَحْتَهَا، فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مَتَى؟ فَقَالَ: «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» فَأَرَعَدَتْ يَدُ الْأَعْرَابِيِّ، وَسَقَطَ سَيْفُهُ، وَضَرَبَ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى سَالَ دِمَاغُهُ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ.

١٠٥١ - وَقَدْ رُوِيَ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي الصَّحِيحِ، وَأَنَّ عُورَثَ بْنَ الْحَارِثِ صَاحِبَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَفَا عَنْهُ، فَجَعَلَ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ [البخاري (٤١٣٥)، (٤١٣٦)، مسلم (٨٤٣)].

١٠٥٢ - وَقَدْ حُكِيَ مِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ، وَأَنَّهَا جَرَتْ لَهُ يَوْمَ بَذْرِ، وَقَدْ انْفَرَدَ مِنْ أَصْحَابِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ، فَتَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ... وَذَكَرَ مِثْلَهُ.

١٠٥٣ - وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ مِثْلُهَا فِي غَزْوَةِ عُظْفَانَ بِذِي أَمَرَ، مَعَ رَجُلٍ اسْمُهُ دُعْثُورُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ أَسْلَمَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ الَّذِينَ أُغْرَوْهُ - وَكَانَ سَيِّدَهُمْ وَأَشَجَعُهُمْ - قَالُوا لَهُ: أَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ، وَقَدْ أَمَكْنَاكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أَبْيَضَ طَوِيلَ دَفْعٍ فِي صَدْرِي، فَوَقَعْتُ لظَهْرِي، وَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِي، فَفَرَعْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَأَسْلَمْتُ.

قِيلَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ هُمْ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٤ - وَفِي رِوَايَةِ الْخَطَّابِيِّ أَنَّ عُورَثَ بْنَ الْحَارِثِ الْمُحَارِبِي أَرَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ مُتَضَيِّباً سَيْفَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ»، فَانْكَبَتْ مِنْ وَجْهِهِ مِنْ زُلْحَةِ زُلْحَاهَا بَيْنَ كَتْفَيْهِ، وَنَدَرَ سَيْفَهُ مِنْ يَدِهِ. الزُّلْحَةُ: وَجَعُ الظَّهْرِ.

وقيل في قصته غير هذا، وذكر أن فيه نزل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا
يَمَنَ آتَىٰ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

١٠٥٥ - وقيل: كان رسول الله ﷺ يخاف قريشاً، فلما نزلت هذه الآية
استلقى، ثم قال: «مَنْ شَاءَ فَلْيُخَذِلْنِي».

١٠٥٦ - وذكر عبد بن حميد، قال: كانت حمالة الحطب تَضَعُ الْعِصَاةَ
- وهي جَمْرٌ - على طريق رسول الله ﷺ فكانما يَطْوُهَا كَثِيباً أَهْبِلَ.

١٠٥٧ - وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
وَتَبَّتْ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١]، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم، أتت
رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فِهْرٌ من
حجارة.

فلما وَقَفَتْ عليهما لم تَزِ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، وأخذ الله تعالى يبصرها عن نبيه ﷺ،
فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهْجُونِي، والله! لو وجدته
لضربت بهذا الفِهْرِ فاه.

١٠٥٨ - وعن الحَكَمِ بن أبي العاص: تَوَاعَدْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى إِذَا
رَأَيْنَاهُ سَمِعْنَا صَوْتاً خَلَفْنَا مَا ظَنَنَّا أَنَّهُ بَقِيَ بِهَامَةِ أَحَدٍ، فَوْقَنَا مَغْشِيّاً عَلَيْنَا، فَمَا
أَفَقْنَا حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ.

ثم تَوَاعَدْنَا لَيْلَةً أُخْرَى، فَجِئْنَا حَتَّى إِذَا رَأَيْنَاهُ جَاءَتِ الصُّفَا وَالْمَرْوَةُ، فَحَالَتْ
بَيْنَا وَبَيْنَهُ.

١٠٥٩ - وعن عُمر رضي الله عنه: تَوَاعَدْتُ أَنَا وَأَبُو جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ لَيْلَةَ
قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْنَا مَنْزِلَهُ، فَتَسَمَّعْنَا لَهُ فَافْتَتَحَ وَقَرَأَ الْفَاتِحَةَ، وَقَرَأَ ﴿الْحَاقَّةُ
﴿١﴾ مَا الْهَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْهَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَكَادٍ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَمْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَلَايَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ
لَيَالٍ وَثَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى
لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ١-٨].

فضرب أبو جهم على عضد عُمر، وقال: انْجُ، وَقَرَأَ هَارِيبِينَ، فكانت من
مَقْدَمَاتِ إِسْلَامِ عُمر رضي الله عنه [أحمد (١٧/١)].

١٠٦٠ - ومنه العِزَّةُ المشهورة، والكفاية التامة عندما أخافته قُريش،
وأجمعت على قتلِهِ وَبَيْتِهِ، فخرج عليهم من بيته، فقام على رؤوسهم، وقد

ضرب الله تعالى على أبصارهم، وذرّ التراب على رؤوسهم، وخلص منهم.
١٠٦١ - وحمايته عن رؤيتهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات، ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أمية بن خلف - حين قالوا: ندخل الغار -: ما أزيكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه من قبل أن يولد محمد؟
 وَوَقَفَتْ حَمَامَتَانِ عَلَى فَمِ الْغَارِ، فَقَالَتْ قَرِيشُ: لَوْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ الْحَمَامُ.

١٠٦٢ - وقصته مع سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم حين الهجرة، وقد جعلت قُرَيْشُ فيه وفي أبي بكر الجَعَالِلَ، فَأَنْذِرَ بِهِ، فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَاتَّبَعَهُ حَتَّى إِذَا قَرِبَ مِنْهُ دَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَاخَتْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ، فَخَزَّ عَنْهَا، وَاسْتَقْسَمَ بِالْأَزْلَامِ، فَخَرَجَ لَهُ مَا يَكْرَهُ.

ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت فقال للنبي ﷺ: أتينا. فقال: ﴿لَا تَخْرُجَنَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فساخت ثانية إلى رُكْبَتِهَا، وَخَزَّ عَنْهَا، فَزَجَرَهَا فَهَضَّتْ وَلَقَوَائِمُهَا مِثْلُ الدُّخَانِ، فَناداهم بالأمان، فكتب له النبي ﷺ أماناً، كتبه ابن فهيرة، وقيل: أبو بكر، وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبي ﷺ ألا يترك أحداً يلحق بهم.
 فانصرف يقول للناس: كُفَيْتُمْ مَا هَا هُنَا.

وقيل: بل قال لهما: أَرَأَيْتُمَا دَعَوْتُمَا عَلِيَّ، فَادْعُوهُ لِي [البخاري (٣٩٠٦)، (٣٩٠٨)، مسلم (٧٥/٢٠٠٩)].

فجاء، ووقع في نفسه ظُهورُ النبي ﷺ.

١٠٦٢ م - وفي خبر آخر: أَنَّ رَاعِيًا عَرَفَ خَبْرَهُمَا، فَخَرَجَ يَشْتَدُّ، يُعَلِّمُ قَرِيشًا، فَلَمَّا وَرَدَ عَلَى مَكَّةَ ضَرَبَ عَلَى قَلْبِهِ، فَمَا يَدْرِي مَا يَضَعُ، وَأُنْسِي مَا خَرَجَ لَهُ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ.

١٠٦٣ - وجاءه - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - أبو جهل، بصخرة وهو ساجد، وقريش ينظرون، لِيَطْرَحَهَا عَلَيْهِ، فَلَزَقَتْ بِيَدِهِ، وَبَسَّتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَقْبَلَ يَرْجِعُ الْقَهْقَرَى إِلَى خَلْفِهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ، فَفَعَلَ، فَانْطَلَقَتْ يَدَاهُ، وَكَانَ قَدْ تَوَاعَدَ مَعَ قُرَيْشٍ بِذَلِكَ، وَحَلَفَ لَنْ رَأَاهُ لِيَذْمَعْنَهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْ شَأْنِهِ؟ فَذَكَرَ أَنَّهُ عَرَضَ لِي دُونَهُ فَحُلَّ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، هُمْ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي.
 فقال النبي ﷺ: «ذَاكَ جَبْرِيلُ، لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ» [البخاري (٤٩٥٨)].

١٠٦٤ - وذكر السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ لِيَقْتُلَهُ،

فَطَمَسَ اللَّهُ عَلَى بَصَرِهِ، فَلَمْ يَرَ النَّبِيَّ ﷺ، وَسَمِعَ قَوْلَهُ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى نَادَوْهُ.

وَذَكَرَ أَنَّ فِي هَاتَيْنِ الْقِصَتَيْنِ، نَزَلَتْ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِتْرًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ٨، ٩].

١٠٦٥ - وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَغَيْرُهُ فِي قِصَّتِهِ، إِذْ خَرَجَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فِي أَصْحَابِهِ، فَجَلَسَ إِلَى جِدَارٍ بَغُضِّ أَطْمَائِهِمْ، فَانْبَعَثَ عُمَرُو بْنُ جَحَّاشٍ أَحَدُهُمْ لِيُطْرَحَ عَلَيْهِ رَحَى، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَانصَرَفَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَعْلَمَهُمْ بِقِصَّتِهِمْ.

وَقَدْ قِيلَ إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا يَسْمَعَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوتُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَوْا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١]. فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ نَزَلَتْ.

١٠٦٦ - وَحَكَى الشَّيْخُ قُتَيْبِيُّ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُ فِي عَقْلِ الْكِلَابِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلَهُمَا عُمَرُو بْنُ أُمَيَّةَ، فَقَالَ لَهُ خُبَيْبُ بْنُ أَخْطَبٍ: اجْلِسْ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ! حَتَّى نَطْعِمَكَ وَنُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا.

فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَتَوَامَرَ خُبَيْبٌ مَعَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَأَعْلَمَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَامَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ حَاجَتَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ.

١٠٦٧ - وَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَعَدَ قُرَيْشًا لَنْ رَأَى مُحَمَّدًا يَصْلِي لِبَاطُنَ رَقَبَتِهِ.

فَلَمَّا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ أَغْلَمُوهُ، فَأَقْبَلَ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ وَلَّى هَارِبًا نَاكِصًا عَلَى عَقْبَيْهِ، مَتَقِيًا بِيَدَيْهِ، فَسَلَّ، فَقَالَ: لَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ أَشْرَفْتُ عَلَى خَنْدَقٍ مَمْلُوءٍ نَارًا كَذَتْ أَهْوِي فِيهِ، وَأَبْصَرْتُ هَوْلًا عَظِيمًا، وَخَفَقَ أَجْنَحَةٌ قَدْ مَلَأَتْ الْأَرْضَ. فَقَالَ ﷺ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ، لَوْ دَنَا لَاخْتَطَفَتْهُ عُضْوًا عُضْوًا».

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا ﴿١﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٢﴾ إِنَّ لَكَ رَجْعَ الْرُجْعِ ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَتَّقُ ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْكُنْفَةِ ﴿٦﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ﴿٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿٩﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَنصَبَنَّكَ بِالْبَاسِ ﴿١٠﴾ نَاصِبًا كَذِبًا خَالِفًا ﴿١١﴾ فَلَيَنصَبَنَّ نَاصِبًا ﴿١٢﴾ سَتَعِ الْإِنْيَانَةُ ﴿١٣﴾ كَلَّا لَا تُلْمَعُ وَأَسْبَدَ وَأَقْرَبُ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ٦ - ١٩] [مسلم (٢٧٩٧)].

١٠٦٨ - ويروى أَنَّ رجلاً يعرف بـ: شَيْبَةَ بنِ عَثْمَانَ الْحَجَبِيِّ أدركه يوم حُتَيْنَ، وكان حمزةً قد قَتَلَ أَبَاهُ وَعَمَّهُ، فقال: اليومَ أدركُ ثأري من مُحَمَّدٍ.

فلما اختلط الناسُ أتاهُ من خَلْفِهِ، ورفع سيفَهُ لِيَضْبَهُ عَلَيْهِ، قال: فلما دنوْتُ منه ارتفع إليّ شَواظٌ من نارٍ أَسْرَعُ من البرقِ، فوَلَّيْتُ هارباً، وأَحْسَنَ بي النبي ﷺ فدَعَانِي، فوضع يَدَهُ على صَدْرِي، وهو أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فما رفعها إلا وهو أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وقال لي: «إِذْ فَقَاتِلْ» فتقدمْتُ أمامَهُ أَضْرَبُ بِسَيْفِي وأُقيهِ بنفسِي، ولو لَقِيتُ أَبِي تِلْكَ السَّاعَةَ لَأَوْقَعْتُ بِهِ دُونَهُ.

١٠٦٩ - وعن فَضَالَةَ بنِ عَمْرٍو: أَرَدْتُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ، وهو يطوفُ بالبَيْتِ، فلما دنوْتُ منه قال: «يَا فَضَالَةُ!» قلتُ: نعم. قال: «ما كُنْتُ تَحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟» قلتُ: لا شيءَ، فَضَحِكُ واستَغْفَرَ لي، ووضع يَدَهُ على صَدْرِي، فسكن قلبي. فوالله! ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أَحَبَّ إِلَيَّ منه.

١٠٧٠ - ومن مشهورٍ ذلك خَبَرُ عَامِرِ بنِ الطُّفَيْلِ، وأَزِيدِ بنِ قَيْسٍ - حينَ وَقَدَا على النبي ﷺ -، وكان عامراً قال له: أنا أَشْغَلُ عَنْكَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فَاضْرِبْهُ أَنْتَ. فلم يَرَهُ فَعَلَ شيئاً، فلما كَلَّمَهُ فِي ذلك، قال له: واللَّهِ! ما هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَهُ إِلَّا وَجَدْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَفَأَضْرِبُكَ؟

ومن عصمته له تعالى أن كثيراً من اليهود والكهنة، أنذروا به، وَعَيَّنُوهُ لِقْرِيشٍ، وأخبروهم بِسَطَوَاتِهِ بِهِمْ، وحضُّوهم على قَتْلِهِ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ تعالى حتى بلغ فيه أَمْرُهُ.

١٠٧١ - ومن ذلك نَصْرُهُ بِالرُّغْبِ أَمَامَهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ، كما قال عليه السلام [البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)].

فصل

فِي مُعْجَزَاتِهِ ﷺ

فِيمَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ

ومن معجزاته الباهرة ما جَمَعَهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، وخَصَّهُ بِهِ مِنَ الْإِطْلَاعِ عَلَى جَمِيعِ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ومَعْرِفَتِهِ أُمُورَ شَرَائِعِهِ، وقَوَانِينِ دِينِهِ، وسياسةِ عِبَادِهِ، ومَصَالِحِ أُمَّتِهِ، وما كان في الْأُمَمِ قَبْلَهُ، وقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ والجبابرة والقرون الماضية من لَدُنْ آدَمَ إِلَى زَمَنِهِ، وحِفْظِ شَرَائِعِهِمْ وكتبِهِمْ، وَوَعْيِ سِيرِهِمْ، وسَرْدِ أَنْبَاءِهِمْ، وأيامِ اللَّهِ فِيهِمْ، وصفاتِ أَعْيَانِهِمْ، واختلافِ آرائِهِمْ،

والمعرفة بمذاهبهم وأعمارهم، وجنم حكمائهم، ومُحاجة كل أمة من الكفرة، ومُعارضة كل فِرقة من الكِنابيين بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومُخبآت علومها، وإخبارهم بما كُتّموا من ذلك وغيره.

إلى الاحتواء على لغات الغرب، وغريب ألفاظ فِرَقها، والإحاطة بضروب فصاحتها، والجُفُظ لِأَيامها وأمثالها، وجنمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجوامع كَلِمها إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة، والجَنَم البينة لتقريب التفهيم للغامض، والتبيين للمشكل، إلى تنهيد قواعد الشَّرْع الذي لا تناقُض فيه ولا تَخاُدُل، مع اشتِمال شريعته على محاسن الأخلاق، ومُحامد الآداب، وكل شيء مُستحسن مُفضَّل، لم يُنكر منه مُلجِد ذو عقل سليم شيئاً إلا من جهة الخذلان.

بل كل جاحد له، وكافر من الجاهلية به إذا سَمِع ما يَدْعُو إليه صَوِّه، واستحسنه دون طلب إقامة بُرْهان عليه.

ثم ما أحلّ لهم من الطَّيِّبات، وحَرَم عليهم من الخبائث، وصانَ به أنفُسهم وأعراضهم وأموالهم من المُعاقبات والحدود عاجلاً، والتخويف بالنار آجلاً مما لا يعلم علمه، ولا يقوم به، إلا من مارس الدرس، والعكوف على الكتب، ومُنافاة بعض هذا.

إلى الاحتواء على ضروب العلوم، وفنون المعارف، كالطب، والعبارة، والفرائض، والجَساب، والنَّسب، وغير ذلك من العلوم ممَّا اتخَذ أهل هذه المعارف كلامه ﷺ فيها قُدوةً وأصولاً في عِلْمهم.

١٠٧٢ - كقوله: «الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ» [ابن ماجه (٣٩١٥)].

١٠٧٣ - وهي «على رَجُلٍ طائِرٍ» [أبو داود (٥٠٢٠)، الترمذي (٢٢٧٨)، ابن ماجه (٣٩١٤)].

١٠٧٤ - وقوله: «الرُّؤْيَا ثَلَاث: رُؤْيَا حَقٌّ، ورُؤْيَا يَحْدُثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ، ورُؤْيَا تَخْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ» [مسلم (٢٢٦٣)، البخاري (٧٠١٧)].

١٠٧٥ - وقوله: «إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِيبٌ» [البخاري (٧٠١٧)، مسلم (٢٢٦٣)].

١٠٧٦ - وقوله: «أَضَلَّ كُلُّ دَاءٍ الْبَرْدَةَ».

١٠٧٧ - وما رُوي عنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه من قوله: «الْمَعِينَةُ خَوْضُ الْبَدَنِ، وَالْعُرُوقُ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ»، وإن كان هذا حديثاً لا نصَّحُه لضعفه وكونه موضوعاً تكلم عليه الدارقطني.

١٠٧٨ - وقوله: «خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السُّعُوطُ، وَاللُّدُودُ، وَالْحَبَامَةُ، وَالْمَشْيُ» [الترمذي (٢٠٤٧، ٢٠٤٨، ٢٠٥٣)].

١٠٧٩ - ر «خَيْرُ الْحَبَامَةِ يَوْمَ سَبْعِ عَشْرَةَ، وَتِسْعِ عَشْرَةَ، وَاحِدَى وَعَشْرِينَ» [الترمذي (٢٠٥٣)].

١٠٨٠ - «وَفِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ» [البخاري (٥٧١٣)، مسلم (٢٢١٤)].

١٠٨١ - وقوله: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ، فَتَلْتُ لِلطَّعَامِ، وَتَلْتُ لِلشَّرَابِ، وَتَلْتُ لِلنَّفْسِ».

١٠٨٢ - وقوله - وقد سُئِلَ عَنْ سَبَأٍ - أَرَجُلٌ هُوَ أُمُّ امْرَأَةٍ، أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: «رَجُلٌ، وَلَدَ عَشْرَةَ: تِيَامَنُ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمُ أَرْبَعَةٌ...» [الترمذي (٣٢٢٢)، أبو داود (٣٩٨٨)] الحديث بطوله.

١٠٨٣ - وكذلك جوابه فِي نَسَبِ قُضَاعَةَ [أحمد (١٥٦٧)]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اضْطَرَّتِ الْعَرَبُ عَلَى شُغْلِهَا بِالنَّسَبِ إِلَى سُؤَالِهِ عَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ.

١٠٨٤ - وقوله: «حَمِيرٌ رَأْسُ الْعَرَبِ وَنَابِئُهَا، وَمَذْجٌ هَامَتُهَا وَغَلَصَمَتُهَا. وَالْأَزْدُ كَاهِلُهَا وَجُفْجُمَتُهَا، وَهَمْدَانٌ غَارِبُهَا وَذُرْوَتُهَا».

١٠٨٥ - وقوله: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [البخاري (٣١٩٧)، مسلم (١٦٧٩)].

١٠٨٦ - وقوله فِي الْحَوْضِ: «زَوَايَاهُ سَوَاءٌ».

١٠٨٧ - وقوله - فِي حَدِيثِ الذَّكْرِ -: «وَأَنَّ الْحَسَنَةَ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا فَتِلْكَ مِثْلَةُ وَخَمْسُونَ عَلَى اللِّسَانِ، وَالْفُ وَخَمْسُ مِثْلَةٍ فِي الْمِيزَانِ» [أبو داود (٥٠٦٥)، الترمذي (٣٤١٠)، النسائي (٧٤/٣)، ابن ماجه (٩٢٦)].

١٠٨٨ - وقوله وَهُوَ بِمَوْضِعٍ: «نَعَمْ مَوْضِعُ الْحَمَامِ هَذَا».

١٠٨٩ - وقوله: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ» [الترمذي (٣٤٤)، ابن ماجه (١٠١١)].

١٠٩٠ - وَقَوْلُهُ لُعَيْنَتَهُ، أَوْ الْأَقْرَعُ: «أَنَا أَفْرَسٌ بِالْخَيْلِ مِنْكَ» [أحمد (٣٨٧/٤)].

١٠٩١ - وقوله لِكَاتِبِهِ: «ضَعِ الْقَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ، فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لِلْمِمْلُ» [الترمذي (٢٧١٤)].

هَذَا مَعَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَكْتُبُ، وَلَكِنَّهُ أُوتِيَ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى قَدْ وَرَدَتْ آثَارٌ بِمَعْرِفَةِ حُرُوفِ الْخَطِّ وَحُسْنِ تَصْوِيرِهَا.

١٠٩٢ - كَقَوْلِهِ: «لَا تَمْلُؤُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رَوَاهُ ابْنُ شَغْبَانَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

١٠٩٢ - وقوله في الحديث الآخر - الذي يُزَوَّى عن مُعَاوِيَةَ - أنه كان يَكْتُبُ بين يديه عليه السلام فقال له: «أَلَيْقَ الدُّوَاةُ، وَحَرْفُ الْقَلَمِ، وَأَقَمِ الْبَاءَ، وَفَرَّقِ السِّينَ، وَلَا تَعُورِ الْمَيْمَ، وَحَسِّنِ اللَّهُ، وَمُدِّ الرَّحْمَنَ، وَجُودِ الرَّحِيمَ».

وهذا، وإن لم تصح الرواية أنه عليه السلام كَتَبَ فلا يبعد أن يُرْزَقَ عِلْمُ هذا وَيُنْفَعُ الْكِتَابَةُ والقراءة.

وَأَمَّا عِلْمُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ، وَحِفْظُهُ مَعَانِي أَشْعَارِهَا، فَأَمْرٌ مَشْهُورٌ، قَدْ نَبَّهْنَا عَلَى بَعْضِهِ أَوَّلَ الْكِتَابِ.

وكذلك حَفَظَهُ لِكَثِيرٍ مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ.

١٠٩٤ - كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ: «سَنَّةٌ، سَنَّةٌ» [البخاري (٣٨٧٤)] وَهِيَ حَسَنَةٌ بِالْحَبَشِيَّةِ.

١٠٩٥ - وقوله: «ويكثر الهزج» وهو القتل بها.

١٠٩٦ - وقوله - في حديث أبي هريرة -: «أَشْكَنْتُ دَرَقَمًا؟» [ابن ماجه (٣٤٥٨)] أَيْ وَجَعُ الْبَطْنِ بِالْفَارْسِيَّةِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُ بَعْضُ هَذَا وَلَا يَقُومُ بِهِ وَلَا يَبْعُضُهُ إِلَّا مَنْ مَارَسَ الذَّمْسَ وَالْعُكُوفَ عَلَى الْكُتُبِ وَمُثَاقَفَةَ أَهْلِهَا عُمُرَهُ.

وهو رجلٌ - كما قال الله تعالى - أُمِّيٌّ، لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ، وَلَا عُرِفَ بِصُخْبَةٍ مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَلَا نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَهُمْ عِلْمٌ وَلَا قِرَاءَةٌ لشيءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَا عُرِفَ هُوَ قَبْلُ بِشيءٍ مِنْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا غَضُطٍ يُبَيِّنُكَ إِنْ أَنْتَ بَلَغْتَ أَلْبَطُولَ﴾ ﴿١٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إِنَّمَا كَانَتْ غَايَةُ مَعَارِفِ الْعَرَبِ النَّسَبَ وَأَخْبَارَ أَوَائِلِهَا، وَالشَّعْرَ، وَالْبَيَانَ، وَإِنَّمَا حَصَلَ ذَلِكَ لَهُمْ بَعْدَ التَّفَرُّغِ لِعِلْمِ ذَلِكَ، وَالِاسْتِغَالِ بِطَلَبِهِ، وَمُبَاحَثَةِ أَهْلِهِ عَنْهُ.

وهذا الضُّعْفُ نَقْطَةٌ مِنْ بَخَرِ عِلْمِهِ ﷺ.

ولا سبيل إلى جحد المُلْجِدِ لشيءٍ مما ذَكَرْنَاهُ، وَلَا وَجَدَ الْكُفْرَةُ جِيلَةً فِي دَفْعِ مَا نَصَصْنَاهُ إِلَّا قَوْلُهُمْ: «أَسْطِطُوا الْأَوَّلِينَ» [الأنعام: ٢٥] وَ«إِنَّمَا يَعْلَمُ بَشَرٌ» [النحل: ١٠٣].

فَرَدَّ اللَّهُ قَوْلَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْنَا أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم ما قالوه مَكَابِرَةَ الْعِيَانِ، فَإِنَّ الَّذِي نَسَبُوا تَعْلِيمَهُ إِلَيْهِ إِنَّمَا سَلْمَانُ الْفَارْسِيُّ،

أو العبد الرُّومِي، وسَلَمَان إنما عرفه بعد الهِجْرَةِ، ونزولِ الكثير من القرآن، وظهور ما لا يَنْتَعِدُ من الآيات.

وأما الرُّومِي فكان أسلم وكان يقرأ على النبي ﷺ، واختلف في اسمه. وقيل: بل كان النبي ﷺ يجلسُ عنده عند المَرْوَةِ، وكلاهما أعجمي اللسان، وهم الفصحاء اللُّدُّ، والخطباء اللُّسُنُ، قد عجزوا عن مُعارضَةِ ما أتى به، والإثْنانُ بمثله بل عن فَهْم رَضِفِهِ، وَصُورَةِ تَأْلِيفِهِ. وَنَظْمِهِ، فكيف بأعجمي أَلَكْنَ! نَعَمْ، وقد كان سَلَمَانُ، أو بَلْعَامُ الرُّومِي، أو يَعِيشُ، أو جَبْر، أو يَسَار - على اختلافهم في اسمه - بين أظهرهم يكلمونهم مَدَى أعمارهم، فهل حُكِي عن واحدٍ منهم شيء مِنْ مِثْلِ ما كان يجيء به مُحَمَّدٌ عليه السلام؟ وهل عُرِفَ واحدٌ منهم بمعرفة شيء من ذلك؟ وما منع العدو حَيْثُودَ - على كَثْرَةِ عَدِيدِهِ وَذُؤُوبِ طَلَبِهِ، وَقُوَّةِ حَسَدِهِ - أَنْ يجلسَ إلى هذا فيأخذ عنه أيضاً ما يُعارضُ به، ويتعلَّمُ منه ما يَخْتَجُّ به على شيعته كِفْعَلِ النَّضْرِ بنِ الحارث بما كان يُمَحْرِقُ به من أخبار كُتِبَ؟

ولا غاب النبي ﷺ عن قَوْمِهِ، ولا كَثُرَتْ اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب، فيقال له: استمدَّ منهم، بل لم يَزَلْ بين أظهرهم يَزْعَى في صِغَرِهِ وَشَبَابِهِ، على عادة أبنائهم، ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سَفَرَةٍ أو سَفَرَتَيْنِ لم يَظَلْ فيهما مُكْتَهُ مَدَّةً يُحْتَمَلُ فيها تعلِيمُ القليل، فكيف الكثير!

بل كان في سَفَرِهِ في صُخْبَةِ قَوْمِهِ، وَرَفَاقَةِ عَشِيرَتِهِ، لم يَغِبْ عنهم، ولا خالف حَالَهُ مَدَّةً مُقَامِهِ بِمَكَّةَ من تعلِيم، واختلاف إلى حَبْر، أو قَس، أو مَنْجَم، أو كاهن.

بل لو كان هذا بعدُ كُلُّهُ لكانَ مَجِيءُ ما أتى به في مُعْجَزِ القرآنِ قاطعاً لكل عُذْر، ومُدْحِضاً لكل حُجَّة، ومُجْلِيّاً لكل أمر.

فصل

فِي أَخْبَارِهِ ﷺ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَرُؤْيَا كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ

ومن خصائصه - عليه السلام - وكراماته، وباهر آياته أنبأؤه مع الملائكة والجن، وإمْدَادُ اللَّهِ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَطَاعَةُ الْجِنِّ لَهُ، وَرُؤْيَا كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤٤].

وقال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَتَيَاؤُا الزَّيْنِ مَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ أَتَىٰ مُؤَدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ [١] وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢] [الأنفال: ٩، ١٠].

وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُئِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [٣] [الأحقاف: ٢٩].

١٠٩٧ - حدثنا سُفيان بن العاصي الفقيه، بسماعي عليه، حدثنا أبو الليث السمرقندي، قال: حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابنُ سفيان، حدثنا مُسلم، حدثنا عُبيدُالله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شُعْبَةُ، عن سليمان الشيباني، سمع زُرَّ بن حُبَيْش، عن عبدالله، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَرِّي﴾ [٤] [النجم: ١٨]. قال: رأى جبريل عليه السلام في صورته، له ستُّ مئة جناح [البخاري (٣٧٣٢)، مسلم (٢٨٢/١٧٤)].

١٠٩٨ - والخَبَرُ في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما شاهده من كثرتهم وعِظَمِ ضُورِ بعضهم ليلة الإسراء مشهورٌ.

١٠٩٩ - وقد رآهم بخضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة، فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رَجُلٍ يسأله عن الإسلام والإيمان [البخاري (٥٠)، مسلم (٩، ١٠)].

١١٠٠، ١١٠١ - ورأى ابنُ عباس، وأُسامَةُ بن زيد، وغيرُهما عنده جبريل في صورة دحية.

١١٠٢ - ورأى سعدٌ عن يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين عليهما ثياب بيض [البخاري (٤٠٥٤)، مسلم (٢٣٠٦)].

ومثله عن غير واحد.

١١٠٣ - وسمِعَ بعضهم زَجَرَ الملائكة خيلها يوم بدر [مسلم (١٧٦٣)].

١١٠٤ - وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار، ولا يرون الضارب [أحمد (٤٥٠/٥)].

١١٠٥ - ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذ رجلاً بيضاً على خيل بلقي بين السماء والأرض، ما يقوم لها شيء.

١١٠٦ - وقد كانت الملائكة تصافحُ عمران بن الحصين [مسلم (١٦٧/١٢٢٦)].

١١٠٧ - وأرأى النبي ﷺ لحمزة جبريل في الكعبة، فخر مغشياً عليه.

١١٠٨ - ورأى عبدالله بن مسعود الجَنُّ ليلة الجَنِّ، وسمع كلامهم، وشبههم برجال الزُّط [مسلم (٤٥٠)].

١١٠٩ - وذكر ابنُ سعيدٍ أَنَّ مُضْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ لما قُتِلَ يومَ أحدٍ أخذَ الرأيةَ مَلَكٌ على صورته، فكان النبي ﷺ يقول له: «تَقَدَّمْ، يَا مُضْعَبُ!» فقال له المَلَكُ: لَسْتُ بِمُضْعَبٍ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مَلَكٌ.

١١١٠ - وقد ذكرَ غَيْرُ واحدٍ من المصنِّفين عن عُمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - أَنَّهُ قال: بيَّنا نحنَ جلوسٌ مع النبي ﷺ إذ أَقْبَلَ شيخٌ بيده عصا، فسَلَّمَ على النبي ﷺ، فردَّ عليه، وقال ﷺ: «نِعْمَةُ الجَنِّ! مَنْ أَنْتَ؟» قال أنا هامةُ بن الهيثم بن لاقس بن إبليس، فذكر أَنَّهُ لَقِيَ نوحاً وَمَنْ بَعْدَهُ... في حديث طويل، وَأَنَّ النبي ﷺ علَّمَهُ سُوراً من القرآن.

١١١١ - وذكر الواقدي رحمه الله قتل خالدٍ عند هُذَيمَةَ الغَزَيِّ للسوداء التي خَرَجَتْ له ناشِرةٌ شَعْرَها غُرْبَانَةً، فجزَّلها بسيفه، وأعلم النبي ﷺ، فقال له: «تلك الغَزَيُّ».

١١١٢ - وقال عليه السلام: «إِنَّ شَيْطَاناً تَفَلَّتْ البَارِحَةُ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنَتِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَذْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِيِ الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سَلِيمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِثُنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِلَّا أَنْتَ الرَّعَابُ﴾ [ص: ٣٥] قرَّه الله خاسئاً» [البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١)]. وهذا بابٌ واسعٌ.

فصل

فِي إِيْخْبَارِ الرُّهْبَانِ وَالْأَخْبَارِ وَعِلْمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبارُ عن الرهبان والأخبارِ وعلماء أهل الكتاب، من صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ واسمِهِ وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كنفه، وما وُجِدَ من ذلك في أشعار الموحِّدين المتقدمين، من شِعْرِ ثُبُعٍ، والأَوْسِ بنِ حارثة، وكعب بن لؤي، وسُفْيَانَ بنِ مُجَاشِعٍ، وقُتَيْبِ بنِ ساعدة، وما ذُكِرَ عن سَيْفِ بنِ ذِي يَزْدَ وغيرهم.

وما عُرِفَ به من أمره زَيْدُ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ، وَوَرَقَةُ بنُ نُوْفَلٍ، وَعَثْكَلاَنُ الجَمْعِيَّيْنِ، وعلماء يَهُودٍ، وشامولُ عالِمُهُم صاحبُ ثُبُعٍ، من صِفَتِهِ وَخَبَرِهِ. وما أُلْفِيَ مِنْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مَا قَدْ جَمَعَهُ الْعُلَمَاءُ وَبَيَّنَّهُ، ونقله

عنهما يَثْقَاتُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمَا، مِثْلُ ابْنِ سَلَامٍ، وَبَنِي سَفِيَّةَ، وَابْنِ يَامِينَ، وَمُخَيَّرِيقَ، وَكَعْبَ، وَأَسْبَاهَهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ يَهُودَ.

وَبَجِيرَا [الترمذي (٣٦٢٠)]، وَنُسْطُورُ الْحَبْشَةِ، وَصَاحِبُ بُضْرَى، وَضَفَاطِرُ، وَأَسْقَفُ الشَّامِ، وَالْجَارُودُ، وَسَلْمَانُ وَتَمِيمُ، وَالنَّجَاشِيُّ، وَنَصَارَى مِنَ الْحَبْشَةِ، وَأَسَاقِفُ نَجْرَانَ، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى.

وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ هِرَقْلُ، وَصَاحِبُ رُومَةَ عَالِمَا النَّصَارَى، وَرَثِيصَاهُمَا، وَمُقَوْقِسُ: صَاحِبُ مِصْرَ، وَالشَّيْخُ صَاحِبُهُ، وَابْنُ صُورِيَا، وَابْنُ أَخْطَبَ، وَأَخُوهُ، وَكَعْبُ بْنُ أَسَدَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَاطِيئَا، وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، مِمَّنْ حَمَلَهُ الْحَنْدُ وَالنَّفَاسَةُ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَى الشَّقَاوَةِ، وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ لَا تَحْصُرُ.

وَقَدْ قَرِئَ أَسْمَاعُ يَهُودَ وَالنَّصَارَى بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أَصْحَابِهِ، وَاحْتِجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ صَحُفُهُمْ، وَذَمُّهُمْ بِتَحْرِيفِ ذَلِكَ وَكَيْفَانِهِ، وَلَيْتَهُمُ أَلَسْتَهُمْ بَيِّنَ أَمْرِهِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ عَلَى الْكَاذِبِ، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَفَرَّعَ عَنْ مَعَارَضَتِهِ، وَإِبْدَاءِ مَا أَلْزَمَهُمْ مِنْ كُتُبِهِمْ إِظْهَارَهُ.

وَلَوْ وَجَدُوا خِلَافَ قَوْلِهِ لَكَانَ إِظْهَارُهُ أَهْوَى عَلَيْهِمْ مِنْ بَذْلِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ وَتَخْرِيبِ الدِّيَارِ وَنَبْذِ الْقِتَالِ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

إِلَى مَا أُنْذِرُ بِهِ الْكُفَّانَ، مِثْلُ: شَافِعِ بْنِ كَلْبِ، وَشَيْقَ، وَسَطْبِيحَ، وَسُودَ بْنِ قَارِبَ، وَخُنَافِرَ، وَأَفْعَى نَجْرَانَ، وَجَذَلَ بْنِ جَذَلَ الْكِنْدِيِّ، وَابْنَ خَلَصَةَ الدُّوسِيِّ، وَسُعْدَى بِنْتِ كُرَيْزَ، وَفَاطِمَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ، وَمَنْ لَا يَنْغَدُ كَثْرَةً.

إِلَى مَا ظَهَرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ نُبُوتِهِ، وَحُلُولِ وَقْتِ رِسَالَتِهِ، وَسُجْعِ مِنْ هَوَاتِفِ الْجَانِ، وَمِنْ ذَبَانِحِ النَّصَبِ، وَأَجَوَابِ الصُّورِ، وَمَا وَجَدَ مِنْ اسْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالرِّسَالَةِ مَكْتُوباً فِي الْحِجَارَةِ وَالْقُبُورِ بِالْخَطِّ الْقَدِيمِ، مَا أَكْثَرُهُ مَشْهُورٌ، وَإِسْلَامُ مَنْ أَسْلَمَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ مَذْكُورٌ.

فصل

فِي الْآيَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ عِنْدَ مَوْلِدِهِ ﷺ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ظَهَرَ مِنَ الْآيَاتِ عِنْدَ مَوْلِدِهِ، وَمَا حَكَّتْهُ أُمُّهُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْعَجَائِبِ.

١١١٣ - وَكَوْنُهُ رَافِعاً رَأْسَهُ عِنْدَمَا وَضَعْتَهُ، شَاخِصاً بِنَصْرِهِ إِلَى السَّمَاءِ.

١١١٣م - وما رَأَتْهُ من الثَّور الذي خرج معه عند ولادته.

١١١٤ - وما رَأَتْهُ إِذْ ذَاكَ أُمُّ عِثْمَانَ بن أَبِي العاصِ مِنْ تَدَلِّي النجوم، وظهورِ الثَّور عند ولادته، حتَّى ما تَنْظُرُ إِلَّا الثَّور.

١١١٥ - وقولِ الشَّفاءِ، أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ: لما سَقَطَ عليه السَّلامُ على يَدَيَّ واستَهْلَ سَمِيعُ قَائِلًا يَقول: رَحِمَكَ اللَّهُ، وَأَضَاءَ لي ما بين المَشْرِقي والمغرب حتَّى نظرتُ إلى قُصور الرُّومِ.

١١١٦ - وما تعرَّفتُ به حَلِيمَةُ ورَؤُوسُهَا - ظُفْرُهَا - مِنْ بَرَكَتِهِ، وَدُورِ لَبَنِهَا له، وَلَبَنِ شَارِفِهَا وَخَضِبِ عَنِّيْهَا، وَسُرْعَةِ شَبَابِهِ، وَحُسْنِ نَشَأَتِهِ.

١١١٧ - وما جرى من العجائب لَيْلَةَ مولده، من ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط شُرَفَاتِهِ، وَغَيْضِ بحيرة طبرية، وخمود نار فارس، وكان لها أَلْفُ عامٍ لم تَحْمَد.

١١١٨ - وأنه كان - عليه الصلاة والسلام - إِذَا أَكَلَ مع عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِهِ - وهو صغير - شَبَعُوا وَرَوَّوْا، فَإِذَا غَابَ فَأَكَلُوا فِي غَيْبِهِ لَمْ يَشْبَعُوا. وكان سائرُ وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ يُصْبِحُونَ شُغْنًا وَيُضْبِحُ هُوَ ۖ صَقِيلًا ذَمِينًا كَجِيلًا.

١١١٩ - قالت أُمُّ أَيْمَنٍ حَاضِنَتُهُ: ما رَأَيْتُهُ ۖ شَكَا جُوعًا قَطُّ وَلَا عَطْشًا صغيراً ولا كبيراً.

ومن ذلك حراسةُ السماءِ بالشُّهبِ، وَقَطْعُ رَصَدِ الشَّيَاطِينِ، وَمَنْعُهُم اسْتِراقَ السَّمْعِ.

١١٢٠ - وما نشأَ عليه مِنْ بُغْضِ الأصنامِ.

١١٢٠م - والعَقَّةُ عن أمورِ الجاهليةِ.

١١٢٠م - وما خَصَّه اللَّهُ به مِنْ ذَلِكَ وَحَمَاهُ حتَّى فِي سِتْرِهِ فِي الْخَبَرِ المشهورِ عند بِنَاءِ الكعبةِ إِذْ أَخَذَ إِزَارَهُ لِيَجْعَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، لِيَحْمَلَ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ وَتَعْرَى، فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ حتَّى رَدَّ إِزَارَهُ عَلَيْهِ.

فقال له عَمُّهُ: ما بِأَلْكَ؟ قال: «إِنِّي قَدْ نَهَيْتُ عَنْ التَّعْرِي» [البخاري (٣٦٤)، مسلم (٣٤٠)].

١١٢١ - ومن ذلك إِظْلَالُ اللَّهِ له بِالْعَمَامِ فِي سَفَرِهِ.

١١٢٢ - وفي رواية: أَنَّ خَدِيجَةَ ونساءَهَا رَأَيْنَهُ لَمَّا قَدِمَ، وَمَلَكَانِ يُظْلَتَانِ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَمَيْسَرَةَ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ مِنْذُ خَرَجَ مَعَهُ فِي سَفَرِهِ.

١١٢٣ - وقد رُوي أَنَّ حَلِيمَةَ رَأَتْ غَمَامَةً تُظِلُّهُ، وهو عندها.

١١٢٣ م - وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَخِيهِ مِنَ الرُّضَاعَةِ.
 ١١٢٤ - وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَابِسَةٍ،
 فَاعْتَمَسَ مَا حَوْلَهَا وَأَيْتَمَعَتْ هِيَ فَأَشْرَقَتْ وَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَغْصَانُهَا بِمَخْضَرٍ مِّنْ رَّأَى.
 ١١٢٥ - وَمِثْلُ قِيَّةِ الشَّجَرَةِ إِلَيْهِ فِي الْخَبَرِ الْآخِرِ حَتَّى أَظْلَمَتْهُ.
 ١١٢٦ - وَمَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّهُ كَانَ لَا ظِلَّ لِشَخْصِهِ فِي شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ، لَأَنَّهُ كَانَ نُورًا.

١١٢٧ - وَأَنَّ الدُّبَابَ كَانَ لَا يَقَعُ عَلَى جَسَدِهِ وَلَا ثِيَابِهِ.
 ١١٢٨ - وَمِنْ ذَلِكَ: تَخْيِيبُ الْخُلُوفِ إِلَيْهِ حَتَّى أَوْجِيَ إِلَيْهِ [البخاري (٣)، مسلم (١٦٠)].

١١٢٩ - ثُمَّ إِعْلَامُهُ بِمَوْتِهِ وَدُثْنُ أَجَلِهِ [البخاري (٦١٨٦)، مسلم (٢٤٥٠)].
 ١١٣٠ - وَأَنَّ قَبْرَهُ بِالْمَدِينَةِ.
 ١١٣١ - وَفِي بَيْتِهِ.
 ١١٣٢ - وَأَنَّ بَيْنَ بَيْتَيْهِ وَبَيْنَ مِثْبَرِهِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ.
 ١١٣٣ - وَتَخْيِيرُ اللَّهِ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ [البخاري (٤٦٦)، (٦٣٤٨)، مسلم (٢٤٤٤)].
 ١١٣٤ - وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْوَفَاءِ مِنْ كِرَامَاتِهِ، وَتَشْرِيفِهِ، وَصَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى جَسَدِهِ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِهَا.
 وَاسْتِثْنَاءُ مَلِكِ الْمَوْتِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ عَلَى غَيْرِهِ قَبْلَهُ.
 ١١٣٥ - وَنِدَائِهِمُ الَّذِي سَمِعُوهُ إِلَّا يَنْزِعُوا الْقَمِيصَ عَنْهُ عِنْدَ غُسْلِهِ [أَبُو دَاوُدَ (٣١٤٠)].

١١٣٦ - وَمَا رُوِيَ مِنْ تَغْرِيزِ الْخَضِرِ وَالْمَلَائِكَةِ أَهْلَ بَيْتِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.
 إِلَى مَا ظَهَرَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ كِرَامَاتِهِ وَبِرْكِيهِ فِي حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ.
 ١١٣٧ - كَاسْتِسْقَاءِ عُمَرُ بَعْمَهُ [البخاري (١٠١٠)]، وَتَبَرُّكِ غَيْرِ وَاحِدٍ بِذُرِّيَّتِهِ.

فصل

فِي أَنَّ مُفْجِرَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَظْهَرَ مِنْ سَائِرِ مُفْجِرَاتِ الرُّسُلِ

قال القاضي أبو الفضل: قد أتينا في هذا الباب على نكَبٍ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ وَاضِحَةٍ، وَجُمْلٍ مِنْ عِلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ مُقْنَعَةٍ، فِي وَاحِدٍ مِنْهَا الْكَفَايَةُ وَالْعُنْيَةُ، وَتَرَكْنَا الْكَثِيرَ سِوَى مَا ذَكَرْنَا، وَاقْتَصَرْنَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الطُّوَالَ عَلَى غَيْرِ الْغَرَضِ، وَقَصَّ

المقصد، ومن كثير الأحاديث وغريبها على ما صَحَّ واشتهر إلا يسيراً من غريبه مما ذكره مشاهير الأئمة، وحذفنا الإسناد في جمهورها، طلباً للاختصار. وبحسب هذا الباب لو تَقْصِي أن يكون ديواناً جامعاً يشتمل على مُجلّدات عدة.

ومعجزات نبينا ﷺ أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين: أحدهما: كثرتها، وأنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا مثلهما، أو ما هو أبلغ منها.

وقد نبّه الناس على ذلك، فإن أزدته فتأمل فصول هذا الباب، ومعجزات من تقدّم من الأنبياء، تبيّن على ذلك إن شاء الله تعالى. وأما كونها كثيرة فهذا القرآن، وكله مُعْجَزٌ، وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١]، أو آية في قدرها.

وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه - كيف كانت - معجزة. وزاد آخرون إلى أن كل جملة مُنْتَظِمَةٌ منه معجزة، وإن كانت من كلمة كلمتين.

والحق ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا إِسْرَافَ بَيْنِ مَثَلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهو أقل ما تحدّاهم به، مع ما ينصر هذا من نظر وتحقيق يطول بسطه. وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم، وعدّد كلمات: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١] عشر كلمات، فتجزؤ القرآن على نسبة عدد: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١] أزيد من سبعة آلاف جزء، كل واحد منها مُعْجَزٌ في نفسه.

ثم إعجازه - كما تقدّم - بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار في كل جزء من هذا العدد مُعْجَزَتَانِ، فتضاعف العدد من هذا الوجه. ثم فيه وجوه إعجاز آخر من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجزة فيتضاعف العدد كرامة أخرى.

ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العدد معجزاته، ولا يخوي الحضر براهينه. ثم الأحاديث الواردة، والأخبار الصادرة عنه - عليه السلام - في هذه

الأبواب وعما دلّ على أمره مما أشرنا إلى جُمْلَه تَبْلُغُ نحواً من هذا.
الوجه الثاني: وضوح معجزاته ﷺ، فإنّ معجزات الرُّسُلِ كَانَتْ بِقَدْرِ هِمَمِ
أهل زمانهم، وبحسب الفن الذي سما فيه قُرْنَه.

فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السُّخر، بُعث إليهم موسى بمعجزة
تُشَبِّه ما يدَّعون قُدْرَتَهُمْ عليه، فجاءهم منها ما خرق عاداتهم، ولم يكن في
قُدْرَتِهِمْ، وأَبْطَلَ سِحْرَهُمْ.

وكذلك زمن عيسى أَعْتَى ما كان الطبُّ، وأوفر ما كان أهله، فجاءهم أمر
لا يقدرُون عليه، وأنّاهم ما لم يحسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص
دون معالجة ولا طب.

وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

ثم إنّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ، وجملته معارف العرب وعلومها أربعة:
البلاغة، والشعر، والخبر، والكهانة، فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة
فصول من الفصاحة، والإيجاز، والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم، ومن النظم
الغريب، والأسلوب العجيب الذي لم يَهْتَدُوا في المنظوم إلى طريقه، ولا علموا
في أساليب الأوزان منهجه، ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار
والمُخْبَنَاتِ والضمائر، فتوجد على ما كانت، ويعترف المُخْبِرُ عنها بصحة ذلك
وصدقه، وإن كان أغدى العدو.

فأبطل الكهانة التي تصدق مرةً وتكذب عَشْرًا، ثم اجتثها من أصلها برجم
الشُّهب، ورصد النجوم.

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة وأنبياء الأنبياء، والأمم البائدة،
والحوادث الماضية، ما يَفْعَزُ مَنْ تفرغ لهذا العلم عن بعضه، على الوجوه التي
بسطناها، وبيننا المُعْجَزَ فيها.

ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلى الفصول الأخر التي ذكرناها
في معجزات القرآن ثابتة إلى يوم القيامة، بينة الحجة لكل أمة تأتي، لا يخفى
وجوه ذلك على مَنْ نظر فيه، وتأمل وجوه إعجازه.

إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل، فلا يمرَّ عَصْرٌ ولا زَمَنٌ إلا
ويظهر فيه صدقه بظهور مُخْبِرِه على ما أخبر، فيتجدد الإيمان، ويتظاهر البرهان،
وليس الخبر كالعيان كما قيل، وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشدُّ طمأنينةً

إلى عَيْنَ اليقين منها إلى علم اليقين وإن كان كلُّ عندها حقاً.

وسائر معجزات الرسل انقضت بانقراضهم، وعُدِمَتْ بَعْدَ ذَوَاتِهَا، ومعجزة نبينا ﷺ لا تَبِيدُ ولا تَقْطَعُ، وآيَاتُهُ تَتَجَدَّدُ ولا تَضْمَحَلُ.

١١٢٨ - ولهذا أشار - عليه السلام - بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو علي، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهيثم، قالوا: حدثنا القُرْبَرِيُّ، حدثنا البخاري، حدثنا عبدالعزيز بن عبد الله، حدثنا الليث، عن سَعِيدٍ، عن أَبِيهِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَ وَخِيّاً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [البخاري (٧٢٧٤)].

هذا معنى الحديث عند بعضهم، وهو الظاهر، والصحيح، إن شاء الله. وذهب غير واحد من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا - عليه السلام - إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وَخِيّاً وكلاماً لا يمكن التخيل فيه، ولا التحيل عليه، ولا التشبيه، فإن غيرها من معجزات الرسل قد زَامَ المعاندون لها بأشياء طَمَعُوا في التخيل بها على الضعفاء كإلقاء السحرة حبالهم وعصيتهم وشبه هذا مما يَخِلُّه الساحر، أو يتحيل فيه.

والقرآن كلامٌ ليس للحيلة ولا للسحر في التخيل فيه عمل، فكان من هذا الوجه عندهم أظهر من غيره من المعجزات، كما لا يتم لشاعر ولا لخطيب أن يكون شاعراً أو خطيباً بضرب من الحيل والتفويه.

والتأويل الأول أخلص وأرضى.

وفي هذا التأويل الثاني ما يُعَمِّضُ الْجَفْنَ عليه ويُغْضِي.

ووجه ثالث على مذهب مَنْ قال بالصُرْفَةِ، وَأَنَّ المعارضة كانت في مقدور البشر، فَصُرِفُوا عنها، أو على أحد مذهبَي أهل السنة من أَنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ مِنْ جِنْسٍ مَقْدُورِهِمْ، ولكن لم يكن ذلك قَبْلَ، ولا يكون بعد، لأن الله تعالى لم يَقْدِرْهُمْ، ولا يَقْدِرْهُمْ عليه.

وبين المذهبين فرقٌ بَيِّنٌ، وعليهما جميعاً، فَتَرَكُ العرب الْإِتْيَانَ بما في مقدورهم، أو ما هو من جِنْسٍ مَقْدُورِهِمْ، وَرِضَاهُمْ بِالْبَلَاءِ، وَالْجَلَاءِ، وَالسَّبَاءِ، وَالْإِذْلَالِ، وَتَغْيِيرِ الْحَالِ، وَسَلْبِ النَفُوسِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالتَقْرِيعِ، وَالتَوْبِيخِ،

والتعجيز، والتهديد، والوعيد - أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله، والنكول عن معارضته، وأنهم مُنعوا عن شيء هو من جنس مقدورهم.

والى هذا ذهب الإمام أبو المعالي: الجويني، وغيره، قال: وهذا عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها، كقلب العصا حية ونحوها، فإنه قد يسبق إلى بال الناظر بداراً أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك الفن، وفضل علم إلى أن يرد ذلك صحيح النظر.

وأما التحدي للخلائق في مئين من السنين بكلام من جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا، فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عَدَمُهَا إِلَّا مَنَعُ اللَّهِ الخلق عنها بمثابة ما لو قال نبي: آتني أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم عليه، وارتفاع الزمانية عنهم، فكان ذلك، وعجزهم الله تعالى عن القيام، لكان ذلك من أبهر آية، وأظهر دلالة. وبالله التوفيق.

وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء، حتى احتاج للعدر عن ذلك بدقة أفهام العرب، وذكاء ألبابها، وفور عقولها، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم، وجاءهم من ذلك بحسب إدراكهم، وغيرهم من القبط ويني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل، بل كانوا من العباوة، وقلة الفطنة، بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم، وجوز عليهم السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم، وعبدوا المسيح مع إجماعهم على ضلبه: ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ لَّهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلظ أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ولم يصبروا على المن والسلوى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والعرب - على جاهليتها - أكثرها يعترف بالصانع، وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله زلفى.

ومنهم من آمن بالله وخده من قبل الرسول ﷺ بدليل عقله، وصفاء لبه. ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته، وتبينوا - بفضل إدراكهم لأول وهلة - معجزته، فآمنوا به، وازدادوا كل يوم إيماناً، وزفصوا الدنيا كلها في صحبته، وهجروا ديارهم وأموالهم، وقتلوا آباءهم وأبناءهم في نصرتهم، وأتى في معنى هذا بما يلوح له زوئق، ويُعجب منه زبرج لو احتيج إليه وحقق، لكننا قدمنا

من بيان معجزة نبينا ﷺ وظهورها ما يُغني عن ركوب بطون هذه المسالك
وظهورها.

وبالله أستعين وهو خسي، ونعم الوكيل.

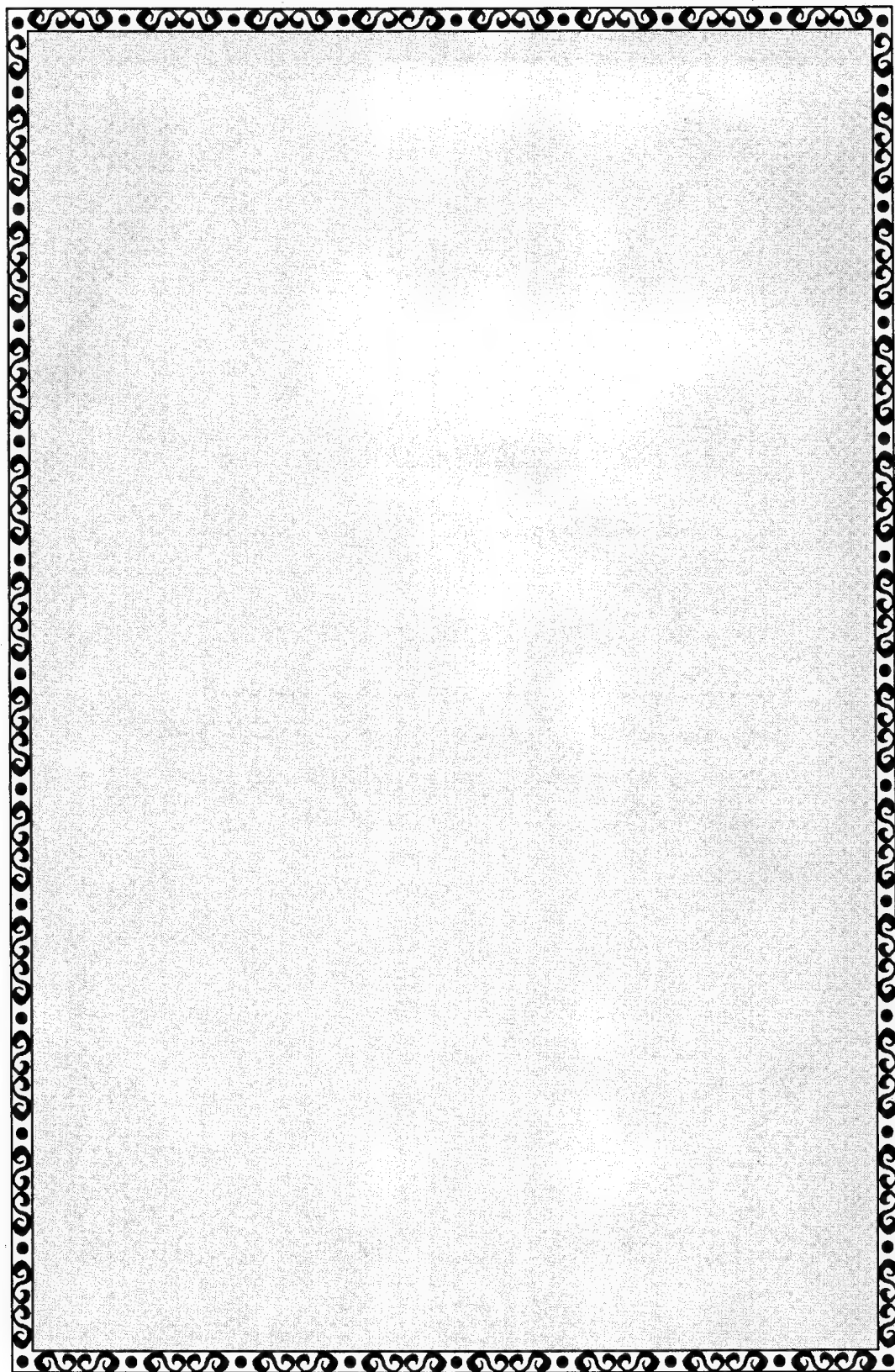


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وهذا قِسْمٌ لَخَصْنَا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه في أول الكتاب، ومجموعها في وجوب تصديقه وأتباعه في سُنَّتِهِ وطاعته، ومحَبَّتِهِ ومُنَاصَحَتِهِ، وتوقيره، وبرّه، وحُكْمِ الصَّلَاةِ عليه، والتسليم، وزيارة قَبْرِهِ ﷺ



الباب الأول

في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرر بما قدّمناه ثبوت نبوته وصحة رسالته، وجب الإيمان به وتصديقه فيما أنى به؛ قال الله تعالى: ﴿قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].
وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ [الفتح: ٨، ٩].

وقال: ﴿قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْتِي بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ. وَأَتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالإيمان بالنبي محمد - عليه السلام - واجب متعين لا يتم الإيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

١١٣٩ - حدثنا أبو محمد الخُشَنِيُّ الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا الإمام أبو علي الطبري، حدثنا عبدالغافر الفارسي، حدثنا ابن عَمْرٍو، حدثنا ابن سَفْيَانَ، حدثنا أبو الحُسَيْن، حدثنا أُمَيَّةُ بن بَسْطَام، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا رَوْح، عن العلاء بن عبدالرحمن بن يعقوب، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ؛ قال: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [البخاري (١٣٩٩)].

قال القاضي أبو الفضل:

والإيمان به - عليه السلام - هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه

رسول الله؛ فإذا اجتمع التصديق به بالقلب، والنطق بالشهادة بذلك باللسان.

١١٤٠ - ثم الإيمان به والتصديق له. كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَمِزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» [البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢)].

١١٤١ - وقد زادة وضوحاً في حديث جبريل؛ إذ قال: أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...» وذكر أركان الإسلام. ثم سأله عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...» الحديث.

فقد قرّر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان، والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان.

وهذه الحال المحمودّة التامة.

وأما الحالة المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق بالقلب، وهذا هو الشقاق؛ قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ أي كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم، وهم لا يعتقدونه؛ فلما لم تصدّق ذلك ضمائرهم لم ينفغهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم في الآخرة حكمه؛ إذ لم يكن معهم إيمان، ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار، وبقي عليهم حكم الإسلام، بإظهار شهادة اللسان، في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر، بما أظهره من علامة الإسلام؛ إذ لم يُجعل للبشر سبيل إلى السرائر، ولا أمروا بالبحث عنها؛ بل نهى النبي ﷺ عن التحكّم عليها؛ وذم ذلك.

١١٤٢ - وقال: «هَلَا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ» [مسلم (٩٦)، البخاري (٦٨٧٢)].

وللفرق بين القول والعقد ما جعل في حديث جبريل: الشّهادة من الإسلام، والتصديق من الإيمان.

وبيّنت حالتان أخريّان بين هذين:

١١٤٣ - إحداهما: أَنْ يُصَدِّقَ بِقَلْبِهِ ثُمَّ يُخْتَرَمَ قَبْلَ اتِّسَاعِ وَقْتِ الشَّهَادَةِ بِلِسَانِهِ؛ فاختلف فيه؛ فشرط بعضهم من تمام الإيمان للقول والشهادة به؛ ورآه بعضهم مؤمناً مستوجباً للجنة؛ لقوله عليه السلام: «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ» [الترمذي (٢٥٩٨)]؛ فلم يذكر سوى ما في القلب.

وهذا مؤمن بقلبه، غير عاصٍ ولا مفرط بتزك غيره.

وهذا هو الصحيح في هذا الوجه.

الثانية: أن يصدق بقلبه ويطول مهله، وعلم ما يلزمه من الشهادة؛ فلم ينطق بها جملة ولا استشهد في عمره ولا مرة واحدة؛ فهذا اختلف فيه أيضاً؛ فقول: هو مؤمن؛ لأنه مصدق، والشهادة من جملة الأعمال؛ فهو عاصٍ بتزكها غير مخلد في النار.

وقيل: ليس بمؤمن حتى يقارن عقده شهادة اللسان؛ إذ الشهادة إنشاء عقد، والتزام إيمان؛ وهي مرتبطة مع العقد، ولا يتم التصديق مع المهلة إلا بها. وهذا هو الصحيح.

وهذه نبذة تفصي إلى متسع من الكلام في الإسلام والإيمان وأبوابهما، وفي الزيادة فيهما والنقصان، وهذا للتجزئي مختبِع على مجرد التصديق لا يصح فيه جملة؛ وإنما يرجع إلى ما رآه عليه من عمل، وقد يعرض فيه لاختلاف صفاته، وتباين حالته؛ من قوة يقين، وتصميم اعتقاد، ووضوح معرفة، ودوام حالة، وحضور قلب.

وفي بسط هذا خروج عن غرض التأليف؛ وفيما ذكرنا غنية فيما قصدنا إن شاء الله.

فصل

في وجوب طاعته

وأما وجوب طاعته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به؛ قال الله تعالى: ﴿يَتَابِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال: ﴿وَلَا تَطِيعُوا نَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَا أَلَيْنَاكَ الرَّسُولَ فَحُذِرُهُ وَمَا نَهَيْتُكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُرُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب؛ وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه. قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به. وقالوا: وما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه. وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه. وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام؛ فقال: ﴿وَمَا أَمَّاكُمْ الرَّسُولُ فَحُذُّهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال السمرقندي: يقال: أطيعوا الله في فرائضه، والرسول في سنته. وقيل: أطيعوا الله فيما حرم عليكم، والرسول فيما بلغكم. ويقال: أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية، والنبى بالشهادة له بالنبوة. ١١٤٤ - حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراعتي عليه، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن: علي بن محمد بن خلف، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي» [البخاري (٧١٣٧)، مسلم (١٨٣٥)].

فطاعة الرسول من طاعة الله؛ إذ الله أمر بطاعته؛ فطاعته امتثال لما أمر الله به، وطاعة له.

وقد حكى الله عن الكفار في ذركات جهنم: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الاحزاب: ٦٦]؛ فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

١١٤٥ - وقال عليه السلام: «إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧)].

١١٤٦ - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه عليه السلام: «كُلُّ أَمْنِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى».

قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» [البخاري (٧٢٨٠)].

١١٤٧ - وفي الحديث الآخر الصحيح، عنه عليه السلام: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ! إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِغَيْثِي، وَإِنِّي أَنَا التَّلْبِيزُ الْعَرَبِيَّ، فَالْتَجَاءُ؛ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَتَنَجُّوا؛ وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَاصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَمْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» [البخاري (٧٢٨٣)، مسلم (٢٢٨٣)].

١١٤٨ - وفي الحديث الآخر في مثله: «كَمَثَلِ مَنْ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًّا؛ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَائِدَةِ؛ وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَائِدَةِ؛ فَالِدَارُ: الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِيَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ؛ وَمُحَمَّدٌ فَرَقَ بَيْنَ النَّاسِ» [البخاري (٧٢٨١)].

فصل

فِي وَجُوبِ اتِّبَاعِهِ وَامْتِنَالِ سُنَّتِهِ وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ

وأما وجوب اتِّبَاعِهِ وَامْتِنَالِ سُنَّتِهِ وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].
وقال: ﴿فَتَأْمُرُونَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي الْأَمْرُ لِلَّهِ يَوْمُئِذٍ وَاللَّهُ وَكَالِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لِمَا كُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي ينفقون لحكمك؛ يقال: سلم، واستسلم، وأسلم؛ إذا انقاد.

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الآية [الأحزاب: ٢١]].

قال محمد بن علي الترمذي: الأُسْوَةُ فِي الرِّسُولِ الْاِقْتِدَاءُ بِهِ، وَالْاِتِّبَاعُ لِسُنَّتِهِ، وَتَرْكُ مَخَالَفَتِهِ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وقال غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِمَعْنَاهُ.

وقيل: هُوَ عِتَابٌ لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنْهُ.

وقال سَهْلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

قال: بِمُتَابَعَةِ السُّنَّةِ؛ فَأَمَرَهُمُ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَوَعَدَهُمُ الْاِهْتِدَاءَ بِاتِّبَاعِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ

تعالى أرسله بالهدى ودين الحق لِيُزَكِّيَهُمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى وَمَغْفِرَتِهِ إِذَا أَتَبَعُوهُ، وَأَثَرُهُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ نَفْسُهُمْ؛ وَأَنَّ صِحَّةَ إِيْمَانِهِمْ بَانْتِقَادِهِمْ لَهُ، وَرِضَاهُمْ بِحُكْمِهِ، وَتَرْكُ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ.

١١٤٩ - وَرَوَى عَنْ الْحَسَنِ أَنَّ أَقْوَامًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نُحِبُّ اللَّهَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَرَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي كُفْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ؛ وَنَحْنُ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

وَقَالَ الرَّجُلُ: مَعْنَاهُ إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ اللَّهَ - إِنْ تَقْصِدُوا طَاعَتَهُ - فَافْعَلُوا مَا أَمَرَكُم بِهِ؛ إِذْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ: طَاعَتُهُ لِهَئِمَّا، وَرِضَاهُ بِمَا أَمَرَ؛ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُمْ عَفْوُهُ عَنْهُمْ، وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ.

وَيُقَالُ: الْحُبُّ مِنَ اللَّهِ عَصْمَةٌ وَتَوْفِيقٌ؛ وَمِنْ الْعِبَادِ طَاعَةٌ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: تَغْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَا طُغْفَاءَ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ وَيُقَالُ: مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعْظِيمُهُ لَهُ وَهَيْئَتُهُ مِنْهُ؛ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُ رَحْمَتُهُ لَهُ، وَإِرَادَتُهُ الْجَمِيلَ لَهُ؛ وَتَكُونُ بِمَعْنَى مَدْحِهِ وَثَنَانِهِ عَلَيْهِ.

قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: فَإِذَا كَانَ بِمَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَدْحِ كَانَ مِنْ صِفَاتِ الْذَاتِ. وَسَيَأْتِي بَعْدَ فِي ذِكْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ غَيْرُ هَذَا بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

١١٥٠ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرِ الْفَقِيهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَصْبَحِ: عَيْسَى بْنُ سَهْلٍ، وَحَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: يُونُسُ بْنُ مُغِيثِ الْفَقِيهِ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَفْصِ الْجَهَنِّي، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْأَجْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الْجَوَزِيُّ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ، وَخُنْجَرِ الْكَلَاعِيِّ، عَنْ الْعِزْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ فِي حَدِيثِهِ فِي مَوْعِظَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؛ عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَمُخَدَّنَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُخَدَّنَةٍ بِذَعَةٍ وَكُلُّ بِذَعَةٍ ضَلَالَةٌ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٧)، التِّرْمِذِيُّ (٢٦٧٦)، ابْنُ مَاجَةَ (٤٢)، (٤٣)].

١١٥١ - زاد في حديث جابر بمعناه: «وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» [مسلم (٨٦٧)،

النسائي (١٨٩/٣)]...

١١٥٢ - وفي حديث أبي رافع عنه عليه السلام: «لَا أَلْفَبِيْنَ أَحَدَكُمْ مَثَكُنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ» [أبو داود (٤٦٠٥)، الترمذي (٢٦٦٣)، ابن ماجه (١٣)، أحمد (٨/٦)].

١١٥٣ - وفي حديث عائشة رضي الله عنها: صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا تَرَخَّصَ فِيهِ، فَتَنَزَّهُ عَنْهُ قَوْمٌ، فَلَبِغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ قَوْمٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟ قَوْلَالِهَا إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» [البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦)].

١١٥٤ - وزُوي عنه عليه السلام أنه قال: «الْقُرْآنُ صَغْبٌ مُسْتَضَمٌّ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ، وَهُوَ الْحَكْمُ؛ فَمَنْ اسْتَمْسَكَ بِحَدِيثِي وَفَهِمَهُ وَحَفِظَهُ جَاءَ مَعَ الْقُرْآنِ؛ وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْقُرْآنِ وَحَدِيثِي خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، أَمَرْتُ أُمَّتِي أَنْ يَأْخُذُوا بِقَوْلِي، وَيُطِيعُوا أَمْرِي، وَيَتَّبِعُوا سُنَّتِي؛ فَمَنْ رَضِيَ بِقَوْلِي فَقَدْ رَضِيَ بِالْقُرْآنِ» قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» [الحشر: ٧].

١١٥٥ - وقال عليه السلام: «مَنْ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

١١٥٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كِتَابَ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَذَّنَاتُهَا» [مسلم (٨٦٧)، ابن ماجه (٤٥)].

١١٥٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ، فَمَا سَوَّى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» [أبو داود (٢٨٨٥)، ابن ماجه (٥٤)].

١١٥٨ - وعن الحسن بن أبي الحسن رضي الله عنه: قال عليه السلام: «عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ».

١١٥٩ - وقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ الْعَبْدَ الْجَنَّةَ بِالسُّنَّةِ تَمَسُّكَ بِهَا».

١١٦٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «الْمُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فُسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مِثَّةٍ شَهِيدٍ».

١١٦١ - وقال عليه السلام: «إِنَّ بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّةً؛ وَإِنَّ أُمَّتِي تَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قالوا: وَمَنْ هُمْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي» [الترمذي (٢٦٤١)].

١١٦٢ - وعن أنس: قال عليه السلام: «مَنْ أَخْبَا سُنَّتِي فَقَدْ أَخْبَانِي، وَمَنْ أَخْبَانِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ».

١١٦٣ - وعن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لبلال بن الحارث: «مَنْ أَخْبَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أَمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَخْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً؛ وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا تَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئاً» [الترمذي (٢٦٧٧)، ابن ماجه (٢١٠)].

فصل

فِي مَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ وَالْأئِمَّةِ

مِنْ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وَسِيرَتِهِ ﷺ

١١٦٤ - وأما ما ورد عن السَّلَفِ والأئمة من اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ والاقْتِدَاءِ بِهِدْيِهِ وسِيرَتِهِ، فَحَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو عِمْرَانَ: موسى بن عبد الرحمن بن أَبِي تَلِيدٍ الْفَقِيهُ سَمَاعاً عَلَيْهِ: قال: حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الْحَافِظُ، قال: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ نَصْرٍ، حَدَّثَنَا قَاسِمُ بْنُ أَضْبَغٍ، وَوَهْبُ بْنُ مَسْرُةٍ؛ قالوا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ - أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنَّا نَجِدُ صَلَاةَ الْخَوْفِ، وَصَلَاةَ الْحَضَرِّ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا نَجِدُ صَلَاةَ السَّفَرِ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: يَا بَنَ أَخِي! إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَلَا نَعْلَمُ شَيْئاً؛ فَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَاهُ يَفْعَلُ [ابن ماجه (١٠٦٦)، النسائي (١١٦-١١٧)].

١١٦٥ - وقال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَلَاةُ الْأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَّتاً، الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ بَكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتِعْمَالُ لَطَاعَةِ اللَّهِ، وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا التَّنْظُرُ فِي رَأْيٍ مَنْ خَالَفَهَا؛ مَنْ اقْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ، وَمَنْ انْتَصَرَ بِهَا مَنْصُورٌ، وَمَنْ خَالَفَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى، وَأَضْلَاهُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

١١٦٦ - وقال الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةِ خَيْرٍ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ.

١١٦٧ - وقال ابنُ شِهَاب: بلغنا عن رجالٍ من أهلِ العلم، قالوا: الاعتصامُ بالسنةِ نِجاةٌ.

١١٦٨ - وكتب عُمرُ بن الخطاب إلى عُمَالِهِ بتعلِّمِ السنةِ والفرائضِ واللُّحْنِ. أي: اللغة.

١١٦٩ - وقال: إِنَّ نَاساً يَجَادِلُونَكُمْ - يعني: بالقرآن - فخذوهم بالسُّنَنِ؛ فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ.

١١٧٠ - وفي خبره حين صلَّى بذي الحُلَيْفَةِ رُكْعَتَيْنِ، فقال: أَصْنَعُ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ [مسلم (٦٩٢)].

١١٧١ - وعن عليٍّ - حين قرَأَ - فقال له عُثْمَانُ: تَرَى أَنِي أَنْتَهَيْتُ النَّاسَ عَنْهُ وَتَفْعَلُهُ؟ قال: لَمْ أَكُنْ أَدْعُ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ [البخاري (١٥٦٣)، مسلم (١٢٢٣)].

١١٧٢ - وعنه: أَلَا إِنِّي لَسْتُ بِنَبِيِّ وَلَا يُوحَى إِلَيَّ، وَلَكِنْ أَعْمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا اسْتَطَعْتُ.

١١٧٣ - وكان ابنُ مسعود يقول: القُضْدُ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الاجْتِهَادِ فِي الْبُذْعَةِ.

١١٧٤ - وقال ابنُ عُمرَ: صلاةُ السفرِ ركعتان؛ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ كَفَرَ.

١١٧٥ - وقال أبيُّ بن كَعْبٍ: عليكم بالسَّيْلِ والسُّنَّةِ؛ فَإِنَّهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّيْلِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خُشْيَةِ رَبِّهِ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ أَبَدًا؛ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّيْلِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ فَاقْشَعَرَ جُلْدُهُ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ قَدْ يَبَسَ وَرَقُهَا؛ فَهِيَ كَذَلِكَ، إِذْ أَصَابَتْهَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَتَحَاتَّ عَنْهَا وَرَقُهَا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا؛ فَإِنْ اقْتَصَادًا فِي سَبِيلِ وَسْئَةٍ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلِ وَسْئَةٍ، وَمُوَافَقَةٌ بِذُعَةٍ، وَانْظُرُوا أَنْ يَكُونَ عَمَلُكُمْ - إِنْ كَانَ اجْتِهَادًا وَاقْتَصَادًا - أَنْ يَكُونَ عَلَى مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ وَسُنتِهِمْ.

١١٧٦ - وكتب بعضُ عُمَالِ عُمرَ بن عبدالعزيز إلى عُمرَ بحالِ بَلَدِهِ، وَكَثْرَةِ لُصُوصِهِ؛ هَلْ يَأْخُذُهُمُ بِالطَّلَةِ، أَوْ يَخْمِلُهُمْ عَلَى الْبَيْتَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ؟

فكتب إليه عُمرُ: خُذْهُمْ بِالْبَيْتَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ؛ فَإِنْ لَمْ يُصْلِحْهُمْ الْحَقُّ فَلَا أَصْلَحْهُمْ اللَّهُ.

١١٧٧ - وعن عطاء، في قوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

١١٧٨ - وقال الشافعي: ليس في سنة رسول الله ﷺ إلا اتباعها.

١١٧٩ - وقال عمر - ونظر إلى الحجر الأسود -: واللّه! إنك حَجَرٌ لا تنفع ولا تضر؛ ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يَقْبَلُكَ ما قَبَّلْتُكَ [البخاري (١٥٩٧)، مسلم (١٢٧٠)]؛ ثم قبله.

١١٨٠ - ورُئي عَبْدُ اللَّهِ بن عُمَرُ يُدِيرُ نَاقَتَهُ في مكانٍ، فسُئِلَ عنه، فقال: لا أدري؟ إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فَعَلَهُ، ففَعَلْتُهُ [أحمد (١٢٨)].

١١٨١ - وقال أبو عثمان الجبيري: مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بالحكمة، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بالبدعة.

١١٨٢ - وقال سَهْلُ التُّسْتَرِيُّ: أصولُ مَذْهَبِنَا ثَلَاثَةٌ: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.

١١٨٣ - وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] - إنه الاقتداء برسول الله ﷺ.

١١٨٤ - وَحِكْمِي عن أحمد بن حنبل؛ قال: كُنْتُ يَوْمًا في جَمَاعَةٍ تَجَرَّدُوا ودخلوا الماء، فاستعملت الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْخُلُ الْحَمَّامَ إِلَّا بِيَمْنَزَرٍ» [الترمذي (٢٨٠٢)، النسائي (١٩٨/١)] ولم أتجرّد؛ فَرَأَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَائِلًا لِي: يَا أَحْمَدُ! أَبَشِّرْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ بِاسْتِعْمَالِكَ السُّنَّةِ، وجعلك إمامًا يُقْتَدَى بِكَ.

قلت: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل.

فصل

فِي أَنْ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ ﷺ وَتَبْدِيلُ سُنَّتِهِ ضَلَالٌ وَبِدْعَةٌ

ومخالفة أمره وتبديل سُنَّتِهِ ضَلَالٌ وَبِدْعَةٌ متوَعَّد من الله تعالى عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

١١٨٥ - حدثنا أبو محمد: عبد الله بن أبي جعفر، وعبد الرحمن بن عتاب

بقراءتي عليهما؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم: حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القاسبي، حدثنا أبو الحسن بن مسرور الدبّاغ، حدثنا أحمد بن أبي سليمان، حدثنا سُخْنُون بن سَعِيد، حدثنا ابنُ القاسم، حدثنا مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أَنَّ رسولَ الله ﷺ خرج إلى المقبرة... وذكر الحديث في صَفَةِ أُمْتِهِ؛ وفيه: «فَلْيَذْأَنْ رَجَالٌ عَنْ خَوْضِي كَمَا يُلْذُ البَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمُّ! أَلَا هَلُمُّ!»

فيقال: إنهم قد بدّلوا بَعْدَكَ. فأقول: فُسْخَقًا، فُسْخَقًا، فُسْخَقًا [البخاري (١٣٦)، مسلم (٢٤٩)].

١١٨٦ - وَرَوَى أَنَسُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [البخاري (٥٠٦٣)، مسلم (١٤٠١)].

١١٨٧ - وقال: «مَنْ أَذْخَلَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ زَدٌّ» [البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨)].

١١٨٨ - وَرَوَى ابْنُ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قال: «لَا أُلْفَيْنِ أَحَدَكُمْ مَتَكِبًا عَلَى أَرِيكَتِهِ بِأَنِّيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتِّبَعْنَاهُ».

١١٨٩ - زاد في حديث المِقْدَام: «أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» [الترمذي (٢٦٦٤)، ابن ماجه (١٢)].

١١٩٠ - وقال عليه السلام - وَجِيءَ بِكِتَابٍ فِي كَتِفٍ -: «كَفَى بِقَوْمٍ خُنْفًا - أَوْ قَالَ: ضَلَالًا - أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَى غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، أَوْ كِتَابٍ غَيْرِ كِتَابِهِمْ؛ فَتَرَلْتُ: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آتَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُشْرًا وَلَئِنْ كَفَرُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَنُكَفِّرَنَّ وَلَنُكَفِّرَنَّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

١١٩١ - وقال عليه السلام: «هَلْكَ الْمُتَنَطِفُونَ» [مسلم (٢٦٧٠)].

١١٩٢ - وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُ بِهِ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ؛ إِنِّي أَخْشَى أَنْ تُرْكِيَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ [البخاري (٣٠٩٣)، مسلم (٥٤/١٧٥٩)].



الباب الثاني

في لزوم محبته عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِئِمَّتُكُمْ وَأَنْدَادُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْرَبَتْكُمْ وَبُحَارٌ تُقَرَّبُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ تَمُوتُ فَذَرُوهَا وَاصْبِرُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكفى بهذا حرصاً وتنبهاً ودلالةً وحجةً على إلزام محبته، ووجوب قرضها، وعظم خطرهما، واستحقاقه لها عليه السلام. إذ قرع تعالى مَنْ كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى ﴿فَرَبِّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله.

١١٩٣ - أخبرنا أبو علي الغساني الحافظ فيما أجازنيه، وهو مما قرأته على غير واحد؛ قال: حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا أبو عبد الله: محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن عبدالعزيز بن ضهيب، عن أنس رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [البخاري (١٥)، مسلم (٤٤)].

١١٩٤ - وعن أبي هريرة نحوه [البخاري (١٤)].

١١٩٥ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعْوُدَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ» [البخاري (١٦)، مسلم (٤٣)].

١١٩٦ - وعن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ.
فقال النبي ﷺ: «لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ».
فقال عمر: والذي أنزَلَ عليك الكتاب! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْ.

فقال له النبي ﷺ: «الآن، يَا عُمَرَا» [البخاري (٦٦٣٢)].
١١٩٧ - قال سَهْلٌ: مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلَايَةَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَبَرَى نَفْسَهُ فِي مِلْكِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَا يَذُوقُ حَلَاوَةَ سُنَّتِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ...» الْحَدِيثُ.

فصل

فِي ثَوَابِ مَحَبَّتِهِ ﷺ

١١٩٨ - حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَتَّابٍ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ: حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ خَلْفٍ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ الْمَرْزُوقِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَنَسٍ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَتَى السَّاعَةُ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ!» قَالَ: «مَا أَغْدَذْتُ لَهَا؟» قَالَ: «مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.» قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْيَيْتَ» [البخاري (٦١٧١)، مسلم (١٦٤٢/٢٦٣٩)].

١١٩٩ - وعن صفوان بن قدامة: هاجرْتُ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَاوِلْنِي يَدَكَ أَبَايَعُكَ. فَنَاوَلَنِي يَدَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَحْبَبُكَ. قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

١٢٠٠ - وَرَوَى هَذَا اللفظُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ [البخاري (٦١٦٨)، مسلم (٢٦٤٠)].

١٢٠١ - وَأَبُو مُوسَى [البخاري (٦١٧٠)، مسلم (٢٦٤١)].

١٢٠٢ - وَأَنَسُ [أَبُو دَاوُدَ (٥١٢٧)، التِّرْمِذِيُّ (٢٣٨٥)].

١٢٠٣ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ بِمَعْنَاهُ [أَبُو دَاوُدَ (٥١٢٦)].

١٢٠٤ - وَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ حَسَنِ وَحُسَيْنٍ، فَقَالَ: «مَنْ

أَحْبَنِي وَأَحَبُّ هَذَيْنِ وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ [الترمذي (٣٧٣٣)، أحمد (٧٧/١)].

١٢٠٥ - وَرَوِي أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي؛ وَإِنِّي لَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى أَجِيءَ فَاَنْظُرَ إِلَيْكَ؛ وَإِنِّي ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتِكَ، فَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتُهَا لَا أَرَاكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فَدَعَا بِهِ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ.

١٢٠٦ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: كَانَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَطْرِفُ، فَقَالَ: «مَا بِكَ؟» قَالَ: يَا أَبِي وَأُمِّي! أَتَمَتَّعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعَكَ اللَّهُ بِتَفْضِيلِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

١٢٠٧ - وَفِي حَدِيثٍ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ».

فصل

فِيمَا رَوَى عَنِ السَّلَفِ وَالْأَيْمَةِ مِنْ مَحَبَّتِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَشَوْقِهِمْ لَهُ

١٢٠٨ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي الشَّهِيدُ، حَدَّثَنَا الْعُدْرِيُّ، حَدَّثَنَا الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا الْجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَشَدَّ أُمْتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي؛ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ» [مسلم (٢٨٣٢)].

١٢٠٩ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ [أحمد (١٥٦/٥)].

١٢١٠ - وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الصَّحَابَةِ فِي مِثْلِهِ.

١٢١١ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مسلم (١٢١)].

١٢١٢ - وَعَنْ عَبْدِ بَنَتِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ؛ قَالَتْ: مَا كَانَ خَالِدٌ يَأْوِي إِلَيَّ

فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يستبهم ويقول: هم أضلي وفضلي، واليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب! قبضي إليك، حتى يغلبه النوم.

١٢١٣ - وزوي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامي - يعني: أباه أبا قحافة - وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك.

١٢١٤ - ونحوه عن عمر بن الخطاب؛ قاله للعباس: أن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب؛ لأن ذلك أحب إلى رسول الله ﷺ.

١٢١٥ - وعن ابن إسحاق: أن امرأة من الأنصار قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُدٍ مع رسول الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بخمد الله كما تحبين. قالت: أرونيهِ حتى أنظرَ إليه. فلما رآته قالت: كل مُصيبة تغدك جَلَلٌ.

١٢١٦ - وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان حُبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله! أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظما.

١٢١٧ - وعن زيد بن أسلم: خرج عمر رضي الله عنه ليلة يحرس الناس، فرأى مضباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفّس صوّفاً، وتقول:

على محمد صلاة الأبرار
صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بك بالأسحار
يا ليت شِعري والمنايا أطوار
هل نجمتني وخبيبتني الدار؟

تغني: النبي ﷺ.

فجلس عمر رضي الله عنه يبكي؛ وفي الحكاية طول.

١٢١٨ - وزوي أن عبد الله بن عمر خذرت رجله، فقيل له: اذكر أحب الناس إليك يزول عنك.

فصاح: يا محمداه! فانتشرت [البخاري (٩٦٧)].

١٢١٩ - ولما احتضر بلال رضي الله عنه نادى امرأته: واخرّنا! فقال: واخرّنا! غداً ألقى الأجنة، محمداً وحزبه.

١٢١٩م - ومثله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

١٢٢٠ - وَيُرَوَّى أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اكْشِفِي لِي قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَكَشَفَتْهُ لَهَا، فَبَكَتْ حَتَّى مَاتَتْ.

١٢٢١ - وَلَمَّا أَخْرَجَ أَهْلُ مَكَّةَ زَيْنَدَ بْنَ الدُّثَيْنَةِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، قَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ خَزِيمٍ: أَتَشُدُّكَ بِاللَّهِ يَا زَيْنَدُ! أَتُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ عِنْدَنَا مَكَانَكَ تُضْرَبُ عُنُقُهُ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ؟

فَقَالَ زَيْنَدُ: وَاللَّهِ! مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي.

فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ.

١٢٢٢ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا آتَى النَّبِيَّ ﷺ حَلَفَهَا بِاللَّهِ: مَا خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ زَوْجٍ وَلَا رَغْبَةٍ بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ؛ وَمَا خَرَجْتُ إِلَّا حَبَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

١٢٢٣ - وَوَقَفَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَ قَتْلِهِ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَقَالَ: كُنْتُ، وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ - صَوَامًا قَوَامًا تُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ.

فصل

فِي عِلَامَةِ مَحَبَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اعْلَمَنَّ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا آثَرَهُ، وَآثَرُ مُوَافَقَتِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي حُبِّهِ، وَكَانَ مُدْعِيًا. فَالصَّادِقُ فِي حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ تَظَهَّرَ عِلَامَاتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَأَوَّلُهَا: الْإِقْتِدَاءُ بِهِ وَاسْتِعْمَالُ سُنَّتِهِ، وَاتِّبَاعُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَالتَّأَذُّبُ بِآدَابِهِ فِي غُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَمُنَشِطُهُ وَمَكْرَهُهُ، وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَإِثَارُ مَا شَرَعَهُ وَخَضُّ عَلَيْهِ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ، وَمُوَافَقَةُ شَهْوَتِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وإِسْخَاطُ الْعِبَادِ فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

١٢٢٤ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ الصَّرَفِيُّ، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ خَيْرُونَ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو يَغْلَى الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السَّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا

محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب؛ قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ! إِنْ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تُضَيِّحَ وَتُنْصِبَ لِي فِي قَلْبِكَ غِشًّا لِأَحَدٍ فَأَفْعَلْ».

ثم قال لي: «يا بُنَيَّ! وَذلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْبَبَ سُنَّتِي فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ» [الترمذي (٢٦٧٨)].

فمن اتَّصَفَ بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها.

١٢٢٥ - ودليله قوله عليه السلام للذي حذَّه في الخمر فلَعَنَهُ بعضهم، وقال: ما أَكْثَرَ ما يُؤْتَى به! فقال النبي ﷺ: «لَا تَلْعَنَهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري (٦٧٨٠)].

ومن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره له؛ فمن أَحَبَّ شيئاً أَكْثَرَ ذَكَرَهُ.

ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه؛ فكلُّ حبيبٍ يَحِبُّ لِقَاءَ حَبِيبِهِ.

١٢٢٦ - وفي حديث الأشعرين عند قدومهم المدينة: أنهم كانوا يَرْتَجِرُونَ: غَدًا نَلْقَى الْأَحَبَّ. محمداً وضحبه.

١٢٢٧ - وتقدم قول بلال.

١٢٢٨ - ومثله قال عمار قبل قتله.

١٢٢٩ - وما ذَكَرْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ.

ومن علاماته - مع كثرة ذكره - تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سَمَاعِ اسْمِهِ.

قال إسحاق التَّجِيبِي: كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إِلَّا خَشَعُوا وَاقْشَعُرَتْ جُلُودُهُمْ وَبَكَوْا.

وكذلك كثير من التابعين. منهم مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مَحَبَّةً لَهُ وَشَوْقاً إِلَيْهِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ تَهَيِّئاً وَتَوْقِيراً.

ومنها محبته لمن أَحَبَّ النبي ﷺ، وَمَنْ هُوَ بِسَبَبِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ وَعِدَاؤُهُ مَنْ عَاذَاهُمْ وَيَغْضُضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ وَسَبَّاهُمْ؛ فَمَنْ أَحَبَّ شيئاً أَحَبَّ مَنْ يَحِبُّ.

١٢٣٠ - وقد قال - عليه السلام - في الحسن والحسين: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا» [الترمذي (٣٧٨٢)].

١٢٣١ - وفي رواية، في الحسن: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَحِبُّ فَأَحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ» [البخاري (٢١٢٢)، مسلم (٢٤٢١)].

١٢٣٢ - وقال: «مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ» [ابن ماجه (١٤٣)].

١٢٣٣ - وقال: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ» [الترمذي (٣٨٦٢)، أحمد (٨٧/٤)].

١٢٣٤ - وقال في فاطمة رضي الله عنها: «إِنهَا بِضْعَةٌ مِنِّي، يُغْضِبُنِي مَا أَغْضَبَهَا» [البخاري (٣٧١٤)، مسلم (٢٤٤٩)].

١٢٣٥ - وقال لعائشة - في أسامة بن زيد -: «أَحِبِّهِ فَإِنِّي أَحِبُّهُ» [الترمذي (٣٨١٨)].

١٢٣٦ - وقال: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ؛ وَآيَةُ التَّفَاقُ بِغُضُّهُمْ» [البخاري (١٧)، مسلم (٧٤)].

١٢٣٧ - وفي حديث ابن عمر: «مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ».

فبالحقيقة، مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ كُلَّ شَيْءٍ يُحِبُّهُ. وهذه سيرة السلف حتى في المباحات وشهوات النفس.

١٢٣٨ - وقد قال أنس - حين رأى النبي ﷺ يتتبع الدُّبَاءَ مِنْ حَوَالِي الْقَضْعَةِ: «فَمَا زِلْتُ أَحِبُّ الدُّبَاءَ مِنْ يَوْمَئِذٍ» [البخاري (٢٠٩٢)، مسلم (٢٠٤١)].

١٢٣٩ - وهذا الحسن بن علي، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن جعفر أتوا سلمى، وسألوها أَنْ تَصْنَعَ لَهُمْ طَعَاماً مِمَّا كَانَ يُعْجِبُ النَّبِيَّ ﷺ.

١٢٤٠ - وكان ابنُ عمر يلبسُ الثَّعَالِ السَّبْيِيَّةَ، وَيَضْبَعُ بِالْضُفْرَةِ؛ إِذْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَقْعُلُ نَحْوَ ذَلِكَ [البخاري (٥٨٥١)، مسلم (١١٨٧)].

ومنها: بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، وَمَجَانِبَةُ مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ وَابْتَدَعَ فِي دِينِهِ، وَاسْتِقَالُ كُلِّ أَمْرٍ يَخَالِفُ شَرِيعَتَهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْدُ قَوْمًا يُمُوتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء أصحابه - عليه السلام - قد قتلوا أجبائهم في مرضاته، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم.

١٢٤١ - وقال له عَبْدُ اللَّهِ بن عبد الله بن أَبِي: لو شئتَ لَأَتَيْتُكَ بِرَأْسِهِ،
يعني أَبَاهُ.

١٢٤٢ - ومنها أَنَّ يُحِبَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَتَى بِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَهَدَى بِهِ
وَاعْتَدَى، وَتَخَلَّى بِهِ حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» وَحُبَّهُ
لِلْقُرْآنِ: تَلَاوُثُهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ وَتَفَهُمُهُ.
وَيُحِبُّ سُنَّتَهُ، وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِهَا.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ حُبُّ الْقُرْآنِ؛ وَعَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ وَحُبِّ
الْقُرْآنِ حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَامَةُ حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ حُبُّ السُّنَّةِ، وَعَلَامَةُ حُبِّ السُّنَّةِ
حُبُّ الْآخِرَةِ، وَعَلَامَةُ حُبِّ الْآخِرَةِ بُغْضُ الدُّنْيَا، وَعَلَامَةُ بُغْضِ الدُّنْيَا أَلَّا يَذْخَرَ
مِنْهَا إِلَّا زَادًا وَيُلْغَى إِلَى الْآخِرَةِ.

١٢٤٣ - وقال ابن مسعود: لَا يَسْأَلُ أَحَدٌ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْقُرْآنَ؛ فَإِنْ كَانَ
يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

وَمِنْ عَلَامَةِ حُبِّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: شَفَقَتُهُ عَلَى أُمَّتِهِ، وَنُصْحُهُ لَهُمْ، وَسَعْيُهُ فِي
مُصَالِحِهِمْ، وَرَفْعُ الْمَضَارِّ عَنْهُمْ؛ كَمَا كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَام - بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفًا
رَجِيمًا.

وَمِنْ عَلَامَةِ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ: زُهْدٌ مُذْعِبِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِثَارُهُ الْفَقْرَ وَاتِّصَافُهُ بِهِ.
١٢٤٤ - وَقَدْ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَام - لِأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ: «إِنَّ الْفَقْرَ إِلَى مَنْ
يُحِبُّنِي مِنْكُمْ، أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي - أَوْ الْجَبَلِ - إِلَى أَسْفَلِهِ» [أَحْمَد
٤٢/٣].

١٢٤٥ - وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بن مَغْفَلٍ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!
إِنِّي أَحْبَبْتُكَ. فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ». فَقَالَ: وَاللَّهِ! إِنِّي أَحْبَبْتُكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ:
«إِنْ كُنْتُ تُحِبُّنِي فَأَعِدْ لِلْفَقْرِ تَبْخُفًا» [الترمذي (٢٣٥٠)].
ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِمَعْنَاهُ.

فصل

فِي مَغْنَى الْمَحَبَّةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَحَقِيقَتِهَا

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ، وكثرت عباراتهم في
كل رواية وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال.
فقال سفيان: المحبة أتباع الرسول عليه السلام. كأنه التفت إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[آل عمران: ٣١].

وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقادُ نضرته، والدُّبُّ عن سُنَّته، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

وقال بعضهم: المحبة: دوام الذكر للمحبيب.

وقال آخر: إثارة المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة مواطاة القلب لِمُرَادِ الرَّبِّ؛ يُحِبُّ مَا أَحَبَّ، وَيَكْرَهُ مَا كَرِهَ.

وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له.

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.

وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه؛ كحُبِّ الصورة الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأشباهاها مما كُلُّ طَبِيعٍ سَلِيمٍ مَائِلٌ إِلَيْهَا لِمَوَافَقَتِهَا لَهُ، أَوْ لاسْتِلْذَاذِهِ بِإِدْرَاكِهِ عَقْلُهُ وَقَلْبُهُ مَعَانِي بَاطِنَةٍ شَرِيفَةٍ؛ كَحُبِّ الصَّالِحِينَ، والعلماء، وأهل المعروف، والمأثور عنهم السَّيَرِ الْجَمِيلَةِ، والأفعال الحسنة؛ فَإِنَّ طَبِيعَ الْإِنْسَانِ مَائِلٌ إِلَى الشَّغْفِ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ حَتَّى يَبْلُغَ التَّعَصُّبُ بِقَوْمٍ لِقَوْمٍ، والتَّشَيُّعُ مِنْ أُمَّةٍ فِي آخِرِينَ مَا يُوْذِي إِلَى الْجَلَاءِ عَنِ الْأَوْطَانِ، وَهَتْكَ الْحُرْمَ، وَاخْتِرَامَ النُّفُوسِ. أَوْ يَكُونُ حُبُّ إِيَّاهُ لِمَوَافَقَتِهِ لَهُ مِنْ جِهَةِ إِحْسَانِهِ لَهُ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا.

فإذا تقررَ لك هذا، نظرْتَ هذه الأسبابَ كُلَّهَا فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَلِمْتَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَامِعٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْمَحَبَّةِ.

أما جمال الصورة والظاهر، وكمال الأخلاق والباطن، فقد قررنا منها قبلُ فيما مرَّ من الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامه على أُمَّتِهِ فَكَذَلِكَ قَدْ مَرَّ مِنْهُ فِي أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَرَحْمَتِهِ لَهُمْ، وَهُدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَاسْتِنْقَاذِهِمْ بِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وَمُبَشِّرٌ وَنَذِيرٌ، وَدَاعِيٌّ إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجٌ مُنِيرٌ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فأي إحسانٍ أجلُّ قَدْرًا، وأعظمُ خَطَرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟ وأيُّ إفضالٍ أعْمُ منفعةً، وأكثرُ فائدةً من إنعامه على كافة المسلمين؟ إذ كان ذَرِيعَتَهُم إلى الهداية، ومُنْقِذَهُم من العماية، وداعِيَهُم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلَتَهُم إلى رَبِّهِم، وشفيعَهُم، والمتكَلِّمُ عنهم، والشاهدُ لهم، والموجبُ لهم البقاء الدائم والنعيم السَّرمَد.

فقد استبان لك أنه عليه السلام مستوجبٌ للمحبة الحقيقية شرعاً بما قدّمناه من صحيح الآثار، وعادةً وجبلةً بما ذكرناه آنفاً، لإفاضته الإحسان، وعمومه الإجمال؛ فإذا كان الإنسانُ يحبُّ مَنْ مَنَحَهُ في ذُنياه - مرّةً أو مرتين - معروفاً، أو استنقذه من هَلَكَةٍ أو مَضَرَّةٍ مَذَّة، التأذي بها قليلٌ منقطع، فمَنْ منحه ما لا يبيدُ من النعيم، ووقاه ما لا يقنى من عذاب الجحيم أولى بالحب.

وإذا كان يُحِبُّ بالطَّبْعِ مِلْكٌ لِحُسْنِ سيرته، أو حاكمٌ لما يُؤثّر من قَوامِ طريقته، أو قاضٍ بعيدُ الدار لما يُشاد من عِلْمه، أو كرم شيمته، فمَنْ جمع هذه الخصالَ على غايةٍ مراتب الكمال أحقُّ بالحب، وأولى بالميل.

١٢٤٦ - وقد قال عليّ رضي الله عنه في صفته ﷺ: مَنْ رآه بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خالطه معرفةً أَحَبَّهُ.

١٢٤٧ - وَذِكْرُ لَنَا عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَنْهُ مُحِبَّةً فِيهِ.

فصل

فِي وَجُوبِ مُنَاصَحَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].
قال أهل التفسير: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إِذَا كَانُوا مُخْلِصِينَ مُسْلِمِينَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ.

١٢٤٨ - حدثنا القاضي الفقيه أبو الوليد بقراءتي عليه، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا يوسف بن عبد الله، حدثنا ابنُ عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، قال: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن عطاء بن يزيد، عن تميم الداري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ» ثلاث مرات. قالوا:

لَمَنْ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»
[أبو داود (٤٩٤٤)، مسلم (٥٥)].

قال الأئمة رحمهم الله: النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة: كلمة يُعْبَرُ بها عن جُفْلَةٍ إرادة الخير للمنصوح له؛ وليس يمكن أن يُعْبَرُ عنها بكلمة واحدة تحضرها. ومعناها في اللغة الإخلاص؛ من قولهم: نصحت العسل، إذا خلصته من شمععه.
وقال أبو بكر بن أبي إسحاق الخفاف: التَّضَحُّ فَعْلُ الشَّيْءِ الَّذِي بِهِ الصَّلَاحُ والملاءمة، مأخوذ من التَّضَاح؛ وهو الخيط الذي يُخَاطُ به الثوب.
وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه.

فنصيحة الله تعالى: صِحَّةُ الاعتقاد له بالوحدانية، ووضفه بما هو أهله، وتزنيته عما لا يجوز عليه، والرغبة في محابه، والبُعدُ من مساخطه، والإخلاص في عبادته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده، والتعظيم له، وتفهمه والتفقه فيه، والذب عنه من تأويل الغالين، وطعن المُلْجِدِينَ.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه؛ قاله أبو سليمان.

وقال أبو بكر: وموازرتَه ونُصْرَتُهُ وَجَمَائَتُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وإحياء سُنَّتِهِ بالطلب، والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة.

وقال أبو إبراهيم: إسحاق الثجبي: نصيحة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: التصديق بما جاء به، والاعتصام بسُنَّتِهِ، ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله، وكتابه ولرسوله، وإليها، وإلى العمل بها.

وقال أحمد بن محمد: من مفروضات القلوب اعتقادُ النصيحة لرسولِ اللَّهِ ﷺ.
قال أبو بكر الأجزري وغيره: النصح له يَقْتَضِي نُصْحَيْنِ؛ نُصْحًا فِي حَيَاتِهِ، وَنُصْحًا بَعْدَ مَمَاتِهِ؛ ففي حياته نُصْحُ أَصْحَابِهِ لَهُ بِالنُّصْرِ وَالْمُحَامَاةِ عَنْهُ وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، وَالسَّنْعِ وَالطَّاعَةِ لَهُ، وَبَذْلِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ دُونَهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَايَاصِدْقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْهَضُوا عَنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجَبَهُ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَيُصْرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْكَ مُمُ الصَّانِدُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوفير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته، والتفقه في شريعته؛ ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته، وانحرف عنها، ويغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك. فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة، وعلامة من علاماتها كما قدمنا.

١٢٤٩ - وحكى الإمام أبو القاسم القشيري أن عمرو بن الليث - أحد ملوك خراسان، ومشاهير الثوار، المعروف: بالصفار - مات، فرثي في النوم؛ فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدت ذروة جبل يوماً فأشرقت على جنودي فأعجبني كثرتهم، فتمنيت أني حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته؛ فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فطاعتهم في الحق، ومعاونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه وتنبههم على ما غفلوا عنه، وكتم عنهم من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم. والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، ومعاونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتنبية غافلهم، وتبصير جاهلهم، ورغد محتاجهم، وستر غوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم.



الباب الثالث

في تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَوُجُوبِ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿لَتَتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُوقِرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

و: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [٢] إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [٣] إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْمَجْرِبِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [٤] [الحجرات: ٢ - ٤].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب الله تعالى تَغْيِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ، وألزم إكْرَامَهُ وتَعْظِيمَهُ.

قال ابن عباس: تُعَزَّرُوهُ: أي تُجْلُوهُ. وقال المبرد: تُعَزَّرُوهُ: تبالغوا في تَعْظِيمِهِ.

وقال الأخفش: تَنْصُرُونَهُ. وقال الطبري: تُعِينُونَهُ.

وَقُرِئَ: تُعَزَّرُوهُ - بزيين - من العز.

وَنُهِيَ عَنِ التَّقْدُمِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْقَوْلِ؛ وَسُوءِ الْأَدَبِ بِسَبْقِهِ بِالْكَلَامِ، عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ؛ وَهُوَ اخْتِيَارُ تَعْلَبِ.

قال سهل بن عبد الله: لَا تُقُولُوا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ؛ وَإِذَا قَالَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا.

وَنُهُوا عَنِ التَّقْدُمِ وَالتَّعَجُّلِ بِقَضَاءِ أَمْرِ قَبْلَ قَضَائِهِ فِيهِ؛ وَأَنْ يَفْتَاتُوا بِشَيْءٍ فِي

ذَلِكَ مِنْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا يَسْبِقُوهُ بِهِ.

وَالْإِنِّي هَذَا يَرْجِعُ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَمَجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ.

ثُمَّ وَعَظَلَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ مَخَالَفَةَ ذَلِكَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] قَالَ الْمَازُزْدِيُّ: اتَّقُوا: يَعْنِي فِي التَّقَدُّمِ.

وَقَالَ السُّلَمِيُّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي إِهْمَالِ حَقِّهِ وَتَضْيِيعِ حُرْمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِكُمْ، عَلِيمٌ بِفَعْلِكُمْ.

ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ زَفْعِ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ، وَالْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ.

وَقِيلَ: كَمَا يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِاسْمِهِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: مَكِّيٌّ: أَنِّي لَا تُسَابِقُوهُ بِالْكَلَامِ، وَتُغْلِظُوا لَهُ بِالْخِطَابِ وَلَا تُنَادُوهُ بِاسْمِهِ نِدَاءً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَلَكِنْ عَظَمُوهُ وَوَقَرُوهُ وَنَادَوْهُ بِأَشْرَفِ مَا يَحِبُّ أَنْ يُنَادَى بِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا نَبِيَّ اللَّهِ!

وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ لِيَتَنَكَّمَكُمْ كَدُّ الْعَاقِبَةِ﴾ [النور: ٦٣] عَلَى أَحَدِ الثَّوَالِيحِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: لَا تَخَاطِبُوهُ إِلَّا مُسْتَهْجِمِينَ.

ثُمَّ خَوَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِخَبْطِ أَعْمَالِهِمْ إِنْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْهُ.

١٢٥٠ - وَقِيلَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي وَفْدٍ مِنْ بَنِي - تَسِيمٍ - وَقِيلَ: فِي غَيْرِهِمْ؛ أَتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَنَادَوْهُ: يَا مُحَمَّدًا يَا مُحَمَّدًا! أَخْرَجَ إِلَيْنَا. فَذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجَهْلِ، وَوَصَفَهُمْ بِأَنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

١٢٥١ - وَقِيلَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي مُحَاوَرَةٍ كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتِلَافٍ جَرَى بَيْنَهُمَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصَوَاتُهُمَا [البخاري (٤٣٦٧)].

١٢٥٢ - وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ خَطِيبِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَفَاخِرَةِ بَنِي تَمِيمٍ، وَكَانَ فِي أَذُنَيْهِ صَمَمٌ؛ فَكَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ؛ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَقَامَ فِي مَنْزِلِهِ، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ خَبِطَ عَمَلُهُ؛ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ هَلَكْتُ؛ نَهَانَا اللَّهُ أَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ، وَأَنَا أَمْرٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا ثَابِتُ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخَلَ الْجَنَّةَ؟» [البخاري (٢٦١٣)، مسلم (١١٩)] فَقَتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ.

١٢٥٣ - وَرَوَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا أَكَلِّمُكَ بَعْدَهَا إِلَّا كَأَخِي السَّرَارِ.

١٢٥٤ - وَأَنَّ عُمَرَ كَانَ إِذَا حَدَّثَهُ حَدَّثَهُ كَأَخِي السَّرَارِ؛ مَا كَانَ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ [البخاري (٧٣٠٢)].

١٢٥٥ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْسُونَ أَسْوَثَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ لَهُمْ مَقْصِرَةٌ وَاجِرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣].

وقيل: نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْمُجْرِبِ...﴾ [الحجرات: ٤] في غير بني تميم؛ نادوه باسمه.

١٢٥٦ - وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي سَفَرٍ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْرِيٌّ: أَيَا مُحَمَّدًا أَيَا مُحَمَّدًا فَقُلْنَا لَهُ: اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ؛ فَإِنَّكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ [الترمذي (٢٣٨٧)].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا...﴾ [البقرة: ١٠٤]. قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار؛ نُهوا عن قولها تعظيماً للنبي ﷺ، وتبجيلاً له؛ لأن معناها: ازْعَنَّا نَزْعَكَ فَنُهَوُا عَنْ قَوْلِهَا؛ إِذْ مُقْتَضَاهَا، كَانَهُمْ لَا يَرْعَوْنَ إِلَّا بِرِعَايَتِهِ لَهُمْ؛ بَلْ حَقُّهُ أَنْ يُزْعَى عَلَى كُلِّ حَالٍ. وقيل: كانت اليهود تُعَرِّضُ بِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالرُّعُونَةِ؛ فَتُهَيِّ الْمُسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا؛ قَطْعاً لِلذَّرِيعَةِ، وَمَنْعاً لِلتَّشْبِيهِ بِهِمْ فِي قَوْلِهَا، لِمَشَارَكَةِ اللَّفْظِ. وقيل غير هذا.

فصل

فِي عَادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعْظِيمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِجْلَالِهِ وَتَوْقِيرِهِ

١٢٥٧ - حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الصَّدْفِيُّ، وَأَبُو بَخْرٍ الْأَسَدِيُّ بِسْمَاعِيٍّ عَلَيْهِمَا فِي آخَرِينَ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَأَبُو مَعْنٍ الرَّقَاشِيُّ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا حَيَوَةُ بْنُ شَرِيحٍ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ؛ قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرُوَ بْنَ الْعَاصِ...

فذكر حديثاً طويلاً فيه عن عمرو، قال: وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلٌ فِي غَيْبِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أَطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ غَيْبِي مِنْهُ إِجْلَالاً

له؛ ولو سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ [مسلم (١٢١)].

١٢٥٨ - وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَهُمْ جُلُوسٌ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ؛ فَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَصَرَهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؛ فَإِنِ هُمَا كَانَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا، وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ، وَيَتَبَسَّمُ إِلَيْهِمَا [التِّرْمِذِيُّ (٣٦٦٨)، أَحْمَد (١٥٠/٣)].

١٢٥٩ - وَرَوَى أُسَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ؛ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ حَوْلَهُ كَانَمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ [أَبُو دَاوُدَ (٣٨٥٥)].

١٢٦٠ - وَفِي حَدِيثٍ صِفَتِهِ: إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جِلْسَاؤُهُ كَانَمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

١٢٦١ - وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ وَجَّهْتُهُ قُرَيْشَ عَامَ الْقَضِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَى مِنْ تَعْظِيمِ أَصْحَابِهِ لَهُ مَا رَأَى، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ، وَكَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا، وَلَا يَتَنَحَّمُ نُخَامَةً إِلَّا تَلَفَّوْهَا بِأَكْفِهِمْ فَذَلَّكُوا بِهَا وَجُوهَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ؛ وَلَا تَسْقُطُ مِنْهُ شَعْرَةٌ إِلَّا ابْتَدَرُوهَا؛ وَإِذَا أَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ؛ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنِّي جِئْتُ بِمَنْزِلِي فِي مَلِكَةٍ، وَقَبِيضٍ فِي مَلِكَةٍ، وَالنَّجَاشِي فِي مَلِكَةٍ؛ وَإِنِّي، وَاللَّهِ! مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ [الْبُخَارِيُّ (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)].

وَفِي رَوَايَةٍ: إِنَّ رَأْيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ مُحَمَّدًا أَصْحَابُهُ. وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسَلِّمُونَهُ أَبَدًا.

١٢٦٢ - وَعَنْ أَنَسٍ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْحَلَّاقَ يَحْلِفُهُ، وَقَدْ أَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ [مسلم (٢٣٢٥)].

١٢٦٣ - وَمِنْ هَذَا لَمَّا أَذِنَتْ قُرَيْشٌ لِعُثْمَانَ فِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ حِينَ وَجَّهَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَبِي، وَقَالَ: مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٢٦٤ - وَفِي حَدِيثٍ طَلَحَةٍ: إِنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِأَعْرَابِي جَاهِلٍ: سَلُهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ - وَكَانُوا يَهَابُونَهُ وَيَوْقِرُونَهُ - فَسَالَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، إِذْ طَلَعَ طَلَحَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ» [التِّرْمِذِيُّ (٣٧٤٢)].

١٢٦٥ - وفي حديث قَيْلَةَ: فلما رأيتُ رسولَ الله ﷺ جالساً القُرْصَاءَ أَرَعَدْتُ مِنَ الْفَرْقِ. وذلك هَيْبَةٌ لَهُ وَتَعْظِيمًا.

١٢٦٦ - وفي حديث المغيرة: كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَفْرَعُونَ بَابَهُ بِالْأَظْفِيرِ.

١٢٦٧ - وقال البراء بن عازب: لقد كنتُ أريدُ أن أسألَ رسولَ الله ﷺ عن الأمر فأؤخره سِنينَ مِنْ هَيْبَتِهِ.

فصل

فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ

واعلم أن حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ بعد موته، وتوقيره وتعظيمه، لازمٌ كما كان في حال حياته؛ وذلك عند ذكره - عليه السلام - وذكُر حديثه وسُنَّته، وسَمَاعِ اسمِهِ وسيرته، ومُعَامَلَةِ آلِهِ وَعِثْرَتِهِ، وتعظيم أهل بيته وصحابته.

وقال أبو إبراهيم: إسحاق الثَّجِيبِي: واجبٌ على كل مؤمنٍ متى ذَكَرَهُ - أو ذَكَرَ عنده - أن يَخْضَعَ وَيَخْشَعَ، ويتَوَقَّرُ ويسْكُنُ مِنْ حركته، ويأْخُذُ فِي هَيْبَتِهِ وإِجْلَالِهِ بما كان يأْخُذُ بِهِ نَفْسُهُ لو كان بين يَدَيْهِ؛ ويتَأَدَّبُ بما أَدَّبَنَا اللَّهُ بِهِ.

قال القاضي أبو الفضل: وهذه كانت سيرة سَلَفِنَا الصَّالِحِ وَأَثَمْنَا المَاضِينَ رضي الله عنهم أجمعين.

١٢٦٨ - حدثنا القاضي أبو عبد الله: محمد بن عبد الرحمن الأشعري، وأبو القاسم: أحمد بن بَقِيّ الحاكم، وغير واحد، فيما أجازُونِيهِ؛ قالوا: حدثنا أبو العباس: أحمد بن عمر بن دِلْهَات قال: حدثنا أبو الحسن: علي بن فهر، حدثنا أبو بكر: محمد بن أحمد بن القَرَج، حدثنا أبو الحسن: عبد الله بن المُنْتَاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا ابنُ حُمَيْدٍ؛ قال: ناظرَ أبو جَعْفَرٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكًا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال له مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَرَفِعْ صَوْتَكَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذَبَ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

ومدَحَ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وَذُمَّ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾
[الحجرات: ٤] وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مِثْلَ حُرْمَتِهِ حَيًّا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله! أَلَا نَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُو أُمَّ
أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَدْعُو؟ فقال: وَلِمَ تَصْرُفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ
وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ بَلِ اسْتَقْبَلَهُ وَاسْتَشْفَعَ
بِهِ، فَيَشْفَعَهُ اللَّهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا
اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ وَابًّا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال مالك - وقد سُئِلَ عَنْ أَيُّوبَ السُّخْتِيَانِي -: إِنِّي مَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا
وَأَيُّوبَ أَفْضَلَ مِنْهُ.

قال: وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ، فَكُنْتُ أَرْمُقُهُ وَلَا أَسْمَعُ مِنْهُ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ
النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ!

فلما رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ، وَاجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ.
وقال مُضْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: كَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَنْحَنِي
حَتَّى يَضَعُ ذَلِكَ عَلَى جُلْسَانِهِ؛ فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ
لَمَا أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ؛ وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بْنَ الْمُكَدِّرِ - وَكَانَ سَيِّدَ الْقُرَاءِ -
لَا يَكَاذُ يَسْأَلُهُ أَحَدٌ عَنْ حَدِيثٍ أَبَدًا إِلَّا يَبْكِي حَتَّى تَرْحَمَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ، وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ؛ فَإِذَا
ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَضْفَرُ. وَمَا رَأَيْتُهُ يَحْدُثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ.
وَقَدْ اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ زَمَانًا فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا مُصَلِّيًّا،
وَإِمَّا صَامِتًا؛ وَإِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ؛ وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَادِ
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَنْظُرُ إِلَى لَوْنِهِ كَأَنَّهُ نُزِفَ
مِنَ الدَّمِ، وَلَقَدْ جَفَّ لِسَانُهُ فِي قِمِهِ هَيئَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى
حَتَّى لَا يَبْقَى فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ، فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ
فَكَانَ مَا عَرَفْتُ وَلَا عَرَفْتُهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ، وَكَانَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْمُجْتَهِدِينَ؛ فَإِذَا ذُكِرَ
عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى، فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُومَ النَّاسُ عَنْهُ وَيَتْرَكُوهُ.

وَرُوي عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الْحَدِيثَ أَخَذَهُ الْعَوِيلُ وَالزَّوِيلُ.
ولما كثر على مالك الناس قيل له: لو جعلت مُسْتَمْلِيًا يُسْمِعُهُمْ؟ فقال:
قال الله تعالى: ﴿يَتْلُوهُمْ أَكْبَرُ أَصْوَاتِكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].
وَحُزْمَتُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا سِوَاهُ.

وكان ابن سيرين ربما يضحك؛ فإذا ذُكِرَ عنده حديث النبي ﷺ خَشَعَ.
وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت؛
وقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] وتَأَوَّلَ أنه يجب له من
الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عِنْدَ سَمَاعِ قوله.

فصل

فِي سِيَرَةِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ

١٢٦٩ - حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون،
حدثنا أبو بكر البَرْقَانِي، وَغَيْرُهُ، حدثنا أبو الحسن الدارْقُطْنِي، حدثنا علي بن
مُبَشَّر، حدثنا أحمد بن سَيَّان القَطَّان، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا
المسعودي، عن مُسْلِم البَطِين، عن عَمْرِو بن مَيْمُون؛ قال: اختلفتُ إلى ابْنِ
مسعود سَنَةً؛ فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ، إِلَّا أَنَّهُ حَدَّثَ يَوْمًا فَجَرَّتْ
عَلَى لِسَانِهِ: قال رسول الله ﷺ، ثُمَّ عَلَاةٌ كَرَبَتْ، حَتَّى رَأَيْتُ الْعَرَقَ يَتَحَدَّرُ عَنْ
جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ فَوْقَ ذَا، أَوْ مَا دُونَ ذَا، أَوْ مَا هُوَ
قَرِيبٌ مِنْ ذَا.

وفي رواية: فترَبَّدَ وَجْههُ.

وفي رواية: وقد تَغَرَّغَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ.

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيْم الأنصاري، قاضي المدينة: مَرَّ مَالِكُ بْنُ
أَنَسٍ عَلَى أَبِي حَازِمٍ، وَهُوَ يَحْدُثُ، فَجَازَهُ، وَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا أَجْلِسُ
فِيهِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَخْذَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا قَائِمٌ.

وقال مالك: جاء رجلٌ إلى ابْنِ المُسَيَّبِ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ،
فَجَلَسَ وَحَدَّثَهُ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فَقَالَ: إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ
أَحْدُثَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ.

وَرُوي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ يَضْحَكُ، فَإِذَا ذُكِرَ عَنْده حَدِيثُ
النَّبِيِّ ﷺ خَشَعَ.

وقال أبو مُضْعَب: كان مالكُ بن أنسٍ لا يُحدِّثُ بحديثِ رسولِ الله ﷺ إلا وهو على وضوءٍ، إجلالاً له.

وحكى مالكُ ذلك عن جعفر بن محمد الصادق.

وقال مُضْعَب بن عبد الله: كان مالكُ بن أنسٍ إذا حدَّث عن رسولِ الله ﷺ تَوْضُأً وَتَهَيَّأً، وَلَبَسَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ يحدِّث.

قال مُضْعَب: فسُئِلَ عن ذلك، فقال: إنه حديثُ رسولِ الله ﷺ.

قال مُطَرِّف: كان إذا أتى الناسُ مالِكاً خَرَجَتْ إليهم الجاريةُ وتقول لهم: يقولُ لكم الشيخُ: تُريدون الحديثَ أو المسائلَ؟ فإن قالوا: المسائلُ خرج إليهم، وإن قالوا: الحديثُ، دخل مُغْتَسِلَهُ، فاغتسل وتطيَّب، ولبس ثياباً جُوداً، ولبس ساجه وتعمَّم، ووضع على رأسه رداءه، وتلقَّى له مِنَصَّةً، فيخرج فيجلسُ عليها، وعليه الخشوع، ولا يزالُ يُبَخِّرُ بالعودِ حتى يَفْرُغَ مِنْ حديثِ رسولِ الله ﷺ.

قال غَيْرُهُ: ولم يكن يجلسُ على تلك المِنَصَّةِ إلا إذا حدَّث عن رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ أبي أُوَيْسٍ: فقيِلَ لمالكٍ في ذلك، فقال: أُحِبُّ أَنْ أعَظِمَ حديثَ رسولِ الله ﷺ، ولا أُحدِّثُ به إلا على طهارةٍ مُتَمَكِّنًا.

قال: وكان يكرهُ أَنْ يحدِّثَ في الطريق، أو وهو قائم، أو مُسْتَعَجِل.

وقال: أُحِبُّ أَنْ أَفْهَمَ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

قال ضِرَارُ بن مُرَّة: كانوا يكرهون أَنْ يحدِّثوا بحديثِ عليٍّ غيرَ وضوءٍ. ونَحْوَهُ عن قَتَادَةَ.

وكان الأعمشُ إذا أَحَبَّ أَنْ يحدِّثَ وهو على غيرِ وضوءٍ تَيَمَّم.

وكان قَتَادَةُ لا يحدِّثُ إلا على طهارةٍ، ولا يقرأُ حديثَ النبي ﷺ إلا على وضوءٍ.

قال عبد الله بن المبارك: كنتُ عند مالك، وهو يحدِّثنا، فلدغته غُفْرَبٌ سِتُّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وهو يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَضْفَرُ ولا يَقْطَعُ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

فلما فرغ من المجلس، وتفرَّق عنه الناسُ قلتُ له: يا أبا عبد الله! لقد رأيتُ منك اليومَ عَجَباً؟ قال: نَعَمْ لدغَتْنِي عَقْرَبٌ سِتُّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وأنا صابرٌ في جميع ذلك؛ وإنما صَبِرْتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ مهدي: مشيتُ يوماً مع مالكٍ إلى العقيقِ، فسألته عن حديثٍ،

فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجَلٌ من أن تسألني عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقبل له: إنه قاضٍ! قال: القاضي أحقُّ من أدب.

وذكر أن هشام بن الغازي سأل مالكا عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطاً، ثم أشفق عليه فحدّثه عشرين حديثاً؛ فقال هشام: ودّث لو زادني سيّطاً ويزيدني حديثاً.

قال عبداللّٰه بن صالح: كان مالكٌ واللّٰيث لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران.

وكان قتادة يستحبُّ ألا يقرأ أحاديث النبي ﷺ إلا على وضوء، ولا يحدث به إلا على طهارة.

وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء يثم.

فصل

ومن توقيره ﷺ وبزه، بڑ آله وذريّته
وأهّات المؤمنين: أزواجه، كما حضّ عليه ﷺ،
وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٦].

١٢٧٠ - أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العذّل من كتابه، وكتبْتُ من أصله، حدثنا أبو الحسن المقرئ الفَرَّغاني، حدثني أمّ القاسم بنت الشيخ أبي بكر الخفّاف، قالت: حدثني أبي، حدثنا حاتم - وهو ابن عقيل -، حدثنا يحيى: هو ابن إسماعيل، حدثنا يحيى: هو الجُمّاني، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حيّان، عن زيد بن أرقم؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ فِي أَهْلِ بَيْتِي...» ثلاثاً.

قلنا لزيد: مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ قال: آل علي بن أبي طالب، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس [مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧١ - وقال عليه السلام: «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما» [الترمذي (٣٧٨٨)، مسلم (٢٤٠٨)].

١٢٧٢ - وقال عليه السلام: «معرفة آل محمد ﷺ براءة من النار، وحُب آل محمد ﷺ - جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب».

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي ﷺ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

١٢٧٣ - وعن عمر بن أبي سلمة: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] - وذلك في بيت أم سلمة - دعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء، وعليّ خلف ظهره فجلله بكساء، ثم قال: «اللَّهُمَّ! هؤلاء أهل بيتي؛ فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً» [الترمذي (٣٧٨٧)].

١٢٧٤ - وعن سعد بن أبي وقاص: لما نزلت آية المباهلة دعا النبي ﷺ عليّاً وحسناً وحسيناً وفاطمة، وقال: «اللَّهُمَّ! هؤلاء أهلي» [مسلم (٣٢/٢٤٠٤)].

١٢٧٥ - وقال النبي ﷺ في عليّ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ؛ اللَّهُمَّ! وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ».

١٢٧٦ - وقال فيه: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا ينفذك إلا منافق» [مسلم (٧٨)].

١٢٧٧ - وقال للعباس: «والذي نفسي بيده! لا يَدْخُلُ قَلْبُ رَجُلٍ الْإِيمَانَ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي؛ وَإِنَّمَا عَمَّ الرَّجُلُ صِنُو أَبِيهِ» [الترمذي (٣٧٥٨)].

١٢٧٨ - وقال للعباس: «اغْدُ عَلَيَّ يَا عَمُّ! مَعَ وَلَدِكَ» فجمعهم وجللهم بملاءتبه، ثم قال: «هَذَا عَمِّي وَصِنُو أَبِي؛ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَاسْتَرْهَمِ اللَّهُمَّ! مِنَ النَّارِ كَسْتَرِي إِيَّاهُمْ» فَأَمَّتْ أَسْكُفَةَ الْبَابِ وَحَوَّاطُ الْبَيْتِ: آمِينَ. آمِينَ.

١٢٧٩ - وكان يأخذ أسامة بن زيد، والحسن؛ ويقول: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَجِبْهُمَا» [البخاري (٣٧٣٥)].

١٢٨٠ - وقال أبو بكر: ازُقُّوا محمداً في أهل بيته [البخاري (٣٧١٣)].

١٢٨١ - وقال أيضاً: والذي نفسي بيده! لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي [البخاري (٣٧١٢)، مسلم (١٧٥٩)].

١٢٨٢ - وقال ﷺ: «أَحَبُّ اللَّهِ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا» [الترمذي (٣٧٧٥)، ابن ماجه (١٤٤)].

١٢٨٣ - وقال: «من أحبني وأحبّ هذين - وأشار إلى حسن وحسين وأباهما وأُمهما - كان معي في درجتي يوم القيامة».

١٢٨٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ أَهَانَ قُرَيْشاً أَهَانَهُ اللَّهُ» [أحمد (٦٤/١)].

١٢٨٥ - وقال ﷺ: «قَدِّمُوا قُرَيْشاً وَلَا تَقْدِّمُوها».

١٢٨٦ - وقال عليه السلام لَأُمِّ سَلَمَةَ: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ» [البخاري

(٢٥٨١)، مسلم (٢٤٤٢)].

١٢٨٧ - وعن عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ: رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ جَعَلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ: بِأَبِي شَيْبَةَ النَّبِيِّ، لَيْسَ شَبِيهاً بَعْلِي، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضْحَكُ [البخاري (٣٧٥٠)].

١٢٨٨ - وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ، قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَاجَةٍ، فَقَالَ لِي: إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَأَرْسِلْ إِلَيَّ أَوْ اكْتُبْ؛ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَاكَ عَلَيَّ بِأَبِي.

١٢٨٩ - وعن الشَّعْبِيِّ: صَلَّى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى جَنَازَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ قُرِئَتْ لَهُ بَغْلَتُهُ لِيَرْكَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ؛ فَقَالَ زَيْدٌ: خَلِّ عَنْهُ، يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: هَكَذَا نَفَعَلُ بِالْعُلَمَاءِ. فَقَبِلَ زَيْدٌ ابْنَ عَبَّاسٍ؛ وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفَعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا.

١٢٩٠ - وَرَأَى ابْنُ عُمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ؛ فَقَالَ: لَيْتَ هَذَا عَبْدِي؛ فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَسَامَةَ. فَقَطَّاعًا ابْنُ عُمَرَ رَأْسَهُ، وَنَقَرَ يَدَهُ الْأَرْضَ، وَقَالَ: لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَخِيهِ [البخاري (٣٧٣٤)].

١٢٩١ - وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: دَخَلْتُ بَيْتَ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَعَهَا مَوْلى لَهَا يُنْسِكُ بِيَدِهَا، فَقَامَ لَهَا عُمَرُ، وَمَشَى إِلَيْهَا حَتَّى جَعَلَ يَدُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَدَاهُ فِي ثِيَابِهِ، وَمَشَى بِهَا حَتَّى أَجْلَسَهَا عَلَى مَجْلِسِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا تَرَكَ لَهَا مِنْ حَاجَةٍ إِلَّا قَضَاهَا.

١٢٩٢ - وَلَمَّا قَرَضَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَأَسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِ مِئَةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَبِيهِ: لِمَ فَضَّلْتَهُ؟ فَوَاللَّهِ! مَا سَبَقَنِي إِلَيْهِ مَشْهَدٌ. فَقَالَ لَهُ: لِأَنَّ زَيْدًا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبِييكَ، وَأَسَامَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْكَ؛ فَأَثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حُبِّي [الترمذي (٣٨١٣)].

١٢٩٣ - وَبَلَغَ مَعَاوِيَةُ: أَنَّ كَابِسَ بْنِ زَيْعَةَ يُشَبِّهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَمَّا دَخَلَ

عليه من باب الدار قام عن سريرته، وتلقّاه، وقبّل بين عَيْنَيْهِ، وأقطعته المِرْغَابَ لِشَبْهِهِ بِصُورَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢٩٤ - وَرَوَى أَن مَالِكاً - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا ضَرَبَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَنَالَ مِنْهُ مَا نَالَ، وَحُمِلَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ ضَارِي فِي حِلٍّ.

فَسُئِلَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: حِفْتُ أَن أَمُوتَ، فَأَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ، فَاسْتَجَى مِنْهُ أَن يَدْخُلَ يَغْضُ آلَهُ بِسَبْيِ النَّارِ.

١٢٩٥ - وَقِيلَ: إِنَّ الْمَنْصُورَ أَقَادَهُ مِنْ جَعْفَرٍ، فَقَالَ لَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَاللَّهِ! مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا سِوَى عَنِ جَسَمِي إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُهُ فِي حِلٍّ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٢٩٦ - وَقَالَ أَبُو بَكْرُ بْنُ عَيَّاشٍ: لَوْ أَنَّنِي عَلِيٌّ وَعُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ لَبَدَأْتُ بِحَاجَةِ عَلِيٍّ قَبْلَهُمَا؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلَئِنْ أَخِرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْدَمَهُ عَلَيْهِمَا.

١٢٩٧ - وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَاتَتْ فُلَانَةٌ - لِبَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ - فَسَجَدَ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَتَسْجُدُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمْ آيَةً فَاسْجُدُوا»، وَإِنَّ آيَةَ أَعْظَمَ مِنْ ذَهَابِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ؟ [أَبُو دَاوُدَ (١١٩٧)، التِّرْمِذِيُّ (٣٨٩١)].

١٢٩٨ - وَكَانَ أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ يَزُورَانِ أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولَانِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا [مُسْلِمَ (٢٤٥٤)].

١٢٩٩ - وَلَمَّا وَرَدَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَسَطَ لَهَا رِدَاعَهُ وَقَضَى حَاجَتَهَا.

فَلَمَّا تَوَقَّيْ وَفَدْتَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ فَصَنَعَا بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ.

فصل

وَمِنْ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ ﷺ تَوْقِيرُ أَصْحَابِهِ وَبِرُّهُمْ وَمَعْرِفَةُ حَقِّهِمْ، وَالِاتِّقَاءُ بِهِمْ، وَحُسْنُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَالِإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَمُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُمْ، وَالِإِضْرَابُ عَنْ أَخْبَارِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَجَهْلَةُ الرُّوَاةِ، وَضَلَالُ الشَّيْعَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ الْقَادِحَةِ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ وَأَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ - فِيمَا ثَقُلَ عَنْهُمْ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ - فِيمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفِتَنِ - أَحْسَنُ التَّأْوِيلَاتِ، وَيُخْرَجَ لَهُمْ أَضَوُّبُ الْمَخَارِجِ. إِذْ هُمْ أَهْلُ ذَلِكَ، وَلَا يُذَكَّرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسُوءٍ، وَلَا يُغْمَصُ

عليه أمره، بل يُذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم، وتسكت عما وراء ذلك.

١٣٠٠ - كما قال عليه السلام: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا».

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَيْدَاهُ عَلَى الْكَفَّارِ رُحْمًا يُنَبِّئُهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُ الْفَاسِقِ فِي الْإِنجِيلِ كَرَّجْ أَخْرَجْ شَطْرَهُمْ فَازَرُوهُ فَاسْتَعْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزَّكَاعَ لِيَغِيظَ اللَّهُ الْكَفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ لِإِحْسَنِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].
وقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٣٠١ - حدثنا القاضي أبو علي، حدثنا أبو الحسين، وأبو الفضل؛ قالوا: حدثنا أبو يعلى، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسن بن الصباح، حدثنا سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عُمير، عن ربيعة بن جَرَّاش، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا باللذنين من بعدي: أبي بكر، وعمر» [الترمذي (٣٨٠٤)، ابن ماجه (٩٧)، أحمد (٣٨٥/٥)].

١٣٠٢ - وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

١٣٠٣ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام؛ ولا يصلح الطعام إلا به».

١٣٠٤ - وقال: «اللَّهُ اللَّهُ في أصحابي؛ لا تتخذوهم غرضاً بعدي؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه».

١٣٠٥ - وقال: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدِهِم ولا نصيفُهُ» [البخاري (٣٦٧٣)، مسلم (٢٥٤)، (٢٥٤١)].

١٣٠٦ - وقال: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

١٣٠٧ - وقال: «إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابِي فَأَنْسِكُوا».

١٣٠٨ - وقال في حديث جابر: «إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَاخْتَارَ لِي مِنْهُمْ أَرْبَعَةً: أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا؛ فَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أَصْحَابِي، وَفِي أَصْحَابِي كُلُّهُمْ خَيْرٌ».

١٣٠٩ - وقال: «مَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي».

١٣١٠ - وقال مالك بن أنس، وغيره: «مَنْ أَبْغَضَ الصَّحَابَةَ وَسَبَّهُمْ فَلَيْسَ لَهُ فِي قَوْمِ الْمُسْلِمِينَ حَقٌّ، وَتُرْجَعُ بَابَةُ الْحَشْرِ: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ① مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا مَنَّاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ②﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ③﴾ [الحشر: ٦ - ١٠].

١٣١١ - وقال: «مَنْ غَاظَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ كَافِرٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَغْطِيَهُمُ الْكُفْرُ﴾ [الفتح: ٢٩].

١٣١٢ - وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: خَصَلْتَانِ مِنْ كَانَتْ فِيهِ نَجَا: الصَّدُوقُ، وَحُبُّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٣١٣ - وقال أيوب السُّخْتِيَانِي: «مَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَوْضَحَ السَّبِيلَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُثْمَانَ فَقَدْ اسْتَضَاءَ بِنُورِ اللَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالْعَزْوَةِ الْوُثْقَى، وَمَنْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الثَّفَاقِ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُمْ أَحَدًا فَهُوَ مُبْتَدِعٌ مُخَالِفُ السُّنَّةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ؛ وَأَخَافُ أَلَّا يَضَعِدَ لَهُ عَمَلٌ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يَحْتَبِمَ جَمِيعًا، وَيَكُونَ قَلْبُهُ سَلِيمًا».

١٣١٤ - وفي حديث خالد بن سعيد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَاضٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فَاعْرِفُوا لَهُ ذَلِكَ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَاضٍ عَنْ عُمَرَ، وَعَنْ

علي، وعن عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وأبي عبيدة؛ فاعرفوا لهم ذلك.

أيها الناس! إن الله عَفَرُ لأهل بَذَرِ والْحُدَيْبِيَّةِ. أيها الناس! احفظوني في أصحابي وأضهاري وأختاني، لا يطالبنكم أحدٌ منهم بِمَظْلَمَةٍ؛ فإنها مَظْلَمَةٌ لا تَوَقَّبُ في الْقِيَامَةِ خُذًا.

١٣١٥ - وقال رجلٌ للمُعَاذِيِّ بنِ عِمْرَانَ: أينَ عُمرُ بنِ عبدِالعزيزِ مِنْ معاوية؟ فغضب وقال: لا يُقَاسُ بأصحابِ النبي ﷺ أحدٌ، معاويةُ صاحِبُهُ وصِهرُهُ، وكاتبُهُ وأمينُهُ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ.

١٣١٦ - وأتَى النبي ﷺ بِجَنَازَةِ رَجُلٍ فلم يُصَلِّ عليه، وقال: «كَانَ يَنْغُضُ عُثْمَانَ، فَأَبْغَضَهُ اللَّهُ» [الترمذي (٣٧٠٩)].

١٣١٧ - وقال عليه السلام في الأنصار: «اغفُوا عن مُسِيئَتِهِمْ، واقْبَلُوا مِنْ حَسَنَتِهِمْ» [البخاري (٣٧٩٩)، مسلم (٢٥١٠)].

١٣١٨ - وقال: «احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَأَضْهَارِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ حَفَظَنِي فِيهِمْ حَفَظَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِيهِمْ تَخَلَّى اللَّهُ مِنْهُ، وَمَنْ تَخَلَّى اللَّهُ مِنْهُ يَوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

١٣١٩ - وقال عليه السلام: «مَنْ حَفَظَنِي فِي أَصْحَابِي كُنْتُ لَهُ حَافِظًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٣٢٠ - وقال: «مَنْ حَفَظَنِي فِي أَصْحَابِي وَرَدَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِي أَصْحَابِي لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَلَمْ يَرْنِي إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ».

١٣٢١ - وقال مالك - رحمه الله -: هذا النبي مُؤَدَّبُ الْخَلْقِ الَّذِي هَدَانَا اللَّهُ بِهِ، وجعله رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، يَخْرُجُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَيْعِ [مسلم (٩٧٤)] فَيَدْعُو لَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ كَالْمُودِّعِ لَهُمْ؛ وبذلك أمره الله، وأمر النبي بحُبِّهِمْ، ومُؤَالَاتِهِمْ، ومَعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُمْ.

١٣٢٢ - وروي عن كعب: ليس أحدٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا وَلَهُ شِفَاعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

١٣٢٣ - وَطَلَّبَ مِنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ نَوْفَلٍ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

١٣٢٤ - قال سَهْلُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ التُّسْتَرِيُّ: لَمْ يُؤْمِنْ بِالرَّسُولِ مَنْ لَمْ يُوقِّرْ أَصْحَابَهُ، وَلَمْ يُعِزَّ أَوَامِرَهُ.

فصل

ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أنسابه،
وأكرام مشايده وأمكنته من مكة والمدينة،
ومعاهديه، وما لَصَّته عليه السلام أو عُرف به.

١٣٢٥ - ورؤي عن صَفِيَّة بنت نَجْدَةَ؛ قالت: كان لأبي مَخْذُومَةَ قُصَّةٌ في مَقْدَمِ رأسه، إذا قَعَدَ وأرسلها أصابت الأرض. فقيل له: ألا تحلقها؟ فقال: لم أَكُنْ بِالَّذِي أَحْلَقُهَا، وقد مَسَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ.

١٣٢٦ - وكانت في قُلَيْسُومَةَ خَالِد بن الوليد شَعْرَاتٌ من شَعْرِ رسول الله ﷺ، فسقطت قُلَيْسُومَةُ في بَغْضِ حُرُوبِهِ، فشدَّ عليها شَدَّةً أنكر عليه أصحابُ النبي ﷺ كَثْرَةَ مَنْ قُتِلَ فيها؛ فقال: لم أفعلها بسبب القُلَيْسُومَةِ؛ بل لِمَا تَضَمَّنَتْهُ من شَعْرِهِ - عليه السلام - لئلا أُسَلِّبَ بركتها وتقع في أيدي المشركين.

١٣٢٧ - ورؤي ابنُ عُمَرَ واضعاً يَدَهُ على مَقْعَدِ النبي ﷺ من المِئْبَرِ، ثم وضعها على وَجْهِهِ.

١٣٢٨ - وَلِهَذَا كَانَ مالِك - رَحِمَهُ الله - لا يركبُ بالمدينة دَابَّةً؛ وكان يقول: أَسْتَجِي من الله أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً فيها رسولُ الله بحافِرِ دَابَّةٍ.

١٣٢٩ - ورؤي عنه أَنَّهُ وهبَ لِلشَّافِعِيِّ كُرَاعاً كثيراً كان عنده؛ فقال له الشَّافِعِيُّ: أَمْسِكْ منها دَابَّةً. فأجابهُ بمثل هذا الجواب.

١٣٣٠ - وقد حكى أَبُو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ عن أحمد بن فضالٍ الزَّاهِد - وكان من العُزَاة الرُّمَّة - أَنَّهُ قال: ما مَسَسْتُ القَوْسَ بيدي إِلَّا على طَهَارَةٍ منذ بلغني أَنَّ النبي ﷺ أَخَذَ القَوْسَ بِيَدِهِ.

١٣٣١ - وقد أَفتى مالِكُ فيمن قال: - تَرِبَةُ المَدِينَةِ رَذِيَّةٌ - يَضْرِبُ ثلاثين دِرَّةً، وأمرَ بِحَبْسِهِ، وكان له قَدَرٌ؛ وقال: ما أَحْوَجُهُ إِلَى ضَرْبِ عُنُقِهِ! تَرِبَةُ دُفْنٍ فيها خيرُ البشر: النبي ﷺ، يزعمُ أَنها غير طيبة!!

١٣٣٢ - وفي الصحيح أَنَّهُ قال - عليه السلام - في المَدِينَةِ: «مَنْ أَحْدَثَ فيها حَدَثاً أو آوَى مُخِدَّثاً فعليه لَعْنَةُ اللَّهِ والملائكة والناس أجمعين؛ لا يقبلُ اللَّهُ منه صَرْفاً ولا هَدْلاً» [البخاري (١٨٧٠)، مسلم (١٣٧٠)].

١٣٣٣ - وحكى أَنَّ جَهَنجَاهاً الْغِفَارِيَّ أَخَذَ قَضِيبَ النبي ﷺ من يد عثمان

رضي الله عنه وتناوله ليكسره على ركبته، فصاح به الناس، فأخذته الأكلة في ركبته فقطعها، ومات قبل الحول.

١٣٣٤ - وقال عليه السلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَنْبَرِي كَاذِبًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» [أبو داود (٣٢٤٦)، ابن ماجه (٢٣٢٥)].

١٣٣٥ - وَحَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيَّ لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا، وَقَرَّبَ مِنْ بَيْوتِهَا تَرَجَّلَ وَمَشَى بِأَكْيَا، يُنْشِدُ:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ لَنَا فَوَادًا لِعَرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبَا
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنَّ ثُلِمَ بِهِ رُكْبَا

١٣٣٦ - وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُتَرِيدِينَ أَنَّهُ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنْشَدَ يَقُولُ مِثْلًا:

رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاخَ لِنَظَرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دَوْنَهُ الْأَوْهَامُ
وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَّغُنْ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرُّجَالِ حَرَامُ
قَرْنِنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

١٣٣٦م - وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمَشَائِخِ أَنَّهُ حَجَّ مَاشِيًا؛ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ: الْعَبْدُ الْآبِقُ لَا يَأْتِي إِلَى بَيْتِ مَوْلَاهُ رَاكِبًا، لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى رَأْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى قَدَمَيَّ.

١٣٣٦م - قَالَ الْقَاضِي: وَجَدِيرٌ لِمَوَاطِنَ عُمِّرَتْ بِالْوَحْيِ وَالتَّزْوِيلِ، وَتَرَدَّدَ بِهَا جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَعَرَجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ، وَضَجَّتْ عَرَصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ، وَاشْتَمَلَتْ تَزْنِيتُهَا عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَانْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِهِ ﷺ مَا انْتَشَرَ، مَدَارِسُ آيَاتٍ، وَمَسَاجِدُ صَلَوَاتٍ، وَمَشَاهِدُ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ، وَمَعَاهِدُ الْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَمُتَّبِعُوا خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - ﷺ وَعَلَى عَمْرَتِهِ أَجْمَعِينَ - حَيْثُ انْفَجَرَتْ النُّبُوءَةُ، وَأَيْنَ فَاضَ غُبَايُهَا؛ وَمَوَاطِنَ مَهَيْطِ الرِّسَالَةِ؛ وَأَوَّلَ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدُ الْمُصْطَفَى تَرَابُهَا، أَنَّ تُعْظَمَ عَرَصَاتُهَا، وَتُنْتَسَمَ نَفَحَاتُهَا، وَتُقْبَلَ رُبُوعُهَا وَجُذُرَانِهَا:

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ هُدًى الْأَنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ
عِنْدِي لِأَخْلِكَ لَوْعَةً وَصَبَابَةً وَتَشْوِيقَ مُتَوَقِّدِ الْجَمَرَاتِ
وَعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلَأْتُ مُحَاجِرِي مِنْ تِلْكَ الْجُذُرَانِ وَالْعَرَصَاتِ

لَأَعْفِرَنَّ مَضُوءَ شَيْبِي بَيْنَهَا
لَوْلَا الْعَوَادِي، وَالْأَعَادِي زُرْتُهَا
لَكُنْ سَافِدِي مِنْ حَفِيلِ تَجِيَّتِي
أَزْكَى مِنْ الْمِسْكِ الْمُفْتَقِي نَفْحَةَ
وَتَخْطُهُ بِزَوَاكِي الصَّلَوَاتِ
مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ وَالرَّشَفَاتِ
أَبَدًا وَلَوْ سَخِبًا عَلَى الْوَجْنَاتِ
لِقَطِينِ بِلَاحِ الدَّارِ وَالْحُجَرَاتِ
تَغْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرَاتِ
وَنَوَامِي التَّنْزِيلِ وَالْبَرَكَاتِ



الباب الرابع

فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ وَفَرْضِ ذَلِكَ وَفَضِيلَتِهِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

١٣٣٧ - قال ابن عباس: معناه: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُبَارِكُونَ عَلَى النَّبِيِّ.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ يَتَرَخَّمُ عَلَى النَّبِيِّ، وَمَلَائِكَتُهُ يَدْعُونَ لَهُ.

قال الثَّبَرِيُّ: وأصل الصَّلَاةِ التَّرَخُّمُ، فهي مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ، ومن الملائكة رِقَّةٌ واستدعاء للرحمة من الله.

١٣٣٨ - وقد ورد في الحديث صَفَةُ صَلَاةِ الملائكة على مَنْ جالس ينتظر

الصَّلَاة: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ» [البخاري (٦٥٩)، مسلم (٢٧٢/٦٤٩)] فهذا دُعَاءٌ.

١٣٣٩ - وقال بَكْرُ الْقَشِيرِيِّ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ تعالى لِمَنْ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ

رَحْمَةً، وللنبي ﷺ تشريفٌ وزيادةٌ تَكْرِمَةٌ.

١٣٤٠ - وقال أبو العالية: صَلَاةُ اللَّهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عند الملائكة، وصَلَاةُ

الملائكة الدعاء.

١٣٤١ - قال القاضي أبو الفضل: وقد فُرِّقَ النَّبِيُّ ﷺ - في حديث تعليم

الصَّلَاةِ عَلَيْهِ - بين لفظ الصَّلَاةِ ولفظ البركة؛ فدلَّ أنهما بمعنيين.

١٣٤٢ - وأما التسليمُ الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر بن

بُكَيْرٍ: نزلت هذه الآيةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فأمر الله أصحابه أَنْ يَسْلَمُوا عَلَيْهِ؛

وكذلك مَنْ يَغْدَهُمْ أَمَرُوا أَنْ يَسْلَمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عند حضورهم قَبْرِهِ، وعند

ذِكْرِهِ.

وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:
أحدها: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدراً كاللذاذ واللذاذة.
الثاني: أي السلام على جفئك ورعايتك متول له، وكفيل به، ويكون - هنا -
السلام: اسمُ الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المُسالمة له والانقياد؛ كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فصل

فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

واعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة، غير محدد بوقت، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - أن محملاً الآية عنده على التذنب؛ وأدعى فيه الإجماع؛ ولعله فيما زاد على مرة؛ والواجب منه الذي يسقط به الخرج وماتم ترك الفرض مرة؛ كالشهادة له بالنبوة؛ وما عدا ذلك مندوب مرغّب فيه، من سنن الإسلام وشعار أهله.

قال القاضي أبو الحسين بن الفصار: المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من ذفره مع القدرة على ذلك.

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلّوا على نبيه ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم؛ فالواجب أن يكثر المرء منها، ولا يغفل عنها.

قال القاضي أبو محمد بن نصر: الصلاة على النبي ﷺ واجبة في الجملة.
قال القاضي أبو عبد الله: محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض بالجملة بعقد الإيمان، لا تتعين فيه الصلاة، وأن من صلّى عليه مرة واحدة في عمره سقط الفرض عنه.

وقال أصحاب الشافعي: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورؤله عليه السلام هو في الصلاة.

وقالوا: وأما في غيرها فلا خلاف أنها غَيْرُ واجبة.

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر: محمد بن جرير الطبري، والطحاوي وغيرهما إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأئمة على أن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد غير واجبة.

وشد الشافعي في ذلك؛ فقال: «مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَعْدِ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ وَقَبْلَ السَّلَامِ فَصَلَاتُهُ بَاطِلَةٌ فَاسِدَةٌ، وَإِنْ صَلَّى عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ تَنْجِزْهُ» وَلَا سَلَفَ لَهُ فِي هَذَا الْقَوْلِ وَلَا سَنَّةٌ يَتَّبَعُهَا.

وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه - لمخالفته فيها مَنْ تَقَدَّمَه - جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبري، والقشيري، وغير واحد.

وقال أبو بكر بن المنذر: يستحبُّ أَلَّا يُصَلِّيَ أَحَدٌ صَلَاةً إِلَّا صَلَّى فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَارَكَ فَصَلَاتُهُ مُجْزِئَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّأْيِ وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ قَوْلُ جَمَلِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَحَكَى عَنْ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ أَنَّهَا فِي التَّشَهُّدِ الْآخِرِ مُسْتَحَبَّةٌ، وَأَنَّ تَارِكَهَا فِي التَّشَهُّدِ مُسِيءٌ.

وشد الشافعي فَأَوْجَبَ عَلَى تَارِكِهَا فِي الصَّلَاةِ الْإِعَادَةَ؛ وَأَوْجَبَ إِسْحَاقُ أَيْضًا الْإِعَادَةَ مَعَ تَعَمُّدِ تَرْكِهَا دُونَ الشُّبَّانِ.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْدٍ، عَنْ - مُحَمَّدِ بْنِ الْمَوَّازِ - أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرِيضَةٌ.

قال أبو محمد: يريدُ لَيْسَتْ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ؛ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَغَيْرُهُ.

وحكى ابْنُ الْقَضَائِ وَغَبْدُ الْوَهَّابِ - أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمَوَّازِ - يَرَاهَا فَرِيضَةً فِي الصَّلَاةِ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ.

وَحَكَى أَبُو يَغْلَى الْعَبْدِيُّ الْمَالِكِيُّ عَنِ الْمَذْهَبِ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي الصَّلَاةِ: الْوَجُوبُ، وَالْتَذَبُ، وَالسَّنَةُ.

وقد خالف الخطابي - مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ - وَغَيْرُهُ الشَّافِعِيَّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ فِي الصَّلَاةِ؛ وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةِ الْفُقَهَاءِ إِلَّا الشَّافِعِيَّ؛ وَلَا أَعْلَمُ لَهُ فِيهَا قَدْوَةٌ.

والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عملُ السَّلَفِ الصَّالِحِ قَبْلَ الشَّافِعِيِّ، وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَيْهِ.

وقد شئع الناس عليه في هذه المسألة جداً.

١٣٤٣ - وهذا تشهد ابن مسعود [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)] الذي اختاره الشافعي، وهو الذي علمه له النبي ﷺ، ليس فيه الصلاة على النبي ﷺ.

١٣٤٤ حتى ١٣٥٠ - وكذلك كل من يزوي التشهد عن النبي ﷺ، كأبي هريرة، وابن عباس [مسلم (٤٠٣)]، وجابر [النسائي (٣٤٣/٢)]، وابن عمر [أبو داود (٩٧١)]، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري [مسلم (٤٠٤)]، وعبد الله بن الزبير لم يذكروا فيه صلاة على النبي ﷺ.

١٣٥١، ١٣٥٢ - وقد قال ابن عباس، وجابر: كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن [مسلم (٤٠٣)].

١٣٥٣ - ونحوه عن أبي سعيد.

١٣٥٤ - وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما يعلمون الصبيان في الكتاب.

١٣٥٥ - وعلمه أيضاً على المنبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١٣٥٦ - وفي الحديث: «لا صلاة لمن لم يضل علي» [ابن ماجه (٤٠٠)].

قال ابن القصار: معناه: كاملة؛ أو لمن لم يضل علي مرة في عمره. وضعف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث.

١٣٥٧ - وفي حديث أبي جعفر، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ: «من صلى صلاة لم يضل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه».

١٣٥٨ - قال الدارقطني: الصواب أنه من قول أبي جعفر: محمد بن علي بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها علي النبي ﷺ ولا علي أهل بيته لرايت أنها لا تتم.

فصل

في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام

على النبي ﷺ ويُرْعَب

من ذلك في تشهد الصلاة كما قدمناه؛ وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء.

١٣٥٩ - حدثنا أبو علي القاضي بقراءتي عليه - رحمه الله - قال: حدثنا الإمام أبو القاسم البلخي قال: حدثنا الفارسي، عن أبي القاسم الخزازي، عن أبي سعيد: الهيثم بن كليب، عن أبي عيسى الحافظ قال: حدثنا محمود بن غيلان،

حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوه بن شريح، حدثني أبو هانيء الخولاني أن عمرو بن مالك الجني، أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، فلم يصل على النبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: «عجل هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم يصل على النبي ﷺ؛ ثم ليندع بعد بما شاء» [الترمذي (٣٤٧٧)، أبو داود (١٤٨١)، النسائي (٤٤٣)].

ويروى من غير هذا السند: «بتمجيد الله» وهو أصح.

١٣٦٠ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض؛ فلا يصعد إلى الله منه شيء حتى يصل على النبي ﷺ [الترمذي (٤٨٦)].

١٣٦١ - وعن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ بمعناه؛ وقال: وعلى آل محمد.

١٣٦٢ - وروى أن الدعاء محجوب حتى يصلّي الداعي على النبي ﷺ.

١٣٦٣ - وعن ابن مسعود: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً فليبدأ بمذحه والثناء عليه بما هو أهله؛ ثم يصلّي على النبي ﷺ؛ ثم ليسأل؛ فإنه أجدر أن يتجح.

١٣٦٤ - وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كقدح الزاكب؛ فإن الزاكب يملأ قدحه ثم يضعه، ويرفع متاعه؛ فإن احتاج إلى شراب شربه، أو الوضوء توضأ، وإلا هراقه؛ ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره».

١٣٦٥ - وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات؛ فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أتجح؛ فأركانه: حضور القلب، والرقّة، والاستكانة والخشوع، وتعلق القلب بالله، وقطعه من الأسباب، وأجنحته: الصدق ومواقيته: الأسفار، وأسبابه: الصلاة على محمد ﷺ.

١٣٦٦ - وفي الحديث: «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد».

١٣٦٧ - وفي حديث آخر: «كل دعاء محجوب دون السماء، فإذا جاءت الصلاة علي صعد الدعاء».

١٣٦٨ - وفي دعاء ابن عباس الذي رواه عنه حشش؛ فقال في آخره:

واستجب دُعائي، ثم يبدأ بالصلاة على النبي ﷺ فيقول: اللهم! إني أسألك أن تُصَلِّيَ على محمدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ أَفْضَلَ مَا صَلَّيْتَ على أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَجْمَعِينَ آمِينَ.

وَمِنْ مواطن الصلاة عليه: عند ذِكْرِهِ، وَسَمَاعِ اسْمِهِ، أو حديثه، أو عند الأذان. ١٣٦٩ - وقد قال عليه السلام: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يصَلِّ عَلَيَّ» [الترمذي (٣٥٤٥)].

وَكَرِهَ ابْنُ حَبِيبٍ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ عند الذَّبْحِ. وَكَرِهَ سُخُونُ الصلاة عليه عند التعجُّب؛ وقال: لا يصَلِّي عليه إلا على طريق الاحتساب، وطلَبَ الثواب.

قال أَضْبَغُ، عن ابن القاسم: مَوْطِنان لا يُذْكَرُ فيهما إلا الله: الذبيحة، والعطاس؛ فلا تُقَلُّ فيهما بعد ذِكْرِ اللَّهِ؛ محمدٌ رسولُ اللَّهِ. ولو قال بعد ذِكْرِ اللَّهِ: صَلِّ اللَّهُ على محمد لم يكن تسمية له مع اللَّهِ.

وقاله أَشْهَبُ؛ قال: ولا ينبغي أن تجعل الصلاة على النبي ﷺ فيه استثناءً. ١٣٧٠ - وَرَوَى النَّسَائِيُّ، عن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ، عن النبي ﷺ: الأَمْرُ بِالْإِكْتِارِ مِنَ الصلاة عليه يوم الجمعة [النسائي (٣/ ٩١-٩٢)، أبو داود (١٠٤٧)، ابن ماجه (١٠٨٥)].

ومن مواطن الصلاة والسلام دخول المسجد:

١٣٧١ - قال أبو إسحاق بن شعبان: وينبغي لمن دخل المسجد أن يُصَلِّيَ على النبي ﷺ، وعلى آله، ويتَرَحَّمُ عليه، وعلى آله، ويبارك عليه وعلى آله، ويسلم تسليمًا؛ ويقول: «اللهم! اغفر لي ذُنُوبِي، وافتح لي أبواب رَحْمَتِكَ». وإذا خرج فَعَلْ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وجعل موضع «رَحْمَتِكَ» «فَضْلِكَ».

١٣٧٢ - وقال عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ - في قوله تعالى -: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» [النور: ٦١] - قال: إن لم يكن في البيت أحدٌ فقل: السلام على النبي ورحمةُ اللَّهِ وبركاته، السلام علينا وعلى عِبَادِ اللَّهِ الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمةُ اللَّهِ وبركاته.

١٣٧٣ - قال ابن عباس: المراد بالبيوت - ههنا - المساجد.

١٣٧٤ - وقال الثَّخَعِيُّ: إذا لم يكن في المسجد أحدٌ فقل: السلام على رسولِ اللَّهِ ﷺ؛ وإذا لم يكن في البيت أحدٌ فقل: السلام علينا وعلى عِبَادِ اللَّهِ الصالحين.

١٣٧٥ - وعن علقمة: إذا دخلت المسجد أقول: السلام عليك أيها النبي! ورحمة الله وبركاته، صلى الله وملائكته على محمد.

١٣٧٦ - ونحوه عن كعب: إذا دخل، وإذا خرج، ولم يذكر الصلاة.

١٣٧٧ - واحتج ابن شغبان - لما ذكره - بحديث فاطمة بنت رسول الله - عليهما الصلاة والسلام - أن النبي ﷺ كان يفعلُه إذا دخل المسجد [الترمذي (٣١٤)، ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٢٨٢/٦)].

١٣٧٨ - ومثله عن أبي بكر بن عمرو بن حزم. وذكر السلام والرحمة.

وقد ذكرنا هذا الحديث آخر القسم، والاختلاف في ألفاظه.

١٣٧٩ - ومن مواطن الصلاة عليه أيضاً عند الصلاة على الجنائز.

وذكر عن أبي أمامة أنها من السنة [النسائي (٧٥/٤)].

ومن مواطن الصلاة التي مضى عليها عمل الأمة، ولم تُنكرها: الصلاة على النبي وعلى آله في الرسائل، وما يكتب بعد البسملة؛ ولم يكن هذا في الصدر الأول؛ وأُخِيت عند ولاية بني هاشم، فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض. ومنهم من يخطب به أيضاً الكتب.

١٣٨٠ - وقال عليه السلام: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ

تستغفرُ له ما دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ».

ومن مواطن السلام على النبي ﷺ تشهد الصلاة.

١٣٨١ - حدثنا أبو القاسم: خلف بن إبراهيم المقرئ الخطيب رحمه الله،

وغيره قال: حدثني كريمة بنت أحمد؛ قالت: حدثنا أبو الهيثم، حدثنا محمد بن

يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن

شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ؛ قال: «إذا صلى

أحدكم فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك، أيها النبي!

ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإتكم إذا قلموها

أصابك كل عبّد صالح في السماء والأرض» [البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢)].

هذا أحد مواطن التسليم عليه؛ وسنّه أول التشهد.

١٣٨٢ - وقد رَوَى مالك، عن ابن عمر: أنه كان يقول ذلك إذا فرغ من

تسليمه وأراد أن يسلم.

واستحب مالك في «المبسوط» أن يسلم بمثل ذلك قبل السلام.

١٣٨٣ - قال محمد بن مسلمة: أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر أنهما كانا

يَقُولَانِ عِنْدَ سَلَامِهِمَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.
وَاسْتَحَبَّ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنْ يَتَوَيَّحُوا الْإِنْسَانَ حِينَ سَلَامِهِ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَبَنِي آدَمَ وَالْجِنِّ.
قَالَ مَالِكٌ فِي «الْمَجْمُوعَةِ»: وَأَجِبْ لِلْمَأْمُومِ إِذَا سَلَّمَ إِمَامُهُ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

فصل

فِي كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ

١٣٨٤ - حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ الْفَقِيهَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو الْأَصْبَغِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّابٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ وَافِدٍ وَغَيْرُهُ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خَزَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرْقِيِّ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو حَمِيدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ خَبِيرٌ مَجِيدٌ» [البخاري (٣٣٦٩)، مسلم (٤٠٧)].

١٣٨٥ - وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ؛ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ خَبِيرٌ مَجِيدٌ. وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ» [مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٦ - وَفِي رِوَايَةِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ خَبِيرٌ مَجِيدٌ» [البخاري (٦٣٥٧)، مسلم (٤٠٦)].

١٣٨٧ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرِو فِي حَدِيثِهِ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» [أَبُو دَاوُدَ (٩٨١)، مسلم (٤٠٥)].

١٣٨٨ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ...» [البخاري (٦٣٥٨)].

١٣٨٩ - حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي سماعاً عليه، وأبو علي: الحسن بن طريف النخوي بقراءتي عليه؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله بن سعدون الفقيه، حدثنا أبو بكر المطوحي، حدثنا أبو عبد الله الحاكم، عن أبي بكر بن أبي دارم الحافظ، عن علي بن أحمد العجلي، عن حزم بن الحسن، عن يحيى بن المساور، عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه علي، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب؛ قال: عَدُّهُنَّ فِي يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وقال: «عَدُّهُنَّ فِي يَدَي جَبْرِيلَ»، وقال: هكذا نزلت من عند رب العزة؛ اللهم! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ! بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ! وَتَرَحَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

اللهم! وَتَحَنَّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا تَحَنَّنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ! وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا سَلَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

١٣٩٠ - وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمَكِّيَّاتِ الْأَوْفَى إِذَا صَلَّى عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، النَّبِيِّ، وَأَزْوَاجِهِ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» [أبو داود (٩٨٢)].

١٣٩١ - وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري: سألت النبي ﷺ: كيف نُصَلِّيْ عَلَيْكَ؟

فقال: «صَلُّوا عَلَيَّ واجتهدوا في الدعاء، ثم قولوا: اللَّهُمَّ! بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» [النسائي (٤٩٣)، أحمد (١٩٩/١)].

١٣٩٢ - وعن سلامة الكندي: كان علي - رضي الله عنه - يعلمنا الصلوة على النبي ﷺ فيقول: اللَّهُمَّ! دَاجِي الْمَذْخَوَاتِ، وَبَارِي الْمَسْمُوكَاتِ، اجْعَلْ شِرَافَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِي بَرَكَاتِكَ، وَرَافَةَ تَحَنُّنِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْفَاتِحِ لِمَا أَغْلِقَ، وَالْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالْدَامِغَ لَجَنَاشَاتِ الْإِبَاطِيلِ، كَمَا حُمِّلَ، فَاضْطَلَعَ بِأَمْرِكَ لَطَاعَتِكَ، مَسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، وَاعِيّاً لَوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَى نَفَازِ أَمْرِكَ، حَتَّى أَوْرَى قَبْساً لِقَابِسِ، آلَاءِ اللَّهِ

تَصِلُ بِأَهْلِهِ أَسْبَابَهُ. بِهِ مُدَيَّتِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْإِثْمِ، وَأُبْهَجُ مُوَضِّحَاتِ الْأَعْلَامِ، وَنَائِرَاتِ الْأَحْكَامِ، وَمُنِيرَاتِ الْإِسْلَامِ؛ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِعِيَّتِكَ نِعْمَةٌ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةٌ؛ اللَّهُمَّ! افْسَحْ لَهُ فِي عَذْبِكَ، وَاجْزِهِ مَضَاعِفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، مُهَنَّاتٍ لَهُ غَيْرِ مُكْدَرَاتٍ، مِنْ فَوْزِ ثَوَابِكَ الْمَحْلُولِ، وَجَزِيلِ غَطَائِكَ الْمَعْلُولِ.

اللَّهُمَّ! أَغْلِي عَلَى بِنَاءِ النَّاسِ بِنَاءً، وَأَكْرِمْ مَثْوَاهُ لَدَيْكَ وَنُزْلَهُ، وَأَيْتِمَ لَهُ نَوْرَهُ، وَاجْزِهِ مِنْ ابْتِعَانِكَ لَهُ مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ، وَمَرْضَى الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقِي عَذْلٍ، وَخُطَّةٍ فَضْلٍ، وَبُرْهَانٍ عَظِيمٍ.

١٣٩٢ - وعنه أيضاً في الصلاة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

لَيْتَكَ اللَّهُمَّ! رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ الْبَرِّ الرَّحِيمِ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَالنَّبِيِّينَ وَالصُّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَمَا سُبَّحَ لَكَ مِنْ شَيْءٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ! عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ الشَّاهِدِ الْبَشِيرِ، الدَّاعِي إِلَيْكَ بِإِذْنِكَ، وَالسَّرَاجِ الْمُنِيرِ؛ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٣٩٤ - وعن عبدالله بن مسعود: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ؛ إِمَامِ الْخَيْرِ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ.

اللَّهُمَّ! ابْنَعْنَهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغِطُّهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ؛ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ [ابن ماجه (١٩٦)].

١٣٩٥ - وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَشْرَبَ بِالْكَأْسِ الْأَوْفَى مِنْ خَوْضِ الْمُضْطَفَى فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَأَوْلَادِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَصْهَارِهِ، وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَمُحِبِّينِهِ وَأَائِمَّتِهِ؛ وَعَلَيْنَا، مَعَهُمْ أَجْمَعِينَ. يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!

١٣٩٦ - وعن طاووس، عن ابن عباس. أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! تَقَبَّلْ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِيِّ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ الْعُلْيَا، وَآتِهِ سُؤْلَهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، كَمَا آتَيْتَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

١٣٩٧ - وعن وَهَبِ بْنِ الْوَزْدِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ! أَعْطِ مُحَمَّدًا أَفْضَلَ مَا سَأَلَكَ لِنَفْسِهِ، وَأَعْطِ مُحَمَّدًا أَفْضَلَ مَا سَأَلَكَ لَهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ، وَأَعْطِ مُحَمَّدًا أَفْضَلَ مَا أَنْتَ مُسْئِلٌ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

١٣٩٨ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخْبِسُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَذُرُونَ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُغَرِّضُ عَلَيْهِ؛ وَقُولُوا: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، إِمَامِ الْخَيْرِ، وَقَائِدِ الْخَيْرِ، وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ.

اللَّهُمَّ! ابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَغِيْظُهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ؛ اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

اللَّهُمَّ! بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ.

وما يُؤَثِّرُ فِي تَطْوِيلِ الصَّلَاةِ، وَتَكْثِيرِ الثَّنَاءِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، وَغَيْرِهِمْ، كَثِيرٌ. ١٣٩٩ - وَقَوْلُهُ: «وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ» [مسلم (٤٠٥)] هُوَ مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ فِي التَّشَهُّدِ مِنْ قَوْلِهِ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ».

١٤٠٠ - وَفِي تَشَهُّدِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: السَّلَامُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ - ﷺ - السَّلَامُ عَلَى أَنْبِيََاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْنَا، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، مَنْ غَابَ مِنْهُمْ وَمَنْ شَهِدَ. اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِمُحَمَّدٍ، وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ، وَاغْفِرْ لِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَاغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَمَا وَلَدْنَا، وَارْحَمَهُمَا.

السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: الدُّعَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْغُفْرَانِ.

وَفِي حَدِيثِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَيْضًا قَبْلُ: الدُّعَاءُ لَهُ بِالرَّحْمَةِ؛ وَلَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ الْمَعْرُوفَةِ.

وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُدْعَى لِلنَّبِيِّ - ﷺ -

بالرحمة؛ وإنما يُدْعَى له بالصلاة والبركة التي تختصُّ به، ويُدْعَى لغيره بالرحمة والمغفرة.

١٤٠١ - وقد ذكر أبو محمد بن أبي زَيْد في الصلاة على النبي ﷺ: اللهم! ارحم محمدًا، وآل محمد، كما تَرَحَّمْتَ على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم. ولم يأت هذا في حديث صحيح. وحجَّته قوله في السلام: «السلام عليك أيها النبي! ورحمة الله وبركاته».

فصل

فِي فَضِيلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْتَسْلِيمِ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ

١٤٠٢ - أخبرنا أحمد بن محمد الشيخ الصالح من كتابه، حدثنا القاضي يونس بن مغيث، حدثنا أبو بكر بن مُعَاوِيَةَ، حدثنا النَّسَائِي، حدثنا سُؤَيْدُ بْنُ نَصْرٍ، حدثنا عبد الله، عن خِيَوَةَ بن شُرَيْحٍ؛ قال: أخبرني كَعْبُ بن عَلْقَمَةَ أنه سمِعَ عبد الرحمن بن جُبَيْرٍ: مَوْلَى نافع، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذنَ فقولوا مثل ما يقول، وصلُّوا علي؛ فإنه مَنْ صَلَّى علي مرة واحدة صَلَّى اللهُ عليه بها عَشْرًا؛ ثم سلُّوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي، إلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشُّفَاعَةُ» [النسائي (٢٥/٢)، مسلم (٣٨٤)].

١٤٠٣ - وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللهُ عليه عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ درَجَاتٍ» [النسائي (٥٠/٣)].

١٤٠٤ - وفي رواية: «وكتب له عَشْرَ حَسَنَاتٍ» [أحمد (٢٦٢/٢)، الترمذي (٤٨٤)].

١٤٠٥ - وعن أنس، عنه عليه السلام: «إنَّ جبريلَ ناداني، فقال: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عليه عَشْرًا، وَرَفَعَهُ عَشْرَ درَجَاتٍ».

١٤٠٦ - وفي رواية عبد الرحمن بن عوف، عنه عليه السلام: «لَقِيتُ جبريلَ فقال لي: إني أبشرك أن الله تعالى يقول: مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عليه، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عليه» [أحمد (١٩١/١)].

١٤٠٧ - ونحوه مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ [مسلم (٤٠٨)].

١٤٠٨ - ومالك بن أوس بن الحَدَثَانِ.

١٤٠٩ - وعُيِدَ اللَّهُ بِأَبِي طَلْحَةَ [النسائي (٤٤/٣)، (٥٠)].

١٤١٠ - وعن زَيْدِ بْنِ الْحُبَابِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَأَنْزِلْهُ الْمُنْزِلَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي» [أحمد (١٠٨/٤)].

١٤١١ - وعن ابن مسعود: «أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً» [الترمذي (٤٨٤)].

١٤١٢ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا بَقِيَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ».

١٤١٣ - وعن عامر بن ربيعة: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّيْتُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا صَلَّيْتُ عَلَيَّ، فَلْيُقِلِّلْ مِنْ ذَلِكَ عَبْدٌ أَوْ فَلْيُكْثِرْ» [ابن ماجه (٩٠٧)، أحمد (٤٤٥/٣)].

١٤١٤ - وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ رُبُعُ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

فَقَالَ أَبُو بِنِ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟

قَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: الرَّبْعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ».

قَالَ: الثَّلَاثُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ».

قَالَ: النِّصْفُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ».

قَالَ: الثَّلَاثِينَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَأَجْعَلُ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ؟ قَالَ: «إِذَا تَكْفَى وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ» [الترمذي (٢٤٥٧)].

١٤١٥ - وعن أَبِي طَلْحَةَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ مِنْ بَشَرِهِ وَطَلَّاقَتِهِ مَا لَمْ أَرَهُ قَطُّ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «وَمَا يَمْتَنِعُنِي؟» وَقَدْ خَرَجَ جَبْرِيلُ أَنْفَاءً، فَأَتَانِي بِبَشَارَةِ مَنْ رَبِّي هَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكَ أَبَشْرِكَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ يَصَلِّي عَلَيْكَ مَرَّةً إِلَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَلَائِكَتُهُ بِهَا عَشْرًا».

١٤١٦ - وعن جابر بن عبد الله: قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَةُ! وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتَى مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ

وَالْفَضِيلَةَ، وَابْتِغَاءَ مَقَامٍ مَحْمُودٍ الَّذِي وَعَدْتَهُ، خَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
[البخاري (٦١٤)].

١٤١٧ - وعن سعد بن أبي وقاص: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ - أَوْ الْمُؤَذِّنَ -:
وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ
بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، غُفِرَ لَهُ» [مسلم (٣٨٦)].

١٤١٨ - وروى ابنُ وهبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ عَشْرًا فَكَانَ مَا
أَعْتَقَ رَقَبَةً».

١٤١٩ - وفي بَعْضِ الْأَثَرِ: «لَيَرَدَّنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ مَا أَعْرِفُهُمْ إِلَّا بِكَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ
عَلَيَّ».

١٤٢٠ - وفي آخَرٍ: «إِنَّ أَنْجَاكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ
عَلَيَّ صَلَاةً».

١٤٢١ - وعن أبي بكر رضي الله عنه: الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمْحَقُ
لِلذَّنُوبِ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ لِلنَّارِ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الرُّقَابِ.

فصل

فِي ذَمِّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِثْمِهِ

١٤٢٢ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا أبو الفضل بن
خَيْرُونَ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ الصَّنِيفِيُّ؛ قَالَا: أَخْبَرَنَا أَبُو يَغْلَى، أَخْبَرَنَا السُّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا
مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَيْسَى، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ [الترمذي (٣٥٤٥)] بْنُ إِبْرَاهِيمَ
الدُّوْرَقِيِّ، حَدَّثَنَا رِبْعِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي
سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانَ
ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يَدْخُلْهُ
الْجَنَّةَ».

قال عبد الرحمن: وأظنه قال: «أو أحدهما» [الترمذي (٣٥٤٥)].

١٤٢٣ - وفي حديث آخَرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِثْبَرُ فَقَالَ: «أَمِينَ»، ثُمَّ
صَعِدَ، فَقَالَ: «أَمِينَ» ثُمَّ صَعِدَ فَقَالَ: «أَمِينَ»، فَسَأَلَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَنْ ذَلِكَ،
فَقَالَ: «إِنَّ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَتَانِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مَنْ سَمِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمْ
يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعِدْهُ اللَّهُ؛ قُلْ: آمِينَ؛ فَقُلْتُ: آمِينَ».

وقال فيمن أدرك رمضان فلم يُقْبَل منه فمات مثل ذلك.

ومن أدرك أبويه - أو أحدهما - فلم يبرهما فمات مثله.

١٤٢٤ - وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عنه عليه السلام، أنه

قال: «البخيل - كُلُّ البخيل - الذي ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ».

١٤٢٥ - وعن جعفر بن محمد، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ

ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ أخطيء به طريق الجنة» [ابن ماجه (٩٠٨)].

١٤٢٦ - وعن علي بن أبي طالب، عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال:

«إِنَّ البخيل - كُلُّ البخيل - مَنْ ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ».

١٤٢٧ - وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ - «أَيُّمَا قَوْمٍ جَلَسُوا

مَجْلِساً ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ، وَيُصَلُّوا عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ

تِرَةً، إِنْ شَاءَ عَذِّبُهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ» [الترمذي (٣٣٨٠)، أحمد (٤٤٦/٢)].

١٤٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ نَسِيَ طَرِيقَ

الجنة».

١٤٢٩ - وعن قتادة، عنه - عليه السلام -: «مِنْ الْجَفَاءِ أَنْ أذْكَرَ عِنْدَ الرَّجُلِ

فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ».

١٤٣٠ - وعن جابر، عنه - عليه السلام -: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً ثُمَّ تَفَرَّقُوا

عَلَيَّ غَيْرَ صَلَاةٍ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ أَثْنَيْنِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ».

١٤٣١ - وعن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: «لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِساً

لَا يَصَلُّونَ فِيهِ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ - وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ - لَمَا يَزُونُ

مِنَ الثَّوَابِ» [الترمذي (٣٣٨٠)، النسائي (٤١٠)].

١٤٣٢ - وحكى أبو عيسى الترمذي، عن يَغْفِصُ أَهْلَ الْعِلْمِ؛ قَالَ: إِذَا صَلَّيْتُ

الرَّجُلَ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً فِي الْمَجْلِسِ أَجْزَأَ عَنْهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ.

فصل

فِي تَخْصِيصِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِتَبْلِيغِ صَلَاةٍ

مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنَ الْأَتَامِ

١٤٣٣ - حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي، حدثنا الحسين بن محمد،

حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا ابن داسمة، حدثنا أبو داود،

حدثنا ابن عوف، حدثنا المقرئ، حدثنا خيرة، عن أبي صخر: حميد بن زياد،

عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رز الله علي رُوحِي حتى أَرُدَّ عليه السلام» [أبو داود (٢٠٤١)، أحمد (٥٢٧/٢)].

١٤٣٤ - وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ؛ وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ نَائِبًا بَلَّغْتُهُ».

١٤٣٥ - وعن ابن مسعود: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَاحِبِينَ فِي الْأَرْضِ يَلْفُونِي عِنْدَ أَمْنِي السَّلامِ» [النسائي (٤٣/٣)].

١٤٣٦ - ونحوه عن أبي هريرة [أبو داود (٢٠٤٢)، أحمد (٣٦٧/٢)].

١٤٣٧ - وعن ابن عمر: أَكْثَرُوا مِنَ السَّلامِ عَلَيَّ نَبِيَّكُمْ كُلَّ جُمُعَةٍ؛ فَإِنَّهُ يُؤْتَنِي بِهِ مِنْكُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.

١٤٣٨ - وفي رواية: «فَإِنْ أَحَدًا لَا يَصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا عَرِضَتْ صَلَاتُهُ عَلَيَّ حِينَ يَفْزَعُ مِنْهَا» [ابن ماجه (١٦٣٧)].

١٤٣٩ - وعن الحسن بن علي، عنه ﷺ: «حَيْثُمَا كُتِمَ فَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي».

١٤٤٠ - وعن ابن عباس: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ يَسْلَمُ عَلَيْهِ وَيَصَلِّي عَلَيْهِ إِلَّا بَلَّغَهُ.

١٤٤١ - وذكر بعضهم أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَلَّى عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ عَرِضَ عَلَيْهِ اسْمُهُ.

١٤٤٢ - وعن الحسن بن علي: إِذَا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَسَلِّمْ عَلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا بَيْنِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُتِمَ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُتِمَ».

١٤٤٣ - وفي حديث أَوْسٍ: «أَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَفْرُوضَةٌ عَلَيَّ».

١٤٤٤ - وعن سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَكَ فَيَسْلَمُونَ عَلَيْكَ، أَتَنْفَعُهُمْ سَلَامُهُمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَأَرَدُ عَلَيْهِمْ.

١٤٤٥ - وعن ابنِ شِهَابٍ: بَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَكْثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ فِي اللَّيْلَةِ الزَّهْرَاءِ، وَالْيَوْمِ الْأَزْهَرِ؛ فَإِنَّهُمَا يُؤْذِيَانِ عَنْكُمْ، وَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا حَمَلَهَا مَلَكٌ حَتَّى يُؤْذِيَهَا إِلَيَّ، وَيُسَمِّيَهَا، حَتَّى إِذَا لَبِقُولُ: إِنَّ فَلَانًا يَقُولُ كَذَا وَكَذَا».

فصل

فِي الْاِخْتِلَافِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

قال القاضي - وفقه الله -: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ.

١٤٤٦ - ورؤي عن ابن عباس أنه قال: لا تجوز الصلاة على غير النبي ﷺ.

١٤٤٧ - ورؤي عنه: لا ينبغي الصلاة على أحد إلا النبيين.

١٤٤٨ - وقال سُفْيَانُ: يُكْرَهُ أَنْ يُصَلَّى إِلَّا عَلَى نَبِيٍّ.

١٤٤٩ - ووجدت بخط بغض شيوخي: مذهب مالك أنه لا يجوز أن يصلى

على أحد من الأنبياء سِوَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وهذا غير معروف من مذهبه؛ وقد قال مالك في «المبسوط» ليحيى بن إسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمزنا به.

١٤٥٠ - وقال يحيى بن يحيى: لست آخذ بقوله؛ لا بأس بالصلاة على

الأنبياء كلهم وعلى غيرهم؛ واحتج بحديث ابن عمر.

١٤٥١ - وبما جاء في حديث تعليم النبي ﷺ الصلاة عليه وفيه: «وعلى

آله، وعلى أزواجه».

وقد وجدت معلقاً عن أبي عمران الفاسي: رؤي عن ابن عباس رضي الله

عنهما كراهة الصلاة على غير النبي ﷺ؛ قال: وبه نقول. ولم تكن تُسْتَعْمَلُ فيما مضى.

١٤٥٢ - وقد روى عبدالرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال

رسول الله ﷺ: «صلُّوا على أنبياء الله ورسله؛ فإنه بعثهم كما بعثني».

قالوا: والأسانيد عن ابن عباس لينة، والصلاة في لسان العرب بمعنى

الترحم والدعاء؛ وذلك على الإطلاق حتى يمتنع منه حديث صحيح أو إجماع.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال: ﴿حٰذِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ

لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ مَكَوَتْ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةً...﴾ [البقرة: ١٥٧].

١٤٥٣ - وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى». وكان إذا أتاه قومٌ بصدقهم قال: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ» [البخاري (١٤٩٧)، مسلم (١٠٧٨)].

١٤٥٤ - وفي حديث الصلاة: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ».

١٤٥٥ - وفي حديث آخر: «وعلى آل محمد»: قيل: أتباعه، وقيل: آل بيته، وقيل: أمته. وقيل: الأتباع، والرُّفُط، والعشيرة. وقيل: آل الرجل: قومه. وقيل: ولده. وقيل: أفعله الذين حُرِّمَتْ عليهم الصَّدَقَةُ.

١٤٥٦ - وفي رواية أنس: سئل النبي ﷺ: مَنْ آلُ مُحَمَّدٍ؟ قال: «كُلُّ نَفْسٍ».

١٤٥٧ - وَيَجِيءُ عَلَى مَذْهَبِ الْحَسَنِ أَنَّ الْمُرَادَ بِآلِ مُحَمَّدٍ: مُحَمَّدٌ نَفْسُهُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، يَرِيدُ: نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُخَلُّ بِالْفَرَضِ، وَيَأْتِي بِالنَّفْلِ؛ لِأَنَّ الْفَرَضَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ هُوَ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَفْسِهِ.

١٤٥٨ - وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» [البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٢٣٦/٧٩٣)]، يَرِيدُ: مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ.

١٤٥٩ - وفي حديث أَبِي حَمِيدٍ السَّاعِدِيِّ فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ».

١٤٦٠ - وفي حديث ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى الْأَنْدَلِسِيِّ.

١٤٦١ - وَالصَّحِيحُ مِنْ رِوَايَةِ غَيْرِهِ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

١٤٦٢ - وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: كُنَّا نَدْعُو لِأَصْحَابِنَا بِالْغَيْبِ؛ فَتَقُولُ: اللَّهُمَّ! اجْعَلْ مِنْكَ عَلَى فُلَانٍ صَلَوَاتٍ قَوْمِ أِبْرَارٍ، الَّذِينَ يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ، وَيَصُومُونَ بِالنَّهَارِ.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحققون، وأبيُّ إلى، ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله ورؤي عن ابن عباس؛ واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِهِمْ؛ بَلْ هُوَ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، تَوْقِيرًا لَهُمْ وَتَعْزِيزًا، كَمَا يُخَصُّ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِهِ بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَا يَشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، كَذَلِكَ يَجِبُ تَخْصِيسُ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ

بالصلاة والتسليم ولا يشاركهم فيه سيّوَاهُمْ، كما أمرَ اللهُ به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وَيُذَكِّرُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَغَيْرِهِم بِالْعُقْرَانِ وَالرُّضَا؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا وَلَاخِرَتَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِسْنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُواهُمْ يَلْحَقْنَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ عَنَّهُمْ...﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأيضاً فهو أمرٌ لم يَكُنْ معروفاً في الصُّدْرِ الأول؛ كما قال أبو عَمْرٍاء؛ وإنما أحدثته الرافضة والمتشعبة في بعض الأئمة؛ فشاركوهم عند الذِّكْرِ لهم بالصلاة، وساوَوْهم بالنبي ﷺ في ذلك.

وأيضاً فإنَّ التشبُّه بأهلِ الْبِدْعِ مِنْهُيٌّ عنه؛ فَتَجِبُ مُخَالَفَتُهُمْ فيما التزموه من ذلك.

وذكرُ الصلاة على الآلِ والأزواج مع النبي ﷺ بِحُكْمِ التَّبَعِ والإضافة إليه لا على التخصيص.

قالوا: وصلاة النبي ﷺ على مَنْ صَلَّى عليه مُجْرَاهَا مُجْرَى الدُّعَاءِ والمُوجِبَةِ، ليس مِنْهَا معنى التعظيم والتوقير.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وكذلك يجب أن يكونَ الدُّعَاءُ له مُخَالَفاً لدُّعَاءِ النَّاسِ بعضهم لبعض.

وهذا اختيارُ الإمام أبي المظفر الإسفراييني أحد شيوخنا، وبه قال ابنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

فصل

**فِي حُكْمِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَضِيلَةِ مَنْ رَآهُ
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُسَلَّمُ وَيَدْعُو لَهُ**

وزيارةُ قَبْرِه - عليه السلام - سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُسْلِمِينَ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا، وَفَضِيلَةٌ مُرَغَّبٌ فِيهَا، رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤٦٣ - حدثنا القاضي أبو علي؛ قال: حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون؛ قال: حدثنا الْحَسَنُ بن جَعْفَرٍ؛ قال: حدثنا أبو الْحَسَنِ: علي بن عُمَرَ الدَارَقُطْنِي؛ قال:

حدثنا القاضي المحاملي؛ قال: حدثنا محمد بن عبد الرزاق؛ قال: حدثنا موسى بن هلال، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي».

١٤٦٤ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَارَنِي فِي الْمَدِينَةِ مُحْتَسِباً كَانَ فِي جَوَارِي، وَكَنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٤٦٥ - وفي حديث آخر: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي».

١٤٦٦ - وَكَرِهَ مَالِكُ أَنْ يَقَالَ: زُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ.

١٤٦٧ - وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ؛ فَقِيلَ: كَرَاهَةُ الْاسْمِ؛ لِمَا وَرَدَ مِنْ

قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَعَنَ اللَّهُ زُؤَارَاتِ الْقُبُورِ» [أحمد (٣٣٧/٢)، الترمذي (١٠٥٦)، ابن ماجه (١٥٧٦)].

١٤٦٨ - وَهَذَا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا» [مسلم (٩٧٧)].

١٤٦٩ - وَقَوْلُهُ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي» فَقَدْ أَطْلَقَ اسْمَ الزِّيَارَةِ.

وقيل: إن ذلك لما قيل: إن الزائر أفضل من المزور.

١٤٧٠ - وَهَذَا أَيْضاً لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ زَائِرٍ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَيْسَ

عَمُوماً؛ وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: زِيَارَتُهُمْ لِرَبِّهِمْ [الترمذي (٢٥٤٩)، ابن ماجه (٤٣٣٦)]؛ وَلَمْ يُنْعَمْ هَذَا اللَّفْظُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

وقال أبو عمران - رحمه الله -: إنما كره مالك أن يقال: طواف الزيارة،

وَزُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ لَا اسْتِعْمَالَ النَّاسِ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ فَكِرَةٌ تَسْوِئَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَعَ النَّاسِ بِهَذَا اللَّفْظِ؛ وَأَحَبُّ أَنْ يُخَصَّصَ بِأَنْ يُقَالَ: سَلَّمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَأَيْضاً فَإِنَّ الزِّيَارَةَ مُبَاحَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَوَاجِبٌ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى قَبْرِهِ ﷺ؛

يُرِيدُ بِالْوُجُوبِ هُنَا وَجُوبَ نَذْبٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَأْكِيدٍ، لَا وَجُوبَ فَرْضٍ.

١٤٧١ - وَالْأَوَّلَى عِنْدِي أَنْ مَنَعَهُ وَكَرَاهَةُ مَالِكٍ لَهُ لِإِضَافَتِهِ إِلَى قَبْرِ

النَّبِيِّ ﷺ؛ وَأَنَّهُ لَوْ قَالَ: زُرْنَا النَّبِيَّ لَمْ يَكْرَهُهُ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ! لَا تَجْعَلَ قَبْرِي وَثْناً يُغْبَدُ بَعْدِي، اسْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

فَحُمِيَ إِضَافَةُ هَذَا اللَّفْظِ إِلَى الْقَبْرِ، وَالتَّشْبَهُ بِفِعْلِ أَوْلَئِكَ؛ قِطْعاً لِلذَّرِيعَةِ،

وَخَشْماً لِلْبَابِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: ومما لم يزل من شأن من حجَّ المروء

بالمدينة، والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، والتبرك برؤية روضته وميبره وقبره، ومجلسه، وملابس يديه، ومواطىء قدميه، والعمود الذي كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، ويمن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

وقال ابن أبي قُديك: سمعتُ بعضَ مَنْ أذركتُ يقول: بلغنا أنه مَنْ وقف عند قُبر النبي ﷺ فتلاً هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكَمَتْهُ يَصْلُونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم قال: صلى الله عليك، يا محمداً مَنْ يَقُولُهَا سبعين مرةً ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان! ولم تنقطع له حاجة.

١٤٧٢ - وعن يزيد بن أبي سَعِيد المَهْرِي: قدمْتُ على عُمر بن عبد العزيز، فلما ودَّعته قال لي: إليك حاجة؛ قلت: ما هي؟ قال: إذا أتيت المدينة سترى قُبر النبي ﷺ، فأقره مني السلام.

وقال غيره: وكان يُريدُ إليه البريدَ من الشام.

١٤٧٣ - قال بعضهم: رايتُ أنس بن مالك أتى قُبر النبي ﷺ؛ فوقف، ورفع يَدَيْهِ، حتى ظننتُ أنه افتتح الصلاة، فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف.

١٤٧٤ - وقال مالك - في رواية ابنِ وَهْب - في الرجل إذا سلم على النبي ﷺ ودَّعا: يَقِفُ ووجْههُ إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، ويدنو، ويسلم، ولا يمسُّ القُبر بيده.

١٤٧٥ - وقال في «المبسوط»: لا أرى أن يَقِفَ عند قُبر النبي ﷺ يدعو، ولكنَّ يسلم وينمضي.

١٤٧٦ - قال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: مَنْ أحبَّ أن يقومَ وجَّاه النبي ﷺ فليجعل القنديل الذي في القبلة عند القُبر على رأسه.

١٤٧٧ - وقال نافع: كان ابنُ عُمر يسلم على القُبر؛ رأيتُه مئة مرةً وأكثر، يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، ثم ينصرف.

١٤٧٨ - ورئي ابنُ عُمر واضعاً يَدَهُ على مَقْعَد النبي ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه.

١٤٧٩ - وعن ابن قُسيط والعُثَيبي: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا خلا المسجد جَسَوْا رُمانة المِثْبَر التي تلي القُبر بَمَآئِمِهِمْ، ثم استقبلوا القبلة يدعون.

١٤٨٠ - وفي الموطأ - من رواية يحيى بن يحيى اللَّيْثِي - أنه كان يَقِفُ على

قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ، وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١ - وَعَنْدَ ابْنِ الْقَاسِمِ وَالْقُتَيْبِيِّ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١م - قَالَ مَالِكٌ - فِي رَوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ -: يَقُولُ الْمُسْلِمُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

١٤٨١م - قَالَ فِي «الْمَبْسُوطِ»: وَيُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ.

١٤٨١م - قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي: وَعِنْدِي أَنَّهُ يَدْعُو لِلنَّبِيِّ ﷺ بِلَفْظِ الصَّلَاةِ، وَلَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمرٍ مِنَ الْخِلَافِ.

١٤٨١م - وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: وَيَقُولُ إِذَا دَخَلَ مَسْجِدَ الرَّسُولِ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَسَلَامٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، وَصَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ. اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَجَنَّتِكَ، وَاحْفَظْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ اقْصِدْ إِلَى الرُّوضَةِ - وَهِيَ مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ - فَارْكَعْ فِيهَا رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ وَقُوفِكَ بِالْقَبْرِ تَحْمَدُ اللَّهَ فِيهِمَا وَتَسْأَلُهُ تَمَامَ مَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ وَالْعُزْنَ عَلَيْهِ.

وَأِنْ كَانَتْ رَكَعَتَانِ فِي غَيْرِ الرُّوضَةِ أَخْرَأْتُكَ، وَفِي الرُّوضَةِ أَفْضَلُ.

١٤٨٢ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ؛ وَمِنْبَرِي عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ» [أحمد (٣٣٥/٥)].

ثُمَّ تَقِفُ بِالْقَبْرِ مُتَوَاضِعاً مُتَوَقِّراً، فَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَتُثْنِي بِمَا يَخْضُرُكَ، وَتُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَتَدْعُو لَهُمَا.

وَأَكْثَرُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَأْتِيَ مَسْجِدَ قُبَاءَ وَقُبُورَ الشَّهَدَاءِ.

وَقَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ: وَيُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِذَا دَخَلَ وَخَرَجَ - يَعْنِي فِي الْمَدِينَةِ - وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ: وَإِذَا خَرَجَ جَعَلَ آخِرَ عَهْدِهِ الْوُقُوفَ بِالْقَبْرِ، وَكَذَلِكَ مَنْ خَرَجَ مُسَافِراً.

١٤٨٣ - وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجْتَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»..

١٤٨٤ - وفي رواية أخرى: «فليسلم» مكان: فليصل فيه، ويقول إذا خرج: «اللهم! إني أسألك من فضلك» [أبو داود (٤٦٥)، مسلم (٧١٣)].

١٤٨٥ - وفي أخرى: «اللهم! احفظني من الشيطان الرجيم» [ابن ماجه (٧٧٣)].

١٤٨٥م - وعن محمد بن سيرين: كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد: صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ. السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ! وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، بِاسْمِ اللَّهِ دَخَلْنَا، وَبِاسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا. وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك.

١٤٨٦ - وعن فاطمة أيضاً: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال: «صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّم» [الترمذي (٣١٤)، أحمد (٢٨٢/٦)، (٢٨٣)]. ثم ذكر مثل حديث فاطمة قبل هذا.

١٤٨٧ - وفي رواية: حَمْدُ اللَّهِ وَسَمِيُّ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وذكر مثله.

١٤٨٨ - وفي رواية: «باسم الله، والسلام على رسول الله» [ابن ماجه (٧٧١)، أحمد (٢٨٣/٦)].

١٤٨٩ - وعن غيرها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال: «اللهم! افتح لي أبواب رحمتك، ونز لي أبواب رزقك».

١٤٩٠ - وعن أبي هريرة: «إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي ﷺ، وليقل: اللهم افتح لي...».

وقال مالك في «المبسوط»: وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر؛ وإنما ذلك للغرباء.

وقال فيه أيضاً: لا بأس لمن قدم من سفر، أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلّي عليه ويندعو له ولأبي بكر وعمر.

فقبل له: فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر؛ وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويندعون ساعة.

فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتزكّه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها؛ ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراد.

قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا إليها أتوا القبر فسلموا قال: وذلك رأيي.

قال الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء؛ لأن الغرباء فصدوا لذلك؛ وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم.

١٤٩١ - وقال عليه السلام: «اللهم! لا تجعل قبري وثناً يعبد» اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

١٤٩٢ - وقال: «لا تجعلوا قبري عبدا» (أو داود (٢٠: ٢)، أحمد (٣٦٧/٢)).

ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي - فيمن وقف بالقبر: لا يلصق به، ولا يمسّه، ولا يقف عنده طويلاً.

وفي «الغنية» يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد رسول الله ﷺ وأحب مواضع التنفل فيه مصلّى النبي ﷺ حيث العمود المخلوق.

وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف والتنفل فيه للغرباء أحب إلي من التنفل في البيوت.

فصل

فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب

سوى ما قدّمناه، وفضله، وفضل الصلاة فيه، وفي مسجد مكة،

وذكر قبره ومنبره، وفضل سكنى المدينة ومكة

قال الله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَيْسَرَ عَلَى الْغَفْوَىٰ مِن الْوُحْيِ لَوْ يَدْرِىٰ لَوْ أَنَّ نَفْثًا فِيهِ...» (التوبة: ١٠٨).

١٤٩٣ - روي أن النبي ﷺ سئل: أي مسجد هو؟ قال: هو مسجدى هذا [مسلم (١٣٩٨)].

وهو قول ابن المسيّب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، ومالك بن أنس، وغيرهم.

١٤٩٤ - وعن ابن عباس أنه مسجد قباء.

١٤٩٥ - حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو هُرَيْرَةَ الثُمَرِيُّ، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسّة، حدثنا أبو داود، حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا مُفَيَّزٌ، عن الزُّهْرِيِّ، عن

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» [أَبُو دَاوُدَ (٢٠٣٣)، الْبُخَارِيُّ (١١٨٩)، مُسْلِمٌ (١٣٩٧)].

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْآثَارُ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ. ١٤٩٦ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَيُوجِّهُ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [أَبُو دَاوُدَ (٤٦٦)].

١٤٩٧ - وَقَالَ مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَوْتًا فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَا بِصَاحِبِهِ؛ فَقَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ؟» قَالَ: رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ. قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مِنْ هَاتَيْنِ الْقَرْيَتَيْنِ لَأَذْبُثُكَ، إِنَّ مَسْجِدَنَا هَذَا لَا يُرْفَعُ فِيهِ الصَّوْتُ» [الْبُخَارِيُّ (٤٧٠)].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: لَا يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَمِدَ الْمَسْجِدَ بِرَفْعِ الصَّوْتِ، وَلَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى، وَأَنْ يُتْرَكَ عَمَّا يُكْرَهُ.

قَالَ الْقَاضِي: حَكَى ذَلِكَ كُلَّهُ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ فِي «مَنْسُوطِهِ» فِي بَابِ فَضْلِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ. وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ هَذَا الْحُكْمُ.

قَالَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ: وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: وَيُكْرَهُ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ الْجَهْرُ عَلَى الْمُصَلِّينَ فِيمَا يَخْلُطُ عَلَيْهِمْ صَلَاتُهُمْ، وَلَيْسَ مِمَّا يَخْصُرُ بِهِ الْمَسَاجِدَ رَفْعُ الصَّوْتِ، قَدْ كُرِهَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ فِي مَسَاجِدِ الْجَمَاعَاتِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَمَسْجِدَ مِنَى.

١٤٩٨ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» [الْبُخَارِيُّ (١١٩٠)، مُسْلِمٌ (١٣٩٤)].

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي الْمُقَاصَلَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ؛ فَذَهَبَ مَالِكٌ - فِي رِوَايَةِ أَشْهَبِ عَنْهُ - وَقَالَ ابْنُ نَافِعٍ صَاحِبُهُ، وَجَمَاعَةُ أَصْحَابِهِ، إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِأَلْفِ صَلَاةٍ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ بِدُونَ الْأَلْفِ.

١٤٩٩ - وَاحْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَاةٌ فِي

المسجد الحرام خَيْرٌ من مئة صلاةٍ فيما سواه. فتأتي فضيلةُ مسجدِ الرُّسولِ ﷺ ينسج مئة، وعلى غيره بألف.

وهذا مَبْنِيٌّ عَلَى تَفْضِيلِ الْمَدِينَةِ عَلَى مَكَّةَ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ؛ وهو قولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَمَالِكٍ، وَأَكْثَرِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وذهب أهلُ الكوفةِ ومكة إلى تفضيل مكة؛ وهو قولُ عطاءٍ، وابنِ وَهْبٍ وابنِ خَبِيبٍ من أصحابِ مالِكٍ، وحكاها السَّاجِي عن الشافعي؛ وحملوا الاستثناءَ في الحديثِ المتقدمِ على ظاهره، وأنَّ الصلاةَ في المسجدِ الحرامِ أَفْضَلُ.

١٥٠٠ - واحتجُّوا بحديثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عن النَّبِيِّ ﷺ بمثلِ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ وفيه: «وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِئَةِ صَلَاةٍ» [أحمد (٥/٤)].

وَرَوَى قَتَادَةُ مِثْلَهُ؛ فَيَأْتِي فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - عَلَى هَذَا - عَلَى الصَّلَاةِ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِمِئَةِ أَلْفٍ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَوْضِعَ قَبْرِهِ أَفْضَلُ بِقَاعِ الْأَرْضِ. قال القاضي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي: الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَدِيثُ مُخَالَفَةُ حُكْمِ مَسْجِدِ مَكَّةَ لِسَائِرِ الْمَسَاجِدِ، وَلَا يُغْلَمُ مِنْهُ حُكْمُهَا مَعَ الْمَدِينَةِ.

وذهب الطَّحَاوِيُّ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّفْضِيلَ إِنَّمَا هُوَ فِي صَلَاةِ الْفَرَضِ. وذهب مُطَرِّفٌ - مِنْ أَصْحَابِنَا - إِلَى أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّافِلَةِ أَيْضًا؛ قَالَ: وَجُمُعَةٌ خَيْرٌ مِنْ جُمُعَةٍ، وَرَمَضَانٌ خَيْرٌ مِنْ رَمَضَانَ.

١٥٠١ - وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْضِيلِ رَمَضَانَ بِالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا حَدِيثًا نَحْوَهُ.

١٥٠٢ - وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «مَا بَيْنَ بَنِي وَثْبَرٍ وَرَوْضَةِ مَنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ» [البخاري (١١٩٥)، مسلم (١٣٩٠)].

١٥٠٣ - وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - أَوْ أَبِي سَعِيدٍ - وَزَادَ: «وَمِنْ بَنِي وَثْبَرٍ عَلَى حَوْضِي» [البخاري (١١٩٦)، مسلم (١٣٩١)].

١٥٠٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مِنْ بَنِي وَثْبَرٍ عَلَى تَرْعِ الْجَنَّةِ». قال الطبري: فِيهِ مَعْنِيَانِ:

١٥٠٥ - أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَيْتِ: بَيْتُ سَكْنَاهُ عَلَى الظَّاهِرِ، مَعَ أَنَّهُ رُوِيَ مَا يَبَيِّنُهُ: «بَيْنَ حُجْرَتِي وَمَنْبَرِي» [أحمد (٣٨٩/٣)].

١٥٠٦ - وَالثَّانِي: أَنَّ الْبَيْتَ هَذَا الْقَبْرُ؛ وَهُوَ قَوْلُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي هَذَا

الحديث، كما رُوِيَ: «بين قبري ومنبري» [أحمد (٦٤/٣)]. قال الطَّبْرِي: وإذا كان قَبْرُهُ فِي بَيْتِهِ اتَّفَقَتْ معاني الروايات، ولم يكن بينها خِلَاف؛ لأن قَبْرَهُ فِي حُجْرَتِهِ، وَهُوَ بَيْتُهُ.

وقوله: «ومنبري على حَوْضِي»: قيل: يحتمل أنه منبره بعينه الذي كان في الدنيا؛ وهو أظهر.

والثاني: أن يكون له هناك منبر.

والثالث: أَنَّ قَصْدَ منبره والحضورَ عنده لِمَلازِمَةِ الأعمالِ الصالحة يورُدُ الحوض، ويوجبُ الشُّرْبَ منه، قاله الباجي.

وقوله: «رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْجَنَّةِ» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه موجبٌ لذلك، وَأَنَّ الدعاءَ والصلاةَ فيه يستحقُّ ذلك من الثواب.

١٥٠٧ - كما قيل: «الجنة تحت ظلالِ السيوف» [البخاري (٢٨١٨)، مسلم (١٧٤٢)].

والثاني: أَنَّ تِلْكَ البُقْعَةَ قد ينقلها اللّهُ فتكون في الجنة بعينها؛ قاله الدَّوْدِيُّ.

١٥٠٨ - وَرَوَى ابْنُ عَمْرٍ، وجماعةٌ من الصحابة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في المدينة: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَانِهَا، وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيداً - أَوْ شَفِيعاً - يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [مسلم (١٣٧٧)].

١٥٠٩ - وقال فيمن تَحَمَّلَ عن المدينة: «والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يَعْلَمُونَ» [البخاري (١٨٧٥)، مسلم (١٣٨٨)].

١٥١٠ - وقال: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبَثُهَا، وَتَنْصَعُ طَيِّبُهَا» [البخاري (١٨٨٣)، مسلم (١٣٨٣)].

١٥١١ - وقال: «لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنَ الْمَدِينَةِ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْذَلَهَا اللّهُ خِيراً مِنْهُ» [مسلم (١٣٦٣)].

١٥١٢ - وَرَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ حَاجِباً أَوْ مُعْتَمِراً، بَعَثَ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عَذَابَ».

١٥١٣ - وفي طريق آخر: «بُعِثَ مِنَ الْأَمِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٥١٤ - وعن ابنِ عُمَرَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلَيْمُتَ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا» [الترمذي (٣٩١٧)، ابن ماجه (٣١١٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَوَّكَ يَتَنَزَّلُ فِي السَّمَاوَاتِ الْاُولَى بِسَكَنَةٍ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾
فِي مَلَكُوتٍ يَبْتَغِي مَقَامَ اِزْدِيْجَهِ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [ال عمران: ١٩٦، ١٩٧].

قال بعض المفسرين: ﴿آمِنًا﴾ من النار. وقيل: كان بَأَمْنٍ من الطلب مَنْ
أحدث حدثاً خارجاً عن الحرم، ولجأ إليه في الجاعلية؛ وهذا بمنزلة قوله: ﴿وَلَا
يَحْكُمُ الْاَيُّتُ مَنَاءُ لِّلنَّاسِ وَاُنْتَا﴾ [البقرة: ١٢٥] على قول بعضهم.

وحكي أن قوماً أتوا سعدون الخولاني بالمنشئ فأعلموه أن كُفَّاهة قُتلوا
رجلاً، وأضرموا عليه النار طول الليل. فلم نعمل فيه شيئاً وبقي أبيض البدن،
فقال: لعله حج ثلاث حجج؟! قالوا: نعم. قال: حدثت أن مَنْ حجَّ حجةً أدنى
فرضه، وَمَنْ حجَّ ثانيةً دأبَ ربه، وَمَنْ حجَّ ثلاث حجج حرم الله شجره وشجره
على النار.

١٥١٥ - ولما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مزجاً بك من بيت ما
أعظمك! وأعظم حُزْمك!» [الترمذي (٢٠٣٢)].

١٥١٦ - وفي الحديث، عنه عليه السلام: «ما من أحد يدعوا الله تعالى عند
الرُّكن الأسود إلا استجاب الله له، وكذلك عند العِزَابِ».

١٥١٧ - وعنه عليه السلام: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ وَكَفَّنِي غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَخُبِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمِينِ».

١٥١٨ - قال الفقيه القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: قرأت على القاضي
الحافظ أبي علي رحمه الله، قلت له: حدثك أبو العباس الغُدَرْي؛ قال: حدثنا
أبو أسامة: محمد بن أحمد بن محمد الهزوي، حدثنا الحسن بن زبيح، سمعت
أبا الحسن: محمد بن الحسن بن راشد، سمعت أبا بكر: محمد بن إدريس،
سمعت الحميدي؛ قال: سمعت سُفْيَانَ بن عُيَيْنَةَ، قال: سمعت غَمْرُو بن دينار
قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما دعا أحد بشيء
في هذا الملتزم إلا استُجيبَ له».

قال ابن عباس: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا
من رسول الله ﷺ إلا استُجيبَ لي.

وقال غَمْرُو بن دينار: وأنا فما دعوت الله تعالى بشيء في هذا الملتزم منذ
سمعت هذا من ابن عباس إلا استُجيبَ لي.

وقال سُفْيَان: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من
غَمْرُو بن دينار إلا استُجيبَ لي.

قال الحميدي: وأنا فما دعوتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من سُفيان إلا استجيب لي.

وقال محمد بن إدريس: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من الحميدي إلا استجيب لي.

وقال أبو الحسن: محمد بن الحسن: وأنا فما دعوتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من محمد بن إدريس إلا استجيب لي.

قال أبو أسامة: وما أذكر الحسن بن رَشيْق قال فيه شيئاً: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من الحسن بن رَشيْق إلا استجيب لي من أمر الدنيا، وأنا أرجو أن يُستجاب لي من أمر الآخرة.

قال العذري: وأنا فما دَعَوْتُ الله بشيء في هذا المُلتزم منذُ سمعتُ هذا من أبي أسامة إلا استجيب لي.

قال أبو علي: وأنا فقد دعوتُ الله فيه بأشياء كثيرة واستجيب لي بعضها، وأرجو من سَعَةِ فَضله أن يستجيب لي بقيتها.

قال القاضي أبو الفضل: قد ذكرنا بُدْأاً من هذه الثُكُت في هذا الفضل وإن لم تكن من الباب، لتعلقها بالفضل الذي قبله حِرْصاً على تمام الفائدة؛ واللَّهُ الموفق للصواب برحمته.



القسم الثالث

فِيمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَجِيزُ فِي حَقِّهِ
أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَمْتَنِعُ أَوْ يَصَحُّ
مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ مَتَابًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَتَتْهُ صِذْقَةٌ كَانَا يَافِئَانِ الْفُلْكَامُ أَنْظَرُ كَيْفَ تَبَيَّنَ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنْ يُؤْكَلُوا﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّلْعَامَ وَيَشْتَونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠].
فمحمد ﷺ وسائر الأنبياء مِنَ الْبَشَرِ، أُرْسِلُوا إِلَى الْبَشَرِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا أَطَاعَ النَّاسُ مُقَاوَمَتَهُمْ، وَالْقَبُولَ عَنْهُمْ، وَمَخَاطَبَتَهُمْ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]؛ أَي لَمَا كَانَ إِلَّا فِي صُورَةِ الْبَشَرِ الَّذِينَ يُمْكِنُكَ مَخَاطَبَتُهُمْ وَمَخَالَطَتُهُمْ؛ إِذْ لَا تُطِيقُونَ مُقَاوَمَةَ الْمَلِكِ، وَمَخَاطَبَتَهُ، وَرُؤْيَاهُ، إِذَا كَانَ عَلَى صُورَتِهِ.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرَيْنَا عَلَيْهِمْ رِجَالًا﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ أَي لَا يُمْكِنُ فِي سِتْرِ اللَّهِ إِرْسَالُ

الْمَلِكِ إِلَّا لِمَنْ هُوَ مِنْ جَنْسِهِ، أَوْ مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصْطَفَاهُ وَقَوَّاهُ عَلَى مَقَاوِمِهِ، كَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

فَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَمَسَائِطُ بَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ يُبَلِّغُونَهُمْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْلَمُوهُ مِنْ أَمْرِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَجَبَرُوتِهِ وَمَلَكُوتِهِ؛ فَظَوَاهِرُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ وَبَنِيَّتُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِأَوْصَافِ الْبَشَرِ، طَارِئٌ عَلَيْهَا مَا يُظَرَأُ عَلَى الْبَشَرِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، وَالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَنَعَوَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَأَزْوَاجِهِمْ وَبَوَاطِنُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِأَعْلَى مِنْ أَوْصَافِ الْبَشَرِ، مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، مُتَشَبِّهَةٌ بِصِفَاتِ الْمَلَائِكَةِ، سَلِيمَةٌ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْآفَاتِ، لَا يَلْحَقُهَا غَالِبٌ عَجَزُ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا ضَعْفُ الْإِنْسَانِيَةِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ بَوَاطِنُهُمْ خَالِصَةً لِلْبَشَرِيَّةِ كَظَوَاهِرِهِمْ لَمَّا أَطَاقُوا الْأَخْذَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، وَرَوْيَتِهِمْ لَهُمْ وَمَخَاطَبَتَهُمْ إِيَّاهُمْ، وَمُخَالَطَتَهُمْ، كَمَا لَا يُطِيقُهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ.

وَلَوْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ مُتَّصِفَةٌ بِنَعَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِخِلَافِ صِفَاتِ الْبَشَرِ، لَمَّا أَطَاقَ الْبَشَرُ وَمَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ مُخَالَطَتَهُمْ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: فَجَعَلُوا مِنْ جِهَةِ الْأَجْسَامِ وَالظُّوَاهِرِ مَعَ الْبَشَرِ، وَمِنْ جِهَةِ الْأَرْوَاحِ وَالْبَوَاطِنِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ.

١٥١٩ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا؛ وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامُ، لَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ».

١٥٢٠ - وَكَمَا قَالَ: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

١٥٢١ - وَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيْنِي».

فَبَوَاطِنُهُمْ مُتَزَهَّةٌ عَنِ الْآفَاتِ، مُطَهَّرَةٌ مِنَ النِّقَاصِ وَالْإِعْتِلَالِ. وَهَذِهِ جَمَلَةٌ لَنْ يَكْتَفِيَ بِمُضْمُونِهَا كُلِّ ذِي هِمَّةٍ؛ بَلِ الْكَثَرُ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَتَفْصِيلِ عَلَى مَا نَأْتِي بِهِ بَعْدَ هَذَا الْبَابِ فِي الْبَابَيْنِ بَعَوْنِ اللَّهِ وَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.



الباب الأول

فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَلامِ فِي عِصْمَةِ نَبِيِّنَا
وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه : اعلم أنَّ الطواريء من التغيرات والآفات
على أحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جنسه، أو على خواتمه بغير قصد واختيار؛
كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار؛ وكله في الحقيقة عمل وفعل، ولكن جزئ
رسم المشايخ بخصبه إلى ثلاثة أنواع : غفد بالقلب، وفزل باللسان، وعمل بالجوارح.
وجميع البشر نظراً عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه
الرجوع كلها.

والنبي ﷺ - وإن كان من البشر، ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلته
البشر - فقد قامت البراهين القاطعة، وتحت كلمة الإجماع على خروجه عنهم،
وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار، كما
سئلته - إن شاء الله - فيما نأتي به من التفاصيل.

فصل

فِي خُصْمِ غَفْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ نُبُوَّتِهِ

اعلم - منحنا الله وإياك توفيقه - أنَّ ما تعلق منه بطريق التوحيد، والعلم بالله
وصفاته، والإيمان به، وبما أوجي إليه، فعلى غاية المعرفة، ووضوح العلم
واليقين، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك، أو الشك أو الريب فيه، والعصمة
من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين.

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه؛ فلا يُعترض على هذا بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء؛ فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته.

الوجه الثاني: أن إبراهيم - عليه السلام - إنما أراد اختبار منزلته عند ربه، وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربه؛ ويكون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَوْنُوا﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ أي تُصدق بمنزلة مني، وخلتكم، واصطفائك؟.

الوجه الثالث: أنه سأل زيادةً يقين وقوة طمأنينة، وإن لم يكن في الأول شك؛ إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تفاضل في قوتها، وطريقتان الشكوك على الضروريات مُمتنع؛ ومجوز في النظريات؛ فأراد الانتقال من النظر أو الخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين؛ فليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بثور اليقين تمكناً في حاله.

الوجه الرابع: أنه لما احتج على المشركين بأن ربه يحيي ويميت طلب ذلك من ربه، ليصح احتجاجه عياناً.

الوجه الخامس: قول بعضهم: هو سؤال على طريق الأدب؛ المراد: أفيؤذي على إحياء الموتى، وقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ عن هذه الأمانة.

الوجه السادس: أنه أرى من نفسه الشك، وما شك، لكن ليُجاوب فيزداد قربة.

١٥٢٢ - وقول نبينا عليه السلام: «نحن أحن بالشك من إبراهيم»: نفى لأن يكون إبراهيم شك، وإبعاداً للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بإبراهيم عليه السلام؛ أي نحن موقنون بالبعث، وإحياء الله الموتى؛ فلو شك إبراهيم لكان أزل بالشك منه؛ إما على طريق الأدب، أو أن يريد أئمة الذين يجوز عليهم الشك، أو على طريق التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله، أو زيادة يقينه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ولا تكونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥].

فاحذَر - ثَبَّتَ اللَّهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ - أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِكَ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ،
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - أَوْ غَيْرِهِ - مِنْ إِبْطَاتِ شَكِّ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا أُوجِي إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ
الْبَشَرِ؛ فَمَثَلُ هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٥٢٣ - بَلْ قَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَشْكُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَسْأَلْ.

وَنَحْوَهُ عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ.

١٥٢٤ - وَحَكَى قَتَادَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»، وَعَامَّةُ

الْمُفَسِّرِينَ عَلَى هَذَا.

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْآيَةِ: فَقِيلَ: الْمَرَادُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلشَّائِكِ: «إِن كُنْتُ
فِي شَكٍّ...» الْآيَةُ [يونس: ٩٤].

قَالُوا: وَفِي السُّورَةِ نَفْسُهَا مَا دَلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ وَهُوَ قَوْلُهُ: «قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَإِن يَبْسُطْ إِلَهُهُ
يَتَوَلَّكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ١٠٤].

وقيل: المراد بالخطاب العرب وغير النبي ﷺ، كما قال: «لَئِنْ أَشْرَكَتَ
لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [الزمر: ٦٥] الخطابُ لَهُ، وَالْمَرَادُ غَيْرُهُ.

ومثل ذلك قوله تعالى: «وَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ» [هود: ١٠٩]
ونظيره كثير.

قال بَكْرُ بْنُ الْعَلَاءِ: أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَائِنَةِ اللَّهِ
فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [يونس: ٩٥]. وهو ﷺ كَانَ الْمَكْذُوبَ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ؛
فَكَيْفَ يَكُونُ مِمَّنْ يَكْذِبُ بِهِ؟

فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره.

ومثل هذه الآية قوله: «الرَّحْمَنُ قَسَلَ لِمِمْ خَبِيرًا» [الفرقان: ٥٩] السامور
ها هنا غير النبي ﷺ، لِيَسْأَلَ النَّبِيَّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْخَبِيرُ الْمَسْئُولُ، لَا
الْمُسْتَخْبِرُ السَّائِلُ.

وقال: إن هذا الشك الذي أمر به غير النبي ﷺ بسؤال الذين يقرؤون
الكتاب إنما هو فيما قصه الله من أخبار الأمم، لا فيما دعا إليه من التوحيد
والشريعة.

ومثل هذا قوله تعالى: «وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ» [الرَّحُف: ٤٥] المرادُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَالْخُطَابُ مُوَاجَهَةٌ
لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ الْفَتَّيُّ.

وقيل: المعنى سَلْنَا عَمَّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ؛ فُحْذِفَ الْخَافِضُ، وَتَمَّ الْكَلَامُ؛
ثُمَّ ابْتَدَأَ الْكَلَامَ: ﴿أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ [الزخرف: ٤٥] الْآيَةُ إِلَى آخِرِهَا عَلَى
طَرِيقِ الْإِنْكَارِ؛ أَيْ مَا جَعَلْنَا؛ حَكَاهُ مَكِّي.

وقيل: أَمِيرُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْأَنْبِيَاءَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَنْ ذَلِكَ؛ فَكَانَ أَشَدَّ
يَقِينًا مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى السُّؤَالِ.

١٥٢٥ - فُرُوِي أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَسْأَلُ؛ قَدْ اكْتَفَيْتُ»؛ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ.

وقيل: سَلَّ أَسَمٌ مَنْ أَرْسَلْنَا؛ هَلْ جَاؤُوهُمْ بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ؟ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ
مُجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَالضُّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ.

وَالْمَرَادُ بِهَذَا الَّذِي قَبْلَهُ إِعْلَامُهُ بِمَا يُعْتَبَرُ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْذَنْ فِي
عِبَادَةِ غَيْرِهِ لِأَحَدٍ؛ رَدًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ مَاتَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُرَرْ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أَيْ فِي عِلْمِهِمْ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ
يُقَرَّرُوا بِذَلِكَ؛ وَلَيْسَ الْمَرَادُ بِهِ شَكُّهُ فِيمَا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ.

وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَلَى مِثْلِ مَا تَقَدَّمَ؛ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِمَنْ ائْتَرَى فِي
ذَلِكَ: لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْتَرِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ أَوَّلَ الْآيَةِ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكَمًا
وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ مَاتَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُرَرْ مِنْ
رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَخَاطَبُ
بِذَلِكَ غَيْرَهُ.

وقيل: هُوَ تَقْرِيرٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَأْتِ قُلْتَ لِلنَّاسِ
أَتُخَذُونَ وَإِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ.
وقيل: مَعْنَاهُ مَا كُنْتُ فِي شَكٍّ فَاسْأَلُ تَزِدُّهُ طُمَأْنِينَةً وَعِلْمًا إِلَى عِلْمِكَ،
وَيَقِينًا.

وقيل: إِنْ كُنْتُ تَشَكُّ فِيمَا شَرَفْنَاكَ وَفَضَّلْنَاكَ بِهِ فَسَلِّمْهُمْ عَنْ صِفَتِكَ فِي
الْكِتَابِ وَتَشْرِيفَاتِكَ.

وَحُكِّي عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّ الْمَرَادَ: إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِنْ غَيْرِكَ فِيمَا أَنْزَلْنَاهُ.
فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْقَسَ الرُّسُلُ وَطَلَّتْ أَبْهَمَ قَدْ كَذِبُوا﴾

[يوسف: ١١٠] عَلَى قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ؟

قُلْنَا: الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَنْظُرَ ذَلِكَ

الرسول برتها؛ وإنما معنى ذلك أن الرسول لما استقاموا ظنوا أن من وغدغهم الضر من أتباعهم كذبهم؛ وعلى هذا أكثر المفسرين.

وقيل: إن الضمير في «ظنوا» عائد على الأتباع والأمم، لا على الأنبياء والرسول؛ وهو قول ابن عباس، والتخمي، وابن جبير، وجماعة من العلماء. وبهذا المعنى قرأ مجاهد: «كَلْبُوا» - بالفتح؛ فلا تشغل بالك من شاة الضر سواء، مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟

١٥٢٥م - وكذلك ما ورد في حديث السيرة، ومبتدأ الوحي؛ في قوله ﷺ لخديجة: «لقد خشيت على نفسي» (الحاري (٣)، مسلم (١٦٠)) ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك؛ ولكن لفظة خشي ألا تحبل قوته مقاومة الملك وأهله الوحي، فينخلع قلبه، أو تزهق نفسه.

وهذا على ما ورد في الصحيح: أنه قاله بعد إلقائه الملك؛ أو يكون ذلك قبل إلقاء الملك وإعلام الله تعالى له بالنبوة لأول ما عرضت عليه من العجائب، وسلم عليه الحجز والشجر، وبدأته المنامات والنباير؛ كما روي في بعض طرق هذا الحديث: إن ذلك كان أولاً في المنام، ثم أرى في اليقظة بثل ذلك؛ ثانياً له عليه السلام؛ لئلا يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة؛ فلا تخجله لأول حالة بنية البشرية.

١٥٢٦م - وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة؛ قالت: ثم حُبَّ إليه الخلاء؛ وقالت: إلى أن جاء الحق وهو في غار حراء... الحديث (الحاري (٣)، مسلم (١٦٠)).

١٥٢٧م - وعن ابن عباس: مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة. يسمع الصوت، ويرى الصورة صنع سنين ولا يرى شيئاً؛ وثماني سنين يؤخى إليه (مسلم (١٢٣/٢٣٥٣)، أحمد (٣١٢/١)).

١٥٢٨م - وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي ﷺ قال - وذكر جواره بغار حراء - قال: «فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلت: ما اقرأ؟» وذكر نحو حديث عائشة في خطه له وإفرانه إياه: «اقرأ باسم ربك...» (السورة ثلاثاً). قال: «فانصرف عني، وهبئت من نومي كأنما صوّرت في قلبي، ولم يكن أبغض إلي من شاعر أو مجنون.

ثم قلت: لا تحدث عني قريش بهذا أبداً؛ لأعجلن إلى خالقي من الجبل فلا طرح نفسي منه، فلا تكتلها.

فبينما أنا عامدٌ للملك إذ سمعتُ مُنادياً يُنادي من السماء: يا محمداً أنتَ رسولُ الله، وأنا جبريل، فرفعتُ رأسي فإذا جبريلُ على صورة رجل... وذكر الحديث.

فقد بين لك في هذا أن قوله لما قال، وقصده لما قصّد، إنما كان قبل لقاء جبريلَ عليهما السلام، وقبل إعلامِ الله تعالى له بالنبوة، وإظهاره اصطفاؤه له بالرسالة.

١٥٢٩ - ومثله حديث عمرو بن شرحبيل أنه - عليه السلام - قال لخديجة رضي الله عنها: «إني إذا خلوتُ وخدي سمعتُ نداءً، وقد خشيتُ والله! أن يكونَ هذا لأمر».

١٥٣٠ - ومن رواية حماد بن سلمة أن النبي ﷺ قال لخديجة: «إني لأسمعُ صوتاً، وأرى ضوءاً، وأخشى أن يكونَ بي جنونٌ» [أحمد (٣١٢/١)].

١٥٣١ - وعلى هذا يُتأَوَّل - لو صحّ - قوله في بعض هذه الأحاديث: «إنَّ الأبعدَ شاعرٌ أو مجنونٌ» والألفاظُ يُفهم منها معاني الشك في تصحيح ما رآه؛ وأنه كان كله في ابتداء أمره، وقبل لقاء الملك له، وإعلامِ الله أنه رسوله؛ فكيف وبعضُ هذه الألفاظ لا تصحُّ طُرُقها؟! وأما بعدَ إعلامِ الله تعالى له ولقائه الملك فلا يصحُّ فيه رَيْبٌ، ولا يجوز عليه شكٌ فيما أُلقي إليه.

١٥٣٢ - وقد رَوَى ابنُ إسحاق عن شيوخه أن رسولَ الله ﷺ كان يُزَقَّى بمكة من العَيْن قبل أن يُنَزَلَ عليه، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يُصِيبُه؛ فقالت له خديجة: أوجهُ إليك من يزقيك؟ قال: «أما الآن فلا».

١٥٣٣ - وحديث خديجة واختبارها أمر جبريل بكشف رأسها... الحديث إنما ذلك في حق خديجة لتتحقق صِحَّة نبوة رسولِ الله ﷺ، وأن الذي يأتيه ملك، ويزول الشكُّ عنها، لا أنها فعلت ذلك للنبي ﷺ وليختبر هو حاله بذلك.

١٥٣٤ - بل قد وردَ في حديث عبد الله بن محمد بن يحيى بن عُرْوَة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أن ورقة أمر خديجة أن تختبر الأمر بذلك.

١٥٣٥ - وفي حديث إسماعيل بن أبي حكيم أنها قالت لرسولِ الله ﷺ: «يا بنَّ عمٍّ! هل تستطيع أن تُخبرني بصاحبك إذا جاءك؟» قال: «نعم» فلما جاء جبريلُ أخبرها، فقالت له: اجلس إلى شِقِّي... وذكر الحديث إلى آخره؛ وفيه: فقالت: ما هذا شيطان! هذا الملكُ يا بنَّ عمٍّ! فاثبت وأبشِرْ، وأمنتُ به.

فهذا يدل على أنها مُسْتَشَبَّة بما فعلته لنفسها، ومستظهرة لإيمانها، لا للنبي ﷺ.

١٥٣٦ - وقول مغفر في فترة الوحي: «فَحَزَنَ النَّبِيُّ ﷺ» - فيما بلغنا - حُزْناً عَداً مِنْهُ مِراراً كَي يَتَرَدَّى مِنْ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ [البخاري (٦٩٨٢)] لَا يَقْدَحُ فِي هَذَا الْأَصْل، لقول مغفر عنه: فيما بلغنا، ولم يُسند، ولا ذكر راويه، ولا مَنْ حَدَّثَ بِهِ، وَلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ؛ وَلَا يُعْرَفُ مِثْلُ هَذَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ ﷺ، مع أَنَّهُ قَدْ يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ الْأَمْرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ؛ أَوْ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِمَا أَخْرَجَهُ مِنْ تَكْذِيبِ مَنْ بَلَّغَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَبُحَ نَفْسُكَ عَلَى عَائِثِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

١٥٣٧ - وَيُصَحِّحُ مَعْنَى هَذَا التَّأْوِيلِ حَدِيثُ زَوَاهِ شَرِيكَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ جَاهِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ الْمَشْرُكِينَ لَمَّا اجْتَمَعُوا بِدَارِ النَّدْوَةِ لِلتَّشَاوُرِ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِمْ عَلَى أَنْ يَقُولُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَتَزَمَّلَ فِي ثِيَابِهِ، وَتَدَثَّرَ فِيهَا؛ فَاتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّزْقُ﴾ [المزمل: ١] وَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

أَوْ خَافَ أَنَّ الْفِتْرَةَ لِأَمْرٍ أَوْ سَبَبٍ مِنْهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ عَقُوبَةً مِنْ رَبِّهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَرِدْ بِعَدِّ شَرْعٍ بِالنُّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، فَيُغْتَرَضُ بِهِ.

وَنَحْوُ هَذَا فِرَازُ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَشْيَةُ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ، لَمَّا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾ [الأنبياء: ٨٧] مَعْنَاهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ.

قَالَ مَكِّي: طَمِعَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَأَلَّا يُضَيِّقَ عَلَيْهِ مَسْلَكَهُ فِي خُرُوجِهِ.

وَقِيلَ: حَسُنَ ظَنُّهُ بِمَوْلَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْضِي عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ.

وَقِيلَ: تَقَدَّرَ عَلَيْهِ مَا أَصَابَهُ.

وَقَدْ قُرِئَ: ﴿تَقَدَّرَ عَلَيْهِ﴾ بِالتَّشْدِيدِ.

وَقِيلَ: نَوَّأَخَذَهُ بِغَضَبِهِ وَذَهَابَهُ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ: أَفْظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ؟ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ.

وَلَا يَلِيقُ أَنْ يُظَنَّ بِنَبِيِّ أَنْ يَجْهَلَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ رَبِّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] الصَّحِيحُ: مُغْضِبًا لِقَوْمِهِ

لِكُفْرِهِمْ؛ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَغَيْرِهِمَا؛ لَا لِزَيْنِهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ

مُغْضِبُهُ اللَّهُ: مُعَادَاةُ لَهُ؛ وَمُعَادَاةُ اللَّهِ: كُفْرٌ لَا تَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ!

وقيل: مُسْتَحْيَا مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَسْمُوهُ بِالْكَذِبِ أَوْ يَقْتُلُوهُ، كما ورد في الخبر.
وقيل: مُغَاضِبًا لِبَعْضِ الْمُلُوكِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى أَمْرِ أَمْرَةِ اللَّهِ بِهِ
عَلَى لِسَانِ نَبِيِّ آخَرٍ؛ فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: غَيْرِي أَقْوَى عَلَيْهِ مَنِّي؛ فَعَزَمَ عَلَيْهِ فَخَرَجَ
لِذَلِكَ مُغَاضِبًا.

وقد رُوي عن ابن عباس: أَنَّ إِرْسَالَ يُونُسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَنُبُوتَهُ إِنَّمَا
كَانَتْ بَعْدَ أَنْ نَبَذَهُ الْحَوْتُ، وَاسْتَدَلَّ مِنَ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَبَدَّلَ اللَّهُ وَجْهَ سَاقِيَةٍ
﴿٧٥﴾ وَابْتَدَأَ عَلَيْهِمْ شَجَرَةً بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٧٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُكَ ﴿٧٧﴾﴾
[الصافات: ١٤٥ - ١٤٧].

وُاسْتَدَلَّ أَيْضًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ اللَّوْنِ...﴾ [القلم: ٤٨] وَذَكَرَ
الْقِصَّةَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَلَجِّنِي رِزْقُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠]؛ فَتَكُونُ هَذِهِ الْقِصَّةُ
إِذَا قِيلَ نُبُوتُهُ.

١٥٣٨ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لِيُغَانَّ عَلَى قَلْبِي،
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلَ مَرَّةٍ؟» [مسلم (٢٧٠٢)].

١٥٣٩ - وَفِي طَرِيقٍ آخَرَ: «فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [البخاري (٦٣٠٧)].
فَاخْتِزَ أَنْ يَقَعَ بِبَالِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغَيْنُ وَشَوَسَةً أَوْ زَيْنًا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ؛ بَلْ أَضَلَّ الْغَيْنُ فِي هَذَا: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ وَيُغْطِيهِ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ،
وَأَصْلُهُ مِنَ غَيْنِ السَّمَاءِ؛ وَهُوَ إِطْبَاقُ الْغَيْمِ عَلَيْهَا.
وَقَالَ غَيْرُهُ: وَالْغَيْنُ شَيْءٌ يُغْشَى الْقَلْبَ وَلَا يُغْطِيهِ كُلُّ التَّغْطِيَةِ كَالْغَيْمِ الرقيقِ
الَّذِي يَغْرِضُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا يَمْنَعُ ضَوْءَ الشَّمْسِ.

وَكَذَلِكَ لَا يُفْهَمُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُغَانَّ عَلَى قَلْبِهِ مِثْلَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ
مَرَّةً فِي الْيَوْمِ؛ إِذْ لَيْسَ يَقْتَضِيهِ لَفْظُهُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ؛ وَهُوَ أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ؛ وَإِنَّمَا هَذَا
عَدَدٌ لِلِاسْتِغْفَارِ لَا لِلْغَيْنِ؛ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهَذَا الْغَيْنِ إِشَارَةً إِلَى غَفَلَاتِ قَلْبِهِ،
وَفَتْرَاتِ نَفْسِهِ، وَسَهْوِهَا عَنْ مَدَامَةِ الذِّكْرِ وَمَشَاهِدَةِ الْحَقِّ، بِمَا كَانَ ﷺ دُفِعَ إِلَيْهِ
مِنْ مَقَاسَاةِ الْبَشَرِ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَّةِ، وَمُعَانَاةِ الْأَهْلِ، وَمُقَاوَمَةِ الْوَلِيِّ، وَالْعَدُوِّ،
وَمُصْلَحَةِ النَّفْسِ؛ وَكُلُّهُ مِنْ أَعْيَاءِ آدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَحَمَلِ الْأَمَانَةِ؛ وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا
فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، وَعِبَادَةِ خَالِقِهِ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ﷺ أَرْفَعَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً،
وَأَعْلَاهُمْ دَرَجَةً، وَأَتَمَّهُمْ بِهِ مَعْرِفَةً؛ وَكَانَتْ حَالُهُ عِنْدَ خُلُوصِ قَلْبِهِ، وَخُلُوقِ هِمَّتِهِ،
وَتَفَرُّدِهِ بِرَبِّهِ، وَإِقْبَالِهِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِ، وَمَقَامُهُ هُنَاكَ أَرْفَعَ حَالِيهِ، رَأَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

حال فترته عنها، وشغلته بسواها، غصاً من غلبي حاله، وخلفاً من رفيع مقامه؛
فاستغفر الله من ذلك.

وهذا أولي وجوه الحديث وأشهرها.

والى معنى ما أشرنا به، مأل إليه كثير من الناس، وحام خوله، ففازب ولم
يرد.

وقد قرئنا غلبض معناه، وكشفنا للمستفيد فحياة؛ وهو مبني على جواز
الفترات، والغلات، والشهر في غير طريق البلاغ، على ما سباني.

ودعيت طائفة من أرباب القلوب، ومشيخة المنصورة بمن قال بشتره
النبي ﷺ عن هذا جملة، وأجله أن يجوز عليه في حال منه أو فتره إلى أن
معنى الحديث: ما يهيم خاطره، ويغتم فكره من أمر أمته - عليه السلام -
لاهتمامه بهم، وكثرة شفقه عليهم؛ فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون الغبن - هنا - على قلبه: السكينة التي تنفضها؛ لقوله
تعالى: ﴿فَأَسْرَغَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ١٤٠] ويكون استغفاره - عليه السلام -
عندما إظهاراً للعبودية والافتقار.

وقال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا تعريف لأتمه بخيلهم على الاستغفار.
وقال غيره: ويستشعرون الحذر، ولا يتركون إلى الأمن.
وقد يحتمل أن تكون هذه الإغاة حالة خلية وإعظام تغشى قلبه، فيستغفر
حبتاً شكراً لله، وملازمة لعبوديته.

١٥٤٠ - كما قال في ملازمة العبادة: «أَفَلَا أَكُونُ غَنِيّاً شُكُوراً؟».

١٥٤١ - وعلى هذه الوجوه الأخيرة يحمل ما روي في بعض طرق هذا
الحديث عنه عليه السلام: «إِنَّ لِيْغَانِ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً،
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»^(١).

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُمْ
عَلَى الْهِنْدَىٰ فَلَا تُكُونُ مِنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾ [نوح: ١٠٦]؟
وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾ [نوح: ١٠٦]؟

فاعلم أنه لا يلتفت في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا عليه السلام: فلا
تكون ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهندى. وفي آية نوح: لا تكون
ممن يجهل أن وعد الله حق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾ [نوح: ١٠٦] إذ فيه

إثبات الجَهْل بصفة من صفات الله؛ وذلك لا يجوزُ على الأنبياء.

والمقصودُ وعظمتهم أَلَّا يَتَشَبَّهُوا في أمورهم بِسِمَاتِ الجاهِلين، كما قال:

﴿إِنِّي أَعْظُمُكُمْ﴾. وليس في آية منها دَلِيلٌ على كَوْنهم على تلك الصفة التي نهاهم الله

عن الكَوْنِ عليها؛ فكيف؟ وآية نوح قِيلَها: ﴿فَلَا تَكُنْ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

فَحُمِلَ ما بعدها على ما قبلها أَوَّلَى؛ لأنَّ مِثْلَ هذا قد يحتاج إلى إِذْنٍ.

وقد تَجَوَّرُ إِبَاحَةُ السُّؤَالِ فيه ابتداءً؛ فنهاه الله أَنْ يسأله عَمَّا طَوَى عنه عِلْمُه،

وَأَكْثَه مِنْ غَيْبِه من السببِ المُوجبِ لهلاكِ ابنه.

ثم أَكْمَلَ الله تعالى نعمته عليه بإعلامه ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ

عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ [هود: ٤٦]. حكى معناه مَكِّي.

كذلك أَمَرَ نَبِيَّنَا - عليه السلام - في الآية الأخرى بالتزام الصَّبْرِ على إعراض

قومه؛ ولا يَخْرُجَ عند ذلك؛ فيقاربُ حالَ الجاهِلِ بشدَّةِ التحسُّرِ. حكاه أبو بكر بن

مُورِك.

وقيل: معنى الخطاب لأمة محمد ﷺ؛ أي: فلا تكونوا من الجاهِلين.

حكاه أبو محمد مَكِّي؛ وقال: مثله في القرآن كثير.

فهذا الفضل وجب القولُ بِعِصْمَةِ الأنبياءِ منه بعد النبوة قطعاً.

فإن قلت: فإذا قُزِرَتْ عِصْمَتُهُمْ من هذا، وأنه لا يجوزُ عليهم شيء من

ذلك، فما معنى إذا وَعِيدَ اللَّهُ لِنَبِيِّنَا ﷺ على ذلك إن فَعَلَهُ، وتحذيره منه،

كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا

مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ نَهَبْتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧١] إذا لَدَقْنَاكَ

ضَعَفَ الْحَيَوةَ وَضَعَفَ أَلَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وقوله: ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [٤٥] [الحاقة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَأَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُعْضِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾

الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿فَإِنْ يَسْأَلِ اللَّهُ بِخَيْرٍ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقوله: ﴿وَأِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿أَتَى اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

فاغْلَمْ - وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ - أنه ﷺ لا يَصُحُّ، ولا يجوزُ عليه، أَنْ لا يُبَلِّغَ،

وأن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك به ولا يتقوّل على الله ما لا يحب، أو يفترى عليه، أو يفضل أو يخنم على قلبه، أو يطبع الكافرين؛ لكن الله تعالى يسر أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين، وأن إبلاغه إن لم يكن بهذه السيل فكانه ما بلغ.

فطبيب نفسه، وقوى قلبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَتَعَصَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ كما قال لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦]؛ ليشد بصائرهم في الإبلاغ، وإظهار دين الله، ويذهب عنهم خوف العدو المضعف للنفس. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصِ الْأَقْوِيلِ﴾ [١١] لَأَخَذْنَا مِنْهُ وَالْيَمِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْنَ ﴿١٦﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ مِنْعَ الْحَبِوةِ وَضَعَفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] فمعناه: أن هذا جزاء من فعل هذا، وجزاؤك لو كنت ممن يفعله، وهو لا يفعله. وكذلك قوله: ﴿وَلَنْ تَقْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُعْصِلُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمراد به غيره؛ كما قال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا أَلْوَيْتَ كَفَرُوا بِرُدُّكُمْ عَنْ أَفْئِكُمْ فَتَسْقِلُوا خَسِيرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتَرِ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] و ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِحَبْلِنَ عَمَلِكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبهه، فالمراد به غيره وأن هذه حال من أشرك؛ والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿أَتَى اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] فليس فيه أنه أطاعهم، والله ينهاء عما يشاء ويأمره بما يشاء؛ كما قال: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفُتُوخِ وَالْمِثْقَالِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]. وما كان طردهم عليه السلام - ولا كان من الظالمين.

فصل

في عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله تعالى وصفاته

وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون - عليهم السلام - قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والشك في شيء من ذلك؛

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتزويدهم عن هذه التقيصة منذ
وُلدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان؛ بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات
الطاف السعادة، كما نبهنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا.
ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أنَّ أحدًا نبى واصطفيي مِمَّنْ عُرِفَ بِكُفْرِ
وإشراك قبل ذلك. ومُسْتَنَدُ هذا الباب الثقل؛ وقد استدلَّ بعضهم بأنَّ القلوب تنفِرُ
عَمَّنْ كانت هذه سبيله.

وَأَنَا أَقُولُ: إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ رَمَتْ نَبِيَّنَا - عَلَيْهِ السَّلَام - بِكُلِّ مَا افْتَرَنَتْهُ، وَغَيَّرَ كُفْرًا الْأُمَمَ أَنْبِيَاءَهَا بِكُلِّ مَا أَمَكْنَهَا وَاخْتَلَقَتْهُ، مِمَّا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، أَوْ نَقَلَتْهُ إِلَيْنَا الرُّوَاةُ، وَلَمْ نَجِدْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ تَغْيِيرًا لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ بِرَفْضِهِ آلِهَتِهِ، وَتَغْيِيرِهِ بِدَعْوَةِ بَنِيهِ مَا كَانَ قَدْ جَامَعَهُمْ عَلَيْهِ.

ولو كان هذا، لكانوا بذلك مُتبادرين، وبَلَّوْنَهُ في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قَبْلَ أَفْطَحَ وَأَفْطَحَ في الحجة مِنْ توبيخه بنهيهم عن تركهم آلِهَتِهِمْ، وما كان يعبد آباؤهم من قبل.

ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه؛ إذ لو كان لنقل، ولما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٤٢]، كما حكاها الله عنهم.

وقد استدلَّ القاضي القُشيري على تزويجهم عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَفُوحٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كُنْهِ وَحْيِكُمْ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْعِمُنَّ بِهِ﴾ [آل عمران: ٨١].
قال: فطهره الله في الميثاق.

وَبَعِيدٌ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الْمِيثَاقَ قَبْلَ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَأْخُذَ مِيثَاقَ التَّائِبِينَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَنَصْرِهِ قَبْلَ مَوْلَدِهِ بِدُھُورٍ، وَيَجُوزُ عَلَيْهِ الشَّرْكَ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الذُّنُوبِ. هَذَا مَا لَا يَجُوزُهُ إِلَّا مُلْجِدٌ. هَذَا مَعْنَى كَلَامِهِ.

١٥٤٢ - وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشق قلبه صغيراً، واستخرج منه علقته، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بماء وحمة وإيماناً، كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

وَلَا يُشَبِّهُ عَلَيْكَ بِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْكُوكَبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾

[الأنعام: ٧٦] فإنه قد قيل: كان هذا في بين الطفولية، وابتداء النظر والاستدلال؛ وقيل لزوم التكليف.

وذهب معظم الحذاق من العلماء المفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مُبَكِّتاً، لقومه، ومستدلاً عليهم.

وقيل: معناه الاستفهام الوارد مؤرد الإنكار؛ والمراد: فهذا ربي؟
قال الزجاج: قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أي على قولكم؛ كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [فصلت: ٤٧] أي عندكم.

ويدل على أنه لم يغبط شيئاً من ذلك، ولا أشرك قط بالله طرفة عين: قول الله تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠].

ثم قال: ﴿قَالَ أَفَرَبِّكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [٧٥] أَشْتَرُ وَمَا بَأْسُكُمْ أَفَأَعْمُونَ﴾ [٧٦] لَمَّا تَمَّ عَزْوُ لِحَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]؛ أي: من الشرك.

وقوله: ﴿وَأَحْبَبَنِي وَبَقِيَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

[الأنعام: ٧٧].

قيل: إنه إن لم يؤيذنني الله بمعونته أكن مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم، على معنى الإشفاق والحذر؛ وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعَوَّذَنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ [إبراهيم: ١٣]. ثم قال بعد ذلك عن الرسل: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ وَتَهَا...﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فلا يشكّل عليك لفظة العوذ، وأنها تقتضي أنهم إنما يعودون إلى ما كانوا فيه من ملتهم؛ فقد

تابى هذه اللفظة في كلام العرب لغير ما ليس له ابتداء بمعنى الصيرورة.

١٥٤٣ - كما جاء في حديث الجهنميين: «عَادُوا حُصَمَا» [البخاري (٦٥٦٠)، مسلم (١٨٣)] ولم يكونوا قبل كذلك.

ومثله قول الشاعر:

بَلَكَ الْمَكَارِمَ لَا قُعْبَانَ مِنْ لَبَنِ شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

وما كانا قبل ذلك، كذلك.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]؛ فليس

هو من الضلال الذي هو الكُفر؛ قيل: ضالاً عن الثبوة فهذا إليها؛ قاله الطبري.
وقيل: وجدك بين أهل الضلال، فعصمك من ذلك، وهذا للإيمان، وإلى
إرشادهم.

ونحوه عن السدي وغير واحد.

وقيل: ضالاً عن شريعتك التي لا تعرفها فهذا إليها.

والضلال ها هنا: التحير؛ ولهذا كان - عليه السلام - يخلو بغار حراء في
طلب ما يتوجه به إلى ربه، ويتشرع به حتى هداه إلى الإسلام، قال معناه
القشيري.

وقيل: لا تعرف الحق، فهذا إليه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا
لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]؛ قاله علي بن عيسى.

قال ابن عباس: لم تكن له ضلالة معصية.

وقيل: هدى؛ أي بين أمرك بالبراهين.

وقيل: وجدك ضالاً بين مكة والمدينة، فهذا إلى المدينة.

وقيل: المعنى: وجدك فهدى بك ضالاً.

وعن جعفر بن محمد: وجدك ضالاً عن محبتي لك في الأزل؛ أي: لا
تعرفها؛ فمنتت عليك بمعرفتي.

وقرأ الحسن بن علي: ووجدك ضالاً فهدى؛ أي اهتدى بك.

وقال ابن عطاء: ووجدك ضالاً، أي: مُجباً لمعرفتي. والضال: المُجِبُّ؛
كما قال: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي محبتك القديمة؛ ولم
يريدوا ها هنا في الدين؛ إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.

ومثله عند هذا قوله: ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. أي: محبة
بيّنة.

وقال الجنيّد: ووجدك مُتَحَيِّراً في بيان ما أنزل عليك فهذا لبَيَانِهِ؛ لقوله
تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقيل: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ لم يعرفك أحد بالنبوة حتى أظهركَ، فهدى بك السعداء،
ولا أعلم أحداً قال من المفسرين ها هنا فيها: ضالاً عن الإيمان.

وكذلك في قصة موسى عليه السلام قوله: ﴿فَمَلَأْنَاهَا إِذَا وَاتْنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾
[الشعراء: ٢٠] أي: من المخطئين الفاعلين شيئاً بغير قصد؛ قاله ابن عرفة.

وقال الأزهرى: معناه من التائبين.

وقد قيل ذلك في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ أي ناسياً؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالجواب أن السمرقندي قال: معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان.

وقال بكر القاضي نحوه؛ قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام؛ قال: فكان ﷺ قبل مؤمناً بتوحيده؛ ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يذريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً؛ وهو أحسن وجوهه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَأَن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] فاعلم أنه ليس بمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]؛ بل قد حكى أبو عبيد الهروي أن معناه لمن الغافلين عن قصة يوسف؛ إذ لم تعلمها إلا بوحيها.

١٥٤٤ - وكذلك الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شيبة بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدتهم، فسمع الملكين خلفه، أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه. فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام؟ فلم يشهدهم بعد. فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جداً، وقال: هذا موضوع، أو شبيه بالموضوع.

وقال الدارقطني: يقال: إن عثمان وهم في إسناده. والحديث بالجملة منكّر غير متفق على إسناده؛ فلا يلتفت إليه. ١٥٤٥ - والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِضَ إِلَى الْأَصْنَامِ».

١٥٤٦ - وقوله في الحديث الآخر الذي روثه أم أيمن حين كلمه عمه وآله في حضور بعض أعيادهم، وعزموا عليه فيه بعد كراهته لذلك؛ فخرج معهم، ورجع مزعوباً؛ فقال: «كلما دنوت منها من صنم تمثل لي شخص أبيض طويل يصبح بي: وزاءك، لا تمسه» فما شهد بغد لهم عبداً.

١٥٤٧ - وقوله - في قصة بَجِيرا - حين استحلف النبي ﷺ باللات

وَالْعَزَى، إِذْ لَقِيَهِ بِالشَّامِ فِي سَفَرِهِ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ صَبِيٌّ، وَرَأَى فِيهِ
عَلَامَاتِ النَّبُوءَةِ، فَاخْتَبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسْأَلْنِي بِهِمَا، فَوَاللَّهِ! مَا
ابْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بَغْضَهُمَا».

فَقَالَ لَهُ بِحَيْرَةٍ: فَبِاللَّهِ! إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ. فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَأَ
لَكَ».

وَكَذَلِكَ الْمَعْرُوفُ مِنْ سِيرَتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَوْفِيقُ اللَّهِ لَهُ أَنَّهُ كَانَ
قَبْلَ نَبُوَّتِهِ يَخَالِفُ الْمُشْرِكِينَ فِي وَقُوفِهِمْ بِمُزْدَلِفَةَ فِي الْحَجِّ؛ فَكَانَ يَقِفُ هُوَ بِعَرَفَةَ؛
لأنه كَانَ مَوْقِفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فصل

فِي أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَغْرِفَتِهِمْ بِبَغْضِ أُمُورِ الدُّنْيَا

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: قَدْ بَانَ بِمَا قَدَمْنَاهُ عَنْقُودُ الْأَنْبِيَاءِ فِي
التَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْوَحْيِ وَعِصْمَتِهِمْ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ.
فَأَمَّا مَا عَدَا هَذَا الْبَابَ مِنْ عَنْقُودِ قُلُوبِهِمْ فَجَمَاعُهَا أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ عِلْمًا وَبِقِيْنًا
عَلَى الْجُمْلَةِ، وَأَنَّهَا قَدْ احْتَوَتْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا مِمَّا لَا شَيْءَ
قَوْفُهُ.

وَمَنْ طَالَعَ الْأَخْبَارَ، وَاعْتَنَى بِالْحَدِيثِ، وَتَأَمَّلَ مَا قُلْنَا مِنْ وَجْدِهِ.
وَقَدْ قَدَمْنَا مِنْهُ فِي حَقِّ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْبَابِ الرَّابِعِ أَوَّلَ قِسْمٍ مِنْ
هَذَا الْكِتَابِ مَا يُتَبَّهُ عَلَى مَا وَرَاءَهُ، إِلَّا أَنَّ أَحْوَالَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ تَخْتَلِفُ.
فَأَمَّا مَا تَعَلَّقَ مِنْهَا بِأَمْرِ الدُّنْيَا فَلَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ
مَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِبَعْضِهَا، أَوْ اعْتِقَادِهَا عَلَى خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَلَا وَضَعَ عَلَيْهِمْ
فِيهِ؛ إِذْ هِمَّتُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْآخِرَةِ وَأَنْبَاءُهَا، وَأَمْرُ الشَّرِيعَةِ وَقَوَانِينُهَا. وَأُمُورُ الدُّنْيَا
تُضَادُّهَا، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِينَ «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ
الْآخِرَةِ قَرُورٌ غَفَلُونَ» [الرُّوم: ٧].

كَمَا سَبَّيْنَاهُ هَذَا فِي الْبَابِ الثَّانِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يُقَالُ: إِنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوْدِي إِلَى الْغَفْلَةِ وَالْبَلَهَةِ، وَهُمْ الْمَنْزُهِونَ
عَنْهُ؛ بَلْ قَدْ أُرْسِلُوا إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَقُلَّدُوا سِيَاسَتَهُمْ وَهَدَايَتَهُمْ، وَالنَّظَرُ فِي
مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ وَهَذَا لَا يَكُونُ مَعَ عَدَمِ الْعِلْمِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَأَحْوَالِ

الأنبياء وسببهم في هذا الباب معلومة، ومعرفتهم بذلك كله مشهورة.

وأما إن كان هذا العقد مما يتعلق بالدين فلا يصح من النبي ﷺ إلا العلم به، ولا يجوز عليه جهله جملة؛ لأنه لا يخلو أن يكون حصل عنده ذلك عن وحي من الله، فهو ما لا يصح الشك منه فيه - على ما قدمناه - فكيف الجهل؟ بل حصل له العلم اليقين. أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء، على القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحققين.

١٥٤٨ - وعلى مقتضى حديث أم سلمة رضي الله عنها: «إني إنما أفضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه شيء» [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)، أبو داود (٣٥٨٥)]. خرجه الثقات.

وكقصة أسرى بدر، والإذن للمتحلفين على رأي بعضهم، فلا يكون أيضاً ما يعتقده مما يثمره اجتهاده إلا حقاً وصحيحاً.

هذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه ممن أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد لا على القول بتضريب المجتهدين الذي هو الحق والصواب عندنا؛ ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد لعصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات؛ ولأن القول في تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع؛ ونظر النبي ﷺ واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء، ولم يشرع له قبل؛ هذا فيما عقد عليه قلبه ﷺ، فأما ما لم يغقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية؛ فقد كان لا يعلم منها أولاً إلا ما علمه الله - عز وجل - شيئاً فشيئاً حتى استقر علم جملة ما عنده؛ إما بوحي من الله، أو إذن له أن يشرع في ذلك، ويحكم بما أراه الله.

وقد كان يتنظر الوحي في كثير منها؛ ولكنه لم يمت ﷺ حتى استقر علم جميعها عنده عليه السلام، وتقررت معارفها لديه على التحقيق، ورفع الشك والريب، وانقضاء الجهل.

وبالجملة فلا يصح منه الجهل بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه؛ إذ لا تصح دعوته إلى ما لا يعلم.

وأما ما يتعلق بعقده من ملكوت السموات والأرض، وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنی، وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراف الساعة، وأحوال السعداء والاشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لا يعلمه إلا بوحي - فعلى ما تقدم - من

أنه معصوم فيه، لا يأخذه فيما أعلم به شك ولا زنب؛ بل هو فيه على غاية اليقين.

١٥٤٩ - لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر؛ لقوله: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي».

١٥٥٠ - ولقوله: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ...» [السجدة: ١٧] [مسلم (٢٨٢٥)].

وقول موسى - عليه السلام - للخضر: «هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا» [الكهف: ٦٦].

١٥٥١ - وقوله ﷺ: «أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى مَا عَلَّمْتَ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ».

١٥٥٢ - وقوله: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ اسْتَأْثَرَتْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» [أحمد (٣٩١/١)].

وقد قال الله تعالى: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» [يوسف: ٧٦] قال زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله.

وهذا ما لا خفاء به، إذ معلوماته - تعالى - لا يحاط بها، ولا تنتهي لها. هذا حُكْمُ عَقْدِ النَّبِيِّ ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمر الدينية.

فصل

فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكِفَايَتِهِ مِنْهُ

واعلم أن الأمة مجتمعة على عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس.

١٥٥٣ - وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو علي - رحمه الله - قال: حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُونَ الْعَدَلِ، حدثنا أبو بكر الْبَزْكَانِيُّ وَغَيْرُهُ، حدثنا أَبُو الْحَسَنِ الدَّارْقُطَنِيُّ، حدثنا إِسْمَاعِيلُ الصَّفَّارُ، حدثنا عَبَّاسُ التَّرْفُفِيُّ، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، حدثنا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِيْنَهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِيْنُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ».

قالوا: وإيّاكَ؟ يا رسول الله! قال: «وإيّاي؛ ولكنّ اللّه تعالى أعانني عليه فأسلم».

زاد غيره، عن منصور: «فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم (٢٨١٤)].

١٥٥٤ - وعن عائشة بمعناه [مسلم (٢٨١٥)].

روى: «فأسلم» بضم الميم؛ أي فأسلم أنا منه.

وصحح بعضهم هذه الرواية ورّجّحها.

وروي: «فأسلم» يعني: القرين، أنه انتقل من حال كفره إلى الإسلام؛ فصار لا يأمر إلا بخير، كالملك.

وهو ظاهر الحديث.

١٥٥٥ - ورواه بعضهم: «فأسلم».

قال القاضي أبو الفضل: فإذا كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على بني آدم، فكيف بمن بعد منه، ولم يلزم صحته، ولا أقدر على الدنو منه؟

وقد جاءت الآثار بتصدّي الشياطين له في غير موطن؛ رغبة في إطفاء ثوره وإماتة نفسه، وإدخال شغل عليه؛ إذ يشأوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين، كتمريضه له في صلاته؛ فأخذه النبي ﷺ وأسرّه.

١٥٥٦ - ففي الصحاح، قال أبو هريرة، عنه عليه السلام: «إنّ الشيطان عرض لي - قال عبدالرزاق: في صورة هر - فشذ عليّ بقطع عليّ الصلاة فأمكنني اللّه منه، فدعته. ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية من سواري المسجد حتى تضيقوا تنظرون إليه، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْنِزْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَدِينِي﴾ [مر: ٣٥] الآية، فردّه الله خاسئاً».

١٥٥٧ - وفي حديث أبي الدرداء عنه عليه السلام: «إنّ عدوّ اللّه إبليس جاءني يشهاب من نار ليجمعه في وجهي» - والنبي ﷺ في الصلاة وذكر تعوذه بالله منه، ولغته له - «ثم أردت أن أخذه» وذكر نحوه؛ وقال: «لأضبح موثقاً يتلاعب به ولدان أهل المدينة» [مسلم (٥٤٢)].

١٥٥٨ - وكذلك في حديثه في الإسراء، وطلب عفرين له بشعلة نار، فعلمه جبريل ما يتعوذ به منه. ذكره في الموطأ [أحمد (٤١٩٣)].

١٥٥٩ - ولما لم يقدر على أذاه بمباشرة تسبب بالتوسط إلى عداه؛ كقضيته مع قریش في الاتمار بقتل النبي ﷺ، وتصوره في صورة الشيخ النجدي.

١٥٦٠ - ومرة أخرى في غزوة يوم بدر في صورة سراقه بن مالك، وهو

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٥٦١ - ومرة يُنذِرُ بشأنه عند بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ.

وَكُلُّ هَذَا فَقَدْ كَفَّاهُ اللَّهُ أَمْرَهُ، وَعَصَمَهُ ضَرَّهُ وَشَرَّهُ.

١٥٦٢ - وقد قال عليه السلام: «إِنْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - كُفِّي مِنْ لَفْظِهِ،

فَجَاءَ لِبَطْنِ بْنِ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتَيْهِ حِينَ وُلِدَ، فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ» [البخاري (٣٢٨٦)،

(٣٤٣١)، مسلم (٢٣٦٦)].

١٥٦٣ - وقال عليه السلام - حين لُدَّ فِي مَرْضِهِ، وقيل له: خَشِينَا أَنْ يَكُونَ

بِكَ ذَاتُ الْجَنْبِ - فقال: «إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَسْلُطْهُ عَلَيَّ» [أحمد

(١١٨/٦)، البخاري (٤٤٥٨)، مسلم (٢٢١٣)].

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ

بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفْسِّرِينَ: إِنَّهَا رَاجِعَةٌ

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ﴾ أَيِ

يَسْتَجِفُّكَ غَضَبُ يَحْمِلُكَ عَلَى تَرْكِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقيل: النَّزْعُ - هُنَا -: الْفَسَادُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزْعُ الشَّيْطَانُ

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] أَيِ: أَفْسَدَ. وقيل: بَاعَدَ.

وقيل: ﴿يَزْعُمُكَ﴾: يُغَرِّبُكَ وَيُحَرِّكُكَ. وَالنَّزْعُ: أَدْنَى الْوَسْوَسةِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ

تَعَالَى أَنَّهُ مَتَى تَحَرَّكَ عَلَيْهِ غَضَبٌ عَلَى عَدُوِّهِ، أَوْ زَامَ الشَّيْطَانُ مِنْ إغْرَائِهِ بِهِ وَخَوَاطِرِ

أَدَانِي وَسَاوِسِهِ، مَا لَمْ يُجْعَلْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَيْهِ، أَنْ يَسْتَعِذَّ مِنْهُ، فَيَكْفِيَ أَمْرَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ

سَبَبَ تَمَامِ عِصْمَتِهِ، إِذْ لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ بِأَكْثَرِ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُ، وَلَمْ يُجْعَلْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ.

وقد قيل في هذه الآية غَيْرُ هَذَا.

وكذلك لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَصَوَّرَ لَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ الْمَلِكِ، وَيُلْبَسَ عَلَيْهِ،

لَا فِي أَوَّلِ الرِّسَالَةِ وَلَا بَعْدَهَا.

وَالاعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ ذَلِيلُ الْمَعْجِزَةِ؛ بَلْ لَا يَشْكُ النَّبِيُّ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ

الْمَلِكُ وَرَسُولُهُ حَقِيقَةٌ، إِنَّمَا يَعْلَمُ ضَرُورَتِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ، أَوْ يَبْرَهَانُ يُظْهِرُهُ لَدَيْهِ،

لِيَتِمَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ

إِلَّا إِنَّا تَمْوَجُّ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ

مَائِنِيْهِ وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴿٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

فَاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ أَقْوَابَ، مِنْهَا السَّهْلُ وَالْوَعْتُ، وَالسَّمِينُ وَالْعُتْ؛ وَأَوَّلَى مَا يُقَالُ فِيهَا مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَفْسَرِينَ: أَنَّ (الْتَمَنِي) هَا هُنَا: النَّالُوَةُ، (وَالْفَاءُ الشَّيْطَانُ فِيهَا) شَغْلُهُ بِخَوَاطِرٍ وَأَذْكَارٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا لِلتَّالِي حَتَّى يُدْخَلَ عَلَيْهِ الْوَقْتُ وَالنَّسِيَانُ فِيمَا تَلَاَهُ، أَوْ يُدْخَلَ غَيْرَ ذَلِكَ عَلَى أَفْهَامِ السَّامِعِينَ مِنَ التَّحْرِيفِ، وَسُوهُ النَّوَابِلِ مَا يَزِيلُهُ اللَّهُ وَيَنْسَخُهُ، وَيَكْشِفُ لُبْسَهُ، وَيُحْكَمُ آيَاتُهُ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ بَأْشِنَعٍ مِنْ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ حَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ إِنْكَارَ قَوْلِ مَنْ قَالَ بِتَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَغَلَبَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بِمِثْلِ هَذَا لَا يَبْصَحُ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا قِصَّةَ سُلَيْمَانَ مَبِينَةً بَعْدَ هَذَا، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْجَسَدَ هُوَ الْوَلَدُ الَّذِي وَلَدَ لَهُ.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: مَكِّيٌّ - فِي قِصَّةِ أَيُّوبَ - وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَسِيَّ الشَّيْطَانِ يُضَيِّبُ وَعْدَابِ﴾ [ص: ٤١]: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَأَوَّلَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي أَمْرَضَهُ، وَالْفَى الضَّرُّ فِي بَدَنِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِفِعْلِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، لِيَتَلَبَّسَ وَتُشَيَّبَ. قَالَ مَكِّيٌّ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الَّذِي أَصَابَهُ بِهِ الشَّيْطَانُ مَا وَضَعَهُ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ. فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى - عَنْ يُوشَعَ: ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] وَقَوْلُهُ - عَنْ يُونُسَ: ﴿فَأَسْنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].

١٥٦٤ - وَقَوْلُ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ نَامَ عَنِ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْوَادِي: «إِنَّ هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ».

وَقَوْلُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي وَكْزَتِهِ: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...؟» [القصص: ١٥].

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ قَدْ يَرِدُ فِي جَمِيعِ هَذَا عَلَى مَوْرَدٍ مُسْتَمِرٍّ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي وَضْفِهِمْ كُلِّ قَبِيحٍ، مِنْ شَخْصٍ، أَوْ فِعْلٍ، بِالشَّيْطَانِ أَوْ فِعْلِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَلَأَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥].

١٥٦٥ - وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «فَلْيُقَابِلْتَهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ» [البخاري (٥٠٩)، مسلم (٥٠٥)].

وَأَيْضاً فَإِنَّ قَوْلَ يُوشَعَ لَا يَلْزَمُنَا الْجَوَابَ عَنْهُ؛ إِذْ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ نَبْوَةً مَعَ مُوسَى؛ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ...» [الكهف: ٦٠].

والمزوي أنه إنما بُتِيَء بعد مَوْتِ موسى، وقيل: قُبِّلَ موته.
وقول موسى كان قَبْلَ نبوِّته بدليل القرآن.

وقصة يوسف أيضاً قد ذُكِرَ أنها كانت قَبْلَ بُوِّته.

وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ [يوسف: ٤٢]
قولين: أَحَدُهُمَا:

أَنَّ الذي أنساه الشيطان ذَكَرَ رَبَّهُ أَحَدُ صاحبي السُّجُن، و (رَبُّه): المَلِكُ؛
أي أنساه أَنْ يَذْكُرَ للمَلِكِ شَأْنَ يوسف عليه السلام.

وأيضاً فإِنَّ مِثْلَ هذا مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ ليس فيه تسليط على يوسف - عليه
السلام - وَيُوشَعَ بوساوس وَتَزْعُ؛ وإنما هو بِشَغْلِ خَوَاطِرِهِمَا بِأُمُورٍ أُخَرَ،
وتذكيرهما من أمورهما ما يَنْسِيَهُمَا ما نَسِيَاهُ.

١٥٦٦ - وأما قَوْلُهُ - عليه السلام -: «إِنَّ هذا وادٍ به شَيْطَانٌ». فليس فيه ذِكْرُ
تسلُّطه عليه، وَلَا وَسْوَسةٍ له.

١٥٦٧ - بل إِنَّ كانَ بمقتضى ظاهره فقد بَيَّنَّ أَمْرَ ذلك الشيطان بقوله: «إِنَّ
الشَّيْطَانَ أَتَى بِلَالاً، فلم يَزَلْ يَهْدُثُهُ كما يَهْدُثُ الصَّبِيَّ حتى نام».

فاعلم أَنَّ تسلُّطَ الشيطانِ في ذلك الوادي الذي عَرَّسَ به إنما كان على بلالٍ
الموكل بكلاءة الفَجْرِ.

هذا إِنَّ جعلنا قَوْلَهُ: «إِنَّ هذا وادٍ به شَيْطَانٌ» تَنْبِيْهاً على سبب التَّوَمُّ عن
الصلاة. وأما إِنَّ جعلناه تَنْبِيْهاً على سبب الرَّجِيلِ عن الوادي، وَعِلَّةُ تَرْكِ الصلاة
به، وهو دليلٌ مساقٍ حديثُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فلا اعتراضُ به في هذا الباب؛ لبيانه،
وارتفاع إشكاله.

فصل

فِي صِدْقِ أَقْوَالِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَخْوَالِهِ

وأما أقواله - عليه السلام - فقامت الدلائل الواضحةُ بصحَّةِ المعجزةِ على
صِدْقِهِ، وأجمعت الأمة - فيما كان طريقه البلاغ - أنه معصوم فيه من الإخبارِ عن
شيء منها بخلاف ما هو به، لا قَصْداً وَعَمْداً، ولا سَهْواً أو غَلْطاً.

أما تعمُّدُ الخُلُفِ في ذلك فَمُنْتَفٍ، بدليل المعجزة القائمة مقام قولِ اللَّهِ:
صَدَقَ فيما قال، اتفاقاً، وبإطِّبَاقِ أهلِ المِلَّةِ، إجماعاً.

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق

الإسفرائيني ومن قال بقوله. ومن جهة الإجماع فقط، وورود الشَّرْع بانتفاء ذلك، وعصمة النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى الدليل. أعني: دليل المعجزة. لا تطول بذكره، فنخرج عن غرض الكتاب؛ بل نعتمد على ما وقع عليه - إجماع المسلمين - أنه لا يجوز عليه خُلْفٌ في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربه، وما أوحاهُ إليه من وحيه، لا على وجه الغمذ، ولا على غير غمذ، ولا في حالتي الرضا والسخط، والصحة والمرض.

١٥٦٨ - وفي حديث عبدالله بن عمرو: قلت: يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم». قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً» [أبو داود (٣٦٤٦)، أحمد (١٦٢/٢)].

ولنترد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بياناً؛ فنقول: إذا قامت المعجزة على صدقه، وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلغ عن الله إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى له: صدقت فيما تذكره عني؛ وهو يقول: إني رسول الله إليكم، لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل إليكم، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

و ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].
﴿وَمَا مَنَعَكُمْ الرُّسُولَ فَحُذُّوهُ وَمَا مَنَعَكُمْ عَنْهُ فَانتهَوْا﴾ [الحشر: ٧]؛ فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان.
فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولاختلط الحق بالباطل؛ فالمعجزة مشتبهة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص؛ فتزیه النبي ﷺ عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً كما قال أبو إسحاق رضي الله عنه.

فصل

في رد المؤلف لبغض الشبهات والمطاعين،

كرده لقصه الغرائبي وبغض الشبه التي يتمسك بها الزايغون

وقد توجهت هنا لبعض الطاعنين سؤالات؛ منها:

١٥٦٩ - ما روي من أن النبي ﷺ لما قرأ سورة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكَّ وَالْمَرْءَ ۖ وَمَنْزُورَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] - قال: «تلك

الغرائبُ الغُلا، وإنْ شفاعتها لَتُرْتَجَى» ويروى: «تُرْتَضَى» وفي رواية: «إِنْ شَفَاعَتُهَا لَتُرْتَجَى، وإنها لَمَعَ الغَرَابِقُ الغُلا».

وفي رواية أخرى: «والغرائقةُ الغُلا، تلك للشفاعة تُرْتَجَى».

فلما ختم السورة، سجد ﷺ، وسجد المسلمون معه، والكُفَّارُ لما سمعوه أثنى على ألهتهم.

وما وقع في بعض الروايات أَنَّ الشيطانَ ألقاها على لسانه، وأنَّ النبي ﷺ كان تمتي أنْ لو نزلَ عليه شيء يُقاربُ بينه وبين قومه.

وفي رواية أخرى: ألا ينزل عليه شيء ينقُهم عنه؛ وذكر هذه القصة، وأنَّ جبريل عليه السلامُ جاءه فعرض عليه السُورة، فلما بلغ الكلمتين قال له: ما جئتُك بهاتين، فحزنَ لذلك النبي ﷺ، فأنزل اللهُ - عز وجل - عليه تسلياً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَحْيُ إِلَّا إِنْهَا نَعَزَّ الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَبَنَسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ مَائِنَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ [الحج: ٥٢].

وقوله: ﴿وَلَا كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غِبًبًا وَإِذَا لَاتَخَذُواكِ خِلَافًا ٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنَّ مُبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا لَّيْلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

فاعلم - وفَّقك اللهُ - أنْ لنا في الكلام على مُشْكِل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أضله، والثاني على تسليمه. أما المأخذ الأول: فيكيفيك أنْ هذا حديث لم يُخرجه أحدٌ من أهل الصحة، ولا رَوَاهُ ثِقَةٌ بسندٍ سليم متصل؛ وإنما أولعَ به وبمثله المفسِّرون والمؤرِّخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كلَّ صحيح وسقيم.

ولقد صدق القاضي بَكْرُ بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلِيَ الناسُ ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلَّقَ بذلك المُلْجِدُونَ مع ضَعْف ثَقْلته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته؛ فقايل يقول: إنه في الصلاة؛ وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة؛ وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنَّةٌ؛ وآخر يقول: بل حَدَّثَ نَفْسَهُ قَسْهًا؛ وآخر يقول: إنَّ الشيطانَ قالها على لسانه، وإنَّ النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرَأْتُكَ؛ وآخر يقول: بل أَعْلَمَهُمُ الشيطانُ أَنَّ النبي ﷺ قرأها؛ فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: «والله! ما هكذا نزلتُ» إلى غير ذلك من اختلاف الرِوَاة.

وَمَنْ حُكِّيتَ هَذِهِ الْحِكَايَةُ عَنْهُ مِنَ الْمَفْسُورِينَ وَالتَّابِعِينَ لَمْ يَسْنِدْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا رَفَعَهَا إِلَى صَاحِبٍ؛ وَأَكْثَرُ الطَّرِيقِ عَنْهُمْ فِيهَا ضَعِيفَةٌ وَاهِيَةٌ، وَالْمَرْفُوعُ فِيهِ: حَدِيثُ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ فِيمَا أَحْسَبُ - الشَّكَّ فِي الْحَدِيثِ -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِمَكَّةَ... وَذَكَرَ الْقِصَّةَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ: هَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِسْنَادٍ مُتَّصِلٍ يَجُوزُ ذِكْرُهُ إِلَّا هَذَا، وَلَمْ يُسْنِدْهُ عَنْ شُعْبَةَ إِلَّا أُمَيَّةُ بْنُ خَالِدٍ، وَغَيْرُهُ يُرْسِلُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَقَدْ بَيَّنَّ لَكَ أَبُو بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا يُعْرِضُ مِنْ طَرِيقٍ يَجُوزُ ذِكْرُهُ سِوَى هَذَا. وَفِيهِ مِنَ الضَّعْفِ مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ مَعَ وَقُوعِ الشَّكِّ فِيهِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الَّذِي لَا يُوثَقُ بِهِ، وَلَا حَقِيقَةٌ مَعَهُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ الْكَلْبِيِّ فِيمَا لَا تَجُوزُ الرَّوَايَةُ عَنْهُ وَلَا ذِكْرُهُ لِقُوَّةِ ضَعْفِهِ وَكَذِبِهِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَزَّازُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٥٧٠ - وَالَّذِي مِنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿وَالْجَبْرِ﴾ - وَهُوَ بِمَكَّةَ - فَسَجَدَ، وَمَسَّجِدُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَشْرُكُونَ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسَ. هَذَا تَوْهِينُهُ مِنْ طَرِيقِ الثَّقَلِ، فَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فَقَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى عَصَمَتِهِ ﷺ وَنَزَاهَتِهِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الرَّذِيلَةِ؛ إِمَّا مِنْ تَعْنِيهِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا مِنْ مَدْحِ آلِهَةٍ غَيْرِ اللَّهِ، وَهُوَ كُفْرٌ؛ أَوْ أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَيُشَبَّهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ حَتَّى يَجْعَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَيَعْتَقِدُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ مِنْهُ حَتَّى يُنَبِّهَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ يَقُولُ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ غَمْدًا، وَذَلِكَ كُفْرٌ؛ أَوْ سَهْوًا، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

وَقَدْ قَرَّرْنَا بِالْبَرَهَانِ وَالْإِجْمَاعِ عَصَمَتَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ جَزَيَانِ الْكُفْرِ عَلَى قَلْبِهِ أَوْ لِسَانِهِ، لَا غَمْدًا وَلَا سَهْوًا، أَوْ أَنَّ يُشَبَّهُ عَلَيْهِ مَا يُلْقِيهِ الْمَلَكُ مِمَّا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ، أَوْ يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، أَوْ أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ، لَا غَمْدًا وَلَا سَهْوًا، مَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَوَلَّوْكَ عَيْنًا يَبْصُرُ الْآفَاقَ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْبَ ۚ﴾ [الْحَاقَّةُ: ٤٤ - ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا كُنَّا لِلْآفَاقِ وَضَعَفَ الْحَبْوَةُ وَضَعَفَ الْمَمَاتُ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ۚ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧٥].

وَوَجْهٌ ثَانٍ: وَهُوَ اسْتِحَالَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ نَظَرًا وَعُرْفًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَوْ كَانَ - كَمَا رَوَى - لَكَانَ بَعِيدَ الْإِلْتِمَامِ لِكَوْنِهِ مُتَنَاقِضُ الْأَقْسَامِ، مُمْتَزَجُ الْمَدْحِ بِالذَّمِّ،

متخاذل التأليف والتنظم. ولَمَّا كان النبي ﷺ ولا مَنْ بحَضْرته من المسلمين، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك؛ وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رَجَحَ حِلْمَهُ، واتَّسع في باب اليَبَانِ ومعرفة فصيح الكلام عِلْمُهُ؟!

وَوَجْهٌ ثالثٌ: أَنَّهُ عُلِمَ مِنْ عَادَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَمُعَانِدِي الْمَشْرِكِينَ، وَضَعْفَةِ الْقُلُوبِ، وَالْجَهْلَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، نَفَورُهُمْ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ؛ وَتَخْلِيْطُ الْعَدُوِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لِأَقْلٍ فِتْنَةٍ، وَتَعْيِيرِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، وَالشُّمَاتِ بِهِمُ الْفِتْنَةِ بَعْدَ الْفِتْنَةِ، وَارْتِدَادُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ مِمَّنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ لِأَذْنَى شُبْهَةٍ، وَلَمْ يَحْكُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ شَيْئاً سِوَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ الضَّعِيفَةِ الْأَصْلِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَوَجَدْتُ قَرِيشَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الصُّوْلَةَ، وَلَأَقَامَتْ بِهَا الْيَهُودُ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةَ، كَمَا فَعَلُوا مَكَابِرَهُ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ حَتَّى كَانَتْ فِي ذَلِكَ لِبَعْضِ الضَّعَفَاءِ رِذَّةٌ، وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ فِي قِصَّةِ الْقِصَّةِ؛ وَلَا فِتْنَةٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ لَوْ وَجَدْتُ، وَلَا تَشْغِيبَ لِلْمُعَادِي حَيْثُ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ لَوْ أَمَكَنْتُ؛ فَمَا رُوِيَ عَنْ مُعَانِدٍ فِيهَا كَلِمَةً، وَلَا عَنْ مُسْلِمٍ بِسَبِيهَا بَنَتْ شَفَّةً؛ فَدَلَّ عَلَى بُطْلَانِهَا وَاجْتِنَاطِ أَصْلِهَا.

وَلَا شَكَّ فِي إِدْخَالِ بَعْضِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى بَعْضِ مَغْضَلِي الْمَحْدُثِينَ، لِيُثْبِتَ بِهِ عَلَى ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَوَجْهٌ رَابِعٌ: ذَكَرَ الرِّوَاةُ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ فِيهَا نَزَلَتْ: ﴿وَلَا كَادُوا يَفْقَهُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خِلَالًا ۖ وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَ لَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

وَهَاتَانِ الْآيَتَانِ تَرُدُّانِ الْخَبَرَ الَّذِي رَوَاهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَادُوا يَفْقَهُونَهُ حَتَّى يَفْتَرِيَ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ ثَبَّتَهُ لَكَادَ يَزْكُنُ إِلَيْهِمْ.

فَمُضْمُونُ هَذَا وَمَفْهُومُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ مِنْ أَنْ يَفْتَرِيَ، وَثَبَّتَهُ حَتَّى لَمْ يَزْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا؛ فَكَيْفَ كَثِيرًا؟! وَهُمْ يَزُورُونَ فِي أَخْبَارِهِمُ الْوَاهِيَةَ أَنَّهُ زَادَ عَلَى الرُّكُونِ وَالْإِفْتِرَاءِ بِمَذْحِ آلِهِتِهِمْ، وَأَنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: افْتَرَيْتُ عَلَى اللَّهِ، وَقُلْتُ مَا لَمْ يَقُلْ؛ وَهَذَا ضِدُّ مَفْهُومِ الْآيَةِ، وَهِيَ تُضَعِّفُ الْحَدِيثَ لَوْ صَحَّ، فَكَيْفَ وَلَا صَحَّةَ لَهُ؟!

وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۖ﴾ [النساء: ١١٣].

١٥٧١ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ «كَادَ» فَهُوَ مَا لَا يَكُونُ

أبدأ؛ قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ مَنَا بَرْقِيهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣]؛ ولم يذهب، و ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]؛ ولم يفعل.

قال القشيري القاضي: ولقد طالبه فريش وثقيف إذ مرَّ بالكهتهم أن يُقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل، ولا كان ليفعل.

قال ابن الأنباري: ما قارب الرسول ولا ركن.

وقد ذُكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر، ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله يؤدِّ سفسافها؛ فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتنَّ على رسوله بعصمته وتبنيته مما كاده به الكفار، وزاموا من فتنته؛ ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ؛ وهو مفهوم الآية.

وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صحَّ؛ وقد أعلفنا الله من صحته؛ ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة؛ منها العتِّ والسمين؛ فمنها - ما رواه قتادة ومقاتل - أن النبي ﷺ أصابته سِنَّةٌ عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم.

وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو.

وفي قول الكلبي: إن النبي ﷺ حدث نفسه؛ فقال ذلك الشيطان على لسانه. وفي رواية ابن شهاب؛ عن أبي بكر بن عبد الرحمن؛ قال: وسَّها؛ فلما أخبر بذلك قال: إنما ذلك من الشيطان.

وكل هذا لا يصح أن يقوله - عليه السلام - لا سهواً ولا قسداً، ولا يتقوله الشيطان على لسانه عليه السلام.

وقيل: لعل النبي ﷺ قاله في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَيْبٌ﴾ [الأنعام: ٧٦] على أحد التأويلات. وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السُّكُوتِ وبيان الفضل بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته.

وهذا ممكن مع بيان الفصل وقريئة تدلُّ على المراد، وأنه ليس من المتلو، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر.

فلا يُعْتَرَضُ على هذا بما روي أنه كان في الصلاة؛ فقد كان الكلام فيها قَبْلَ غَيْرِ مَنْعٍ.

والذي يَظْهَرُ وَيَتَرَجَّحُ في تأويله عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبي ﷺ كان - كما أمره ربه - يُرَتِّلُ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً، ويفضّلُ الآيَ تَفْصِيلاً في قراءته، كما رَوَاهُ الثَّقَاتُ عنه، فيمكن تَرَصُّدُ الشَّيْطَانِ لَتلك السكّنات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحَاكِياً نَعْمَةَ النبي ﷺ بحيث يَسْمَعُهُ مَنْ دَنَا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفَّارِ، فَظَنُّوْهَا مِنْ قَوْلِ النبي ﷺ، وأشاعوها، ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين بحِفْظِ السُّورَةِ قَبْلَ ذلك على ما أنزلها اللهُ تعالى وتحقّقهم من حال النبي ﷺ في ذمّ الأوثان وعيبيها على ما عَرِفَ منه.

وقد حَكَى مُوسَى بن عُقْبَةَ في مَغَازِيهِ نحوَ هذا، وقال: إِنَّ المسلمين لم يسمعوها، وإنما أَلْقَى الشَّيْطَانُ ذلك في أَسْمَاعِ الْمُشْرِكِينَ وقلوبهم؛ ويكون ما رَوِي مِنْ حُزْنِ النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة، وسبب هذه الفتنة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَمْرَهُ وَأَلَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ۝٥٦﴾ [الحج: ٥٦].

فمعنى ﴿تَمَنَّى﴾: تلا، قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يَلْمُوكَ الْكِتَابَ إِلَّا آمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوة.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٦] أي يذهب، ويزيل اللبس به، ويحكم آياته.

وقيل: معنى الآية: هو ما يَقَعُ للنبي ﷺ من السُّهُوِّ إذا قرأ فَيَتَنَبَّهُ لذلك وَيُزَجِّعُ عنه.

وهذا نحو من قول الكلبي في الآية: إِنَّهُ حَدَّثَ نَفْسَهُ، وقال: ﴿إِنَّا تَمَنَّى﴾ أي: حَدَّثَ نَفْسَهُ.

وفي رواية أبي بكر بن عبدالرحمن نخوه.

وهذا السُّهُوُّ في القراءة إنما يَصِحُّ فيما ليس طريقه تَغْيِيرُ المعاني، وتبديل الألفاظ، وزيادة ما ليس من القرآن؛ بل السُّهُوُّ عن إسقاط آية منه أو كلمة؛ ولكنه لا يَقْرَأُ على هذا السهو؛ بل يُنَبِّهُ عليه، ويذكر به لِلْحِجْنِ على ما سنذكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز.

ومما يظهر في تأويله أيضاً أَنَّ مجاهداً رَوَى هذه القصة: «والغرائقة الغلاء» فَإِنَّ سَلَمْنَا القِصَّةَ قُلْنَا: لَا يَبْغُدُ أَنَّ هذا كان قُرْآنًا، والمراد بالغرائقة الغلاء، وَأَنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى؛ الملائكة على هذا التأويل وهذه الرواية.

وبهذا فسر الكلبي (الفرانقة) أنها الملائكة؛ وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم ورد عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ أَكْثَرَ الْأَلْهَةِ وَالْأَلْهَةَ الْأُولَىٰ﴾ (النجم: ٢٦)؛ فأنكر الله كل هذا من قولهم؛ ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأولوا المشركون على أن المراد بهذا الذكور الكهنة، ولبس عليهم الشيطان ذلك، وزينه في قلوبهم وألفاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للنيل، كما نسخ كثير من القرآن وزفت تلاوته؛ وكان في إنزال الله تعالى لتلك حكمة، وفي نسخه حكمة؛ ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ وما يضل به إلا الفاسقين، و﴿يَحْمِلُ مَا يُفْقَى الشَّيْطَانُ مِنَّةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَمٌ وَالْقَائِلَةُ قُلُوبُهُمْ وَلَهُ الْأَطْلَافُ لَنُفِي شِقَاقِي بَعِيدٍ﴾ (٢٧) ولعلهم الذين أوتوا آية الله الحق من ربك فبومؤا هو ففحت لم قلوبهم وإن الله لهم آية صراط مستقيم ﴿(الحج: ٥٢، ٥١)﴾.

وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ ذكر الآلات والغزى ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفار أن يأتي بشيء من فمها فسبقوا إلى غدجها بتلك الكلمتين ليحططوا في تلاوة النبي ﷺ، وشغبوا عليه على عاداتهم وقولهم: ﴿لَا تَسْمُوا مِنَّا فَرَكِي وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ (نصت: ٢٦).

ونسب هذا الفعل إلى الشيطان ليحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأن النبي ﷺ - قاله - فحزن لذلك من كذبهم وافتراءهم عليه، فسلأ الله تعالى بسفوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِنَّا نَنصُرُ أَقْلَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ الآية (الحج: ٥٢) وبين للناس الحق في ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكم آياته، ودفع ما لبس به العدو، وكما ضمه الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ مَرْكَزُ الذِّكْرِ وَإِنَّا لَمُحِيطُونَ﴾ (الجن: ١٩).

ومن ذلك ما روي من قصة يونس - عليه السلام - أنه غد قومه بالعذاب عن ربه، فلما تابوا، كشف عنهم العذاب، فقال: لا أزعج إليهم كذاباً أبداً، فذهب مغاضباً.

فاعلم - أكرمك الله - أنه ليس في خير من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يونس - عليه السلام - قال لهم: إن الله مهلككم، وإنما فيه أنه دعا عليهم بالهلاك؛ والدعاء ليس بخير يطلب صدقه من كذبه، لكنه قال لهم: إن العذاب مضحككم وقت كذا وكذا، فكان ذلك، كما قال؛ ثم رفع الله تعالى عنهم العذاب.

وَتَذَارِكُهُمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَعَابَ اَلْءِزْيِ فِي اَلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّا لَهُمْ ؕ﴾ [يونس: ٩٨].

١٥٧١م - وَرُوِيَ فِي الْاَخْبَارِ اَنَّهُمْ رَأَوْا دَلَائِلَ الْعَذَابِ وَمَحَابِلَهُ؛ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: غَشَاهُمُ الْعَذَابُ كَمَا يُغْشَى الثُّوبَ الْقَبْرِ.

١٥٧٢ - فَاِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى مَا رُوِيَ مِنْ اَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْحٍ كَانَ

يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا، وَصَارَ إِلَى قَرِيشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: اِنِّي كُنْتُ اَصْرَفَ مُحَمَّدًا حَيْثُ اُرِيدُ؛ كَانَ يُغْلِي عَلَيَّ «عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فَاَقُولُ اَوْ «عَلِيمٌ حَكِيمٌ» فيقول: «نَعَمْ؛ كُلُّ صَوَابٍ».

١٥٧٣ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: فيقول له النبي ﷺ: «اَكْتُبْ كَذَا» فيقول: اَكْتُبْ

كَذَا؟ فيقول: «اَكْتُبْ كَيْفَ شِئْتَ». ويقول: «اَكْتُبْ: عَلِيمًا حَكِيمًا» فيقول: اَكْتُبْ سَمِيعًا بَصِيرًا، فيقول له: «اَكْتُبْ كَيْفَ شِئْتَ».

١٥٧٤ - وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ اَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اَنَّ نَضْرَانِيًّا كَانَ يَكْتُبُ

لِلنَّبِيِّ ﷺ - بَعْدَ مَا اَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ كَافِرًا، وَكَانَ يَقُولُ: مَا يَذَرِي مُحَمَّدٌ اِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ [البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١)، احمد (٣/ ١٢٠-١٢١)].

فَاعْلَمْ - ثَبَّتْنَا اللَّهُ وَاِيَّاكَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا جَعَلَ لِلشَّيْطَانِ وَتَلْبِيسِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ عَلَيْنَا وَلَا اِلَيْنَا سَبِيلًا - اَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ اَوَّلًا لَا تُوقَعُ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ زُنْبًا؛ اِذْ هِيَ حِكَايَةُ عَمَّنْ ارْتَدَّ وَكَفَرَ بِاللَّهِ، وَنَحْنُ لَا نَقْبَلُ خَبَرَ الْمُسْلِمِ الْمُتَّهِمِ، فَكَيْفَ بِكَافِرٍ افْتَرَى هُوَ وَمِثْلُهُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا هُوَ اَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟

وَالْعَجَبُ لِسَلِيمِ الْعَقْلِ يَشْغَلُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ سِرَّهُ، وَقَدْ صَدَرَتْ مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ، مُبْغِضٍ لِلدِّينِ، مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَمْ يَرُدَّ عَنْ اَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا ذَكَرَ اَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ اَنَّهُ شَاهَدَ مَا قَالَهُ وَافْتَرَاهُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ و ﴿اِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِحَاثِثِ اللَّهِ وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

وَمَا وَقَعَ مِنْ ذِكْرِهَا فِي حَدِيثِ اَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَظَاهِرُ حِكَايَتِهَا؛ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ شَاهَدَهَا، وَلَعَلَّهُ حَكِيَ مَا سَمِعَ.

وَقَدْ غَلَّلَ الْبَرَّاءُ حَدِيثَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: رَوَاهُ ثَابِتٌ عَنْهُ، وَلَمْ يُتَابِعْ عَلَيْهِ؛ وَرَوَاهُ حُمَيْدٌ عَنْ اَنَسٍ، قَالَ: وَأَظُنُّ حُمَيْدًا اِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ ثَابِتٍ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - وَفَقَّهَ اللَّهُ -: وَلِهَذَا؛ وَاللَّهُ اَعْلَمُ، لَمْ يَخْرُجْ اَهْلُ الصَّحِيحِ حَدِيثَ ثَابِتٍ وَلَا حُمَيْدٍ [مسلم (٢٧٨١)، احمد (٣/ ١٢٠-١٢١)]. وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُقَيْعٍ عَنْ اَنَسٍ [البخاري (٣٦١٧)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي خَرَّجَهُ

أَهْلُ الصَّحَّةِ، وَذَكَرْنَاهُ، وَلَيْسَ فِيهِ عَنِ آتِسِ قَوْلُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ إِلَّا مِنْ حِكَايَتِهِ عَنِ الْمُزَنَّدِ النَّصْرَانِيِّ وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا كَانَ فِيهَا قَدْخٌ وَلَا تَوْهِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَا جَوَازٌ لِلنَّسِيَانِ وَالغَلْطِ عَلَيْهِ وَالتَّحْرِيفِ فِيمَا بُلِّغَهُ، وَلَا طَعْنٌ فِي نَظْمِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ - لَوْ صَحَّ - أَكْثَرُ مِنْ أَنَّ الْكَاتِبَ قَالَ لَهُ: عَلِيمٌ حَكِيمٌ - وَكُتِبَ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «كَذَلِكَ هُوَ»، فَسَبَقَهُ لِسَانُهُ أَوْ قَلَمُهُ لِكَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ مِمَّا نُزِّلَ عَلَى الرَّسُولِ قَبْلَ إِظْهَارِ الرَّسُولِ لَهَا؛ إِذْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا أَمْلَأَهُ الرَّسُولُ يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَيَقْتَضِي وَقُوعَهَا بِقُوَّةِ قُدْرَةِ الْكَاتِبِ عَلَى الْكَلَامِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَجُودَةِ جَسَمِهِ وَفِطْنَتِهِ، كَمَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ لِلْعَارِفِ إِذَا سَمِعَ وَلَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي جُمْلَةِ الْكَلَامِ، كَمَا لَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي آيَةٍ وَلَا سُورَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّ صَحَّ -: «كُلُّ صَوَابٍ» فَقَدْ يَكُونُ هَذَا فِيمَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَقَاطِعِ الْآيِ وَجْهَانِ وَقَرَأَتَانِ أَنْزَلْنَاهُ جَمِيعاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَلَى إِخْدَاهَا، وَتَوَصَّلَ الْكَاتِبُ بِفِطْنَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِمَقْتَضَى الْكَلَامِ إِلَى الْأُخْرَى، فَذَكَرَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَدَمْنَاهُ فَصَوَّبَهَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ ثُمَّ أَحْكَمَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحْكَمَ، وَنَسَخَ مَا نَسَخَ كَمَا قَدْ وَجَدَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَقَاطِعِ الْآيِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَفْزَحُوا وَلَا تَفْزَحُوا فَإِنَّكُمْ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وهذه قراءة الجمهور، وقد قرأ بعضهم، وهم جماعة: «فإنك أنت الغفور الرحيم». وليست من المصحف.

وكذلك كلمات جاءت على وجهين في غير المقاطع، قرأ بهما معاً الجمهور، وثبتت في المصحف، مثل: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] و﴿تُنْشِرُهَا﴾.

و﴿يَفْضُحُ الْحَقُّ﴾ و﴿يَقْصُرُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وكل هذا لا يوجب ريباً، ولا ينسب للنبي - ﷺ - غلطاً ولا وهماً.

وقد قيل: إن هذا يحتمل أن يكون فيما يكتبه عن النبي - ﷺ - الكاتب إلى الناس غير القرآن، فيصف الله ويسميه في ذلك كيف يشاء.

فصل

فِي خَالِهِ ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيَا

هذا القول فيما طريقه البلاغ، وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا تستند لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعاد، ولا تُضاف إلى وحي؛ بل في

أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَحْوَالِ نَفْسِهِ - فَالَّذِي يَجِبُ اغْتِقَاضُهُ تَنْزِيَهُ النَّبِيِّ ﷺ - عَنْ أَنْ يَقَعَ خَبْرُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِخِلَافِ مُخْبِرِهِ، لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا وَلَا غَلْطًا، وَأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ رِضَاهُ وَفِي سَخَطِهِ، وَجَدُّهُ وَمَرْجُوهُ وَصَحْتُهُ وَمَرْضِيُّهُ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ اتِّفَاقُ السَّلَفِ وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ أَنَا نَعْلَمُ مِنْ دِينِ الصَّحَابَةِ وَعَادَتِهِمْ مُبَادَرَتَهُمْ إِلَى تَصْدِيقِ جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَالثَّقَّةُ بِجَمِيعِ أَخْبَارِهِ فِي أَيِّ بَابٍ كَانَتْ، وَعَنْ أَيِّ شَيْءٍ وَقَعَتْ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَوَقُّفٌ وَلَا تَرَدُّدٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا اسْتِثْنَاءٌ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ ذَلِكَ؛ هَلْ وَقَعَ فِيهَا سَهْوٌ أَمْ لَا؟.

١٥٧٥ - وَلَمَّا احْتَجَّ ابْنُ أَبِي الْحَقِّيقِ الْيَهُودِي عَلَى عُمَرَ حِينَ أَجْلَاهُمْ مِنْ خَيْرٍ بِإِقْرَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - لَهُمْ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «كَيْفَ بَكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْرٍ؟» فَقَالَ الْيَهُودِي: كَانَتْ هَزِيلَةً مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ. فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ، يَا عَدُوَّ اللَّهِ! [البخاري (٢٧٣٠)].

وَأَيْضًا فَإِنَّ أَخْبَارَهُ وَأَنَاذَهُ وَسِيرَهُ وَشِمَائِلَهُ مُعْتَنَى بِهَا، مُسْتَفْصَى تَفَاصِيلُهَا، وَلَمْ يَرَدْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا اسْتِدْرَاكُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَغَلْطٍ فِي قَوْلٍ قَالَهُ، أَوْ اعْتِرَافُهُ بِوَهْمٍ فِي شَيْءٍ أَخْبَرَهُ بِهِ.

١٥٧٦ - وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لِنُقِيلٍ كَمَا نُقِيلُ مِنْ قِصَّتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي رَجُوعِهِ ﷺ - عَمَّا أَشَارَ بِهِ عَلَى الْأَنْصَارِ فِي تَلْقِيحِ النَّخْلِ - وَكَانَ ذَلِكَ رَأْيًا لَا خَبْرًا.

١٥٧٧ - وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «وَاللَّهِ! لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلْتُ الَّذِي حَلَفْتُ عَلَيْهِ وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي» [البخاري (٦٦٢٣)، مسلم (١٦٤٩)].

١٥٧٨ - وَقَوْلُهُ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ...» الْحَدِيثُ [البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)].

١٥٧٩ - وَقَوْلُهُ: «اسْتَقِ يَا زُبَيْرُ! حَتَّى يَبْلُغَ الْمَاءُ الْجَذْرَ» [البخاري (٢٣٥٩)، مسلم (٢٣٥٧)] كَمَا سَنُبَيِّنُ كُلَّ مَا فِي هَذَا مِنْ مُشْكِلٍ مَا فِي هَذَا الْبَابِ وَالَّذِي بَعْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مَعَ أَشْبَاهِهَا.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَذِبَ مَتَى عُرِفَ مِنْ أَحَدٍ، فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، بِخِلَافِ مَا هُوَ، عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ، اسْتَرْيَبَ بِخَبْرِهِ، وَأَثَبَهُمْ فِي حَدِيثِهِ، وَلَمْ يَقَعْ لِقَوْلِهِ فِي النُّفُوسِ مَوْقِعٌ، وَلِهَذَا مَا تَرَكَ الْمُحَدِّثُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْحَدِيثَ عَمَّنْ عُرِفَ بِالنَّوْهِمِ وَالْعَفْلَةِ وَسُوءِ الْحِفْظِ، وَكَثْرَةِ الْغَلْطِ، مَعَ ثِقَتِهِ.

وأيضاً فإنَّ تَعَمُّدَ الكَذِبِ في أمور الدنيا معصية والإكثار منه كبيرة بإجماع،
منقُطٌ للمروءة.

وكلُّ هذا مما يُنزِّه عنه قُصْبُ النبوة؛ والمرء الواحدُ منه فيما يُستنبِغُ
وَيُستَنَفَّعُ وَيُشَبِّعُ مِمَّا يُجَلُّ بِصاحبها، وَيُزَيَّرُ بِقاتلها لاحتِ بذلك.

وأما فيما لا يَقَعُ هذا الموقِعُ فإنَّ عَذَابَها من الصغائر فهل يجري على
حُكْمِها في الخلاف فيها؟ مختلف فيه. والصوابُ تَنْزِيهِ النبوة عن قلبه وكثيره،
سَهْوُهُ وَغَمْبُهُ؛ إذ عُمْدَةُ النبوة البلاغُ والإعلامُ والتَّشْيِيبُ، وتُضَدِّقُ ما جاء به
النَّبِيُّ ﷺ وتَجْوِزُ شَيْءٍ من هذا قَادِحٌ في ذلك، ومُشَكِّكٌ فيه، منافِضٌ للمعجزة؛
فللفِطْعِ عن يقينِ بَأَنه لا يجوز على الأنبياء خُلْفٌ في القول في وَجْهِ من الوجوه،
لا بَقْضٍ ولا بغير قُضْيٍ، ولا تَسَامُحٍ مع مَنْ سَامَحَ في تجويزِ ذلك عليهم حال
الشُّهُرِ فيما ليس طريقُهُ البلاغُ؛ نعم، وبأنه لا يجوزُ عليهم الكَذِبُ قبل النبوة، ولا
الانْتِسابُ به في أمورهم وأحوالهم؛ لأنَّ ذلك كان يُزَيَّرُ ويربَّبُ بهم وينفَرُ القلوبُ
عن تصديقهم بعدُ.

وانظُرْ إلى أحوالِ أهلِ غُضْرِ النَّبِيِّ ﷺ من فَرِيشٍ وغيرها من الأممِ ومُزَالِهِمِ
عن حاله في صِدْقِ لسانه، وما عُرِفُوا به من ذلك واعترفوا به مما عُرِفَ، واتَّفَقَ
أهلُ الثَّقَلِ على عِصْمَةِ نَبِيِّنَا ﷺ منه قَبْلُ وَبَعْدُ؛ وقد ذكرنا من الآثارِ فيه في البابِ
الثَّانِي أَوَّلَ الْكِتَابِ ما يَبَيِّنُ لك صِحَّةَ ما أضَرنا إليه.

فصل

فِي رَدِّ بَعْضِ الْاِغْتِرَاضَاتِ وَالشُّبْهِ، كَسَهْوِهِ ﷺ

فِي الصَّلَاةِ، وَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: إِنِّي سَقِيمٌ

١٥٨٠ - فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قوله - عليه السلام - في حديث الشهر الذي
حَدَّثَنَا به الفقيه أبو إسحاق: إبراهيم بن جعفر، قال: حدثنا القاضي أبو الأضغ بن
سهل، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو عبدالله بن الفخار، حدثنا أبو عيسى،
حدثنا عبيدالله، حدثنا يحيى، عن مالك، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان
مولي ابن أبي أحمد أنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: صلَّى
رسولُ الله ﷺ صلاةَ العصر، فسَلَّمَ في ركعتين، فقام ذو البَظَيْنِ، فقال: يا
رسولَ الله! أَقْصَرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ»
[مسلم (٩٩/٥٧٣)].

١٥٨١ - وفي الرواية الأخرى: «ما قُصِرَت الصلاة، وما نُسِيتُ» [البخاري (٤٨٢، ١٢٢٩، ٦٠٥١)]. الحديث بقصته؛ فأخبره بِنُفي الحالتين، وأنها لم تكن؛ وقد كان أحد ذلك، كما قال ذو اليدين: قد كان بعض ذلك يا رسول الله! فاعلم - وفقنا الله وإياك - أنَّ للعلماء في ذلك أجوبة، بعضها بضد الإنصاف؛ ومنها ما هو بينة التعسف والاعتساف؛ وها أنا أقول:

أما على القول بتجوز الوهم والغلط فيما ليس طريقه من القول البلاغ، وهو الذي زيفناه من القولين - فلا اعتراض بهذا الحديث وشبهه.

وأما على مذهب من يمنع الشهر والنسيان في أفعاله جملة، ويرى أنه في مثل هذا عامد لصورة النسيان ليس، فهو صادق في خبره؛ لأنه لم ينس ولا قُصِرَت، ولكنه على هذا القول تعمّد هذا الفعل في هذه الصورة ليست له لمن اعتراه مثله؛ وهو قول مرغوب عنه، ونذكره في موضعه.

وأما على إحالة الشهر عليه في الأقوال وتجوز الشهر عليه فيما ليس طريقه القول - كما سنذكره - ففيه أجوبة.

منها: أنَّ النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره؛ أما إنكار القصر فحق وصدق باطناً وظاهراً. وأما النسيان فأخبر - ﷺ - عن اعتقاده، وأنه لم ينس في ظنه؛ فكانه قصد الخبر بهذا عن ظنه وإن لم ينطق به؛ وهذا صدق أيضاً.

ووجه ثان: أنَّ قوله: «ولم أنس» راجع إلى السلام: أي إني سلمت قُصداً، وسهوت عن العدد، أي لم أنسه في نفس السلام؛ وهذا محتمل؛ وفيه بُعد.

ووجه ثالث: - وهو أبعدُها - ما ذهب إليه بعضهم، وإن احتمله اللفظ من قوله: «كل ذلك لم يكن»: أي لم يجتمع القصر والنسيان؛ بل كان أحدهما ومفهوم اللفظ خلافه، مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قوله: «ما قُصِرَت الصلاة وما نُسِيتُ».

هذا ما رأيت فيه لأثمتنا؛ وكل من هذه الوجوه محتمل للفظ على بُعد بعضها، وتعسف الآخر منها.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: والذي أقول - ويظهر لي أنه أقرب من هذه الوجوه كلها -: أنَّ قوله ﷺ: «لم أنس» إنكار للفظ الذي نفاه عن نفسه.

١٥٨٢ - وأنكره على غيره بقوله: «بئس ما لأحدكم أن يقول: نُسِيتُ آية كذا وكذا، ولكنه نُسِيَ» [البخاري (٥٠٣٢)، مسلم (٧٩٠)].

١٥٨٣ - ويقول في بعض روايات الحديث الآخر: «لَسْتُ أَنْسِي، ولكن

أَنْسَى. فلما قَالَ لَهُ السَّائِلُ: أَقْصِرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ أَنْكَرَ قَضَرَهَا كَمَا كَانَ، وَنَسِيَانَهُ هُوَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، وَإِنَّ كَانَ جَرَى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ نُسِيَ حَتَّى سَالَ غَيْرُهُ؛ فَتَحَقَّقَ أَنَّهُ نُسِيَ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِيَسُنَّ؛ فَقَوْلُهُ عَلَى هَذَا: «لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصِرْ» أَوْ «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» صِدْقٌ وَحَقٌّ؛ لَمْ تُقْصِرْ، وَلَمْ يَنْسَ حَقِيقَةً، وَلَكِنَّهُ نُسِيَ.

وَوَجْهٌ آخَرُ اسْتَشْرَفْتُهُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْمَشَائِخِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْسَهُوْهُ وَلَا يَنْسَى؛ وَلِذَلِكَ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ النَّسِيَانَ؛ قَالَ: لِأَنَّ النَّسِيَانَ غَفْلَةٌ وَأَفَةٌ؛ وَالسُّهُوْهُ إِنَّمَا هُوَ شُغْلٌ بِالِإِيقَاتِ. فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْسَهُوْهُ فِي صَلَاتِهِ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهَا؛ وَكَانَ يَشْغَلُهُ عَنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ مَا فِي الصَّلَاةِ؛ شُغْلًا بِهَا، لَا غَفْلَةً عَنْهَا. فَهَذَا - إِنْ تَحَقَّقَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى - لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ: «مَا قُصِرَتْ الصَّلَاةُ وَلَا نَسِيتُ» خُلْفٌ فِي قَوْلِهِ.

وَعِنْدِي أَنَّ قَوْلَهُ: «مَا قُصِرَتْ الصَّلَاةُ وَمَا نَسِيتُ» بِمَعْنَى التَّزَكُّ الَّذِي هُوَ أَخَذَ وَجْهِي النَّسِيَانَ؛ أَرَادَ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ -: إِنِّي لَمْ أَسْلَمْ مِنْ رَكْعَتَيْنِ تَارِكًا لِإِكْمَالِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنِّي نَسِيتُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي.

١٥٨٤ - وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنِّي لَا أَنْسَى، أَوْ أَنْسَى لِأَسُنَّ».

١٥٨٥ - وَأَمَّا قِصَّةُ كَلِمَاتِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا كَذِبَاتُهُ الثَّلَاثُ [الْبُخَارِيُّ (٣٣٥٧)، مُسْلِمٌ (٢٣٧١)]، الْمَنْصُوصَةُ، فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا اثْنَتَانِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٨٩] وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمُنِيبُ قُلْ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبِيرُكُمْ هَذَا﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٦٢، ٦٣]. وَقَوْلُهُ لِلْمَلِكِ عَنْ زَوْجَتِهِ: «إِنِّهَا أُخْتِي» فَاعْلَمْ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا خَارِجَةٌ عَنِ الْكُذْبِ؛ لَا فِي الْقَضْدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ؛ وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْمَعَارِضِ الَّتِي فِيهَا مَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكُذْبِ.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - فَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: سَأْسَقِمُ؛ أَيِ إِنْ كُلُّ مَخْلُوقٍ مَعْرُضٌ لَذَلِكَ، فَاعْتَذِرْ لِقَوْمِهِ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ إِلَى عِيدِهِمْ بِهَذَا.

وَقِيلَ: بَلْ سَقِيمٌ بِمَا قُدِّرَ عَلَيَّ مِنَ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: سَقِيمٌ الْقَلْبُ بِمَا أَشَاهَدُهُ مِنْ كُفْرِكُمْ وَعِنَادِكُمْ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَتْ الْحُمَى تَأْخُذُهُ عِنْدَ طُلُوعِ نَجْمٍ مَعْلُومٍ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ، قَالَ هَذَا،

اعْتَذَرَ بِعَادَتِهِ.

وكلُّ هذا ليس فيه كَذِبٌ؛ بل هو خَبَرٌ صحيحٌ صدق.

وقيل: بل عَرَضَ بسقمِ حجته عليهم، وَضَعَفَ ما أراد بيانه لهم مِنْ جهة النجوم التي كانوا يشتغلون بها، وأنه أثناء نظره في ذلك، وَقَبْلَ استقامةِ حجته عليهم في حال سَقَمٍ وَمَرَضٍ حال، مع أنه لم يشك هو ولا ضَعَفَ إيمانه، ولكنه ضَعَفَ في استدلاله عليهم وسقم نظره، كما يُقال: حُجَّةٌ سَقِيمَةٌ، ونَظَرٌ معلول، حتى ألهمه الله باستدلاله وصحةِ حجته عليهم بالكوكب والشمس والقمر - ما نَصَّه الله تعالى - وقد قَدَّمنا بيانه.

وأما قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوُهُمْ إِنْ كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فإنه علَّقَ خَبْرَهُ بِشَرْطِ نطقه، كأنه قال: إِنْ كَانَ يَنْطِقُ فهو فَعَلَهُ على طريق التبكيت لقومه. وهذا صدقٌ أيضاً، ولا خُلْفَ فيه.

وأما قوله: «أختي» فقد بَيَّن في الحديث، وقال: «فإنك أختي في الإسلام» وهو صدقٌ؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات: ١٠].

١٥٨٦ - فَإِنْ قُلْتَ: فهذا النبي ﷺ قد سَمَّاها كَذِبَات، وقال: «لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كَذِبَاتٍ».

١٥٨٧ - وقال في حديث الشفاعة: «ويذكر كذباته» [البخاري (٤٧١٢)]، مسلم (١٩٤) فمعناه: أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب - وإن كان حقاً في الباطن - إلا هذه الكلمات.

ولمَّا كان مفهومُ ظاهرها خلافَ باطنها أشفق إبراهيم - عليه السلام - مِنْ مؤاخذته بها.

١٥٨٨ - وأما الحديث: «كان النبي ﷺ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَى بِغَيْرِهَا» [البخاري (٢٩٤٨)]، مسلم (٥٤/٢٧٦٩) فليس فيه خُلْفٌ في القَوْل؛ إنما هو سَتْرٌ مَقْصُودُهُ، لئلا يأخذُ عدوُّه جذره؛ وَكَتَمَ وَجْهَ ذهابه بِذِكْرِ السَّوَالِ عَنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، والبحث عن أخباره والتَّغْرِيبُ بِذِكْرِهِ، لا أَنَّهُ يَقُولُ: تَجَهَّزُوا إِلَى غَزْوَةٍ كَذَا، أَوْ وَجْهَتُنَا إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا خِلَافَ مَقْصِدِهِ؛ فهذا لم يَكُنْ؛ والأوَّلُ ليس فيه خَبَرٌ يَدْخُلُهُ الخُلْفُ.

١٥٨٩ - فَإِنْ قُلْتَ: فما معنى قولِ موسى - عليه السلام - وقد سُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ؛ فَعَيَّبَ الله عليه ذلك؛ إِذْ لَمْ يَزِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ» الحديث [البخاري (١٢٢)]، مسلم (٢٣٨٠)؛ وفيه قال: «بل عَبَدْنَا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَعْلَمُ مِنْكَ».

وهذا خَبَرٌ قد أنبأ الله أنه ليس كذلك.

١٥٩٠ - فاعلم أنه قد وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة، عن ابن عباس: «هل تعلم أحدا أعلم منك؟».

فإذا كان جوابه على علمه فهو خبرٌ حقٌ وصدقٌ ولا خُلف فيه ولا شبهة. وعلى الطريق الآخر فمُخبره على قُتبه ومُعتقده، كما لو صرَّح به؛ لأنَّ حاله في النبوة والاصطفاء يقتضي ذلك؛ فيكون إخباره بذلك أيضاً عن اعتقاده وجوابه صدقاً لا خُلف فيه.

وقد يُريد بقوله: «أنا أعلم» بما تقتضيه وظائف النبوة من علوم التوحيد، وأمر الشريعة، وسباسة الأمة، ويكون الخُبر أعلم منه بأمور آخر مما لا يعلمه أحد إلا بإعلام الله من علوم غيبه؛ كالقصص المذكورة في خبرهما، فكان موسى عليه السلام أعلم على الجملة بما تقدّم. وهذا أعلم على الخصوص بما أعلم به. ونُذِلَ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥).

وغُتِبَ الله ذلك عليه - فيما قاله العلماء - إنكار هذا القول عليه، لأنه لم يَزِدْ العِلْمَ إليه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (البقرة: ٣٢)، أو لأنه لم يَرْضَ قوله شراً، وذلك - والله أعلم - لنَّلا يُقْتَدِي به فيه مَنْ لم يَبْلُغْ كماله في تزكية نفسه وعلو درجته من أمته؛ فيهلك لما تضمنه من مذبح الإنسان نفسه؛ ويُورثه ذلك من الكبر والعُجب والتعاطي والدعوى؛ وإن نُزِرَ عن هذه الرذائل الأنبياء فغيرهم بمذرجة سبيلها وفرك ليلها إلا مَنْ عصمه الله؛ فالتحفظ منها أولى لنفسه، ولْيُقْتَدَى به.

١٥٩١ - ولذا قال - عليه السلام - تحفظاً من بطل هذا مما قد أعلم به: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر».

وهذا الحديث إخذى خُنج القائلين بنبوة الخُضر - عليه السلام - لقوله فيه: «أنا أعلم من موسى». ولا يكون الولي أعلم من النبي. بل النبي أعلم من الولي. فأما الأنبياء فيفاضلون في المعارف.

ويقوله: ﴿وَمَا قَلَّمْتُ عَنْ أَمْرِي﴾ (الكهف: ٨٧)؛ فدلَّ أنه بوحى. ومن قال: إنه ليس بنبي قال: يحتمل أن يكون فعله بأمر نبي آخر.

وهذا يَضَعُف؛ لأنه ما علمنا أنه كان في زمن موسى - عليه السلام - نبي غيره إلا أخاه هارون؛ وما نقل أحد من أهل الأخبار في ذلك شيئاً يُعَوَّل عليه.

وإذا جعلنا: «أعلم منك» ليس على العموم؛ وإنما هو على الخصوص، وفي قضايا مُعَيَّنة - لم يَخُجْ إلى إثبات نبوة الخُضر؛ ولهذا قال بعضُ الشيوخ:

كان موسى أعلم من الخَضِرِ فيما أخذ عن الله، والخَضِرُ أعلمُ فيما دُفِعَ إليه من موسى.

وقال آخر: إنما أُلْحِيَءَ موسى إلى الخَضِرِ للتأديب لا للتعليم.

فصل

فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ

وأما ما يتعلقُ بِالْجَوَارِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ، ولا يخرجُ من جُمْلَتِهَا الْقَوْلُ بِاللِّسَانِ فيما عدا الْخَبَرِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْكَلَامُ وَالْإِعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ فيما عدا التَّوْحِيدِ، وما قَدَمْنَاهُ مِنْ مَعَارِفِهِ الْمُخْتَصَةِ بِهِ فَاجْمَعِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْكِبَائِرِ الْمَوْقُوتَاتِ. ومُسْتَدَّ الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ الْإِجْمَاعُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

وهو مَذْهَبُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ؛ وَمَنْعُهَا غَيْرُهُ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ مَعَ الْإِجْمَاعِ؛ وَهُوَ قَوْلُ الْكَافَّةِ، وَاخْتَارَهُ الْأَسَاطِذُ أَبُو إِسْحَاقَ.

وكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كِثْمَانِ الرِّسَالَةِ وَالتَّقْصِيرِ فِي التَّبْلِيغِ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ تَقْتَضِي الْعِصْمَةَ مِنْهُ الْمَعْجُزَةُ، مَعَ الْإِجْمَاعِ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْكَافَّةِ.

وَالْجُمْهُورُ قَائِلُونَ: بِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، مَعْصُومُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَكُتُبِهِمْ، إِلَّا حُسَيْنًا النَّجَارَ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي أَصْلًا.

وَأَمَّا الصَّغَائِرُ فَجُوزَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ. وَسُورِدَ بَعْدَ هَذَا مَا احْتَجُّوا بِهِ.

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى إِلَى الْوَقْفِ، وَقَالُوا: الْعَقْلُ لَا يُحِيلُ وَقَوَّعَهَا مِنْهُمْ؛ وَلَمْ يَأْتِ فِي الشَّرْعِ قَاطِعٌ بِأَحَدِ الرَّجْهَيْنِ.

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى عِصْمَتِهِمْ مِنَ الصَّغَائِرِ كِعِصْمَتِهِمْ مِنَ الْكِبَائِرِ؛ قَالُوا: لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي الصَّغَائِرِ وَتَغْيِينِهَا مِنَ الْكِبَائِرِ وَإِشْكَالِ ذَلِكَ، وَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: إِنْ كُلُّ مَا عُصِيَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَإِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ مِنْهَا الصَّغِيرَةُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ؛ وَمُخَالَفَةُ الْبَارِي فِي أَيِّ أَمْرٍ كَانَ، يَجِبُ كَوْنُهُ كَبِيرَةً.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ: عَبْدُ الْوَهَّابِ: لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فِي مَعَاصِي اللَّهِ صَغِيرَةً إِلَّا عَلَى مَعْنَى أَنَّهَا تُعْتَقَرُ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَلَا يَكُونُ لَهَا حُكْمٌ مَعَ ذَلِكَ،

بخلاف الكبائر إذا لم يَتَّب منها فلا يُحِطُها شيء. والمشيئة في العفو عنها إلى الله تعالى؛ وهو قول القاضي أبي بكر وجماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء. قال القاضي رحمه الله: وقال بعض أئمتنا: ولا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛ إذ يلحقها ذلك بالكبائر؛ ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة، وأسقطت المروءة، وأوجبت الإزراء والخساسة؛ فهذا أيضاً مما يعصم عنه الأنبياء إجماعاً؛ لأن مثل هذه يحط منصبه المُنَّس به، ويُرَى بصاحبه، ويُفَرِّق القلوب عنه؛ والأنبياء منزّهون عن ذلك. بل يُلْحَق بهذا ما كان من قبيل المباح؛ فأدى إلى مثله؛ لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الخطر.

وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم من مَوَاقِع المَكروه قَصْداً. وقد استدَلَّ بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمَصير إلى امتثال أفعالهم، واتباع آثارهم وسيرهم مطلقاً.

وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة من غير التزام قرينة، بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حُكْم ذلك.

وحكى ابنُ خُوَيزَمَنَّاذ، وأبو الفرج عن مالك، التزام ذلك وجوباً، وهو قول الأبهري وابن القصار وأكثر أصحابنا.

وقول أكثر أهل العراق، وابن سريج، والإضطخري، وابن خيران من الشافعية. وأكثر الشافعية على أن ذلك نَذْب.

وذهبت طائفة إلى الإباحة.

وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعُلِمَ به مَقْصِدُ القُرْبة. ومن قال بالإباحة في أفعاله لم يَقْيد. قال: فلو جَوَّزنا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم؛ إذ ليس كلُّ فِعْلٍ من أفعاله يَتِمُّزُ مَقْصِدُهُ من القُرْبة أو الإباحة، أو الخطر، أو المعصية. ولا يصح أن يُؤَمَّرَ المرءُ بامتنال أمرٍ لعلَّه معصية. لا سيما على مَنْ يَرَى تقدِيمَ الفعل على القول إذا تعارضاً من الأصوليين.

ونزيدُ هذا حجةً بأن نقول: مَنْ جَوَّز الصغائر وَمَنْ نَفَاها عن نَبِيِّنا - عليه السلام - مُجْمِعُونَ على أنه لا يَقْرَأُ على مُنْكَرٍ مِنْ قولٍ، أو فِعْلٍ، وأنه متى رأى شيئاً، فسكت عنه - ﷺ - دَلَّ على جوازِهِ، فكيف يكون هذا حاله في حق غيره، ثم يجوز وقوعه منه في نفسه؟!.

وعلى هذا المآخذ تجب عصمتهم من مُواقعة المكروه، كما قيل. وإذ
الحظر أو التذنب على الاقتداء بفعله يُنافي الزجر والنهي عن فعل المكروه.
وأيضاً قد عُلِمَ مِنْ دين الصحابة قطعاً الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف
توجّهت، وفي كل فن كالاقتداء بأقواله.

١٥٩٢ - فقد تَبَدَّوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه [البخاري (٦٦٥١)، مسلم
(٢٠٩١)].

١٥٩٣ - وخلعوا نعالهم حين خلع نعله [أبو داود (٦٥٠)].

١٥٩٤ - واحتجاجهم برؤية ابنِ عمر إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت
المقدس [البخاري (١٤٥)، مسلم (٢٦٦)].

واحتجَّ غَيْرُ واحدٍ منهم في غير شيء مما بابه العبادة أو العادة بقوله: رأيتُ
النبي ﷺ - يفعله.

١٥٩٥ - وقال: «هَلَّا خَبَرْتِهَا أَنِّي أَقْبَلُ وَأَنَا صَائِمٌ».

١٥٩٦ - وقالت عائشة - محتجَّةٌ -: كنت أفعله أنا ورسولُ الله ﷺ [الترمذي
(١٠٨)].

١٥٩٧ - وغَضِبَ - عليه السلام - على الذي أَخْبَرَ بمثل هذه عنه؛ فقال:
يُحِلُّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مَا يَشَاءُ وَقَالَ: «إِنِّي لِأَخْشَاكُم لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِهِ».

والآثارُ في هذا أعظم من أَنْ تُحِيطَ عليها، لكنه يُعْلَمُ مِنْ مجموعها على
القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها، ولو جَوَّزُوا عليه المخالفة في شيء منها لما
اتَّسَقَ هذا، وَلَثِقَلْ عنهم وظهر بَخْثُهُمْ عن ذلك، وَلَمَّا أَنْكَرَ - عليه السلام - على
الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائزٌ وقوعها منهم؛ إذ ليس فيها قَذْحٌ، بل هي مَأْذُونٌ فيها،
وأيديهم كأيدي غيرهم مَسْلُطَةٌ عليها، إلا أَنَّهُمْ بما خُصُّوا به من رَفِيعِ المنزلة،
وَشَرِحَتْ لَهُ صُدُورُهُمْ مِنْ أَنْوَارِ المعرفة، وَاضْطَفُّوا بِهِ مِنْ تَعَلُّقِ الهمم بالله والدارِ
الآخرة، لا يَأْخُذُونَ مِنَ المباحات إِلَّا الضَّرُورَاتُ مِمَّا يَتَقَرَّوْنَ بِهِ عَلَى سُلُوكِ
طَرِيقِهِمْ، وَصَلاحِ دِينِهِمْ، وَضَرُورَةِ دُنْيَاهُمْ، وَمَا أُخِذَ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ التَّحَقُّقِ
بِطَاعَةٍ، وَصَارَ قُرْبَةً، كَمَا بَيَّنَّا مِنْهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ طَرَفًا فِي خِصَالِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛
فَبَانَ لَكَ عَظِيمُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
بِأَنْ جَعَلَ أَعْمَالَهُمْ قُرْبَاتٍ وَطَاعَاتٍ بَعِيدَةً عَنْ وَجْهِ الْمَخَالَفَةِ وَرَسْمِ الْمَعْصِيَةِ.

فصل

فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَ النُّبُوَّةِ

وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة؛ فمنعها قوم، وجوزها آخرون. والصحيح - إن شاء الله - تنزيههم من كل عيب، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب؛ فكيف والمسألة تصورها كالمُنتنِع؛ فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع.

وقد اختلف الناس في حال نبينا - عليه السلام - قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ؛ هل كان مُتَّبِعاً لِشَرْعٍ قَبْلَهُ أم لا؟ فقال جماعة: لم يكن مُتَّبِعاً لشيء؛ وهذا قول الجمهور؛ فالمعاصي على هذا القول غَيْرُ موجودةٍ ولا مُعْتَبَرةٍ فِي حَقِّهِ حِينَئِذٍ؛ إِذْ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَتَقَرَّرُ الشَّرِيعَةُ.

ثم اختلفت خُجَجُ الْقَائِلِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ عَلَيْهَا؛ فَذَهَبَ سَيْفُ السَّنَةِ، وَمُقْتَدَى فِرْقِ الْأُمَّةِ، الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ إِلَى أَنَّ طَرِيقَ الْعِلْمِ بِذَلِكَ الثَّقَلُ، وَمَوَارِدُ الْخَبَرِ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ؛ وَحُجَّتُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لِثَقُلٍ، وَلَمَّا أَمَكْنَ كُنْهَهُ وَسَتْرُهُ فِي الْعَادَةِ؛ إِذْ كَانَ مِنْ مُهِمِّ أَمْرِهِ؛ وَأَوَّلَى مَا اهْتَبَلَ بِهِ مِنْ سِيرَتِهِ، وَلَفْخَرٍ بِهِ أَهْلُ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ، وَلَا خُجُوعَ بِهِ عَلَيْهِ؛ وَلَمْ يُؤْثَرْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ جَمَلَةً.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً؛ قالوا: لأنه يَنبَغُ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعاً مَنْ عُرِفَ تَابِعاً؛ وَبَنُوا هَذَا عَلَى التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ؛ وَهِيَ طَرِيقَةٌ غَيْرُ سَدِيدَةٍ؛ وَاسْتِنَادَ ذَلِكَ إِلَى الثَّقَلِ - كَمَا تَقَدَّمَ لِلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ - أَوَّلَى وَأَظْهَرُ.

وقالت فرقة أخرى بالوَقْفِ فِي أَمْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَرْكِ قَطْعِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ يُجَلَّ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ مِنْهَا الْعَقْلُ، وَلَا اسْتِبَانٌ عِنْدَنَا فِي أَحَدِهِمَا طَرِيقُ الثَّقَلِ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي الْمَعَالِي.

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان عاملاً بِشَرْعٍ مِّنْ قَبْلِهِ؛ ثُمَّ اخْتَلَفُوا: هَلْ يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الشَّرْعُ أَمْ لَا؟ فَوَقَفَ بَعْضُهُمْ عَنِ تَعْيِينِهِ، وَأَخْجَمَ، وَجَسَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى التَّعْيِينِ وَصَنَّم.

ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يَتَّبِعُ؛ فَقِيلَ: نُوحٌ، وَقِيلَ: إِبْرَاهِيمُ، وَقِيلَ: مُوسَى، وَقِيلَ: عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة.

وَالْأَظْهَرُ فِيهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَبْعَدُهَا مَذَاهِبُ الْمَعْيُنِينَ؛ إِذْ

لو كان شيء من ذلك لثِقَلَ كما قَدَمْنَا، ولم يَخَفْ جملة؛ ولا حجة لهم في أن عيسى آخِرُ الأنبياء، فلزمت شريعته من جاء بعدها؛ إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ؛ ولا حجة أيضاً للآخرين في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ولا للآخرين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]، فتَحْمِلُ هذه الآية على اتباعهم في التوحيد؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكُمُ الدِّينُ هَدَى اللَّهُ فُتْهُمْ أَقْدَرُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد سَمِيَ الله تعالى فيهم مَنْ لم يُبْعَثْ، ولم يَكُنْ له شريعة تخصه؛ كيوسف بن يعقوب على قول مَنْ يقول: إنه ليس برسول.

وقد سَمِيَ الله تعالى جماعة منهم في هذه الآية شرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها؛ فدل أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى. وبَعْدَ هذا؛ فهل يلزم مَنْ قال بمنع الاتباع هذا القول في سائر الأنبياء غير نبينا ﷺ، أو يخالفون بينهم؟

أما مَنْ مَنَعَ الاتباع عقلاً فيطرُدْ أضله في كلِّ رسولٍ بلا مزية. وأما مَنْ قال إلى الثقل فأينما تصوّر له وتقرّر اتّبعه.

ومن قال بالوقف فعلى أضله، ومن قال بوجوب الاتباع لمن قبله يلتزمه بمساق حُجَّتِهِ في كل نبي.

فصل

في حكم السهو والنسيان في الوظائف الشرعية

هذا حكم ما تكون المخالفة فيه من الأعمال عن قصد؛ وهو ما يسمى مغصية، ويدخل تحت التكليف. وأما ما يكون بغير قصد وتعمد، كالسهو والنسيان في الوظائف الشرعية، مما تقرّر الشرع بعدم تعلّق الخطاب به، وترك المؤاخذه عليه؛ فأحوال الأنبياء - عليهم السلام - في ترك المؤاخذه به، وكونه ليس بمغصية لهم مع أمهم سواء. ثم ذلك على نوعين: ما طريقه البلاغ، وتقرير الشرع، وتعلّق الأحكام، وتعليم الأمة بالفعل، وأخذهم باتباعه فيه، وما هو خارج عن هذا مما يخصّ بنفسه.

أما الأول: فحكمه عند جماعة من العلماء حكم السهو في القول في هذا الباب، وقد ذكرنا الاتفاق على امتناع ذلك في حق النبي ﷺ، وعِظْمَتِهِ مِنْ

جوازِهِ عَلَيْهِ قَضَاءٌ أَوْ سَهْوٌ؛ وَكَذَلِكَ قَالُوا: الْأَفْعَالُ فِي هَذَا الْبَابِ لَا يَجُوزُ طَرُؤُ
الْمُخَالَفَةِ فِيهَا لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا؛ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى الْقَوْلِ مِنْ جِهَةِ التَّبْلِيغِ وَالْإِدَاءِ،
وَطَرَوْ هَذِهِ الْعَوَارِضُ عَلَيْهَا يُوجِبُ التَّشْكِيكَ، وَيَسَبُّبُ الْمَطَاعِينَ.

وَاعْتَدَرُوا عَنْ أَحَادِيثِ السَّهْوِ بِتَوَجُّهَاتٍ نَذَرُهَا بَعْدَ هَذَا. وَإِلَى هَذَا مَالُ أَبُو
إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِي.

وَذَهَبَ الْأَكْثَرُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى أَنَّ الْمُخَالَفَةَ فِي الْأَفْعَالِ الْبَلَاغِيَةِ
وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَةِ - سَهْوٌ وَعَنْ غَيْرِ قَضَاءٍ مِنْهُ - جَائِزَةٌ عَلَيْهِ، كَمَا تَقَرَّرَ مِنْ أَحَادِيثِ
السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ؛ وَفَرَّقُوا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْأَقْوَالِ الْبَلَاغِيَةِ لِقِيَامِ الْمَعْجِزَةِ عَلَى
الصَّدَقِ فِي الْقَوْلِ، وَمُخَالَفَتِهِ ذَلِكَ يَنَاقِضُهَا.

وَأَمَّا السَّهْوُ فِي الْأَفْعَالِ فَغَيْرُ مُنَاقِضٍ لَهَا، وَلَا قَادِحٍ فِي النُّبُوَّةِ، بَلْ غَلَطَاتُ
الْفِعْلِ وَغَفَلَاتُ الْقَلْبِ مِنْ سِمَاتِ الْبَشَرِ.

١٥٩٨ - كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أُنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا
نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» [الْبَخَارِيُّ (٤٠١)، مُسْلِمٌ (٥٧٢)].

١٥٩٩ - نَعَمْ، بَلْ حَالَةُ النِّسْيَانِ وَالسَّهْوِ - هُنَا - فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبَبٌ
إِفَادَةٍ عِلْمٍ، وَتَقْرِيرِ شَرْعٍ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَنْسَى - أَوْ أُنْسَى -
لَأَنْسَ».

١٦٠٠ - بَلْ قَدْ رُوِيَ: «لَسْتُ أَنْسَى، وَلَكِنْ أُنْسَى لَأَنْسَ».

وَهَذِهِ الْحَالَةُ زِيَادَةٌ لَهُ فِي التَّبْلِيغِ، وَتِمَامٌ عَلَيْهِ فِي النِّعْمَةِ، بَعِيدَةٌ عَنْ سِمَاتِ
النُّقْصِ، وَاعْتِرَاضُ الطُّغْنِ؛ فَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِتَجْوِيزِ ذَلِكَ يَشْتَرِطُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقَرُّ
عَلَى السَّهْوِ وَالْغَلَطِ؛ بَلْ يَنْبَهُونَ عَلَيْهِ، وَيُعَرِّفُونَ حُكْمَهُ بِالْقَوْرِ - عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ -
وَهُوَ الصَّحِيحُ وَقَبْلَ انْتِرَاضِهِمْ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِينَ.

وَأَمَّا مَا لَيْسَ طَرِيقُهُ الْبَلَاغُ، وَلَا بَيَانُ الْأَحْكَامِ مِنْ أَفْعَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا
يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ أُمُورٍ دِينِيَّةٍ، وَأَذْكَارٍ قَلْبِيَّةٍ، مِمَّا لَمْ يَقَعْلَهُ لِيَتَّبِعْ فِيهِ، فَالْأَكْثَرُ مِنْ طَبَقَاتِ
عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِ السَّهْوِ وَالْغَلَطِ عَلَيْهِ فِيهَا، وَلِحُوقِ الْفَتَرَاتِ، وَالْغَفَلَاتِ
بِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ بِمَا كُتِّفَهُ مِنْ مِقَاسَةِ الْخَلْقِ، وَسِيَاسَاتِ الْأُمَّةِ، وَمَعَانَاةِ الْأَهْلِ،
وَمُلَاحَظَةِ الْأَعْدَاءِ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ التَّكْرَارِ، وَلَا الْإِتِّصَالِ؛ بَلْ عَلَى
سَبِيلِ التَّنْذِيرِ.

١٦٠١ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهُ لِيَفْأَنُ عَلَى قَلْبِي، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

وَلَيْسَ فِي هَذَا شَيْءٌ يَخْطُ مِنْ رُتْبَتِهِ وَيُنَاقِضُ مَعْجِزَتَهُ.

وذهبت طائفة إلى مَنع السَّهْوِ، والنَّسيان، والغَفَلات، والفَقَرَات في حقِّه - عليه السلام - جملةً.

وهو مذهب جماعة المتصوِّفة وأصحاب عِلْم القلوب والمقامات، ولهم في هذه الأحاديث مذاهبٌ نذكرها - إن شاء الله - بَعْدُ.

فصل

فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورِ

فِيهَا السَّهْوُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قد قَدَّمْنَا فِي الْفصول قبل هذا ما يَجُوزُ فِيهِ عَلَيْهِ السَّهْوُ - عليه السلام - وما يَمْتَنِعُ، وَأَحَلَّنَاهُ فِي الْأَخْبَارِ جَمْلَةً، وَفِي الْأَقْوَالِ الدِّينِيَّةِ قُطْعًا، وَأَجْزَأًا وَقَوَعَهُ فِي الْأَفْعَالِ الدِّينِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي رَتَّبْنَاهُ، وَأَشْرْنَا إِلَى مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ؛ وَنَحْنُ نَبْسُطُ الْقَوْلَ فِيهِ هَا هُنَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَنَقُولُ: الصَّحِيحُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي سَهْوِهِ - عليه السلام - فِي الصَّلَاةِ ثَلَاثَةُ أَحَادِيثَ:

١٦٠٢ - أَوَّلُهَا: حَدِيثُ ذِي الْيَدَيْنِ فِي السَّلَامِ مِنْ اثْنَتَيْنِ.

١٦٠٣ - الثَّانِي: حَدِيثُ ابْنِ بُحَيْنَةَ فِي الْقِيَامِ مِنْ اثْنَتَيْنِ [البخاري (٨٢٩)، مسلم (٥٧٠)].

١٦٠٤ - الثَّالِثُ: حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى

الظَّهْرَ خَمْسًا [البخاري (١٢٣٦)، مسلم (٥٧٢/٩١)].

وهذه الأحاديثُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى السَّهْوِ فِي الْفِعْلِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِيهِ لِيَسْتَنَّ بِهِ، إِذَا الْبَلَغَ بِالْفِعْلِ أَجَلِيَّ مِنْهُ بِالْقَوْلِ، وَأَرْفَعَ للاحْتِمَالِ؛ وَشَرْطُهُ أَنَّهُ لَا يُقَرَّرُ عَلَى السَّهْوِ؛ بَلْ يُشْعَرُ بِهِ لِيَرْتَفِعَ الْإِلْتِبَاسُ، وَتَظْهَرَ فَائِدَةُ الْحِكْمَةِ فِيهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ؛ وَإِنْ النِّسيانَ وَالسَّهْوَ فِي الْفِعْلِ فِي حَقِّهِ - عليه السلام - غَيْرُ مُضَادٍّ لِلْمَعْجِزَةِ، وَلَا قَادِحٍ فِي التَّصَدِيقِ.

١٦٠٥ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنَسَى كَمَا تَنْسَوْنَ؛ فَإِذَا

نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي».

١٦٠٦ - وَقَالَ ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ فُلَانًا؛ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً، كُنْتُ

أَسْقَطُهُنَّ» [البخاري (٥٠٣٨)، مسلم (٧٨٨)]، وَيُرْوَى: «أَنْسَيْتُهُنَّ».

١٦٠٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَنْسَى - أَوْ أَنْسَى - لَأَنْسَى».

١٦٠٨ - قِيلَ: هَذَا اللَّفْظُ شَكٌّ مِنَ الرَّائِي. وَقَدْ رَوَى: «إِنِّي لَا أَنْسَى،

وَلَكِنْ أَنْسَى لَأَنْسَى».

وذهب ابن نافع، وعيسى بن دينار أنه ليس بشك؛ وأن معناه التقسيم؛ أي أنسى أنا، أو يُنسني الله..

قال القاضي أبو الوليد الباجي: يَحْتَمِلُ ما قلناه، أَنْ يُرِيدَ إِنِّي أَنْسَى فِي الْبِقَظَةِ، وَأَنْسَى فِي النَّوْمِ، أَوْ أَنْسَى عَلَى سَبِيلِ عَادَةِ الْبَشَرِ مِنَ الذُّهُولِ عَنِ الشَّيْءِ وَالسَّهْوِ؛ أَوْ أَنْسَى مَعَ إِقْبَالِي عَلَيْهِ وَتَفَرُّغِي لَهُ؛ فَأُضَافُ أَخَذَ النُّسْيَانَيْنِ إِلَى نَفْسِهِ؛ إِذْ كَانَ لَهُ بَعْضُ السَّبَبِ فِيهِ، وَنَفَى الْآخَرَ عَنِ نَفْسِهِ؛ إِذْ هُوَ فِيهِ كَالْمُضْطَرِّ.

وذهبت طائفة من أصحاب المعاني والكلام على الحديث إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْهُو فِي الصَّلَاةِ وَلَا يَنْسَى؛ لِأَنَّ النُّسْيَانَ ذُهُولٌ وَغَفْلَةٌ وَآفَةٌ؛ قَالَ: وَالنَّبِيُّ ﷺ مُنْزَعَةٌ عَنْهَا؛ وَالسَّهْوُ شُغْلٌ؛ فَكَانَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَنْهَو فِي صَلَاتِهِ، وَيَشْغَلُهُ عَنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ مَا فِي الصَّلَاةِ، شُغْلًا بِهَا، لَا غَفْلَةً عَنْهَا.

وَاحْتِجَّ بِقَوْلِهِ فِي الرَّوَايَةِ الْآخَرَى: «إِنِّي لَا أَنْسَى». وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى مَنَعِ هَذَا كُلَّهُ عَنْهُ، وَقَالُوا: إِنَّ سَهْوَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَصْدًا وَغَمْدًا لَيْسَ.

وهذا قولٌ مرغوبٌ عنه، مُتَنَاقِضُ الْمَقَاصِدِ، وَلَا يُخَلِّى مِنْهُ بَطَائِلٌ؛ لِأَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ مُتَعَمِّدًا سَاهِيًا فِي حَالٍ؟! وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ أَمَرَ بِتَعَمُّدِ صَوْرَةِ النُّسْيَانِ لَيْسَ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَنْسَى أَوْ أَنْسَى لَأَنْسَ». وَقَدْ اثْبَتَ أَحَدُ الْوُضَّافِينَ، وَنَفَى مُنَاقِضَةَ التَّعَمُّدِ وَالْقَصْدِ.

١٦٠٩ - وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتَ لَذَكِّرُونِي».

وَقَدْ مَالَ إِلَى هَذَا عَظِيمٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أُنَمِّتِنَا، وَهُوَ أَبُو الْمُظَفَّرِ الْإِسْفَرَايِينِي، وَلَمْ يَزْتَضِعْ غَيْرُهُ مِنْهُمْ، وَلَا ارْتَضِيَهُ، وَلَا حُجَّةَ لِهَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: «إِنِّي لَا أَنْسَى وَلَكِنْ أَنْسَى» إِذْ لَيْسَ فِيهِ نَفْيُ حُكْمِ النُّسْيَانِ بِالْجُمْلَةِ، وَإِنَّمَا فِيهِ نَفْيُ لَفْظِهِ وَكَرَاهَةُ لِقَبِهِ.

١٦١٠ - كَقَوْلِهِ: «بَشَرٌ مَا لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا، وَلَكِنَّهُ نُسِيَ» أَوْ نَفَى الْعَقْلِيَّةَ وَقَلَّةَ الْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِ الصَّلَاةِ عَنْ قَلْبِهِ، لَكِنْ شُغِلَ بِهَا عَنْهَا، وَنَسِيَ بَعْضُهَا يَبْعَضُهَا.

١٦١١ - كَمَا تَرَكَ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى خَرَجَ وَقْتُهَا [الْبَخَارِيُّ (٢٩٣١)، مُسْلِمٌ (٦٢٧)]، وَشُغِلَ بِالتَّحَرُّزِ مِنَ الْعَدُوِّ عَنْهَا؛ فَشُغِلَ بِطَاعَةٍ عَنِ طَاعَةٍ.

١٦١٢ - وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي تَرَكَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَرْبَعُ صَلَوَاتٍ: الظُّهْرَ، وَالْعَصْرَ،

والمغرب، والعشاء، وبه احتج مَنْ دَهِبَ إِلَى جَوَازِ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ فِي الْحَرْبِ، إِذَا لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ أَدَائِهَا إِلَى وَقْتِ الْأَمْنِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّامِيِّينَ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ حُكْمَ صَلَاةِ الْخَوْفِ كَانَ بَعْدَ هَذَا، فَهُوَ نَاسِخٌ لَهُ.

١٦١٣ - فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِي نَوْمِهِ ﷺ عَنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْوَادِي.

١٦١٤ - وَقَدْ قَالَ: «إِنْ عَيْنِي تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي؟».

فَاعْلَمْ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ عَنْ ذَلِكَ أَجْوِبَةً.

مِنْهَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِأَنَّ هَذَا حُكْمُ قَلْبِهِ عِنْدَ نَوْمِهِ وَعَيْنِيهِ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ،

وَقَدْ يَنْدُرُ مِنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ، كَمَا يَنْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ خِلَافُ عَادَتِهِ.

١٦١٥ - وَيُصَحِّحُ هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْحَدِيثِ نَفْسُهُ:

«إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا».

١٦١٦ - وَقَوْلُ بِلَالٍ فِيهِ: مَا أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نَوْمَةً مِثْلَهَا قَطُّ [البخاري (٥٩٥)].

وَلَكِنْ مِثْلُ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهُ لِأَمْرِ يَرِيدُهُ اللَّهُ مِنْ إِثْبَاتِ حُكْمٍ، وَتَأْسِيسِ سُنَّةٍ، وَإِظْهَارِ شَرْعٍ.

١٦١٧ - وَكَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا يَقْظَنَّا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ

يَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ».

الثَّانِي: أَنَّ قَلْبَهُ لَا يَسْتَغْرِقُهُ النَّوْمُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ الْحَدَثُ فِيهِ.

١٦١٨ - لَمَّا رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ مُحْرَسًا.

وَأَنَّهُ كَانَ يَنَامُ حَتَّى يَنْفُخَ، وَحَتَّى يُسْمِعَ غَطِيطَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيَصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ

[البخاري (١١٧)، مسلم (٧٦٣)].

١٦١٩ - وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورُ فِيهِ وَضُوْءُهُ عِنْدَ قِيَامِهِ مِنَ النَّوْمِ [البخاري

(٦٣١٦)، مسلم (١٨٢/٧٦٣)]، فِيهِ نَوْمُهُ مَعَ أَهْلِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ عَلَى وَضُوْئِهِ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمَجْرَدِ النَّوْمِ، إِذْ لَعَلَّ ذَلِكَ لِمَلَامَسَةِ الْأَهْلِ أَوْ لِحَدِيثِ آخَرَ، فَكَيْفَ

وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ نَفْسِهِ: ثُمَّ نَامَ حَتَّى سَمِعَتْ غَطِيطَهُ، ثُمَّ أَقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى

وَلَمْ يَتَوَضَّأْ؟

١٦٢٠ - وَقِيلَ: لَا يَنَامُ قَلْبُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يُوَحَّى إِلَيْهِ فِي النَّوْمِ، وَلَيْسَ فِي

قِصَّةِ الْوَادِي إِلَّا نَوْمُ عَيْنَيْهِ عَنْ رُؤْيَا الشَّمْسِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الْقَلْبِ، وَقَدْ قَالَ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَوْ شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا فِي حِينٍ غَيْرِ هَذَا».

١٦٢١ - فَإِنْ قِيلَ: فَلَوْلَا عَادَتُهُ مِنْ اسْتِغْرَاقِ النَّوْمِ لَمَّا قَالَ لِبِلَالٍ: «اخْلُأْ لَنَا

الصُّبْحُ» [مسلم (٦٨٠)].

١٦٢٢ - فُقيل في الجواب: إنه كان مِنْ شَأْنِهِ - عليه السلام - التَّغْلِيصُ - بالصُّنْحِ؛ ومراعاةُ أولِ الفَجْرِ لا يَصْحُ مَنْ نامَتْ عَيْنُهُ؛ إذ هو ظاهرٌ يُذَرَكُ بالجوارحِ الظاهرة، فوَكَّلَ بِلَاأَ بمراعاةِ أولِهِ لِيُعْلِمَهُ بذلك، كما لو شُغِلَ بشغلٍ غيرِ النومِ عن مُراعاتِهِ.

١٦٢٣ - فَإِنْ قِيلَ: فما معنى نَهْيِهِ - عليه السلام - عن القول: «نَسِيتُ».

١٦٢٤ - وقد قال عليه السلام: «إِنِّي أَنَسَى كَمَا تَنَسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي».

١٦٢٥ - وقال: «لَقَدْ أَذَكَّرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةٌ كُنْتُ أَنَسِيْتُهَا».

فَاعْلَمْ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ؛ أَمَّا نَهْيُهُ عَنْ أَنْ يُقَالَ: «نَسِيتُ آيَةَ كَذَا» فَمَحْمُولٌ عَلَى مَا نُسِخَ فَعْلُهُ مِنَ الْقُرْآنِ، أَي: إِنَّ الْعَقْلَةَ فِي هَذَا لَمْ تَكُنْ مِنْهُ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى اضْطَرَّهَ إِلَيْهَا لِيَمْحُوَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، وَمَا كَانَ مِنْ سَهْوٍ، أَوْ غَفْلَةٍ مِنْ قِبَلِهِ تَذَكَّرَهَا صَلَحَ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: أَنَسَى.

وقد قيل: إِنَّ هَذَا مِنْهُ - ﷺ - عَلَى طَرِيقِ الاسْتِحْبَابِ فِي أَنَّهُ يُضَيِّفُ الْفِعْلَ إِلَى خَالِقِهِ، وَالْآخَرَ عَلَى طَرِيقِ الْجَوَازِ لِاِكْتِسَابِ الْعَبْدِ فِيهِ، وَإِسْقَاطِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا أَسْقَطَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ جَائِزَ عَلَيْهِ بَعْدَ بِلَاغِ مَا أَمَرَ بِبِلَاغِهِ، وَتَوْصِيلِهِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، ثُمَّ يَسْتَذَكِّرُهَا مِنْ أُمَّتِهِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - نَسَخَهُ وَمَحَوَهُ مِنَ الْقُلُوبِ وَتَرَكَ اسْتِذْكَارَهُ.

وقد يجوزُ أَنْ يَنْسَى النَّبِيُّ - ﷺ - مَا هَذَا سَبِيلُهُ كَرَّةً؛ وَيجوزُ أَنْ يُنْسِيَهُ مِنْهُ قَبْلَ الْبِلَاغِ مَا لَا يَغَيِّرُ نَظْمًا، وَلَا يَخْلُطُ حُكْمًا، مِمَّا لَا يَدْخُلُ خِلَافًا فِي الْخَبَرِ، ثُمَّ يَذْكُرُهُ إِثْبَاهًا، وَيَسْتَحِيلُ ذَوَامَ نَسْيَانِهِ لَهُ؛ لِحِفْظِ اللَّهِ كِتَابَهُ، وَتَكْلِيفِهِ بِلَاغَهُ.

فصل

فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَجَارَ عَلَيْهِمُ الصَّغَائِرَ وَالْكَلَامَ عَلَى مَا احْتَجُّوا بِهِ فِي ذَلِكَ

اعْلَمْ أَنَّ الْمَجُوزِينَ الصَّغَائِرَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَمَنْ شَائِمَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ احْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بظواهر كثيرةٍ من القرآن والحديث، إن التزموا ظواهرها أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَى تَجْوِيزِ الْكِبَائِرِ وَخَرْقِ الْإِجْمَاعِ، وَمَا لَا يَقُولُ بِهِ مُسْلِمٌ، فَكَيْفَ وَكُلُّ مَا احْتَجُّوا بِهِ مِمَّا اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، وَتَقَابَلَتِ الْإِحْتِمَالَاتُ فِي مُقْتَضَاهُ، وَجَاءَتْ أَقَاوِيلُ فِيهَا لِلْسَلَفِ بِخِلَافِ مَا التَزَمُوهُ مِنْ ذَلِكَ؟

فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به من ذلك قديماً، وقامت الحجة والدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تزكُّه، والمصيرُ إلى ما صَحَّ.

وَمَا نَحْنُ نَأْخُذُ فِي النَّظَرِ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ:

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ :

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿١﴾ ﴿الَّذِي أَنتَضَّ ظَهْرَكَ﴾ ﴿٢﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ...﴾ الآية [التوبة: ٤٣].

وقوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾

[الأنفال : ٦٨].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ﴿الْآيَةُ [عبس: ١، ٢].﴾

وما قص عليه من قصص غيره من الأنبياء؛ كقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

[4: 141]

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمَا صَاحِبَا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَفَعَلَى اللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وَقَوْلُهُ - عَنْهُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَدُنَّا قَنْفَرٌ لَأَوْقَعْنَا لُكُومًا مِنْ الْحَشِيرِ﴾

[الأعراف : ٢٣].

وقوله - عن يونس: ﴿سُبْحٰنَكَ اِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِيْنَ﴾ الآية [الانباء: ٨٧].

وما ذكر من قصته وقصة داود؛ وقوله: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَا فَتَنَّا فَاسْتَفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا

وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَقَرْنَا لَهُمْ ذَكَرًا ۖ وَإِنَّ لَهُمْ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَقَابٍ ﴿٢٥﴾ ﴿ص: ٢٤، ٢٥﴾.

وقوله - عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِمْ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية [يوسف: ٢٤] وما

قَصُّ مَنْ قَصَّتْهُ مَعَ إِخْوَتِهِ.

وَقَوْلُهُ - عَنْ مُوسَى: ﴿لَوْ كَرِهَ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْكَ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾

[القصص : ١٥].

١٦٦٦ - وقول النبي - ﷺ - في دعائه: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا

أَخْرُتْ، وَمَا أَسْرَزْتُ وَمَا أَغْلَنْتُ» [مسلم (٧٧١)] وَنَحْوَهُ مِنْ أَدْعِيَتِهِ. عَلَيْهِ السَّلَام.

١٦٢٧ - وَذَكَرَ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْمَوْقِفِ ذُنُوبَهُمْ، فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ.

١٦٢٨ - وقوله: «إِنَّهُ لِيَبْغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

١٦٢٩ - وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفرُ اللهَ، وأنوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وقوله تعالى - عن نوح: «وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [هود: ٤٧] وقد كان الله - عز وجل - قال له: «وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» [هود: ٣٧].

وقال - عن إبراهيم: «وَالَّذِي أَلَمَعَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَلِيفَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ» (٨٧) الآية [الشعراء: ٨٢].

وقوله - عن موسى: «كُنْتُ إِلَيْكَ» [الأعراف: ١٤٣].
وقوله: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...» الآيات [ص: ٣٤] إلى ما أشبه هذه الظواهر.

قال القاضي رحمه الله:
فأما احتجاجهم بقوله: «لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ٢] فهذا قد اختلف فيه المفسرون؛ ف قيل: المراد ما كان قبل النبوة وبعدها.
وقيل: المراد ما وقع لك من ذنب وما لم يقع. أعلمه أنه مغفور له.
وقيل: المتقدم ما كان قبل النبوة، والمتأخر: عصمتك بعدها، حكاه أحمد بن نصر.

وقيل: المراد بذلك أمته عليه السلام.
وقيل: المراد ما كان عن سهو وغفلة، وتأويل. حكاه الطبري رحمه الله، واختاره الفثري.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ» لأبيك آدم، «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمتك؛ حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء.

وبمثله والذي قبله يتأول قوله: «وَأَسْتَغْفِرُ لَذِيكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» [محمد: ١٩] قال مكِّي: مخاطبة النبي ﷺ - ها هنا - هي مخاطبة لأمته.

وقيل: إن النبي ﷺ - لما أُمِرَ أَنْ يَقُولَ: «وَمَا آذَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» [الأحاف: ٩] - سُرَّ بذلك الكفار لعنهم الله؛ فأنزل الله تعالى عليه: «لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» الآية [الفتح: ٢] وبما مال المؤمنين في الآية الأخرى بعدها؛ قاله ابن عباس؛ فمقصود الآية: إنك مغفور لك، غير مؤاخذ بذنب تَذَنَّبَ أَنْ لَوْ كَانَ. قال بعضهم: المغفرة ها هنا: تبرئة من العيوب.

وأما قوله: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وَدْرَكَ» (١) «الَّذِي أَنْفَضَ ظَهْرَكَ» (٢) [الشرح: ٢، ٣]؛

فقيل: ما سلف مِنْ ذَنْبِكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ؟ وهو قولُ ابْنِ زَيْدٍ، والحسن، ومعنى قول قتادة.

وقيل: معناه أَنَّهُ حَفِظَ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ مِنْهَا، وَعَصِمَ؛ ولولا ذلك لَأَثْقَلَتْ ظَهْرُهُ؛ حكى معناه السمرقندي.

وقيل: المرادُ بذلك ما أَثْقَلَ ظَهْرَهُ مِنْ أَغْبَاءِ الرِّسَالَةِ حَتَّى بَلَغَهَا؛ حكاه الماوردي، والسلمي.

وقيل: حَطَطْنَا عَنْكَ ثِقَلَ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ حكاه مكي.

وقيل: ثِقَلَ شُغْلُ سِرِّكَ وَخَيْرَتِكَ وَطَلَبُ شَرِيعَتِكَ حَتَّى شَرَعْنَا ذَلِكَ لَكَ، حكى معناه القشيري.

وقيل معناه: خَفَّفْنَا عَلَيْكَ مَا حَمَلْتَ بِحِفْظِنَا لِمَا اسْتَحْفِظْتَ، وَحَفِظَ عَلَيْكَ.

ومعنى «أَفْقَضَ ظَهْرَكَ» أَي: كَادَ يَنْقُضُهُ؛ فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ لِمَا قَبْلَ النُّبُوَّةِ اهْتِمَامَ النَّبِيِّ - ﷺ - بِأُمُورٍ فَعَلَهَا قَبْلَ نُبُوَّتِهِ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ؛ فَعَذَابُهَا أَوْزَارًا، وَثَقُلَتْ عَلَيْهِ، وَأَشْفَقَ مِنْهَا.

أَوْ يَكُونُ الرُّضْعُ عِصْمَةً لِلَّهِ لَهُ وَكَفَايَتُهُ مِنْ ذُنُوبٍ لَوْ كَانَتْ لَأَثْقَضَتْ ظَهْرَهُ.

أَوْ يَكُونُ مِنْ ثِقَلِ الرِّسَالَةِ؛ أَوْ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِ وَشُغِلَ قَلْبُهُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِحِفْظِ مَا اسْتَحْفِظَهُ مِنْ وَحْيِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهْزِكِ» [التوبة: ٤٣] فَأَمَرَ لَمْ يَتَقَدَّمِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - نَهْيٌ فَيَعْدُ مَعْصِيَةً، وَلَا عَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ مَعْصِيَةً؛ بَلْ لَمْ يَعِدْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مُعَاتَبَةً، وَغَلَطُوا مَنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ؛ قَالَ يَفْطَوْنَهُ: وَقَدْ حَاشَا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ؛ بَلْ كَانَ مُحْخِرًا فِي أَمْرَيْنِ؛ قَالُوا: وَقَدْ كَانَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا شَاءَ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ فِيهِ وَحْيٌ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَأَذِنَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ» [النور: ٦٢]. فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِمَا لَمْ يَطْلُغْ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّهِمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذِنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا، وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيمَا فَعَلَ، وَلَيْسَ «عَفَا» - هُنَا - بِمَعْنَى غَفَرَ.

١٦٣٠ - بَلْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَفَا اللَّهُ لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ» [الترمذي (٦٢٠)، أَبُو دَاوُدَ (١٥٧٤)، النَّسَائِيُّ (٣٧/٥)، ابْنُ مَاجَهَ (١٧٩٠)]. وَلَمْ تَجِبْ عَلَيْهِمْ قَطُّ؛ أَي لَمْ يُلْزَمَكُم ذَلِكَ.

ونحوه للثَّشِيرِي؛ قال: وإنما يقول: العفو لا يكون إلاَّ عن ذَنْبٍ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ كَلَامَ الْعَرَبِ؛ قال: ومعنى ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنكَ﴾ أي: لَمْ يُلْزِمَكَ ذَنْبًا.

قال الدَّوْدِيُّ: رُوِيَ أَنَّهَا تَكْرِمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقال مكي: هو استفتاحُ كلام؛ مثل: أعزَّكَ اللَّهُ! وأكرمكَ الله!

وحكى السمرقندي أنَّ معناه: عافاك الله.

وأما قوله في أسارى بذر: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْتَحِ فِي الْأَرْضِ رِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٧ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٨ ﴿[الأنفال: ٦٧، ٦٨]. فليس فيه أيضاً إلزامٌ ذَنْبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ بل فيه بَيَانٌ مَا خُصَّ بِهِ وَفُضِّلَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَكَانَهُ قَالَ: مَا كَانَ هَذَا لِنَبِيِّ غَيْرِكَ.

١٦٣١ - كما قال ﷺ: «أَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحُلْ لِنَبِيِّ قَبْلِي».

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿رِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

قيل: الْمَعْنَى بِالْخُطَابِ لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَجَرَّدَ غَرَضُهُ لِعَرَضِ الدُّنْيَا وَخَذَهُ فِيهَا، وَالِاسْتِخْتَارَ مِنْهَا؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ؛ بَلْ قَدْ رُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَذَرٍ، وَاشْتَغَلَ النَّاسُ بِالسَّلْبِ وَجَمَعَ الْغَنَائِمَ عَنِ الْقِتَالِ؛ حَتَّى خَشِيَ عُمَرُ أَنْ يَغْطَفَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]؛ فَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ؛ فَقِيلَ: مَعْنَاهَا: لَوْلَا أَنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنْ لَا أُعَذِّبَ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ النَّهْيِ لِعَذِّبْتُمْ. فِهَذَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الْأَسْرَى مَعْصِيَةً.

وقيل: الْمَعْنَى: لَوْلَا إِيْمَانُكُمْ بِالْقُرْآنِ - وَهُوَ الْكِتَابُ السَّابِقُ - فَاسْتَوْجِبْتُمْ بِهِ الصَّفْحَ لِعُقُوبَتِكُمْ عَلَى الْغَنَائِمِ.

ويزَادُ هَذَا الْقَوْلُ تَفْسِيرًا وَبَيَانًا بِأَنْ يُقَالَ: لَوْلَا مَا كُتِبَ مُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ، وَكُتِبَ مِنْ أَجْلِ لَهُمُ الْغَنَائِمُ لِعُقُوبَتِكُمْ، كَمَا عُوقِبَ مَنْ تَعَدَّى.

وقيل: لَوْلَا أَنَّهُ سَبَقَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّهَا حَلَالٌ لَكُمْ لِعُقُوبَتِكُمْ.

فهذا كُلُّهُ يَنْفِي الذَّنْبَ وَالْمَعْصِيَةَ؛ لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا أُجِلَّ لَهُ يَعْصِي؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا حَبِشْتُمْ هَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

١٦٣٢ - وقيل: بل كان - عليه السلام - قد خَيَّرَ في ذلك؛ وقد رُوِيَ عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي - ﷺ - يوم بدر، فقال: خَيَّرَ أصحابك في الأسارى، إن شأؤوا القتل، وإن شأؤوا الفداء، على أن يُقتل منهم في العام المُقبل مثلهم. فقالوا: الفداء ويُقتل مِنَّا [الترمذي (١٥٦٧)].

وهذا دليل على صحة ما قلناه، وأنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه؛ ولكن بعضهم مَالَ إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل؛ فمَوَّبُوا على ذلك، وبيَّن لهم ضَعْفُ اختيارهم وتصويبُ اختيارِ غيرهم؛ وكلهم غَيَّرَ عَصَاةً ولا مُذْنِبِينَ؛ وإلى نحو هذا أشار الطبري.

١٦٣٣ - وقوله - عليه السلام - في هذه القضية: «لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عُمر» إشارة إلى هذا من تصويب رأيه، ورأي مَنْ أخذ بمأخذه، في إعزاز الدين، وإظهار كلمته، وإبادة عَدُوِّه، وأن هذه القضية لو استوجبت عذاباً نجا منه عمر ومثله، وعَيَّنَ عُمرَ لأنه أولُ من أشار بقتلهم؛ ولكن الله لم يقدِّر عليهم في ذلك عذاباً لِحَلِّهِ لهم فيما سبق.

وقال الداودي: الخَبَرُ بهذا لا يثبت، ولو ثبت لما جاز أن يُظَنَّ أَنَّ النبي - ﷺ - حَكَمَ بما لا نَصَّ فيه، ولا دليل من نَصٍّ، ولا جُعِلَ الأمرُ إليه فيه؛ وقد نَزَّهَهُ اللهُ تعالى عن ذلك.

وقال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه - عليه السلام - في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلال الغنائم والفداء؛ وقد كان قَبْلَ هذا فادوا في سرية عبد الله بن جحش التي قُتِلَ فيها ابنُ الحُضْرَمِيِّ بالحكم بن كَيْسَانَ وصاحبه، فما عَتَبَ اللهُ ذلك عليهم؛ وذلك قَبْلَ بدر بأكثر من عام.

فهذا كله يدلُّ على أَنَّ فِعْلَ النبي - ﷺ - في شأنِ الأسرى كان على تأويل وبصيرة، وعلى ما تقدَّم قَبْلَ مثله؛ فلم يَنْكِره اللهُ تعالى عليهم، لكن الله تعالى أراد - لعظم أمرِ بدر وكثرة أسراها - والله أعلم - إظهارَ نعمته، وتأكيدِ ميثته، بتعريفهم ما كتبه في اللُوحِ المحفوظ من حِلِّ ذلك لهم، لا على وَجْهِ عِتَابٍ وإنكارٍ أو تَذْنِيبٍ. هذا معنى كلامه.

وأما قوله: ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۖ﴾ ① أَنَّ جَاءَهُ الْأَمْرُ ② [عس: ١، ٢].

فليس فيه إثباتُ ذَنْبٍ له عليه السلام، بل إعلامُ الله - عز وجل - أَنَّ ذلك

الْمُتَّصِدِي لَهُ مِمَّنْ لَا يَتَزَكَّى، وَأَنَّ الصَّوَابَ وَالْأَوَّلَى كَانَ - لَوْ كُثِفَ لَكَ حَالُ
الرُّجُلَيْنِ - الْإِقْبَالَ عَلَى الْأَعْمَى.

وفعلُ النبي - ﷺ - لِمَا فَعَلَ، وَتَصَدِيهِ لَذَلِكَ الْكَافِرِ، كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَبْلِيغًا
عَنْهُ وَامْتِلَافًا لَهُ، كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، لَا مَعْصِيَةَ، وَلَا مَخَالَفَةَ لَهُ.

وَمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ ذَلِكَ إِعْلَامٌ بِحَالِ الرُّجُلَيْنِ وَتَوْهِينُ أَمْرِ
الْكَافِرِ عِنْدَهُ وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى﴾ [عبس: ٧].
وقيل: أَرَادَ بِهِ «عَبَسَ»، وَ «تَوَلَّى» - الْكَافِرُ الَّذِي كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ أَبُو
تَمَّامٍ.

وَأَمَّا قِصَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بَعْدَ
قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وَتَصْرِيحُهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ بِالْمَعْصِيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] أَيْ جَهَلَ.

وَقِيلَ أَخْطَأَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ بِعُذْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ
قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]؛ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَسِيَ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ
لَهُ، وَمَا عَهِدَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ...﴾ [طه: ١١٧].

وقيل: نَسِيَ ذَلِكَ بِمَا أَظْهَرَ لَهُمَا إِبْلِيسَ مِنَ الشَّفَقَةِ، وَالْمِيلِ إِلَيْهِمَا، وَالتَّضَحُّجِ
لَهُمَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَتَنِيَ.
وقيل: لَمْ يَقْصِدِ الْمَخَالَفَةَ اسْتِحْلَالًا لَهَا، وَلَكِنَّهُمَا اغْتَرَّا بِخَلْفِ إِبْلِيسَ لَهُمَا:
﴿إِنِّي لَكُمَا لَيِّنٌ أَنْصِينَاكُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]؛ وَتَوَقَّعَا أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلِفُ بِاللَّهِ حَانَثًا.

وَقَدْ رُوِيَ عُذْرُ آدَمَ عَنْ ذَلِكَ بِمِثْلِ هَذَا فِي بَعْضِ الْآثَارِ.
وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: حَلَفَ بِاللَّهِ لَهُمَا حَتَّى غَرَّهُمَا؛ وَالْمُؤْمِنُ يُخْدَعُ.
وَقَدْ قِيلَ: نَسِيَ، وَلَمْ يَنْوِ الْمَخَالَفَةَ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أَيْ قَضَدًا لِلْمَخَالَفَةِ.

وَأَكْثَرُ الْمَفْسُرِينَ عَلَى أَنَّ الْعَزْمَ - هَا هُنَا - الْحَزْمُ وَالصَّبْرُ.
وقيل: كَانَ عِنْدَ أَكْلِهِ سَكْرَانًا؛ وَهَذَا فِيهِ ضَعْفٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -
وَصَفَّ خَمْرَ الْجَنَّةِ أَنَّهَا لَا تُسَكَّرُ؛ فَإِذَا كَانَ نَاسِبًا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً؛ وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ
مُلْبَسًا عَلَيْهِ غَالِطًا؛ إِذِ الْإِتِّفَاقُ عَلَى خُرُوجِ النَّاسِي وَالسَّاهِي عَنْ حُكْمِ التَّكْلِيفِ.

وقال الشيخ أبو بكر بن فورك وغيره: إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ لَجَّ بِهٖ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان.

وقيل: بل أكلها متاولاً، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهي عنها؛ لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس؛ ولهذا قيل: إنما كانت التوبة من ترك التحفظ، لا من المخالفة.

وقيل: تأول أن الله لم ينهه عنها نهي تحريم. فإن قيل: فعلى كل حال فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٢١] وقال: ﴿فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٢٢].

١٦٣٤ - وقوله في حديث الشفاعة - ويذكر ذنبه -: «واني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت» فسيأتي الجواب عنه وعن أشباهه مُجَمَّلاً آخرَ هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

وأما قصة يونس فقد مضى الكلام على بعضها آنفاً؛ وليس في قصة يونس نص على ذنب؛ وإنما فيه: ﴿أَبَىٰ﴾ [الصفات: ١٤٠] و ﴿ذَهَبَ مُغْنِيًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد تكلمنا عليه.

وقيل: إنما نقم الله عليه خروجه عن قومه فاراً من نزول العذاب. وقيل: بل لما وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال: واللّه لا ألْقَاهُمْ بوجه كذاب أبداً.

وقيل: بل كانوا يقتلون من كذب فخاف ذلك.

وقيل: ضَعُفَ عن حَمْلِ أعباء الرسالة. وقد تقدّم الكلام أنه لم يكذبهم. وهذا كله ليس فيه نص على معصية إلا على قول مرغوب عنه.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَىٰ إِلَىٰ آلِهَاتِهِ الْمَشْرُوعِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصفات: ١٤٠] قال المفسرون: تباعد.

وأما قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ فالظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ وهذا اعتراف منه عند بعضهم بذنبه؛ فلما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه، أو لضغفه عمّا حمّله، أو لدعائه بالعذاب على قومه، وقد دعا نوح بهلاك قومه فلم يؤخذ.

وقال الواسطي في معناه: نَزَّهَ رَبُّهُ عَنِ الظُّلْمِ، وَأَضَافَ الظُّلْمَ إِلَىٰ نَفْسِهِ اعترافاً واستحقاقاً. وقيل: هذا مثل قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾

[الأعراف: ٢٣]؛ إذ كانا السبب في وَضْعِهما غير الموضع الذي أنزِلَا فيه؛ وإخْرَاجِهما من الجنة، وإنزالهما إلى الأرض.

١٦٢٥ - وأما قصة داود - عليه السلام - فلا يجب أن يُلْتَفَتَ إلى ما سَطَرَهُ فيها الإخباريون عن أهل الكتاب الذين بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا؛ ونقله بَغْضُ المفسرين. ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا وردَ في حديث صحيح. والذي نص الله عليه قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالُ نَجْمِكَ إِنَّكَ يَنْجَاهُ وَإِنَّ كَيْدًا مِنَ الظَّالِمِينَ لِيَنبِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَفَرَقْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا عِنْدَنَا لَكُلِّ وَحْشٍ مَنَابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]. وقوله فيه: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

فمعنى ﴿فَتَنَّهُ﴾ أي: اختبرناه. و ﴿أَوَّابٌ﴾: قال قتادة: مُطِيع.

وهذا التفسير أولى.

١٦٢٦، ١٦٢٧ - وقال ابن عباس، وابن مسعود: ما زاد داود على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك وأَكْثِلْنِيهَا؛ فعاتبه الله على ذلك، ونبيه عليه، وأنكر عليه شُغْلَهُ بالدنيا، وهذا الذي ينبغي أن يقول عليه من أمره عليه السلام. وقد قيل: خطبها على خطبته.

وقيل: بل أحب بقلبه أن يُسْتَشْهَدَ.

وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله لأَخِي الخَضَمِينَ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالُ نَجْمِكَ﴾ [ص: ٢٤]، فظلمه بقول خضيمه.

وقيل: بل لما خشي على نفسه، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا.

والى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك، ذهب أحمد بن نصر، وأبو تمام، وغيرهما من المحققين.

وقال الداوودي: ليس في قصة داود وأوريا خَبَرٌ يَقْبُثُ؛ ولا يظن بنبي محبة قتل مُسْلِمٍ.

وقيل: إن الخَضَمِينَ اللذين اختصما إليه رجلان في نِتَاجِ غَنَمٍ، على ظاهر الآية.

وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تَبَيَّنْ نُبُوَّتُهُمْ فَيَلْزَمَ الكلام على أفعالهم. وذكر الأسباب وعُدَّهم في القرآن عند ذكر الأنبياء ليس صريحاً في كونهم من أهل الأنبياء.

قال المفسرون: يريد مَنْ نُبِيٍّ مِنْ أُنْبَاءِ الْأَسْبَاطِ.

وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صِبَاً الْأَسْنَانُ؛ ولهذا لم يميّزوا يوسف حين اجتمعوا به؛ ولهذا قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] وَإِنْ ثَبَّتْ لَهُمْ نَبُوءَةٌ فَبَعْدَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفَىٰ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

١٦٢٨ - فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمُحَدِّثِينَ أَنَّ هَمَّ النَّفْسِ لَا يُؤَاخِذُ بِهِ الْعَبْدَ، وَلَيْسَ سَيِّئَةً لِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ رَبِّهِ: «إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» [البخاري (٦٤٩١، ٧٥٠١)، مسلم (١٢٩، ١٣١)]، فَلَا مَعْصِيَةَ حِينَئِذٍ لِيُوسُفَ فِي هَمِّهِ إِذَا.

وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ فَإِنَّ الْهَمَّ - إِذَا وُطِنَ عَلَيْهِ النَّفْسُ - سَيِّئَةٌ. وَأَمَّا مَا لَمْ تُوْطِنَ عَلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ هُمُومِهَا وَخَوَاطِرِهَا فَهُوَ الْمَعْفُوفُ عَنْهُ.

وهذا هُوَ الْحَقُّ؛ فَيَكُونُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - هَمُّ يُوسُفَ مِنْ هَذَا؛ وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَزِيحُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

أَيُّ مَا أَبْرَزْنَاهَا مِنْ هَذَا الْهَمِّ؛ أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى طَرِيقِ التَّوَضُّعِ وَالاعْتِرَافِ بِمُخَالَفَةِ النَّفْسِ لِمَا رُكِّي قَبْلُ وَبُرِيءَ، فَكَيْفَ وَقَدْ حَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، أَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَهْمُ، وَأَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ؛ أَيُّ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ؛ وَلَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بِهَا؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ الْمَرَأَةِ -: ﴿وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَاِصْتَعَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...﴾ [يوسف: ٢٣].

قِيلَ فِي «رَبِّي»: اللَّهُ تَعَالَى، وَقِيلَ: الْمَلِكُ.

وقيل: «وَهَمَّ بِهَا» أَيُّ: بَزَجَرَهَا وَوَعَّظَهَا.

وقيل: «وَهَمَّ بِهَا» أَيُّ: غَمَّهَا امْتِنَاعُهُ عَنْهَا.

وقيل: «وَهَمَّ بِهَا»: نَظَرَ إِلَيْهَا.

وقيل: هَمَّ بِضَرْبِهَا وَدَفْعِهَا.

وقيل: هذا كله كان قَبْلَ نبوته عليه السلام.

وقد ذَكَرَ بعضهم: ما زال النساءُ يَمْلَنُ إلى يوسفَ مَيْلَ شَهْوَةٍ حتى نَبَأَهُ اللهُ، فَأَلْفَى عليه هَيْبَ النبوةِ؛ فشغَلَتْ هَيْبُهُ كُلَّ مَنْ رَأَاهُ عَنْ حُسْنِهِ.

وَأَمَّا خَبَرُ موسى - عليه السلام - مع قَبِيلِهِ الَّذِي وَكَزَّهُ فَقَدْ نَصَّ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَقَالَ: كَانَ مِنَ الْقَبِيْطِ الَّذِينَ عَلَى دِينِ فِرْعَوْنَ.

ودليلُ السُّورَةِ فِي هَذَا كُلِّهِ أَنَّهُ قَبْلَ نُبُوَّةِ موسى عليه السلام.

وقال قتادة: وَكَزَّهُ بِالْعَصَا، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، فَعَلَى هَذَا لَا مَعْصِيَةَ فِي ذَلِكَ.

وقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...﴾ [الفصص: ١٥]. وقوله: ﴿طَلَعْتُ نَفْسِي

فَأَغْفِرَ لِي﴾ [الفصص: ١٦] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَقْتُلَ حَتَّى يُؤْمَرَ.

وقال النقاش: لَمْ يَقْتُلْهُ عَنْ غَمْدٍ مُرِيداً لِلْقَتْلِ، وَإِنَّمَا وَكَزَّهُ وَكَزَرَهُ يَرِيدُ بِهَا دَفْعَ ظُلْمِهِ، قَالَ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ النبوةِ، وَهُوَ مُقْتَضَى التَّلَاوَةِ.

وقوله تَعَالَى - فِي قِصَّتِهِ: ﴿وَوَسَّكَ فُتُوًّا﴾ [طه: ٤٠]، أَيِ ابْتِلَاكَ ابْتِلَاءَ بَعْدِ ابْتِلَاءٍ. قِيلَ: فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ. وَقِيلَ: الْفَاوَهُ فِي التَّابُوتِ

وَالْيَمِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقيل: مَعْنَاهُ أَخْلَصْنَاكَ إِخْلَاصاً؛ قَالَ ابْنُ جَبْرِ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ قَوْلِهِمْ: فَتُتِ الْفِضَّةُ فِي النَّارِ، إِذَا خُلِصَتْهَا. وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ مَعْنَى: الْإِخْتِبَارُ، وَإِظْهَارُ مَا بَطْنُ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي غَرْفِ الشَّرْعِ فِي اخْتِبَارِ أَدَى إِلَى مَا يُكْزَرُ.

١٦٣٩ - وَكَذَلِكَ مَا رَوَى فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ؛ مِنْ أَنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ جَاءَهُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَقَاَهَا... الْحَدِيثُ [الْبَخَارِيُّ (١٣٣٩)، مُسْلِمٌ (١٥٨/٢٣٧٢)].

لَيْسَ فِيهِ مَا يُخَكِّمُ بِهِ عَلَى موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالتَّعَدِّيِّ وَفِعْلٍ مَا لَا يَجِبُ لَهُ، إِذْ هُوَ ظَاهِرُ الْأَمْرِ، بَيِّنُ الْوَجْهِ، جَائِزُ الْفِعْلِ، لِأَنَّ موسى دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ

آتَاهُ لِإِتْلَافِهَا، وَقَدْ تَصَوَّرَ لَهُ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَلَا يُمْكِنُ أَنَّهُ عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ مَلِكَ

الْمَوْتِ، فَدَافَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ مَدَافَعَةً أَدَّتْ إِلَى ذَهَابِ غَيْبِ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي تَصَوَّرَ لَهُ فِيهَا مَلِكَ الْمَوْتِ امْتِحَاناً مِنَ اللَّهِ - عِزَّ وَجَلَّ - لِمُوسَى، فَلَمَّا جَاءَهُ بَغْدُ،

وَأَعْلَمَهُ اللَّهُ - عِزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَيْهِ اسْتَسَلَّمَ.

وَلِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ أَجُوبَةٌ هَذَا اسْتِدْهَاهُ عِنْدِي، وَهُوَ تَاوِيلُ شَيْخِنَا الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَازَرِيِّ.

وَقَدْ تَاوَلَهُ - قَدِيماً - ابْنُ عَائِشَةَ، وَغَيْرُهُ عَلَى صَكِّهِ وَلَطْمِهِ بِالْحِجَّةِ، وَفَقْدِ

عَنِ حَجَّتِهِ، وهو كلامٌ مستعملٌ في هذا الباب؛ معروف في اللغة.
وأما قصة سليمانَ وما حكى فيها أهلُ التفاسير من ذنبه وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]؛ فمعناه ابتليناه: أي اختبرناه.

١٦٤٠ - وابتلاؤه: ما حكى عن النبي ﷺ أنه قال: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِثْلِ امْرَأَةٍ - أَوْ تَسْعَ وَتَسْعِينَ - كُلُّهُنَّ يَأْتِينَ بِفَارِسٍ، يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ. فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ».

قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده! لو قال: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

قال أصحابُ المعاني: والشَّقُّ: هو الجسدُ الذي أُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ حِينَ غُرِضَ عَلَيْهِ، وهو عقوبته ومِخْتَتِهِ.

وقيل: بل مات فَأُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيِّتًا.

وقيل: ذَنْبُهُ: حِرْضُهُ عَلَى ذَلِكَ وَتَمَنِّيهِ.

وقيل: لأنه لم يَسْتَشِنْ لِمَا اسْتَعْرَفَهُ مِنَ الْحِرْصِ، وغلب عليه من التَّمَنِّي.

وقيل: عقوبته أَنْ سَلِبَ مُلْكُهُ، وَذَنْبُهُ: أَنْ أَحَبَّ بَقْلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لِأَخْتَانِهِ

عَلَى خَصْمِهِمْ.

وقيل: أَوْخِذَ بِذَنْبٍ قَارَفَهُ بَعْضُ نِسَائِهِ. وَلَا يَصِحُّ مَا نَقَلَهُ الْإِخْبَارِيُّونَ مِنْ

خَرَافَاتِهِمْ: مِنْ تَشْبِيهِ الشَّيْطَانِ بِهِ، وَتَسْلُطِهِ عَلَى مُلْكِهِ، وَتَصَرُّفِهِ فِي أُمْتِهِ بِالْجَوْرِ فِي

حُكْمِهِ؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يُسَلِّطُونَ عَلَى مِثْلِ هَذَا؛ وَقَدْ غُصِمَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ مِثْلِهِ.

وإِنْ سُئِلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ سُلَيْمَانٌ فِي الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؟ فَعَنْهُ

أَجَوِبُ:

١٦٤١ - أحدهما: مَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَقُولَهَا [مُسْلِمٌ

(١٦٥٤)، الْبُخَارِيُّ (٥٢٤٢)]، وَذَلِكَ لِيَتَفَضَّلَ مَرَاؤُ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ صَاحِبَهُ وَشَغِلَ عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَمَنْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَدَائِي﴾ [ص: ٣٥]. لَمْ يَفْعَلْ هَذَا

سُلَيْمَانٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - غَيْرَةً عَلَى الدُّنْيَا وَلَا نَفَاسَةً بِهَا؛ وَلَكِنْ مَقْصِدُهُ فِي ذَلِكَ

- عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُورُونَ - أَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِ أَحَدٌ كَمَا سَلَّطَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ الَّذِي سَلَبَ

إِيَّاهُ مُدَّةَ امْتِحَانِهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ.

وقيل: بل أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ فَضِيلَةٌ، وَخَاصَّةٌ يَخْتَصُّ بِهَا كَاخْتِصَاصِ

غيره من أنبياء الله ورسوله بخواص منه .

وقيل: ليكون ذلك دليلاً وحجةً على نبوته؛ كإلانة الحديد لأبيه داود عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى، واختصاص محمد ﷺ بالشفاعة، ونحو هذا.

وأما قصة نوح - عليه السلام - فظاهرة العذر، وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر اللفظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]؛ فطلب مقتضى هذا اللفظ، وأراد علم ما طوي عنه من ذلك؛ لا أنه شك في وعد الله تعالى فبين الله عليه أنه ليس من أهله الذين وعدة بنجاتهم لكفره، وعمله الذي هو غير صالح؛ وقد أعلمه أنه مفرق الذين ظلموا، ونهاه عن مخاطبته فيهم؛ فأرجح بهذا التأويل، وعُتِبَ عليه، وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه؛ وكان نوح - فيما حكاه النقاش - لا يعلم بكفر ابنه.

وقيل في الآية غير هذا؛ وكل هذا لا يقضي على نوح بمعصية سوى ما ذكرناه من تأويله وإقدامه بالسؤال فيما لم يؤذن له فيه، ولا نهي عنه.

١٦٤٢ - وما زوي في الصحيح: من أن نبيا قرصته نملة فحرق قرية النمل، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟! [البخاري (٣٠١٩)، مسلم (٢٢٤١)]. فليس في هذا الحديث أن هذا الذي أتى معصية؛ بل فعل ما رآه مصلحة وصواباً بقتل من يؤذي جنسه، ويمنع المنفعة بما أباح الله.

ألا ترى أن هذا النبي كان نازلاً تحت الشجرة، فلما أذنت النملة تحوّل برخله عنها مخافة تكرار الأذى عليه؟ وليس فيما أوحى الله - عز وجل - إليه ما يوجب عليه معصية؛ بل نذبه إلى احتمال الصبر وترك الشفهي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلْعَصَابِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ إذ ظاهر فعله إنما كان لأجل أنها أذنته هو في خاصته؛ فكان انتقاماً لنفسه، وقطع مضرة يتوقعها من بقية النمل هناك؛ ولم يأت في كل هذا أمراً نهى عنه، فيعصى به، ولا نص فيما أوحى الله إليه بذلك، ولا بالتوبة ولا بالاستغفار منه. والله أعلم.

١٦٤٣ - فإن قيل: فما معنى قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ما من أحد إلا ألم بلبس أو كاد إلا يحيى بن زكريا» [أحمد (٢٥٤/١)، (٢٩٢)] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فالجواب عنه: كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصد وعن سهو وغفلة.

فصل

فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ

فَإِنْ قُلْتُ: فَإِذَا نَفِيتْ عَنْهُمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ بِمَا ذَكَرْتَهُ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَفْسَرِينَ وَتَأْوِيلِ الْمُحَقِّقِينَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ وَيُكَانِهِمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَإِشْفَاقِهِمْ وَهَلْ يُشْفَقُ وَيَتَابُ وَيُسْتَغْفَرُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ عَظِيمٍ؟

فَاعْلَمْ - وَفَقَّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ دَرَجَةَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الرَّفْعَةِ، وَالْعُلُوِّ، وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَسُتَيْهِ فِي عِبَادِهِ، وَعِظَمِ سُلْطَانِهِ، وَقُوَّةِ بَطْشِهِ، فِيمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْخَوْفِ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالْإِشْفَاقِ مِنَ الْمُوَاخَذَةِ بِمَا لَا يُؤَاخِذُ بِهِ غَيْرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ - فِي تَصَرُّفِهِمْ بِأُمُورٍ لَمْ يَنْهَوْا عَنْهَا، وَلَا أَمَرُوا بِهَا؛ ثُمَّ أُوجِدُوا عَلَيْهَا، وَعُوتِبُوا بِسَبَبِهَا، أَوْ حُذِرُوا مِنَ الْمُوَاخَذَةِ بِهَا، وَأَتَوْهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ، أَوِ السَّهْوِ، أَوْ تَرْيُدٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْمُبَاحَةِ - خَائِفُونَ وَجُلُونَ، وَهِيَ ذُنُوبٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى عَلَيَّ مَنْصِبِهِمْ، وَمَعَاصٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كِمَالِ طَاعَتِهِمْ، لَا أَنَّهُمْ كَذُنُوبٍ غَيْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ مَأْخُودٌ مِنَ الشَّيْءِ الدُّنْيِيِّ الرَّذْلِ، وَمِنْهُ ذَنْبٌ كُلُّ شَيْءٍ، أَيْ: آخِرُهُ. وَأَذْنَابُ النَّاسِ: رُذَالُهُمْ، فَكَأَنَّ هَذِهِ أَذْنَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَسْوَأُ مَا يَخْرِجِي مِنْ أَحْوَالِهِمْ لِتَطْهِيرِهِمْ، وَتَنْزِيهِهِمْ، وَعِمَارَةِ بَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالذِّكْرِ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، وَالْخَشْيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِعْظَامِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَغَيْرِهِمْ يَنْلَوْتُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَالْقَبَائِحِ، وَالْفَوَاحِشِ مَا تَكُونُ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِ هَذِهِ الْهَنَاتُ فِي حَقِّهِ كَالْحَسَنَاتِ، كَمَا قِيلَ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، أَيْ يَزَوِّنَهَا بِالإِضَافَةِ إِلَى عَلَيَّ أَحْوَالِهِمْ كَالسَّيِّئَاتِ.

وَكَذَلِكَ الْعِضْيَانُ: التَّرُكُ وَالْمُخَالَفَةُ؛ فَعَلَى مَقْتَضَى اللَّفْظَةِ كَيْفَمَا كَانَتْ مِنْ سَهْوٍ أَوْ تَأْوِيلٍ فَهِيَ مُخَالَفَةٌ وَتَرْكٌ.
وقوله تَعَالَى: ﴿فَغَوَى﴾ أَيْ: جَهَلَ أَنَّ يَلْكَ الشَّجَرَةَ هِيَ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا؛ وَالْعَنَى: الْجَهْلُ.

وقيل: أَخْطَأَ مَا طَلَبَ مِنَ الْخُلُودِ، إِذْ أَكَلَهَا، وَخَابَتْ أُمْنِيَّتُهُ.
وهذا يَوْسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ أَوْجَذَ بِقَوْلِهِ لِأَحَدِ صَاحِبَيْ السَّجْنِ:

﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّيهِ فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ يَضَعُ سِينِي﴾ [يوسف: ٤٢].

قيل: أنسي يوسف ذكْر الله.

وقيل: أنسي صاحبه أن يذكره لسيده الملك.

١٦٤٤ - قال النبي ﷺ: «لولا كلمة يوسف - عليه السلام - ما لبث في

السجن ما لبث».

قال مالك بن دينار: لما قال ذلك يوسف قيل له: اتخذت من دوني وكيلاً؟ لأطيلن حبسك. فقال: يا رب! أنسى قلبي كثرة البلوى.

وقال بعضهم: يؤاخذ الأنبياء بمناقيل الذر، لمكانتهم عنده، ويجاوز عن سائر الخلق لقلّة مبالاة بهم في أضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

وقد قال المحتج للفرقة الأولى على سبب ما قلناه: إذا كان الأنبياء يؤاخذون بهذا مما لا يؤاخذ به غيرهم من السهو والنسيان، وما ذكرته، وحالهم أرفع فحالهم إذا في هذا أسوأ حالاً من غيرهم.

فاعلم - أكرمك الله - أنا لا نثبت لك المواخذة في هذا على حدّ مواخذة غيرهم؛ بل نقول: إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا، ليكون ذلك زيادة في درجاتهم؛ ويبتلون بذلك، ليكون استشعارهم له سبباً لمنمأة رتبهم، كما قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَيْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٧٢].

وقال لداود: ﴿فَعَفَوْنَا لَكَ ذَلِكَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْدَ لِرُفْقَى وَحَسَنَ مَقَابٍ﴾ [ص: ٢٥].

وقال بعد قول موسى: ﴿بُتَّ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: ﴿إِنِّي اسْتَطَبْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٤] وقال بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته: ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ فَجَرَى بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [النحل: ١٠١] ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَلَاءٍ وَغَوَّاسٍ﴾ [النحل: ١٠٢] ﴿وَأَخْرَجَ مُفَرِّجِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [النحل: ١٠٣] ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِنْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النحل: ١٠٤] ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَنْدَ لِرُفْقَى وَحَسَنَ مَقَابٍ﴾ [ص: ٢٥]. [ص: ٣٦ - ٤٠].

وقال بعض المتكلمين: زلّات الأنبياء في الظاهر زلّات، وفي الحقيقة زلّف وكرامات، وأشار إلى نحو ما قدمناه.

وايضاً فلينبه غيرهم من البشر منهم، أو ممن ليس في درجاتهم بمواخذتهم بذلك، فيستفجروا الحذر؛ ويعتقدوا المحاسبة ليتزيموا الشكر على النعم، ويعبدوا

الصَّبْرُ عَلَى الْمَحَنِّ بِمِلَاحِظَةٍ مَا وَقَعَ بِأَهْلِ هَذَا النَّصَابِ الرَّفِيعِ الْمَعْصُومِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ سِوَاهُمْ؟! وَلِهَذَا قَالَ صَالِحُ الْمُزَيِّ: ذَكَرَ دَاوُدُ بَسْطَةَ اللَّتَوَائِينِ.

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: لَمْ يَكُنْ مَا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ قِصَّةِ صَاحِبِ الْخُوفِ نَقْصًا لَهُ، وَلَكِنْ اسْتِزَادَةً مِنْ نَبِيَّتِنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَيْضًا فَيُقَالُ لَهُمْ: فَإِنَّكُمْ، وَمَنْ وَافَقَكُمْ، تَقُولُونَ بِغُفْرَانِ الصَّغَائِرِ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ.

وَلَا خِلَافَ فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكِبَائِرِ، فَمَا جَوَزْتُمْ مِنْ وَقُوعِ الصَّغَائِرِ عَلَيْهِمْ هِيَ مَغْفُورَةٌ عَلَى هَذَا، فَمَا مَعْنَى الْمُواخَذَةِ بِهَا إِذَا عِنْدَكُمْ وَخُوفِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَوْبَتِهِمْ مِنْهَا، وَهِيَ مَغْفُورَةٌ لَهُمْ لَوْ كَانَتْ؟!

فَمَا أَجَابُوا بِهِ فَهُوَ جَوَابُنَا عَنْ الْمُواخَذَةِ بِأَفْعَالِ السُّهُوِّ وَالتَّأْوِيلِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ كَثْرَةَ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوْبَتِهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى وَجْهِ مِلَازِمَةِ الْخُضُوعِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَالاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيرِ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعْمِهِ.

١٦٤٥ - كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ أَمِنَ مِنَ الْمُواخَذَةِ مِمَّا تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟».

١٦٤٦ - وَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمُكُمْ بِمَا أَتَّقِي» [البخاري (٥٠٦٣)].

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ الْمَحَاسِبِيُّ: خُوفُ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ خُوفٌ إِعْظَامٍ وَتَعَبُّدٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا.

وَقِيلَ: فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقْتَدَى بِهِمْ، وَتَسْتَنَّى بِهِمْ أُمَّهَاتُهُمْ.

١٦٤٧ - كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَعْنَى آخَرَ لَطِيفًا أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ اسْتِدْعَاءُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فَأَحْدَاثُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الِاسْتِغْفَارَ وَالْأُوبَةَ وَالتَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ فِي كُلِّ جِيلٍ اسْتِدْعَاءٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالِاسْتِغْفَارُ فِيهِ أَيْضًا مَعْنَى التَّوْبَةِ، وَقَدْ قَالَ - اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - بَعْدَ أَنْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ: ﴿لَقَدْ تَابَكَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ١١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانَتْ قَوَابِلًا﴾ [النصر: ٣].

فصل

فِي فَوَائِدِ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ

قد استبان لك أيها الناظر! بما قررناه، ما هو الحق من عصمته - عليه السلام - عن الجهل بالله، وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة، بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقبلها سمعاً ونقلًا، ولا بشيء مما قرره من أمور الشريعة، وأذاه عن ربه من الوحي قطعاً عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول - منذ نبأه الله وأرسله - قسداً أو غير قسدي، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً، وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته؛ من رضا وغضب، وجد ومزح؛ فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، وتشذ عليه يد الضمين، وتقدير هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها. فإن من جهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز له، أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه، لا يأمن أن يعتد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا ينزهه عما لا يجب أن يضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدرى، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار؛ إذ ظن الباطل به؛ واعتقاده ما لا يجوز عليه - ﷺ - يحل بصاحبه دار البوار.

١٦٤٨ - ولهذا ما احتاط النبي - عليه السلام - على الرجلين اللذين رأياه ليلاً، وهو مكتفٍ في المسجد مع صفيّة، فقال لهما: «إنها صفيّة». ثم قال لهما: «إن الشيطان يخبرني من ابن آدم مجرى الدم؛ وإنني خشيت أن يغلب في قلوبكما شيئاً فتهلكا» [البخاري (٢٠٣٥)، مسلم (٢١٧٥)].

هذه - أكرمك الله - إحدى فوائد ما تكلمنا عليه من هذه الفصول؛ ولعل جاهلاً لا يعلم بجهله إذا سمع شيئاً منها يرى أن الكلام فيها جملة من فضول العلم، وأن السكوت أولى. وقد استبان لك أنه متعين للفائدة التي ذكرناها.

وفائدة ثانية يضطر إليها في أصول الفقه، ويبنى عليها مسائل لا تنعذ من الفقه، وتخلص بها من تشبيب مختلفي الفقهاء في عدة منها؛ وهي: الحكم في أقوال النبي ﷺ وأفعاله؛ وهو باب عظيم، وأصل كبير من أصول الفقه؛ ولا بد من بنائه على صديق النبي ﷺ في إخباره وبلاغه؛ وأنه لا يجوز عليه السهو فيه، وعصمته من الكبائر والمخالفة في أفعاله عمداً؛ وبحسب اختلافهم في وقوع الصغائر، وقّع خلاف

في امتثال الفعل، بسط بيانه في كُتب ذلك العلم؛ فلا نطوّل به.

وفائدة ثالثة: يحتاج إليها الحاكم والمفتي فيمن أضاف إلى النبي ﷺ شيئاً من هذه الأمور، ووصفه بها؛ فمن لم يعرف ما يجوز عليه وما يمتنع، وما وقع الإجماع فيه والخلاف، كيف يصمّم في الفتيا في ذلك؛ ومن أين يذري؟ هل ما قاله فيه نقص أو مدح؟ فإما أن يجترى على سفك دم مسلم حرام، أو يسقط حقاً، أو يضيع حرمة للنبي عليه السلام.

ولسبيل هذا ما قد اختلف فيه أرباب الأصول، وأئمة العلماء، والمحققين في عصمة الملائكة.

فصل

في القول في عصمة الملائكة عليهم السلام

أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء؛ واتفق أئمة المسلمين أن حُكّم المرسلين منهم حُكّم النبيين سواء في العصمة كما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في درجات الأنبياء، وحقوقهم، والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم. واختلفوا في غير المرسلين منهم؛ فذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي؛ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ويقوله: ﴿وَمَا مَنَّا إِلَّا لِمَ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١١٤) ﴿وَلَا لَنَحْنُ الْعَاوُنُونَ﴾ (١١٥) ﴿وَلَا لَنَحْنُ السَّيِّحُونَ﴾ (١١٦) [الصفات: ١٦٤-١٦٦].

ويقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠) [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ويقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (١٥١) [الأعراف: ٢٠٦].

ويقوله: ﴿كَرِيمٌ ذُو بَرٍّ﴾ (١١) [عبس: ١٦] و﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٦) [الواقعة: ٧٩] ونحوه من الآيات.

وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص المرسلين منهم والمقرّبين. واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير، نحن نذكرها - إن شاء الله - بعد؛ ونبيّن الوجه فيها إن شاء الله والصواب: عصمة جميعهم، وتنزيه جنابهم الرفيع عن

جميع ما يحط من رتبهم ومنزلتهم عن جليل بمقدارهم.

ورأيت بعض شيوخنا أشار إلى أن لا حاجة للفقهاء بالكلام في بعضهم، وأنا أقول: إن للكلام في ذلك ما للكلام في عصمة الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها، سوى فائدة الكلام في الأقوال والأفعال، فهي ساقطة ها هنا.

١٦٤٩ - فمما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت [أحمد (١٣٤/٢)]، وما ذكر فيها أهل الأخبار وثقله المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما.

فأعلم - وفقك الله - أن هذه الأخبار لم يروى منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في شيء يؤخذ بقباس.

والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر بعضهم قول بعضي، وأنكر أيضاً ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره. وهذه الأخبار من كتب اليهود وافتراءهم، كما نصه الله - تعالى - أول الآيات من افتراءهم بذلك على سليمان - عليه السلام - وتكفيرهم إياه.

وقد انطوت القضية على شئ عظيم. وما نحن نخبر في ذلك ما يكيف عن غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله.

فاختلف أولاً في هاروت وماروت، هل هما ملكان أو إنسيان؟ وهل هما المراء بالملكين أم لا؟ وهل القراءة ملكين أو ملكين بفتح اللام، أو بكسرهما أو بهما جميعاً؟ وهل «ما» في قوله: «وَمَا أَرِى عَلَى الْمَلَكَيْنِ» [البقرة: ١٠٢]. «وَمَا يَلْمِئَانِ مِنَ الْحَرِّ» [البقرة: ١٠٢] نافية أو موجبة؟

فأكثر المفسرين قالوا: إن الله تعالى افتنح الناس بالملكين لتعليم السحر وتبيينه، وأن عمله كفر فمن تعلمه كفر، ومن تركه آمن؛ قال الله تعالى حكاية عنهما: «إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» [البقرة: ١٠٢]. وتعليمهما للناس له تعليم إنذار، أي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه: لا تفعلوا كذا، فإنه يفرق بين المرء وزوجه؛ ولا تتخللوا بكذا؛ فإنه سحر، فلا تكفروا.

فعلى هذا: فعل الملكين طاعة، ونصرتهم فيما أمرا به ليس بمعصية؛ وهي لغيرهما فتنة.

ودوى ابن وهب، عن - خالد بن أبي عمران - أنه ذكر عنده هاروت وماروت، وأنهما يعلمان السحر، فقال: نحن نترفعهما عن هذا.

فقرأ بعضهم: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فقال خالد: لم يُنزل عليهما.

فهذا خالد - على جلالته وعلمه - نزههما عن تعليم السحر الذي قد ذُكر غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشرطة أن يبينّا أنه كفر، وأنه امتحان من الله تعالى وابتلاء؛ فكيف لا نُنزههما عن كبائر المعاصي والكُفر المذكورة في تلك الأخبار؟

وقول خالد: لم يُنزل: يريد أن «ما» نافية؛ وهو قول ابن عباس؛ قال مكّي: وتقدير الكلام: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢] يريد بالسحر الذي افتعلته عليه الشياطين، واتبعتم في ذلك اليهود.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال مكّي: هما جبريل وميكائيل: ادعى اليهود عليهما المجيء به، كما ادعوا على سليمان، فأكذبهم الله تعالى بقوله في ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قيل: هما رجلان تعلماء.

قال الحسن: هاروت وماروت عِلْجان من أهل بابل؛ وقرأ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ - بكسر اللام، وتكون «ما» إيجاباً على هذا.

وكذلك قراءة عبدالرحمن بن أبيزى: بكسر اللام. ولكنه قال: المَلِكَا هنا: داود وسليمان وتكون «ما» تقياً على ما تقدّم.

وقيل: كانا ملكين من بني إسرائيل، فمسخهما الله، حكاة السمرقندي. والقراءة بكسر اللام شاذة؛ فَمَحْجِلُ الآية - على تقدير أبي محمد: مكّي - حسن، ينزه الملائكة، ويذهب الرَجَسَ عنهم، ويطهرهم تطهيراً.

وقد وصفهم الله بأنهم مُطَهَّرُونَ، وكَرَامٌ بَرَّة، ولا يَغْضُونَ الله ما أمرهم. ومما يذكرونه قصة إبليس، وأنه كان من الملائكة ورئياً فيهم، ومن خُرَانِ الجنة... إلى آخر ما حَكَوْهُ، وأنه استثناه من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] وهذا أيضاً لم يُتَّفَقْ عليه؛ بل الأكثرُ يَنْفُونَ ذلك، وأنه أبو الجن، كما أن آدم أبو الإنس؛ وهو قول الحسن، وقتادة، وابن زيد.

وقال شهر بن حوشب: كان مِنَ الْجِنِّ الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا؛ والاستثناء من غير الجنس شائع، في كلام العرب سائع؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

وَمِمَّا رَوَّاهُ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ خَلْقًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَصَوْا اللَّهَ فَحُرِّقُوا، وَأَمُرُوا أَنْ
يَسْجُدُوا لِآدَمَ فَأَبَوْا فَحُرِّقُوا، ثُمَّ آخَرُونَ كَذَلِكَ؛ حَتَّى سَجَدَ لَهُ مَنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى
إِلَّا إِبْلِيسَ، فِي أَخْبَارٍ، لَا أَضِلُّ لَهَا، تَرُدُّهَا صِحَاحُ الْأَخْبَارِ، فَلَا يُشْتَغَلُ بِهَا. وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.



الباب الثاني من القسم الثالث

فِيمَا يَخْصُّهُمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيَظَرُّ عَلَيْهِمْ مِنْ
الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ

قد قَدَّمْنَا أَنَّهُ - عليه السلام - وسائر الأنبياء والرسل مِنَ الْبَشَرِ، وَأَنَّ جِسْمَهُ، وَظَاهِرَهُ خَالِصٌ لِلْبَشَرِ، يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ الْآفَاتِ وَالتَّغْيِيرَاتِ، وَالْآلَامِ وَالْأَسْقَامِ، وَتَجَرُّعِ كَأْسِ الْحِمَامِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْبَشَرِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ بِنَقِصَةٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِنَّمَا يَسْمَى نَاقِصًا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا هُوَ أَتَمُّ مِنْهُ وَأَكْمَلُ مِنْ نَوْعِهِ؛ وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ: ﴿فِيهَا مَحَبَّةٌ وَفِيهَا تَمَوُّنٌ وَفِيهَا تَخَرُّجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وَخَلَقَ جَمِيعَ الْبَشَرِ بِمَذْرَجَةِ الْغِيَرَةِ: فَقَدْ مَرَضَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاشْتَكَى، وَأَصَابَهُ الْحَرُّ وَالْقُرُّ، وَأَدْرَكَهُ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَلَحِقَهُ الْغَضَبُ وَالضَّجَرُ، وَنَالَ الْإِعْيَاءَ وَالتَّعَبَ، وَمَسَّهُ الضَّغْفُ وَالْكِبَرُ، وَسَقَطَ فَجَحِشَ شِقُّهُ [البخاري (٨٠٥)]، مُسَلِّمٌ (٤١١)، وَشَجَّهُ الْكَفَّارُ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ، وَسَقَى السُّمَّ، وَسَحَرُوا، وَتَدَاوَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَاحْتَجَمَ، وَتَنَشَّرَ، وَتَعَوَّدَ، ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ فَتَوَفَّى ﷺ، وَلَجِقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَتَخَلَّصَ مِنْ دَارِ الْإِمْتِحَانِ وَالْبَلَاةِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا سِمَاتُ الْبَشَرِ الَّتِي لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهَا؛ وَأَصَابَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَقَتِلُوا قَتْلًا.

وَرُمُوا فِي النَّارِ، وَنُشِرُوا بِالنَّاشِيرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ. وَمِنْهُمْ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا عَصَمَ بَعْدُ نَبِيَّنَا - ﷺ - مِنَ النَّاسِ؛ فَلَيْتَ لِمَ يَكْفِ نَبِيَّنَا رَبُّهُ يَدَ ابْنِ قَيْمَةِ يَوْمِ أَحَدٍ، وَلَا حَاجَةَ عَنْ عُيُونِ عِدَاةِ عِنْدَ دَعْوَتِهِ أَهْلَ الطَّائِفِ؛ فَلَقَدْ أَخَذَ عَلَى عُيُونِ قُرَيْشٍ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى ثَوْرٍ، وَأَمْسَكَ عَنْهُ سَيْفَ غَوَزَ، وَحَجَرَ أَبِي جَهْلٍ، وَفَرَسَ سُرَاقَةَ؛ وَلَنْ لِمَ يَبْقَ مِنْ

يسخر ابن الأعصم فلقد وقاه ما هو أعظم منه، من سُم اليهودية.

وهكذا سائر أنبيائه، مُبتلى، ومُعافى؛ وذلك مِنْ ثَمَام حِكْمته، لِيُظْهِرَ شَرَفَهُمْ في هذه المقامات، ويبين أمرهم، ويُنَمِّ كَلِمته فيهم، وليَحَقِّقَ بامتحانهم بُشْرِيَّتَهُمْ، ويرتفع الالْتِبَاسُ عن أهل الضَّعْف فيهم، لِئَلَّا يَضَلُّوا بما يَظْهَرُ من العجائب على أيديهم، ضَلَالٌ النَّصَارَى بعبسى ابنِ مريم عليه السلام، وليكونَ في مِخْنِهِمْ تَسْلِيَةً لِأَمَمِهِمْ، ووفور لأجورهم عند ربهم، تماماً على الذي أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ.

قال بعضُ المحققين: وهذه الطوارئ والتغيرات المذكورة إنما تختصُّ بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر، ومعاناة بني آدم لِمُشَاكَلَةِ الجنس.

وأما بَوَاطِنُهُمْ: فمنزَّهَةٌ غالباً عن ذلك، معصومةٌ منه، متعلقةٌ بالملا الأعلى والملائكة لأخذها عنهم، وتلقِّيها الزُخِّي منهم.

١٦٥٠ - قال: وقد قال عليه السلام: «إِنْ عَيْنِي تَامَانٍ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».

١٦٥١ - وقال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيْنِي».

١٦٥٢ - وقال: «لَسْتُ أَتْسَى، وَلَكِنْ أَتْسَى، لِيَسْتَنْ بِي».

فاخبر - عليه السلام - أَنَّ سِرَّهُ وبَاطِنَهُ وَرُوحَهُ بخلاف جسمه وظاهره، وَأَنَّ الآفَاتِ الَّتِي تَحُلُّ ظَاهِرَهُ من ضَعْف وجوع، وَسَهَر ونَوْم، لَا يَحُلُّ مِنْهَا شَيْءٌ بِبَاطِنِهِ، بخلاف غيره من البشر في حُكْم الباطن؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ إِذَا نَامَ اسْتَغْرَقَ النَّوْمُ جِسْمَهُ وَقَلْبَهُ.

١٦٥٣ - وهو - عليه السلام - في نومه حَاضِرُ الْقَلْبِ كما هو في يَقْظَتِهِ، حَتَّى قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّهُ كَانَ مُحْرُوساً مِنَ الْخَدَثِ فِي نومه لِكُونِ قَلْبِهِ يَقْظَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

١٦٥٤ - وكذلك غيره إِذَا جَاعَ ضَعُفَ لَذَلِكَ جِسْمُهُ، وَخَارَتْ قُوَّتُهُ، فَبَطَلَتْ بِالْكَلِيَّةِ جَمَلَتُهُ، وَهُوَ - عليه السلام - قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغْتَرِيهِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ بِخِلَافِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «لَسْتُ كَهَيْتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيْنِي».

وكذلك أَقُولُ: إِنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ مِنْ وَضَبٍ وَمَرَضٍ، وَسِخْرِ وَعَرَضٍ، وَغَضَبٍ، لَمْ يَخْرِ عَلَى بَاطِنِهِ مَا يُجْلِي بِهِ، وَلَا فَاضٍ مِنْهُ عَلَى لِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، كَمَا يَغْتَرِي غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ مِمَّا نَأْخُذُ بَعْدَ فِي بَيَانِهِ.

فصل

في الزِّدِّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي حَدِيثِ السُّخْرِ

١٦٥٥ - فَإِنْ قُلْتُ: فَقَدْ جَاءَتْ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُجِّرَ كَمَا حَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَتَّابِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ خُلْفٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ، حَدَّثَنَا الْبَخَارِيُّ، حَدَّثَنَا عَيْبِدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سُجِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - حَتَّى إِنَّهُ لِيُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ [البخاري (٥٧٦٦)، مسلم (٢١٨٩)].

١٦٥٦ - وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: حَتَّى كَانَ يَخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ... الْحَدِيثُ [البخاري (٥٧٦٥)].

وَإِذَا كَانَ هَذَا مِنَ التَّبَاسِ الْأَمْرِ عَلَى الْمَسْحُورِ فَكَيْفَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ وَكَيْفَ جَازَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَعْصُومٌ؟!

فَاعْلَمْ - وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ - أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ طَعَنَتْ فِيهِ الْمُلْحِدَةُ، وَتَذَرَعَتْ بِهِ - لِسُخْفِ عَقُولِهَا وَتَلْيِيسِهَا عَلَى أَمْثَالِهَا - إِلَى التَّشْكِيكِ فِي الشَّرْعِ؛ وَقَدْ نَزَّ اللَّهُ الشَّرْعَ وَالنَّبِيُّ عَمَّا يُدْخِلُ فِي أَمْرِهِ لَيْسَاءً، وَإِنَّمَا السُّخْرُ مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَعَارِضٌ مِنَ الْعِلَلِ، تَجَوُّزٌ عَلَيْهِ كَأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ مِمَّا لَا يُتَنَكَّرُ وَلَا يَقْدَحُ فِي ثُبُوتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يَخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يُدْخِلُ عَلَيْهِ دَاخِلَةً فِي شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ، أَوْ يَقْدَحُ فِي صِدْقِهِ؛ لِقِيَامِ الدَّلِيلِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى عِصْمَتِهِ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا هَذَا فِيمَا يَجَوُّزُ طُرُوزُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ الَّتِي لَمْ يُنَبِّعْ بِسَبَبِهَا، وَلَا قُضِلَ مِنْ أَجْلِهَا؛ وَهُوَ فِيهَا عَرَضَةٌ لِلْأَقَاتِ كَسَائِرِ الْبَشَرِ؛ فَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يُخَيَّلَ إِلَيْهِ مِنْ أَمُورِهَا مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، ثُمَّ يَنْجَلِي عَنْهُ، كَمَا كَانَ.

١٦٥٧ - وَأَيْضاً فَقَدْ فَسَّرَ هَذَا الْفَضْلُ الْحَدِيثَ الْآخَرَ مِنْ قَوْلِهِ: «حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ». وَقَدْ قَالَ سَفِيَانٌ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السُّخْرِ [البخاري (٥٧٦٥)].

وَلَمْ يَأْتِ فِي خَبَرٍ مِنْهَا أَنَّهُ نُقِلَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، قَوْلٌ بِخِلَافِ مَا كَانَ أَخْبَرَ أَنَّهُ

فعله ولم يَقْعَلْهُ؛ وإنما كانت خواطر وتخيلات.

وقد قيل: إنَّ المراد بالحديث أنه كان يتخيلُ الشيء أنه فعله، وما فعله، لكنه تخيل لا يَغْتَقِدُ صحته، لتكون - بحمد الله - اعتقاداته كلها على السَّدَادِ، وأقواله على الصحة.

١٦٥٨ - هذا ما وَقَعْتُ عليه لأنمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث مع ما أَوْضَحْنَاهُ من معنى كلامهم، وَرِذْنَاهُ بياناً من تلويحاتهم. وَكُلُّ وَجْهِ منها مُفْنِغٌ؛ لكنه قد ظهر لي في الحديث تَأْوِيلٌ أَجْلَى وَأَبْعَدُ من مَطَاعِنِ ذَوِي الْأَصْلِيلِ، يستفاد من نَفْسِ الحديث؛ وهو أَنَّ عبدَ الرَّزَّاقِ قد رَوَى هذا الحديث، عن ابنِ الْمُسَيَّبِ، وَغُرُورِ بْنِ الزَّيْرِ، وقال فيه عنهما: سَحَرَ يَهُودُ بْنُ زُرَيْقٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فجعلوه في بشر حتى كاد رسول الله ﷺ أَنْ يُنْكَرَ بَصْرَهُ؛ ثُمَّ ذَلَّ اللَّهُ عَلَى مَا صَنَعُوا فاستخرجوه من البشر.

وَرَوَى نحوه، عن الواقدي، وعن عبد الرحمن بن كعب، وَعُمَرُ بْنُ الْحَكَمِ. ١٦٥٩ - وَذَكَرَ عَنْ عطاء الخُرَّاساني، عن يحيى بن يَغْمَرٍ: حُبِسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ سَنَةً، فَبَيْنَا هُوَ نَائِمٌ أَنَا هُنا، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ... الحديث. ١٦٦٠ - قال عبد الرزاق: حُبِسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ خَاصَّةً سَنَةً حَتَّى أَنْكَرَ بَصْرَهُ.

١٦٦١ - وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحُبِسَ عَنِ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَهَبَطَ عَلَيْهِ مَلَكَانِ... وَذَكَرَ الْقِصَّةَ. فَقَدْ اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ مَضْمُونِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ السُّخْرَ إِنَّمَا تَسَلَّطَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَجَوَارِحِهِ، لَا عَلَى قَلْبِهِ وَاعْتِقَادِهِ وَعَقْلِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَثَّرَ فِي بَصَرِهِ، وَحَبَسَهُ عَنْ وَطْءِ نِسَائِهِ، وَطَعَامِهِ، وَأَضْعَفَ جِسْمَهُ وَأَمْرَضَهُ؛ وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: «يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِيهِنَّ» أَيُّ: يَظْهَرُ لَهُ مِنْ نَشَاطِهِ وَمَتَقَدِّمِ عَادَتِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَإِذَا دَنَا مِنْهُنَّ أَصَابَتْهُ أَخْذَةُ السُّخْرِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِيْتَانِهِنَّ كَمَا يَعْتَرِي مَنْ أَخِذَ وَاعْتَرَضَ.

ولعله لمثل هذا أشار سُفْيَانُ بِقَوْلِهِ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السُّخْرِ [البخاري (٥٧٦٥)]. وَيَكُونُ قَوْلُ عَائِشَةَ فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى: «إِنَّهُ لِيُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، أَوْ مَا فَعَلَهُ مِنْ بَابِ مَا اخْتَلَّ مِنْ بَصَرِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ؛ فَيُظَنُّ أَنَّهُ رَأَى شَخْصاً مِنْ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ، أَوْ شَاهَدَ فِعْلاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى مَا

يُخَيَّلُ إِلَيْهِ، لَمَّا أَصَابَهُ فِي بَصَرِهِ وَضَعْفُ نَظَرِهِ، لَا لَشَيْءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ فِي مَيزَرِهِ.
وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيمَا ذُكِرَ مِنْ إَصَابَةِ السُّحْرِ لَهُ، وَتَأْثِيرِهِ فِيهِ، مَا
يُدْخِلُ لَبْسًا، وَلَا يَجِدُ بِهِ الْمَلْحَدُ الْمَعْتَرِضُ أُتْسًا.

فصل

فِي أَحْوَالِهِ ﷺ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا

هَذِهِ حَالُهُ فِي جِسْمِهِ، فَأَمَّا أَحْوَالُهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَتَحْنُ نَسْبَرُهَا عَلَى أَسْلُوبِهَا
الْمَتَقَدِّمِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِالْعَقْدِ وَالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

١٦٦٢ - أَمَّا الْعَقْدُ مِنْهَا فَقَدْ يَغْتَقِدُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا الشَّيْءَ عَلَى وَجْهِ وَيُظْهِرُ
خِلَافَهُ، أَوْ يَكُونُ مِنْهُ عَلَى شَكٍّ أَوْ ظَنٍّ بِخِلَافِ أُمُورِ الشَّرْعِ؛ كَمَا حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ:
سُفْيَانُ بْنُ الْعَاصِي، وَغَيْرُ وَاحِدٍ سَمَاعًا وَقِرَاءَةً؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ: أَحْمَدُ بْنُ
عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا ابْنُ
سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرُّومِيِّ، وَعَبَّاسُ الْعَنْبَرِيِّ وَأَحْمَدُ
الْمَعْقِرِيُّ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو
النَّجَاشِيِّ؛ قَالَ حَدَّثَنَا رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ؛ قَالَ: قَدِيمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةُ وَهُمْ
يَأْتِرُونَ التَّخْلَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَضْغُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ
تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا؛ فَتَرَكُوهُ، فَتَقَصَّصْتُ؛ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا
أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»
[مسلم (٢٣٦٢)].

١٦٦٣ - وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» [مسلم (٢٣٦٣)].
١٦٦٤ - وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تَوَاضَعُونَ بِالظَّنِّ» [مسلم
(٢٣٦١)].

١٦٦٥ - وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ الْخَرْصِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ
نَفْسِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَخْطِئُ وَأُصِيبُ».

وَهَذَا عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فِيمَا قَالَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَظَنَّهُ مِنْ
أَحْوَالِهَا، لَا مَا قَالَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَاجْتِهَادَهُ فِي شَرْعٍ شَرَعَهُ؛ أَوْ سُنَّةٍ سَنَّهَا.

١٦٦٦ - وَكَمَا حَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا نَزَلَ بِأَذْنِ مِيَاهِ
بَذَرٍ، قَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْدَرِ: أَهَذَا مَنْزِلُ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ، أَمْ هُوَ

الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «لا، بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: فإنه ليس بمثل، انهض حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فتنزله، ثم نعوذ ما وراه من القلب؛ فنشرب ولا يشربون.

فقال: «أشزت بالرأي»، وفعل ما قاله.

وقد قال له الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. [آل عمران: ١٥٩].

١٦٦٧ - وأزاد مصالحةً بغضِ عدوه على ثلث ثَمَرِ المدينة، فاستشار الأنصار. فلما أخبروه برأيهم رجع عنه.

فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة، ولا اعتقادها، ولا تعليمها، يجوزُ عليه فيها ما ذكرناه؛ إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطّة؛ وإنما هي أمورٌ اعتيادية يعرفها من جربها، وجعلها همّه، وشغل بها نفسه، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الزبوية؛ ملأ الجوانح بالعلوم الشرعية، مُقَيّد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النادر وفيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والعفلة.

وقد تواترَ بالنقل عنه - عليه السلام - من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها، وسياسة فِرَق أهلها ما هو معجزٌ في البشر، مما قد نبهنا عليه في باب معجزاته - عليه السلام - من هذا الكتاب.

فصل

في ما يُعْتَقَدُ في أمورِ أحكامِ البشرِ الجارية على يديه ﷺ وقضائهم

١٦٦٨ - وأما ما يُعْتَقَدُ في أمورِ أحكامِ البشرِ الجارية على يديه وقضائهم، ومعرفة المحقّ من المُنْطَل، وعِلْمُ الْمُصْلِحِ مِنَ الْمُفْسِدِ، فهذه السَّبِيلُ؛ لقوله عليه السلام: «إنما أنا بشرٌ وإنكم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فاقضي له على نحو ما أسمع؛ فمن قضيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذ منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار» [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٦٩ - حدثنا الفقيه أبو الوليد رحمه الله؛ حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عُمَرَ، حدثنا أبو محمد، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سُفيان، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن زينب

بنت أم سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ...
الحديث [أبو داود (٣٥٨٣)].

١٦٧٠ - وفي رواية الزهري، عن عروة، قال: «فلعل بعضكم أن يكون أَبْلَغُ من بعض؛ فأخسب أنه صادق فأقضي له» [البخاري (٢٤٥٨)، مسلم (٥/١٧١٣)].

وتَجْرِي أَحْكَامُهُ - عليه السلام - على الظاهر ومُوجِبِ غَلَبَاتِ الظَّنِّ بِشَهَادَةِ الشَّاهِدِ، وَيَمِينِ الْحَالِفِ، وَمَرَاعَاةِ الْأَشْيَاءِ، وَمَعْرِفَةِ الْعِفَاصِ وَالْوِكَاءِ، مَعَ مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى - لَوْ شَاءَ - لَأُطْلِعَهُ عَلَى سَرَائِرِ عِبَادِهِ، وَمُخْبَآتِ ضَمَائِرِ أُمَّتِهِ؛ فَتَوَلَّى الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ بِمَجْرَدِ يَقِينِهِ وَعِلْمِهِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى اعْتِرَافٍ، أَوْ بَيِّنَةٍ، أَوْ يَمِينٍ أَوْ شُبْهَةٍ؛ وَلَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي أَحْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَقَضَايَاهُ، وَسِيرِهِ؛ وَكَانَ هَذَا لَوْ كَانَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِعِلْمِهِ وَيُؤَثِّرُهُ اللَّهُ بِهِ، لَمْ يَكُنْ لِلْأُمَّةِ سَبِيلٌ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا قَامَتْ حُجَّةٌ بِقَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَاهُ لِأَحَدٍ فِي شَرِيعَتِهِ؛ لِأَنَّا لَا نَعْلَمُ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ هُوَ فِي تِلْكَ الْقَضِيَّةِ لِحُكْمِهِ هُوَ إِذَا فِي ذَلِكَ بِالْمَكْنُونِ مِنْ إِعْلَامِ اللَّهِ لَهُ بِمَا أُطْلِعَهُ عَلَيْهِ مِنْ سَرَائِرِهِمْ؛ وَهَذَا مَا لَا تَعْلَمُهُ الْأُمَّةُ؛ فَأَجْزَى اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى ظَوَاهِرِهِمُ الَّتِي يَسْتَوِي فِيهَا هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ؛ لِيَتِمَّ اقْتِدَاءُ أُمَّتِهِ بِهِ فِي تَغْيِينِ قَضَايَاهُ، وَتَنْزِيلِ أَحْكَامِهِ، وَيَأْتُونَ مَا أَتَوْا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ وَيَقِينٍ مِنْ سُنَّتِهِ، إِذَ الْبَيَانُ بِالْفِعْلِ أَوْفَعُ مِنْهُ بِالْقَوْلِ، وَأَزْفَعُ لِحَتْمَالِ اللَّفْظِ، وَتَأْوِيلِ الْمَتَاوَلِ؛ وَكَانَ حُكْمُهُ عَلَى الظَّاهِرِ أَجْلَى فِي الْبَيَانِ، وَأَوْضَحَ فِي وَجْهِهِ الْأَحْكَامِ، وَأَكْثَرَ فَائِدَةً لِمَوْجِبَاتِ التَّشَاجُرِ وَالْخِصَامِ، وَلِيَقْتَدِيَ بِذَلِكَ كُلُّ حُكَّامٍ أُمَّتِهِ، وَيُسْتَوْتِقَ بِمَا يُؤَثِّرُ عَنْهُ، وَيَنْضَبِطَ قَانُونُ شَرِيعَتِهِ، وَطَيَّ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ بِهِ ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) إِلَّا مَنْ أَرْزَقْنِي مِنْ رَسُولٍ ﴿الْجِن: ٢٦، ٢٧﴾ فَيَعْلَمُهُ مِنْهُ بِمَا شَاءَ، وَيَسْتَأْثِرُ بِمَا شَاءَ، وَلَا يَقْدَحُ هَذَا فِي نُبُوَّتِهِ، وَلَا يَقْصِمُ عُرْوَةَ مِنْ عَصَمَتِهِ.

فصل

فِي أَقْوَالِهِ ﷺ الدِّنْيَوِيَّةِ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا فَعَلَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ

وَأَمَّا أَقْوَالُهُ الدِّنْيَوِيَّةُ: مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا يَفْعَلُهُ أَوْ فَعَلَهُ - فَقَدْ قَدَّمْنَا - أَنَّ الْخُلَفَ فِيهَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَعَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ مِنْ عَمْدٍ أَوْ سَهْوٍ، أَوْ صَحِيحَةٍ، أَوْ مَرَضٍ، أَوْ رَضَا، أَوْ غَضَبٍ، وَأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْهُ ﷺ.

هذا فيما طريقه الخبر المَحْضُ مما يدخله الصَّدَقُ والكَذِبُ؛ فأما المعارضُ، الموجهُ ظاهرها جَلَّافٌ باطنها، فجائزٌ ورودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لِقْضِ المصلحة.

١٦٧١ - كُتِبَتْهُ عَنْ وَجْهِ مَغَازِيهِ لئَلَّا يَأْخُذَ الْعَدُوُّ حِذْرَهُ.

وكما رُوي مِنْ مُمَازِحَتِهِ وَدُعَابَتِهِ لِبَسْطِ أَمَّتِهِ، وَتَطْيِيبِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ صَبَاحَتِهِ، وَتَأْكِيدِ فِي تَخْيِيمِهِمْ وَصَحْبَتِهِمْ، وَمَسْرَةِ نَفْسِهِمْ.

١٦٧٢ - كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا تُخْبِلُكَ عَلَى ابْنِ النَّاقَةِ» [أبو داود (٤٩٩٨)،

أحمد (٢٦٧/٣)].

١٦٧٣ - وَقَوْلُهُ - لِلْمَرْأَةِ الَّتِي سَأَلَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا: «أَهُوَ الَّذِي بَعَيْنِهِ بَيَاضٌ».

وهذا كُلُّهُ صِدْقٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ جَمَلٍ ابْنُ نَاقَةٍ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ بَعِينُهُ بَيَاضٌ.

١٦٧٤ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَأَمْرُخٌ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا» [الترمذي

(١٩٩٠)، أحمد (٣٤٠/٢)].

هذا كُلُّهُ فِيْمَا بَابُهُ الْخَبَرُ؛ فَأَمَّا مَا بَابُهُ غَيْرُ الْخَبَرِ فِيْمَا صُوِّرَتْهُ صُورَةُ الْأَمْرِ وَالتَّهْنِ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَلَا يَصْخُ مِنْهُ أَيْضًا، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ أَحَدًا بِشَيْءٍ أَوْ يَنْهَى أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ وَهُوَ يُنْظَنُ خِلَافُهُ.

١٦٧٥ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَضْيَانِ» [أبو

داود (٢٦٨٣)، النسائي (١٠٦/٧)]. فَكَيْفَ أَنْ تَكُونَ لَهُ خِيَانَةُ قَلْبٍ؟!

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ زَيْدٍ: ﴿وَإِذْ قَوْلُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمِيكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب: ٣٧].

فَاعْلَمْ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - وَلَا تَسْتَرْبِ فِي تَزْيِيرِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ هَذَا الظَّاهِرِ وَأَنْ يَأْمُرَ زَيْدًا بِإِمْسَاكِهَا وَهُوَ يَحِبُّ تَطْلِيْقَهُ إِيَّاهَا، كَمَا ذُكِرَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

١٦٧٦ - وَأَصَحُّ مَا فِي هَذَا الْقَوْلِ مَا حَكَاهُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ

الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ أَعْلَمَ نَبِيَّهُ أَنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ، فَلَمَّا شَكَاهَا إِلَيْهِ زَيْدٌ قَالَ لَهُ: ﴿أَمِيكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الاحزاب: ٣٧]

وَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ مَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا مِمَّا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَمُظْهِرُهُ بِتِمَامِ التَّرْوِيجِ وَطَلَاقِ زَيْدٍ لَهَا.

١٦٧٧ - وَرَوَى نَحْوَهُ عَمْرُو بْنُ فَاثِدٍ، عَنْ الزَّهْرِيِّ، قَالَ: نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَى

النبي ﷺ يُعَلِّمُهُ أَنَّ اللَّهَ يَزْوَجُهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ؛ فذلِكَ الَّذِي أَخْفَى فِي نَفْسِهِ. وَيُصَحِّحُ هَذَا قَوْلَ الْمَفْسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] أَيْ: لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا.

وَيُوضِّحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُبَيِّدْ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهَا غَيْرَ زَوَاجِهِ إِيَّاهَا، فَدَلَّ أَنَّهُ الَّذِي أَخْفَاهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمَا كَانَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وقوله تعالى في آخر هذه القصة في بقية الآيات: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَرَجٌ فِي الْأَمْرِ. قَالَ الطَّبْرِيُّ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُؤْتِمَّ نَبِيَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيمَا أَحَلَّ لَهُ مِثَالَ فِعْلِهِ لِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أَيْ مِنَ النَّبِيِّينَ فِيمَا أُحِلَّ لَهُمْ.

١٦٧٨ - وَلَوْ كَانَ - عَلَى مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ قَتَادَةَ - مِنْ وَقْعِهَا مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا أَعْجَبَتْهُ، وَمَحَبَّتِهِ طَلَاقَ زَيْنَدٍ لَهَا لَكَانَ فِيهِ أَعْظَمُ الْحَرَجِ، وَمَا لَا يَلْبِقُ بِهِ مِنْ مَدَّةٍ عَيْنِيهِ لِمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَكَانَ هَذَا نَفْسَ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ الَّذِي لَا يَرْضَاهُ، وَلَا يَتَّسِمُ بِهِ الْأَتَقِيَاءُ، فَكَيْفَ سَبَدُ الْمُرْسَلِينَ؟ قَالَ الْقُسَيْرِيُّ: وَهَذَا إِقْدَامٌ عَظِيمٌ مِنْ قَائِلِهِ، وَقَلَّةٌ مَعْرِفَةٌ بِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَبِقُضْلِهِ.

وكيف يقال: رَأَاهَا فَأَعْجَبَتْهُ؟ وَهِيَ: بِنْتُ عَمَّتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مِنْذُ وَلِدَتْ، وَلَا كَانَ النِّسَاءُ يَخْتَجِبْنَ مِنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، هَذَا وَهُوَ زَوَّجَهَا لَزَيْنَدٍ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ طَلَاقَ زَيْنَدٍ لَهَا، وَتَزْوِيجَ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهَا؛ لِإِزَالَةِ حُزْمِهِ الثَّابِتِي، وَإِبْطَالِ سُنَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ...﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَرْوَاحِهِمْ﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٣٧]. وَنَحْوُهُ لِابْنِ فُورَكَ.

وقال أبو الليث السمرقندي: فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْفَائِدَةُ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَزَيْنَدٍ بِإِمْسَاكِهَا؟ فَهِيَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَ نَبِيَّهَ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ، فَهَاءُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ طَلَاقِهَا؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمَا أَلْفَةً؛ وَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ - ﷺ - مَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَيْنَدَ خَشِيَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَ النَّاسِ: يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً ابْنِيهِ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِزَوَّاجِهَا لِيَبَاحِ مِثْلُ

ذلك لأئمة، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَا يَكُونْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد قيل: كان أمره ليزيد بامساكها قمعاً للشهوة، ورداً للنفس عن هواها. وهذا القول إذا جوزنا عليه - عليه السلام - أنه رآها فجأة واستحسنها. فمثل هذا لا تُكره فيه، لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه الحسن، ونظرة الفجأة مغفوة عنها؛ ثم قمع نفسه عنها، وأمر زيداً بامساكها؛ وإنما تُتكرّر تلك الزيادات التي في القصة. والتعويل والأولى ما ذكرناه عن علي بن الحسين، وحكاة السمرقندي؛ وهو قول ابن عطاء، وصححه واستحبه القاضي الفشتري. وعليه عول أبو بكر بن فوزك، وقال: إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير؛ قال: والنبى ﷺ منزهة عن استعمال التَّفَاق في ذلك، وإظهار خلاف ما في نفسه، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقال: ومن ظن ذلك بالنبي ﷺ فقد أخطأ.

قال: وليس معنى الخشية - هنا -: الخوف؛ وإنما معناه: الاستحياء؛ أي: يستحيي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه.

وأن خشيته - عليه السلام - من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبيهم على المسلمين بقولهم: تزوج محمد زوجة ابنه، بعد نهي عن نكاح حلال الأبناء؛ فعتبه الله - عز وجل - على هذا، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له، كما عتبه على مُرَاعَاةِ رِضَا أَزْوَاجِهِ في سورة التحريم بقوله: ﴿لَا تَحْرِمُوا مَا آَلَ اللَّهُ لَكُمْ بَيْنَ مَرْصَاتٍ أَزْوَاجُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] وكذلك قوله له هنا: ﴿وَتَحْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

١٦٧٩، ١٦٨٠ - وقد روي عن الحسن البصري وعائشة: لو كنتم رسول الله ﷺ - شيئاً مما نزل عليه هذه الآية [مسلم (٢٨٨/١٧٧)، الترمذي (٣٢٠٨)] لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه.

فصل

في شرح حديث الوصية في مرضه ﷺ

١٦٨١ - فإن قلت: قد تقررت عصمته - عليه السلام - في جميع أقواله وأحواله، وأنه لا يصح منه فيها خُلف ولا اضطراب، في عَمْدٍ ولا سَهْوٍ، ولا صحبة ولا مَرَضٍ، ولا جَدٍّ ولا مزح، ولا رِضاً ولا غَضَبٍ. ولكن ما معنى

الحديث في وصيته - عليه السلام - الذي حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله؛ قال: حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو الهيثم، وأبو إسحاق؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا عبد الرزاق بن همام، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ قال: لَمَّا حَضِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بِهِ» [البخاري (٤٤٣٢)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

فقال بعضهم: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ... الحديث.
١٦٨٢ - وفي رواية: «اِئْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بِهِ أَبَدًا» فتنازعوا، فقالوا: مَالَهُ؟ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ؛ فقال: «دَعُونِي، فَإِنَّ الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ» [البخاري (٣١٦٨، ٤٤٣١)، مسلم (٢٠/١٦٣٧)].

١٦٨٣ - وفي بعض طُرُقِهِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَهْجُرُ؟ [مسلم (٢١/١٦٣٧)].
١٦٨٤ - وفي رواية: هَجَرَ [البخاري (٣٠٥٣)]. وَيُزَوَّى: أَهْجَرَ؟ وَيُرَوَّى: أَهْجَرَ؟

١٦٨٥ - وفيه: فقال عُمر: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ، حَسْبُنَا. وَكَثُرَ اللَّعَطُ؛ فقال: «قَوْمُوا عَنِّي» [البخاري (١١٤)].
١٦٨٦ - وفي رواية: واختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم مَنْ يَقُولُ: قَرَّبُوا لَهُ يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمر [البخاري (٧٣٦٦)، مسلم (٢٢/١٦٣٧)].

قال أنمتنا في هذا الحديث: النبي - ﷺ - غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَمَا يَكُونُ مِنْ عَوَارِضِهَا مِنْ شِدَّةٍ وَجَعٍ، وَغَشْيٍ، وَنَحْوِهِ مِمَّا يَطْرَأُ عَلَى جِسْمِهِ، مَعْصُومٌ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مَا يَطْعَنُ فِي مُعْجَزَتِهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى فُسَادٍ فِي شَرِيعَتِهِ مِنْ هَذَيَانٍ، أَوْ اخْتِلَالٍ فِي كَلَامٍ.

وعلى هذا لَا يَصِحُّ ظَاهِرُ رِوَايَةٍ مَنْ رَوَى فِي الْحَدِيثِ: «هَجَرَ» إِذْ مَعْنَاهُ: هَذَى. يُقَالُ: هَجَرَ هَجْرًا، إِذَا هَذَى. وَأَهْجَرَ هَجْرًا: إِذَا أَفْحَشَ؛ وَأَهْجَرَ: تَغْدِيَةُ هَجَرَ؛ وَإِنَّمَا الْأَصَحُّ وَالْأَوَّلَى: «أَهْجَرَ؟» عَلَى طَرِيقِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ: لَا يَكْتُبُ...

١٦٨٧ - وهكذا رَوَيْنَاهُ فِيهِ فِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» مِنْ رِوَايَةِ جَمِيعِ الرُّوَاةِ فِي حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ الْمَتَقَدِّمِ.

١٦٨٨ - وفي حديث محمد بن سلام، عن ابن عُيَيْنَةَ [البخاري (٣١٦٨)]، وكذا ضَبَطَهُ الْأَصْبَلِيُّ بخطه في كتابه، وَغَيَّرَهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرُق.

١٦٨٩ - وكذا رَوَيْنَاهُ عَنْ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ [مسلم (٢٦١/١٦٣٧)]، وَعَنْ غَيْرِهِ.

وقد تُحْمَلُ عَلَيْهِ رَاوِيَةٌ مِنْ رَوَاهُ «هَجَرَ؟» عَلَى حَذْفِ أَلِفِ الْاسْتِفْهَامِ؛ وَالتَّقْدِيرُ: «أَهَجَرَ؟» أَوْ أَنَّ يُحْمَلُ قَوْلُ الْقَائِلِ: «هَجَرَ» أَوْ «أَهَجَرَ» دَهْشَةً مِنْ قَائِلِ ذَلِكَ، وَحَبِيرَةً لِعَظِيمِ مَا شَافَهُ مِنْ حَالِ الرَّسُولِ ﷺ، وَشِدَّةِ وَجَعِهِ؛ وَهَوَّلِ الْمَقَامِ الَّذِي اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَيْهِ، وَالْأَمْرُ الَّذِي هَمَّ بِالْكِتَابِ فِيهِ، حَتَّى لَمْ يَضْبُطْ هَذَا الْقَائِلُ لَفْظَهُ، وَأَجَزَى الْهَجَرَ مُجَزًى شِدَّةَ الْوَجَعِ؛ لَا أَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْهَجَرُ، كَمَا حَمَلَهُمُ الْإِشْفَاقُ عَلَى جَرَّاسَتِهِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنْ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَنَحْوُ هَذَا.

١٦٩٠ - وَأَمَّا عَلَى رَاوِيَةٍ: «أَهْجَرَ؟» وَهِيَ رَاوِيَةٌ أَبِي إِسْحَاقَ الْمُسْتَمْلِي فِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ رَاوِيَةٍ قُتَيْبَةَ [البخاري (٤٤٣١)] - فَقَدْ يَكُونُ هَذَا رَاجِعاً إِلَى الْمُخْتَلِفِينَ عِنْدَهُ ﷺ، وَمَخَاطَبَةً لَهُمْ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ؛ أَيْ جِئْتُمْ بِاخْتِلَافِكُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ يَدَيْهِ - هُجْراً وَمُنْكَراً مِنْ الْقَوْلِ؟

وَالْهَجَرُ: بِضَمِّ الْهَاءِ: الْفُخْشُ فِي الْمَنْطِقِ.

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث اختلافاً كثيراً، وكيف اختلف الصحابة بعد أمره لهم - عليه السلام - أَنْ يَأْتُوهُ بِالْكِتَابِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْامِرُ النَّبِيِّ ﷺ يُفْهَمُ إِيْجَابُهَا، مِنْ نَذْبِهَا، مِنْ إِيْبَاحَتِهَا بِقِرَائِنٍ، فَلَعَلَّهُ قَدْ ظَهَرَ مِنْ قِرَائِنِ قَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِبَعْضِهِمْ مَا فَهَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَزْمَةٌ، بَلْ أَمْرٌ رَدُّهُ إِلَى اخْتِبَارِهِمْ أَوْ اخْتِيَارِهِمْ عِنْدَ قَوَّتِهِ وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَفْهَمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: اسْتَفْهَمُوهُ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا كَفَّ عَنْهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ عَزْمَةٌ، وَلَمَّا رَاوَهُ مِنْ صَوَابٍ رَأَى عُمَرَ.

ثم هؤلاء قالوا: وَيَكُونُ امْتِنَاعُ عُمَرَ إِمَّا إِشْفَاقاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تَكْلِيفِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ إِمْلَاءَ الْكِتَابِ، وَأَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ مَشَقَّةٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: إِنْ النَّبِيُّ ﷺ اسْتَدَّ بِهِ الْوَجْعُ.

وقيل: خَشِيَ عُمَرُ أَنْ يَكْتَبَ أُمُوراً يَعْجِزُونَ عَنْهَا فَيَحْصِلُونَ فِي الْخَرَجِ بِالْمُخَالَفَةِ، وَرَأَى أَنْ الْأَرْقُ بِالْأَمَةِ فِي تِلْكَ الْأُمُورِ سَعَةُ الاجْتِهَادِ، وَحُكْمُ النِّظَرِ، وَطَلَبُ الصَّوَابِ؛ فَيَكُونُ الْمَصِيبُ وَالْمَخْطِئُ مَأْجُوراً.

وقد عَلِمَ عُمَرُ تَقَرَّرَ الشَّرْعَ، وتَأَسَّسَ الْمِلَّةَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَلَيْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ وَبَيْنَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

١٦٩١ - وقوله عليه السلام: «أَوْصِيَكُمْ بكتاب الله وَحِثْرَتِي» [سلم (٢٤٠٨)].

وقولُ عُمَرَ: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» رَدٌّ عَلَى مَنْ نَارَاعَهُ، لَا عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقد قيل: إِنَّ عُمَرَ خَشِيَ تَطَرُّقَ الْمُنَافِقِينَ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِمَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ فِي الْخُلُوةِ، وَأَنْ يَتَقَوْلُوا فِي ذَلِكَ الْأَقَاوِيلَ، كَادَعَاءِ الرَّافِضَةِ الْوَصِيَّةَ لِعَلِيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمَشُورَةِ وَالِاخْتِبَارِ. هَلْ يَتَفَقُونَ عَلَى ذَلِكَ أَمْ يَخْتَلِفُونَ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا تَرَكَهُ.

وقالت طائفة أخرى: إِنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - كَانَ مُجِيباً فِي هَذَا الْكِتَابِ لِمَا طُلِبَ مِنْهُ؛ لَا أَنَّهُ ابْتَدَأَ بِالْأَمْرِ بِهِ؛ بَلْ اقْتَضَاهُ مِنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ؛ فَأَجَابَ رَغْبَتَهُمْ، وَكَرِهَ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ لِلْعِلَلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

١٦٩٢ - وَاسْتَدِلَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَةِ بِقَوْلِ الْعَبَّاسِ لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّ كَانَ الْأَمْرُ فِينَا عَلِيمَنَاءُ؛ وَكَرَاهَةً عَلَيَّ هَذَا، وَقَوْلِهِ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ... الْحَدِيثُ [البخاري (٤٤٤٧)].

١٦٩٣ - وَاسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ: «دَعُونِي» فَإِنَّ الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ أَيْ: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنْ إِسْأَالِ الْأَمْرِ، وَتَرْكِكُمْ وَكِتَابِ اللَّهِ، وَأَنْ تَدْعُونِي مِمَّا طَلَبْتُمْ. وَذَكَرَ أَنَّ الَّذِي طُلِبَ كِتَابُهُ أَمْرُ الْخِلَافَةِ بَعْدَهُ، وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ.

فصل

فِي شَرْحِ حَدِيثٍ: أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَّيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَأَجْعَلْهَا كَفَّارَةً، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ

١٦٩٤ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهَ حَدِيثِهِ أَيْضاً الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ الْفَقِيه أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِي بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرِي، حَدَّثَنَا عَبْدِ الْغَاثِ الْفَارِسِي، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الْجُلُودِي؛ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ سَالِمِ مَوْلَى النَّضْرِيِّينَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْداً لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، فَأَيُّمَا

مؤمنٍ آذيتُهُ، أو سَبَّيْتُهُ، أو جَلَدْتُهُ، فاجعلها له كفارةً وقربةً، تُقَرَّبَ بها إليك يومَ القيامةِ» [مسلم (٢٦٠١/٩١)، البخاري (٦٣٦١)].

١٦٩٥ - وفي رواية: «فأَيُّما أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ دَعْوَةً» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٦ - وفي رواية: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ» [مسلم (٢٦٠٣)].

١٦٩٧ - وفي رواية: «فأَيُّما رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَّيْتُهُ، أو لَعَنْتُهُ، أو جَلَدْتُهُ، فاجعلها له زكاةً، وصلاةً، ورحمةً» [مسلم (٢٦٠١/٨٩)].

وكَيْفَ يَصُحُّ أَنْ يَلْعَنَ النَّبِيُّ ﷺ - مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ، وَيَسُبُّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ السَّبَّ، وَيَجْلُدُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْجُلْدَ، أو يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ؟

فَاعْلَمْ - شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَكَ - أَنْ قَوْلَهُ ﷺ أَوَّلًا: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ»؛ أَيُّ: عِنْدَكَ يَا رَبِّ فِي بَاطِنِ أَمْرِهِ؛ فَإِنَّ حُكْمَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الظَّاهِرِ، كَمَا قَالَ، وَلِلْحَكْمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاها، فَحَكَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِجُلْدِهِ، أو آذَنَ بِسَبِّهِ، أو لَعَنِهِ، بِمَا اقْتَضَاهُ عِنْدَهُ حَالُ ظَاهِرِهِ؛ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِشَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ عَلَيْهِمُ الَّتِي وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا، وَحَذَّرَهُ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ فِيمَنْ دَعَا عَلَيْهِ دَعْوَتَهُ - أَنْ يَجْعَلَ دَعَاءَهُ وَلَعْنَهُ وَسَبَّهُ لَهُ رَحْمَةً؛ فَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ»؛ لَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَحْمِلُهُ الْغَضَبُ، وَيَسْتَفْزُهُ الضَّرَجُ لِأَنَّهُ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ مُسْلِمٍ.

وهَذَا مَعْنَى صَحِيحٍ، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ» أَنَّ الْغَضَبَ حَمَلَهُ عَلَى مَا لَا يَجِبُ فَعَلُهُ؛ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا أَنَّ الْغَضَبَ اللَّهُ حَمَلَهُ عَلَى مَعَايِبِهِ بَلَّغِيهِ أَوْ سَبِّهِ؛ وَأَنَّهُ مِمَّا كَانَ يَحْتَمِلُ وَيَجُوزُ عَفْوُهُ عَنْهُ، أَوْ كَانَ مِمَّا خَيْرٌ بَيْنَ الْمَعَايِبِ فِيهِ أَوْ الْعَفْوِ عَنْهُ.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ، بِمُخْرَجِ الْإِشْفَاقِ وَتَعْلِيمِ أُمَّتِهِ الْخَوْفَ وَالْحَذَرَ مِنْ تَعْدِي حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ يُحْمَلُ مَا وَرَدَ مِنْ دُعَائِهِ هَذَا، وَمِنْ دَعَوَاتِهِ عَلَى غَيْرِ وَاحِدٍ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، عَلَى غَيْرِ الْعَقْدِ وَالْقَصْدِ؛ بَلْ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا الْإِجَابَةُ.

١٦٩٨ - كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قَرِيبَتْ يَمِينُكَ» [أَحْمَد (٨١/٣)، الْبُخَارِيُّ (١٣٠)،

مُسْلِم (٣١٠)].

١٦٩٩ - وَ «لَا أَشْبَحُ اللَّهَ بِطَنُوكَ» [مُسْلِم (٢٦٠٤)].

١٧٠٠ - و «عَفَرْتُ حَلْقِي» [البخاري (١٥٦١)، مسلم (١٢٨/١٢١١)] وغيرها من دعواته عليه السلام.

١٧٠١ - وقد وَرَدَ فِي صِفَتِهِ - فِي غَيْرِ حَدِيثٍ - أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ فَحَاشًا.

١٧٠٢ - وَقَالَ أَنَسٌ: لَمْ يَكُنْ سُبَّابًا، وَلَا فَاخِشًا، وَلَا لَعَانًا؛ وَكَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَغْتَبَةِ: «مَا لَهُ تَرَبَّ جَبِيئُهُ؟» [البخاري (٦٠٣١، ٦٠٤٦)].

فَيَكُونُ حَمْلُ الْحَدِيثِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ ثُمَّ أَشْفَقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ مُوَافَقَةِ أَمْثَالِهَا إِبَاجَةً، فَعَاهَدَ رَبَّهُ، كَمَا قَالُ فِي الْحَدِيثِ، أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لِلْمَقُولِ لَهُ زَكَاةً، وَرَحْمَةً، وَفُرْيَةً.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَى الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِ، وَتَأْنِيْسًا لَهُ؛ لِثَلَا يُلْحَقَهُ مِنْ اسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ مِنْ لَعْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقَبُّلِ دَعَائِهِ، مَا يَحْمِلُهُ عَلَى الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سُؤْلًا مِنْهُ لِرَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِمَنْ جَلَدَهُ، أَوْ سَبَّهُ عَلَى حَقٍّ، وَيُوجِبُهُ صَحِيحٌ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ لَهُ كَفَّارَةً لِمَا أَصَابَهُ، وَتَمْجِيةً لِمَا اجْتَرَمَ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَقُوبَتَهُ لَهُ فِي الدُّنْيَا سَبَبَ الْعَفْوِ وَالْعُفْرَانِ.

١٧٠٣ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَمُوقِبٌ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» [البخاري (١٨)، مسلم (١٧٠٩)].

١٧٠٤ - فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى حَدِيثِ الزُّبَيْرِ وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ - حِينَ تَخَاصُّهُ مَعَ الْأَنْصَارِيِّ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ -: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ! حَتَّى يَبْلُغَ الْمَاءُ الْكَعْبَيْنِ». فَقَالَ لَهُ الْأَنْصَارِيُّ: أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَتَلُونَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ؛ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ! ثُمَّ احْسِنْ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَذَرَ...» الْحَدِيثُ.

فَالْجَوَابُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنْزَعٌ أَنْ يَقَعَ بِنَفْسٍ مُسْلِمٍ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَمْرٌ يُرِيبُ؛ وَلَكِنَّهُ ﷺ نَدَبَ الزُّبَيْرَ أَوَّلًا إِلَى الْاِقْتِصَارِ عَلَى بَعْضِ حَقِّهِ عَلَى طَرِيقِ التَّوَسُّطِ، وَالصُّلْحِ، فَلَمَّا لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ الْآخَرُ، وَلَجَّ، وَقَالَ مَا لَا يَجِبُ، اسْتَوْفَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ.

وَلِهَذَا تَرَجَّمَ الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ: بَابُ: إِذَا أَشَارَ الْإِمَامُ بِالصُّلْحِ فَأَبَى حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْحُكْمِ الْبَيِّنِ [البخاري (٣٠٩/٥) فتح].

١٧٠٥ - وَذَكَرَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: فَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ ذُكِرَ لِلزُّبَيْرِ حَقُّهُ [البخاري (٢٧٠٨)].

وقد جعل المسلمون هذا الحديث أضلاً في قضيته.

١٧٠٦ - وفيه الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه، وأنه - وإن نهي أن يقضي القاضي وهو غضبان [البخاري (٧١٥٨)، مسلم (١٧١٧)] - فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء، لكونه فيهما معصوماً. وغضب النبي ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه، كما جاء في الحديث الصحيح. ١٧٠٧ - وكذلك الحديث في إقادته عكاشة من نفسه لم يكن لتعد حمله الغضب عليه؛ بل وقع في الحديث نفسه أن عكاشة قال له: وضربتني بالقضيب، فلا أدري أعمداً، أم أردت ضرب الناقة؟ فقال النبي ﷺ: «أعبدك بالله، يا عكاشة! أن يتعمدك رسول الله ﷺ».

١٧٠٨ - وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابي حين طلب - عليه السلام - الاقتصاد منه، فقال الأعرابي: قد عفوت عنك. وكان النبي ﷺ قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقته مرة بعد مرة، والنبي ﷺ ينهأ ويقول له: «تذكر حاجتك» وهو يأبى؛ فضربه - عليه السلام - بعد أن نهأ ثلاث مرات. وهذا منه - عليه السلام - لمن لم يقف عند نهيه صواباً، وموضع أدب، لكنه - عليه السلام - أشفق إذ كان حق نفسه من الأمر حتى عفا عنه. ١٧٠٩ - وأما حديث سواد بن عمرو: أتيت النبي ﷺ - وأنا متخلق فقال عليه الصلاة والسلام: «وَرَمَ! وَرَمَ! حُطَّ، حُطَّ» وعشيتني بقضيب كان في يده في بطني فأوجعني. قلت: القصاص، يا رسول الله! فكشف لي عن بطني - ﷺ - فأبى القصاص.

وإنما كان ضربه - عليه السلام - لمُنكر رآه به؛ ولعله لم يرد بضربه بالقضيب إلا تنبيهه، فلما كان منه إيجاع لم يقصده طلب التحلل منه على ما قدمناه.

فصل

فِي أَنَّ عَامَّةَ أَعْمَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ،

وَالرَّدُّ عَلَى بَغْضِ الشُّبْهِ

وأما أفعاله - عليه السلام - الدنيوية فحكمه فيها من توقي المعاصي والمكروهات ما قد قدمناه، ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما ذكرناه. وكله غير قاذح في نبوته عليه السلام. بلى، إن هذا فيها على الثدور؛ إذ عامة أفعاله على السداد والصواب، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات

وَالْقُرْبَ عَلَى مَا يَبْتَغَى؛ إِذْ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَأْخُذُ مِنْهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا ضَرُورَتَهُ، وَمَا يُقِيمُ بِهِ رَمَقَ جَسَمِهِ، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ ذَاتُهُ الَّتِي بِهَا يَغْبُذُ رَبُّهُ، وَيُقِيمُ شَرِيعَتَهُ، وَيُسَوِّسُ أَمَتَهُ، وَمَا كَانَ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ قَبِيْنٌ مَعْرُوفٌ يَضُنُّهُ، أَوْ بَرٌّ يَوْسَعُهُ، أَوْ كَلَامٌ حَسَنٌ يَقُولُهُ أَوْ يَسْمَعُهُ، أَوْ تَأْلُفٌ شَارِدٌ، أَوْ قَهْرٌ مُعَانِدٌ، أَوْ مُدَارَاةٌ حَاسِدٌ؛ وَكُلُّ هَذَا لِاجْتِنَاءِ بَصَالِحِ أَعْمَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُنْتَظِمٌ فِي زَاكِي وَظَانِفِ عِبَادَاتِهِ؛ وَقَدْ كَانَ يُخَالِفُ فِي أَعْمَالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَيُعَدُّ لِلْأُمُورِ أَشْبَاهَهَا، فَيَرْكَبُ فِي تَصَرُّفِهِ - لَمَّا قُرِبَ - الْحِمَارَ، وَفِي أَسْفَارِهِ الْبَعِيدَةِ الرَّاحِلَةَ، وَيَرْكَبُ الْبَغْلَةَ فِي مَعَارِكِ الْحَرْبِ، دَلِيلًا عَلَى الثَّبَاتِ، وَيَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيُعَدُّهَا لِيَوْمِ الْفَرَجِ وَاجَابَةِ الصَّارِخِ.

وكَذَلِكَ فِي لِبَاسِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ بِحَسَبِ اعْتِبَارِ مَصَالِحِهِ، وَمَصَالِحِ أَمَتِهِ. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْفِعْلَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، مُسَاعِدَةً لِأَمَتِهِ، وَسِيَاسَةً وَكَرَاهِيَةً لِخِلَافِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَرَى غَيْرَهُ خَيْرًا مِنْهُ، كَمَا يَتْرُكُ الْفِعْلَ أَبَدًا؛ وَقَدْ يَرَى فِعْلَهُ خَيْرًا مِنْهُ. وَقَدْ يَفْعَلُ هَذَا فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِمَّا لَهُ الْخَيْرَةُ فِي أَحَدٍ وَجْهِهِ، كَخُرُوجِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ، وَكَانَ مَذْهَبُهُ التَّحَصُّنَ بِهَا.

١٧١٠ - وَتَرْكُهُ قَتْلَ الْمَنَافِقِينَ، وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ مُؤَالَفَةً لْغَيْرِهِمْ، وَرِعَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَابَتِهِمْ، وَكَرَاهَةً لِأَنَّهُ يَقُولُ النَّاسُ: إِنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

١٧١١ - وَتَرْكُهُ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، مِرَاعَاةً لِقُلُوبِ قُرَيْشٍ، وَتَعْظِيمَهُمْ لِتَغْيِيرِهَا، وَحَذَرًا مِنْ نِفَارِ قُلُوبِهِمْ لَذَلِكَ، وَتَحْرِيكَ مُتَقَدِّمِ عَدَاوَتِهِمْ لِلَّذِينَ وَأَهْلَهُ؛ فَقَالَ لِعَائِشَةَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَوْلَا جِذْنَانِ قَوْمِي بِالْكَفْرِ لَأَتَمَمْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» [البخاري (١٥٨٥)، مسلم (١٣٣٣)].

١٧١٢ - وَيَفْعَلُ الْفِعْلَ ثُمَّ يَتْرُكُهُ؛ لِكَوْنِ غَيْرِهِ خَيْرًا مِنْهُ؛ كَانْتِقَالِهِ مِنْ أَذْنَى مَبَادِيهِ إِلَى أَقْرَبِهَا لِلْعُدُوِّ مِنْ قُرَيْشٍ.

١٧١٣ - وَقَوْلُهُ: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَذْبِرْتُ مَا سَقَتْ الْهَذْيُ» [البخاري (٧٢٢٩)، مسلم (١٥/١٢١١)].

وَيَبْسُطُ وَجْهَهُ لِلْعُدُوِّ الْكَافِرِ رَجَاءً اسْتِلَافِهِ.

١٧١٤ - وَيَصْبِرُ لِلْجَاهِلِ، وَيَقُولُ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ» [البخاري (٢١٣١)، مسلم (٢٥٩١)]. وَيَبْذُلُ لَهُ الرِّغَائِبَ لِيَحْبَبَ إِلَيْهِ شَرِيعَتَهُ وَدِينَ رَبِّهِ.

ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته، وتَسَمَّتْ في مَلَبه، حتى لا يبدو منه شيء من أطرافه، وحتى كأن على رؤوس جُلُسانه الطير؛ ويتحدث مع جلسائه بحديث أولهم، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويضحك مما يضحكون منه؛ قد وَسَّعَ الناسَ بِشْرَهُ وَعَدْلَهُ، لا يَسْتَفْزُهُ الْقَضْبُ، ولا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ، ولا يُبْطِئُ على جلسائه.

١٧١٥ - يقول: «ما كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَفْعَيْنِ».

١٧١٦ - فَإِنْ قُلْتُ: فما معنى قوله لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي الدَّاخلِ عَلَيْهِ: «بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ» فلما دخل عليه، أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، وَضَحَكَ مَعَهُ، فلما سَأَلَتْهُ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لَشَرِّهِ».

وكيف جاز أَنْ يُظْهِرَ لَهُ خِلَافَ مَا يُبْطِئُ، ويقول في ظَهْرِهِ ما قال؟
فالجوابُ عن ذلك: أَنَّ فِعْلَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كان استتلافاً لِمَثَلِهِ، وتطبيياً لِنَفْسِهِ؛ لِيَتِمَكَّنَ إِيْمَانَهُ، ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مِثْلُهُ فينجذب بذلك إلى الإسلام.

ومِثْلُ هذا على هذا الْوَجْهِ قد خرج مِنْ حُدِّ مَدَارَةِ الدُّنْيَا إلى السِّيَاسَةِ الدُّنْيَا.

وقد كان النَّبِيُّ يَسْتَأْلفُهُمْ بِأَمْوَالِ اللَّهِ الْعَرِيضَةِ، فكيف بِالْكَلِمَةِ اللَّيِّنَةِ؟
١٧١٧ - وَعَنْ صَفْوَانَ: لَقَدْ أَعْطَانِي وَهُوَ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فما زال يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيَّ [مسلم (٢٣١٣)].

١٧١٨ - وقوله فيه: «بِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ» هو غَيْرُ غَيْبِيَّةٍ؛ بَلْ هُوَ تَعْرِيفٌ ما عِلِمَهُ مِنْهُ لَمْ يَعْلَمْ، لِيُحَذِّرَ حَالَهُ، وَيُخَوِّفَ مِنْهُ، ولا يُوَثِّقَ بِجَانِبِهِ كُلَّ الثَّقَةِ، ولا سيما وكان مُطَاعاً مَتَّبِعاً فِي قَوْمِهِ.

ومِثْلُ هذا إذا كان لَظَرُورَةً، وَدَفْعَ مَضَرَّةٍ، لَمْ يَكُنْ بِغَيْبِيَّةٍ، بَلْ كان جائِزاً، بَلْ وَاجِباً فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَعَادَةِ الْمُحَدِّثِينَ فِي تَجْرِيعِ الرِّوَاةِ، وَالْمَزْكِيِّينَ فِي الشُّهُودِ.

١٧١٩ - فَإِنْ قِيلَ: فما معنى الْمُغْضَبِ الْوَاردِ فِي حَدِيثِ بَرِيرَةَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لعائشة؛ وقد أَخْبَرْتَهُ أَنَّ مَوَالِيَ بَرِيرَةَ أَبْوَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْوَلَاءُ؛ فَقَالَ لَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اشْتَرِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلَاءَ» ففعلت، ثم قام خطيباً، فقال: «ما بِأَلْ أَقْوَامَ يَشْتَرِطُونَ شَرْطاً لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ باطل» [البخاري (٢١٦٨)، مسلم (١٥٠٤)] والنَّبِيُّ - ﷺ - قد أَمَرَهَا بِالشَّرْطِ لَهُمْ، وَعَلَيْهِ بَاغُوا،

ولولاه - والله أعلم - لما باعوها من عائشة، كما لم يبيعوها قَبْلَ حتى شرطوا ذلك عليها؛ ثم أبطله - عليه السلام - وهو قد حرّم الغش والخديعة؟!

فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ النبي ﷺ مُتْرَعة عن ذلك مما يَقَعُ في بال الجاهل من هذا، ولتنزيه النبي - عليه السلام - عن ذلك ما قد أنكر قوم هذه الزيادة في الرواية قوله: «اشترطي لهم الولاء» إذ ليست في أكثر طرق الحديث؛ ومع ثباتها فلا اعتراض بها؛ إذ يَقَعُ «لهم» بمعنى «عليهم»؛ قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: عليهم.

وقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. أي: فعلها.

فعلى هذا يكون معناه: اشترطي عليهم الولاء لك، ويكون قيام النبي ﷺ ووَغْظُهُ لما سلف لهم من شرط الولاء لأنفسهم قَبْلَ ذلك.

ووجه ثانٍ: أَنَّ قوله عليه السلام: «اشترطي لهم الولاء»، ليس على معنى الأمر، لكن على معنى التسمية والإعلام بأنَّ شرطَهُ لهم لا يَنْفَعُهُمْ بعد بيان النبي ﷺ لهم قَبْلَ: أَنَّ الولاء لِمَنْ أَعْتَقَ؛ فكأنه قال: اشترطي أو لا تَشترطي، فإنه شرطٌ غَيْرُ نافع.

والى هذا ذهب الدَّوْدِيُّ وَغَيْرُهُ؛ وتوبيخ النبي ﷺ لهم؛ وتقريعهم على ذلك يَدُلُّ على عِلْمِهِمْ به قَبْلَ هذا.

الوجه الثالث: أَنَّ معنى قوله: «اشترطي لهم الولاء» أي: أظهرى لهم حُكْمَهُ، وبَيَّنِّي عندهم سُنَّتَهُ أَنَّ الولاء إنما هو لِمَنْ أَعْتَقَ. ثم بعد هذا قام هو ﷺ مِينًا ذلك ومُؤْتَخًا على مخالفة ما تقدّم مِنْهُ فيه.

فإن قيل: فما معنى فعل يوسف - عليه السلام - بأخيه؛ إذ جعل السَّقَايَةَ في رَحْلِهِ، وأَخَذَهُ باسم سَرِقَتِهَا، وما جَرَى على إخوته في ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]؛ ولم يسرقوا؟

فاعلم - أكرمك الله - أَنَّ الآية تدلُّ على أَنَّ فعلَ يوسف كان عَن أَمْرِ اللَّهِ تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا يُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتَكَ مِنْ شَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإذا كان كذلك فلا اعتراض به، كان فيه ما فيه.

وأيضاً فإنَّ يوسف كان أَعْلَمَ أخاه به: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِشْ﴾ الآية [يوسف: ٦٩] فكان ما جَرَى عليه بعد هذا من وفقه وَرَغْبَتِهِ، وعلى يقينٍ من عَقْبِي الخَيْرِ له به، وإزاحة السوءِ عنه والمضرةً بذلك.

وأما قوله: ﴿إِنْتَهَا أَلَيْسَ إِنَّكُمْ لَسَرِثُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فليس من كلام يوسف ولا من قوله، فيلزم عليه جوابٌ لِجَلِّ شَبِيهِهِ.
ولعلَّ قائله إنَّ حُسْنَ له التَّوَلُّلُ كائناً مَنْ كان ظَنَّ على صورة الحال ذلك.
وقد قيل: قال ذلك لِغُلَّهِمْ قَبْلُ بِيُوسُفَ وَيَتَّبِعُهُمْ له. وقيل غير هذا. ولا يلزم أن يَقُولَ الأنبياء ما لم يأت أنهم قالوه، حتى يُطْلَبَ الخلاصُ منه، ولا يلزم الاعتذار عن زَلَّاتٍ غيرهم.

فصل

فِي الْحِكْمَةِ فِي إِجْرَاءِ الْأَمْرَاضِ وَشِدَّتِهَا عَلَيْهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ

فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه، وعلى جميع الأنبياء عليهم السلام؟ وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء، وامتحانهم بما امْتَحَنُوا به كأيوب، ويعقوب، ودانيال، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وإبراهيم، ويوسف، وغيرهم، صلوات الله عليهم، وهم خيرته من خلقه وأجباؤه وأصفياؤه؟
فاعلم - وفقك الله - أن أفعال الله تعالى كلها عَذَلٌ، وكلماته جميعها صدق لا مُبَدِّلَ لكلماته، يَنْتَلِي عِبَادَهُ، كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنْتَظِرَ كَيْفَ تَقْعَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

و ﴿لِنَبْلُوَكُمْ أَنتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَلِنَبْلُوَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْعَافِينَ وَنَبْلُوا آبَاءَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْعَافِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فامتحانه - عز وجل - إياهم بضروبِ المِخْنِ زيادةً في مكانتهم، ورفعته في درجاتهم، وأسبابَ لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكر والتسليم، والتوكل، والتفويض، والدعاء، والتضرع منهم، وتأكيذ لبصائرهم في رَحْمَةِ الْمُتَمَتِّحِينَ، والشفقة على الْمُتَبَلِّغِينَ، وتذكرةً لغيرهم، وموعظةً لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم؟
وَيَسْأَلُوا فِي الْمِخْنِ بما جَزَى عليهم، ويقتدوا بهم في الصبر، ومَحْوِ لَهْزَاتِ فِرْطَتِ منهم، أو غَفَلَاتِ سَلَفَتْ لهم، لِيَلْقُوا الله تعالى طَيِّبِينَ مُهَذَّبِينَ؛ وليكون أجزهم أكمل، وثوابهم أوفر وأجزل.

١٧٢٠ - حدثنا القاضي أبو علي الحافظ، حدثنا أبو الحسين الضبرقي وأبو

الفضل بن خَيْرُون؛ قالوا: حدثنا أَبُو يَعْلَى البَغْدَادِيُّ، حدثنا أَبُو عَلِي السُّجَّي،
حدثنا مُحَمَّد بن محبوب، حدثنا أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِي، حدثنا قُتَيْبَة، حدثنا حَقَّاد بن
زَيْد، عَنْ عَاصِم بن بَهْدَلَة، عَنْ مُضْعَب بن سَعْد، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: قُلْتُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَلَا أَمْثَلُ، يُنْتَلَى الرَّجُلُ
عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرُحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ
خَطِيئَةٌ» [التِّرْمِذِي (٢٣٩٨)، ابْنُ مَاجَه (٤٠٢٣)].

وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنِ تَن نَّجِي قَتَلَ مَعَهُ رِيَّتُونَ كَيْدٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَقِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَكَانَهُمُ اللَّهُ
تَوَّابٌ أَلَدُنَا وَحَسَنَ تَوَّابٍ الْآخِرَةُ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

١٧٢١ - وعن أَبِي هُرَيْرَة [التِّرْمِذِي (٢٣٩٩)]: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِي
نَفْسِهِ، وَوَلَدِهِ، وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ، وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

١٧٢٢ - وعن أَنَسٍ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ
الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ» [التِّرْمِذِي (٢٣٩٦)].

١٧٢٣ - وفي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتِلَاةً لِيَسْمَعَ تَضَرُّعُهُ». وَحَكَى
السَّمَرَقَنْدِيُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَ بَلَاؤُهُ أَشَدَّ كَيْفِي
يَتَبَيَّنُ فَضْلُهُ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ؛ كَمَا رُوِيَ عَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: يَا بَنِي! الذَّهَبُ
وَالْفِضَّةُ يُخْتَبَرَانِ بِالنَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يُخْتَبَرُ بِالْبَلَاءِ.

وقَدْ حُكِيَ: أَنَّ ابْتِلَاءَ يَعْقُوبَ بِيُوسُفَ كَانَ سَبَبَهُ التَّفَاتُّهُ فِي صَلَاتِهِ إِلَيْهِ،
وَيُوسُفَ نَائِمٌ مُحَبَّةً لَهُ.

١٧٢٤ - وَقِيلَ: بَلِ اجْتَمَعَ يَوْمًا هُوَ وَابْنُهُ يُوسُفَ عَلَى أَكْلِ حَمَلٍ مَشْوِيٍّ،
وَهُمَا يَضْحَكَانِ، وَكَانَ لَهُمَا جَارٌ يَتِيمٌ، فَشَمَّ رِيحَهُ وَاشْتَهَاهُ وَيَكِي، وَيَكُنْ جَدَّةً لَهُ
عَجُوزٌ لِبَكَائِهِ، وَبَيْنَهُمَا جِدَارٌ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَ يَعْقُوبَ وَابْنِهِ؛ فَغَوَّبَ يَعْقُوبُ بِالْبَكَاءِ
أَسْفًا عَلَى يُوسُفَ إِلَى أَنْ سَأَلَتْ حَدِيقَتَاهُ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ. فَلَمَّا عَلِمَ
بَذَلِكَ كَانَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، وَيَأْمُرُ مَنَادِيًّا يَنَادِي عَلَى سَطْحِهِ: أَلَا مَنْ كَانَ
مُقْطِرًا فَلْيَتَغَدَّ عِنْدَ آلِ يَعْقُوبَ.

وَعُوقِبَ يُوسُفَ بِالْمِخْنَةِ الَّتِي نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهَا.
١٧٢٥ - وَرُوِيَ عَنِ اللَّيْثِ أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ أَيُّوبَ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ أَهْلِ قَرْيَتِهِ عَلَى

مَلِكِهِمْ، فَكَلَمُوهُ فِي ظُلْمِهِ، وَأَغْلَظُوا لَهُ إِلَّا أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ رَفَقَ بِهِ مَخَافَةً عَلَى زَرْعِهِ،
فَعَاقَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِلَالَتِهِ.

وَمِخْنَةُ سَلِيمَانَ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ نَبِيِّتِهِ فِي كَوْنِ الْحَقِّ فِي جِهَةِ أَصْهَارِهِ؛ أَوْ
لِلْعَمَلِ بِالْمَعْصِيَةِ فِي دَارِهِ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُ.

١٧٢٦ - وَهَذِهِ فَائِدَةٌ شَدِيدَةُ الْمَرَضِ وَالْوَجَعِ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا
رَأَيْتُ الْوَجَعَ عَلَى أَحَدٍ أَشَدَّ مِنْهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [البخاري (٥٦٤٦)، مسلم
(٢٥٧٠)].

١٧٢٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ، يُوعَكُ وَغَكَاً شَدِيداً،
فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَغَكَاً شَدِيداً! قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوَعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ
مِنْكُمْ». قُلْتُ: ذَلِكَ أَنْ لَكَ الْأَجَرَ مَرَّتَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ» [البخاري
(٥٦٤٨)، مسلم (٢٥٧١)].

١٧٢٨ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:
وَاللَّهِ! مَا أَطْيَقُ أَضْعُ يَدِي عَلَيْكَ مِنْ شِدَّةِ حُمَاكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا مَغْشَرُ
الْأَتْبَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ لَيَنْتَلِي بِالْفَعْلِ حَتَّى يَفْتَلَهُ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ
لَيَنْتَلِي بِالْفَقْرِ، وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرِّخَاءِ» [ابن ماجه (٤٠٢٤)].

١٧٢٩ - وَعَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ،
وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»
[الترمذي (٢٣٩٦)، ابن ماجه (٤٠٣١)].

١٧٣٠، ١٧٣١ - وَقَدْ قَالَ الْمَفْسُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ
بِهِ» [النساء: ١٢٣]: إِنَّ الْمُسْلِمَ يُجْزَى بِمَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَتَكُونُ لَهُ كِفَارَةً. وَرَوَى
هَذَا عَنْ عَائِشَةَ [أحمد (٦٥/٦٦)، وأبي بكر [الترمذي (٣٠٣٩)، ومجاهد].

١٧٣٢ - وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِيبْ
مِنْهُ» [البخاري (٥٦٤٥)].

١٧٣٣ - وَقَالَ فِي رِوَايَةِ عَائِشَةَ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا يُكَفِّرَ اللَّهُ
بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا» [البخاري (٥٦٤٠)، مسلم (٤٩/٢٥٧٧)].

١٧٣٤ - وَقَالَ فِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا
وَضَبٍ، وَلَا قَمٍّ، وَلَا خَرْنٍ، وَلَا أَذَى، وَلَا غَمٍّ - حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا - إِلَّا
كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣)].

١٧٣٥ - وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ

«خطاباً كما تحاث وَرْقُ الشَّجَرِ» [البخاري (٥٦٤٧)، مسلم (٢٥٧١)].

وحكمة أخرى أودعها الله في الأمراض لأجسامهم، وتعاقب الأوجاع عليها وشدتها عند مماتهم، لتضعف قوى نفوسهم، فيسهل خروجها عند قبضهم، وتخف عليهم مؤنة النزح، وشدة السكرات بتقدم المرض، ويضعف الجسم والنفس كذلك.

١٧٣٦ - وهذا خلاف موت الفجاءة وأخذه، كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين، والصعوبة والسهولة. وقد قال عليه السلام: «مَثَلُ الْمُؤْمَنِ مَثَلُ خَامَةِ الزَّرْعِ تَفْيِئُهَا الرِّيحُ هَكَذَا وَهَكَذَا» [البخاري (٥٦٤٣)، مسلم (٢٨٠٩)].

١٧٣٧ - وفي رواية أبي هريرة عنه: «من حيث أُنْتِها الرِّيح تكفؤها؛ فإذا سكنت اعتدلَّت؛ وكذلك المؤمن يُكْفَأُ بالبلاء. ومَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ، صَمَاءٌ معتدلةٌ حتى يَفْصِمَهَا اللهُ» [البخاري (٧٤٦٦)، مسلم (٢٨٠٩)].

معناه: أنَّ المؤمن مُرَزَّأً، مُصَابٌ بالبلاء والأمراض، راضٍ بتصريفه من أقدار الله تعالى مُنْطاعٌ لذلك، لين الجانب برضاه وقلَّة سَخَطه، كطاعة خامة الزرع وانقيادها للرياح، وتمايلها لهبوبها وترنحها من حيث ما أنتها؛ فإذا أَرَاخَ اللهُ عن المؤمن رياح البلاء، واعتدلَّ صحيحاً كما اعتدلَّت خامة الزرع عند سكون رياح الجو، رجع إلى شُكْرِ رَبِّهِ ومعرفة نعمته عليه بِرَفْعِ بَلَاتِهِ، منتظراً رحمته وثوابه عليه.

فإذا كان بهذه السبيل لم يصعب عليه مَرَضُ الموت، ولا نزولُه، ولا اشتدت عليه سكراته ونَزْعُه، لعادته بما تقدَّمه من الآلام، ومعرفة ماله فيها من الأجر، وتوطينه نفسه على المصائب ورفقتها وضعفها بتوالي المرض أو شدته، والكافر بخلاف هذا: مُعَافَى في غالب حاله، مُمْتَنِعٌ بصحة جسمه، كالأرزة الصماء، حتى إذا أراد الله هلاكه قَصَمَهُ لحينه على غزوة، وأخذه بَغْتَةً من غير لُطْفٍ ولا رَفَقٍ؛ فكان موته أشدَّ عليه حسرةً، ومقاساةً نَزْعِه مع قوة نفسه وصحة جسمه أشدَّ المأْ وعذاباً، ولعذاب الآخرة أشقُّ كَانْجَعَابِ الْأَرْزَةِ. وكما قال تعالى: ﴿فَلَاخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وكذلك عادة الله تعالى في أعدائه، كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَفَقْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ففجأ جميعهم بالموت، على حال عَتَوْ وَغَفَلَةٍ، وصَبَّحهم به، على غير استعدادٍ بَغْتَةً؛ ولهذا ما كره السلفُ موتَ الفجأة.

١٧٣٨ - ومنه في حديث إبراهيم: كانوا يكرهون أَخَذَةً كَأَخَذَةِ الْأَسَفِ. أي: الغُصْب، يريد: موتَ الفجأة.

وحكمةُ الثالثة: أَنَّ الأمراضَ تُذِيرُ المماتَ، ويُقَدِّرُ شِدَّتِهَا شِدَّةَ الخوفِ من نزولِ الموت؛ فيستعدُّ مَنْ أصابته، وَغَلِمَ تَعَاهُدها له، لِلِقَاءِ رَبِّه، وَيُعْرِضُ عن ذَارِ الدنيا الكثيرةِ الأنكادِ ويكونَ قَلْبُهُ مَعْلَقاً بالمعاد، فيَتَنَصَّلُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْشَى تَبَاعَثَهُ مِنْ قِبَلِ الله، وَقِبَلِ العباد، وَيُوْذِي الحقوقَ إلى أهلها، وينظرُ فيما يحتاج إليه من وَصِيَّةٍ فيمن يَخْلُفه أو أَمْرٍ يَعْهده.

١٧٣٩ - وهذا نبينا - عليه السلام - المغفورُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، قد طلبَ التَّنَصُّلَ في مَرَضِهِ مَنْ كَانَ له عليه مالٌ أو حقٌ في بَدَن، وَأَقَادَ مِنْ نَفْسِهِ وماله، وأمكن من القصاصِ منه، على ما ورد في حديث الفضل.

١٧٤٠ - وحديثُ الوفاة.

١٧٤١ - وأوصى بالتَّغْلِيلِ بعده: كتابُ الله، وعِثْرَتُهُ [مسلم (٢٤٠٨)].

١٧٤٢ - وبالأَنْصَارِ غَيْبَتِهِ [البخاري (٣٧٩٩)، مسلم (٢٥١٠)].

١٧٤٣ - ودعا إلى كَتَبِ كِتَابٍ لثَلَا تَضِلَّ أُمَّتُهُ بعده؛ إما في النَصِّ على الخلافة، أو الله أعلمُ بمراده. ثم رأى الإمساكَ عنه أَفْضَلَ وخيراً.

وهكذا سيرة عبادِ الله المؤمنين وأوليائه المتقين.

وهذا كُلُّهُ يُخَرِّمُهُ غَالِباً الكُفَّارُ، لِإِمْلَاءِ اللَّهِ لَهُمْ، لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلِيَسْتَدْرِجَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ١٥ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

١٧٤٤ - ولذلك قال - عليه السلام - في رجل مات فجأةً: «سبحان الله! كأنه على غَضَبٍ، المحرومُ مِنْ حُرْمٍ وَصِيَّتِهِ» [ابن ماجه (٢٧٠٠)].

١٧٤٥ - وقال: «موتُ الفجاءةِ راحةٌ للمؤمن، وأخذةٌ أَسَفٌ للكافر أو الفاجر» [أحمد (١٣٦/٦)].

١٧٤٦ - وذلك لأن الموتَ يَأْتِي المؤمنَ، وهو غالباً مستعدُّ له مُنْتَظِرٌ لحلوله؛ فهان أَمْرُهُ عليه كيف ما جاء، وَأَفْضَى إلى راحتهِ مِنْ نَصَبِ الدنيا وأذاها؛ كما قال عليه السلام: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ» [البخاري (٦٥١٢)، مسلم (٩٥٠)].

وتَأْتِي الكَافِرَ والفاجرَ مَبِيتُهُ على غيرِ استعدادٍ، ولا أَهْبَةٍ، ولا مَقْلَعَاتٍ مُنْذِرَةٍ

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾
[الأنبياء: ٤٠]؛ فكان الموت أشدَّ شيءٍ عليه.

١٧٤٧ - وفراق الدنيا أقطع أمرٍ صلعه، وأكره شيءٍ له؛ وإلى هذا
المعنى أشار - عليه السلام - بقوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ
كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».



القسم الرابع

في تَصَرُّفِ وَجْهِ الْأَحْكَامِ فِيمَنْ تَنْقُصُهُ
أَوْ سَبَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

قال الفاضلي أبو الفضل رضي الله عنه: قد تقدّم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعيّن له من برٍّ وتوقير، وتعظيم وإكرام؛ وبحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل مُنْقِصِهِ من المسلمين وسابه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِكثِيرٍ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وذلك أنّ اليهود - لعنهم الله - كانوا يقولون: راعينا، يا محمدا أي أزعنا سَمْعَكَ، واسمّع منا، ويعرضون بالكلمة، يريدون: الرُّعونة؛ فهي الله المؤمنين عن التشبه بهم، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها، لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى سبه، والاستهزاء به.

وقيل: بل لما فيها من مُشَارَكَةِ اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى: اسمع لا سمعت.

وقيل: بل لما فيها من قِلَّةِ الأدب، وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى: ازغنا نزعك؛ فثهوا عن ذلك؛ إذ مضمونه أنهم لا يزغونه إلا برعايته لهم، وهو - عليه السلام - واجب الرعاية بكل حال.

١٧٤٨ - وهذا هو - عليه السلام - قد نهى عن التكني بكنيته، فقال: «تَسْمُوا بِاسْمِي، وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي»؛ صِيَانَةً لِنَفْسِهِ، وَحِمَايَةً عَنْ أَذَاهُ.

١٧٤٩ - إِذْ كَانَ ﷺ اسْتَجَابَ لِرَجُلٍ نَادَى: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَمْ أَغْنِكَ، إِنَّمَا غَنَيْتَ فَلَانًا [البخاري (٣٥٣٧)، مسلم (٢١٣١)]؛ فَهِيَ حَيْثُ عَنْ التَّكْنِي بِكُنْيَتِهِ لثَلَا يَتَأَذَى بِإِجَابَةِ دَعْوَةِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَذْعُهُ، وَيَجِدَ بِذَلِكَ الْمَنَافِقُونَ وَالْمُسْتَهْزِئُونَ ذُرِيعةً إِلَى أَذَاهُ وَالْإِزْرَاءِ بِهِ فَيَنَادُونَهُ، فَإِذَا التَفَتَ قَالُوا: إِنَّمَا أَرَدْنَا هَذَا - لِسِوَاهُ - تَغْنِيًا لَهُ، وَاسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِ عَلَى عَادَةِ الْمُجَانِّ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ، فَحَمَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - جَمَى أَذَاهُ بِكُلِّ وَجْهِ؛ فَحَمَلَ مُحَقِّقُو الْعِلْمَاءِ نَهْيَهُ عَنْ هَذَا عَلَى مَدَّةِ حَيَاتِهِ، وَأَجَازَوْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَارْتِفَاعِ الْعِلَّةِ.

وللناس في هذا الحديث مذاهب ليس هذا موضعها؛ وما ذكرناه هو مذهب الجمهور، والصواب إن شاء الله. وإن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل التذنب والاستحباب، لا على التحريم؛ ولذلك لم يَنْهَ عَنْ اسْمِهِ؛ لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ اللَّهُ مَنَعَ مِنْ نَدَائِهِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ وَإِنَّمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَدْعُونَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَيَا نَبِيَّ اللَّهِ! ﷺ، وَقَدْ يَدْعُونَهُ بِكُنْيَتِهِ أَبَا الْقَاسِمِ! بَعْضُهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ.

١٧٥٠ - وَقَدْ رَوَى أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا يَدُلُّ عَلَى كِرَاهَةِ التَّسْمِي بِاسْمِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ؛ إِذَا لَمْ يُوقَّرْ، فَقَالَ: «تَسْمُونُ أَوْلَادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعَنُونَهُمْ؟!».

١٧٥١ - وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ: لَا يُسَمَّى أَحَدٌ مِنْكُمْ بِاسْمِ النَّبِيِّ ﷺ، حَكَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِي.

١٧٥٢ - وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، وَرَجُلٌ يَسْبُهُ، وَيَقُولُ لَهُ: فَعَلَ اللَّهُ بِكَ، يَا مُحَمَّدًا! وَصَنَعَ. فَقَالَ عُمَرُ لابن أخيه مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ بَنِ الْخَطَّابِ: لَا أَرَى مُحَمَّدًا ﷺ يُسَبُّ بِكَ؛ وَاللَّهِ! لَا تُدْعَى مُحَمَّدًا مَا دُمْتُ حَيًّا؛ وَسَمَاءُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ.

١٧٥٣ - وَأَرَادَ أَنْ يَمْنَعَ أَنْ يُسَمَّى أَحَدٌ بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ إِكْرَامًا لَهُمْ بِذَلِكَ، وَغَيْرَ أَسْمَاءِ جَمَاعَةٍ تَسْمُوا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ أَمْسَكَ.

والصواب خلافه وجوازه بَعْدَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِدَلِيلِ إِطْبَاقِ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ.

١٧٥٤ - وَقَدْ سَمِيَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ ابْنُهُ مُحَمَّدًا، وَكَتَاهُ بِأَبِي الْقَاسِمِ.

١٧٥٥ - وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ فِي ذَلِكَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٩٦٧)، التِّرْمِذِيُّ (٢٨٤٣)].

١٧٥٦ - وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ ذَلِكَ اسْمُ الْمَهْدِيِّ وَكُنْيَتُهُ [أَبُو دَاوُدَ (٤٩٨٢)، التِّرْمِذِيُّ (٢٢٣٠)].

١٧٥٧ وَحَتَّى ١٧٥٩ - وَقَدْ سَمِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ خَزْمٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ ثَابِتٍ بْنِ قَيْسٍ، وَغَيْرَ وَاحِدٍ.

١٧٦٠ - وَقَالَ: «مَا صَرَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدَانِ وَثَلَاثَةً؟!».

وَقَدْ فَصَلْتُ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْقِسْمِ عَلَى بَابَيْنِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ.



الباب الأول

في بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام -
سَبٌّ، أَوْ نَقْصٌ، مِنْ تَغْرِيبِ أَوْ نَصٍّ

اعْلَمْ - وَقَفْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنْ جَمِيعَ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ أَلْحَقَ بِهِ نَقْصًا فِي نَفْسِهِ، أَوْ نَسَبِهِ، أَوْ دِينِهِ، أَوْ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِهِ، أَوْ عَرَضَ بِهِ، أَوْ شَبَّهَهُ بِشَيْءٍ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ لَهُ، أَوْ الْإِزْراءِ عَلَيْهِ، أَوْ التَّصْغِيرِ لَشَأْنِهِ، أَوْ الْعُضْ مِنْهُ، وَالْعَيْبَ لَهُ؛ فَهُوَ سَابٌّ لَهُ؛ وَالْحُكْمُ فِيهِ حُكْمُ السَّابِّ، يُقْتَلُ كَمَا نُبِيتُهُ، وَلَا نَسْتَشْنِي فَضْلًا مِنْ فُضُولِ هَذَا الْبَابِ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ، وَلَا نَمْتَرِي فِيهِ تَصْرِيحًا كَانَ أَوْ تَلْوِيحًا.

وكَذَلِكَ مَنْ لَعَنَهُ أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، أَوْ تَمَتَّى مَضْرَّةً لَهُ، أَوْ نَسَبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِهِ عَلَى طَرِيقِ الذَّمِّ أَوْ الْعَيْبِ فِي جِهَتِهِ الْعَزِيزَةِ بِسُخْفٍ مِنَ الْكَلَامِ وَمُفْجَرٍ، وَمُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٍ، أَوْ غَيْرُهُ بِشَيْءٍ مِمَّا جَرَى مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِخْنَةِ عَلَيْهِ، أَوْ غَمَصَهُ بِبَعْضِ الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ الْجَائِزَةِ وَالْمَعْهُودَةِ لَدَيْهِ.

وهَذَا كُلُّهُ إِجْمَاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَثَمَةِ الْفُقَهَاءِ مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ رَضَوَانِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِلَى هَلُمِّ جَزَاءٍ.

وقال أبو بكر بن المنذر: أَجْمَعَ عَوَامُّ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ يُقْتَلُ؛ وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ.

قال القاضي أبو الفضل: وهو مَقْتَضَى قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ.

وبمثلُه قال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلم، لكنهم قالوا: هي ردة.

وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك.

وحكى الطبري مثله، عن أبي حنيفة، وأصحابه، فمن تنقضه عليه السلام، أو برئ منه، أو كذبه.

وقال سُخُونُ فَمِنْ سَبِّ: ذَلِكَ رَدَّةٌ كَالرَّذَّةِ.

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره؛ وهل قُتِلَ خَذًا أو كُفْرًا كما سَيِّئَتْهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا فِي اسْتَبَاحَةِ ذِمَّةِ بَيْنِ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ وَسَلَفِ الْأُتَمَّةِ وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى قُتْلِهِ وَتَكْفِيرِهِ، وَأَشَارَ بَعْضُ الظَّاهِرَةِ - وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ: عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْفَارِسِيِّ - إِلَى الْخِلَافِ فِي تَكْفِيرِ الْمُنْتَقِضِ بِهِ وَالْمَعْرُوفِ مَا قَدَّمَاهُ.

قال محمد بن سُخُونُ: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ شَاتِمَ النَّبِيِّ ﷺ الْمُنْتَقِضُ لَهُ كَافِرٌ. وَالْوَعْدُ جَارٍ عَلَيْهِ بِعَذَابِ اللَّهِ لَهُ؛ وَحُكْمُهُ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْقَتْلُ؛ وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِهِ وَعَذَابِهِ كَفَّرَ.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقول خالد بن الوليد مالك بن نويرة لقوله - عن النبي ﷺ -: صَاحِبُكُمْ.

وقال أبو سليمان الخطابي: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفَ فِي وَجُوبِ قُتْلِهِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا.

وقال ابن القاسم، عن مالك، في «كتاب ابن محنون» و«المبسوط» و«الغنيّة»، وحكاة مطرف، عن مالك، في «كتاب ابن حبيب»: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قُتِلَ، وَلَمْ يُنْتَبَ.

قال ابن القاسم في «الغنيّة»: مَنْ سَبَّ أَوْ شَتَمَ أَوْ عَابَهُ أَوْ تَنَقَّضَ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَحُكْمُهُ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْقَتْلُ كَالرُّنْدِيقِ وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيرَهُ وَبَرَّهَ. وَفِي «المبسوط» عن عثمان بن كنانة: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قُتِلَ، أَوْ صُلِبَ خِيًّا، وَلَمْ يُنْتَبَ، وَالْإِمَامُ مُخَيَّرٌ فِي صَلْبِهِ حَيًّا أَوْ قَتْلِهِ.

ومن رواية أبي المضعب، وابن أبي أريس: سَمِعْنَا مَالِكًا يَقُولُ: مَنْ سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَوْ شَتَمَهُ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ تَنَقَّضَ، قُتِلَ - مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا - وَلَا يُنْتَاب.

وفي كتاب محمد: أَخْبَرَنَا أَصْحَابُ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ قُتِلَ وَلَمْ يُنْتَبَ.

وقال أَصْبَحَ: يُقْتَلُ على كل حالٍ أَسْرَ ذلك أو أَظْهَرُهُ؛ ولا يُسْتَتَابُ؛ لأن توبته لا تعرف.

وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ من مسلم أو كافرٍ قُتِلَ ولم يُسْتَبَّ.

وحكى الطبري فيه مثله، عن أشهب، عن مالك.

وروى ابنُ وَهْبٍ، عن مالك: مَنْ قال: إِنَّ رِداءَ النَّبِيِّ ﷺ - ويروى: زَرَّ النَّبِيَّ ﷺ - وسِخَ؛ أراد به عَيْنَهُ: قُتِلَ.

وقال بعضُ علمائنا: أجمع العلماء على أَنَّ من دعا على نبيٍّ من الأنبياء بالويل، أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة.

وأفتى أبو الحسن القاسبي فيمن قال في النبي ﷺ: الحَمَالُ؛ يتيم أبي طالب - بالقتل.

وأفتى أبو محمد بن أبي زَيْدٍ بقتل رجلٍ سَمِعَ قوماً يتذكرون صفةَ النبي ﷺ إذ مرَّ بهم رجلٌ قَبِيحُ الوَجهِ واللَّحْيَةِ؛ فقال لهم: تريدون تعرفون صِفَتَهُ؟ هي في صِفَةِ هذا المارِّ في خَلْقِهِ ولَحْيَتِهِ. قال: ولا تُقْبَلُ توبته.

وقد كَذَبَ - لعَنَهُ اللهُ - وليس يخرج ذلك من قلبِ سليم الإيمان.

وقال أحمد بن أبي سليمان - صاحبُ سُحُنُونِ -: مَنْ قال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان أسودَ يُقْتَلُ.

وقال في رجلٍ قيل له: لا، وحقُّ رسولِ الله! فقال: فعل الله برسولِ الله كذا وكذا، وذكر كلاماً قبيحاً؛ ف قيل له: ما تقول؟ يا عَدُوَّ الله! فقال أشدُّ من كلامه الأول؛ ثم قال: إنما أردتُ برسولِ الله العُقْرَب. فقال ابنُ أبي سليمان الذي سأله: اشهدْ عليه وأنا شريكك يُرِيدُ: في قتله وثواب ذلك.

قال حبيب بن الربيع: لأنَّ ادِّعاءَهُ التَّأْوِيلَ في لفظِ صُراحٍ لا يُقْبَلُ؛ لأنَّه امتهان؛ وهو غَيْرُ مُعَزَّزٍ لرسولِ الله ﷺ، ولا مؤقَّر له؛ فوجب إباحةُ دَمِهِ.

وأفتى أبو عبدالله بن عتاب - في عَشَارٍ؛ قال لرجل: أدِّ، واشكُ إلى النبي ﷺ؛ وقال: إن سَأَلْتُ أو جَهِلْتُ، فقد جَهِلَ وسأَلَ النبي ﷺ - بالقتل.

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المُتَفَقِّهِ الطَّلِيْطَلِيَّ وصَلَّبه بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وختن خَيْدَرَةٍ، وزغيمه أنَّ زُهْمَهُ لم يكن قَصْداً؛ ولو قَدَّر على الطيبات أكلها، إلى أشباهِ لهذا.

وأفتى فقهاء القَيْرَوَانِ وأصحابُ سُحُنُونِ بقتل إبراهيم الفزاري، وكان شاعراً

مُتَمَنِّئًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ، وَكَانَ مِمَّنْ يَخْضُرُ مَجْلِسَ الْقَاضِي أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ طَالِبٍ لِلْمَنَاطِرَةِ، فَرُفِعَتْ عَلَيْهِ أُمُورٌ مُنْكَرَةٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الْإِسْتِهْزَاءِ بِاللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَاحْضَرْ لَهُ الْقَاضِي يَحْيَى بْنُ عُمَرَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَصَلْبِهِ؛ فَطُعِنَ بِالسَّكِينِ، وَصُلِبَ مُنْكَسَأً؛ ثُمَّ أُنْزِلَ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ.

وَحَكَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَتْ خَشَبَتُهُ، وَزَالَتْ عَنْهَا الْأَيْدِي اسْتَدَارَتْ، وَحَوَّلَتْهُ عَنِ الْقِبْلَةِ؛ فَكَانَ آيَةً لِلْجَمِيعِ، وَكَبِيرَ النَّاسِ، وَجَاءَ كُلُّبٌ فَوَلَّغَ فِي ذِمَّتِهِ؛ فَقَالَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

١٧٦١ - وَذَكَرَ حَدِيثًا عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُلْغَى الْكُلْبُ فِي دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ».

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَرَابِطِ: مَنْ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُزِمَ يُسْتَأْتَبُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؛ لِأَنَّهُ تَنَقَّصَ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي خَاصَّتِهِ، إِذْ هُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَقِينُ مِنْ عَصَمَتِهِ.

وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ رُبِيعٍ الْقُرَوِيُّ: مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ أَنَّ مَنْ قَالَ فِيهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: مَا فِيهِ تَقْصُصٌ، قُتِلَ ذُونُ اسْتِتَابَةٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَثَابٍ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مُوجِبَانِ أَنَّ مَنْ قَصَدَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَذَى أَوْ نَفْصٍ، مَعْرُضًا أَوْ مَصْرَحًا - وَإِنْ قُلَّ - فَقَتْلُهُ وَاجِبٌ. فَهَذَا الْبَابُ كُلُّهُ مِمَّا عَدَّهُ الْعُلَمَاءُ سَبًّا وَتَقْصُصًا يَجِبُ قَتْلُ قَائِلِهِ، لَمْ يَخْتَلَفْ فِي ذَلِكَ مُتَقَدِّمُهُمْ وَلَا مُتَأَخِّرُهُمْ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ قَتْلِهِ عَلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَنَبِئْتُهُ بَعْدُ أَيْضًا. إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَكَذَلِكَ أَقُولُ: حُكْمُ مَنْ غَمَصَهُ أَوْ غَيَّرَهُ بِرِعَايَةِ الْغَنَمِ، أَوْ السَّهْوِ، أَوْ النِّسْيَانِ، أَوْ السَّخَرِ، أَوْ مَا أَصَابَهُ مِنْ جُرُوحٍ أَوْ هَزِيمَةٍ لِبَعْضِ جِيوشِهِ، أَوْ أَذَى مِنْ عَدُوِّهِ، أَوْ شِدَّةٍ مِنْ زَمَنِهِ، أَوْ بِالْمِيلِ إِلَى نِسَانِهِ؛ فَحُكْمُ هَذَا كُلِّهِ - لِمَنْ قَصَدَ بِهِ تَقْصِصَهُ - الْقَتْلُ.

فصل

فِي الْحُجَّةِ فِي إِنْجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ أَوْ غَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فَمِنْ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ لَعْنَةُ اللَّهِ لِمُؤَذِّنِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقِرَائَتِهِ تَعَالَى أَذَاهُ بِأَذَاهُ، وَلَا خِلَافَ فِي قَتْلِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ، وَأَنَّ اللَّعْنَ إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُهُ مَنْ هُوَ كَافِرٌ، وَحُكْمُ الْكَافِرِ الْقَتْلُ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَأَمَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ وَاعِدَ لِمَنْ عَدَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال - في قاتل المؤمنين مثل ذلك؛ فَمِنْ لَعْنَتِهِ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ؛ بقوله تعالى: ﴿لَيْنَ لِّزَيْنِهِ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا لِجَدِّوَا يُقْتَلُوا فَتَيْلًا ﴿٦١﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال في - الْمُحَارِبِينَ، وذكر عقوبتهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد بَقِيَ الْقَتْلُ بمعنى اللُّغْن؛ قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لِّلْمُرْصُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الذاريات: ١٠] أي لعنهم الله. و ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَفَّ يُوَفَّكَونَ﴾ [المنافقون: ٤] أي: لعنهم الله؛ ولأنه فَرَّقَ بين أذاهما وأذى المؤمنين؛ فقال في أذى المؤمنين ما دُونَ الْقَتْلِ؛ مِنَ الضَّرْبِ وَالشَّكَالِ بقوله: ﴿فَقَدْ أَحْصَوْا بُهْتَانًا﴾ الآية [الأحزاب: ٥٨]. وكان حُكْمُ مَنْ يُؤْذِي اللَّهَ وَنَبِيَّهَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ؛ وهو الْقَتْلُ. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فسلب اسم الإيمان عَمَّنْ وَجَدَ فِي صَدْرِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَائِهِ، ولم يسلم له؛ وَمَنْ تَنَقَّصَهُ فَقَدْ نَاقَضَ هَذَا.

وقال الله تعالى: ﴿يَبْتَغِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَسْوَكَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجرات: ٢]. ولا يُخْطِ الْعَمَلُ إِلَّا الْكُفْرَ، وَالْكَافِرُ يُقْتَلُ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَزَّكَ بِمَا لَزَّ بِحُجِّكَ بِهَ اللَّهُ...﴾ [المجادلة: ٨]. ثم قال تعالى: ﴿حَسَنَتُهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا قُلُوبُ الْعَمِيرِ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَسْأَلُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٧﴾﴾ لَا تَقْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا يَمِينُكُمْ إِنْ تَقَفَ عَنْ مَا لَقُوا مِنْكُمْ شَعَبٌ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال أهل التفسير: ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بقولكم في رسول الله ﷺ.

وأما الإجماع فقد ذكرناه.

١٧٦٢ - وأما الآثارُ فحدثنا الشيخُ أبو عبد الله: أحمدُ بن محمد بن غلبون،

عن الشيخ أبي ذر الهزوي إجازةً، قال: حدثنا أبو الحسن الدارقطني، وأبو عمر بن خيوة، قالوا: حدثنا محمد بن نوح، حدثنا عبدالعزيز بن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر، عن علي بن موسى، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن الحسين بن علي، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَبَّ نَبِيًّا قَاتَلُوهُ، وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

١٧٦٣ - وفي الحديث الصحيح: أمر النبي ﷺ بِقَتْلِ كُغَبِ بْنِ الْأَشْرَفِ.

وقوله: «مَنْ لَكُغَبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [البخاري (٥٢١٠)، مسلم (١٨٠١)]. وَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَنْ قَتَلَهُ غِيلَةً دُونَ دَعْوَةٍ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَلَّلَ قَتْلَهُ بِأَذَاهُ لَهُ، فَدُلَّ أَنَّ قَتْلَهُ إِيَّاهُ لَغَيْرِ الْإِشْرَاقِ، بَلْ لِلْأَذَى.

١٧٦٤ - وكذلك قُتِلَ أَبَا رَافِعٍ، قَالَ الْبَرَاءُ: وَكَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،

وَيُعِينُ عَلَيْهِ [البخاري (٤٠٣٩)].

١٧٦٥ - وكذلك أَمُرُهُ يَوْمَ الْفَتْحِ بِقَتْلِ ابْنِ خَطْلٍ، وَجَارِيتَيْهِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا مَعَهُ

تُعْنِيَانِ بِسَبِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

١٧٦٦ - وفي حديث آخر أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسُبُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: «مَنْ

يَكْفِبُنِي عَدُوِّي؟» فَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَبَعَثَهُ ﷺ فَقَتَلَهُ.

وكذلك قَتَلَ جَمَاعَةً مِمَّنْ كَانُوا يُؤْذُونَهُ مِنَ الْكُفَّارِ وَيَسُبُّونَهُ كَالنَّضَرِ بْنِ

الْحَارِثِ، وَغُفَّةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ.

وَعَهْدَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ، فَقَتَلُوا إِلَّا مَنْ بَادَرَ بِإِسْلَامِهِ قَبْلَ

الْفَتْزَةِ عَلَيْهِ.

١٧٦٧ - وَقَدْ رَوَى الْبِرَّازُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - أَنَّ غُفَّةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ نَادَى: مَا

مَغْفَرٌ قَرِيشٍ! مَا لِي أَقْتُلَ مِنْ بَيْنِكُمْ صَبْرًا؟! فَقَالَ لَهُ ﷺ: «بِكُفْرِكَ وَافْتِرَاكِ عَلَيَّ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ».

١٧٦٨ - وَذَكَرَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَبَّهَ رَجُلًا، فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِبُنِي

عَدُوِّي؟» فَقَالَ الزَّبِيرُ: أَنَا، فَبَارَزَهُ فَقَتَلَهُ الزَّبِيرُ.

١٧٦٩ - وَرَوَى أَيْضًا أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تُسَبُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: «مَنْ يَكْفِبُنِي

عَدُوِّي؟» فَخَرَجَ إِلَيْهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَتَلَهَا.

١٧٧٠ - وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا كَذَّبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَبَعَثَ غَلْبِيًّا وَالزَّبِيرَ إِلَيْهِ

لِقَتْلَاهُ.

١٧٧١ - وَرَوَى ابْنُ قَانِعٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ فَيْكَ قَوْلًا قَبِيحًا فَقَتَلْتُهُ! فَلَمْ يَشُقْ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

١٧٧٢ - وَبَلَغَ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ - أَمِيرَ الْيَمَنِ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ امْرَأَةً هُنَاكَ فِي الرَّدَةِ غَثَّتْ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَطَعَ يَدَهَا، وَنَزَعَ نَيْبَهَا، فَبَلَغَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: لَوْلَا مَا فَعَلْتَ لَأَمَرْتُكَ بِقَتْلِهَا، لِأَنَّ خَدَّ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ يَشْبُهُ الْحُدُودَ.

١٧٧٣ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَجَّتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَطَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «مَنْ لِي بِهَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهَا: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَهَضَّ فَقَتَلَهَا، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَا يَنْتَطِعُ فِيهَا عَثْرَانِ».

١٧٧٤ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمٌّ وَلَدِ تَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْتَجِرُ، فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقْعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتُسْتَمُّهُ، فَقَتَلَهَا، وَأَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَأَهْدَرَ دَمَهَا [أَبُو دَاوُدَ (٤٣٦١)، النَّسَائِيُّ (١٠٧/٧) (١٠٨)].

١٧٧٥ - وَفِي حَدِيثٍ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ: كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، فَغَضِبَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَحَكَى الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ - وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ: أَنْتِثُ أَبَا بَكْرٍ - وَقَدْ أَغْلَظَ لِرَجُلٍ فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ! دَغْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ: اجْلِسْ، فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَبُو دَاوُدَ (٤٣٦٣)، النَّسَائِيُّ (١٠٩/٧)، أَحْمَدُ (١٠/١)].

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ نَصْرٍ: وَلَمْ يَخَالِفْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَاسْتَدَلَّ الْأَثَمَةُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَغْضَبَ النَّبِيَّ ﷺ بِكُلِّ مَا أَغْضَبَهُ، أَوْ آذَاهُ أَوْ سَبَّهُ. وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَامِلِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ اسْتَشَارَهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ سَبَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَيْهِ: إِنَّهُ لَا يَجِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِسَبِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلًا سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ حَلَّ دَمُهُ.

وَسَأَلَ الرَّشِيدُ مَالِكًا فِي رَجُلٍ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ فَهَاءَ الْعِرَاقِ أَقْتَوْهُ بِجَلْدِهِ، فَغَضِبَ لَذَلِكَ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا بَقَاءُ الْأُمَّةِ بَعْدَ شَتْمِ نَبِيِّهَا! مَنْ شَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ يُجْلَدُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ، رَوَاهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ أَصْحَابِ فَتَاوَى مَالِكٍ، وَمَوْئِلُفِي أَخْبَارِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَا أَدْرِي مَنْ

هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفنوا الرشيد بما ذكر؟ وقد ذكرنا مذهب العراقيين بثقله، ولعلمهم بمن لم يشهر بعلم، أو من لا يوثق بفتواه، أو يميل به هواه، أو يكون ما قاله يحمل على غير السب، فيكون الخلاف: هل هو سب أو غير سب؟ أو يكون رجع وتاب عن سبه، فلم يقله لمالك على أصله، وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه.

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أن من تنقصه - عليه السلام - أو سبه فقد ظهرت علامة مرض قلبه، وبرهان بر طويته وكفره، ولهذا حكم له كثير من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وقول الثوري، وأبي حنيفة، والكوفيين.

والقول الآخر: أنه دليل على الكفر، فيقتل حداً، وإن لم يخكم له بالكفر إلا أن يكون متmadياً على قوله، غير منكّر له، ولا مقلع عنه، فهذا كافر، وقوله: إنا صريح كُفر كالتكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذم، فاعتراه بها ونزك توحيه عنها دليل استخلاله لذلك، وهو كُفر أيضاً، فهذا كافر بلا خلاف، قال الله تعالى في مثله: ﴿يَحْلُثُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير.

وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل محمد إلا كقول القائل: سمّن كلبك يأكلك وأجعه يتبعك، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

١٧٧٦ - وقد قيل: إن قاتل مثل هذا، إن كان مستتيراً به إن حكمه حكم الزنديق يقتل، ولأنه قد غيّر دينه، وقد قال عليه السلام: «من غيّر دينه فاضربوا عنقه» [البخاري (٣٠١٧)] ولأن لحكم النبي ﷺ في الحرمة مزية على أمته، وساب الحر من أمته يحد، فكانت العقوبة لمن سبه - عليه السلام - القتل، لعظيم قدره، وشغوب منزلته على غيره.

فصل

في أسباب عفوه ﷺ عن بغض من آذاه

١٧٧٧ - فإن قلت: فلم لم يقتل النبي ﷺ اليهودي الذي قال له: السام عليكم [البخاري (٦٩٢٦)]، وهذا دعاء عليه.

١٧٧٨ - وَلَا قَتَلَ الْآخَرَ الَّذِي قَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ،
وقد تَأَذَّى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: «قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ»
[البخاري (٣١٥٠)، مسلم (١٠٦٢)] وَلَا قَتَلَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْذُونَهُ فِي أَكْثَرِ
الْأَحْيَانِ؟

١٧٧٩ - فَاعْلَمْ - وَقَفَّقْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ يَسْتَأْذِنُ
عَلَيْهِ النَّاسَ، وَيُمِيلُ قُلُوبَهُمْ إِلَيْهِ وَإِلَى مُحَبَّتِهِ وَيَحْبِبُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَيَزِينُهُ فِي
قُلُوبِهِمْ، وَيُدَارِيهِمْ، وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ مُبَشِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُنْفَرِينَ»
[البخاري (٢٢٠)].

١٧٨٠ - وَيَقُولُ: «يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا، وَسَكُنُوا وَلَا تَنْفَرُوا» [البخاري (٦١٢٥)،
مسلم (١٧٣٤)].

١٧٨١ - وَيَقُولُ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

وكان ﷺ يُدَارِي الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُجَمِّلُ صُخْبَتَهُمْ، وَيُغْضِي عَلَيْهِمْ،
وَيَحْتَمِلُ مِنْ أَذَاهُمْ، وَيَصْبِرُ عَلَى جَفَائِهِمْ مَا لَا يَجُوزُ لَنَا الْيَوْمَ الصَّبْرُ لَهُمْ عَلَيْهِ،
وَكَانَ يُزَفِّقُهُم بِالْعَطَاءِ وَالْإِحْسَانِ، وَبِذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى
خُلَاقِهِمْ إِنَّهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [المائدة: ١٣].
وقال تعالى: «أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ» [فصلت: ٣٤].

وذلك لحاجة الناس للتألف أول الإسلام، وجَمْع الكلمة عليه، فلما استقرَّ
وأظهره الله عَلَى الَّذِينَ كَلَهُ قَتْلَ مَنْ أَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، واشتهر أمره، كَفِغْلُهُ بَابِنِ
خَطْلٍ، وَمَنْ عَهْدَ يَقْتُلُهُ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَمَنْ أَمَكَنَهُ قَتْلُهُ غِيْلَةً مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ
غَلْبَةً يَمُنُّ لَمْ يَنْظُمْهُ قَبْلُ سِلْكَ صُخْبَتِهِ، وَالْإِنْخِرَاطُ فِي جُمْلَةِ مُظْهِرِي الْإِيمَانِ لَهُ
يَمُنُّ كَانَ يُؤْذِيهِ، كَابِنِ الْأَشْرَفِ، وَأَبِي رَافِعٍ، وَالتَّضَرُّرِ، وَغُفْبَةٍ.

وكذلك نَذَرَ دَمَ جَمَاعَةٍ سِوَاهُمْ، كَكُغْبِ بْنِ زَهِيرٍ، وَابْنِ الرَّبِيعِيِّ وَغَيْرِهِمَا
مَنْ أَذَاهُ حَتَّى أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَقَوْهُ مُسْلِمِينَ.

وَبَوَاطِنُ الْمُنَافِقِينَ مُسْتَبْرَءَةٌ، وَحُكْمُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الظَّاهِرِ، وَأَكْثَرُ تِلْكَ
الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا كَانَ يَقُولُهَا الْقَاتِلُ مِنْهُمْ خُفْيَةً، وَمَعَ أَمْثَالِهِ الْكُفَّارِ وَيَحْلِفُونَ عَلَيْهَا إِذَا
نُمِيتَ، وَيَنْكُرُونَهَا، وَ «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ» [التوبة: ٧٤]، وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ هَذَا يَطْمَعُ فِي قِيَّتِهِمْ، وَرَجَوْعِهِمْ
إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَوْبَتِهِمْ، فَيَصْبِرُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى هَتَاتِهِمْ وَجَفَوْتِهِمْ، كَمَا صَبَرَ

أولوا العزم من الرُّسل حتى فاء كثير منهم باطناً، كما فاء ظاهراً، وأخلص سِراً
كما أظهر جَهراً، ونفع اللّه بَعْدُ بكثير منهم، وقام منهم للدين وُراءُ وأعوانٌ
وَحَماءُ وأنصار كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بَعْضُ أئمتنا رَجَمَهُمُ اللّهُ عن هذا السؤال وقال: لعله لم يَثْبُت
عنده - عليه السلام - من أقوالهم ما رُفِعَ، وإنما نقله الواحدُ، ومن لم يَصِلْ رُتْبَةُ
الشهادة في هذا الباب، من صَبِيٍّ، أو عَبْدٍ، أو امرأَةٍ، والدماء لا تُسْتَبَاحُ إِلَّا
بَعْدَئَيْنِ.

١٧٨٢ - وعلى هذا يُحْمَلُ أَمْرُ الْيَهُودِ فِي السَّلَامِ، وَأَنَّهُمْ لَوْأَ بِهِ أَلَسْتَهُمْ،
وَلَمْ يَبَيِّنُوهُ، أَلَا تَرَى كَيْفَ نَبَّهْتُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ، وَلَوْ كَانَ صَرَّحَ بِذَلِكَ لَمْ تَنْفَرِدْ
بِعِلْمِهِ، وَلِهَذَا ثَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَى فِعْلِهِمْ، وَقِلَّةَ صِدْقِهِمْ فِي سَلَامِهِمْ،
وَخِيَانَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، لَيًّا بِالسُّنَّتِمْ، وَطَغْنًا فِي الدِّينِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلِمَ
أَحَدُهُمْ فَلِنَا يَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقُولُوا: عَلَيْكُمْ».

وكذلك قال بَعْضُ أَصْحَابِنَا الْبَغْدَادِيِّينَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْتُلِ الْمُنَافِقِينَ
بِعِلْمِهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَأْتِ أَنَّهُ قَامَتْ بَيْتَةٌ عَلَى بِفَاقِهِمْ، فَلِذَلِكَ تَرَكَهُمْ.

وأيضاً فَإِنَّ الْأَمْرَ كَانَ سِراً وَباطِناً، وظَاهِرُهُمُ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْعَهْدِ وَالْجَوَارِ، وَالنَّاسُ قَرِيبٌ عَهْدُهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتَمَيَّزْ بَعْدُ
الْخِيَّتُ مِنَ الطَّيِّبِ.

وقد شاعَ عَنِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْعَرَبِ كَوْنُ مَنْ يُنْتَهَمُ بِالنِّفَاقِ مِنْ جَمَلَةِ
الْمُؤْمِنِينَ وَصَحَابَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْصَارِ الدِّينِ بِحُكْمِ ظَاهِرِهِمْ، فَلَوْ قَتَلَهُمُ
النَّبِيُّ ﷺ لِنِفَاقِهِمْ وَمَا يَبْدُرُ مِنْهُمْ، وَعِلْمِهِ بِمَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ لَوَجَدَ الْمُنْفَرِّ
مَا يَقُولُ، وَلَا زَنَابَ الشَّارِدِ، وَأَرْجَفَ الْمَعَانِدِ، وَارْتَاعَ مِنْ صَحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ،
وَالدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ وَاحِدٍ، وَلَزَعَمَ الزَّاعِمُ وَطَعَنَ الْعَدُوَّ الظَّالِمَ - أَنَّ الْقَتْلَ
إِنَّمَا كَانَ لِلْعِدَاوَةِ وَطَلَبِ اخْتِذِ الثَّرَةِ.

١٧٨٣ - وَقَدْ رَأَيْتُ مَعْنَى مَا حَرَّزْتُهُ مَنْسُوباً إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

١٧٨٤ - وَقَالَ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللَّهُ عَنْ قَتْلِهِمْ».

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حُدُودِ الزَّنا والقَتْلِ وشَبِهِهِ،
لظهورها واستواء الناس في علمها.

وقد قال محمد بن المَوَاز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي ﷺ،
وقاله القاضي أبو الحسن بن القَصَّار.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَا تُخَاوِفُكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ۝١٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝١٧﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

قال: معناه إذا أظهروا النفاق.

وحكى محمد بن مسلمة في «المبسوط» عن زيد بن أسلم في قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. أنها نسخت ما
كان قبلها.

وقال بعض مشايخنا: لعل القائل: هذه قسمة ما أريد بها وجهه الله. وقوله:
- اغلظ - لم يفهم النبي ﷺ منه الطعن عليه، والتهمة له، وإنما رآها من وجهه
الغلط في الرأي، وأمور الدنيا، والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سباً،
ورأى من الأذى الذي له العفو عنه، والضبر عليه، فلذلك لم يعاقبه.

وكذلك يقال في اليهود قالوا: السام عليك. ليس فيه صريح سب ولا دعاء
إلا بما لا بُد منه من الموت الذي لا بُد من لحاقه جميع البشر.

وقيل: بل المراد: تسأمون دينكم. والسأم والسامة: الملال.

وهذا دعاء على سامة الدين ليس بصريح سب، ولهذا تَرَجَّم البخاري على
هذا الحديث: «باب: إذا عَرَّضَ الذَّمُّ أَوْ غَيْرُهُ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ».

قال بعض علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسب، وإنما هو تعريض بالأذى.

قال القاضي أبو الفضل: قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْأَذَى وَالسَّبَّ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

سواء.

وقال القاضي أبو محمد بن نضر مُجِيباً عن هذا الحديث ببعض ما تقدّم،

ثم قال: ولم يذكر في هذا الحديث: هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمة
أو الحرب؟

ولا يترك موجب الأدلة للأمر المُحْتَمَل.

والأولى في ذلك كله والأظهر من هذه الوجوه مقصِد الاستتلاف والمدارة

على الدين لعلهم يؤمنون.

ولهذا تَرَجَّم البخاري على حديث القسمة والخوارج: «باب: مَنْ تَرَكَ قِتَالَ

الخوارج للتألف ولئلا ينفِرَ الناسُ عنه»، ولَمَّا ذَكَرْنَا معناه عن مالك بن أنس، وقرَرْنَاهُ قَبْلُ.

وقد صبر لهم عليه السلام على سيخِرِهِ وَسَمِهِ، وهو أعظمُ مِنْ سَبِّهِ إِلَى أَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَذِنَ لَهُ فِي قَتْلِ مَنْ خِيَتَهُ مِنْهُمْ، وَإِنْزَالِهِمْ مِنْ صِيَابِهِمْ، وَقَذْفِ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ، وَكُتِبَ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ الْجَلَاءُ، وَأُخْرِجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَخَرَّبَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ.

١٧٨٥ - وَكَاشَفَهُمُ بِالسَّبِّ، فَقَالَ: «يَا إِخْوَةَ الْقِرْدَةِ وَالْحُنَازِيرِ».

وَحَكَّمُ فِيهِمْ سَيُوفَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَجْلَاهُمْ مِنْ جَوَارِهِمْ وَأُورَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى.

١٧٨٦ - فَإِنْ قُلْتُ: فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ يُؤْتِي إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لَهَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْ سَبِّهِ، أَوْ آذَاهُ، أَوْ كَذْبِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ مِنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ الَّتِي انْتَقَمَ لَهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَا لَا يَنْتَقِمُ لَهُ فِيمَا تَعَلَّقَ بِسُوءِ آدَبٍ، أَوْ مَعَامَلَةٍ، مِنَ الْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ، مِمَّا لَمْ يَقْبِضْ فَاعِلُهُ بِهِ آذَاهُ، لَكِنْ مِمَّا جَبِلَتْ عَلَيْهِ الْأَعْرَابُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَهْلِ، أَوْ جُبِلَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الْعَفْلَةِ.

١٧٨٧ - كَجَبَذِ الْأَعْرَابِيِّ بِإِزَارِهِ [البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧)] حَتَّى أَثَرُ فِي عُنُقِهِ.

١٧٨٨ - وَكَرَفَعَ صَوْتُ الْآخَرِ عِنْدَهُ.

١٧٨٩ - وَكَجَحْدِ الْأَعْرَابِيِّ شِرَاهُ مِنْهُ قَرْمَهُ الَّتِي شَهِدَ فِيهَا خُزِيمَةً.

١٧٩٠ - وَلَمَّا كَانَ مِنْ تَظَاهُرِ رُؤُوسِهِ عَلَيْهِ [البخاري (٤٩١٤)، مسلم (١٨٧٩)]، وَأَشْبَاهَ هَذَا مِمَّا يَخْسُنُ الصَّفْحُ عَنْهُ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: إِنْ أَذَى النَّبِيُّ ﷺ حَرَامٌ، لَا يَجُوزُ بِفِعْلٍ مَبَاحٌ وَلَا غَيْرِهِ. وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَجُوزُ بِفِعْلٍ مَبَاحٌ مِمَّا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ فِعْلُهُ، وَإِنْ تَأَذَى بِهِ غَيْرُهُ. وَاحْتِجَ بِعَمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَلَدِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

١٧٩١ - وَيَقُولُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّْي، يُؤْذِنِي مَا يُؤْذِيهَا، إِلَّا وَإِنِّي لَا أَحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَلَكِنْ لَا تَجْتَمِعُ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وابنة عدو الله عند رجل أبدأه أو يكون هذا مما آذاه به كافرٌ وجاء بعد ذلك إسلامه، كعَفْوِهِ عن اليهودي الذي سَحَرَهُ، وعن الأعرابي الذي أراد قَتْلَهُ، وعن اليهودية التي سَمَّتُهُ، وقد قيل: قتلها.

ومثل هذا مما يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين، فصفح عنهم رجاء استئلافهم واستئلاف غيرهم بهم كما قرزناه قبل، وبالله التوفيق.

فصل

في حكم من تنقص النبي ﷺ غير قاصد للسب والإزراء ولا مُعتقد له

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: تقدم الكلام في قتل القاصد لسبه والإزراء به، وغمضه بأي وجه كان من ممكن أو محال، فهذا وجهٌ يَبَيِّنُ لا إشكال فيه.

والوجه الثاني: لاجئ به في البيان والجلاء، وهو أن يكون القاتل لما قال في جهته - عليه السلام - غير قاصد للسب والإزراء، ولا معتقد له ولكنه تكلم في جهته - عليه السلام - بكلمة الكُفْرِ: من لَغِنه، أو سبه، أو تكذبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه إليه، أو نفى ما يجب له، مما هو في حقه عليه السلام نقيصة، مثل أن ينسب إليه إثباتٌ كبيرة، أو مداينة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس، أو يغض من مرتبته، أو شرف نسبه، أو وفور علمه أو زُفده، أو يكذب بما اشتهر من أمورٍ أخبر بها - عليه السلام - وتواتر الخبر بها عنه، عن قصدٍ لردِّ خيره، أو يأتي بسفه من القول، وقبيح من الكلام، ونوع من السب في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمد دمه، ولم يقصد سبه، إنما لجهالة حملته على ما قاله، أو لضجر أو سُكْرِ اضطره إليه، أو قلة مراقبة، وضبط لسانه، وعجرفة، وتهور في كلامه، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول: القتل دون تلغثم، إذ لا يُعَدُّ أحدٌ في الكُفْرِ بالجهالة، ولا بدغوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه، إذ كان عقله في فطرته سليماً، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيون على ابنِ حاتم في نفيه الزُهد عن رسول الله ﷺ الذي قدمناه.

وقال محمد بن سُخْنُون في المأسور يسب النبي ﷺ في أيدي العدو: يُقتل، إلا أن يعلم تنصره أو إكراهه.

وعن أبي محمد بن أبي زيد: لا يُغَدَّرُ بِدَعْوَى زَلَلِ اللِّسَانِ فِي مِثْلِ هَذَا.
وَأَفْتَى أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ فِيمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي سُكْرِهِ: يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ يُنْظَرُ
بِهِ أَنَّهُ يَتَعَدَّدُ هَذَا وَيَفْعَلُهُ فِي صَحْوِهِ.

وَأَيْضاً فَإِنَّهُ حَدٌّ لَا يُسْقِطُهُ السُّكْرُ، كَالْقَذْفِ، وَالْقَتْلِ، وَسَائِرِ الْحُدُودِ، لِأَنَّهُ
أَدْخَلَهُ عَلَى نَفْسِهِ، لِأَنَّ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ زَوَالِ عَقْلِهِ بِهَا، وَإِثْنَانِ مَا
يُنْكَرُ مِنْهُ، فَهُوَ كَالْعَامِدِ لَمَّا يَكُونُ بِسَبِيهِ.

وَعَلَى هَذَا أَلْزَمْنَاهُ الطَّلَاقَ وَالْعِتَاقَ، وَالْقِصَاصَ وَالْحُدُودَ.

١٧٩٢ - وَلَا يُغْتَرَضُ عَلَى هَذَا بِحَدِيثِ حَمْزَةَ، وَقَوْلِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَهَلْ أَنْتُمْ
إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي؟ [البخاري (٢٣٧٥)، مسلم (١٩٧٩)].

قَالَ: فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ تَجَلَّى فَانصَرَفَ وَتَرَكَهُ، لِأَنَّ الْخَمْرَ كَانَتْ حِينئِذٍ
غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ فِي جَنَايَاتِهَا إِثْمٌ، وَكَانَ حُكْمُ مَا يَحْدُثُ عَنْهَا مَغْفُوراً عَنْهُ كَمَا
يَحْدُثُ مِنَ النَّوْمِ، وَشَرِبَ الدَّوَاءَ الْمَأْمُونُ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِداً لِذَلِكَ

الوجه الثالث: أَنَّ يَفْصِدَ إِلَى تَكْذِيبِهِ فِيمَا قَالَهُ وَأَتَى بِهِ، أَوْ يَنْفِي نُبُوَّتَهُ، أَوْ
رِسَالَتَهُ، أَوْ وُجُودَهُ، أَوْ يَكْفُرُ بِهِ، انْتَقَلَ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ إِلَى دِينٍ آخَرَ غَيْرَ مِلَّتِهِ أَمْ لَا،
فَهَذَا كَافِرٌ بِإِجْمَاعٍ، يَجِبُ قَتْلُهُ، ثُمَّ يُنْظَرُ، فَإِنْ كَانَ مُضَرِّحاً بِذَلِكَ كَانَ حُكْمُهُ أَشْبَهَ
بِحُكْمِ الْمُرْتَدِّ، وَقَوِيَ الْخِلَافُ فِي اسْتِثْنَائِهِ.

وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ: لَا يُسْقِطُ الْقَتْلُ عِنْدَ تَوْبَتِهِ لِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ، إِنْ كَانَ
ذَكَرَهُ بِنَقِيصَةٍ فِيمَا قَالَهُ مِنْ كَذِبٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَتِراً بِذَلِكَ فَحُكْمُهُ حُكْمُ
الزَّنَادِقِ لَا تُسْقِطُ قَتْلُهُ التَّوْبَةُ عِنْدَنَا كَمَا سَنَبِيْهُ.

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: مَنْ بَرِئَ مِنْ مُحَمَّدٍ، أَوْ كَذَّبَ بِهِ، فَهُوَ مُرْتَدٌّ
حَلَالُ الدَّمِ إِلَّا إِنْ رَجَعَ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْمُسْلِمِ إِذَا قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ نَبِيًّا، أَوْ لَمْ يُرْسَلْ،
أَوْ لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ قُرْآنٌ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَقُولُهُ: يُقْتَلُ.

قَالَ: وَمَنْ كَفَرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْكَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُرْتَدِّ،
وَكَذَلِكَ مَنْ أَعْلَنَ بِتَكْذِيبِهِ، إِنَّهُ كَالْمُرْتَدِّ يُسْتَأَب.

وَكَذَلِكَ قَالَ، فِيمَنْ تَنَبَّأَ وَزَعَمَ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ. وَقَالَ سُحُنُونُ.

قال ابن القاسم: دعا إلى ذلك سِرّاً كان أو جَهراً.
 قال أَضْبَعُ: وهو كالمُرْتَدِّ، لأنه قد كفر بكتاب الله مع الفِرْزَةِ على الله.
 قال أَشْهَبُ في يهودي تنبأ أو زعم أنه أُرْسِلَ إلى الناس أو قال: بعد نبيكم
 نبي: إنه يُسْتَبَابُ إن كان مُعْلِناً بذلك، فإن تاب وإلا قُتِلَ.
 ١٧٩٣ - وذلك لأنه مَكْذَبٌ للنبي ﷺ في قوله: «لا نبي بعدي» [البخاري
 (٤٤١٦)، مسلم (٢٤٠٤)] مُفْتَرٍ على الله تعالى في دَعْوَاهُ عليه للرسالة والنبوة.
 وقال محمد بن سُخْنُون: مَنْ شَكَّ في حَرْفٍ مما جاء به محمد ﷺ عن الله
 فهو كافر جاحدٌ.

وقال: مَنْ كَذَبَ النبي ﷺ كان حُكْمُهُ عند الأئمة القَتْلُ.
 وقال أحمد بن أبي سليمان صاحبُ سُخْنُون، مَنْ قال: إِنَّ النبي ﷺ أَسْوَدُ
 قُتِلَ، فإنه لم يكن - عليه السلام - بِأَسْوَدَ.
 وقال نحوه أبو عثمان الحَدَّاد، قال: لو قال: إنه مات قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِجَ، أو
 إنه كان يَتَأَهَّرُ ولم يكن بَيْتِهَامَةً قُتِلَ، لَأَنَّ هذا نَفْيٌ.
 قال حبيب بن ربيع: تَبْدِيلُ صِفَتِهِ وَمَوَاضِعِهِ كُفْرٌ، والمَظْهَرُ له كافر، وفيه
 الاستتابة، والمُسِيرُ له زَنْدِيقٌ، يُقْتَلُ دُونَ اسْتِتابته.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلَاماً يَخْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ

الوجه الرابع: أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الْكَلَامِ بِمُجْمَلٍ، ويلفظ من القول بمشكل يمكن
 حمله على النبي ﷺ أو غيره، أو يتردد في المراد به مِنْ سلامته من المكروه أو
 شره، فها هنا مُتَرَدِّدُ النَّظَرِ وَخِيَرَةُ الْعِبَرِ، ومِثْلُهُ اخْتِلَافُ الْمُجْتَهِدِينَ، وَوَقْفَةُ اسْتِبْرَاءِ
 الْمُقْلَدِينَ «إِيْهْلَاكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» [الأنفال: ٤٢]
 فمنهم مَنْ غَلَبَ حُزْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَمَى جَمْعَ عِزِّهِ، فَجَسَرَ عَلَى الْقَتْلِ، ومنهم
 مَنْ عَظَّمَ حُزْمَةَ الْقَتْلِ وَالْدَمِّ، وَدَرَأَ الْحَدَّ بِالشُّبْهَةِ لِاحْتِمَالِ الْقَوْلِ.
 وقد اختلف أئممتنا في رَجُلٍ أَغْضَبَهُ غَرِيبُهُ، فقال له: صَلِّ على النبي
 محمد، فقال له الطالب: لَا صَلِّى الله على مَنْ صَلَّى عليه، فقليل لِسُخْنُون: هل
 هو كَمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ أو شَتَمَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ عليه؟ قال: لا، إذا كَانَ
 على ما وَصَفَتْ مِنَ الْعُصْبِ، لأنه لم يكن مُضْمِراً الشَّتْمَ.
 وقال أبو إسحاق البِرْزَقِيُّ، وَأَضْبَعُ بْنُ الْفَرَجِ: لَا يُقْتَلُ، لأنه إنما شَتَمَ

الناس، وهذا نحو قول سُخْنُون، لأنه لم يَغْذِرْهُ بِالْغَضَبِ فِي شَتْمِ النَّبِيِّ ﷺ، ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تَكُنْ معه قرينة تدل على شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم، ولا مُقَدِّمَةٌ يُحْمَلُ عَلَيْهَا كَلَامُهُ، بل القرينة تدل على أن مراده الناس غَيْرُ هَؤُلَاءِ، لِأَجْلِ قَوْلِ الْآخِرِ لَهُ: صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدًا، فَحَمَلَ قَوْلَهُ وَسَبُّهُ لِمَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ الْآنَ لِأَجْلِ أَمْرِ الْآخِرِ لَهُ بِهَذَا عِنْدَ غَضَبِهِ.

هذا معنى قول سُخْنُون، وهو مُطَابِقٌ لَعَلَّةِ صَاحِبِيهِ.

وذهب الحارث بن مسكين القاضي وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ هَذَا إِلَى الْقَتْلِ. وَتَوَقَّفَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ فِي قَتْلِ رَجُلٍ قَالَ: كُلُّ صَاحِبِ فُنْدُقٍ قُزْنَانٌ، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا مُرْسَلًا، فَأَمَرَ بِشَدِّهِ بِالْقِيُودِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ حَتَّى تُسْتَفْهَمَ الْبَيِّنَةُ عَنْ جَمَلَةِ الْفَاطَةِ، وَمَا يَدُلُّ عَلَى مَقْصِدِهِ، هَلْ أَرَادَ أَصْحَابُ الْفُنَادِقِ الْآنَ؟ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَيَكُونُ أَمْرُهُ أَخَفَّ.

قَالَ: وَلَكِنْ ظَاهِرٌ لَفْظِهِ الْعَمُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ فُنْدُقٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالتَّأَخِّرِينَ. وَقَدْ كَانَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَنْ اكْتَسَبَ الْمَالَ.

قَالَ: وَدُمُ الْمُسْلِمِ لَا يُقَدَّمُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَمْرِ بَيِّنٍ. وَمَا تُرَدُّ إِلَيْهِ التَّأْوِيلَاتُ لَا بُدَّ مِنْ إِمْعَانِ النَّظَرِ فِيهِ. هَذَا مَعْنَى كَلَامِهِ.

وَحَكِي عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ - فِيمَنْ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْعَرَبَ، وَلَعَنَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَنَ اللَّهُ بَنِي آدَمَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدِ الْأَنْبِيَاءُ، وَإِنَّمَا أَرَذْتُ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ، أَنَّ عَلَيْهِ الْأَذْبَ بِقَدْرِ اجْتِهَادِ السُّلْطَانِ.

وكَذَلِكَ أَفْتَى، فِيمَنْ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ حَرَّمَ الْمُسْكِرَ، وَقَالَ: لَمْ أَعْلَمْ مَنْ حَرَّمَهُ.

١٧٩٤ - وَفِيمَنْ لَعَنَ حَدِيثُ: «لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَايَةٍ» وَلَعَنَ مَنْ جَاءَ بِهِ، أَنَّهُ إِنْ كَانَ يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ وَعَدَمِ مَعْرِفَةِ الشُّنَنِ فَعَلَيْهِ الْأَذْبُ الْوَجِيعُ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْ بِظَاهِرِ حَالِهِ سَبَّ اللَّهِ وَلَا سَبَّ رَسُولِهِ، وَإِنَّمَا لَعَنَ مَنْ حَرَّمَهُ مِنَ النَّاسِ عَلَى نَحْوِ فِتْوَى سُخْنُونِ وَأَصْحَابِهِ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

وَمِثْلُ هَذَا مَا يَخْرِي فِي كَلَامِ سُفْهَاءِ النَّاسِ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: يَا بَنَ أَفٍّ جَنْزِيرًا! وَابْنَ مَنَةِ كَلْبًا! وَشِبْهَهُ مِنْ فُحْشِ الْقَوْلِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَعَلَّ بَعْضَ هَذَا الْعَدَدِ مُنْقَطِعٌ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَنْبَغِي الزَّجْرُ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ مَا جَهِلَ قَائِلُهُ مِنْهُ، وَشَدُّ الْأَذْبِ فِيهِ.

وَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ قَصْدُ سَبِّ مَنْ فِي آبَائِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى عِلْمِ الْقَاتِلِ.

وقد يضيق القول في نحو هذا لو قال لرجل هاشمي: لعن الله بني هاشم وقال: أردت الظالمين منهم، أو قال لرجل من ذرية النبي عليه السلام قولاً قبيحاً في آبائه، أو من نسبه، أو ولده على علم منه أنه من ذرية النبي عليه السلام، ولم يكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بغض آبائه، وإخراج النبي عليه السلام بمن سبه منهم.

وقد رأيت لأبي موسى: - عيسى بن مئاس - فيمن قال لرجل: لعنك الله إلى آدم عليه السلام... أنه إن ثبت ذلك عليه قُتل.

وقد كان اختلف شيوخننا فيمن قال لشاهد شهيد عليه بشيء ثم قال له: أنتهمني؟ فقال له الآخر: الأنبياء يُتهمون، فكيف أنت؟ فكان شيوخننا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله، ليشاعة ظاهر اللفظ.

وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لإحتمال اللفظ عنده أن يكون خبراً عن اتهمهم من الكفار.

وأنتى فيها قاضي قرطبة أبو عبدالله بن الحاج بنحو هذا.

وشدد القاضي أبو محمد تضييقه، وأطال سجنه، ثم استخلفه بغد على تكذيب ما شهد به عليه، إذ دخل في شهادة بغض من شهد عليه وهن، ثم أطلقه.

وشاهدت شيوخننا القاضي أبا عبدالله: محمد بن عيسى أيام قضائه أتني برجل هاتر رجلاً اسمه محمد ثم قصد إلى كلب، فصره برجله، وقال له: قم يا محمد! فأنكر الرجل أن يكون قال ذلك، وشهد عليه لفيء من الناس، فأمر به إلى السجن، وتقضى عن حاله، وهل يصحب من يسترا بدينه من الناس، أم لا؟ فلما لم يجد ما يقوي الرية باعتقاده ضربه بالسوط وأطلقه.

فصل

في حكم من لم يقصد نقصاً، ولم يذكر عيباً ولا سباً. بل قال قولاً على مقصد الترفيع لنفسه، أو لغيره، أو على سبيل التثليل وعدم التوقير لنبية، أو على قصد الهزل والتذير

الوجه الخامس: ألا يقصد نقصاً، ولا يذكر عيباً ولا سباً، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه، أو يستشهد ببعض أحواله ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل، والحجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبه به، أو عند

هَضِيمَةً نَالَتْهُ، أَوْ غَضَاضَةً لِحِقَّتْهُ، لَيْسَ عَلَى طَرِيقِ النَّاسِي وَطَرِيقِ التَّحْقِيقِ، بَلْ عَلَى مَقْصِدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ أَوْ لْغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَعَدَمِ التَّوْقِيرِ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ عَلَى قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ بِقَوْلِهِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: إِنْ قِيلَ فِي السَّوَاءِ فَقَدْ قِيلَ فِي النَّبِيِّ، وَإِنْ كُذِّبَتْ فَقَدْ كُذِّبَ الْأَنْبِيَاءُ، أَوْ إِنْ أَذْنِبْتُ فَقَدْ أَذْنَبُوا، أَوْ أَنَا أَسَلَّمْتُ مِنَ السَّنَةِ النَّاسِ وَلَمْ يَسَلِّمْ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ، أَوْ قَدْ صَبَرْتُ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعَزْمِ، أَوْ كَصَبَرِ أَيُّوبَ، أَوْ قَدْ صَبَرَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنِ عَدَاةِ، وَخَلَّمَ عَلَى أَكْثَرِ مَا صَبَرْتُ، وَكَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَذَارَكُهَا اللَّـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ
ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول، المتساهلين في الكلام، كقول
المَعْرِي:

كُنْتُ مُوسَى وَاقِفُهُ بَنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمَا مِنْ قَبِيرٍ
على أَنَّ آخِرَ الْبَيْتِ شَدِيدٌ عِنْدَ تَدْبِيرِهِ، وَدَاخِلٌ فِي بَابِ الْإِزْرَاءِ وَالتَّحْقِيرِ
بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَفْضِيلِ حَالِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ.
وكَذَلِكَ قَوْلُهُ أَيْضًا:

لَوْلَا انْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَا: مُحَمَّدٌ مِنْ أَبِيهِ بِدِيلٍ
هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جَبْرِيْلُ
فَصَدُرَ الْبَيْتُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْفَصْلِ شَدِيدٌ لِتَشْبِيهِهِ غَيْرَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي
فَضْلِهِ بِالنَّبِيِّ، وَالْعَجْزُ مُحْتَمَلٌ لَوْجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ تَقُصُّ الْمَدْحُوحَ،
وَالْآخَرُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْهَا. وَهَذَا أَشَدُّ.
وَنَحْوُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

وَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاثُهُ صَفَّقْتُ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبْرِيْلٍ
وقول الآخر من أهل العصر:

فَرَّ مِنَ الْخُلْدِ وَاسْتَجَارَ بَنًا فَصَبَّرَ اللَّـهُ قَلْبَ رَضْوَانَ
وكقول حَسَّانِ الْمَصْبُيَّي - مِنْ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ - فِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
الْمَعْرُوفِ بِالْمُعْتَمِدِ، وَوَزِيرِهِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ زَيْدُونَ:

كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَبُو بَكْرِ الرُّضَا وَحَسَّانَ حَسَّانُ وَأَنْتَ مُحَمَّدُ

إلى أمثال هذا وإنما كثرنا بشاهدنا مع استئقالاتنا حكايتها لتعريف أمثلتها، ولتساهل كثير من الناس في ولوج هذا الباب الضنك، واستخفافهم فادخ هذا العيب، وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. لا سيما الشعراء. وأشدهم فيه تصريحاً، وللسان تـسريحاً ابن هاني الأندلسي، وابن سليمان المـعري، بل قد خرج كثير من كلامهما إلى حد الاستخفاف والتقصص وصريح الكفر.

وقد أجبنا عنه أولاً، وغرضنا الآن الكلام في هذا الفضل الذي سقنا أمثله، فإن هذه كلها وإن لم تتضمن سباً، ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصاً ولا عيباً، ولست أعني عـجزي بيني المعري، ولا قصد قائلها إـزراء وغضاً، فما وقر النبوة، ولا عظم الرسالة، ولا عزز حزمة الاصطفاء، ولا عزز خطوة الكرامة، حتى شبه من شبه في كرامة نالها، أو معرة قصد الانتفاء منها، أو ضرب مثل لتطيب مجلسه، أو إغلام في وصف لتحسين كلامه بمن عظم الله خطره، وشرف قدره، وألزم توقيره وبره، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوت عنده.

فحق هذا - إن درى عنه القتل - الأدب والسجـن وقوة تعزيره بحسب شناعة مقال، ومقتضى قبح ما نطق به، ومألوف عادته لمثله، أو ندوره، وقرينة كلامه، أو نديمه على ما سبق منه، ولم يزل المتقدمون يذكرون مثل هذا ممن جاء به، وقد أنكر الرشيد على أبي نواس قوله:

فإن يك باقي سـخـر فرعون فيكم فإن عصا موسى يكف خصيب
وقال له: يا بن اللـخـاء، أنت المستهزئ بعصا موسى عليه السلام! وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته.

وذكر القتيبي أن مما أخذ عليه أيضاً، وكفر فيه، أو قارب، قوله في محمد الأمين وتشبيهه إياه بالنبي ﷺ حيث قال:

تنازع الأحمـدان الشـبه فاشـتبـها
خلقاً وخلقاً كما قد الشراكـان
وقد أنكروا عليه أيضاً قوله:

كيف لا يذنيك من أـمـل
من رسول الله من نـفـر
لأن حق الرسول عليه السلام وموجب تعظيمه وإنافة منزلته أن يضاف إليه، ولا يضاف.

فالحكم في أمثال هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا
إمام مذهبنا مالك بن أنس رحمه الله وأصحابه .

ففي «النوادر» - من رواية ابن أبي مريم عنه - في رجل عَيَّرَ رجلاً بالفقر،
فقال: تُعَيِّرُنِي بِالْفَقْرِ وَقَدْ رَعَى النَّبِيُّ ﷺ الْعَنَمَ؟ فقال مالك: قد عَرَضَ بِذِكْرِ
النَّبِيِّ ﷺ في غير موضعه، أرى أن يؤذَّب، قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا
عُوتِبُوا أَنْ يَقُولُوا: قد أخطأت الأنبياء قبلنا.

وقال عمر بن عبدالعزيز لرجل: انظر لنا كاتباً يكون أبوه عريباً. فقال كاتب
له: قد كان أبو النبي كافراً، فقال: جعلت هذا مثلاً فعزله، وقال: لا يكتب لي
أبداً.

وقد كره سُخْنُونُ أَنْ يَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عند التعجب إلا على طريق
الثواب والاحتساب، توفيراً له وتعظيماً، كما أمرنا الله سبحانه.

وسئل - القاسي - عن رجل قال لرجل قبيح: كأنه وجهٌ كبير، ولرجل
عبوس: كأنه وجهٌ ملك الغضبان، فقال: أي شيء أراد بهذا؟ وتكبر أحد فتأني
القبر، وهما ملكان، فما الذي أراد؟ أَرُوْغَ دخل عليه حين رآه من وجهه، أم
عاف النظر إليه لدمامة خلقه؟ فَإِنْ كَانَ هذا فهو شديد، لأنه جرى مجرى التحقير
والتهوين، فهو أشد عقوبة، وليس فيه تصريح بالسب للملك، وإنما السب واقع
على المخاطب. وفي الأدب بالسُّوْطِ والسجن تكالٍ للسفهاء، قال: وأما ذاكِرُ
مَالِكٍ خازِنِ النَّارِ فقد جفا الذي ذكره عندما أنكر حاله من عبوس الآخر إلا أن
يكون المعبس له يَدٌ فَيَرْهَبُ بِعَبَسَتِهِ، فيشبهه القاتل بمالك خازن النار على طريق
الذم لهذا في فعله، ولزومه في ظلمه صفة مالك، المَلِكُ المَطِيعُ لربِّه في فعله،
فيقول: كأنه لِلَّهِ يَغْضَبُ غَضَبَ مَالِكٍ، فيكون أخف، وما كان ينبغي له التعرض
لمثل هذا، ولو كان أنفى على العبوس بعبسته، واحتج بصفة مالك كان أشد،
فيعاقب المعاقبة الشديدة، وليس في هذا ذمٌ للملك، ولو قصد ذمه لقتل.

وقال - أبو الحسن أيضاً - في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئاً، فقال
له الرجل: اسكت، فإنك أُمِّيٌّ. فقال الشاب: أليس قد كان النبي ﷺ أُمِّيًّا فشتع
عليه مقالُه، وكفره الناس، وأشفق الشاب ممَّا قال، وأظهر الندم عليه، فقال أبو
الحسن: أما إطلاقُ الكُفْرِ عليه فخطأ لكنه مخطىء في استشهاده بصفة النبي ﷺ،
وكون النبي أُمِّيًّا آيةٌ له، وكونُ هذا أُمِّيًّا نقيصةٌ فيه وجهالة.

ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي ﷺ، لكنه إذا استغفر وتاب، واعترف

ولجأ إلى الله فيترك، لأنَّ قوله لا ينتهي إلى حدِّ القتل، وما طريقه الأدب فطُرغ فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه.

ونزلت أيضاً مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور رحمه الله في رجل تنقَّصه آخرُ بشيء، فقال له: إنما تريد نَقْصِي بقولك، وأنا بشرٌ، وجميع البشر يَلْحَقُهُم النَّقْصُ حتى النبي ﷺ، فأفتاه بإطالة سِجْنِهِ، وإيجاع أدبه، إذ لم يقصد السُّبَّ، وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله.

فصل

في حُكْمِ الْقَائِلِ وَالْحَاكِي لِهَذَا الْكَلَامِ عَنْ غَيْرِهِ

الوجه السادس: أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره، وآثراً له عن سيواه، فهذا يُنْظَرُ في صورة حكايتِهِ وقرينة مَقَالَتِهِ، ويختلف الحُكْمُ باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوب، والندب، والكرامة، والتحريم، فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام بقوله، والتنفير منه، والتجريح له، فهذا مما يَتَّبَعِي امْتِثَالَهُ، ويُحْمَدُ فاعله، وكذلك إن حكاة في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقض على قائله، والفُتْيَا بما يلزمه.

وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكِي لذلك والمحكي عنه، فإن كان القائل لذلك ممن تصدَّى لأنَّ يُؤْخَذَ عنه العلم، أو رواية الحديث، أو يُقْطَعُ بِحُكْمِهِ أو بشهادته، أو فُتِيَاهُ في الحقوق، وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفير للناس عنه، والشهادة عليه بما قاله، ووجب على مَنْ بَلَغَهُ ذلك من أئمة المسلمين إنكاره، وبيان كُفْرِهِ، وفساد قَوْلِهِ، لقطع ضَرَرِهِ عن المسلمين، وقياماً بحق سيّد المرسلين، وكذلك إن كان ممن يَعِظُ العامة، أو يودب الصبيان، فإنَّ مَنْ هذه سريرته لا يُؤْمَنُ على إلقاء ذلك في قلوبهم، فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي ﷺ، ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي ﷺ واجب، وحماية عَرَضِهِ مُتَعَيْنٌ، ونُضْرَتُهُ عن الأذى، حياً وميتاً، مستحق على كل مؤمن، لكنه إذا قام بهذا مَنْ ظهر به الحق، وفُصِّلَتْ به القضية، وبيان به الأمر، سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة عليه وعَضْدِ التحذير منه.

وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث، فكيف بمثل هذا؟

وقد سئل أبو محمد بن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى يسمعه ألا يؤدي شهادته؟ قال: إن رجاً نفاذ الحكم بشهادته فليشهد. وكذلك إن علم أن الحاكِم لا يرى القتل بما شهد به، ويرى الاستتابة والأدب فليشهد، ويلزمه ذلك.

وأما الإباحة لحكاية قوله لغير هذين المقصدين، فلا أرى لها مَدْخلاً في هذا الباب، فليس التفكه بعرض النبي ﷺ، والتَمْضُضُ بسوء ذكره لأخيه لا ذاكراً ولا آثراً لغير غرض شرعي بِمَبَاح.

وأما للأغراض المتقدمة فمتردّد بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى الله تعالى مقالات المُفْتَرِين عليه، وعلى رُسُلِهِ، في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كُفْرِهِمْ، والوعيد عليه، والردّ عليهم بما تلاءم الله علينا في مُحْكَم كتابه.

وكذلك وَفَع مِنْ أمثاله في أحاديث النبي ﷺ الصحيحة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملجدين في كتبهم ومجالسهم ليبيّنوها للناس، وينقّضوا شبهتها عليهم. وإن كان وَرَدَ لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا على الحارث بن أسد، فقد صنع أحمد مثله في رَدِّهِ على الجهمية والقائلين بالمخلوق.

هذه الوجوه السائغة للحكاية عنها، فأما مَنْ ذَكَرَهَا على غير هذا: من حكاية سبّه والإزراء بِمَنْصِبِهِ على وجه الحكايات، والأسماء، والطُرف، وأحاديث الناس، ومقالاتهم في الغُثِّ والسَمِين، ومضاحك المُجَّان، ونوادر السُفهاء، والخوض في قيل وقال، - وما لا يَغْنِي - فكل هذا ممنوع، ويَنْقُضُهُ أَشَدُّ في المنع والعقوبة من بعض، فما كان مِنْ قائله الحاكِي له على غير قَصْدٍ أو معرفة بمقدار ما حكاه، أو لم يكن ذلك عادته، أو لم يكن الكلام من البَشَاعَةِ حيث هو، ولم يَظْهَرْ على حاكِيهِ استحسانه واستِضْوَابه، رُجِرَ عن ذلك، ونُهِيَ عن العودة إليه، وإن قُومَ ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن كان لَفْظُهُ من البَشَاعَةِ حيث هو كان الأدب أَشَدُّ.

وقد حُكِيَ أَنَّ رجلاً سأل مالكا عَمَنْ يَقُولُ: القرآن مخلوق. فقال مالك: كافر فاقتلوه. فقال: إنما حكيته عن غيري. فقال مالك: إنما سمعناه مِنْكَ. وهذا مِنْ مالك على طريق الرُّجْر والتغليظ، بدليل أنه لم يَنْقُذْ قَتْلَهُ. وإن اتَّهِمَ هذا الحاكِي فيما حكاه أنه اختلقه، ونسبه إلى غيره، أو كانت

تلك عادة له، أو ظهر استخسانه لذلك، أو كان مولعاً بمثله، والاستخفاف له، أو التحفظ لمثله، وطلبه، ورواية أشعار منجوه عليه السلام، وسبه، فحكم هذا حكم الساب نفسه، يواخذ بقوله، ولا ينفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتله، ويعجل إلى الهاوية أمه.

وقد قال أبو عبيد: القاسم بن سلام - فيمن حفظ شطر بيت مما هجى به النبي ﷺ: فهو كافر.

وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجى به النبي عليه السلام، وكتابه وقراءته، وتركه متى وجد دون مخور. ورحم الله أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم، فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير متباعدة، على نحو الوجوه الأول، ليروا نعمة الله من قائلها، وأخذ المقتري عليه بذنبه. وهذا أبو عبيد: القاسم بن سلام - رحمه الله - قد تحرى مما اضطُرَّ إلى الاستشهاد به من أهاجي أشعار العرب في كتبه، فكفى عن اسم المهجو بوزن اسمه، استبراء لدينه، وتحفظاً من المشاركة في ذم أحد بروايته أو نشره، فكيف بمن يتطرق إلى عرض سيد البشر والمرسلين ﷺ؟!.

فصل

في حكم ذكر ما يجوز على النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، على طريق المذاكرة والتغليم

الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز على النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر بعض ما امتحن به، وصبر في ذات الله عليه وعلى شدته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداء حاله وسيرته، وما لقيه من يؤس زمينه، ومر عليه من معاناة عيشته، كل ذلك على طريق الرواية، ومذاكرة العلم، ومعرفة ما صححت منه العصمة للأنبياء، - وما يجوز عليهم - فهذا فن خارج عن هذه الفنون الستة، إذ ليس فيه غمض ولا نقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا في ظاهر اللفظ، ولا في مقصد اللفظ، لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفهماء طلبة الدين ممن يفهم مقاصده. وبحققون قوائده، ويحبب ذلك من عساه لا يفقه، أو يخشى به فتنه، فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف - عليه السلام - لما

انطوت عليه من تلك القصص لضعف معرفتهم، ونقص عقولهم وإدراكهم.

١٧٩٥ - فقد قال - عليه السلام - مُخْبِراً عن نفسه باستجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله، وقال: «ما مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَد رَعَى الْغَنَمَ» [البخاري (٢٢٦٢)، (٣٤٠٦)، مسلم (٢٠٥٠)].

وأخبرنا الله تعالى بذلك عَنْ مُوسَى عليه السلام، وهذا لَا غَضَاضَةَ فِيهِ جَمَلَةٌ وَاحِدَةٌ لِمَنْ ذَكَرَهُ عَلَى وَجْهِهِ، بِخِلَافِ مَنْ قَصَدَ بِهِ الْغَضَاضَةَ وَالتَّحْقِيرَ، بَلْ كَانَتْ عَادَةً جَمِيعِ الْعَرَبِ.

نعم، فِي ذَلِكَ لِلْأَنْبِيَاءِ حِكْمَةٌ بِالْغَةِ، وَتَذْرِيجٌ لِلَّهِ تَعَالَى لَهُمْ إِلَى كِرَامَتِهِ، وَتَدْرِيبٌ بِرِعَابَتِهَا لِسِيَاسَةِ أُمَمِهِمْ مِنْ خَلِيقَتِهِ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي الْأَزَلِ، وَمُتَقَدِّمُ الْعِلْمِ.

وكذلك قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ يَتِمُّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَعَيْلَتُهُ عَلَى طَرِيقِ الْجَمَّةِ عَلَيْهِ، وَالتَّعْرِيفِ بِكَرَامَتِهِ لَهُ، فِذِكْرُ الذَّاكِرِ لَهَا عَلَى وَجْهِ تَغْرِيفِ حَالِهِ، وَالْخَبَرِ عَنْ مُبْتَدَأِهِ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ مَنَحِ اللَّهِ قِبَلَهُ، وَعَظِيمِ مِثَّتِهِ عِنْدَهُ لَيْسَ فِيهِ غَضَاضَةٌ، بَلْ فِيهِ ذِلَالَةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصَحَّةِ دَعْوَتِهِ، إِذْ أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا عَلَى صَنَادِيدِ الْعَرَبِ، وَمَنْ نَاوَأَهُ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، شَيْئاً فَشَيْئاً، وَتَمَّمَ أَمْرَهُ حَتَّى قَهَرَهُمْ، وَتَمَكَّنَ مِنْ مَلِكٍ مَقَالِبِهِمْ، وَاسْتَبَاحَ مَمَالِكَ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرِهِمْ، بِإِظْهَارِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَتَأْيِيدِهِ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَإِمَادِهِ بِالْمَلَائِكَةِ الْمُسَوِّمِينَ، وَلَوْ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ابْنُ مَلِكٍ أَوْ ذَا أَشْيَاعٍ مُتَقَدِّمِينَ لَحَسِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهَالِ أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ ظُهُورِهِ، وَمُقْتَضَى عُلُوِّهِ.

١٧٩٦ - وَلِهَذَا قَالَ هِرَقْلُ - حِينَ سَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ عَنْهُ -:

هَلْ فِي أَبَانِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالَ: لَا ثُمَّ قَالَ: فَلَوْ كَانَ فِي أَبَانِهِ مَلِكٌ لَقُلْنَا: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكَ أَبِيهِ، وَإِذِ الْيَتَمُّ مِنْ صِفَتِهِ وَإِحْدَى عِلَامَاتِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

وكذا وَقَعَ ذِكْرُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي كِتَابِ أَرْمِيَا، وَبِهَذَا وَصَفَهُ ابْنُ ذِي يَزَنَ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَنَجِيرَا لِأَبِي طَالِبٍ.

وكذلك إِذَا وَصِفَ بِأَنَّهُ أَمِيٌّ كَمَا - وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ - فَهِيَ مِذْحَةٌ لَهُ وَفَضِيلَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ، وَقَاعِدَةٌ مُعْجِزَتُهُ، إِذْ مُعْجِزَتُهُ الْعَظِيمَى مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِنَّمَا هِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِطَرِيقِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، مَعَ مَا مُنِحَ بِهِ ﷺ، وَفُضِّلَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ.

وجودٌ مثْل ذلك في رَجُلٍ، لم يقرَأ، ولم يكتُب، ولم يُدَارِس، ولا لَقَن، مُقتضى العَجَب، ومُنتهى العِبر، ومعجزة البشر.

وليس في ذلك نقيصة، إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها، غَيْر مُرادَة في نفسها فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الوسطة والسبب.

والأَمِيَّة في غيره نقيصة، لأنها سبب الجهالة، وعُنوان العَبَاوَةِ، فسبحان مَنْ بَاتَن أَمْرُهُ من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه مُحطَّة من سِوَاهُ، وجَعَلَ حياته فيما فيه هلاكٌ من عَدَاهُ، هذا شقُّ قَلْبِهِ، وإخراجُ حُشَوَتِهِ، كان تمامَ حياته، وغاية قُوَّة نَفْسِهِ، وثبات رُؤْيِيهِ، وهو فيمن سِوَاهُ مُنْتَهَى هَلَاكِهِ، وَحَتَمَ مَوْتِهِ وَقَتَائِهِ، وهَلُمَّ جَزَاءً، إلى سائر ما رُوِيَ له من أخباره ومسيره، وتقلُّله من الدنيا، ومن الملبس، والمطعم، والمركب، وتواضعه ومهنته نَفْسَهُ في أموره، وخِذْمَةُ بَيْتِهِ زُهداً، ورغبة عن الدنيا، وتسوية بين خَفيرها وخَطيئِها، لسرعة فناءِ أمورها، وتقلُّبِ أحوالها، كلُّ هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرنا، فمن أورد شيئاً منها مؤرِّده، أو قَصَدَ بها مَقْصِدَهُ كان حسناً، وَمَنْ أورد ذلك على غير وَجْهِهِ، وعَلِمَ منه بذلك سوء قَصْدِهِ لَحِقَ بالفصول التي قدمناها.

وكذلك ما ورد من أخباره وأخبارِ سائر الأنبياء - عليهم السلام - في الأحاديث مما في ظاهره إشكالٌ يقتضي أموراً لا تليقُ بهم بحالٍ، وتحتاج إلى تأويلٍ، وتردِّدٍ احتمالٍ، فلا يجبُ أَنْ يُتَحَدَّثَ منها إلا بالصحيح، ولا يُرَوَى منها إلا المعلومُ الثابت.

فَرَجَمَ اللَّهُ مالكَاً، فلقد كرهَ التحدُّثَ بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى، وقال: ما يَدْعُو النَّاسُ إلى التحدُّثِ بمثل هذا؟ ف قيل له: إِنَّ ابْنَ عَجْلَانَ يحدثُ بها، فقال: لم يكن من الفُقهَاءِ، وليت الناس وافقوه على تركِ الحديثِ بها، وساعدوه على طَيِّبِها، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا ليس تحتَ عَمَلٍ.


وقد حُكِيَ عن جماعةٍ من السُّلَفِ، بل عنهم على الجملة، أنهم كانوا يكرهون الكلامَ فيما ليس تحتَ عَمَلٍ، - والنبي ﷺ - أوردَها على قوم عَرَبٍ يفهمون كلامَ العَرَبِ على وَجْهِهِ، وتصرفاتهم في حقيقته وَمَجَازِهِ، واستعارته وبليغته وإيجازه، فلم تُكُنْ في حَقِّهِمْ مشكلةً، ثم جاء مَنْ غَلَبَتْ عليه العُجْمَةُ، وداخَلَتْهُ الأَمِيَّةُ، فلا يكادُ يفهمُ مِنْ مقاصدِ العرب إلا نَصَّها وضَرَبَها، ولا يتحقَّقُ بإشاراتها إلى غَرَضِ الإيجازِ، وَوَحْيِها وتبليغها، وتلويحها دون تصريحها، فتفرقوا

في تأويلها أو حملها على ظاهرها شَذَر مَذَر، فمنهم مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَنْ كَفَرَ. فأما ما لا يصحُّ مِنْ هذه الأحاديث، فواجبٌ ألاَّ يُذَكَّرَ منها شيءٌ في حقِّ الله سبحانه ولا في حقِّ أنبيائه، ولا يُتَخَدَّثُ بها، ولا يُتَكَلَّفُ الكلامُ على معانيها. والصوابُ - والله أعلم - طَرَحُهَا، وتركُ الاشتغال بها إلاَّ أن تُذَكَّرَ على وَجْهِ التعريفِ بأنها ضَعِيفَةُ المَقَادِرِ، واهِيَةُ الإسنادِ.

وقد أنكر الأشباح - رحمهم الله - على أبي بكر بن فُورَك تكلفه في «مُشْكِلِهِ» الكلامُ على أحاديثٍ ضَعِيفَةٍ موضوعةٍ لا أَصْلَ لها، أو منقولةٍ عن أهل الكتاب الذين يُلبَّسونَ الحقَّ بالباطل كان يكفيه طَرَحُهَا، ويُغْنِيهِ عن الكلامِ عليها التَّيْبَةُ على ضَعْفِهَا، إذ المقصودُ بالكلامِ على مُشْكِلٍ ما فيه إزالةُ اللَّبْسِ بها. واجتثاثُها من أصلها، وطَرَحُهَا، أَكْشَفَ اللَّبْسَ وأَشْفَى لِلنَّفْسِ.

فصل

في الأدبِ اللازمِ عِنْدَ ذِكْرِ أَخْبَارِهِ

ومما يجبُ على المتكلمِ فيما يجوزُ على النبي - عليه السلام - وما لا يجوزُ، والذَّاكِرُ من حالاته ما قدَّمناه في الفصلِ قَبْلَ هذا على طريقِ المذاكرةِ والتعليمِ أنْ يلتزمَ في كلامه عندَ ذِكْرِهِ عليه السلام، وذِكْرِ تلكِ الأحوالِ الواجبِ من تَوْقِيرِهِ وتعظيمِهِ، وِراقِبَ حالِ لسانِهِ، ولا يُهْمِلَهُ، وتُظْهِرَ عليه علاماتُ الأدبِ عندَ ذِكْرِهِ، فإذا ذَكَرَ ما قاساهُ من الشَّدائدِ ظَهِرَ عليه الإشفاقُ والارتماضُ، والغَيْظُ على عَدُوِّهِ، ومَوَدَّةُ الْبِذَاءِ لِلنَّبِيِّ  لو قَدَّرَ عليه، والتَّضَرُّعُ له لو أَمَكَّتْهُ.

وإذا أَخَذَ في أبوابِ العَصَةِ، وتكلَّمَ على مجاري أَعْمَالِهِ وأقوالِهِ - عليه السلام - تحرَّى أَحْسَنَ اللَّفْظِ، وأَدَبَ العبارةِ على ما أَمَكَنَهُ، واجْتَنَبَ بَشِيعَ ذَلِكَ، وَهَجَرَ مِنَ العبارةِ ما يَفْجَحُ، كَلَفْظَةِ الْجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَالْمَعْصِيَةِ، فإذا تكلَّمَ في الأقوالِ قال: هل يجوزُ عليه الخُلْفُ في القَوْلِ والإخبارِ بخلافِ ما وَقَعَ سَهْواً أو غَلْطاً؟! أو نَحْوَهُ مِنَ العبارةِ، وَاجْتَنَبَ لَفْظَةَ الْكَذِبِ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

وإذا تكلَّمَ على العلمِ قال: هل يجوزُ ألاَّ يَعْلَمَ إلاَّ ما عُلِّمَ؟ وهل يمكنُ ألاَّ يَكُونَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ حَتَّى يُوْحَى إِلَيْهِ؟ ولا يَقُولُ: يَجْهَلُ، لَفْجِحِ اللَّفْظِ وَبَشَاعَتِهِ.

وإذا تكلَّمَ في الأفعالِ قال: هل تجوزُ مِنْهُ المَخالِفَةُ في بَعْضِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَمَوَاقِعُهُ بَعْضُ الصِّغَائِرِ؟ فَهُوَ أَوْلَى وَأَدَبُ مِنْ قَوْلِهِ: هل يجوزُ أنْ

يَغْصِي، أو يُذْنِب أو يفعلَ كذا وكذا، من أنواع المعاصي؟ فهذا من حق توقيره عليه السلام، وما يجب له من تَغْزِير وإعظام.

وقد رأيتُ بعضَ العلماءِ لم يتحفَّظ من هذا، فقُبِّح منه، ولم أَسْتَضِوْهُ عبارته فيه.

ووجدتُ بعضَ الحائرين قولَه لأجلِ تَرْكِ تحفُّظه في العبارة، ما لم يَقُلْهُ، وشُئَ عليه بما يَأْبَاهُ، ويُكْفِرُ قائلُه.

وإذا كانَ مِثْلُ هذا بينَ الناسِ مستَعْمَلاً في آدابِهِم، وحُسْنِ مُعَاشَرَتِهِم، وخطابِهِم، فاستعمالُه في حقِّه - عليهم السلام - أَوْجِبُ، والتزامُه أَكْثَرُ.

فجودةُ العبارةِ تُقَبِّحُ الشَّيْءَ أو تُحَسِّنُهُ، وتحريرُها وتهذيبُها تُعْظِمُ الأَمْرَ أو تهوئُه.

١٧٩٧ - ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا» [البخاري (٥٧٦٧)، مسلم (٨٦٩)].

فأما ما أوردَه على جهةِ التَّفْني عنه والتَّزْيِيه له، فلا حَرَجَ في تسريحِ العبارة، وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوزُ عليه الكَذِبُ جُمْلَةً، ولا إِيْتَانُ الكِبَائِرِ بَوَجْهِه، ولا الجَوْرُ في الحُكْمِ على حال، ولكن مع هذا يجبُ ظُهورُ توقيره وتعظيمه وتعزيره عند ذِكره مجرداً، فكيف عند ذِكرٍ مِثْلِ هذا؟!

وقد كانَ السَّلَفُ تَظَهَّرَ عليهم حالاتٌ شديدةٌ عند مجردِ ذِكره، كما قَدَمناه في القسم الثاني.

وقد كانَ بعضهم يلتزمُ مِثْلَ ذلك عند تلاوةِ آي من القرآن، حكى اللهُ تعالى فيها مَقَالَ عِدَائِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ، وافترى عليه الكَذِبَ، فكان يَخْفِضُ بها صوتَه إعظاماً لربِّه، وإجلالاً له، وإشفافاً من التشبُّه بِمَنْ كَفَرَ به.



الباب الثاني

في حُكْم سَابِّهِ وَشَائِنِهِ وَمُتَنَقِّصِهِ وَمُؤْذِنِهِ وَعُقُوبَتِهِ
وَذِكْرِ اسْتِثْنَائِهِ وَوَرَائَتِهِ

قال القاضي - رحمه الله -: قد قدمنا ما هو سبٌّ وأذى في حقه عليه السلام، وذكرنا إجماع العلماء على قتلِ فاعلِ ذلك وقائله، أو تخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وقرزنا الحُجَجَ عليه.

وبعد: فاعلم أنَّ مشهورَ مذهبِ مالك وأصحابه، وقول السلف وجمهور العلماء قتلُه حدًّا لا كُفْرًا إنَّ أظهرَ التوبة منه، ولهذا لا تُقبل عندهم توبته، ولا تنفعه استقالته، ولا فينته كما قدمناه قُبْلَ، وحُكْمُه حُكْمُ الزَّانِيقِ، ومُيسِّرُ الكُفْرِ في هذا القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد الفُذْرَةِ عليه والشهادة على قوله، أو جاء ثابًّا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، لأنه حدٌّ وجب، لا تُسْقِطُهُ التوبةُ كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله: إذا أقرَّ بالسبِّ، وتاب مِنْهُ، وأظهرَ التوبةَ قُتِلَ بالسَّبِّ، لأنه هو حدُّه.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْدٍ في مثله: وأما ما بينه وبينَ اللَّهِ فتوبته تنفعه. وقال ابنُ سَخْنُونٍ: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ من الموحدين، ثم تاب عن ذلك لم تُرْلَ توبته عنه القتل.

وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء ثابًّا، فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين:

قال: من شيوخنا من قال: أقتله بإقراره، لأنَّه كان يَقْدِرُ على سَتْرِ نَفْسِهِ، فلما اعترف جَفَنًا أَنَّهُ خَبِيْثُ الظُّهُورِ عليه فبادرَ لذلك.

ومنهم من قال: أَقْبِلْ تَوْبَتَهُ، لَأَنِّي أَسْتَدِلُّ عَلَى صِحَّتِهَا بِمَجِيئِهِ، فَكَأَنَّا وَقَفْنَا عَلَى بَاطِنِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَسْرَتَهُ الْبَيِّنَةُ.

قال القاضي أبو الفضل - رحمه الله -: وهذا قولٌ أَضْيَعُ، ومَسْأَلَةُ سَابِّ النَّبِيِّ ﷺ أَقْوَى، لَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا الْخِلَافُ عَلَى الْأَصْلِ الْمَتَقَدِّمِ، لَأَنَّهُ حَقٌّ مُتَعَلِّقٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأَمْتِهِ بِسَبِّهِ، لَا تَسْقُطُهُ التَّوْبَةُ كَسَائِرِ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ. وَالزُّنْدِيقُ إِذَا تَابَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَعِنْدَ مَالِكٍ، وَاللَّيْثِ، وَإِسْحَاقَ، وَأَحْمَدَ، لَا تَقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وعند الشافعي تُقْبَلُ.

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.

وحكى ابنُ المنذر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يُسْتَتَابُ. قال محمد بن سَخْنُون: ولم يَزَلِ الْقَتْلُ عن المسلم بالتَّوْبَةِ مِنْ سَبِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَأَنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ شَيْئاً حَدَّثَنَا الْقَتْلُ، لَا عَفْوٌ فِيهِ لِأَحَدٍ، كَالزُّنْدِيقِ، لَأَنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ ظَاهِرٍ إِلَى ظَاهِرٍ.

وقال القاضي - أبو محمد بن نصر - مُخْتَجاً لِسُقُوطِ اعْتِبَارِ تَوْبَتِهِ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَشْهُورِ الْقَوْلِ بِاسْتِثْنَائِهِ أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَشَرٌ، وَالْبَشَرُ جَنْسٌ تَلَحُّقُهُمُ الْمَعْرَةُ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ اللَّهُ بِنَبِيِّتِهِ تَعَالَى، وَالْبَارِئُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَّزِعٌ عَنْ جَمِيعِ الْمَعَائِبِ قَطْعاً، وَلَيْسَ مِنْ جَنْسٍ مَنْ تَلَحَّقَ الْمَعْرَةُ بِجَنْسِيَّتِهِ، وَلَيْسَ سَبُّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَالْإِرْتِدَادِ الْمَقْبُولِ فِيهِ التَّوْبَةُ، لِأَنَّ الْإِرْتِدَادَ مَعْنَى يَنْفَرِدُ بِهِ الْمُرْتَدُّ لَا حَقٌّ فِيهِ لغيرِهِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، فَقَبِلَتْ تَوْبَتَهُ. وَمَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ تَعَلَّقَ فِيهِ وَبِهِ حَقٌّ الْآدَمِيِّ، فَكَانَ كَالْمُرْتَدِّ يَفْتُلُ حِينَ ارْتِدَادِهِ أَوْ يَقْذِفُ، فَإِنْ تَوْبَتَهُ لَا تَسْقُطُ عَنْهُ حَدُّ الْقَتْلِ وَالْقَذْفِ.

وأيضاً فَإِنَّ تَوْبَةَ الْمُرْتَدِّ إِذَا قُبِلَتْ لَا تَسْقُطُ ذُنُوبُهُ مِنْ زِنَا، وَشُرْبٍ، وَسُرْقَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُقْتَلْ سَابُّ النَّبِيِّ ﷺ لِكُفْرِهِ، لَكِنْ لِمَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ حُرْمَتِهِ، وَزَوَالِ الْمَعْرَةِ بِهِ وَذَلِكَ لَا تَسْقُطُهُ التَّوْبَةُ.

قال القاضي أبو الفضل: يريدُ - واللَّهِ أَعْلَمُ - لَأَنَّ سَبَّهُ لَمْ يَكُنْ بِكَلِمَةٍ تَقْتَضِي الْكُفْرَ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى الْإِزْرَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ، أَوْ لِأَنَّ تَوْبَتَهُ وَإِظْهَارَ إِنْابَتِهِ لَهُ ارْتِفَاعٌ عَنْهُ اسْمُ الْكُفْرِ ظَاهِراً، وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِسِرِّيَّتِهِ، وَيَقِي حُكْمَ السَّبِّ عَلَيْهِ.

وقال أبو عمران الفاسي: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ قُتِلَ، وَلَمْ يُسْتَتَبْ، لِأَنَّ السَّبَّ مِنْ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ الَّتِي لَا تَسْقُطُ عَنِ الْمُرْتَدِّ.

وكلامُ شيوخنا هؤلاء مبنيٌّ على القول بقَبْلِهِ، حَدًّا لَا كُفْرًا، وهو يحتاج إلى تفصيل .
وأما على رواية الوليد بن مسلم، عن مالك، ومَنْ وافقه على ذلك مِمَّنْ ذكرناه وقال به مِنْ أهل العلم، فقد صرَّحُوا أَنَّهُ رَدَّةٌ، قالوا: وَيُسْتَتَابُ مِنْهَا، فَإِنْ تَابَ تَرَكَ وَتُكِلَ، وَإِنْ أَبَى قُتِلَ، فَحُكْمُ لَهُ بِحُكْمِ الْمُرْتَدِّ مَطْلَقًا فِي هَذَا الرَّجْهِ .
والوجهُ الأوَّلُ أَشْهَرُ وَأَظْهَرُ لَمَّا قَدِمْنَاهُ، وَنَحْنُ نَبْسُطُ الْكَلَامَ فِيهِ، فنقول: مَنْ لَمْ يَزِدْ رَدَّةً فَهُوَ يُوجِبُ الْقَتْلَ فِيهِ حَدًّا، وَإِنَّمَا نَقُولُ ذَلِكَ مَعَ فَضْلَيْنِ: أَمَّا مَعَ إنكاره مَا شَهِدَ عَلَيْهِ بِهِ وَإِظْهَارِهِ الْإِقْلَاعَ وَالتَّوْبَةَ عَنْهُ، فَتَقْتُلُهُ حَدًّا لِثَبَاتِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ عَلَيْهِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَتُخْفِرُهُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ، وَأَجْرَيْنَا حُكْمَهُ فِي مِيرَاثِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ - حُكْمُ الرُّنْدِيقِ -، إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ وَأَنْكَرَ، أَوْ تَابَ .
فإن قيل: فكيف تُثَبِّتُونَ عَلَيْهِ الْكُفْرَ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ وَلَا تَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ مِنَ الْإِسْتِثَابَةِ وَتَوَابِعِهَا؟!

قلنا: نحن وإن أثبتنا لَهُ حُكْمَ الْكَافِرِ فِي الْقَتْلِ، فَلَا نَقْطَعُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، لِإِقْرَارِهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالنَّبَوَةِ، وَإِنْكَارِهِ مَا شَهِدَ عَلَيْهِ بِهِ، أَوْ رَزَعِهِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْهُ وَهَلًا وَمَعْصِيَةً، وَأَنَّهُ مُقْبَلٌ عَنْ ذَلِكَ، نَادِمٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَمْتَنِعُ إِثْبَاتُ بَعْضِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ وَإِنْ لَمْ تُثَبِّتْ لَهُ خِصَائِصُهُ، كَقَتْلِ تَارِكِ الصَّلَاةِ .
وأما مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ سَبَّ - عَلَيْهِ السَّلَامَ - مُعْتَدًّا لِاسْتِخْلَالِهِ، فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ بِذَلِكَ .
وكذلك إِنْ كَانَ سَبَّهُ فِي نَفْسِهِ كُفْرًا، ككَذِبِهِ أَوْ تَكْفِيرِهِ أَوْ نَحْوِهِ، فَهَذَا مَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَيُقْتَلُ - وَإِنْ تَابَ مِنْهُ - لِأَنَّا لَا نَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، وَنَقْتُلُهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ حَدًّا، لِقَوْلِهِ، وَمَتَقَدَّمَ كُفْرُهُ، وَأَمَرَهُ بَعْدَ إِلَى اللَّهِ الْمُطَّلِعِ عَلَى صِحَّةِ إِقْلَاعِهِ، الْعَالَمُ بِسَرِّهِ .
وكذلك مَنْ لَمْ يُظْهِرِ التَّوْبَةَ، وَاعْتَرَفَ بِمَا شَهِدَ بِهِ عَلَيْهِ، وَصَمَّمْ عَلَيْهِ فَهَذَا كَافِرٌ بِقَوْلِهِ، وَاسْتِحْلَالُهُ هُنَا حُرْمَةُ اللَّهِ وَحُرْمَةُ رَسُولِهِ ﷺ يُقْتَلُ كَافِرًا بِلَا خِلَافٍ .
فعلى هذه التفصيلات خُذْ كَلَامَ الْعُلَمَاءِ، وَنَزَلْ مُخْتَلَفَ عِبَارَتِهِمْ فِي الْإِحْتِجَاجِ عَلَيْهَا، وَأَجْبِرْ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْمَوَارِثَةِ وَغَيْرِهَا عَلَى تَرْتِيبِهَا يَتَضَحُّ لَكَ مَقَاصِدُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فصل

فِي اسْتِثَابَةِ الْمُرْتَدِّ

إِذَا قُلْنَا بِالْإِسْتِثَابَةِ حَيْثُ نَصَحْ، فَالْإِخْتِلَافُ فِيهَا عَلَى الْإِخْتِلَافِ فِي تَوْبَةِ الْمُرْتَدِّ، إِذْ لَا فَرْقَ .

وقد اختلف السلف في وجوبها وصورتها ومذتها، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرتد يُستتاب.

وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة، ولم ينكره واحد منهم، وهو قول عثمان، وعلي، وابن مسعود، وبه قال عطاء بن أبي رباح، والنخعي، والثوري، والأوزاعي، ومالك، وأصحابه، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي.

وذهب طاووس ومحمد بن الحسن وعبيد بن جُمير، والحسن في - إحدى الروايتين عنه - أنه لا يُستتاب، وقاله عبدالعزيز بن أبي سلمة، وذكره عن معاذ، وأنكره سُخْثُون عن معاذ، وحكاه الطحاوي عن أبي يوسف، وهو قول أهل الظاهر، قالوا: وتَفَعُّه تَوْبَتُهُ عند الله.

١٧٩٨ - ولكن لا يُذْرَأُ الْقَتْلُ عَنْهُ، لقوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»

[البخاري (٣٠١٧)].

وحكى أيضاً عن عطاء قال: إِنْ كَانَ مِمَّنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُسْتَتَبْ، وَيُسْتَتَبُ الْإِسْلَامِي.

وجمهور العلماء على أن المرتد والمردة في ذلك سواء.

وروي عن علي رضي الله عنه: لَا تُقْتَلُ الْمُرْتَدَّةُ، وتُسْرِقُ، وقاله عطاء، وقَتَادَةُ. وروى عن ابن عباس: لَا تُقْتَلُ النِّسَاءُ بِالرَّدِّ، وبه قال أبو حنيفة. قال مالك: وَالْحُرُّ، وَالْعَبْدُ، وَالذَّكْرُ، وَالْأُنْثَى فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ.

وأما مذهبها: فمذهب الجمهور، وروى عن عُمر، أنه يُسْتَتَابُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يُخْبَسُ فِيهَا، وقد اختلف فيه عن عُمر، وهو أَخَذَ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ، وقول أحمد، وإسحاق، واستحسنه مالك، وقال: لَا يَأْتِي الْإِسْطِظْهَارُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وليس عليه جماعة الناس.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زَيْد: يريد في الاستتاء ثلاثاً.

وقال مالك أيضاً: الَّذِي أَخَذَ بِهِ فِي الْمُرْتَدِّ قَوْلُ عُمر: يُخْبَسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وقال أبو الحسن بن القصار: فِي تَأْخِيرِهِ ثَلَاثًا رَوَاتَانِ عَنْ مَالِكٍ: هَلْ ذَلِكَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ واستحسن الاستتابة والاستتاء ثلاثاً أصحاب الرأي.

وروي عن أبي بكر الصديق أنه استتاب في خلافته امرأة فلم تثب فقتلها، وقاله الشافعي مرة، فقال: إِنْ لَمْ يَثْبُ قُتِلَ مَكَانَهُ، واستحسنه المُرْزِي.

وقال الزهري: يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَإِنْ أَبَى قُتِلَ.

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يُسْتَتَابُ شَهْرَيْنِ.
 وَقَالَ النَّخَعِيُّ: يُسْتَتَابُ أَبَدًا، وَبِهِ أَخَذَ الثَّوْرِيُّ مَا رُجِيَتْ تَوْبَتُهُ.
 وَحَكَى ابْنُ الْقَصَّارِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ يُسْتَتَابُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ،
 أَوْ ثَلَاثَ جُمُعٍ، كُلُّ يَوْمٍ أَوْ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً.
 وَفِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ، عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ: يُدْعَى الْمُزْتَدُّ إِلَى الْإِسْلَامِ ثَلَاثَ
 مَرَّاتٍ، فَإِنْ أَمَى ضَرَبَتْ عَنْقُهُ.
 وَاخْتَلَفَ عَلَى هَذَا، هَلْ يُهْدَدُ، أَوْ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ أَيَّامُ الْاسْتِيتَابَةِ لِيَتُوبَ أَمْ لَا؟ فَقَالَ
 مَالِكٌ: مَا عَلِمْتُ فِي الْاسْتِيتَابَةِ تَجْوِيعًا وَلَا تَغْطِيشًا، وَيُؤْتَى مِنَ الطَّعَامِ بِمَا لَا يَضُرُّهُ.
 وَقَالَ أَصْبَغُ: يَخَوْفُ أَيَّامُ الْاسْتِيتَابَةِ بِالْقَتْلِ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ.
 وَفِي كِتَابِ أَبِي الْحَسَنِ الطَّائِبِيِّ: يَوْعَظُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَيَذَكَّرُ بِالْجَنَّةِ،
 وَيَخَوْفُ بِالنَّارِ.
 قَالَ أَصْبَغُ: وَأَيُّ الْمَوَاضِعِ خُبِسَ فِيهَا مِنَ السَّجُونَ مَعَ النَّاسِ أَوْ وَخَدَهُ إِذَا اسْتَوْتِقَ مِنْهُ
 سِوَاهُ، وَيُوقَفُ مَالُهُ إِذَا خِيفَ أَنْ يُتْلَفَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيُطْعَمَ مِنْهُ، وَيُسْقَى.
 وَكَذَلِكَ يُسْتَتَابُ أَبَدًا كُلَّمَا رَجَعَ وَارْتَدَّ.
 ١٧٩٩ - وَقَدْ اسْتَتَابَ النَّبِيُّ ﷺ تَبَّهَانَ الَّذِي ارْتَدَّ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسًا.
 وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ: يُسْتَتَابُ أَبَدًا كُلَّمَا رَجَعَ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ،
 وَأَحْمَدَ، وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ.
 وَقَالَ إِسْحَاقُ: يُقْتَلُ فِي الرَّابِعَةِ.
 وَقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ: إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الرَّابِعَةِ قُتِلَ دُونَ اسْتِيتَابِهِ وَإِنْ تَابَ
 ضَرَبَ ضَرْبًا وَجِيعًا، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ السَّجْنِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِ خَشَوْعُ التَّوْبَةِ.
 قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَوْجَبَ عَلَى الْمُرْتَدِّ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى أَدْبًا إِذَا
 رَجَعَ. وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْكَوْفِيِّ.

فصل

فِي حُكْمِ الْمُزْتَدِّ إِذَا اشْتَبَهَ ارْتِدَّاهُ

قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا حُكْمٌ مَنْ ثَبَّتَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِمَا يَجِبُ ثَبُوتُهُ مِنْ
 إِقْرَارٍ، أَوْ عُدُولٍ لَمْ يُدْفَعْ فِيهِمْ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَتِمَّ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ إِنَّمَا شَهِدَ عَلَيْهِ
 الْوَاحِدُ، أَوْ اللَّفِيفُ مِنَ النَّاسِ، أَوْ ثَبَّتَ قَوْلُهُ لَكِنْ احْتِمَلُ وَلَمْ يَكُنْ ضَرِيحًا،
 وَكَذَلِكَ إِنْ تَابَ - عَلَى الْقَوْلِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ - فَهَذَا يَذَرَأُ عَنْهُ الْقَتْلُ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ

اجتهاد الإمام بقدر شهرته حاله، وقوة الشهادة عليه، وضعفها، وكثرة السماع عنه، وصورة حاله من التهمة في الدين، والتبذير بالسفوة والمجون، فمن قوي أمره أذاقه من شديد النكال ومن الضيق في السجن، والشدة في القيود إلى الغاية التي هي منتهى طاقته بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يُفَعِّدُهُ عن صلاته، وهو حُكْمُ كُلِّ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ، ولكن وَقَفَ عَنْ قَتْلِهِ لِمَعْنَى أَوْجَبِهِ، وتُرْبِصَ بِهِ لِإِشْكَالِ وَعَائِقِ اقْتِضَاءِ أَمْرِهِ، وحالات الشدة في نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله.

وقد رَوَى الْوَلِيدُ، عَنْ مَالِكٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ أَنَّهَا رِدَّةٌ، فَإِذَا تَابَ نُكِّلَ. ولِمَالِكٍ فِي «الْعُتْبِيَّةِ» وَكِتَابِ مُحَمَّدٍ، مِنْ رِوَايَةِ أَشْهَبَ: إِذَا تَابَ الْمُرْتَدُّ فَلَا عِقَابَ عَلَيْهِ. وَقَالَ سُخْنُونُ.

وَأَتَنَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَثَابٍ فِيمَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ - فَشَهِدَ عَلَيْهِ شَاهِدَانِ عُدْلَ أَحَدُهُمَا - بِالْأَدَبِ الْمَوْجِعِ، وَالتَّكْيِيلِ، وَالسَّجْنِ الطَّوِيلِ حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُهُ. وقال القاسبي في مثل هذا: وَمَنْ كَانَ أَقْصَى أَمْرُهُ الْقَتْلُ فَعَائِقُ عَائِقٍ عَنْ ذَلِكَ أَشْكَلَ فِي الْقَتْلِ، لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يُطْلَقَ مِنَ السَّجْنِ، وَلَكِنْ يُسْتَطَالُ سَجْنُهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْمَدَةِ مَا عَسَى أَنْ يَقِيمَ، وَيُحْمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقَيْدِ مَا يُطِيقُ. وقال في مثله مِمَّنْ أَشْكَلَ أَمْرُهُ: يُشَدُّ فِي الْقِيُودِ شَدًّا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ فِي السَّجْنِ حَتَّى يُنْظَرَ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ.

وقال في مسألة أخرى مثيلها: وَلَا تُهْرَاقَ الدِّمَاءُ إِلَّا بِالْأَمْرِ الْوَاضِحِ، وَفِي الْأَدَبِ بِالسُّوْطِ وَالسَّجْنِ نَكَالٌ لِلْسَّفَهَاءِ، وَيَعَاقَبُ عَقُوبَةً شَدِيدَةً، فَأَمَّا إِنْ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ سِوَى شَاهِدَيْنِ، فَأُثْبِتَ مِنْ عَدَاوَتِهِمَا أَوْ جَرْحَتِهِمَا مَا أَسْقَطُهُمَا عَنْهُ، وَلَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمَا فَأَمْرُهُ أَخْفَ لِسُقُوطِ الْحُكْمِ عَنْهُ، وَكَانَ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ، وَيَكُونُ الشَّاهِدَانِ مِنْ أَهْلِ التَّبَرُّيزِ، فَاسْقَطُهُمَا بَعْدَاوَةً، فَهُوَ - وَإِنْ لَمْ يَنْقُذِ الْحُكْمُ عَلَيْهِ بِشَهَادَتِهِمَا - فَلَا يَدْفَعُ الظُّرَّ صِدْقَهُمَا، وَلِلْحَاكِمِ هُنَا فِي تَنْكِيلِهِ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

فِي حُكْمِ الذَّمِّ إِذَا صَرَخَ بِسَبِّهِ ﷺ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ

قال القاضي أبو الفضل: هَذَا حُكْمُ الْمُسْلِمِ، فَأَمَّا الذَّمُّ إِذَا صَرَخَ بِسَبِّهِ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ فَلَا خِلَافَ عِنْدَنَا

في قتله إن لم يُسلم، لأننا لم نُعطه الذمَّة والعهد على هذا، وهو قول عامة العلماء، إلا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا: لا يُقتل ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يُؤدَّب ويعزَّر.

واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَتَمَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ مَهْدِهِمْ وَطَعْنِهِمْ فَيَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الْكُفَرِ إِنَّهُمْ لَا آمِنُوا لَئِنْ لَهِمْ لَعَلَهُمْ يُنْهَكُوا﴾ (التوبة: ١٧).

ويُستدل أيضاً عليه بقتل النبي ﷺ لابن الأشراف، وأتباعه، ولأننا لم نعاينهم، ولم نُعطهم الذمَّة على هذا، ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمَّة، فقد نفَضُوا فِتْنَتَهُمْ، وصاروا كُفَّاراً أهل حرب يُقتلون لكُفْرِهِمْ.

وأيضاً فإنَّ ذِمَّتَهُمْ لا تُسْقِطُ حدودَ الإسلام عنهم، من القطع في سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك خلافاً عندهم فكذلك سُبُّهم للنبي ﷺ يُقتلون به.

ووردت لأصحابنا ظواهر تُقتضي الخلاف إذا ذكره الذمي بالوجه الذي كفر به، ستَقِفَ عليها من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعد.

وحكى أبو المصعب الخلاف فيها عن أصحابه الثننيين.

واختلفوا إذا سبَّه ثم أسلم، فقيل: يُسْقِطُ إسلامه قتله، لأن الإسلام يُجبُّ ما قبله، بخلاف المسلم إذا سبَّه ثم تاب، لأننا نعلم باطنة الكافر في بُغْضِهِ لَهُ، وننصِّبه بقلبه، لكننا منعناه من إظهاره، فلم يَرَفُضْنا ما أظهره إلا مخالفةً للأمر، ونَقْضاً للعهد، فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَمْنُوا يُعْمَرُوا لَهُمْ مَا قَدْ مَلَكَ﴾ (الأنفال: ٣٨).

والمسلم بخلافه، إذ كان ظنُّنا بباطنه حكم ظاهره، وخلاف ما بدأ منه الآن، فلم نقبل بعد رجوعه، ولا استئنا إلى باطنه، إذ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لم يُسْقِطْها شيء.

وقيل: لا يسقط إسلام الذمي الساب قتله، لأنه حقٌّ للنبي ﷺ وجب عليه القتل لانتهاك حرمة، وقُضِيَهِ إلحاق النقيصة والمعزة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يُسْقِطُ، كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه: من قتل، أو قُذِّف، أو سرق. وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فإنَّ لا نقبل توبة الكافر أولى.

وقال مالك في كتاب ابن حبيب، و «المبسوط»، وابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبدالحكم، وأضبع - فيمن شتم نبينا عليه السلام - من أهل الذمة، أو أحداً من الأنبياء - عليهم السلام - قُتل إلا أن يُسلم، وقاله ابن القاسم في «العتبية»، وعند محمد، وابن سحنون.

وقال سحنون وأضبع: لا يُقال له: أسلم، ولا: لا تُسلم، ولكن إن أسلم فذلك له توبة.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء، من مسلم أو كافر قُتل ولم يُستتب. وروى لنا عن مالك: إلا أن يُسلم الكافر.

وقد روى ابن وهب، عن ابن عمر، أن راهباً تناول النبي ﷺ! فقال ابن عمر: فهلاً قتلتموه!

وروى عيسى، - عن ابن القاسم - في ذمّي قال: إن محمداً لم يُرسل إلينا، إنما أُرسل إليكم، وإنما نبينا موسى أو عيسى، أو نحو هذا: لا شيء عليهم، لأن الله تعالى أقرهم على مثله.

وأما إن سبه، فقال: ليس بنبي، أو لم يُرسل، أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء نقوله أو نحو هذا فيقتل.

وقال ابن القاسم: وإذا قال النصراني: ديننا خير من دينكم، إنما دينكم دين النخعير، ونحو هذا من الكلام القبيح، أو سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: كذلك يُغطيكم الله، ففي هذا الأدب الموجه، والسجن الطويل.

قال: وأما إن شتم النبي ﷺ شتماً يُعرف فإنه يُقتل إلا أن يُسلم، قاله مالك غير مرة، ولم يقل: يُستتاب.

قال ابن القاسم: ومحمل قوله عندي إن أسلم طائفاً.

وقال ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم - في اليهودي يقول للمؤذن، إذا تشهد: كذبت - يعاقب أيضاً العقوبة الموجهة مع السجن الطويل.

وفي «النوادر» من رواية سحنون عنه: من شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يُسلم.

قال محمد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلته في سب النبي - عليه السلام - ومن دينه سبه وتكذيبه؟! قيل: لأننا لم نُعطهم العهد على ذلك، ولا على قتلنا،

وأخذ أموالنا، فإذا قُتل واحدنا قُتلنا، وإن كان من دينه استحلاله فكذا
إظهاره لسب نبينا عليه السلام.

قال سخنون: كما لو بذل لنا أهل الحرب الجزية على إقرارهم على سبه لم
يُجز لنا ذلك في قول قائل من المسلمين.

كذلك يتفق عهد من سب منهم، ويحل لنا دمه، وكما لم يحضن الإسلام
من سبه من القتل، كذلك لا تحضنه الذمة.

قال القاضي أبو الفضل: ما ذكره ابن سخنون عن نفسه، وعن أبيه، مخالف
لقول ابن القاسم فيما خفف عقوبتهم فيه بما به كفروا، فتأمله.

ويدل على أنه خلاف ما روي عن المدنيين في ذلك، فحكى أبو المصعب
الزهري، قال: أثبت بنصراني قال: والذي اصطفى عيسى على محمدا فاختلف
علي فيه، فضرته حتى قتله، أو عاش يوماً وليلة، وأمرت من جر برجله، وطرح
على مزبلة، فأكلته الكلاب.

وسئل أبو المصعب عن نصراني قال: عيسى خلق محمدا؟ فقال: يقتل.
وقال ابن القاسم: سألنا مالكا عن نصراني بمصر شهد عليه أنه قال:
مسكين محمدا! يخبركم أنه في الجنة، ما له لم ينفع نفسه إذ كانت الكلاب تأكل
ساقه! لو قتلوه استراح منه الناس.

قال مالك: أرى أن تضرب عنقه.

قال: ولقد كذت ألا أنكلم فيها بشيء، ثم رأيت أنه لا يسعني الصمت.

قال ابن كنانة في «المبسوط»: من شتم النبي ﷺ من اليهود والنصارى
فأرى للإمام أن يحرقه بالنار، وإن شاء قتله ثم حرق جثته، وإن شاء أحرقه بالنار
حيًا إذا تهافوا في سبه عليه السلام.

وقد كتب إلى مالك من مضر - وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة، قال:
فأمرني مالك، فكتبت بأن يقتل، وأن تضرب عنقه، فكتبت، ثم قلت: يا أبا
عبدالله! وأكتب: ثم يحرق بالنار؟ فقال: إنه لتحقيق بذلك، وما أولاه به!

فكتبته بيدي بين يديه، فما أنكره ولا عابه، ونفذت الصحيفة بذلك فقتل
وحرق.

وأفتى عبيدالله بن يحيى، وابن لبابة في جماعة سلف أصحابنا الأندلسيين
بقتل نصرانية استهلت بنتي الربوبية، وبنوة عيسى لله وتكذيب محمد في النبوة،
ويقول إسلامها وذرة القتل عنها به.

وبه قال غَيْرُ واحدٍ من المتأخرين منهم القابسي، وابن الكاتب، وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه: مَنْ سَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ، قُتِلَ وَلَا يُسْتَأْب.

وحكى - القاضي أبو محمد - في الذمّي يَسُبُّ رِوَايَتَيْنِ فِي ذَرْءِ الْقَتْلِ عَنْهُ بِإِسْلَامِهِ.

وقال ابن سَخْنُون: وَحَدُّ الْقَذْفِ وَشِبْهِهِ مِنْ حَقُوقِ الْعِبَادِ لَا يُسْقِطُهُ عَنْ الذَّمِّ إِسْلَامُهُ، وَإِنَّمَا يَسْقُطُ عَنْهُ بِإِسْلَامِهِ حَدُودُ اللَّهِ.

فَأَمَّا حَدُّ الْقَذْفِ فَحَقٌّ لِلْعِبَادِ هُوَ سِوَاهُ كَانَ ذَلِكَ لِنَبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَوْجِبَ عَلَى الذَّمِّ إِذَا قَذَفَ النَّبِيَّ ﷺ ثُمَّ أَسْلَمَ حَدُّ الْقَذْفِ.

ولكن انظر ماذا يجبُ عليه؟ هل حَدُّ الْقَذْفِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الْقَتْلُ لِرِيَاضَةِ حُرْمَةِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَلَى غَيْرِهِ؟ أَمْ هَلْ يَسْقُطُ الْقَتْلُ بِإِسْلَامِهِ، وَيُحَدُّ ثَمَانِينَ؟ فَتَأَمَّلْهُ.

فصل

فِي مِيرَاثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ وَعَسَلِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ

اختلف العلماء في ميراثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فذهب سَخْنُون إلى أَنَّهُ لِرِجَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ: أَنَّ شَتْمَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَام - كُفْرٌ شَبِيهُ كُفْرِ الزُّنْدَقَةِ.

قال أَصْبَغُ: ميراثه لورثته من المسلمين إِنْ كَانَ مُسْتَسِرّاً بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُظْهِراً لَهُ، مُسْتَهْلاً بِهِ، فَمِيرَاثُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَا يُسْتَأْب. وقال أبو الحسن القابسي: إِنْ قُتِلَ وَهُوَ مُنَكِّرٌ لِلشَّهَادَةِ عَلَيْهِ فَالْحُكْمُ فِي مِيرَاثِهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ إِقْرَارِهِ - يَعْنِي لورثته -، وَالْقَتْلُ حَدٌّ ثَبَتَ عَلَيْهِ لَيْسَ مِنَ الْمِيرَاثِ فِي شَيْءٍ.

وكذلك لو أَقْرَأَ بِالسَّبِّ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ لَقُتِلَ، إِذْ هُوَ حَدٌّ. وَحُكْمُهُ فِي مِيرَاثِهِ، وَسَائِرِ أَحْكَامِهِ، حُكْمُ الْإِسْلَامِ.

ولو أَقْرَأَ بِالسَّبِّ، وَتَمَادَى عَلَيْهِ، وَأَبَى التَّوْبَةَ مِنْهُ، فَقُتِلَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ كَافِراً، وَمِيرَاثُهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَغْتَسَلُ وَلَا يَكْفَنُ وَلَا يَصَلَّى عَلَيْهِ وَتُسْتَرَّ عَوْرَتُهُ، وَيُؤَاذَى كَمَا يُفْعَلُ بِالْكَفَّارِ.

وقول الشيخ أبي الحسن في المظاهر المتماضي على ذلك، بين لا يمكن
الخلافة فيه، لأنه كافر مرتد غير نائب ولا مقلع.

وهو مثل قول أضيغ، وكذلك قال: ابن سخنون في الرنديق يتماذى على
قوله.

ومثله لابن القاسم في «الغنية».

ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله.
قال ابن القاسم: وحكمه حكم المرتد لا يرثه ورثته من المسلمين، ولا من
أهل الدين الذي ارتد إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه، وقال ذلك أيضاً أضيغ:
قبل على ذلك، أو مات عليه.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: وإنما يختلف في ميراث الرنديق الذي يستهل
بالتوبة، فلا تقبل منه، فأما المتماضي على الكفر والارتداد فلا خلاف أنه لا
يورث.

وقال - أبو محمد - فيمن سب الله تعالى ثم مات ولم تغدل عليه بينة، أو
لم تقبل: إنه يصلّى عليه.

وروى أضيغ، عن ابن القاسم، في كتاب ابن حبيب فيمن كذب
برسول الله ﷺ أو أعلن ديناً مما يفارق به الإسلام، أن ميراثه للمسلمين.
وقال - بقول مالك -: إن ميراث المرتد للمسلمين، ولا يرثه ورثته: زبيعة،
والشافعي، وأبو ثور، وابن أبي ليلى، واختلف فيه عن أحمد.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وابن المسيب،
والحسن، والشعبي، وعمر بن عبد العزيز، والحكم، والأوزاعي، والليث،
واسحاق، وأبو حنيفة: يرثه ورثته من المسلمين.

وقيل: ذلك فيما كسبه قبل ارتداده، وما يكسبه في الارتداد فبالمسلمين.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه
حسن بين، وهو على رأي أضيغ، وخلاف قول سخنون، واختلافهما على قولني
مالك في ميراث الرنديق، فمرة ورثه ورثته من المسلمين، سواء قامت عليه بذلك
بينة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

وقاله أضيغ، ومحمد بن مسلمة، وغير واحد من أصحابه، لأنه أظهر
الإسلام بإنكاره أو توبته، وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد
رسول الله ﷺ.

وَوَرَى - ابْنُ نَافِعٍ عَنْهُ فِي «الْعُشْبِيَّةِ» وَكِتَابِ مُحَمَّدٍ - أَنَّ مِيرَاثَهُ لَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ مَالَهُ تَبِعَ لِدَمِهِ.

وَقَالَ بِهِ أَيْضاً جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ أَشْهَبُ، وَالْمَغِيرَةُ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ، وَشُخْنُونٌ.

وَذَهَبَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي «الْعُشْبِيَّةِ» إِلَى أَنَّهُ إِنْ اعْتَرَفَ بِمَا شَهِدَ عَلَيْهِ بِهِ وَتَابَ فَقُتِلَ فَلَا يُورَثُ. وَإِنْ لَمْ يُعْرِزْ حَتَّى قُتِلَ أَوْ مَاتَ وَرَّثَ.

قَالَ: وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَسَرَ كُفْرًا فَإِنَّهُمْ يَتَوَارَثُونَ بِوَرَاثَةِ الْإِسْلَامِ.

وَسُئِلَ أَبُو الْقَاسِمِ بِنُ الْكَاتِبِ عَنِ النَّضْرَانِيِّ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فَيُقْتَلُ، هَلْ يَرُثُهُ أَهْلُ دِينِهِ أَمْ الْمُسْلِمُونَ؟

فَأَجَابَ: إِنَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عَلَى جِهَةِ الْمِيرَاثِ، لِأَنَّهُ لَا تَوَارَثَ بَيْنَ أَهْلِ مِلَّتَيْنِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ مِنْ قَتِيلِهِمْ، لِنَقْضِ الْعَهْدِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ وَاجْتِصَارُهُ.



الباب الثالث

فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ وَكُتُبَهُ
وَأَلَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ

قال القاضي - رحمه الله تعالى - :

لا خلاف أن سبَّ الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم . واختلف في استتابه ، فقال ابن القاسم في «المبسوط» وفي كتاب ابن سَخْنُون، ومحمد، ورواه ابنُ القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى : مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ وَلَمْ يُسْتَتَبْ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بَارْتِدَاةً إِلَى دِينِ دَانَ بِهِ ، وَأُظْهِرَهُ ، فَيُسْتَتَبْ ، وَإِنْ لَمْ يُظْهِرَهُ لَمْ يُسْتَتَبْ .

وقال - في «المبسوط» - مُطْرَفٌ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ مَثَلُهُ .

وقال المخزومي ، ومحمد بن سَلَمَةَ ، وابنُ أَبِي حَازِمٍ : لَا يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالسَّبِّ حَتَّى يُسْتَتَبَ .

وكذلك اليهودي والنَّصْراني ، فَإِنْ تَابُوا قَبْلَ مِنْهُمْ تَوْبَتَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا قُتِلُوا ، وَلَا بُدَّ مِنَ الِاسْتِتَابَةِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ كَالرَّدَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي حَكَاهُ الْقَاضِي ابْنُ نَصْرِ عَنْ الْمَذْهَبِ .

وأفتى أبو محمد بن أبي زَيْد - فيما حُكِيَ عَنْهُ - فِي رَجُلٍ لَعَنَ رَجُلًا وَلَعَنَ اللَّهَ ، فَقَالَ : إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَلْعَنَ الشَّيْطَانَ فَرُلُ لِسَانِي ، فَقَالَ : يُقْتَلُ بِظَاهِرِ كُفْرِهِ ، وَلَا يَقْبَلُ عُذْرُهُ .

وأما فيما بينه وبين الله تعالى فمعدور .

واختلف فقهاء قُرطبة في مسألة هَارُونَ بْنِ حَبِيبٍ أَخِي عَبْدِ الْمَلِكِ الْفَقِيهِ ،

وكان ضيق الصدر، كثير التبرم، وكان قد شهد عليه بشهادتين، منها أنه قال عند استقلاله من مرض: لقيت في مرضي هذا ما لو قتلْتُ أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله.

فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله، وأنَّ مُضَمَّنَ قوله تجويزُ الله تعالى وتظلم منه، والتعريض فيه كال تصريح.

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه، إلا أنَّ القاضي رأى عليه التثقيب في الحبس، والشدة في الأدب، لاحتمال كلامه، وصرفه إلى التشكي.

فَوَجَّهَ مَنْ قَالَ فِي سَابِّ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِسْتِثْنَاءِ: إِنَّهُ كَفَرٌ وَرِدَّةٌ مُخَضَّةٌ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهَا حَقٌّ لَغَيْرِ اللَّهِ، فَأَشْبَهَ قَضَدَ الْكُفْرِ بِغَيْرِ سَبِّ اللَّهِ، وإظهار الانتقال من دين إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

وَوَجَّهَ تَرْكُ اسْتِثْنَائِهِ: أَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُ ذَلِكَ بَعْدَ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ اتِّهَمَائِهِ وَظَنًّا أَنَّ لِسَانَهُ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ إِلَّا هُوَ مُعْتَقِدٌ لَهُ، إِذْ لَا يَتَسَاهَلُ فِي هَذَا أَحَدٌ، فَحُكِمَ لَهُ بِحُكْمِ الزُّنْدِيقِ، وَلَمْ تُقَبَّلْ تَوْبَتُهُ، وَإِذَا انْتَقَلَ مِنْ دِينٍ إِلَى آخَرَ، وَأَظْهَرَ السَّبَّ بِمَعْنَى الْإِرْتِدَادِ فَهَذَا قَدْ أَعْلَمَ أَنَّهُ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، بِخِلَافِ الْأَوَّلِ الْمُتَمَسِّكِ بِهِ، وَحُكِمَ هَذَا حُكْمُ الْمُرْتَدِّ: يُسْتَتَابُ عَلَى مَشْهُورِ مَذَاهِبِ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ، وَأَصْحَابِهِ، عَلَى مَا بَيَّنَّا قَبْلَ، وَذَكَرْنَا الْخِلَافَ فِي فُضُولِهِ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ
عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالْاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي
إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ

وَأَمَّا مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ لَيْسَ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ وَلَا الرِّدَّةِ وَقَضَدَ الْكُفْرَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقِ التَّأْوِيلِ، وَالْاجْتِهَادِ، وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ، مِنْ تَشْبِيهِ، أَوْ نَعَتْ بِجَارِحَةٍ، أَوْ نَفَى صِفَةٍ كَمَالٍ، فَهَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي تَكْفِيرِ قَائِلِهِ وَمَعْتَقِدِهِ.

وَاخْتَلَفَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَخْتَلَفُوا فِي قِتَالِهِمْ إِذَا تَحَيَّزُوا فِتْنَةً، وَأَنَّهُمْ يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي الْمُنْفَرِدِ مِنْهُمْ، فَأَكْثَرُ

قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم، وترك قتلهم، والمبالغة في عقوبتهم، وإطالة سجنهم، حتى يظهر إقلاعهم، وتشتبين توبتهم، كما فعل عمر رضي الله عنه بضبيغ.

وهذا قول محمد بن المَوَاز في الخَوارج، وعبد الملك بن الماجشون، وقول سَخْنون في جميع أهل الأهواء، وبه فُسِّر قول مالك في الموطأ، وما رَوَاه عن عمر بن عبدالعزيز، وجده، وعمه، من قولهم في القَدْرِيَّة: يُسْتَتَابون، فإن تابوا وإلا قُتِلوا.

وقال عيسى، عن ابن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية، والقَدْرِيَّة، وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف، لتأويل كتاب الله عز وجل: يُسْتَتَابون أظهروا ذلك أو أسروه. فإن تابوا وإلا قُتِلوا، وميراثهم لورثتهم. وقال مثله أيضاً ابنُ القاسم في «كتاب محمد» في أهل القَدَر وغيرهم، قال: واستتابتهم أن يُقال لهم: اتركوا ما أنتم عليه.

ومثله له في «المبسوط» في الإباضية والقَدْرِيَّة وسائر أهل البدع، قال: وهم مسلمون، وإنما قُتِلوا لرأيهم السَّو، وبهذا عمل عمر بن عبدالعزيز. قال ابن القاسم: مَنْ قال: إِنَّ اللَّهَ لم يَكَلِّمْ موسى تكليماً استيب، فإن تاب وإلا قُتِل.

وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى تكفيرهم وتكفير أمثالهم من الخوارج والقَدْرِيَّة والمرجئة.

وقد روي أيضاً عن سَخْنون مثله فيمن قال: ليس لله كلام، إنه كافر. واختلفت الروايات عن مالك، فأطلق في رواية الشاميين: أبي مُسْهِر، ومروان بن محمد الطاطري الكُفَر عليهم، وقد شوَّور في زَوَاج القَدْرِي، فقال: لا تزوجه، قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وروي عنه أيضاً أنه قال: أهل الأهواء كلهم كفار.

وقال: مَنْ وصف شيئاً مِنْ ذَاتِ اللَّهِ تعالى، وأشار إلى شيءٍ مِنْ جَسَدِهِ: يَد، أو سَمْع، أو بَصَر، قُطِعَ ذَلِكَ مِنْهُ، لأنه شبه الله بنفسه. وقال - فيمن قال: القرآن مخلوق -: كافر فاقْتُلوه. وقال أيضاً - في رواية ابن نافع -: يُجْلَد، ويُوْجَع ضَرْباً، ويُخْبَس حتى يثوب.

وفي رواية بشر بن بكر التَّيْسِي عنه: يُقْتَل ولا تُقْبَل توبته.

قال القاضي أبو عبدالله البرزنجاني، والقاضي أبو عبدالله الثستري من أئمة العراقيين من أصحابنا: جوابه مُخْتَلَفٌ، يُقْتَلُ الْمُسْتَبْصِرُ الدَّاعِيَةَ. وعلى هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة الصلاة خلفهم. وحكى ابن المنذر، عن الشافعي: لا يستتاب القدري.

وأكثر أقوال السلف تكفيرهم، وممن قال به: الليث بن سعد، وابن عيينة، وابن لهيعة، وزوي عنهم ذلك فيمن قال بخُلُقِ القرآن، وقاله أيضاً ابن المبارك، والأودي، ووكيع، وحفص بن غياث، وأبو إسحاق الفزاري، ومُشَيْمٌ، وعلي بن عاصم في آخرين، وهو من قول أكثر المُحدثين، والفُقهاء، والمتكلمين فيهم، وفي الخوارج، والقدرية، وأهل الأهواء المضلّة، وأصحاب البدع المتأولين، وهو قول أحمد بن حنبل، وكذلك قالوا في الواقعة والشاكة في هذه الأصول.

وممن روي عنه معنى القول الآخر بترك تكفيرهم: علي بن أبي طالب، وابن عمر، والحسن البصري، وهو رأي جماعة من الفقهاء، والظاهر، والمتكلمين، واحتجوا بتورث الصحابة والتابعين ورثة أهل حروراء، ومن عُرف بالقدري ممن مات منهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وجزي أحكام الإسلام عليهم.

قال إسماعيل القاضي: وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل البدع: «يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا» لأنه من الفساد في الأرض، كما قال في المحارب: «إِنْ رَأَى الْإِمَامُ قَتْلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْ، قَتَلَهُ، وَفَسَادُ الْمُحَارِبِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْأَمْوَالِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَدْخُلُ أَيْضاً فِي أَمْرِ الدِّينِ مِنْ سَبِيلِ الْحِجِّ وَالْجِهَادِ. وَفَسَادُ أَهْلِ الْبِدْعِ مُعْظَمُهُ عَلَى الدِّينِ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا بِمَا يُلْقُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَدَاوَةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ».

فصل

في تحقيق القول في إكفار المتأولين

قد ذكرنا مذاهب السلف في إكفار أصحاب البدع والأهواء المتأولين، ممن قال قولاً، يؤذيه مسأقه إلى كفر، وهو إذا وَقَفَ عليه لا يقول بما يؤذيه قوله إليه. وعلى اختلافهم، اختلف الفقهاء والمتكلمون في ذلك، فمنهم من صوب التكفير الذي قال به الجمهور من السلف، ومنهم من أباه ولم يَرَ إخراجهم من سواد المؤمنين، وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين، وقالوا: هم فساق عصاة ضالّون، ونوارثهم من المسلمين، ونحكم لهم بأحكامهم، ولهذا قال سحنون: لا

إعادة على مَنْ صَلَّى خَلْفَهُمْ فِي وَقْتٍ، وَلَا غَيْرِهِ قَالَ: وَهُوَ قَوْلُ جَمِيعِ أَصْحَابِ
مَالِكٍ مِثْلُ: الْمَغْيِرَةِ، وَابْنِ كَنَانَةَ، وَأَشْهَبُ، قَالَ: لِأَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَذَنَّبَهُ لَمْ يَخْرُجْهُ مِنَ
الْإِسْلَامِ.

وَاضْطَرَبَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ، وَوَقَفُوا عَنِ الْقَوْلِ بِالتَّكْفِيرِ أَوْ ضِدِّهِ وَاخْتِلَافِ
قَوْلِي مَالِكٍ فِي ذَلِكَ، وَتَوَقَّفَ عَنِ إِعَادَةِ الصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ مِنْهُ وَإِلَى نَحْوِ مِنْ هَذَا
ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ إِمَامُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ وَالْحَقِّ، وَقَالَ: إِنَّهَا مِنَ الْمُغْضَوَاتِ، إِذِ
الْقَوْمُ لَمْ يَضْرَحُوا بِاسْمِ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا قَالُوا قَوْلًا يُؤَدِّي إِلَيْهِ.

وَاضْطَرَبَ قَوْلُهُ فِي الْمَسْأَلَةِ عَلَى نَحْوِ اضْطِرَابِ قَوْلِ إِمَامِهِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ
حَتَّى قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: إِنَّهُمْ عَلَى رَأْيٍ مَنْ كَفَرَهُمْ بِالتَّأْوِيلِ لَا تَجِلُّ مُنَاكَحَتُهُمْ،
وَلَا أَكُلُ ذَبَابَتِهِمْ، وَلَا الصَّلَاةُ عَلَى مَيِّتِهِمْ.

وَيُخْتَلَفُ فِي مَوَارِيثِهِمْ عَلَى الْخِلَافِ فِي مِيرَاثِ الْمُزْنَدِ.

وَقَالَ أَيْضًا: نَوَرْتُ مَيِّتَهُمْ وَزَنَّتُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَوَرْتُهُمْ هُمْ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْثَرُ مَيِّلِهِ إِلَى تَرْكِ التَّكْفِيرِ بِالْمَالِ، وَكَذَلِكَ اضْطَرَبَ فِيهِ قَوْلُ شَيْخِهِ
أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ، وَأَكْثَرُ قَوْلِهِ تَرْكُ التَّكْفِيرِ، وَأَنَّ الْكُفْرَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ
الْجَهْلُ بِوُجُودِ الْبَارِيِّ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ جِسْمٌ، أَوْ الْمَسِيحُ، أَوْ بَعْضُ مَنْ يَلْقَاهُ فِي
الطَّرِيقِ، فَلَيْسَ بِعَارِفٍ بِهِ، وَهُوَ كَافِرٌ.

وَلَمِثْلُ هَذَا ذَهَبَ أَبُو الْمَعَالِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَجَوِبَتِهِ لِأَبِي مُحَمَّدٍ: عَبْدِ الْحَقِّ،
وَكَانَ سَأَلَهُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، فَاعْتَذَرَ لَهُ بِأَنَّ الْغَلْطَ فِيهَا يَضْعُبُ، لِأَنَّ إِدْخَالَ كَافِرٍ فِي
الْمِلَّةِ، أَوْ إِخْرَاجَ مُسْلِمٍ مِنْهَا، عَظِيمٌ فِي الدِّينِ.

وَقَالَ غَيْرُهُمَا مِنَ الْمُحَقِّقِينَ: الَّذِي يَجِبُ الْإِحْتِرَازُ مِنَ التَّكْفِيرِ فِي أَهْلِ
التَّأْوِيلِ، فَإِنَّ اسْتِبَاحَةَ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَوْحِدِينَ خَطَرٌ، وَالْخَطَأُ فِي تَرْكِ أَلْفِ كَافِرٍ
أَهْوَنُ مِنَ الْخَطَأِ فِي سَفْكِ مِخْجَمَةٍ، مِنْ دَمِ مُسْلِمٍ وَاحِدٍ.

١٨٠٠ - وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا قَالُوهَا - يَعْنِي الشَّهَادَةَ - فَقَدْ عَصَمُوا
مِنِي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَاسِبُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

فَالْعَصْمَةُ مَقْطُوعٌ بِهَا مَعَ الشَّهَادَةِ، وَلَا تَرْتَفِعُ وَيُسْتَبَاحُ خِلَافُهَا إِلَّا بِقَاطِعٍ، وَلَا
قَاطِعٌ مِنْ شَرَعٍ، وَلَا قِيَاسٍ عَلَيْهِ.

١٨٠١ - وَالْفَاطَةُ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي الْبَابِ مُعَرَّضَةٌ لِلتَّأْوِيلِ، فَمَا جَاءَ مِنْهَا
فِي التَّصْرِيحِ بِكُفْرِ الْقَدَرِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: «لَا سَهْمَ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ».

١٨٠٢ - وتسميته الرافضة بالشرك، وإطلاق اللُغْنَةِ عليهم، وكذلك في الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء والبدع، فقد يَخْتَجُّ بها مَنْ يقول بالكفر، وقد يجيب الآخرُ عنها بأنه قد وردَ مثلُ هذه الألفاظ في الحديث في غير الكفرة على طريق التغليظ، وكفرٌ دون كفر، وإشراكٌ دون إشراك.

وقد ورد مثله: في الرِّياء، وعقوقِ الوالدين، والزَّوج، والزَّور، وغير معصية.

وإذا كان محتملاً للأمرين فلا يُقْطَعُ على أحدهما إلا بدليل قاطع. ولا دليل.

١٨٠٣ - وقوله في الخوارج: «هم من شرِّ البرية» [مسلم (١٨٠٣)] وهذه صفة الكفار.

١٨٠٤ - وقال: «شرُّ قبيل نخت أديم السماء، طوبى لمن قتلهم، أو قتلوه».

١٨٠٥ - وقال: «فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد» [مسلم (١٠٦٤)، (١٠٦٦)، البخاري (٥٠٥٧)].

وظاهرُ هذا الكفر، لا سيما مع تشبيههم بعاد، فيختجُّ به مَنْ يرى تكفيرهم، فيقول له الآخرُ: إنما ذلك من قتلهم لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم.

١٨٠٦ - بدليله من الحديث نفسه: «يقتلون أهل الإسلام» [مسلم (١٠٦٤)] فقتلهم ها هنا خد لا كفر.

وذكرُ عاد تشبيهٌ للقتل وجله، لا للمقتول، وليس كلُّ مَنْ حُكِمَ بقتله يُحكَّم بكفره.

١٨٠٧ - ويعارضه بقول خالد في الحديث: دَغْنِي أَضْرِبْ عَنْقَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «لعله يُصَلِّي» [البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٠٦٤/١٤٤)].

١٨٠٨ - فإن احتجُّوا بقوله عليه السلام: «يَفْرُؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» [البخاري (٥٠٥٨)، مسلم (١٠٦٤/١٤٣)]، فأخبر أن الإيمان لم يدخل قلوبهم.

١٨٠٩ - وكذلك قوله: «يَفْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مَرْوَقَ الشَّهْمِ مِنَ الرِّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ الشَّهْمُ عَلَى فَوْقِهِ» [البخاري (٧٥٦٢)، مسلم (١٠٦٤/١٤٨)].

١٨١٠ - ويقول: «سَبَقَ الْفَرْثُ وَالذَّمُّ» [البخاري (٣٦١٠)، مسلم (١٠٦٤/١٤٨)] يدلُّ على أنه لم يتعلَّق من الإسلام بشيء.

أجابه الآخرون: إن معنى «لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» أي لا يفهمون معانيه

بقلوبهم، ولا تُشْرَحْ له صدورهم، ولا تعملْ به جوارحهم.

١٨١١ - وعارضوهم بقوله: «وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ» [البخاري (٦٩٣١)، مسلم

(١٤٧/١٠٦٤)].

وهذا يقتضي التشكك في حاله.

١٨١٢ - وإن احتجوا بقول أبي سعيد الخدري في هذا الحديث: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «يُخْرَجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ» [البخاري (٦٩٣١)، مسلم (١٤٧/١٠٦٤)]

ولم يقل: من هذه الأمة، وتحرير أبي سعيد الرواية، وإتقانه اللفظ.

١٨١٣ - أجابهم الآخرون: بأن العبارة: بـ «في» لا تقتضي تصريحاً بكونهم

من غير الأمة، بخلاف لفظة «مِنْ» التي هي للتبويض وكونهم من الأمة مع أنه قد

روى عن علي، وأبي ذر، وأبي أمامة وغيرهم في هذا الحديث: «يُخْرَجُ مِنْ

أُمَّتِي» [مسلم (١٥٦/١٠٦٦)].

١٨١٤ - و«سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي» [مسلم (١٠٦٧)]، وحروف المعاني مُشتركة،

فلا تعويل على إخراجهم من الأمة بـ «في»، ولا على إدخالهم فيها بـ «مِنْ»، لكن

أبا سعيد - رضي الله عنه - أجاد ما شاء في التنبيه الذي نبه عليه. وهذا مما يدل

على سعة فقه الصحابة، وتحقيقهم للمعاني، واستنباطها من الألفاظ، وتحريرهم

لها، وتوفيقهم في الرواية.

هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة. ولغيرهم من الفرق فيها مقالات كثيرة

مضطربة سقيمة، أقربها قول جهن ومحمد بن شبيب: إن الكفر بالله الجهل به،

لا يكفر أحد بغير ذلك.

وقال أبو الهذيل: إن كل متأول كان تأويله تشبيهاً لله بخلقه، وتجويراً له في

فعله، وتكديماً لخبره فهو كافر، وكل من أثبت شيئاً قديماً لا يقال له: الله، فهو

كافر.

وقال بعض المتكلمين: إن كان ممن عرف الأفضل، وبنى عليه، وكان فيما

هو من أوصاف الله فهو كافر، وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق، إلا أن يكون

ممن لم يعرف الأفضل فهو مخطيء غير كافر.

وذهب عبيد الله بن الحسن العنبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول

الدين فيما كان غرضه للتأويل، وفارق في ذلك فرق الأمة، إذ أجمعوا سواء على

أن الحق في أصول الدين في واحد، والمخطيء فيه آثم عاص فاسق. وإنما

الخلاف في تكفيره.

وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني مثلاً قول عبيد الله عن داود الأصبهاني، قال: وحكى قومٌ عنهما أنهما قالاً ذلك في كلِّ مَنْ عَلِمَ الله سبحانه من حاله استغراق الوُسْع في طلب الحقِّ من أهلِ مِلَّتِنَا أو من غيرهم.

وقال نَحْوُ هذا القول: الجاحظُ، وُثَمَامَةُ، في أنَّ كثيراً من العامة والنساء والبله ومقلدة النصارى واليهود وغيرهم لا حُجَّةَ لله عليهم، إذ لم تكن لهم طِبَاعٌ يمكن معها الاستدلالُ.

وقد نحا الغزالي قريباً من هذا المنحى في كتاب «الفرقة».

وقائلُ هذا كله كافرٌ بالإجماع على كُفْرِ مَنْ لَمْ يكفر أحدًا من النصارى واليهود، وكلُّ مَنْ فارق دينَ المسلمين، أو وقف في تكفيرهم، أو شكَّ.

قال القاضي أبو بكر: لأنَّ التوقيف والإجماع على كُفْرِهِمْ، فَمَنْ وقف في ذلك فقد كَذَبَ النصَّ، والتوقيف، أو شكَّ فيه. والتكذيب أو الشكُّ فيه لا يَقَعُ إلا من كافر.

فصل

في بيان ما هو من المقالات كُفْرٌ، وما يتوقف أو يُخْتَلَفُ فيه، وما ليس بكُفْرٍ

اعلم أنَّ تحقيق هذا الفصل، وكشف اللبس فيه، مؤرِّدُهُ الشَّرْعُ، ولا مجال للعقل فيه، والفضلُ البينُ في هذا أنَّ كلَّ مقالةٍ صرَّحت بنفي الرُّبُوبِيَّةِ، أو الوُحْدَانِيَّةِ، أو عبادةِ أحدٍ غير الله، أو مع الله - فهي كُفْرٌ -، كمقالةِ الدَّفْعِيَّةِ، وسائر فرق أصحاب الاثنين من الديبسانية، والمائويَّةِ، وأشباههم من الصابئين، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشمس، أو القمر، أو النجوم، أو النار، أو أحدٍ غير الله، مِنْ مُشْرِكِي العرب، وأهل الهند، والصين، والسودان، وغيرهم ممَّن لا يَزْجَعُ إلى كتاب.

وكذلك القرامِطَةُ، وأصحاب الحلول، والتناسُخ من الباطنية، والطَّيَّارَةُ من الروافض، والجناحية والبيانية والغرابية.

وكذلك من اعترف بالهية الله ووحدانيته، ولكنه اعتقد أنه غير حيٍّ، أو غير قديم، وأنه مُخَدَّتٌ أو مصوَّر، أو ادَّعى له ولداً، أو صاحبةً، أو والدًا، أو أنه متولَّدٌ مِنْ شيءٍ، أو كائنٌ عنه، أو أنَّ معه في الأزل شيئاً قديماً غيره، أو أنَّ ثَمَّ صانعاً للعالم سِوَاهُ، أو مُدَبِّرًا غيره، فذلك كله كُفْرٌ بإجماع المسلمين، كقول

الإلهيين من الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعين، وكذلك من ادّعى مجالسة الله،
والعروج إليه، ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص، كقول بغض المتصوفة،
والباطنية، والنصارى، والقرامطة.

وكذلك يُقَطَّعُ على كُفْرٍ مَنْ قال بِقَدَمِ العالم، أو بَقائه، أو شَكِّ في ذلك
على مذهب بعض الفلاسفة، والدّهريّة، أو قال بَتَناسُخِ الأزْوَاج، وانتقالها أَبَدَ
الآبَادِ في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعيمها فيها بِحَسَبِ زَكَائِها وَخُبِيِّها. وكذلك من
اعترف بالإلهيّة والوَخْدانيّة، ولكنه جَحَدَ النّبوة من أصلها عموماً، أو نبوة نبيّنا
- عليه السلام - خصوصاً، أو أحداً من الأنبياء الذين نصّ الله عليهم بعد عِلْمِهِ
بذلك، فهو كافِر بلا رَيْب: كالبراهميّة، ومُعْظَمُ اليهود، والأروسيّة من النصارى،
والغُرّاية من الرّوافض الرّاعمين أَنَّ عليّاً رضي الله عنه كان المبعوث إليه جبريلُ،
وكالمعطلة، والقرامطة، والإسماعيلية والعُتْبِرِيّة من الرافضة، وإن كان بعض هؤلاء
قد أشركوا في كُفْرٍ آخر مع مَنْ قبلهم.

وكذلك مَنْ دَانَ بِالوَخْدانيّة، وصِحّة النّبوة، ونّبوة نبيّنا عليه السلام، ولكن
جَوَزَ على الأنبياء الكَذِبَ فيما اتّوا به، ادّعى في ذلك المصلحة بِزَعْمِهِ أو لم
يَدْعُها فهو كافِرٌ بِإِجماع، كالمُتفلسفين، وبعض الباطنية والرّوافض وغلّة
الْمُتَصَوِّفَةِ، وأصحاب الإباحة فَإِنَّ هؤلاء زَعَمُوا أَنَّ ظواهر الشّرع، وأكثر ما جاءت
به الرّسلُ من الأخبار عما كان، ويكون، مِنْ أُمُورِ الآخرة، والحشر، والقيامة
والبعث والنشور والجَنّة والنار، ليس منها شيء على مُقْتَضَى لَفْظِها، ومفهوم
خطابها، وإنما خاطبوا بها الخَلْقَ على جِهَةِ المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم
التصريحُ لِقُصُورِ أَفْهَامِهِمْ، فَمَضْمُونُ مَقالاتهم إبطالُ الشرائع، وتعطيلُ الأوامر
والنواهي، وتكذيبُ الرّسل، والارتبابُ فيما اتّوا به.

وكذلك مَنْ أَضَافَ إِلَى نَبِيِّنا ﷺ تَعَمُّدَ الكَذِبِ فيما بَلَّغَهُ أو أخبر به، أو
شَكَّ في صِدْقِهِ، أو سَبَّهُ، أو قال: إِنَّهُ لم يبلِّغْ، أو اسْتَحَفَّ به، أو بأحد من
الأنبياء، أو أَرَزَى عليهم، أو آذَاهُمْ، أو قَتَلَ نبيّاً، أو حاربه، فهو كافِرٌ بِإِجماع.
وكذلك تُكْفَرُ مَنْ ذهب مَذْهَبُ بعض القُدَماءِ في أَنَّ في كُلِّ جِنْسٍ من
الحيوانِ نَذيراً، أو نبيّاً من القِرْدَةِ والخنازير والشيّاطين والدواب والدود ويحتج
بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢٤]. إذ ذلك يُؤَدِّي إلى أن
يوصفَ أنبياء هذه الأجناسِ بصفاتهم المذمومة. وفيه من الإزراء على هذا
المنصبِ المُنيب ما فيه، مع إجماع المسلمين على خلافه وتكذيب قائله.

وكذلك تُكْفَرُ من اعترف من الأصول الصحيحة بِمَا تقدم، ونبوة نبينا عليه السلام، ولكن قال: كان أسود، أو مات قبل أن يَلْتَحِي، أو ليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي، لأنَّ وَصْفَهُ بغير صفاته المعلومة ﷺ نَفَى له، وتكذيب به.

وكذلك مَنْ ادَّعى نبوة أحدٍ مع نبينا - عليه السلام - أو بعده، كالعيسوية من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب، وكالخرموية القائلين بتواتر الرُّسل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة عليٍّ للنبي ﷺ في الرسالة وبعده، وكذلك كلُّ إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة، وكالبريغية والبيانية منهم القائلين بنبوة بزيغ وبيان وأشباه هؤلاء. أو من ادَّعى النبوة لنفسه، أو جَوَزَ اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مَرَاتِبِهَا، كالفلاسفة وغلاة المتصوفة.

وكذلك من ادَّعى منهم أنه يُوحى إليه وإن لم يدع النبوة، أو أنه يضعُدُّ إلى السماء ويدخل الجنة، ويأكل من ثمارها، ويعانق الحور العين، فهؤلاء كلُّهم كفارٌ مكذبون للنبي ﷺ، لأنه أخبر - عليه السلام - أنه خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأخبر أيضاً عن الله تعالى أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل إلى كافَّة الناس.

وأجمعت الأمة على حَمَلِ هذا الكلام على ظاهره، وأنَّ مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص، فلا شك في كُفْرِ هؤلاء الطوائف كلها قطعاً، إجماعاً وسَمْعاً.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كلِّ مَنْ دافَعَ نَصَّ الكتاب، أو خصَّ حديثاً مُجمِعاً على نقله، مقطوعاً به، مُجمِعاً على حَمَلِهِ على ظاهره، كتكفير الخوارج بإبطال الرُّجم، ولهذا نكفَرُ مَنْ دانَّ بغير مِلَّةِ المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شكَّ، أو صَحَّح مذهبهم، وإنَّ أظهرَ مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كلِّ مذهب سِوَاهُ، فهو كافرٌ بإظهار ما أظهره من خلاف ذلك.

وكذلك تَقَطَّعَ بتكفير كلِّ قائل قال قولاً يَتَوَصَّلُ به إلى تَضْلِيلِ الأمة، وتكفير جميع الصحابة، كقول الكَمَنِيَّةِ من الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد النبي ﷺ، إذ لم تُقدِّم عليّاً، وكفَّرت عليّاً، إذ لم يتقدَّم ويطلب حقَّه في التقديم، فهؤلاء قد كفروا من وجوه، لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها، إذ قد انقطع نقلها ونقل القرآن، إذ نأقِلُوهُ كفرَةً على زعمهم، وإلى هذا - والله أعلم - أشار مالكٌ في أحدِ قَوْلَيْهِ يَقْتُلُ مَنْ كَفَرَ الصحابة.

ثم كفروا مِنْ وَجْهِ آخرٍ بِسَبِّهِم النبي ﷺ على مُقتضى قولهم وزعمهم أنه

عَهْدَ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْفُرُ بَعْدَهُ - عَلَى قَوْلِهِمْ - لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

وَكَذَلِكَ تُكْفَرُ بِكُلِّ فِعْلٍ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ لَا يَصُدُّ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُصْرَحًا بِالْإِسْلَامِ مَعَ فِعْلِهِ ذَلِكَ الْفِعْلُ، كَالسُّجُودِ لِلصُّنَمِ، أَوِ الشُّنُفِ، وَالْقَمَرِ، وَالصَّلِيبِ، وَالنَّارِ، وَالسَّغِيِّ إِلَى الْكُنَاسِ وَالْبَيْعِ مَعَ أَهْلِهَا وَالتَّزْيِينِ بِزِينَتِهِمْ: مِنْ شِدِّ الزَّنَانِيرِ، وَفَحْصِ الرُّؤُوسِ، فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَا يَوْجَدُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ عِلَامَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِنْ صُرِّحَ فَاعِلُهَا بِالْإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ اسْتَحْلَ الْقَتْلَ، أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ أَوْ الزَّنا مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ عِلْمِهِ بِتَحْرِيمِهِ، كَأَصْحَابِ الْإِبَاحَةِ مِنَ الْقَرَامِطَةِ، وَبَعْضِ غُلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ.

وَكَذَلِكَ تُقَطَّعُ بِتَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ كَذَبَ وَأَنْكَرَ قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وَمَا عُرِفَ يَقِينًا بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ، وَوَقَعَ الْإِجْمَاعُ الْمُتَّصِلُ عَلَيْهِ، كَمَنْ أَنْكَرَ وَجُوبَ الْخُمْسِ الصَّلَوَاتِ، أَوْ عَذَّةَ رَكَعَاتِهَا وَسُجُودَاتِهَا، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ الصَّلَاةَ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَكَوْنَهَا خُمْسًا، وَعَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالشُّرُوطِ لَا أَعْلَمُهُ، إِذْ لَمْ يَرِدْ فِيهِ فِي الْقُرْآنِ نَصٌّ جَلِيٌّ، وَالْخَبَرُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ خَبَرٌ وَاحِدٌ.

وَكَذَلِكَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ قَالَ مِنَ الْخَوَارِجِ: إِنْ الصَّلَاةُ طَرَفِي النَّهَارِ، وَعَلَى تَكْفِيرِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنْ الْفَرَائِضُ أَسْمَاءُ رِجَالٍ أُمِرُوا بِوِلَايَتِهِمْ، وَالْخَبَائِثُ وَالْمَحَارِمُ أَسْمَاءُ رِجَالٍ أُمِرُوا بِالْبِرَاءَةِ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ: إِنْ الْعِبَادَةُ وَطُولُ الْمُجَاهَدَةِ إِذَا صَفَّتْ نَفْسُهُمْ أَفْضَلُ بِهِمْ إِلَى إِسْقَاطِهَا، وَإِبَاحَةِ كُلِّ شَيْءٍ لَهُمْ، وَرَفْعِ عَهْدِ الشَّرَائِعِ عَنْهُمْ.

وَكَذَلِكَ إِنْ أَنْكَرَ مُنَكِّرُ مَكَّةَ، أَوِ الْبَيْتِ، أَوِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَوْ صِفَةَ الْحَجِّ، أَوْ قَالَ: الْحَجُّ وَاجِبٌ فِي الْقُرْآنِ، وَاسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ كَوْنُهُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الْمُتَعَارِفَةِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْبُقْعَةُ هِيَ مَكَّةُ، وَالْبَيْتُ، وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، لَا أَدْرِي هَلْ هِيَ تِلْكَ أَوْ غَيْرُهَا؟ وَلَعَلَّ النَّاظِلِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَهَا بِهَذِهِ التَّفَاسِيرِ غَلَطُوا أَوْ وَهَمُوا، فَهَذَا وَمِثْلُهُ لَا مِرْيَةَ فِي تَكْفِيرِهِ إِنْ كَانَ مَقْنٌ يُظَنُّ بِهِ عِلْمٌ ذَلِكَ، وَمِمَّنْ خَالَطَ الْمُسْلِمِينَ، وَامْتَدَّتْ صَحْبَتُهُ لَهُمْ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: سَبِيلُكَ أَنْ تَسْأَلَ عَنِ هَذَا الَّذِي لَمْ تَعْلَمْهُ بَعْدُ كَافَّةَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا تَجِدَ بَيْنَهُمْ خِلَافًا، كَافَّةً عَنْ كَافَّةٍ، إِلَى مُعَاصِرِي الرَّسُولِ ﷺ - أَنْ

هذه الأمور كما قيل لك، وأن تلك البقعة هي مكة، والبيت الذي فيها هو الكعبة، والقبلة التي صلى لها الرسول ﷺ والمسلمون، وحجّوا إليها، وطافوا بها، وأن تلك الأفعال هي صفات عبادة الحج، والمراد به، وهي التي فعلها النبي ﷺ والمسلمون، وأن صفات الصلوات المذكورة هي التي فعل النبي ﷺ، وشرح مُراد الله بذلك، وأبان حدودها، فيقع لك العلم كما وقع لهم، ولا ترتاب بذلك بعد، والمرتاب في ذلك، أو المُنكر - بعد البحث وضجة المسلمين - كافر باتفاق، لا يُعذر بقوله: لا أدري، ولا يُصدق فيه، بل ظاهره التسرّع عن التكذيب، إذ لا يمكن أنه لا يدري.

وأيضاً فإنه إذا جوّز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك، وأجمعوا أنه قول الرسول - عليه السلام - وفعله وتفسير مُراد الله به - أدخل الاستربة في جميع الشريعة -، إذ هم الناقلون لها وللقرآن، وانحلت عرى الإسلام كزة، ومن قال هذا فهو كافر.

وكذلك من أنكر القرآن، أو خرفاً منه، أو غير شيئاً منه، أو زاد فيه، كفعل الباطنية والإسماعيلية، أو من زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ، أو ليس فيه حجة ولا مُعجزة، كقول هشام القوطي، ومُعمر البصري: إنه لا يدل على الله، ولا حجة فيه لرَسُوله، ولا يدل على ثواب ولا عقاب، ولا حُكم، ولا محالة في كفرهما بهذا القول، أو من قال بقولهما.

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي ﷺ حجة له، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله، لمخالفتهم الإجماع والثقل المتواتر عن النبي ﷺ باحتجاجه بهذا كله، وتصريح القرآن به.

وكذلك من أنكر شيئاً ممّا نصّ فيه القرآن - بعد علمه - أنه من القرآن الذي في أيدي الناس، ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلاً به، ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره إمّا بأنه لم يصرخ النقل عنده، ولا بلغه العلم به، أو لتجويز الوهم على ناقله، فنكفّره بالطريقين المتقدمين، لأنه مكذب للقرآن، مكذب للنبي ﷺ، لكنه تسرّع بدعواه.

وكذلك من أنكر الجنة، أو النار، أو البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع، للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار، والحشر والنشر، والثواب والعقاب - معنى غير ظاهره -، وإنها لذات روحانية، ومَعانٍ باطنة، كقول النصارى،

والفلاسفة، والباطنية، وبعض المتصوفة، وزعيمهم أن معنى القيامة الموت أو فناء
مُخَضٍّ، وانتقاض هيئة الأفلاك، وتحليل العالم، كقول بعض الفلاسفة.

وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء
عليهم السلام. فأما مَنْ أنكر ما عُرف بالتواتر من الأخبار، والسِّير، والبلاد التي
لا ترجع إلى إبطال شريعة، ولا تُفْضِي إلى إنكار قاعدة من الدين، كإنكار غزوة
تَبُوك، أو مُوتة، أو وجود أبي بكر، وعمر، أو قتل عثمان أو خلافة علي، مِنَّا
عِلْمٌ بِالثَّقَلِ ضرورة، وليس في إنكاره جُحْدُ شريعة، فلا سبيل إلى تكفيره بِجُحْدِ
ذلك، وإنكاره وقوع العلم له، إذ ليس في ذلك أكثر من المباهة، كإنكار هشام
وعَبَاد وَفَعَةَ الْجَمَلِ، ومحاربة علي مَنْ خالَفَهُ.

فأما إن ضَعَفَ ذَلِكَ من أَجْلِ تَهْمَةِ الناقِلين، وَوَهْمِ المسلمين أجمع، فنكفّرهُ
بذلك لِإِسْرَائِيهِ إِلَى إبطال الشريعة.

فأما مَنْ أنكر الإجماع المجرّد، الذي ليس طريقه الثقل المتواتر عن الشارع،
فأكثُر المتكلِّمين من الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير كل مَنْ خالف
الإجماع، أعني: الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموماً.

وَحُجَّتُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا نَوَىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

١٨١٥ - وقوله عليه السلام: «مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ قَبِدَ شَيْبِرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ
الإسلام مِنْ عُنُقِهِ».

وَحَكَمُوا الإجماعَ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ خَالَفَ الإجماعَ.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القُطْع بتكفير مَنْ خالف الإجماع الذي
يختصُّ بِتَقْلِيدِ العلماء، وذهب آخرون إلى التوقُّف في تكفير مَنْ خالف الإجماع
الكائن عن نظري، كتكفير النظام بإنكاره الإجماع، لأنه بِقَوْلِهِ هذا مخالف إجماع
السلف على احتجاجهم به، خارق للإجماع.

قال القاضي أبو بكر: القول عندي أن الكُفْرَ بِاللَّهِ هو الجَهْلُ بِوُجُودِهِ،
والإيمان بالله هو العلمُ بِوُجُودِهِ، وأنه لا يكفُرُ أَحَدٌ بِقَوْلٍ ولا رَأْيٍ إلا أن يكون
هو الجَهْلُ بِاللَّهِ، فإن عصَى بِقَوْلٍ أو فَعَلَ نَصَّ الله وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ أو أجمع
المسلمون، أنه لا يُوجَدُ إلا مِن كافر، أو يقوم دليل على ذلك، فقد كفر، ليس
لأَجْلِ قَوْلِهِ أو فَعَلِهِ، لكن لما يُقَارِنُهُ مِنَ الكُفْرِ، فَالْكُفْرُ بِاللَّهِ لا يكونُ إلا بِأَحَدِ
ثلاثة أمور: أَحَدُهَا: الجَهْلُ بِاللَّهِ تَعَالَى. والثاني: أن يَأْتِيَ فِعْلاً أو يَقُولَ قولاً

يُخْبِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ يُجْمَعُ الْمُسْلِمُونَ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ كَافِرٍ، كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، وَالْمَشْيِ إِلَى الْكِنَائِسِ بِالتَّزَامِ الزُّنَّارِ مَعَ أَصْحَابِهَا فِي أَعْيَادِهِمْ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَوْلُ أَوْ الْفِعْلُ لَا يُمْكِنُ مَعَهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

قال: فهذانِ الضَّرْبَانِ، وإن لم يكونا جَهْلًا بِاللَّهِ، فَهُمَا عَلِمَ أَنَّ فاعِلَهُمَا كَافِرٌ مُنْسَلَخٌ مِنَ الْإِيمَانِ، فَأَمَّا مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الدَّائِيَّةِ، أَوْ جَحَّدَهَا مُسْتَبْصِرًا فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: لَيْسَ بَعَالَمٍ، وَلَا قَادِرٍ، وَلَا مَرِيدٍ، وَلَا مُتَكَلِّمٍ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْوَاجِبَةِ لَهُ تَعَالَى، فَقَدْ نَصَّ أَثْمَنًا عَلَى الْإِجْمَاعِ عَلَى كُفْرِ مَنْ نَفَى عَنْهُ تَعَالَى الْوُضْعَ بِهَا، وَأَعْرَاهُ عَنْهَا.

وعلى هذا حُمِلَ قَوْلُ سَخْنُونٍ: مَنْ قَالَ: «لَيْسَ لِلَّهِ كَلَامٌ، فَهُوَ كَافِرٌ» وَهُوَ لَا يَكْفُرُ الْمُتَأَوِّلِينَ كَمَا قَدَمْنَاهُ.

فَأَمَّا مَنْ جَهِلَ صِفَةً مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَا هُنَا، فَكَفَرَهُ بَعْضُهُمْ، وَخُكِّيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَغَيْرِهِ، وَقَالَ بِهِ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ مَرَّةً، وَتَوَقَّفَ فِيهِ مَرَّةً.

وذهبت طائفةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا لَا يَخْرُجُهُ عَنْ حَدِّ الْإِيمَانِ، وَلَا عَنْ اسْمِهِ، وَإِلَيْهِ رَجَعَ الْأَشْعَرِيُّ، قَالَ: لِأَنَّهُ لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ اعْتِقَادًا يَقْطَعُ بِصَوَابِهِ، وَيَرَاهُ دِينًا وَشَرْعًا، وَإِنَّمَا نَكَّرَ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ مَقَالَهُ حَقٌّ.

١٨١٦ - وَاحْتِجَّ هَؤُلَاءِ بِحَدِيثِ السُّودَاءِ [مُسْلِمٌ (٥٣٧)]، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا طَلَبَ مِنْهَا التَّوْحِيدَ لَا غَيْرَ.

١٨١٧ - وَبِحَدِيثِ الْقَائِلِ: «لَيْتَنِي قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيَّ» [الْبُخَارِيُّ (٧٥٠٦)]، مُسْلِمٌ [٢٧٠٦].

١٨١٨ - وَفِي رَوَايَةٍ فِيهِ: «لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ» [أَحْمَدُ (٥/٥)] ثُمَّ قَالَ: «فَقَفَّرَ اللَّهُ لَهُ».

قَالُوا: وَلَوْ بُوْحَتْ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنِ الصِّفَاتِ، وَكُوشِفُوا عَنْهَا، لَمَّا وَجِدَ مَنْ يَغْلَمُهَا إِلَّا الْأَقْلَ.

وَقَدْ أَجَابَ الْآخَرُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِوُجُوهٍ، مِنْهَا: أَنَّ «قَدَّرَ» بِمَعْنَى قَدَّرَ، وَلَا يَكُونُ شَكُّهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى إِحْيَائِهِ، بَلْ فِي نَفْسِ الْبَغْيِ الَّذِي لَا يَغْلَمُ إِلَّا بِشَرْعٍ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ وَرَدَ عَنْهُمْ بِهِ شَرْعٌ يَقْطَعُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الشَّكُّ فِيهِ حَيْثُ كُفْرًا.

فَأَمَّا مَا لَمْ يَرِذْ بِهِ شَرْعٌ فَهُوَ مِنْ مُجَوِّزَاتِ الْعُقُولِ، أَوْ يَكُونُ «قَدَّرَ» بِمَعْنَى

ضيق، ويكون ما فعله بنفسه إزراءً عليها، وغضباً لبعضيائها.

وقيل: إنما قاله وهو غير عاقل لكلامه، ولا ضابط للفظه مما استولى عليه من الجزع، والخشية التي أذهبت لبه، فلم يواخذ به.

وقيل: كان هذا في زمن الفترة، وحيث ينفع مجرد التوحيد.

وقيل: بل هذا من مجاز كلام العرب الذي صورته الشك، ومعناه التحقيق، وهو يسمى تجاهل العارف، وله أمثلة في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا قَدْ بَدَّلْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِيهِمْ سَاعَةٌ وَلَا يَذَكَّرُونَ﴾ [سج: ٢٤].

فأما من أثبت الوصف، ونفى الصفة، فقال: أقول: عالم، ولكن لا علم له، ومتكلم ولكن لا كلام له. وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة. فمن قال بالمآل لما يؤديه إليه قوله، ويسوقه إليه مذهبه - كفره - لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم، إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم، فكانهم صرخوا عنده بما أدى إليه قولهم.

وهكذا عند هذا سائر فِرَقِ أهل التأويل من المشبهة والقدرية وغيرهم.

ومن لم ير أخذهم بمآل قولهم، ولا ألزمهم موجب مذهبهم، لم ير إكفارهم، قال: لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا: لا نقول ليس بعالم، ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر، بل نقول: إن قولنا لا يؤول إليه على ما أصلناه.

فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل، وإذا فهنته اتضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك.

والصواب ترك إكفارهم، والإعراض عن الختم عليهم بالخسران، وإجراء حكم الإسلام عليهم في قضائهم ووراثاتهم، ومناكحاتهم، وديانهم، والصلاة عليهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وسائر معاملاتهم، لكنهم يغفلون عنهم بوجع الأدب، وشديد الزجر والهجر، حتى يزجفوا عن بدعتهم.

وهذه كانت سيرة الصديق من السلف الأول فيهم، فقد كان نشأ على زمن الصحابة ويغدهم في التابعين من قال بهذه الأقوال من القدر، ورأي الخوارج، والاعتزال، فما أراحوا لهم قبرا، ولا قطعوا لأحد منهم ميراثا، لكنهم هجروهم وأدبواهم بالضرب، والنفي، والقتل على قدر أحوالهم، لأنهم فساق، ضالال، عصاة، أصحاب كبائر عند المحققين وأهل السنة ممن لم يقل بكفرهم منهم،

خلافاً لِمَنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ، واللَّهُ المَوْقُوفُ للصواب.

قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوغد والوعيد، والرؤية، والمخلوق، وخلق الأفعال، وبقاء الأعراض، والتولد، وشبهها من الدقائق، فالمَنعُ في إكفار المتأولين فيها أوضح، إذ ليس في الجهل بشيء منها جهلٌ باللَّهِ سبحانه، ولا أجمع المسلمون على إكفار مَنْ جهل شيئاً منها.

وقد قدّمنا في الفضل قبله من الكلام وصورة الخلاف في هذا ما أغنى عن إعادته - ها هنا - بِحَوْلِ الله تعالى، والله أعلم بالصواب.

فصل

فِي حُكْمِ الذَّمِّ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى

هذا حُكْمُ المسلم السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى وأما الذمُّ قُرَوِيٌّ عن عبد الله بن عمر في ذمِّي تناول من حُرِّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ ما هو عليه مِنْ دِينِهِ، وَحَاجٌّ فِيهِ، فخرج ابنُ عمر عليه بالسيف فطلبه فهِرَبَ.

وقال مالك، في كتاب ابن حبيب و «المبسوطة» وابن القاسم في «المبسوط» وكتاب محمد، وابن مَسْحُون: مَنْ شَتَمَ اللَّهَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرُوا قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَبَّ.

قال ابن القاسم: إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. قال في «المبسوطة»: طَوْعاً.

قال أَضْبَحُ: لِأَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي بِهِ كَفَرُوا هُوَ دِينُهُمْ، وَعَلَيْهِ غَوَّهَدُوا مِنْ دَعْوَى الصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ.

وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا مِنَ الْفِرْيَةِ وَالشَّتْمِ فَلَمْ يُعَاهَدُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ نَقْضٌ لِلْعَهْدِ.

قال ابن القاسم في كتاب محمد: وَمَنْ شَتَمَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذُكِرَ فِي كِتَابِهِ قُتِلَ، إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وقال المخزومي في «المبسوطة» ومحمد بن مسلمة، وابن أبي حازم: لَا يُقْتَلُ، حَتَّى يُسْتَبَّ، مُسْلِماً كَانَ أَوْ كَافِراً، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وقال مُطَرِّفٌ وَعَبْدُ الْمَلِكِ مِثْلَ قَوْلِ مَالِكٍ.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْدٍ: مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى - بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرَ - قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

وقد ذكرنا قَوْلَ ابْنِ الْجَلَّابِ قُتِلَ، وَذَكَرْنَا قَوْلَ عُبيدِ اللَّهِ، وَابْنِ لُبَابَةَ، وَشَيْوْخَ

الأندلسيين في النصرانية، وفتياهم بقتلها لسبها - بالوجه الذي كُفرت به - الله تعالى، وللنبي ﷺ.

وإجماعهم على ذلك، وهو نحو القول الآخر فيمن سب النبي ﷺ منهم بالوجه الذي كفر به، ولا فرق في ذلك بين سب الله وسب نبيه - عليه السلام - لأننا عاهدناهم على ألا يُظهروا لنا شيئاً من كفرهم، وألا يسمعون شيئاً من ذلك، فمتى فعلوا شيئاً منه فهو نقض لعهدهم.

واختلف العلماء في الذمّي إذا تَرَنَّدَق، فقال مالك، ومُطَرِّف، وابن عبدالحكم، وأصبغ: لا يُقتل، لأنه خرج من كفرٍ إلى كفر. وقال عبد الملك بن الماجشون: يُقتل لأنه دين لا يُقرُّ عليه أحد، ولا تؤخذ عليه جزية. قال ابن حبيب: ولا أعلم مَنْ قاله من العلماء غيره.

فصل

فِي حُكْمِ الْمُفْتَرِي الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِادْعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ أَوْ خَالَقَهُ

هذا حكمٌ مَنْ صرَّحَ بسبِّهِ وإضافة له ما لا يليق بجلاله وإلهيته، فأما مُفْتَرِي الكذب عليه - تبارك وتعالى - بادْعَاءِ الإلهية، أو الرسالة، أو النافي أن يكون الله - عز وجل - خالقه، أو ربّه، أو قال: ليس لي ربّ، أو المتكلّم بما لا يُعقل من ذلك في سُكْرِهِ، أو غَمْرَةٍ جُنُونِهِ، فلا خلاف في كُفْرِ قائل ذلك ومُدْعِيهِ مع سلامة عقله كما قدمنا، لكنه يُقْبَلُ تَوْبَتُهُ على المشهور، وتُغْفَرُ إِنْابَتُهُ، وتُجَنَّبُ من القتل فَبَيْتُهُ، لكنه لا يَسْلَمُ من عَظِيمِ النُّكَالِ، ولا يُرْفَعُ عن شَدِيدِ الْعِقَابِ، ليكون ذلك زَجْراً لمثله عن قَوْلِهِ، وله عن العودة لِكُفْرِهِ أو جَهْلِهِ، إلا مَنْ تَكَرَّرَ منه ذلك، وعُرف استهانته بما أتى به، فهو دليلٌ على سوء طَوْبَتِهِ، وكُذِبَ تَوْبَتُهُ، وصار كالزُّنْدِيقِ الذي لا تَأْمَنُ باطنه، ولا تُقْبَلُ رُجُوعُهُ، وحُكْمُ السُّكْرَانِ في ذلك حكمُ الصَّاحِي.

وأما المجنون والمَعْتُوهُ فما عَلِمَ أنه قاله من ذلك في حالِ غَمْرَتِهِ، وذَهَابِ مَيِّزِهِ بالكلية فلا نَظَرُ فيه، وما فعله من ذلك في حال مَيِّزِهِ وإن لم يكن معه عقله وسقط تكليفه أَدَبٌ على ذلك لينزجر عنه، كما يؤدَّبُ على قبائح الأفعال، ويُوَالَى أَدْبُهُ على ذلك حتى يَنْكَفَ عنه، كما تؤدَّبُ البهيمة على سوء الخلق حتى تُرَاضَ. وقد حَرَّقَ عَلِيٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه من ادَّعى له الإلهية، وقد قُتِلَ

عبد الملك بن مَرْوَانَ الحَارِثَ الْمُتَنَبِّئَ وَصَلِيهٖ، وَفَعَلَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِأَسْبَاهِهِمْ.

وَأَجْمَعَ عُلَمَاءُ وَقَتِهِمْ عَلَى صَوَابِ فِعْلِهِمْ، وَالْمُخَالَفَ فِي ذَلِكَ مِنْ كُفْرِهِمْ كَافِرٌ.
وَأَجْمَعَ فَهَاءُ بَغْدَادَ - أَيَّامَ الْمُقْتَدِرِ - مِنَ الْمَالِكِيَّةِ، وَقَاضِيَ قُضَاتُهَا أَبُو عُمَرَ الْمَالِكِي عَلَى قَتْلِ الْحَلَّاجِ وَصَلِيهِ، لِدَعْوَاهُ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْقَوْلِ بِالْحُلُولِ، وَقَوْلِهِ: أَنَا الْحَقُّ، مَعَ تَمَسُّكِهِ فِي الظَّاهِرِ بِالشَّرِيعَةِ، وَلَمْ يَقْبَلُوا تَوْبَتَهُ.

وكَذَلِكَ حَكَمُوا فِي ابْنِ أَبِي الْعَزَاقِرِ - وَكَانَ عَلَى نَحْوِ مِنْ مَذْهَبِ الْحَلَّاجِ - بَعْدَ هَذَا أَيَّامَ الرَّاضِي بِاللَّهِ، وَقَاضِيَ قُضَاةَ بَغْدَادَ يَوْمَئِذٍ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ أَبِي عَمْرِو الْمَالِكِي.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ فِي «الْمَبْسُوطِ»: مَنْ تَنَبَّأ قُتِلَ.
وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: مَنْ جَحَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُهُ أَوْ رَبُّهُ، أَوْ قَالَ: لَيْسَ لِي رَبٌّ، فَهُوَ مُرْتَدٌّ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ، وَابْنُ حَبِيبٍ فِي «الْعُنْبِيَّةِ» - فِيمَنْ تَنَبَّأَ - يُسْتَنَابُ، أَسَرَّ ذَلِكَ، أَوْ أَعْلَنَهُ، وَهُوَ كَالْمُرْتَدِّ.

وَبِهِ قَالَ سَخْنُونُ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ أَشْهَبُ فِي يَهُودِيٍّ تَنَبَّأَ، وَادَّعَى أَنَّهُ رَسُولُ الْبَيْتِ: إِنْ كَانَ مُغْلِنًا بِذَلِكَ اسْتَبِيبَ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا قُتِلَ.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ - فِيمَنْ لَعَنَ بَارِئَهُ، وَادَّعَى أَنَّ لِسَانَهُ زَلٌّ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَعَنَ الشَّيْطَانَ -: يُقْتَلُ بِكُفْرِهِ، وَلَا يُقْبَلُ عُذْرُهُ.

وَهَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ مِنْ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ - فِي سَكْرَانٍ، قَالَ: أَنَا اللَّهُ، أَنَا اللَّهُ -: إِنْ تَابَ أَدَّبَ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ طَوَّلَبَ مَطَالِبَةَ الزُّنْدِيقِ، لِأَنَّ هَذَا كُفْرُ الْمُتَلَاعِينَ.

فصل

فِي خُكْمِ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ، وَسُخْفِ اللَّفْظِ،
مِمَّنْ لَمْ يَضْبُطْ كَلَامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَقْتَضِي
الِاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ

وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ وَسُخْفِ اللَّفْظِ مِمَّنْ لَمْ يَضْبُطْ كَلَامَهُ وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ بِمَا يَقْتَضِي الِاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ، أَوْ تَمَثَّلَ فِي بَعْضِ

الاشياء ببعض ما عظم الله من ملكوته، أو نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلا في حق خالقه غير قاصد للكفر والاستخفاف، ولا عامد للإلحاد به، فإن تكرّر هذا منه، وعُرف به، دلّ على تُلّاعبه بدينه، واستخفافه بحُرمة ربه، وجهله بعظيم عزّته وكبريائه، وهذا كفر لا مبرئة فيه.

وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتقصّ لربه.

وقد أفتى ابن حبيب، وأصبغ بن خليل من فقهاء قُرطبة بقتل المعروف: بابن أخيه عجب، وكان خرج يوماً، فأخذهُ المَطَر، فقال بدأ الخَرَّازُ يرش جلوده. وكان بعضُ الفقهاء بها: أبو زيد صاحب «الثمانية»، وعبدالأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى، قد توقّفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب.

وأفتى بمثله القاضي حينئذ موسى بن زياد، فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، أيشتّم ربّ عبدناه، ثم لا نتنصّر له؟! إنّا إذا لعبيدُ سوء، وما نحن له بعابدين، وبكى، ورفع المجلس إلى الأمير بها: عبد الرحمن بن الحكم الأموي. وكانت عجب - عمّة هذا المطلوب - من حظاياه، وأُعْلِمَ باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه، وأمر بقتل المذكور فقتل، وُصِّلَ بحضرة الفقيهين، وعُزِّلَ القاضي لثُهمته بالمداينة في هذه القصة، ووثق ببقية الفقهاء وسبهم.

وأما من صدرت عنه من ذلك الهنّة الواحدة والفلتة الشاردة - ما لم يكن تنقّصاً وإزاء - فيعاقب عليها ويؤدّب بقدر مقتضاها، وشُنْعِ معناها، وصورة حال قائلها، وشرح سببها ومقارنها.

وقد سئل ابن القاسم رحمه الله عن رجل نادى رجلاً باسمه، فأجابه: ليّك، اللهم! ليّك.

فقال: إن كان جاهلاً، أو قاله على وجه سفيه فلا شيء عليه.

قال القاضي أبو الفضل: وشرح قوله أنه لا قتل عليه، والجاهل يُزجر ويُعلم، والسفيه يؤدّب، ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه لكفر. هذا مقتضى قوله.

وقد أسرف كثير من سُخفاء الشعراء ومُتهميهم في هذا الباب، واستخفوا عظيم هذه الحرمة، فأتوا من ذلك بما تُنزه كتابنا ولساننا وأقلامنا عن ذكره، ولولا أنّا قصّدنا نصّ مسائل حكيانها لما ذكرنا شيئاً مما يثقل ذكره علينا مما حكيانه في هذه الفصول.

وأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليط اللسان، كقول بعض الأعراب:

رَبِّ الْعِبَادِ مَا لَنَا وَمَا لَكَ قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا فَمَا بَدَا لَكَ
أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْغَيْثَ لَا أَبَا لَكَ

في أشباه لهذا من كلام الجهال.
ومن لم يَقْوَمَهُ ثِقَافُ تَأْدِيبِ الشَّرِيعَةِ وَالْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَلَّمَا يَصْدُرُ إِلَّا
مِنْ جَاهِلٍ، يَجِبُ تَعْلِيمُهُ، وَرُخْزُهُ، وَالْإِغْلَاطُ لَهُ عَنِ الْعُودَةِ إِلَى مِثْلِهِ.
قال أبو سليمان الخطابي: وهذا تهوُّرٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مُنْزَعٌ
عَنِ هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا.

وقد رَوَيْنَا عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: لِيُعْظَمَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَقُولَ: أَخْزَى اللَّهُ الْكَلْبَ، وَقَعَلَ بِهِ كَذَا وَكَذَا.

قال: وَكَانَ بَغْضُ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ مَشَائِخِنَا قَلَّمَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا فِيمَا
يَتَّصِلُ بِطَاعَتِهِ. وَكَانَ يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ: جُزَيْتَ خَيْرًا. وَقَلَّمَا يَقُولُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا،
إِعْظَامًا لِاسْمِهِ تَعَالَى أَنْ يُمْتَهَنَ فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ.

وَحَدَّثَنَا الثَّقَفُ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ الشَّاشِيَّ كَانَ يَعْيبُ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ كَثْرَةَ
خَوْضِهِمْ فِيهِ تَعَالَى، وَفِي ذِكْرِ صِفَاتِهِ، إِجْلَالًا لِاسْمِهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: هَؤُلَاءِ
يَتَمَنَّدُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَيُنْزَلُ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ تَنْزِيلُهُ فِي بَابِ سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْوُجُوهِ
الَّتِي فَضَّلْنَاهَا. وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ

وَاسْتَخَفَّ بِهِمْ

وَحُكْمُ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَاسْتَخَفَّ
بِهِمْ، أَوْ كَذَّبَهُمْ فِيمَا أَتَوْا بِهِ، أَوْ أَنْكَرَهُمْ أَوْ جَحَدَهُمْ، حُكْمُ نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
عَلَى مَسَاقٍ مَا قَدَمْنَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُونَ نَحْنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا مَا مَكَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿مَنْ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ مَّامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال مالك في كتاب ابن حبيب، ومحمد، وقاله ابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبد الحكم، وأصبغ، وسخون - فيمن شتم الأنبياء أو أحدا منهم أو تنقصه -: قُتِلَ وَلَمْ يُسْتَبْت. وَمَنْ سَبَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. وَرَوَى سَخُون، عن ابن القاسم: مَنْ سَبَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ كَفَرَ ضُرِبَ عُنُقُهُ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ فِي هَذَا الْأَصْلِ.

وقال القاضي بقَرْطُبَةَ سَعِيد بن سليمان في بعض أجوبته: مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى، وملائكته قُتِلَ.

وقال سَخُون: مَنْ شَتَمَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَعَلِيهِ الْقَتْلُ. وَفِي «التَّوَادِر» عَنْ مَالِكٍ فِيمَنْ قَالَ: إِنَّ جَبْرِيلَ أَخْطَأَ بِالْوَحْيِ، وَإِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: اسْتَشْيِبَ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. وَنَحْوَهُ عَنْ سَخُون وَهَذَا قَوْلُ الْغُرَابِيَّةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، سُمُّوا بِذَلِكَ لِقَوْلِهِمْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشْبَهَ بَعْلِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ عَلَى أَصْلِهِمْ: مَنْ كَذَّبَ بِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ تَنَقَّصَ أَحَدًا مِنْهُمْ، أَوْ بَرَى مِنْهُ فَهُوَ مُرْتَدٌّ.

وقال أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِمِيُّ - فِي الَّذِي قَالَ لِآخِر -: كَانَ وَجْهُ مَالِكِ الْغَضْبَانِ: لَوْ عُرِفَ أَنَّهُ قَصَدَ ذِمَّ الْمَلِكِ قُتِلَ.

قال القاضي أَبُو الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا كُلُّهُ فِيمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِمْ بِمَا قُلْنَا عَلَى جُمْلَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، أَوْ عَلَى مُعَيَّنٍ مِنْ حَقَّقْنَا كَوْنَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ مَنْ نَصَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ حَقَّقْنَا عِلْمَهُ بِالْخَيْرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَالْمَشْتَهَرِ الْمُتَقَيِّ عَلَيْهِ بِالْإِجْمَاعِ الْقَاطِعِ، كَجَبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَمَالِكِ، وَخَزَنَةِ الْجَنَّةِ، وَجَهَنَّمَ، وَالزَّيْنَبِيَّةِ، وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ سُمِّيَ فِيهِ مِنْ

الأنبياء، وكعزرائيل، وإسرافيل والحفظة، ورضوان، ومُنكير، ونكير من الملائكة المتفق على قبول الخبر بهما، فأما من لم تثبت الأخبار بتعيينه ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة أو الأنبياء، كهاروت وماروت في الملائكة، والخضر، ولقمان، وذو القرنين، ومريم، وآسية، وخالد بن سنان المذكور أنه نبي أهل الرُّس، وزرّادشت الذي تدعي المجوس والمُؤرخون نبوته، فليس الحكم في سائبهم، والكافر بهم، كالحكم فيمن قدّمنا، إذ لم تثبت لهم تلك الخُزْمة، ولكن يُزَجَرُ مَنْ تَنَقَّصَهُمْ وَأَذَاهُمْ، ويؤدّب بقدر حال القول فيه، لا سيما مَنْ عُرِفَتْ صِدْقِيَّتُهُ، وفضله منهم، وإن لم تثبت نبوته.

وأما إنكار نبوتهم، أو كون الآخر من الملائكة، فإن كان المتكلم في ذلك من أهل العلم فلا حرج عليه لاختلاف العلماء في ذلك، وإن كان من عوام الناس رَجَرَ عَنِ الْخَوْصِ فِي مِثْلِ هَذَا، فإن عاد أدب، إذ ليس لهم الكلام في مثل هذا.

وقد كره السلف الكلام في مثل هذا مما ليس تحتَه عَمَلٌ لأهل العلم، فكيف للعامة؟!

فصل

فِي حُكْمِ مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوِ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا

واعلم أن من استحَفَّ بالقرآن، أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبَّههما، أو جحدَهُ، أو حرفاً منه، أو آية، أو كذب به، أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرَّح به فيه من حُكْم، أو خبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبت، على علم منه بذلك أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَكَتَبْتَ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

١٨١٩ - حدثنا الفقيه أبو الوليد: هشام بن أحمد رحمه الله قال: حدثنا أبو علي، حدثنا ابنُ عبد البر، حدثنا ابنُ عبد المؤمن، حدثنا ابنُ دامة، حدثنا أبو داود، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «المرء في القرآن كُفْرًا» [أبو داود (٤٦٠٣)، أحمد (٤٢٤/٢)]، تؤوَل بمعنى الشك، وبمعنى الجدل.

١٨٢٠ - وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «مَنْ جَحَدَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ حُلَّ ضَرْبُ عُنُقِهِ» [ابن ماجه (٢٥٣٩)]، وكذلك إِنْ جَحَدَ التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَكُتِبَ لِلَّهِ الْمَنْزِلَةُ، أَوْ كَفَرَ بِهَا، أَوْ لَعَنَهَا، أَوْ سَبَّهَا، أَوْ اسْتَخَفَّ بِهَا فَهُوَ كَافِرٌ.

وقد أجمع المسلمون أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَثْلُوفِي جَمِيعِ أَفْطَارِ الْأَرْضِ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصْحَفِ الَّذِي بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا جَمَعَهُ الدُّفْتَانِ مِنْ أَوَّلِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْفَاتِحَةُ: ٢﴾ إِلَى آخِرِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿الْفَلَق: ١﴾. أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَوَحْيُهُ الْمَنْزُولُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا فِيهِ حَقٌّ، وَأَنَّ مَنْ نَقَصَ مِنْهُ حَرْفًا قَاصِدًا لِدَلَالَتِهِ، أَوْ بَدَّلَهُ بِحَرْفٍ آخَرَ مَكَانَهُ، أَوْ زَادَ فِيهِ حَرْفًا مِمَّا لَمْ يَشْتَمَلْ عَلَيْهِ الْمَصْحَفُ الَّذِي وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ، وَأَجْمَعُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَامِدًا لِكُلِّ هَذَا، أَنَّهُ كَافِرٌ.

ولهذا رأى مالك قُتِلَ مَنْ سَبَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْفِرْيَةِ، لِأَنَّهُ خَالَفَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ قُتِلَ، أَيْ لِأَنَّهُ كَذَّبَ بِمَا فِيهِ. وقال ابنُ القاسم: مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا يُقْتَلُ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدَبِي.

وقال محمد بن سَخْنُون - فِيمَنْ قَالَ: الْمَعْوِذَتَانِ لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -: يُضْرَبُ عُنُقُهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ.

وكذلك كُلُّ مَنْ كَذَّبَ بِحَرْفٍ مِنْهُ. قَالَ: وَكَذَلِكَ إِنْ شَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَشَهِدَ آخَرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، لِأَنَّهُمَا اجْتَمَعَا عَلَى أَنَّهُ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ.

وقال أبو عثمان بن الحِذَاد: جَمِيعُ مَنْ يَنْتَجِلُ التَّوْحِيدَ مُتَّفِقُونَ أَنَّ الْجَحْدَ لِحَرْفٍ مِنَ التَّنْزِيلِ كُفْرٌ.

وكان أبو العالية إذا قرأ عنده رجلٌ لم يَقُلْ لَهُ: لَيْسَ كَمَا قَرَأْتَ، وَيَقُولُ: أَمَّا أَنَا فَأَقْرَأُ كَذَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: أَرَاهُ سَمِعَ أَنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلَّهُ.

١٨٢٠م - وقال عبد الله بن مسعود: مَنْ كَفَرَ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلَّهُ.

وقال أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ: مَنْ كَذَّبَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَذَّبَ بِهِ كُلَّهُ. وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ.

وقد - سئل القابسي - عمن خاصم يهودياً، فحلف له بالتوراة، فقال له الآخر: لعن الله التوراة، فشهد عليه بذلك شاهداً، ثم شهد آخر أنه سألته عن القضية فقال: إنما لعنتُ توراة اليهود، فقال أبو الحسن: الشاهد الواحد لا يُوجب القتل، والثاني علّق الأمر بصفة تحمّل التأويل، إذ لعله لا يرى اليهود متمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتخريفهم.

ولو اتفق الشاهدان على لعن التوراة مجزئاً لضاق التأويل.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ - أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد رضي الله عنهما - لقراءته وإقرائه بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه، والتوبة منه سجلاً، أشهد فيه بذلك على نفسه في مجلس الوزير أبي علي بن مقلّة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره.

وأفتى - أبو محمد بن أبي زَيْد بالأدب - فيمن قال لصبي: لعن الله معلّمك وما علمك. وقال: أردت سوء الأدب، ولم أريد القرآن. قال أبو محمد: وأما من لعن المصحف فإنه يُقتل.

فصل

وَسَبُّ آلِ بَيْتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -

وَتَقْضُهُمْ حَرَامٌ مَلْعُونٌ فَاعِلُهُ

١٨٢١ - حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله، حدثنا أبو الحسين الصيرفي، وأبو الفضل العدل قالا: حدثنا أبو يعلى، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا عبيدة بن أبي ربيعة، عن عبدالرحمن بن زياد، عن عبدالله بن مغل، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهُ اللّهُ في أصحابي، اللّهُ اللّهُ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللّهُ، ومن آذى اللّهُ يوشك أن يأخذه» [الترمذي (٣٨٦٢)].

١٨٢٢ - وقال عليه السلام: «لا تسبوا أصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة اللّهِ، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً، ولا عدلاً».

١٨٢٣ - وقال عليه السلام: «لا تسبوا أصحابي، فإنه يجيء قوم في آخر

الزَّمانَ يَسْتَوُونَ أَصْحَابِي فَلَا تُصَلُّوا عَلَيْهِمْ، وَلَا تُصَلُّوا مَعَهُمْ، وَلَا تَتَاكَبُوا، وَلَا تَجَالِسُوا، وَإِنْ مَرَضُوا فَلَا تُعَوِّدُوهُمْ.

١٨٢٤ - وعنه عليه السلام: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ».

١٨٢٥ - وقد أعلم النبي - عليه السلام - أن سبهم وأذاهم يؤذيه، وأذى النبي ﷺ حرام، فقال: «لَا تُؤْذُونِي فِي أَصْحَابِي، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي».

١٨٢٦ - وقال لبعض نسائه: «لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ» [البخاري (٢٥٨١)].

١٨٢٧ - وقال في فاطمة: «بِضْعَةٍ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي».

وقد اختلف العلماء في هذا، فمشهور مذهب مالك في ذلك: الاجتهاد والأدب الموزع: قال مالك رحمه الله: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَهُ أَدَبٌ.

وقال أيضاً: مَنْ شَتَمَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فَإِنْ قَالَ: كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ وَكُفْرٍ قُتِلَ، وَإِنْ شَتَمَهُمْ بِغَيْرِ هَذَا مِنْ مُشَاتِمَةِ النَّاسِ نَكَلًا شَدِيدًا.

وقال ابن حبيب: مَنْ غَلَا مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى بُغْضِ عِثْمَانَ وَالْبِرَاءَةِ مِنْهُ أَدَبٌ أَدْبًا شَدِيدًا، وَمَنْ زَادَ إِلَى بُغْضِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ أَشَدُّ، وَيَكْرُرُ ضَرْبُهُ، وَيُطَالُ سِجْنُهُ حَتَّى يَمُوتَ وَلَا يُلْغَ بِهِ الْقَتْلُ إِلَّا فِي سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ.

وقال سخنون: مَنْ كَفَّرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَلِيًّا، أَوْ عِثْمَانَ، أَوْ غَيْرَهُمَا، يُوجَعُ ضَرْبًا.

وحكى أبو محمد بن أبي زَيْد، عَنْ سَخْنُونٍ: مَنْ قَالَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعِثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَكُفْرٍ قُتِلَ. وَمَنْ شَتَمَ غَيْرَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ بِمِثْلِ هَذَا نُكِّلَ النَّكَالُ الشَّدِيدُ.

ورَوَى عَنْ مَالِكٍ: مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ جُلِدَ، وَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ، قِيلَ لَهُ: لِمَ؟ قَالَ: مَنْ رَمَاهَا فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ.

وقال ابن شعبان عنه: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَعْطُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعْبُدُوا لِيُحِبِّهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، فَمَنْ عَادَ لِحُبِّهِ فَقَدْ كَفَرَ.

وحكى أبو الحسن الصُّقْلِيُّ: أَنَّ الْقَاضِي أَبَا بَكْرٍ بْنُ الطَّيِّبِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مَا نَسَبَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ سَبَّحَ نَفْسَهُ لِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ...﴾ [الأنبياء: ٢٦] فِي آيٍ كَثِيرَةٍ.

وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] سُبْحَ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيهِهَا مِنَ السَّوْءِ، كَمَا سُبْحَ نَفْسِهِ فِي تَبَرُّتِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ السَّوْءِ.

وهذا يشهد لقول مالك في قتل مَنْ سَبَّ عائشة.

ومعنى هذا - والله أعلم - أَنَّ الله تعالى لَمَّا عَظَّمَ سَبَّهَا كَمَا عَظَّمَ سَبَّهُ، وَكَانَ سَبُّهَا سَبًّا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَرْنِ سَبِّ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَذَاهُ بِأَذَاهُ تَعَالَى، وَكَانَ حُكْمُ مُؤْذِيهِ تَعَالَى - الْقَتْلُ -، وَكَانَ مُؤْذِي نَبِيِّهِ كَذَلِكَ، كَمَا قَدَمْنَاهُ.

وَسَمَّ رَجُلٌ عَائِشَةَ بِالْكُوفَةِ، فَقَدَّمَ إِلَى مُوسَى بْنِ عِيسَى الْعَبَّاسِيِّ الْهَاشِمِيِّ فَقَالَ: مَنْ حَضَرَ هَذَا؟ فَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى: أَنَا، فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَسْلَمَهُ لِلْحَجَّامِينَ.

١٨٢٨ - وَرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ نَذَرَ قَطْعَ لِسَانِ عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، إِذْ شَتَمَ الْمُقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ الْكَنْدِيِّ فَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: دَعُونِي أَقْطَعُ لِسَانَهُ حَتَّى لَا يَشْتَمَ أَحَدٌ بَعْدَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

١٨٢٩ - وَرَوَى أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أُنْبِيَ بِأَعْرَابِيٍّ يَهْجُو الْأَنْصَارَ، فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ لَهُ صَحْبَةً لَكَفَيْتُكُمْوَهُ.

قال مالك: مَنْ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفِيءِ حَقٌّ، قَدْ قَسَمَ اللَّهُ الْفِيءَ فِي ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ فَقَالَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُرْتُوا وَيُقِيمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وهؤلاء هم الأنصار.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فمن تَنَفَّضَهُمْ فَلَا حَقَّ لَهُ فِي فَيءِ الْمُسْلِمِينَ.

وفي كتاب ابن شُعْبَانَ: مَنْ قَالَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ ابْنُ زَانِيَةٍ، وَأُمُّهُ مُسْلِمَةٌ، خُذْ عِنْدَ بَعْضِ أَصْحَابِنَا حَدِيثَيْنِ: حَدًّا لَهُ، وَحَدًّا لِأُمِّهِ، وَلَا أَجْعَلْهُ كَقَاذِفِ الْجَمَاعَةِ فِي كَلِمَةٍ لِفَضْلِ هَذَا عَلَى غَيْرِهِ.

١٨٣٠ - ولقوله عليه السلام: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاجْلِدُوهُ».

قال: وَمَنْ قَذَفَ أُمَّ أَحَدِهِمْ، وهي كافرة، حُدَّ حَدُّ الْفِرْيَةِ، لِأَنَّهُ سَبَّ لَهُ، فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ هَذَا الصَّحَابِيِّ حَيًّا قَامَ بِمَا يَجِبُ لَهُ، وَإِلَّا فَمَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ قَبُولُ قِيَامِهِ، قال: وليس هذا كحقوقِ غَيْرِ الصَّحَابَةِ لِحُزْمَةِ هَؤُلَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَوْ سَمِعَهُ الْإِمَامُ، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ، كَانَ وَلِيُّ الْقِيَامِ بِهِ، قال: وَمَنْ سَبَّ غَيْرَ عَائِشَةَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَفِيهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يُقْتَلُ، لِأَنَّهُ سَبَّ النَّبِيِّ ﷺ بِسَبِّ حَلِيلَتِهِ.

والآخر: أنها كسائر الصحابة، يُجْلَدُ حَدُّ الْمُفْتَرِي، قال: وبالأول أقول. وروى أبو مُضْعَبٍ، عن مالك: مَنْ انتسب إلى بيتِ النَّبِيِّ ﷺ: يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيعًا، وَيُشْهَرُ، وَيُخْبَسُ طَوِيلًا حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُهُ، لِأَنَّهُ اسْتَخْفَافَ بِحَقِّ الرِّسَالَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأفتى أبو الْمُطَرِّفِ الشَّعْبِيُّ - فقيه مالقة - في رَجُلٍ أَنْكَرَ تَحْلِيفَ امْرَأَةٍ بِاللَّيْلِ، وقال: لو كانت بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مَا حُلِفَتْ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَصَوَّبَ قَوْلَهُ بَعْضُ الْمُتَسِمِينَ بِالْفِقْهِ، فَقَالَ أَبُو الْمُطَرِّفِ: ذَكَرْتُ هَذَا لِابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ فِي مِثْلِ هَذَا يُوجِبُ عَلَيْهِ الضَّرْبَ الشَّدِيدَ، وَالسَّجْنَ الطَوِيلَ، وَالْفَقِيهُ الَّذِي صَوَّبَ قَوْلَهُ هُوَ أَحَقُّ بِاسْمِ الْفُسْقِ مِنْ اسْمِ الْفِقْهِ، فَيَتَقَدَّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَيُزَجَرُ، وَلَا تُقْبَلُ فَتْوَاهُ، وَلَا شَهَادَتُهُ، وَهِيَ جُزْءَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ، وَيُبْغَضُ فِي اللَّهِ.

وقال أبو عِمْرَانَ - في رجل قال: لو شَهِدَ عَلِيٌّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ -: إِنَّهُ إِنْ كَانَ أَرَادَ أَنْ شَهَادَتَهُ فِي مِثْلِ هَذَا، لَا يَجُوزُ فِيهِ الشَّاهِدُ الْوَاحِدُ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَرَادَ غَيْرَ هَذَا، فَيُضْرَبُ ضَرْبًا يَبْلُغُ بِهِ حَدُّ الْمَوْتِ. وذكروها رواية.

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: هنا انتهت القول بنا فيما حرَّزناه، وانتجَزَ الغرض الذي انتجينا واستوفي الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن يكون في كل قسم منه للمريد مَنفَعٌ، وفي كل باب مَنهَجٌ إلى بُغْيَتِهِ وَمَنْزَعٍ.

وقد سَفَرْتُ فِيهِ عَنْ نُكَيْتٍ تُسْتَعْرَبُ وَتُسْتَبَدَعُ، وَكَرَعْتُ فِي مَسَارِبٍ مِنَ التَّحْقِيقِ لَمْ يورَدَ لَهَا قَبْلُ فِي أَكْثَرِ التَّصَانِيفِ مَشْرَعٌ، وَأودَعْتُهُ غَيْرَ مَا فَضَّلْتُ، وَدَثْتُ لَوْ وَجَدْتُ مَنْ بَسَطَ قَبْلِي الْكَلَامَ فِيهِ، أَوْ مُقَدِّمٌ يَفِيدُنِيهِ عَنْ كِتَابِهِ أَوْ فِيهِ، لَأَكْتَفِي بِمَا أَرَوِيهِ عَمَّا أَرَوِيهِ.

وإلى الله تعالى جَزِيلُ الصُّرَاعَةِ فِي الْيَمَّةِ بِقَبُولِ مَا مِنْهُ لَوَجْهِهِ، وَالْعَفْوِ عَمَّا تَخَلَّلَهُ مِنْ تَزَيُّنٍ وَتَصَنُّعٍ لغيره، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا ذَلِكَ بِجَمِيلِ كَرَمِهِ وَعَفْوِهِ، لِمَا أودَعْنَاهُ

من شَرَفٍ مُضْطَفَاه، وَأَمِينٍ وَخِيهِ، وَأَشْهَرْنَا بِهِ جَفَوْنَا لَتَتَّبِعَ فُضَائِلُهُ، وَأَغْمَلْنَا فِيهِ خَوَاطِرُنَا مِنْ إِبْرَازِ خِصَائِصِهِ وَوَسَائِلِهِ، وَيَخِيْمِي أَعْرَاضُنَا عَنْ نَارِهِ الْمُوقَدَةِ لِحِمَايَتِنَا كَرِيمَ عِزِّهِ، وَيَجْعَلُنَا مِثْلَ لَا يَذَادُ إِذَا ذِيدَ الْمُبْدَلُ عَنْ حَوْضِهِ، وَيَجْعَلُهُ لَنَا وَلَمَنْ تَهَمُّ بِاِكْتِسَابِهِ، وَاِكْتِسَابِهِ سَبَباً يَصِلُنَا بِأَسْبَابِهِ، وَذَخِيرَةً نَجِدُهَا ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] نَحُورُ بِهَا رِضَاهُ، وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَيَخْضُنَا بِخُصِيصَتِي زُفْرَةِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَاعَتِهِ، وَيَحْشُرُنَا فِي الرُّعِيلِ الْأَوَّلِ، وَأَهْلِ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، مِنْ أَهْلِ شِفَاعَتِهِ، وَنَحْمَدُهُ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنْ جَمْعِهِ وَأَلْهَمَ، وَفَتَحَ الْبَصِيرَةَ لِدَرْكِ حَقَائِقِ مَا أَوْدَعْنَاهُ وَفَهَمَ، وَنَسْتَعِيذُهُ - جَلَّ اسْمُهُ - مِنْ دَعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَعَمَلٍ لَا يُزْقَعُ، فَهُوَ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَخِيبُ مَنْ أَمَّلَهُ، وَلَا يَنْتَصِرُ مَنْ خَدَّلَهُ، وَلَا يَزُدُّ دَعْوَةَ الْقَاصِدِينَ، وَلَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ووقع الفراغ منه آخر النهار، يوم الاثنين، الثاني عشر من رجب الفرد سنة (٧٤٤) في المدرسة الْقِيَمَازِيَّةِ رَحِمَ اللَّهُ وَاقِفَهَا، عَلَى يَدَيِ أَوْعَفِ خَلْقِ اللَّهِ جِرْمًا، وَأَكْثَرَهُمْ جُرْمًا، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ رَمْضَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَاجِّ الْحَنْفِيِّ الرَّومِيِّ الْمَلِيفِدُونِيِّ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَثْوَاهُمْ، وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!



فهرس الأحاديث والآثار^(١)

(مرتب على رقم الحديث)

اثبت أحد: ٧٨٣

اثبت فإنما عليك نبي وصديق: ١٠٣٧

أجل إني أوعك: ١٧٢٧

أجل ذلك كذلك: ١٧٢٧

اجلس فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله:

١٧٧٥ (ث)

اجلسي يا أم فلان: ٢٦٠

أجعل الناس من بعيد: ٥٩

أجوع يوماً وأشبع يوماً: ٣١٥

أحب حبيك هوناً ما: ١١٧

أحب الله من أحب حبيناً: ١٢٨٢

أحب الصلاة إلى الله صلاة داود: ٣٦٤

أحببه فإني أحبه: ١٢٣٥

أحنت إليك: ٢٢٩

أحصب وجوها: ٨٠٠

أحفظ علي ميضأتك: ٧٠٤

أحفظوني في أصحابي: ١٣١٨

أحلت لي الغنائم: ١٦٣١

أخبرني هذه الذراع: ٨٢٤

أختار دار البقاء: ٧٧١

أخترت الفطرة: ٤٣٢

حرف الألف

أتوني أكتب لكم كتاباً: ١٦٨٢

أتي باب الجنة: ٥٠٩

أؤخر عن أمتي لعل الله يتوب عليهم: ٢٣٩

أؤخركم موتاً في النار: ٩٨٥

أؤذنت النبي ﷺ بالجن شجرة: ٧٤٥

أمين: ١٤٢٣

الآن استرح: ١٥٦

الآن يا عمر: ١١٩٦

آية الإيمان حب الأنصار: ١٢٣٦

أبمحمد تفعل هذا؟: ٢

أبشز فوالله! لا يخزيك الله: ٢٥٥ (ث)

أبيض مشرب: ٣٧٧

أتاني جبريل فقال إن ربي: ٩

أتاني جبريل فقال قلبت مشارق: ٣٩٠

أتاني ملك فقال لي أنت قُتْم: ٦٣١

اتق الله حيثما كنت: ١١٥

أتيت بالبراق: ٤٣٢

أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه،

أزيز: ٣٤٣

أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم: ٤٦٢

(١) رمزنا للأثر بالحرف (ث).

أخذ النبي ﷺ كفاً من حصي فسبحن: ٧٧٥

ادع ثلاثين من أشراف الأنصار: ٧١٣

ادع سبعين: ٧١٣

ادع ستين: ٧١٣

ادع عشرة: ٧٢٩

ادن فقاتل: ١٠٦٨

إذا أحب الله عبداً ابتلاه: ١٧٢٣

إذا أراد الله بعبد الخير عجل: ١٧٢٢

إذا أراد الله رحمة بأمّ قبض: ٧

إذا تقارب الزمان لم تكدر رؤيا: ١٠٧٥

إذا تكفى ويغفر ذنبك: ١٤١٤

إذا دخل أحدكم إلى المسجد فليصل على

النبي ﷺ: ١٤٩٠

إذا دخل أهل النار النار: ٥٦٤ (ث)

إذا دخلت المسجد فصل على النبي ﷺ:

١٤٨٣

إذا ذكر أصحابي فأمسكوا: ١٣٠٠، ١٣٠٧

إذا ذكرت ذكرت معي: ٩

إذا رأيتم آية فاسجدوا: ١٢٩٧

إذا سمعتم المؤذن فقولوا: ١٤٠٢، ٥٩٦

إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله: ١٣٥٩

إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات: ١٣٨١

إذا مشى مشى مجتمعاً: ٢٩٧

إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه: ١١٤٥

إذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد: ١٨٠٥

إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها: ٣٨٢

أذهب: ٧٢٥

أذهبوا بها إلى بيت فلانة: ٢٤٤

أذهبوا فأنتم الطلقاء: ١٨٢

أذهبي فإننا لم نأخذ من مالك شيئاً: ٧٠٥

أزود الناس عنه بعصاتي: ٦٣٢

أرأيت إن دعوت هذا العذق؟: ٧٥٢

ارجع: ٧٥٢

ارجع كما جئت: ٧٥٠

ارجعي: ٧٤٩

ارحموا من في الأرض: ٧٢٩

أردفني النبي ﷺ خلفه: ٦٧

أرفع: ٧٢٣، ٧٣٥

أرفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة:

٨٢١

أرقبوا محمداً في أهل بيته: ١٢٨٠ (ث)

أركب أمامي: ٢١٧

أرم به: ٨٣٩

أرني آية لا أبالي من كذبي بعدها: ٧٥١

أرئت ما تلقى أمتي من بعدي: ٥٦٢

أسألك بكل اسم هو لك: ١٥٥٢

أسألك بأسمائك الحسنی: ١٥٥١

استأب رسول الله ﷺ تبهان: ١٧٩٩

أستحي من الله أن أطأ ترية: ١٣٢٨ (ث)

اسق يا زبير: ١٥٧٩

اسق يا زبير حتى يبلغ الكعنين: ١٧٠٤

اسق يا زبير ثم اجلس حتى: ١٧٠٤

أسلم تسلم: ١١٠

أشدت غضب الله على قوم: ١٤٧١، ١٤٩١

أشترى واشترط ليهم الولاء: ١٧١٩

أشرب: ٧٠٨

أشربت بالرأي: ١٦٦٦

أشفي أو عافه: ٨٥٢

أشكل العينين: ٣٧٩

أشككت درد: ١٠٩٦

أشهدوا: ٦٧٣

أصحابي كالنجوم: ١٣٠٢

أصدق الناس لهجة: ٢٨٥

أصل كل داء البردة: ١٠٧٦

أصليت يا علي؟: ٦٨٤

أصنع كما رأي رسول الله ﷺ يصنع: ١١٧٠

(ث)

أضرب به: ٩١٠

اطلبوا من معه فضل ماء: ٦٩٢

أطمع أن أكون أعظم الأنبياء: ٥٠٧

الاعتصام بالسنة نجاة: ١١٦٧ (ث)

أعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية منة من

النعم: ٢٢٨

أعطيت خماً لم يعطهن: ٣٩٤

اعفوا عن مبيتهم: ١٣١٧

أعوذ بالله العظيم: ١٤٩٦

أعذك بالله يا عكاشة أن يتعمدك: ١٧٠٧

اغد عليّ يا عمّ مع ولدك: ١٢٧٨

اغفر لي ما قدمت: ١٦٢٧

أنفاله؟: ١٠٦٩

أفضل هذه الأمة أكثرها نساء: ١٤١ (ث)

أفلا أكون عبداً شكوراً؟: ٣٣١، ٣٣٢

١٦٤٥، ٦٣٨، ٣٣٣

أفلح وجهك: ٨٧١

اقتدوا باللذين من بعدي: ١٣٠١

اقرأ فقلت: ما أقرأ؟: ١٥٢٨

اقعد فاشرب: ٧٣٢

أقول كما قال أخي يوسف: ١٨٢

اكتب عليمًا حكيمًا: ١٥٧٣

اكتب كذا: ١٥٧٣

اكتب كيف شئت: ١٥٧٣

أكثروا عليّ الصلاة يوم الجمعة: ١٤٤٣

أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة:

١٤٣٧ (ث)

أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الزهراء:

١٤٤٥

أكلأ لنا الصبح: ١٦٢١

أكلك الأسد: ٨٨٨

إلى الأقبال العابله: ٩٨

ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله:

١١٨٩

التما عليّ بإذن الله: ٧٣٨

الحقي بصاحبك: ٧٣٨

ألتي الدواة وحرّف القلم: ١٠٩٣

الذي أنا عليه اليوم وأصحابي: ١١٦١

الله: ١٧٤

الله عز وجل: ١٠٥٠

الله في أصحابي: ١٢٣٣، ١٣٠٤

١٨٢١

اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً: ٣٠٨

اللهم اجعل صلواتك: ١٣٩٤، ١٤٥٧ (ث)

اللهم اجعل منك على فلان صلوات

قوم: ١٤٦٢ (ث)

اللهم أجعله حجاً لا رياء فيه: ٢٦٣

اللهم احفظني من الشيطان الرجيم: ١٤٨٥

اللهم أرني آية: ٧٤٨

اللهم اغفر له، اللهم ارحمه: ١٣٣٨

اللهم اغفر لي ذنوبي: ١٣٧١، ١٤٨٣

١٤٨٤

اللهم افتح لي أبواب رحمتك: ١٤٨٩

اللهم أكثر ماله وولده: ٨٦١

اللهم اكفني بما شئت: ١٠٥٤

اللهم إن كان كاذباً فلا تبارك: ٨٩٢

اللهم إنما محمد بشر يغضب: ١٦٩٤

اللهم إنه كان في طاعتك: ٦٨٤

اللهم إني أحبه فأحب من يحبه: ١٢٣١

اللهم إني أحبهما فأحبهما: ١٢٣٠، ١٢٧٩

اللهم إني أسألك أن تصلي عليّ محمد:

١٣٦٨ (ث)

اللهم إني أسألك رحمة من عندك: ١١٩

اللهم إني أسألك الفوز في القضاء: ١١٩

اللهم إني أسألك من فضلك: ١٤٨٤

اللهم إني أسألك وأتوجه إليك: ٨٤٣

اللهم اهـد قومي: ١٧١، ١٧٢

اللهم بارك على محمد: ١٣٩١

اللهم بارك في شعره وبشره: ٨٧١

اللهم بارك لهم في محضها: ٩٧
 اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي: ٤٢٥
 اللهم دَاحِي المدحوات: ١٣٩٢ (ث)
 اللهم رَبِّ هذه الدعوة التامة: ١٤١٦
 اللهم سَلِّطْ عليه كلباً من كلابك: ٨٨٧
 اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى: ١٤٥٣
 اللهم صَلِّ على محمد: ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٩٠، ١٤٥٤
 اللهم صَلِّ على محمد وأزواجه: ١٤٥٩
 اللهم فقهه في الدين: ٨٧٣
 اللهم نوِّزْ له: ٨٨٢
 اللهم هؤلاء أهل بيتي: ١٢٧٣
 اللهم هؤلاء أهلي: ١٢٧٤
 اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد: ١٤٧١، ١٤٩١
 ألم أر البرمة فيها لحم؟: ١٣٥
 ألم يَأْنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله: ١٨٤
 أنا أعلم: ١٥٨٩
 أنا أفرس بالخيال منك: ١٠٩٠
 أنا أقتلك إن شاء الله: ٢٠٧
 أنا أكرم الأولين والآخرين: ٣٨٩
 أنا أكرم ولد آدم: ٣٨٨، ٦٣٥
 أنا أمان لأصحابي: ٣٤
 أنا أمنة لأصحابي: ٦٤٩
 أنا أول من تنشق عنه الأرض: ٦٤١
 أنا أول من تنفلق الأرض عن جمجمته: ٥٨٩
 أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا: ٤٩٩، ٥٠٠
 أنا أول الناس يشفع: ٥٠٥
 أنا حامل لواء الحمد: ٥٠٤
 أنا دعوة أبي إبراهيم: ٤١٤
 أنا سيد الناس يوم القيامة: ٥٠٦
 أنا سيد ولد آدم: ٥٠٢، ٥٠٣، ١٥٩١
 أنا العاقب: ٦٢٠
 أنا قَيِّمٌ: ٦٢٣

أنا محمد النبي الأمي: ٤٠٥
 أنا محمد وأحمد: ٦٢٦
 أنا النبي لا كذب: ١٩٩
 أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك: ٢٤٣
 أنا ولي كل مؤمن: ٦٤٣
 أنا وهو إلى غير هذا أحوج: ١٨١
 الأنبياء ثم الأمثل: ١٧٢٠
 أنت حبيب الرحمن: ٥٤٧
 أنت قَتْمٌ: ٦٣١
 أَنْتَ مع من أحببت: ١١٩٨
 أنتم أعلم بأمور دنياكم: ١٦٦٣
 أنزل الله عليّ أمانتين لأمتي: ٣٣
 أنشدكم الله أهل بيتي: ١٢٧٠
 انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ: ٦٧٣
 انطلق به فإنه سيضيء لك: ٩٠٩
 انطلق وقل له: ٧٣٩
 انظر ما تقول: ١٢٤٥
 انتقادي عليّ بإذن الله: ٧٣٨
 إن أحببت أقميت عندي مكرمة: ٢٥١
 أن تشهد أن لا إله إلا الله: ١١٤١
 أن تغفو عمن ظلمك: ٦٤٥
 إن شئت أردك إلى الحائط: ٧٧١
 إن كان النبي ليتلى بالقمل: ١٧٢٨
 إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ: ٢٧٤
 إن كنت تحبني فأعد للفقير تحفاً: ١٢٤٥
 إن كنا آل محمد لنمكث شهراً: ٣١٧
 إن آل أبي ليسوا لي بأولياء: ٢٤٨
 إن الأبعد شاعر أول مجنون: ١٥٣١
 إن ابني هذا سيد: ١٠٢٧
 إن أبويك قد أسلما: ٨٣٥
 إن أحبكم إليّ: ١١١
 إن أحسن الحديث كتاب الله: ١١٥٦
 إن أحسن الهدى هدى محمد ﷺ: ٢٩٨

إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها: ٨١٨
 إن الله اختار أصحابي: ١٣٠٨
 إن الله اختار خلقه: ١٣٠
 إن الله اصطفى من ولد إبراهيم: ١٢٩، ٣٨٧
 إن الله أنزل هذا القرآن أمراً: ٦٧٠
 إن الله تعالى يدخل العبد الجنة بالسَّيِّئِ: ١١٦٩
 إن الله خلق الخلق فجعلني: ١٢٨
 إن الله فضل محمداً على: ٤١٣ (ث)
 إن الله نظر إلى قلوب العباد: ٤٣٠ (ث)
 إن الله قبض أرواحنا: ١٦١٥، ١٦٢٠
 إن الله قد حبس عن مكة: ٤١١
 إن الله قسم الخلق: ٣٨٥
 إن الله يأمر بالعدل: ٦٥٦
 إن الله يحب من عباده الرحماء: ٦٢٨
 إن الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً: ٦٥٥
 إن أول زمرة يدخلون الجنة: ٣٤٩
 إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم: ١٤٢٦
 إن بني إسرائيل افترقوا: ١١٦١
 إن جبريل أتاني فقال: ١٤٢٣
 إن جبريل عليه السلام حملني: ٤٥٩
 إن جبريل ناداني فقال: ١٤٠٥
 إن الحمد لله نحمده: ٦٥٢
 إنَّ الدين النصيحة: ١٢٤٨
 إن الزمان قد استدار: ١٠٨٥
 إن الشيطان أتني بلالاً: ١٥٦٧
 إن شيطاناً تقلَّبَ البارحة: ١١١٢
 إن الشيطان عرض لي: ١٥٥٦
 إن الشيطان يجري من ابن آدم: ١٦٤٨
 إن عدو الله إبليس جاءني بشهاب: ١٥٥٧
 إن عظم الجزاء مع عظم البلاء: ١٧٢٩
 إن عيسى عليه السلام كُفِّي من لحيته: ١٥٦٢
 إن عيني تامان ولا ينام قلبي: ١٦١٣، ١٦٥٠

إن الفقر إلى من يجني منكم أسرع: ١٢٤٤
 إن القرآن صعب مستصعب: ٦٦٤
 إن لكم فراعها ووهاطها: ٩٦
 إن للنبوَّة أنقلاً: ٦١٦
 إن لله ملائكة سياحين: ١٤٣٥
 إن من البيان لسحراً: ١٧٩٧
 إن من شرار الناس من اتفاه الناس: ١٧١٤
 إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا: ٥٥٣ (ث)
 أن النبي ﷺ أتى بالبراق: ٢، ٣٩١
 أن النبي ﷺ صلى الظهر خمساً: ١٦٠٤
 أن النبي ﷺ قرأ والنجم: ١٥٧٠
 أن النبي ﷺ كانت روحه نوراً: ١٣١
 أن نبيّاً قرصته نملة: ١٦٤٢
 أن نصرانياً كان يكتب للنبي ﷺ بعد ما
 أسلم: ١٥٧٤
 إنَّ هذا الأعرابي قال ما قال: ٢٢٩
 إنَّ هذا الأمر بدأ نبوة: ٩٩٤
 إن هذا بكى لما فقد من الذكر: ٧٦٧
 إن هذا وإد به شيطان: ١٥٦٤، ١٥٦٦
 إن اليهود إذا سلَّم أحدهم: ١٧٨٢
 إنَّا كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله: ٢٠٣
 إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء: ١٧٢٨
 إنك تجده يصيد البقر: ١٠٤٣
 إنك حجر لا تنفع ولا تضر: ١١٧٩ (ث)
 إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي: ٢٢٩
 إنكم تختصمون إليَّ: ١٥٧٨
 إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل: ٢٧٥
 إنما أنا بشر: ١٦٦٢، ١٦٦٥، ١٦٦٨
 ١٦٦٩
 إنما أنا بشر أنسى كما تنسون: ١٥٩٨
 ١٦٠٥
 إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون: ١٦٠٩
 إنما أنا عبد: ١٣٨، ٢٥٨
 إنما ظننت ظناً: ١٦٦٤

إني لأستغفر الله وأتوب إليه : ١٦٢٩
 إني لأسمع صوتاً وأرى ضوءاً : ١٥٣٠
 إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ :
 ٧٧٨
 إني لأمنح ولا أقول إلا حقاً : ١٦٧٤
 إني لأنسى أو أنسى لأنسى : ١٥٨٤ ، ١٥٩٩ ،
 ١٦٠٧
 إني لأنظر من ورائي : ٨٤
 إني لا أعلم إلا ما علمني ربي : ١٥٤٩
 إني لا أنسى ، ولكن أنسى لأنسى : ١٦٠٨
 إني لست كهيتكم : ١٥٢١ ، ١٦٥١
 إني لقائم المقام المحمود : ٥٥٩
 إني لم أبعث لعناً : ١٧١
 إني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت : ١٦٣٤
 أما ترضى أن تعيش حميداً ؟ : ١٢٥٢
 أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى : ٥٠٨
 أمّا الآن فلا : ١٥٣٢
 إما أن تركب وإما أن تتصرف : ٢١٧
 أما أنا فلا أكل متكئاً : ١٣٦
 أمته الحمادون لله : ٢٠
 أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا : ١١٣٩ ،
 ١١٤٠
 أمْلِكْهَا وما أراك : ٨١٨
 أهو الذي بعينه بياض ؟ : ١٦٧٣
 أوصاني النبي ﷺ لا يقسله غيري : ٧٧
 أوصيكم بكتاب الله وعترتي : ١٦٩١
 أولئك الذين نهاني الله قد قتلهم : ١٧٨٣
 أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ
 صلاة : ١٤١١
 أول ما بدىء به رسول الله من الوحي : ١٥٢٦
 أيما رجل سبته أو لعنته : ٢٣٧
 أيما رجل من المسلمين سبته : ١٦٩٧
 أيما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرّقوا : ١٤٢٧
 أيها الناس احفظوني في أصحابي : ١٣١٤

إنما كان فراشه الذي ينام عليه آدمًا : ٣٢٤
 إنما الكريم بن الكريم : ٣٦٠
 إنما المدينة كالكير : ١٥١٠
 إنه شكا كثرة العمل : ٨٠٧
 إنه ﷺ صلى بالأنبياء : ٤٤٧
 إنه ﷺ مسح خدّه : ٦٤
 إنه لموصوف في التوراة : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
 ١٩ (ث)
 إنه ليعنان علي قلبي : ١٥٣٨ ، ١٥٤١ ،
 ١٦٢٨ ، ١٦٠١
 إنه من أهل النار : ٩٨٤
 إنها استأذنت أن تسلم عليَّ : ٧٤٤
 إنها أمة مرحومة : ٦٢٧
 إنها بضعة مني : ١٢٣٤ ، ١٦٤٨ ، ١٧٩١
 إنها كانت تأتينا أيام خديجة : ٢٤٧
 إنها من الشيطان : ١٥٦٣
 إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين : ٢٥٠
 إنهما في أمتي يوم القيامة : ٥٠٨
 إنني اتخذتك خليلاً : ٥٤٧ (قدسي)
 إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً : ١٥٢٩
 إني أرى ما لا ترون : ٣٢٩
 إني أنسى كما تنسون : ١٦٢٣
 إني إنما أقضي بينكم برأيي : ١٥٤٨
 إني تارك فيكم ما إن أخذتم به : ١٢٧١
 إني عبدالله وخاتم النبيين : ٤١٢
 إني عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة :
 ٣١٥
 إني فرط لكم : ٤٠٤
 إني قد نهيت عن التعزّي : ١١٢٠
 إني لأبصر من قفائي : ٨٥
 إني لأخشاكم لله : ١٥٩٧
 إني لأراكم من وراء ظهري : ٨١ ، ٨٢
 إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة : ٣٤٦
 إني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة : ٣٤٥

أيها الناس اذكروا الله: ١٤١٤

أيها الناس إن الله غفر لأهل بدر: ١٣١٤

أيها الناس إني راضٍ عن أبي بكر: ١٣١٤

أيها الناس إني راضٍ عن عمر: ١٣١٤

حرف الباء

بش ابن العشرة: ١٧١٨ ، ١٧١٦

بش خطيب القوم أنت: ١١

بش ما لأحدكم أن يقول نسيئت: ١٥٨٢ ،

١٦١٠

باسم الله والسلام على رسول الله: ١٤٨٨

بيت المقدس: ٩٦٦

البخيل كل البخيل الذي: ١٤٢٤

بشرني - يعني ربه - أول من يدخل الجنة:

٤٠٨

بضعة مني يؤذيني ما آذاها: ١٨٢٧

بعثت إلى الأحمر والأسود: ٤٠١

بعثت بين يدي الساعة: ٤٠٦

بعثت لأنتم مكارم الأخلاق: ١٥٩

بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم: ١٢٧

بَغَضْتُ إِلَى الأصنام: ١٥٤٥

بقيت أنا وأنت: ٧٣٢

بكفرك وافترائك على رسول الله ﷺ: ١٧٦٧

بكم؟: ٦٥٣

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم: ٢٣٨

بل عبد لنا بمجمع البحرين: ١٥٨٩

بل هو نعمان وماؤه طيب: ٩٠٢

بمحمد تفعل هذا؟: ٣٩١

بمحمد وأصحابه: ١٥ (ث)

بني الدين على النظافة: ٦٢

بهذا أمرت: ١٩٥

يَبْدَأُنِي من قرش: ١٢٥

بين حجرتي ومنبري: ١٥٠٥

بين قبري ومنبري: ١٥٠٦

بينما أنا أسير في الجنة: ٥٩٨

بينما أنا نائم: ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٩

بينما راع يرعى غنماً: ٧٩٤

بينما أنا قاعد ذات يوم: ٤٤٨

حرف التاء

تبني مدينة بين دجلة ودجيل: ١٠٣٩

تحلقوا عشرة عشرة: ٧٣٥

تدرك حاجتك: ١٧٠٨

تربت يمينك: ١٦٩٨

تسموا باسمي: ١٧٤٨

تسمون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم؟: ١٧٥٠

تشهد أن لا إله إلا الله وحده: ٧٣٦

تُطْلَقُ هذه الظية: ٨١٢

تعالني يا شجرة: ٧٤٦

تقدّم يا مصعب: ١١٠٩

تلك العزى: ١١١١

تلك الغرائق العلى: ١٥٦٩

تلك الملائكة لو دنا لاختطفته: ١٠٦٧

تناكحوا تناسلوا: ١٤٢

تنام عينايا ولا ينام قلبي: ١٥٢٠

حرف الثاء

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: ١١٩٥

ثم انطلق بي حتى أتيت سيّدة المتهى: ٤٣٩

ثم رجعت إلى خديجة وما تحوّلت عن

جانبها: ٤٦٥

ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى: ٤٣٨

حرف الجيم

جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر: ١٦٣٢

جاء الحق وزهق الباطل: ٧٨٩

جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد:

٧٩٠

جاءت الراجفة: ١٤١٤

جَلِيلُ المُشَاشِ: ٣٨١

الجنة تحت ظلال السيوف: ١٥٠٧

حرف الحاء

- حبب إليّ من دنياكم: ١٤٥، ٣٠٢
 حُبِّسَ رسول الله ﷺ عن عائشة سنة: ١٦٥٩، ١٦٦٠
 حجابہ النور: ٤٨٩
 خُلُو المنطق، قُضِل، لا نزر ولا هنر: ١٢٦
 حم تنزيل من الرحمن الرحيم: ٦٦٧
 حمي الوطيس: ١٢٠
 حَمِيْرُ رَأْسِ الْعَرَب: ١٠٨٤
 حوضي مسيرة شهر: ٥١٠
 حياتي خير لكم: ٦
 حيثما كنتم فصلوا عليّ: ١٤٣٩

حرف الخاء

- خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين: ٢٢١ (ث)
 خذ ما جئت به: ٧٢٩
 خُفِّفَ على داود القرآن: ٣٦٣
 الخلافة في قریش: ٩٨٧
 خير الأمور أوساطها: ١١٦
 خير الحجامة يوم سبع عشرة: ١٠٧٩
 خير ما تداويتم به السعوط: ١٠٧٨
 خيركم قرني: ١٠٠١
 خَيْرُ أَصْحَابِكَ فِي الْأَسَارَى: ١٦٣٢
 خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا: ٢٥٦
 خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة: ٥٦٠

حرف الدال

- الدعاء بين الصلاتين لا يرد: ١٣٦٦
 دعوني فإن الذي أنا فيه خير: ١٦٨٢، ١٦٩٣
 الدنيا دار من لا دار له: ٣١٦

حرف الذال

- ذاك إبراهيم: ٢٧٠، ٦١٤
 ذاك جبريل لو دنا لأخذه: ١٠٦٣
 ذو الوجهين لا يكون: ١١٣

حرف الراء

- رأى جبريل عليه السلام: ١٠٩٧
 الرؤيا ثلاث: ١٠٧٤
 رأيت ربي: ٤٨٣
 رأيت الماء يغور بين أصابعه: ٦٩٥
 رأيت الماء ينبع من بين أصابعه: ٦٨٦
 رأيت موسى فإذا هو ضَرْبٌ: ٣٥٠
 رأيت النبي ﷺ وأنا غلام: ٢٥٢ (ث)
 رأيت نوراً: ٤٨٨
 رأيتُه بفؤادي: ٤٨٢
 الراحمون يرحمهم الرحمن: ٦٢٩
 رجل ولد عشرة: ١٠٨٢
 رحم الله عبداً قال خيراً: ١٠٩
 رحم الله فلاناً لقد أذكرني: ١٦٠٦
 ردوه بِمَا لَهُ فَإِنَّ وَطْأَتَهُ: ٣٢٥
 رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم: ١٣٦٩، ١٤٢٢

حرف الزاي

- زَنْ وَأَزْجَحْ: ٢٧٦
 زواياه سواء: ١٠٨٦
 زُويت لي الأرض: ٦٦١، ٩٦٤

حرف السين

- سبحان الله كأنه على غضب: ١٧٤٤
 سبحان ذي الجبروت: ٣٤٠
 سبق الفرث والدم: ١٨١٠
 سَجِرَ رسول الله ﷺ: ١٦٥٥
 سَحَرَ يَهُودُ بني زريق رسول الله ﷺ: ١٦٥٨
 السعيد من وعظ بغيره: ١٢٣
 سَلَّ عَمَّا بَدَا لَكَ: ١٥٤٧
 سل عنك: ١٠١
 السلام عليك يا رسول الله: ٧٧٧، ٧٧٩
 سلوا زوجته عنه: ٩٨٦
 سَنَّةٌ سَنَةٌ: ١٠٩٤

سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد:
١٠٤٠

سيكون من أمتي: ١٨١٤

حرف الشين

شَرُّ قَبِيلٍ تحت أديم السماء: ١٨٠٤
شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله: ٥٦١

حرف الصاد

صاحب الشيء أحق بشيئه: ٢٧٦

صدق: ٧٩٤

صدقَ بارك الله فيك: ١٣٤

الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب: ١٤٢١
(ث)

صلاة في المسجد الحرام خير من مئة صلاة:
١٤٩٩ (ث)

صلاة في مسجدي هذا خير: ١٤٩٨

صلى الله على محمد وسلم: ١٤٨٦

صلى الله وملائكته على محمد: ١٤٨٥ (ث)

صلى رسول الله ﷺ حتى انْتَفَخَتْ قدماء:
٣٣٠

صلوا على أنبياء الله ورسله: ١٤٥٢

صلوا واجتهدوا في الدعاء: ١٣٩١

صليت ليلة أسري بي في مقدم المسجد:
٤٦٠

حرف الضاد

ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد:
١٠١٧

ضع القلم على أذنك: ١٠٩١

ضع يدك على الذي تألم من جسدك: ٩٤٢

ضعه وادع لي فلاناً: ٧٣٥

حرف الطاء

طوله - أي الحوض - ما بين عُمان إلى أَيْلَةَ: ٥١١

حرف الظاء

الظلم ظلمات يوم القيامة: ١١٨

حرف العين

عادوا حُمأً: ١٥٤٣

عبدى أحمد المختار: ٢٠

عجل هذا: ١٣٥٩

عد إلى غنمك تجدها بوفرها: ٧٩٥

عَدَّهْنٌ في يدي جبريل: ١٣٨٩

عرج بي جبريل: ٤٩٦

عرض عليّ أمتي فلم يَخْفَ عليّ التابع: ٤٠٠

عسى أن يقوم مقاماً يسرك يا عمر: ١٠٤٢

عطش الناس يوم الحديدية: ٦٩٣ (ث)

عفا الله لكم عن صدقة الخيل: ١٦٣٠

عَفَرَى حَلَقَى: ١٦٩٩

العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل: ١١٥٧

عليك بالرفق: ٢٤٢

عمران بيت المقدس خرابٌ يثرب: ١٠٤٨

عمل قليل في سُنَّةٍ خير: ١١٥٨

عملٌ قليل في سُنَّةٍ خير: ١١٦٦ (ث)

حرف الغين

غزا رسول الله ﷺ غزوة وذكر حنيناً: ٢٢٨

غسلت النبي ﷺ فذهبت أنظر: ٦٩

حرف الفاء

فَأَنَّتِي به: ٧٢٩

فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ سَمْعَهُ: ٥٥١ (قدسي)

فَإِذَا أَخْرَجْتَ مِنْهُ: ١٠٣٢

فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دَمَاءَهُمْ: ١٨٠٠

فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمَنْطِقَةُ: ١٠٠

فإنما عليك نبئٌ أو صديق: ٧٨٤

فارقتني جبريل وانقطعت الأصوات عني:

٤٩٥، ٤٩١

فَانْطَلِقْ قَتْرَضاً: ٨٤٣

فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ: ١٥٢٨

فَرَجَّ سَقْفُ بَيْتِي وأنا بمكة: ٤٣٥، ٤٦١

فَسُحْقاً فُسْحَقاً: ١١٨٥

فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ : ١٥٢
 فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ : ١١٥٠
 فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ : ١٨١٨
 فَقَالَ الْمَلَكُ : اللَّهُ أَكْبَرُ : ٤٩٣
 فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ : ١٦٧٠
 فَلْيُزَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي : ١١٨٥
 فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ : ١٥٦٥
 فَمَا زِلْتُ أَحَبَّ الدُّبَّاءِ مِنْ يَوْمُنَا : ١٢٣٨ (ث)
 فَمَنْ أَنَا ؟ : ٧٩٣
 فِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ : ١٠٨٠

حرف الكاف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِنِّي مَنَزَلٌ عَلَيْكَ : ٦٧٢
 قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَيَّةٍ : ٣٤٢
 قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا : ٩٣٩
 قَدْ أَوْذَى مُوسَى بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصِيرٍ : ١٧٧٨
 قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجِبْتُكُمْ : ٥٤٦
 قَدْ فَعَلْتُ : ٧٧١
 قَدْ وَلَدْتُهُ نَظِيفًا مَا بِهِ قَذَرٌ : ٧٥ (ث)
 قَدِمُوا قَرِيشًا وَلَا تَقْدِمُوها : ١٢٨٥
 الْقُرْآنُ صَعِبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ : ١١٥٤
 قُلْ لَتُنكَالَ الشَّجَرَةُ : ٧٣٧
 قُلْ لَهْنٌ يُغْتَرَفُنَّ : ٧٢٩
 قُمْ فَحَدِّثْهُمْ : ٧٩٤
 قُولُوا : اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ : ١٣٨٤
 ١٣٨٥
 قَوْمُوا عَنِّي : ١٦٨٥

حرف الكاف

كَأَحْسَنَ مَا أَنْتَ رَأِيٌّ مِنْ أَذْمِ الرِّجَالِ : ٣٥٣
 كَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا كَانَ عَلَى صَفَقٍ : ١٣٣
 كَانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ : ٥٥
 كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَعُونَ بَابَهُ
 بِالْأَخَافِيرِ : ١٢٦٦

كَانَ أَوْسَعُ النَّاسِ صَدْرًا : ٢١٦
 كَانَ خَدَمُ الْمَدِينَةِ يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : ٢٢٧
 كَانَ خَلَقُهُ الْقُرْآنَ : ١٥٨ ، ٥٥٢ ، ١٢٤٢
 كَانَ دَائِمَ الْبِشْرِ : ٢١٨ ، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا : ١٦٠ ، ١٦١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ
 احْتَبَى : ٢٩٢
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَعَا لِرَجُلٍ أَدْرَكَتْ
 دَعْوَتُهُ : ٨٦٠
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَضِبَ : ٢٠١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ يَرَى مِنْ
 خَلْفِهِ : ٧٩
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِذْرَاءِ : ٢٠٨
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ : ٢١٨ ، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخْمًا مَفْخَمًا : ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ بِقَرْفٍ أَحَدٍ : ٢٧٩
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا
 عَلَى ذِكْرٍ : ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ : ٣٤٤ ، ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤَلِّفُهُمْ : ٢١٨
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ : ٢٤١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْدُثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادِ
 أَحْصَاهُ : ٣٠١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إِلَّا : ١/٣٧٤
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُبُ الْحِمَارَ : ٢٦١
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبَسُهَا : ٨٩٨
 كَانَ سَكْرَتُهُ عَلَى أَرْبَعٍ : عَلَى الْحَلَمِ : ٣٠٠ ، ١/٣٧٤
 كَانَ ﷺ قَدْ وُلِدَ مَخْتُونًا : ٧٤

كان ﷺ بيت هو وأهله الليالي: ٣٢٢

كان ﷺ ينأى أحياناً على سرير مرمول: ٣٢٦

كان عمل رسول الله ﷺ ديمة: ٣٣٤

كان عندنا داجن فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت: ٧٩٢

كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً: ٣٢٥

كان في بيته في مهنة أهله: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣

كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل: ٢٩٩

كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته: ٢٢٥

كان محروماً: ١٦١٨

كان المسجد مسقوفاً على جذوع النخل: ٧٦٣ (ث)

كان موسى رجلاً خيئاً: ٣٥٩

كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير: ١٨٨

كان النبي ﷺ أحسن الناس: ٢٠٥

كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها: ١٥٨٨

كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل: ٢٩

كان النبي ﷺ أوقر الناس: ٢٩١

كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد: ١٩٧

كان النبي ﷺ يُخَرَسُ: ١٠٤٩

كان النبي ﷺ يرى في الظلمة: ٨٦

كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد: ١٣٥١، ١٣٥٢

كان - أي: رجل - يبغيض عثمان فأبغضه الله: ١٣١٦

كان يجيب مَنْ دعاه: ٢١٩

كان يدعى إلى خبز الشعير: ٢٦٢

كان يدور على نساءه في الساعة من الليل: ١٤٧

كان يشهد على المشركين مشاهدتهم: ١٥٤٤

كان يصوم حتى نقول لا يفطر: ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٧

كان يقبل الهدية: ٢٢٠

كانوا يكرهون أخذة كأخذة الأسياف: ١٧٣٨

كذبني قومي: ٢٣

كذلك كن: ٨٩٠

كفى بقوم حمقاً: ١١٩٠

كل يمينك: ٨٨٦

كل أمني يدخلون الجنة إلا: ١١٤٦

كل تقى: ١٤٥٦

كل الخلال يطبع عليها المؤمن: ١٦٧

كل دعاء محبوب دون السماء فإذا: ١٣٦٧

كل ذلك لم يكن: ١٥٨٠

كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون: ١٥٧١ (ث)

كل نبي أعطي سبعة نجيء: ٤١٠

كلكم أنى على ربه: ٤٤١م

كلما دنوت منها من صنم تمثّل لي شخص: ١٥٤٦

كلن وأطعنن من غشيكن: ٧٣٤

كلوا باسم الله: ٨٣٢

كمثل من بنى داراً: ١١٤٨

كنت أفعله أنا ورسول الله ﷺ: ١٥٩٦ (ث)

كنت أول الأنبياء في الخلق: ٣٢، ٦٣٧، ٦٣٩

كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً: ٣٣٩

كنا زهاء ثلاث مئة: ٦٨٧ (ث)

كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه: ٧٧٤

كيف بك إذا أخرجت من خير: ١٥٧٥

كيف بك إذا أخرجت منه: ١٠٣٢

كيف بك إذا ألست سوارى كسرى: ١٠٣٨

حرف اللام

لأحملنك على ابن الناقة: ١٦٧٢

لأشفعن يوم القيامة: ٥٩٠

لأصبح موثقاً يتلاعب به: ١٥٥٧

لا طوفن الليلة على مئة امرأة: ١٥٠، ١٦٤٠
 لئن قدر الله عليّ: ١٨١٧
 لا: ٨٢٢
 لا أسأل قد اكتفيت: ١٥٢٥
 لا استطعت: ٨٨٦
 لا أشبع الله بطنك: ١٦٩٩
 لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته: ١١٥٢، ١١٨٨
 لا أقول إن أحداً أفضل منه: ٦١٥
 لا بل مثل الشمس والقمر: ٥٨
 لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة: ١٦٦٦
 لا تؤذوني في أصحابي: ١٨٢٥
 لا تؤذيني في عائشة: ١٢٨٦، ١٨٢٦
 لا تبرح بارك الله فيك: ٨١٩
 لا تتخذوا بيتي عيداً: ١٤٤٢
 لا تتخذوهم غرضاً بعدي: ١٨٢١
 لا تجعلوا قبري عيداً: ١٤٩٢
 لا تجعلوني كقدح الراكب: ١٣٦٤
 لا تحزن إن الله معنا: ١٠٦٢
 لا تخبروني على موسى: ٢٦٨، ٦١٠
 لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين: ٩٦٦
 لا تسألني بهما: ١٥٤٧
 لا تسبوا أصحابي: ١٣٠٥، ١٨٢٢، ١٨٢٣
 لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: ١٤٩٥
 لا تطروني كما أطرت النصارى: ٢٥٩
 لا تفضلوا بين الأنبياء: ٢٦٧، ٦٠٩
 لا تفضلوني على يونس بن متى: ٢٦٦
 لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان: ١٠٤١
 لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل: ١٠٠٠
 لا تقوموا كما تقوم الأعاجم: ٢٥٧
 لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله: ١٢٢٥
 لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم: ١٠٩٢
 لا خير في صحبة من لا يرى لك: ١٠٥

لا سهم لهم في الإسلام: ١٨٠١
 لا صلاة لمن لم يصلّ عليّ: ١٣٥٦
 لا نبيّ بعدي: ١٧٩٣
 لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه: ١٠٠٢
 لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه: ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٧
 لا بيع حاضر لباد: ١٧٩٤
 لا يبلغني أحد منكم عن أحد: ٢٣٠
 لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه: ١٧٧، ١٧٨١
 لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه: ١٤٣١
 لا يحبك إلا مؤمن: ١٢٧٦
 لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها: ١٥١١
 لا يخلّق على كثرة الرد: ٦٦٩
 لا يزال أهل الغرب ظاهرين: ٩٦٥
 لا يسمّى أحد باسم النبي ﷺ: ١٧٥١ (ث)
 لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا: ١٥٠٨
 لا يفضض الله فاك: ٨٧٢
 لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد: ١٣١٥ (ث)
 لا يقولنّ أنا خير من يونس بن متى: ٦١٣
 لا يقولنّ أحدكم ما شاء الله وشاء فلان: ١٠
 لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين: ١٢١
 لا يلع الكلب في دم مسلم: ١٧٦١
 لا يتطحن فيها عتران: ١٧٧٣
 ليك: ٢٢٢
 ليك اللهم ربي وسعديك: ١٣٩٣ (ث)
 ليك وسعديك والخير في يدك: ٥٦٣
 لست أنسى ولكن أنسى: ١٥٨٣، ١٦٠٠، ١٦٥٢
 لست كهشتم: ١٦٥٤
 لعلك تخلف حتى يتنفع: ١٠٢٨
 لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً: ١٦٦٢
 لعله كان يتكلم بما لا يعنيه: ١١٢

لعله يصلي: ١٨٠٧

لعلي أَجَلَ اللَّهِ: ١٨١٨

لعن الله زَوَارَاتِ القبور: ١٤٦٧

لقد أَذْكَرَنِي كَذَا وكَذَا آية: ١٦٢٥

لقد أوتي مزمراً من مزامير: ١٤٥٨

لقد بقي من أجله ثلاث: ١٨١

لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر

جناحه: ٩٤١ (ث)

لقد خَشِيتُ على نفسي: ١٥٢٥

لقد رأيتني في الجحيم: ٤٦٣

لقد قَفَّ شعري مما قلت: ٤٧٢ (ث)

لقد كان الأنبياء قبلي يتلى أحدهم بالفقر: ٣٧١

لقد كنا نسمع تسبيح الطعام: ٧٧٣

لقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد:

٣١٤ (ث)

لقيت جبريل فقال لي إني أبشرك: ١٤٠٦

لكل نبي دعوة دعا بها: ٥٩٢

لكل نبي دعوة مستجابة: ٥٩٣

لكل نبي دعوة يدعو بها: ٥٩١

لكن رسول الله ﷺ لم يفر: ١٩٩

له ولكتابه ولرسوله: ١٢٤٨

لم أره بعيني: ٤٩٠

لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد:

١١٧١ (ث)

لم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله: ١٦٦

لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده: ٣٠ (ث)

لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل: ١٥٢٣ (ث)

لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ١٥٨٦

لم يكن بالمطهَّم: ٣٨٠

لم يكن سبأياً: ١٧٠٢

لم يكن فحاشاً: ١٧٠١

لم يكن النبي ﷺ فاحشاً: ٢١١

لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا:

٧٨٠

لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا

عرف أنه سلكه من طيه: ٦٦

لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط: ١٣٤،

٣٢٧

لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان جاء

جبريل: ٤٤٩

لما استقبلني جبريل بالرسالة: ٧٧٩

لما أسري بي إلى السماء: ٤٢٧

لما تجلّى الله لموسى: ٩٢

لما خلق الله آدم أهبطني: ٣٩٢

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة: ٦٥٠ (ث)

لما نشأت بُعِثْتُ إِلَيَّ الأوثان: ١٦٥

لن تُراعَ لن تُراعَ: ١٨٠

لن تُراعوا: ٢٠٥

لن تشككي وجع بطنك: ٧٣

لن تصيبه النار: ٧١

لن يؤمن أحدكم حتى أكون: ١١٩٦

لن يزال هذا الأمر في قريش: ٩٨٨

لو استقبلت من أمري: ١٧١٣

لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد: ٧٣٧

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً: ٣٢٨،

١٦٤٧

لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه: ١٢٩٠ (ث)

لو شاء الله لأيقظنا: ١٦١٧

لو قاتم له يغسل هذا: ٢١٠

لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً: ١٦٧٩، ١٦٨٠

(ث)

لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي: ٥٤٣، ٥٥٠

لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك: ١٤٩٧

(ث)

لو كنا مئة ألف لكفانا: ٦٩٣ (ث)

لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك:

٢٣١

لو لم تكلمه لأكنتم منه: ٧٠٩

لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر:
١٦٣٣

لي خمسة أسماء: ٦١٧

لي عشرة أسماء: ٦٢١، ٦٢٢

لي في القرآن سبعة أسماء: ٦٢٤

ليس بالأبيض الأنهي: ٣٧٦

ليس بالطويل الممقط: ٣٧٥

ليس بفيض ولا غليظ: ٦٤٦

ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت: ٨١٠

حرف الميم

ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي:
٤٥٨

ما أنك ولا أمال: ١٥٢٤

ما أعددت لها: ١١٩٨

ما أعظمك وأعظم حرمتك: ١٥١٥

ما أكل رسول الله ﷺ على خوان: ٣٢٣

ما انتقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه:
٢٢٤

ما انتقم لنفسه: ١٦٨٦

ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟:
١١٥٣

ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا: ٢٠٩

ما بالك: ١٢٠٦

ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبياً إلا: ٣٥٤

ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه: ٣٥٧

ما بين بيتي ومنبري روضة: ١٥٠٢

ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني
رسول الله: ٨٠٦

ما بين المشرق والمغرب قبلة: ١٠٨٩

ما بين منبري وقبري روضة: ١٤٨٢

ما ترك إلا سلاحه وبقلة: ٣١٣

ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً: ٣١٢

ما تصنعون؟: ١٦٦٢

ما تقولون أني فاعل لكم؟: ١٨٢

ما جلس قوم مجلساً ثم تفرقوا: ١٤٣٠

ما حاجتك؟: ٨١٢

ما حاجني رسول الله ﷺ منذ أسلمت: ٢٢٣

ما حملك على ما صنعت؟: ٨٢١

ما خيّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار

أيسرهما: ١٧٠، ٢٨٧، ٢٤٠

ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم: ١٥١٨

ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ: ٩٤

ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ:

٢٢٦

ما رأيت أشجع من رسول الله ﷺ: ٢٠٢

ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة:

١٧٩

ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ: ٥٨

ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط: ٧٦، ٢١٥

ما رأيت من ذي لمة في حلقة حمراء أحسن

من رسول الله ﷺ: ٥٦

ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على

رسول الله ﷺ: ١٧٢٦

ما زاد داود علسي أن قال للسرجل:

(١٦٣٧، ١٦٣٦ (ث)

ما زالت أكلة خيبر تعادني: ٨٢٩

ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر: ٨٦٨ (ث)

ما سئل النبي ﷺ عن شيء فقال لا: ١٨٥،

١٨٦، ١٨٧

ما شئت وإن زدت فهو خير: ١٤١٤

ما شبع آل رسول الله ﷺ من خبز بر: ٣١١

ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً:

٣٠٩

ما شممتُ عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب

من ريح رسول الله ﷺ: ٦٣

ما ضرَّ أحدكم أن يكون في بيتي محمد:

١٧٦٠، ٤٢٩

ما عندي شيء ولكن ابتغ علي: ١٩٥

ما غرث على امرأة ما غرت على
خديجة: ٢٤٥ (ث)

ما فرستم لي الليلة؟: ٣٢٥

ما فقدت جسد رسول الله ﷺ: ٤٥٠ (ث)

ما فقد جسده: ٤٧١ (ث)

ما قُصِرَتْ وما نُسِتْ: ١٥٨١

ما كانَ أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ:

١٢١١ (ث)

ما كانَ أحدٌ أحسنَ خلقاً من رسول الله ﷺ:

٢٢٢

ما كانَ لله لِيَسْلُطَكَ على ذلك: ٨٢٢

ما كانَ لَنبي أن تكونَ له خاتنة الأعين: ١٦٧٥

ما كنتَ تحدثُ به نفسك: ١٠٦٩

ما لقي رسول الله ﷺ كُتِيبَةً إلا كانَ أولَ من

يُضْرَبُ: ٢٠٦

ما لَمَسَتْ يَدُهُ يدَ امرأةٍ قط: ٢٨٤

ما لَه؟ تربتُ جِيبَه: ١٧٠٢

ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءَ شراً من بطنٍ: ١٣٢،

١٠٨١

ما منَ أحدٍ إلا أَلَمَ بذنب: ١٦٤٣

ما منَ أحدٍ يدعو الله تعالى عندَ الركن: ١٥١٦

ما منَ أحدٍ يَسْلُمُ عليَّ إلا: ١٤٣٣

ما منَ الأنبياء إلا أعطِي من الآيات: ١١٣٨

ما منَ مسلمٍ يصيبُه أذى: ١٧٣٥

ما منَ مصيبةٍ تصيبُ المسلم: ١٧٣٣

ما منَ نبيٍّ إلا وقد رعى الغنم: ١٧٩٥

ما منَ نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أعطِي: ٤٠٩

ما منكم من أحدٍ إلا وُكِّلَ به قرينه من الجن:

١٥٥٣

ما هلك امرؤُ عرفَ قدره: ١٠٧

ما هممتُ بشيءٍ مما كانَ في أهل الجاهلية:

٢٩٠

ما يزالُ البلاءُ بالمؤمن: ١٧٢١

ما يسرَّنِي أن لي أحدًا ذعباً: ١٥٥

ما يصيبُ المؤمنَ من نَصَبٍ: ١٧٣٤

ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس:

٦٠٨، ٦٠٧

ماتَ حَتَفَ أنفه: ١٢١

المال مالُ الله: ١٧٨

المتمسكُ بستي عند فساد أمتي: ١١٦٠

مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام: ١٣٠٣

مثل الكافر كمثل الأرزّة: ١٧٣٧

مثل المؤمن مثل خامة الزرع: ١٧٣٦

مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل:

١١٤٧

مثلي ومثل هذا مثل رجل: ٢٢٩

المحروم من حرم وصيته: ١٧٤٤

المرء مع مَنْ أحبَّ: ١٠٤، ١١٩٩

الجرء في القرآن كفر: ١٨١٩

مرحباً بالنبي الصالح: ٤٣٧

مرحباً بك من بيت: ١٥١٥

مرض رسول الله ﷺ فحبس عن النساء:

١٦٦١

مستريحٌ ومستراحٌ منه: ١٧٤٦

المستشار مؤتمن: ١٠٨

مسجدي هذا: ١٤٩٣

المسلمون تكافأ دماؤهم: ١٠٢

المعدة حوض البدن: ١٠٧٧

معرفة آل محمد ﷺ براءة من النار: ١٢٧٢

المعرفة رأس مالي: ٣٤٧

مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة يسمع

الصوت: ١٥٢٧

من أحب العرب فبحبي أحبهم: ١٢٣٧

من أحب عمر فقد أحبني: ١٣٠٩

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه: ١٧٤٧

من أحبني كان معي في الجنة: ١٢٠٧

من أحبني وأحبَّ هذين وأباهما: ١٢٠٤،

١٢٨٣

من أحبهما فقد أحبني: ١٢٣٢

من أحدث فيها حدثاً: ١٣٣٢

من أحيا سنة من سني قد أُمِيتَتْ: ١١٦٣

من أحيا سني فقد أحياي: ١١٦٢

من أدخل في أمرنا ما ليس فيه فهو رد: ١١٨٧
مَنْ استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها:

١٥١٤

مِنْ أَشدَّ أمتي لي حياً يكونون بعدي: ١٢٠٨

من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب: ١٧٠٣

من أطاعني دخل الجنة: ١١٤٦

من أطاعني فقد أطاع الله: ١١٤٤

من اقتدى بي فهو مني: ١١٥٥

من أنا؟: ٨٣٣، ٨٣٤

من أهان قريشاً أهانه الله: ١٢٨٤

مَنْ بذل دينه فاقتلوه: ١٧٩٨

من بقي من قرابتها؟: ٢٥٤

من تعبد؟: ٧٩٣

من تقرب مني شبراً: ٤٩٨ (قدسي)

من جحد آية من كتاب الله: ١٨٢٠

من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي عليّ: ١٤٢٩

مَنْ حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب: ٤٧٢ (ث)

من حفظني في أصحابي كنتُ له حافظاً: ١٣١٩

من حفظني في أصحابي ورَدَ عليّ الحوض: ١٣٢٠

من حلف على منبري كاذباً: ١٣٣٤

من خالف الجماعة قُتِلَ شبر: ١٨١٥

من ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليّ: ١٤٢٥

من رآه بديهة هابه: ٦١، ١٢٤٦

من رغب عن سني فليس مني: ١١٨٦

من زار قبري وجبت له شفاعتي: ١٤٦٣،

١٤٦٩

من زارني بعد موتي فكانما: ١٤٦٥

من زارني في المدينة محتسباً: ١٤٦٤

من سئل عن علم فكنمه: ١

من سبَّ أصحابي فاجلدوه: ١٨٣٠

من سبَّ أصحابي فاضربوه: ١٧٦٢، ١٨٢٤

من سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله: ١٣٠٦

من سبَّ نبياً فاقتلوه: ١٧٦٢

من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى: ١٣٩٠

من سلَّم عليَّ عشرأ: ١٤١٨

من شاء فليخذلني: ١٠٥٥

من صلى خلف المقام ركعتين: ١٥١٧

من صلى صلاة لم يصل فيها عليّ: ١٣٥٧

من صلى عليَّ صلاة: ١٤٠٣، ١٤١٣

من صلى عليَّ عند قبري سمعته: ١٤٣٤

من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة:

١٤١٢، ١٣٨٠

مَنْ غَيَّرَ دينه فاضربوا عنقه: ١٧٧٦

مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ طَاعَتَكَ

طَاعَتَهُ: ١٣ (ث)

مَنْ قَالَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ: ١٤١٠

مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرُ مَنْ يونس فقد كذب: ٦١٢

من قال حين يسمع المؤذن وأنا أشهد: ١٤١٧

من قال حين يسمع النداء اللهم ربِّ: ١٤١٦

مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّج: ١٤٤

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل

الحقائم: ١١٨٤

من كفر بأية من القرآن فقد كفر به كله:

١٨٢٠م (ث)

من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه: ٦٤٤، ١٢٧٥

مَنْ لَكَّعَ بِنِ الْأَشْرَفِ؟: ١٧٦٣

مَنْ لِي بِهَا؟: ١٧٧٣

من مات في أحد الحرمين حاجاً: ١٥١٢

من نبي إلى نبي: ٥ (ث)

من نسي الصلاة عليَّ نسي طريق الجنة:

١٤٢٨

من يُرد الله به خيراً يصب منه: ١٧٣٢

من يكفيني عدوي؟: ١٧٦٦ ، ١٧٦٨ ، ١٧٦٩

من يمنعك مني؟: ١٧٤

منبري على ترعة: ١٥٠٤

متهوس العقب: ٣٨٤ (ث)

موت الفجاءة، راحة للمؤمن: ١٧٤٥

حرف النون

الناس كأسنان المشط: ١٠٣

الناس معادن: ١٠٦

نام حتى سُمِعَ له غطيط: ٧٨

نحن الآخرون السابقون: ٦٤٠

نحن أحق بالشك من إبراهيم: ٢٦٨ ، ١٥٢٢

نسباً وصهرأً وحسباً: ٤

نصرث بالرعب: ٤٠٢

نصفه قضاء ونصفه نائل: ١٩٨

نعم: ٧٤٧ ، ١٥٦٨

نعم أنا دعوة أبي إبراهيم: ٤١٤

نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً:

١٥٦٨

نعم كل صواب: ١٥٧٢

نعم موضع الحقام هذا: ١٠٨٨

نعم وأرد عليهم: ١٤٤٤

نغمة الجن، من أنت؟: ١١١٠

نُهني عن زيارة القبور فزوروها: ١٤٦٨

نور أنى أراه؟: ٤٨٧ ، ٤٨٨

نوراني أراه: ٤٨٧

حرف الهاء

هاجث لموت منافق: ١٠١٦

هذا أطيب وأطهر: ١٤٨ ، ١٤٩

هذا تفعله الأعاجم بملوكها: ٢٧٦

هذا عمي وصنو أبي: ١٢٧٨

هذا ممن قضى نحبه: ١٢٦٤

هذه الشجرة تعالي يا شجرة: ٧٤٦

هذه الشجرة السمرة: ٧٣٦

هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا: ١٢٨٩ (ث)

هكذا نفعل بالعلماء: ١٢٨٩ (ث)

هل؟ يعني مكاناً لحاجة رسول الله ﷺ:

٧٣٩

هل أصابك من هذه الرحمة؟: ٨

هل ترى من نخل أو حجارة؟: ٧٣٩

هل تعلم أحداً أعلم منك؟: ١٥٩٠

هل في آياته من ملك؟: ١٧٩٦ (ث)

هل كنتم تتهمونه بالكذب؟: ٢٨٢ (ث)

هل لك إلى خير؟: ٧٣٦

هل معكم شيء يتبعونه؟: ٦٥٣

هل من شيء؟: ٧٢٩

هل من وضوء؟: ٧٠٦

هلاك أمتي على يد أغيلمة من قریش: ١٠٠٣

هلا خبرتها أني أقبل وأنا صائم؟: ١٥٩٥

هلا شققت عن قلبه: ١١٤٢

هلك رسول الله ﷺ ولم يشيع هو: ٣١٨

٣٢١

هلك المتنطعون: ١١٩١

هلموا أكتب كتاباً لن تضلوا بعده: ١٦٨١

هم من شر البرية: ١٨٠٣

هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه: ٥٥٨

هو نهر في الجنة: ٦٠٥

هون عليك: ١٥٤ ، ٢٧٥

هي رؤيا عين وأما النبي ﷺ: ٤٥٦ (ث)

هي بيت محمد وأحمد: ٦٢٥

هي الشفاعة: ٥٥٤

حرف الواو

وآدم بين الروح والجسد: ٣٨٦

وأكسى حلة من حلل الجنة: ٥٠١

والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل:

١٢٧٧

والذي نفسي بيده لا يقولها رجل: ٦٦٢

والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله : ١٦٤٠
والذي نفسي بيده لو لم ألترمه لم يزل : ٧٦٨
والله إني لأمين في السماء : ٢٧٩
والله لا أحلف على يمين فارى : ١٥٧٧
والله ما هو بكاهن : ٦٥٨ (ث)
والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا : ٦٥٧
(ث)

وإنَّ الحسنة بعشر أمثالها : ١٠٨٧
وأنا أشبه ولد إبراهيم به : ٣٥٢
وانتم اليوم خير منكم يومئذ : ٩٥٥
وإني ، ولكن الله تعالى أعانني : ١٥٥٣ ،
١٥٥٤

وتفعلين ؟ : ٨١٢
وجدنا فرسك بحراً : ٨٩٣
والجراءة والجبن غرائز : ١٦٨
وجعلت قرة عيني في الصلاة : ١٤٦
وجعلتك فاتحاً وخاتماً : ٦٣٦ (قدسي)
ورس ورس ! خطَّ خطَّ : ١٧٠٩
والسلام كما قد علمتم : ١٣٨٨
الوسيلة أعلى درجة في الجنة : ٥٩٧
وصلاة في المسجد الحرام أفضل من : ١٥٠٠
وكذلك الأنبياء تنام أعينهم : ٣٦١
وكل ضلالة في النار : ١١٥١
ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس : ٦١١
ولا خطر على قلب بشر : ١٥٥٠
ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر : ٥٤٩
وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلساني : ١٢٤
وما يمنعني وقد خرج جبريل أنفاً : ١٤١٥
والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون : ١٥٠٩
ويتماهى في الفوق : ١٨١١
ويحك فمن يعدل إن لم أعدل : ١٧٣ ، ٢٨٦
ويحك يا أبا سفيان : ١٨٤
ويذكر كذباته : ١٥٨٧
ويقادُ منك يا أعرابي : ١٧٨

ويكثر الهرج : ١٠٩٥

ويل لك من الناس : ٧٢

ويل للعرب من شر قد اقترب : ٩٦٣

ويل للناس منك : ٩٨٣

حرف الياء

يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمداً : ١١٦٤
(ث)

يا إخوة القردة والخنازير : ١٧٨٥

يا أعرابي ! أين تريد ؟ : ٧٣٦

يا أيها الناس انصرفوا عني : ١٠٤٩

يا بني ! إن قدرت أن تصبح وتمسي : ١٢٢٤

يا بني ! وذلك من ستي : ١٢٢٤

يا جابر ! قل لهذه الشجرة : ٧٣٨

يا جابر ! نادِ الوضوء : ٦٩٥

يا جبريل ! إن الدنيا دار من لا دار له : ٣١٦

يا رب ! علمت أن لا مخافة عليّ : ٧٥٠

يا رسول الله ! لانت أحب إليّ من
أهلي : ١٢٠٥ (ث)

يا ضُبُّ : ٧٩٣

يا عائشة ! أو ما علمت أن الأرض تبتلع : ٦٨

يا عائشة ! مالي وللدنيا : ٣٢٧

يا عباد الله : الخشية تحنُّ : ٧٧٢ (ث)

يا فتى ! لقد شققت عليّ : ٢٤٣

يا فلانة أجيبي بإذن الله : ٨٣٥

يا محمداً ! إن الله يأمرك أن تصل من قطعك :
١٦٩

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل : ١٥٢٨

يا مسكينة عليك السكينة : ١٥٣

يا معشر أهل الإيمان : ٤٣١

يتلأأ وجهه تلالو القمر : ٦٠

يجمع الله الأولين والآخرين : ٥٠٦ ، ٥٧١

يجمع الله الناس في صعيد واحد : ٥٦٣

يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي :

٥٥٥

يُخرج في هذه الأمة: ١٨١٢
يخرج من أمتي: ١٨١٣
يخرج من النار من كان في قلبه: ١١٤٣
يُخَطُّوْا تَكْفُورًا: ٢٩٦
يسبقه عضو منه إلى الجنة: ١٠٣٦
يسروا ولا تعسروا: ١٧٨٠
يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف: ٩٧٦
يقتلون أهل الإسلام: ١٨٠٦
يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم: ١٨٠٨

يكون في ثقيف كذاب ومبير: ٩٨٩
يمجد الجبار نفسه: ٧٨٨
يمرقون من الدين: ١٨٠٩
ينزل ربنا إلى السماء الدنيا: ٤٩٧
يوشك أن يكثر فيكم العجم: ٩٩٩
يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة: ٦٩٩
يوضع للأنبياء منابر يجلسون عليها: ٥٨٨
يوم الأربعاء: ٦٨٥

فهرس الأشعار

رقم الصفحة

الباء

- ٢٧٦ ولما رأينا رسم من لم يدع لنا
٢٧٦ نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة



- ٤٢٢ فإن بك باقي سحر فرعون فيكم

التاء

- ٢٧٦ يا دار خير المرسلين ومن به
٢٧٦ عندي لأجلك لوعة وصبابة
٢٧٦ وعلي عهد إن ملأت محاجري



- ٢٧٧ لأعفرن مصون شيبني بينها
٢٧٧ لولا العوادي والأعادي زرتها
٢٧٧ لكن سأمدي من حفيل تحيتي
٢٧٧ أزكى من المسك المفتق نفحة
٢٧٧ وتخضه بزواكي الصلوات

الدال

- ١٤٦ وشق له من اسمه ليحله



- ٤٢١ كأن أبا بكر أبو بكر الرضا
٤٢١ لو لا انقطاع الوحي بعد محمد
٤٢١ لم يأت به برسالة جبريل

أنا في أمة تداركها الله ٤٢١ غريب كصالح في ثمود

الراء

لو لم تكن فيه آيات مبينة ١٥٤ لكان منظره يُنبئك بالخبر

عيسى محمد صلاة الأبرار ٢٥١ صلى عليه الطيبون الأخيار

قد كنت قواماً بكأ بالأسحار ٢٥١ يا ليت شعري والمنايا أطواز

هل تجمعتني وحببيبي الدار



كنت موسى وافئة بنت شعيب ٤٢١ غيز أن ليس فيكما من فقير



كيف لا يدنيك من أمل ٤٢٢ من رسول الله من نفره

العين

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ٢٤٢ هذا لعمرى في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ٢٤٢ إن المحب لمن يحب مطيع

القاف

من قبلها طبت في الظلال وفي ١٠٠ مستودع حيث يخفض الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر أن ١٠١ ت ولا مضغة ولا علق

بل نطفة تركب السفين وقد أل ١٠١ جثم نسرأ وأهل الغرق

تنقل من صالب إلى رحم ١٠١ إذا مضى عالم بدا طبق

حتى احتوى بيتك المهيم من ١٥٠/١٠١ خثيف عليها تحتها الثطق

وأنت لما ولدت أشرق الـ ١٠١ أرض وضامت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي الثور ١٠١ وسبل الرشاد نخترق

الكاف

رب العباد ما لنا وما لكا ٤٦٢ قد كنت تسقينا فما بدا لكا

أنزل علينا الغيث لا أبا لكا

اللام

قد تخللت ملك الروح مني ١٣٠ وبذا سمي الخليل خليلا

فإذا ما نطق كنت حديثي ١٣٠ وإذا ما سكنت كنت الغليلا



تلك المكارم لا قعبان من لبن ٣٢١ شيبا بماء فعادا بعد أبو الـ

لولا انقطاع الوحي بعد محمد
هو مثله في الفضل إلا أنه

قلنا محمد من أبيه بديل
لم يأت به برسالة جبريل

الميم

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر
وإذا المطي بنا بلغن محمداً
قرئنا من خير من وطىء الثرى
ولها علينا حرمة وذمام

قمر تقطع دونه الأوهام
فظهر من على الرجال حرام
٢٧٦
٢٧٦
٢٧٦

النون

تنازع الأحمدان الشبهة فاشتبهها
خلقاً وخلقاً كما قد الشراكان

٤٢٢

■ ■ ■

وإذا ما رفعت راياته
صفت بين جناحي جبرين

٤٢١

■ ■ ■

فر من الخلد واستجار بنا
فصبر الله قلب رضوان

٤٢١

فهرس الموضوعات

الموضوع

الصفحة

٥	ترجمة المؤلف
٧	مقدمة المصنف
١١	القسم الأول في تفضيل العلي الأعلى بقدر هذا النبي المصطفى قولاً وفعلًا
١٣	الباب الأول في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه
١٣	الفصل الأول فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن ...
	الفصل الثاني في وصفه له تعالى بالشهادة وما يتعلّق بها من الثناء
١٩	والكرامة
٢١	الفصل الثالث فيما ورد في خطابه إياه مورد الملاطفة والنبوة
٢٣	الفصل الرابع في قسمه تعالى بعظيم قدره
٢٦	الفصل الخامس في قسمه تعالى جده - له، ليحقق مكانته عنده
	الفصل السادس في ما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام مورد
٣٠	الشفقة والإكرام
	الفصل السابع في ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره
٣١	وشريف منزلته على الأنبياء وخطة رتبته
	الفصل الثامن في إغلام الله تعالى خلقه بصلابه عليه وولايته له ورفع
٣٣	العذاب بسببه
٣٥	الفصل التاسع في ما تضمنته سورة الفتح من كراماته ﷺ

الفصل العاشر في ما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه
ومكائنه عنده وما خصه الله به من ذلك سوى ما انتظم فيما ذكرناه
قَبْلُ

الباب الثاني في تكميل الله تعالى له المعايين خلقاً وخلقاً، وقرائه جميع
الفضائل الدينية والنبوية فيه نَسَقاً

فصل في اجتماع خصال الجلال والكمال في نبيتنا محمد ﷺ

فصل في صفاته الخلقية ﷺ

فصل في نظافته ﷺ وطيب رنجه وعرقه ودمه

فصل في وفور عقله، ودكائه لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال

حركاته ﷺ

فصل في فصاحة لسانه، وبلاغة قوله ﷺ

فصل في شرف نسبه ﷺ وكرم بلده ومنشئه

فصل فيما كان التمدح والكمال بقلته

فصل فيما التمدح بكثرته

فصل فيما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسبه

فصل في حسن خلقه ﷺ

فصل في نباهة عقله ﷺ

فصل في حلمه واختماله وعفوه وصبره ﷺ

فصل في جوده وكرمه وسخائه وسماحته ﷺ

فصل في شجاعته وتجدته ﷺ

فصل في حيائه وإغضائه ﷺ

فصل في حسن عشرته وأدبه وتسط خلقه ﷺ مع أضاف الخلي

فصل في شفقته ورحمته ﷺ ورأفته لجميع الخلي

فصل في خلقه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصلوة الرجم

فصل في تواضعه ﷺ

فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصديقه لهجه

- ٨١ فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤذيه ومروءته وحسن هديه
- ٨٢ فصل في زهده ﷺ في الدنيا
- ٨٤ فصل في خوفه ﷺ من ربه، وطاعته له، وشدة عبادته
- فصل في صفات الأنبياء والرسل من كمال الخلق وحسن الخلق
- ٨٦ وشرف النسب
- ٩١ فصل في حديث هند بن أبي هالة وعلي بن أبي طالب في شمائله ﷺ ..
- ٩٥ فصل في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله
- الباب الثالث فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بغيرها عند ربه
- ٩٩ ومثله، وما خصه به في الدارين من كرامته عليه السلام
- الفصل الأول فيما ورد بذكر مكانته عند ربه، والاضطفاء، ورفع الذكر
- والتفضيل وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة
- ٩٩ اسمه الطيب
- فصل في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة
- الأنبياء والعروج به إلى سيرة المثنى وما رأى من آيات ربه الكبرى ..
- ١٠٦ فصل في حقيقة الإسراء، هل كان بالروح أم بالروح والجسد
- ١١٢ فصل في إنطال حُجج من قال: إنها نوم
- ١١٥ فصل في رؤيته ﷺ لربه عز وجل واختلاف السلف فيها
- ١١٧ فصل في ما ورد في قصة الإسراء من مناجاته ﷺ لله تعالى وكلامه
- ١٢٢ معه
- ١٢٣ فصل في ما ورد من الدنو والقرب ليلة الإسراء
- ١٢٥ فصل في ذكر تفضيله يوم القيامة بخصوص الكرامة
- ١٢٧ فصل في تفضيله بالمحبة والحلة
- ١٣١ فصل في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود
- ١٣٧ فصل في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكثرة والفضيلة ...
- ١٣٨ فصل في معنى الأحاديث الواردة بنهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء
- ١٤٠ فصل في أسمائه عليه السلام وما تضمنته من تفضيله

فصل في تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَوَصَفَهُ بِهِ

١٤٥ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَا

فصل في أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُشْبِهُ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَصِفَاتِهِ تَعَالَى

١٥١ لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ

الباب الرابع فيما أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَشَرَّفَهُ بِهِ مِنْ

١٥٣ الْخَصَائِصِ وَالْكَرَامَاتِ

فصل في النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ وَالْوَحْيِ

١٥٥ فصل في مُعْجَزَاتِهِ ﷺ وَمَعْنَى الْمُعْجَزَةِ

١٥٧ فصل في إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

١٥٩ فصل

١٦٣ فصل

١٦٥ فصل

١٦٧ فصل في آيَاتٍ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا،

١٦٨ فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ

فصل في الرُّوْعَةِ الَّتِي تَلْحَقُ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْبَةِ الَّتِي

١٦٩ تَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ

فصل في كَوْنِ الْقُرْآنِ آيَةً بَاقِيَةً لَا تَعْدَمُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا مَعَ تَكْفُلِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ

١٧١ فصل في وَجْهِ أُخْرَى فِي إِعْجَازِهِ مِنْهَا لَا يَمْلَأُهُ قَارِئُهُ

١٧٢ فصل في انْتِشَاقِ الْقَمَرِ وَحَسَنِ الشَّمْسِ

١٧٥ فصل في تَنَجُّعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَتَكْثِيرِهِ بِبَرَكَتِهِ

١٧٧ فصل في تَقْجِيرِ الْمَاءِ بِبَرَكَتِهِ ﷺ، وَانْبِعَاجِهِ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ

١٧٩ فصل وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِبَرَكَتِهِ وَدُعَائِهِ

١٨١ فصل في كَلَامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَإِجَابَتِهَا دَعْوَتَهُ

١٨٥ فصل في قِصَّةِ حَنِينِ الْجَذَعِ

١٨٨ فصل في مُعْجَزَاتٍ أُخْرَى لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي سَائِرِ الْجَمَادَاتِ كَتَسْنِيحِ الطَّعَامِ

١٨٩ وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ

- ١٩٢ فصل في الآيات في ضروب الحيوانات
- فصل في إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له
- ١٩٦ بالشبهة
- ١٩٩ فصل في إنباء المرضى ودوي الغابات
- ٢٠١ فصل في إجابة دعائه
- ٢٠٤ فصل في كراماته وبركاته وإقلاب الأغنياء له فيما لمسه أو باشره
- ٢٠٨ فصل في ما أطلع عليه من الغيوب
- ٢١٥ فصل في عصمة الله تعالى له من الناس وكفائته من آذائه
- ٢٢٠ فصل في معجزاته
- ٢٢٤ فصل في أخباره مع الملائكة والجن ورؤية كثير من أصحابه لهم
- ٢٢٦ فصل في إخبار الرهبان والأخبار وعلماء أهل الكتاب عن صفته وصفة أمته
- ٢٢٧ فصل في الآيات التي ظهرت عند مولده
- ٢٢٩ فصل في أن معجزات نبيتنا محمد أظهر من سائر معجزات الرسل
- ٢٣٥ القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام
- ٢٣٧ الباب الأول في فرض الإيمان به وجوب طاعته واتباع سنته
- ٢٣٩ فصل في وجوب طاعته
- ٢٤١ فصل في وجوب اتباعه وامتناله سنته والافتداء بهديه
- فصل في ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والافتداء بهديه
- ٢٤٤ وسيرته
- ٢٤٦ فصل في أن مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة
- ٢٤٨ الباب الثاني في لزوم محبته عليه السلام
- ٢٤٩ فصل في ثواب محبته
- ٢٥٠ فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي وشوقهم له
- ٢٥٢ فصل في علامة محبته عليه السلام
- ٢٥٥ فصل في معنى المحبة للنبي وحقيقتها
- ٢٥٧ فصل في وجوب مناصحته عليه السلام

٢٦٠	الباب الثالث في تَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَوُجُوبِ تَوْقِيرِهِ وَبِرِّهِ
٢٦٢	فصل في عَادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعْظِيمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِجْلَالِهِ وَتَوْقِيرِهِ
٢٦٤	فصل فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَعِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ
٢٦٦	فصل فِي سِيَرَةِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ
٢٦٨	فصل وَمِنْ تَوْقِيرِهِ ﷺ وَبِرِّهِ، بِرُّ آلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: أَزْوَاجِهِ، كَمَا حَضَّ عَلَيْهِ ﷺ، وَسَلَكَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
٢٧١	فصل
٢٧٥	فصل وَمِنْ إِعْظَامِهِ وَإِكْبَارِهِ إِعْظَامُ جَمِيعِ أَسْبَابِهِ، وَإِكْرَامُ مَشَاهِدِهِ وَأَمْكَنَتِهِ مِنْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَاهِدِهِ، وَمَا لَمَسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ عُرفَ بِهِ
٢٧٨	الباب الرابع فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ وَقَرَضِ ذَلِكَ وَفَضِيلَتِهِ
٢٧٩	فصل فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ
٢٨١	فصل فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَبِرْغَبٌ
٢٨٥	فصل فِي كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ
٢٨٩	فصل فِي فَضِيلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ
٢٩١	فصل فِي ذَمِّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِثْمِهِ
٢٩٢	فصل فِي تَخْصِيصِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِتَبْلِيغِ صَلَاةٍ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنْ الْأَنَامِ
٢٩٤	فصل فِي الْاِخْتِلَافِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
٢٩٦	فصل فِي حُكْمِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَضِيلَةِ مَنْ زَارَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُسَلَّمُ وَيَدْعُو لَهُ
٣٠١	فصل فِيمَا يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَدَبِ سِوَى مَا قَدْ مَنَّا، وَفَضْلِهِ، وَفَضْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ، وَفِي مَسْجِدِ مَكَّةَ، وَذِكْرِ قَبْرِهِ وَمَنْبَرِهِ، وَفَضْلِ سُكْنَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ

القسم الثالث فِيمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ أَوْ يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَفْتَنُغُ أَوْ يَصِحُّ مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ	٣٠٧
الباب الأول فِيمَا يَخْتَصُّ بِالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْكَلَامِ فِي عِصْمَةِ نَبِينَا وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ	٣٠٩
فصل فِي حُكْمِ عَقْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ بُتُوهِ	٣٠٩
فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الثَّبُوتِ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ	٣١٩
فصل فِي أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ الْعِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِبَعْضِ أُمُورِ الدُّنْيَا	٣٢٤
فصل فِي إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكِفَايَتِهِ مِنْهُ	٣٢٦
فصل فِي صِدْقِ أَقْوَالِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ	٣٣٠
فصل فِي رَدِّ الْمُؤَلَّفِ لِبَعْضِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَطَاعِنِ، كَرَدِّهِ لِقِصَّةِ الْغُرَانِيْقِ وَبَعْضِ الشُّبُهَةِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا الزَّائِغُونَ	٣٣١
فصل فِي حَالِهِ ﷺ فِي أَخْبَارِ الدُّنْيَا	٣٣٩
فصل فِي رَدِّ بَعْضِ الْاِغْتِرَاضَاتِ وَالشُّبُهَةِ، كَسَهْوِهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، وَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ إِنِّي سَقِيمٌ	٣٤١
فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ	٣٤٦
فصل فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَ الثَّبُوتِ	٣٤٩
فصل فِي حُكْمِ السَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ فِي الْوُظَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ	٣٥٠
فصل فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورِ فِيهَا السَّهْوُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ	٣٥٢
فصل فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَجَارَ عَلَيْهِمُ الصَّغَائِرَ وَالْكَلَامَ عَلَى مَا احْتَجُّوا بِهِ فِي ذَلِكَ	٣٥٥
فصل فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ	٣٦٨
فصل فِي فَوَائِدِ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ	٣٧١
فصل فِي الْقَوْلِ فِي عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ	٣٧٢
الباب الثاني من القسم الثالث فِيمَا يَخْتَصُّهُمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيُظَرَأُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ	٣٧٦

- ٣٧٨ فصل في الرَّدِّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي حَدِيثِ السُّخْرِ
- ٣٨٠ فصل في أَحْوَالِهِ ﷺ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا
- ٣٨١ فصل في مَا يُعْتَقَدُ فِي أُمُورِ أَحْكَامِ الْبَشَرِ الْجَارِيَةِ عَلَى يَدَيْهِ ﷺ وَقَضَايَاهُمْ
- فصل في أَقْوَالِهِ ﷺ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ إَخْبَارِهِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ غَيْرِهِ، وَمَا
- ٣٨٢ فَعَلَهُ، أَوْ يَفْعَلُهُ
- فصل فِي شَرْحِ حَدِيثِ الْوَصِيَّةِ فِي مَرَضِهِ ﷺ
- ٣٨٥ فصل فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذِنَتْهُ أَوْ سَبَّيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا كَفَّارَةً،
- وأَحَادِيثَ أُخَرَ
- ٣٨٨ فصل فِي أَنَّ عَامَّةَ أَفْعَالِهِ ﷺ سَدَادٌ وَصَوَابٌ، وَالرَّدُّ عَلَى بَعْضِ الشُّبُهَةِ
- ٣٩١ فصل فِي الْحِكْمَةِ فِي إِجْرَاءِ الْأَمْرَاضِ وَشِدَّتِهَا عَلَيْهِ ﷺ، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ
- ٣٩٥ الْقِسْمِ الرَّابِعِ فِي تَصَرُّفِهِ وَجُودِهِ الْأَحْكَامِ فِيمَنْ تَنَقَّضَ أَوْ سَبَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ٤٠١ الْبَابُ الْأَوَّلُ فِي بَيَانِ مَا هُوَ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَبٌّ، أَوْ تَقْصُرُ، مِنْ
- ٤٠٤ تَغْرِيفٍ أَوْ نَصٍّ
- فصل فِي الْحُجَّةِ فِي إِنْجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ أَوْ عَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٤٠٧ فصل فِي أَنْبَابِ عَفْوِهِ ﷺ عَنْ بَعْضِ مَنْ آذَاهُ
- ٤١١ فصل فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرَ قَاصِدٍ لِلْسَّبِّ وَالْإِزْرَاءِ وَلَا مُعْتَقِدٍ
- ٤١٦ لَهُ
- فصل فِي حُكْمِ مَنْ تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِدًا لِذَلِكَ
- ٤١٧ فصل فِي حُكْمِ مَنْ قَالَ كَلَامًا يَحْتَمِلُ السَّبَّ وَغَيْرَهُ
- ٤١٨ فصل فِي حُكْمِ مَنْ لَمْ يَقْصِدْ نَقْصًا، وَلَمْ يَذْكُرْ عَيْنًا وَلَا سَبًّا. بَلْ قَالَ قَوْلًا
- عَلَى مَقْصِدِ التَّرْفِيعِ لِنَفْسِهِ، أَوْ لْغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَعَدَمِ التَّوْقِيرِ
- ٤٢٠ لِنَبِيِّهِ، أَوْ عَلَى قَصْدِ الْهَزْلِ وَالتَّنْذِيرِ
- فصل فِي حُكْمِ الْقَائِلِ وَالْحَاكِي لِهَذَا الْكَلَامِ عَنْ غَيْرِهِ
- ٤٢٤ فصل فِي حُكْمِ ذِكْرِ مَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ يُخْتَلَفُ فِي جَوَازِهِ عَلَيْهِ،
- ٤٢٦ عَلَى طَرِيقِ الْمَذَاكِرَةِ وَالتَّعْلِيمِ
- فصل فِي الْأَدَبِ الْأَلَزِمِ عِنْدَ ذِكْرِ أَخْبَارِهِ ﷺ
- ٤٢٩

٤٣١	الباب الثاني في حُكْم سَائِهِ وَشَاتِيهِ وَمُتَّقَصِيهِ وَمُؤْذِيهِ وَعَقُوبِيهِ وَذَكَرِ اسْتِثْنَائِيهِ وَوَرَائِيهِ ...
٤٣٣	فصل في اسْتِثْنَاءِ الْمُزْتَدِّ
٤٣٥	فصل في حُكْم الْمُزْتَدِّ إِذَا اشْتَبَهَ ارْتِدَادُهُ
٤٣٦	فصل في حُكْم الذَّمِّ إِذَا صَرَّحَ بِسَبِّهِ ﷺ، أَوْ عَرَّضَ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِقَدْرِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ الرَّجْحِ الَّذِي كَفَّرَ بِهِ
٤٤٠	فصل في مِيزَاتِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ وَعَسَلِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ
٤٤٣	الباب الثالث في حُكْم مَنْ سَبَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ وَكُتُبَهُ وَآلَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ وَصَحْبَهُ
٤٤٤	فصل في حُكْم مَنْ أَضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَالْاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ الْمُفْضِي إِلَى الْهَوَى وَالْبِدْعَةِ
٤٤٦	فصل في تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِي إِكْفَارِ الْمُتَأَوِّلِينَ
٤٥٠	فصل في بَيَانِ مَا هُوَ مِنَ الْمَقَالَاتِ كُفْرٌ، وَمَا يُتَوَقَّفُ أَوْ يُخْتَلَفُ فِيهِ، وَمَا لَيْسَ بِكُفْرٍ
٤٥٨	فصل في حُكْم الذَّمِّ السَّابِّ لِلَّهِ تَعَالَى
٤٥٩	فصل في حُكْم الْمُفْتَرِيِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِادْعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ النَّافِيِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ أَوْ خَالِقَهُ
٤٦٠	فصل في حُكْم مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ الْقَوْلِ، وَشَحَفِ اللَّفْظِ، يَمُنُّ لَمْ يَضْبِطْ كَلَامَهُ، وَأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَقْتَضِي الاسْتِخْفَافَ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، وَجَلَالَةِ مَوْلَاهُ
٤٦٢	فصل في حُكْم مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيََاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَاسْتَحَفَّ بِهِمْ ...
٤٦٤	فصل في حُكْم مَنْ اسْتَحَفَّ بِالْقُرْآنِ، أَوْ الْمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهُمَا
٤٦٦	فصل وَسَبَّ آلِ بَيْتِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَنَقُّصُهُمْ حَرَامٌ مُلْعُونٌ فَاعِلُهُ
٤٧١	فهرس الأحاديث والآثار
٤٩٠	فهرس الأشعار
٤٩٣	فهرس الموضوعات